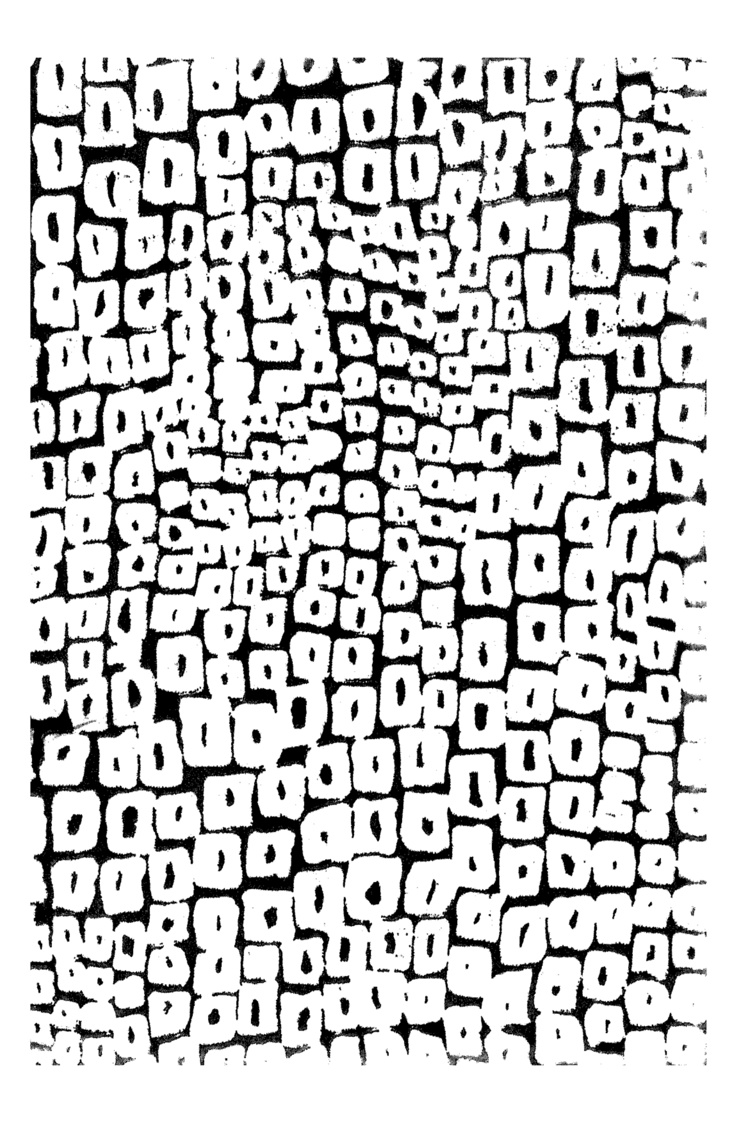
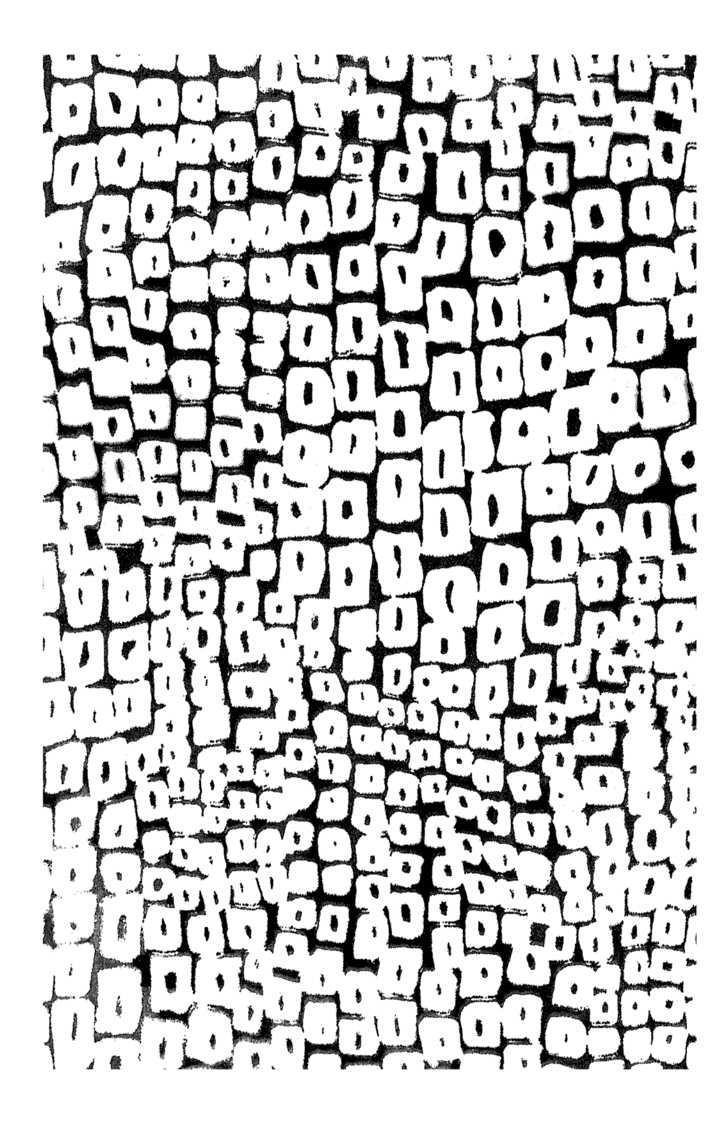






مجلة ديوجين
العدد التاسع والسبعون
نوفمبر ١٩٨٧/يناير ١٩٨٨

فى هذا العدد

المقالات المنشوره فى مجلة ديوجين التى تعبر بحرية عن أكثر الأفكار تنوعا واختلافا
لا يعتبر الناشر ولا هيئه التحرير مسئولين عنها بأى حال ·

التبادل الثقافى العكسى : موضوع أدبى

جانوس ريز

ترتبط عبارة « التيار الثقافى » ارتباطا وثيقا بتاريخ الاستعمار الأوربى ٠ يدلك على ذلك أن هذه العبارة لم تعن قط سوى اخضاع الثقافات الوطنية للحضارة الغربية بجميع أشكالها ، على الرغم من الجهود التى بذلت لاضفاء معنى محايد أو ايجابى على هذه العبارة ٠

وعندما أتحدث هنا عن « التبادل الثقافى العكسى » فاننى أقصد البحث فى الحالات التى انعكس فيها اتجاه هذا التبادل ، أى الحالات التى انبهر فيها الغربيون بالثقافات البدائية ، وتأثروا بها ٠ وعندما أتحدث عن حركة التبادل الثقافى نحو الأمام أو العكس ، فاننى لا أعنى بأى حال الاشارة الى سمو احدى الثقافتين على الأخرى ، وانما أعنى أن تأثر غير الأوربيين بالحضارة الغربية هو القاعدة ، وأن تأثر الغربيين بالثقافات البدائية هو الاستثناء ، كما يتضح ذلك من استقراء تاريخ الحضارة ٠ يضاف الى ذلك أننى سأقتصر على الاستشهاد بعدة أمثلة مستمدة من بداية الغزو الأسبانى فى القرن السادس عشر ، ومن الأدب الافريقى المكتوب باللغات الأوربية فى القرن العشرين ٠

١

لقد أظهر الأوربيون الذين كشفوا النقاب عن وجود الهنود الحمر فى العالم الجديد رغبة لا شعورية فى اخضاعهم لثقافتهم الغربية ٠ ويصف « تدروف » بحق مسلكهم هذا ازاء الشعوب الوطنية بأنه « ادماج ساذج » ٠ ذلك أن المستعمرين أرادوا أن يجعلوا من الهنود الحمر صورة منهم ، وأن يحملوهم على التشبه بهم فى كل شىء ٠ وتجلت مشاعرهم ، بطبيعة الحال ،

المترجم : أمين محمود الشريف

فى ميلهم الى حمل الهنود على مسايرة عاداتهم وتقاليدهم · ومنذ اللحظة الأولى اقترنت الرغبة فى التطوير الروحى بالغزو المادى ·

وترتبط الأمثلة الأولى للتبادل الثقافى — فى كلا الاتجاهين — بغزو « كورتيز » للمكسيك · ذلك أنه استعان فى أثناء زحفه على هذه البلاد بخدمة مترجمين **أولهما** امرأة هندية اسـمها مالنش ، كانت تتكلم اللغـة الأزتكية (نسبة للأزتك وهم أهل البلاد) والمايانية كما كانت تتكلم الأسبانية بطلاقة ، والثانى رجل أسبانى اسمه جيرونيمو دى أجويلار ، الذى نجا من سفينة غرقت تجاه سواحل المكسيك فى ١٥١١ ، وانتحل الثقافة واللغة المايانية (لغة شـائعة الاسـتعمال فى المكسيك وأمريكا الوسطى) · وكانت مالنش هى المثال الأول للمرأة الهندية التى جمعت بين الثقافتين الهندية والأسبانية . ولكن جيرونيمو دى أجويلار لم يلبث أن عاد الى أصله الأسبانى بمجرد أن أتيحت له الفرصة ·

ومن الأمثلة الأخرى التى تختلف عن ذلك تمـاما حالة الأسـبانى جنزالو جريرو ، الذى نجا من السـفينة الغارقة مع أجويلار ، ولكنه انغمس فى الثقافة المايانية من هامة رأسه الى أخمص قدمه الى حد أنه كره العودة الى أبناء وطنه · وبذلك كان أول مثل لما أسميناه « بالتبادل الثقافى العكسى » أى أول أوربى يتأثر بالثقافة البدائيـة · ويحكى لنا ديجو دى لاندا قصة هذا الرجل فيقول :

« منذ أن تعلم جريرو اللغة المحلية توجه الى بلدة شكتمال ، حيث استقبله أحد رؤساء الهنود المدعو ناشنكان فأسند اليه الاشراف على شؤون الحرب · وكان جريرو خبيرا بهذا الأمر حتى لقد أحرز انتصارات عديدة على أعداء سيده · وعلم جريرو الهنود الحمر فنون القتال ، وبناء الحصون والقلاع ، وتشبه بالهنود الحمر فى أسلوب حياتهم . فزوجوه امرأة هندية ذات مكانة عالية ، وأنجب منها بعض الأطفال · ولهذا السبب لم يحاول الهرب ، كما فعل زميله أجويلار ، بل على العكس طلا جسمه كما يفعل الهنود ، وأسدل شعره ، وثقب أذنيه ، وعلق فيهما قرطين ، كما يفعل الهنود الحمر · وربما عبد الأصنام كما يفعلون !

واندمج جريرو فى الثقافة الهندية أيما اندماج حتى لقد رفض العودة الى بنى وطنه · ويحكى لنا برنال دياز جواب جريرو عندما طلب اليه العودة الى دين آبائه ، قال :

« لقد جعلونى رئيسا ، بل قائدا فى وقت الحرب · اليك عنى ! اننى وشمت وجهى ، وثقبت أذنى ! ماذا يقول الأسبان عنى اذا رأونى على هذا الحال ؟ انظر الى أطفالى ، ما أجملهم ! » ·

وفى نظرى أن مثال « جريرو » بالغ الدلالة · وسأحاول أن أقتبس منه العناصر الجوهرية التى تساعد على تكوين اطار لتحليل أمثلة أخرى من النساء أو الرجال الذين عبروا الخط الفاصل بين ثقافتهم الأصلية وثقافتهم الجديدة ·

١ ــ أول هذه العناصر هو الصدفة المحضة : سفينة غرقت وألقت بركابها على الساحل · ومن هنا كان عبور هؤلاء الركاب الخط الفاصل بين الثقافتين هو وليد الصدفة المحضة ، لا وليد قرار اتخذ فى حرية تامة·

٢ ــ ثانى هذه العناصر توافر شرطين للاندماج فى الثقافة الجديدة أو المجتمع الجديد : **أولهما** توافر الرغبة لدى الأجنبى الوافد فى انتحال الثقافة الجديدة ، وفى مقدمتها اللغــة · **والثانى** اســتعداد المجتمع الذى يستقبل هذا الوافد الجديد لتقديم شىء ذى قيمة وذى أهمية يغريه بالبقاء فى المجتمع الجديد ، وذلك فى نظير المعرفة التى سوف يقدمها هذا الأجنبى ، وفى نظير الخدمة التى سيقدمها للمجتمع الجديد · وفى حالة بطلنا هذا نجد أن اسمه بالغ الدلالة ، لأن كلمة جريرو ، معناها المحارب ، أى أنه سيقدم للمجتمع الجديد معرفة فنون الحرب وسيمارس فن القتال وحمل السلاح ·

٣ ــ ومتى توافر هذان الشرطان (تعلم اللغة والفائدة الاجتماعية) فان الأجنبى يستطيع حينئذ أن ينغمر بالتدريج فى الثقافة التى تمنحه حق اللجوء اليها ، حيث يعيش كأحد الهنود · وظاهر أن الأمر يصل فى النهاية الى نقطة « اللاعودة » التى تتجلى فى عبارة « اليك عنى ! » حيث يصبح من العار أن يعود هذا الأجنبى الى قومه · تأمل قوله « ماذا يقول الأسبان عنى اذا رأونى على هذه الحال ؟ » · وقد تكون الأسباب الداعية الى ذلك اجتماعية الطابع (تبوؤ مكانة اجتماعية عالية فى المجتمع الجديد) سواء أكان هذا الطابع خاصا أم عاطفيا : (حب المرء لزوجه وحب الأطفال الذين هم ثمرة هذا الزواج) ·

٤ ــ واستكمالا لدائرة « التبادل التقافى العكسى » يبدو من المهم أن نفكر فيما عسى أن يحدث لو أتيحت الفرصة للاجىء يوما ما للعودة الى مجتمعه الأصلى ، وهذه لحظة مشحونة بالانفعالات الدرامية القوية · ترى متى تحين هذه اللحظة ؟ وأى قرار يتخذه الأوربى العائد ؟ وكيف يبرر هو هذا القرار ؟ وكيف يتم قبول هذا القرار من جانب الذين يخلفهم وراءه . والذين يعود اليهم ؟ وما هى نتائج هذا القرار ؟

هل ينبغى أن ننظر الى محاربة جريرو لبنى قومه الاســبان ، ام

مقتله فى النهاية وهم يحاربهم ، على أنها حادثة عارضة فى تاريخ الغزو الأسبانى ، أم ينبغى أن نعتبر هذه النهاية دليلا على صحة ما ذهبنا اليه من اندماج جريرو فى مجتمعه الجديد ؟ واذا أخذنا بهذا الاعتبار الأخير فهل ينبغى أن نعتبر هذه النهاية بمثابة ادانة مطلقة لجريرو من جانب مجتمعه الأصلى ، ونذيرا بالمصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه أن يلجأ الى مجتمع غير مجتمعه فى القرون القادمة ؟ وعلى كل حال فان هذه الحادثة لا تخلو من العبر والدروس لكلا الجانبين : ففيما يتعلق بالهنود الحمر فان الدرس المستفاد من هذا الحادث هو اعتقادهم أن الأسبان بشر ، وليسوا آلهة ، أعنى أنهم أناس قد يتفوقون عليهم فى بعض المجالات كفن الحرب ، أما فيما عدا ذلك فلا يختلفون عنهم ، فلهم من المشـاعر مثل ما لهم ، ولهم من الأحاسيس مثل ما لهم • وفيما يتعلق بالأسبان فان الدرس المستفاد من هذا الحادث هو أشد مرارة بلا شك اذا علمنا أن هذا الدرس يدعو الى نبذ ايديولوجية الاستعمار (عقيدة الاستعمار) • ذلك أن ثقافة المجتمع الآخر (البدائى) تبدو فجأة معادلة فى الأساس لثقافتنا نحن • صحيح أن الهنود كانوا أقل قوة من الأسبان من حيث فن الحرب ، ولكن الفرق لم يكن كبيرا ، اذ اسـتطاع الهنود أن يتعلموا هـذا الفن بسرعة • وأخيرا فان أوضاع المجتمع الهندى كانت ـ فيما يبدو ـ مماثلة لأوضاع المجتمع الأسبانى من كل الوجوه : فقد عرض جريرو خدماته على أحد رؤساء الهنود ، وتزوج امرأة ذات منزلة عالية ، ووصل الى درجة رئيس ، بل ترقى الى درجة قائد فى زمن الحرب ، وأنجب أطفالا من زوجته الهندية يمتازون بالجمال •

ويؤكد تدروف ، الذى نقلت عنه هذا المثال ، الطابع الاستثنائى لحالة جريرو حيث يقول :

« على الرغم من وجود أمثلة كثيرة لاندماج بعض الأشـخاص فى مجتمعات أخرى (مثل مالنش) فان مثال جريرو ليس له أهمية تاريخية أو سياسية كبيرة • ذلك أن غـيره لم يسر على مثاله ، أو ينسـج على منواله • ويتضح لنا اليوم أن مثل هذا الحادث ما كان يمكن أن يحدث لأنه لا يتفق بأى حال مع العلاقات الدولية السائدة » •

بيد أنى أرى أن مثال جريرو ، له أهمية تاريخية وسياسية كبيرة لم تتضح فى الواقع الا فيما بعد • ولذلك أرى أعمالا أخرى فى هـذه المرحلة الأولى من الاستعمار الأوربى يمكن القول بأنها تماثل هذا المثال المتطرف للتبادل الثقافى العكسى • وأنا أشير فى هذا الصدد الى ما أسماه تدروف « بالاندماجات الجزئية المحدودة » وأعنى بذلك المبشرين المسيحيين

الذين اندمجوا فى غمار المجتمع الهندى ، وتشبهوا بالهنود فى أسلوب حياتهم تشجيعا لهم على اعتناق المسيحية • وأخص بالذكر مبشرى طائفه الفرنسسكان الذين (كما قال تدروف) انتحلوا بسهولة أسلوب الحياة الهندية ، دون أن يتخلوا عن عقائدهم الدينية . وأهدافهم التبشيرية • والواقع أن أحد هذين الأمرين ساعد على تحقيق الآخر ، وأن هذه الحركة الأولية أدت الى اندماج الهنود بشكل أعمق ، بمعنى أن انتحال المبشرين لأسلوب الحياة الهندية شجع الهنود الحمر على استيعاب مبادىء الديانة المسيحية بصورة أعمق • ولكننى أخشى أن نكون هنا ضحية فكرة خاطئة مؤداها أن الغاية الجوهرية هى تنصير الهنود الحمر فى حين أن الثقافة المادية ليست سوى غاية ثانوية • وحينئذ يبدو أن الانتحال المؤقت لثقافة خارجية (بدائية) هو مجرد تكتيك وتنازل بسيط من أجل تنصير « الهنود » بصفة عميقة ونهائية •

ولأول مرة يبدو لنا بشكل أوضح موقف دييجو دى لاندا ، وهو راهب فرنسسكانى أيضا ، فقد أمر باحراق الكتب المايانية ، ثم عاد فألف كتبا جديدة عن الثقافة المايانية • ولكن هذا التناقض الظاهرى لا يلبث أن يزول كما قال تدروف عندما نلاحظ أن لاندا يرفض فى الظاهر أدنى اندماج فى غمار الهنود الحمر ويأمر ــ خلافا لذلك ــ بادماجهم فى الديانة المسيحية ، ولكنه فى الوقت نفسه يهتم بمعرفة كل شىء عن هؤلاء الهنود أى يهتم بدراسة ثقافتهم ! والسؤال الذى يطالعنا فى هذا المقام هو : هل يمكن الفصل بين السلطة والمعرفة ؟ أى هل يمكن تحقيق السيطرة على قوم دون معرفة ثقافتهم ؟ ألا ترى معى أن التصميم على معرفة القوم ودراسة ثقافتهم وانتحال أقوالهم يتضمن نوعا من الاندماج (بل التبادل الثقافى) فى هؤلاء القوم ؟ ألا ترى معى أننا حين نفعل ذلك انما نبرهن على الرغبة فى الاندماج فى غيرنا اندماجا تاما ، بحيث يصدق علينا قول الشاعر : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ؟!

٢

وهناك أمثلة أخرى تعزز هذه الفكرة فى الأدب المعاصر الذى يعالج تجربة مماثلة لتجربة الغزو الأسبانى ، على الرغم من حدوث هذه التجربة بعد ذلك الغزو بأربعة قرون ، وفى قارة أخرى • عندما أتحدث عن هذا الأدب فانما أشير الى الروايات التى ألفت منذ ١٩٥٠ حتى يومنا هذا ، تلك الروايات التى تتحدث عن المبشرين البيض الذين ظلوا أجيالا طوالا يحاولون تنصير الزنوج ، قبل أن يتبين لهم فى نهاية الامر أن جهودهم ذهبت

أدراج الرياح ، وأن كلماتهم وتعاليمهم اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ! ولم يستطيع هؤلاء المبشرون أن يغيروا أحدا عن دينه ، وكل الذى تغير هو المبشرون البيض أنفسهم ، الذين أصبحوا أشخاصا آخرين ترى : هل هذا اعتراف بالفشل الذريع ، أم هو التبادل الثقافى المعكوس ؟

أذكر فى هذا الصدد رواية بعنوان « لى بوفر كرست دى بومبا » (١٩٥٦) بقلم مونجوبتى ، ورواية اخرى بعنوان « آن سورسييه أزنجالى » (١٩٧٠) بقلم رينيه فيلومب : كلتا الروايتين تصف الكفاح الشرس والعقيم الذى شنه المبشرون البيض ضد الأخلاق الوثنية والعادات الوحشية ، أو الأخلاق والعادات التى رأوها كذلك ، ولكنها أثبتت فى النهاية أنها أقوى من مبادىء الدين المسيحى • وعلى أصحاب الغبطة الآباء المسيحيين أن يعترفوا بأنهم لم يصيبوا سوى قدر ضئيل من النجاح لقاء الجهود الكبيرة التى بذلوها ، مع العلم بأنهم لم يصيبوا هذا القدر الضئيل من النجاح الا بفضل القوة العسكرية والبوليسية التابعة للسلطة الاستعمارية • وفى وسع المرء أن يؤمن ـ بدون الاغراق فى التحليل النفسى العميق ـ أن كفاح هؤلاء المبشرين فى هاتين الروايتين الذى يؤلف سلسلة متصلة من الاضطهاد والمقاومة والعناء والرفض على مدى سنوات عديدة ، هو أيضا نوع من التبادل الثقافى العكسى حيث انه استحوذ على عقول هؤلاء المبشرين الى حد الهوس ، بحيث انتابتهم الهواجس ، واستبد بهم القلق ، كما هو واضح صراحة فى الروايات ، وحسبك أن تنظر الى الحرب الشعواء التى شنها الأب دروومونت ضد « الأمهات المسافحات » فى رواية « لى بوفر كرست » ، أو تدميره للآلات الموسيقية الافريقية • والفرق الأساسى الذى يميز مبشرى القرن العشرين عن المبشرين الأسبان فى القرن السادس عشر يكمن فى أن نواياهم المستترة أصبحت أكثر وضوحا فى عصرنا ، اذ أبرز الكتاب غير الأوربيين فى القرن العشرين تلك العناصر التى ظلت زمنا طويلا محجوبة وراء وراء ستار الايديولوجية الاستعمارية الرسمية • وعلى الرغم من أن القصص القديمة يجب أن تقرأ من بين السطور وأن تفهم غالبا بطريقة مضادة لنوايا كتابها الظاهرية . فان الكتاب الأفارقة المعاصرين مصممون على فضح الأكاذيب التى تنطوى عليها التصريحات والأقوال الأوربية الرسمية ، وعلى كتابة التاريخ على الوجه الصحيح •

وعلى الرغم من أن مقاومة الشعوب غير الأوربية للاندماج فى الحياة والثقافة الأوربية تزداد قوة باستمرار فان عددا كبيرا ومتزايدا من الفنانين والأدباء والمثقفين الغربيين قد استهوتهم الثقافات الأجنبية • ويمكن تحليل الأدب الافريقى المكتوب بالفرنسية فى القرن العشرين فى ضوء فكرة

التبادل الثقافى ، فى كلا الاتجاهين • وسأكتفى هنا بايراد نبذة موجزة من هذا الأدب فأقول :

فى وسعنا أن نجد أدبا يتولى الدعاية لاستعمار افريقيا (تهدئتها عسكريا وتنميتها اقتصاديا) • وهذه الدعاية تركز اهتمامها على الافريقى المثالى المندمج فى الثقافة الفرنسية قلبا وقالبا « ١٠٠٪ » • وعندما يتحقق هذا الاندماج (أو التبادل الثقافى) يصبح هذا الافريقى داعيا متعصبا للثقافة الفرنسية • وسأختار مثلا واحدا من بين العديد من الأمثلة ، وهو ما ورد فى رواية « مامادوكيت ـ السنغالى الحديث » (١٩٣٣) بقلم قائد سابق فى الجيش الاستعمارى هو « نويل مستراتشى » • وهذه هى قصة السنغالى الحديث التى يلخصها المؤلف نفسه فى مقدمة كتابه ، قال :

« نشأ مامادو نشأة اسلامية طبقا لتعاليم القرآن • ثم التحق باحدى المدارس الفرنسية ، برغم معارضة أبويه • وعندما عاد الى أسرته لم يستطع هذا الشاب الزنجى أن ينسجم مع عادات آبائه ، فانخرط فى سلك الجيش الفرنسى • وهنا شاهد الأساليب الفرنسية وتعلمها وحللها وانتهى به الأمر الى الاعتقاد بأن علماء الاسلام غير منصفين فى نقدهم للفرنسيين • ورسخ فى نفسه هذا الاعتقاد ، فقرر فى النهاية صرف النظر عن تعاليم هؤلاء العلماء • ولما استدعى مامادو لمواصلة الخدمة العسكرية فى فرنسا انبهر بما رآه فيها ، وانحاز بكليته الى الثقافة الفرنسية • ولما عاد الى بلاده بعد احالته للتقاعد انتهز كل فرصة للدفاع عن فرنسا بين مواطنيه » •

هنا نجد ثلاث خطوات للتبادل الثقافى كما يراه المستعمرون :

١ ـ انسلاخ المواطن من ثقافته القومية ، وحمله على الزراية بها والحط من قدرها ثم رفضها بالكلية •

٢ ـ صبغه بالثقافة الأجنبية •

٣ ـ تعصبه للثقافة الجديدة ، وترويجها والدعاية القوية لها •

ولكن يجب أن لا يغرب عن البال أننا نتحدث هنا عن السنغالى الحديث أى السنغالى المثالى فى نظر المستعمرين •

وقد تمسك الجيل الأول من الكتاب الأفارقة الذين ألفوا باللغة الفرنسية بهذا المثل الأعلى مع ابداء شىء من التحفظ على النموذج الثقافى الذى فرضه الاستعمار عليهم • ويمكن القول ان كتاب « فورس بونتى » بقلم بكارى ديالو (١٩٢٦) يغدق الثناء على فرنسا ، ويصفها بأنها دولة

محبه للخير · ولكن اذا قرأنا هذا الكتاب بامعان تبين لنا أن الحوادث التى يصفها لا يمكن أن تتفق مع هذا القول ·

أما الجيل الثانى من الكتاب الأفارقة فى هذا القرن ، والذى اتفق ظهوره تقريبا مع ظهور « حركة الزنوجة » (الحركة التى تولت الدفاع عن قضية الزنوج) فقد حاول قبل كل شىء الاعلاء من قدر الثقافة الافريقية ووصفها بأنها معادلة للحضارة الغربية ، بل ان الروايات المناهضة للاستعمار والصادرة فى العقد السادس تذهب أبعد من ذلك · ويمكن تصنيفها جميعا تحت عنوان « فشل التبادل الثقافى » · ولو أنك أمعنت النظر فى الروايات الثلاث التى ألفها الكاتب السنغالى عبد الله ساجى ، لتبين لك أن أبطال الروايات الثلاثة هجروا أوطانهم ، وتنكروا لجذورهم الافريقية ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا · وتفصيل ذلك أن نينى تلك المرأة الخلاسية (من أب أبيض وأم سوداء) حاولت أن تقلد البيض فى أسلوب حياتهم ، ففقدت شرفها ، ثم لقيت حتفها نتيجة ذلك · وأما مودو فطيم ، فقد هرب من قريته الى المدينة الكبيرة ، وقتل زوجته لأنها شوهت وجهه فى نوبة من نوبات الغيرة الجنونية · وأما الفتاة ميمونة ، فقد انبهرت بمفاتن مدينة داكار وأساليبها الأوربية . وفقدت شرفها أيضا ، وتشوه وجهها قبل أن تعود الى قريتها لتمارس الحياة الافريقية البسيطة بالقرب من أمها · هذا هو مصير الأبطال الثلاثة فى الروايات المذكورة · أما الغلام فى رواية « حياة غلام » (١٩٥٦) بقلم فردنادو أيونو فقد عمل عند البيض قبل أن يقع ضحية لهم · أما ميكا العجوز فى رواية « الزنجى العجوز والميدالية » (١٩٥٦) بقلم المؤلف نفسه فلم يتم شفاؤه مما أصابه الا بعد أن تخلى عن البيض . وعاد الى التمسك بقيم آبائه ·

ولو أنك أمعنت النظر فى الفكرة الرئيسية لهذه الروايات لألفيت أنها تبرز بوضوح عكس القيم السائدة فى الروايات التى استمدت وحيها من العصر الاستعمارى · وجدير بالذكر أن التمسك بالقيم الغربية يفضى فى معظم الحالات الى الهزيمة والمنية ، وأن العودة الى أفريقيا تبشر بالشفاء والنجاة ·

والرواية التى تذهب الى أبعد الحدود فى هذه العودة (فى مجال التبادل الثقافى العكسى) هى المسماة « رعاية ملك » (١٩٥٤) بقلم كمارا لاى ، وهى تصف تحول رجل أبيض الى العالم الزنجى · وتشبه هذه الرواية من بعض الوجوه ما سبق أن ذكرناه من الأمثلة الأولى للتبادل الثقافى العكسى فى عهد الغزو الأسبانى :

١ ـ ففى البداية تحدث كارثة خلاصتها أن البطل الأبيض فى الرواية واسمه كلارنس ، يفقد كل أمواله فى لعب القمار ولا يجرؤ بعد ذلك على الظهور بين غيره من البيض لأنه أصبح منبوذا بسبب ديونه ٠

٢ ـ ولكن هذا الرجل الأبيض يتوق الى تقديم خدماته للآخرين ويود أن يصبح خادما للملك ، ولكنهم يشترطون عليه قبل أن تقبل خدماته أن يقضى فترة طويلة لاعداده لتقبل مبادىء الثقافة الجديدة والاندماج فيها ٠ وفى أثناء هذه الفترة يستخدمه المجتمع الزنجى فى تحقيق أغراضه من حيث لا يدرى ٠

٣ ـ ثم يتم الاندماج الكلى فى هذه الثقافة والحياة الجديدة بالاتصال السرى مع الملك الشاب ٠ وهذا الاتصال هو الهدف النهائى لرحلة كلارنس الطويلة ٠

وفى هذه الرواية التى تدور حول مصير شخص واحد تذكرنا اجراءات الانتقال من ثقافة الى أخرى بالعلاقات المعقدة بين أوربا وافريقيا ٠ وتفصيل ذلك أن كلارنس لا يدرى كيف يسدد ديونه الى صاحب الفندق ـ وهو رجل من البيض ـ فيهيم على وجهه فى الشوارع دون أن يعرف أين يذهب ، ثم يذكر فجأة اتصاله الأول بقارة افريقيا :

« لماذا أردت أن أعبر بأى ثمن ذلك الحاجز الكبير من الزبد الهائج الذى يفصل الساحل الافريقى ؟ أما كان فى وسعى أن أبقى حيث أنا ؟ ولكن أبقى أين ؟ على ظهر السفينة ؟ ان السفن ليست سوى ملاجىء مؤقتة ! ثم قال فى نفسه : كان فى وسعى أن أقفز فى البحر ٠ ولكن أليس هذا بالضبط هو ما فعله ؟ لقد قفز فى البحر عندما وافق على لعب الورق على الرغم من أنه يمقت القمار !

بيد أن كلارنس لم يقفز فى البحر بالفعل بل سار فى الطريق الطويل . طريق الاندماج فى الحياة الافريقية ٠ وعلى امتداد هذا الطريق واجه باستمرار صعوبة فهم الحياة الجديدة (ص ٢٠ ، ص ٣٧) ، وكابد العناء (ص ٣٦) والخوف (ص ٣٩) وأعيد الى مكانه (ص ٨٧) وعوقب (ص ١٢٠) واضطر أن ينسى كل ما تعلمه فى ماضيه « الأبيض » (ص ٢٠) وأن يتعلم قيما جديدة مثل كرم الضيافة (ص ٥٧) وفكرة جديدة عن العدالة (ص ٨١ . ص ١٦٨ . ص ١٩١) ، وأصبح كالطفل يقوده أبواه فى شوارع ضواحى المدينة فى مساء يوم الأحد بعد عودته الى المنزل من جولة فى المدينة (ص ٩١) . وفى النهاية أصبح كلارنس رجلا آخر (ص ١٤٣) ولو أن أحدا كان يعرفه من قبل (فى حياته

الماضية) رآه وهو يدخن تحت الجسر ، ويشرب ، ويجلس القرفصاء كالزنوج ويلبس « البومبو » كالسود ، لما عرفه (ص ١٤٤) . ما هى حقيقة هذا التحول ؟ ان أهل أزيانا ... كانوا لا يبالون بالحياة كثيرا ، وكذلك كان كلارنس لا يبالى بالحياة (ص ١٥١) . وفى الوقت نفسه كان كلارنس يفهم كيف كان القوم يستعملونه طول الوقت دون أن يشعر . فتحت تأثير الروائح العطرية ، وفى ظلام الليل . لم يكن يدرك أنهم كانوا يستعملونه « فحلا » (أو تيسا مستعارا) لتلقيح كل الجوارى والسرارى فى جناح الحريم الملحق بالقصر الملكى فى مدينة نابا . وانتهى به الاندماج التام فى الحياة الزنجية الى الاتصال بالملك الشاب ، وهو اتصال يمكن أن يوصف بأنه « سرى » . وعندما ينتهى الاقتراب شيئا فشيئا على هذا النحو بالوصول الى الغاية المرجوة (سواء بدافع حب الاستطلاع أو بدافع الحب) فان التفاهم حينئذ يصبح مرادفا للمعايشة كحياة كلارنس تحت عباءة الملك .

هذا ولتطور تاريخ الأدب الزنجى الافريقى فى هذا القرن نظيره فى الأدب الأوربى ، ذلك التطور الذى تتبعنا مراحله من الاندماج فى الحضارة الأوربية الى اعادة تقدير الحضارة الافريقية الذى أدى الى استنكار هيمنة الثقافة الغربية . ذلك أن الايمان بتفوق الثقافة الغربية قد اهتز شيئا فشيئا . ويرجع هذا الاهتزاز فى هذا القرن أول ما يرجع الى ظهور الحركة البدائية القائلة بتفوق الحياة البدائية . ويقول جان كلود بلاشير فى تفسير هذه الحركة :

« انها تعنى الايمان بوجود أشكال أولية للثقافة ، وما يصاحب ذلك من الايمان بأن هذه الأشكال العتيقة يمكن أن تكون نموذجا يحتذى أو — على الأقل — تهىء حلولا للمشكلات التى تواجه المجتمعات الحديثة . ان الحركة البدائية القائلة بتفوق الحياة النظرية الأولية تدعو الى الايمان بماضى الانسان ، وتمثل تحديا فى وجه التقدم » اهـ .

وقد قام جان كلود بلاشير بدراسة خاصة لما أسماه « الزنجى النموذجى » . وانتهت به دراسته الى « الايمان » بفضائل الحضارات الزنجية ، وقدرتها على تقديم حلول للأزمة الروحية فى أوروبا » . وتدور دراسات بلاشير حول كبار أنصار الحركة البدائية الزنجية فى الأدب الفرنسى ، وهم جيوم أبولينير . وبليز سندرار ، وترستان تزارا . ولكن كان المثال الحاسم هو مثال بول جوجان فى المرحلة الأولى من هذه الحركة البدائية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . اذ نشرت فقرات مقتبسة من يومياته فى جزيرة تاهيتى فى سنة ١٨٩٧

فى « المجلة البيضاء » الشهيرة · وكما يقول بلاشير « ان استمرار وجود رسالة بول جوجوان يمثل بلا شك الحلقة المفقودة بين الحركة البدائية فى القرن الثامن عشر والحركة البدائية فى الثلاثين سنة الأولى فى هذا القرن» ·

والى جانب الفنانين والكتاب افتتن الاثنولوجيون (علماء الأجناس البشرية) والانثروبولوجيون (علماء الانسان) بسحر ما يسمى بالثقافات « البدائية » ، وكثيرا ما « عبر هؤلاء الخط » (الخط الفاصل بين ثقافتهم والثقافة الأخرى) · وسأكتفى بذكر أسماء فكتور سيجالين ، وبيير كلاسنر ، وكارلوس كاستنيدا ، وميشيل ليرى ، ومارسيل جريول وكولز ترنبال · وقد حاول كل هؤلاء تحليل تجاربهم ، وقدموا لنا صورة عكسية للعلاقات الاجتماعية العادية بين الشعوب المتحضرة والبدائية ، قالوا فيها :

« ان الرجال البيض من الأجانب والرواد لم يعودوا هم الشخصيات القوية التى تكتب التاريخ كما تشاء · انهم هم أطفال ، وطلبة ، وفقراء ، ومرضى مجتمع سخى قادر مضياف يرحب بهم ويعلمهم ، ويتعهدهم بالرعاية والعناية حتى يبرأوا من أمراض الحضارات العليا · والحق ان « المتوحشين » هم الشعب المتحضر الحقيقى » اهـ ·

وقد ألف الأديب الكوبى اليجو كاربنتير رواية بعنوان « لوس باسوس برديدوس » أوضح فيها بأسلوب أدبى جميل « عبور هذا الخط » · وتدور قصة هذه الرواية حول موسيقار من أمريكا الشمالية أوفدته جامعته الى الغابة العذراء فى فنزويلا للبحث عن « الآلات الموسيقية البدائية » · وكانت رحلته هذه رحلة كشف بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة · ذلك أن البطل ابتعد عن حياته السابقة ، وأخذ يتأمل لا فى القيود التى تثقل كاهل الفرد فقط بل أيضا فى القيود التى تحد من آفاق الحضارة والثقافة ، ثم ان رحلته كانت رحلة فى الزمن اذ أخذ يعود بذهنه الى أيام طفولته وشبابه ، كما أخذ يعود الى ينابيع الانسانية فى العصور السحيقة ·

وأخذ يقترب فى ارتياده من الطبيعة شيئا فشيئا ومن حالة الوجود الأولى ، فكان مثله كمثل الفلاح الذى عاد الى مزرعة أبيه بعد أن عاش عدة سنوات فى المدينة وأخذ يجهش بالبكاء عندما استنشق النسيم المفعم برائحة الروث · وكان يرافقه فى هذه الرحلة فى تلك الأرض المجهولة زوجته روزاريو وأدلنتادو ، الشخص الوحيد الذى يعرف كيف ينتقل بين العالمين : العالم الذى جاء منه والعالم الذى يتجول فيه ·

وكان الدرس الذى تعلمه شبيها بالدرس الذى تعلمه غيره من العديد من الرواد والمبشرين والباحثين . ويلخص هو هذا الدرس فى هـــذه الكلمات :

« يبدو لى أن الهنود ... فى بيئتهم هم السادة الكمل لثقافتهم . وهم أبعد ما يكون عن هذا الوصف السخيف الذى يوصـفون به وهو وصمهم بالوحشية . أما نحن المتحضرين فاننا نحن الدخلاء . والأجانب الجهلاء ، والغرباء الجدد ، الذين قدموا الى مدينة ولدت فى فجـر التاريخ (ص ٢٤) » اهـ .

والواقع أن الموسيقار المتجول رغب فى استيطان هذه المدينة « سانتا مونيكا دى لوس فينا دوس » التى أسسها أدولنتادو ، دون أى تفكير فى العودة ، لكى يتسنى له أن يتعلم من جديد كيف يعيش طبقا لنظام آخر من القيم .

ومع ذلك فانه ما كاد يخرج منتصرا من كل المحن التى اضطر أن يواجهها ليتسنى له الوصول الى هذا العالم الجديد (محنة المخاوف الليلية ، ومحنة الزوابع والأعاصير الاستوائية) حتى عاوده الحنين الى العودة . ولم يستطيع التغلب على ما تعوده من حب العمل ، فعاد مرة أخرى يتذكر حلما من أيام شبابه ، وهو اعداد لحن موسيقى لقصيدة الشاعر الانجليزى شيلى ، وعنوانها « بروميثيوس بعد أن تحرر من قيوده » . وهى القصيدة التى بدا له أنها تصور مستقبل حياته ، وتطابق المفهوم الجديد للموسيقى النابعة من هذه الحياة . ولكن ياله من تناقض ! فما كادت ملكات الابداع تتحرر فى النهاية حتى لم يجد ورقا يدون عليه اللحن الموسيقى ! وهكذا تجده الطائرة التى هبطت لانقاذه ، مستعدا للعودة الى العالم الذى ظن أنه طرحه وراء ظهره !

وهو يدرك السبب فى فشله . ذلك أن العوالم الجديدة يجب أن تجرب ، قبل أن تفسر . انه يعلم أن الانسان يستطيع أن يهرب من زمانه ، ولكنه يعلم أيضا أن الطائفة الوحيدة التى لا تستطيع أن تهرب من زمانهـا هى طائفة الفنانين المبدعين (ص ٣٧٠) . أليس اذن من الصحيح أنه يستحيل علينا ــ مادمنا جميعا نشارك فى ابداع الفن . فى هذا العالم ــ أن نهرب من زماننـا لكى نطرح وراء ظهـورنا قصتنا وتاريخنا ؟!

٣

وهكذا نصل الى المرحلة الثالثة من موضوعنا . وهى المرحلة التى أحب أن أضع لها عنوانا هو « تأهيل جمعة » • ولأكثر من قرنين ظلت قصة « روبنصن كروزو » التى ألفها الكاتب الانجليزى ديفو هى النموذج الأدبى الذى جسد على أحسن وجه أسطورة تفوق الثقافة الاوربية ، والذى كان فيه جمعة « المتوحش » هو هدف التبادل الثقافى ، فى دور خادم بالطبع • ولأكثر من عشرين عاما تعرض هذا النموذج لتعديلات عميقة الى حد انعكاس الأدوار ، فأصبح روبنصن كروزو هو الذى يتعلم من جمعة كيف يعيش حياة جديدة بالانسان • يتضح لنا هذا من الرواية التى ألفها ميشيل تورنييه بعنوان « جمعة » أو « لى لامب دى باسيفيك » ، كما يتضح أيضا فى المقال الذى ألفه الكاتب المذكور ليفسر هذه الرواية ، وفيه يتتبع تطور أسطورة روبنصن كروزو التى يرى فيها أحد العناصر الرئيسية فى التكوين الروحى للرجل الغربى • ولكنه يعترف فى الوقت نفسه بأنه مدين للاتنولوجيين والأنثروبولوجيين الذين بدونهم ما كان ليخطر بباله أن يتعلم روبنصن كروزو من جمعة • وقد حدد تورنييه موضوع روايته . وأوضح مختلف الصعوبات التى كابدها فى أثناء عملية التبادل الثقافى والانسلاخ الثقافى فى هذه الكلمات ، وهى :

« • • • • محو كل آثار الحضارة فى الانسان الخاضع لتجربة العزلة اللا انسانية الأليمة حتى يصبح كالصحيفة البيضاء ، ثم خلق عالم جديد على هذه الصحيفة عن طريق التجربة والخطأ والفحص والاختبار والاكتشاف والبراهين والانجذاب والافتتان • ويقوم جمعة بدور المرشد والقابلة فى ولادة هذا الانسان الجديد • وبهذا أريد أن تكون روايتى ابتداعية تتعلق بالمستقبل ، فى حين أن قصة ديفو تتعلق بالماضى ، وتقتصر على وصف استعادة الحضارة بأى وسيلة ممكنة » اهـ •

وبهذا تصبح اعادة اكتشاف ماضينا المشترك فى ضوء صورة منقحة ومعدلة من روبنصن كروزو وسيلة لتوجيه أسئلة عن مستقبل الانسانية • ولا شىء يمكن أن يضمن مستقبلنا المشترك سوى فهم أفضل لهذا الماضى من وجهة نظر الموقف الراهن فى العالم الحاضر •

ولكن اعادة تقويم العلاقة بين الغرب وبقية العالم فى الماضى ، لم تقتصر على الأدب ، بل لقد غزت السينما أيضا • ولو أنك قارنت بين النسخ الثلاث من فيلم « التمرد على النعمة » لرأيت أن بؤرة الاهتمام فى الفيلم قد تحولت . ففى نسخة ١٩٦٢ يتركز الاهتمام على مقاومة الطبقة

غير الانسانية فى ممارسة السلطة . أما الأمل فى حياة حرة خالية من القيود الاجتماعية فانه لا يظهر الا لماما . ولكن فى نسخة ١٩٨٤ تتجه بؤرة الاهتمام الى الأمل فى هذه الحياة الحرة . ذلك أن اللفتانتت كرستيان فلتشر (ميل جبسون) لم يعد يثور ضد كابتن بلاى (أنطونى هوبكنز) لأنه ينازعه فى السلطة ، وانما لأنه وقع فى غرام بنت رئيس تاهيتى . ولذلك يريد أن يبقى فى هذه الجزيرة ليجرب حياة جديدة . وطبقا لقواعد هذا النوع الأدبى تبدو هذه القصة الغرامية جميلة ، لأنهـا تدفعه الى « عبور الخط » . وهو أمر لا يقلل بأى حال من جمال عمله . وحتى فى هذه الصورة المخففة للتبادل الثقافى العكسى التى يقدمها لنا الفيلم يبدو واضحا أن آفاق معرفتنا بالعالم قد اتسعت ، وأن ايماننا الراسخ بتفوق حضارتنا قد اهتز كثيرا نتيجة لذلك : فاللاجىء الثقافى لم يعد مرتدا ، بل يبدو نموذجا سلوكيا يمكن تحقيقه .

وهكذا نصل الى نهاية رحلة عبرنا فيها أكثر من ثـلاثة قرون ، ورأينا فيها أن أوربا لم تقنع ببسط نفوذها الاستعمارى على بقية القارات ، بل عمدت الى فرض ثقافتها عليها ، وادماجها فى حضارتها ، وتجريدها من صفاتها الخاصة . ولكن هذه العملية دخلت مرحلتها الأخيرة لسببين :

أولهما : أن الشعوب غير الأوربية انتحلت أسلوب الحياة الغربية بخيرها وشرها . محاولة التكيف مع هذه الحياة ومسايرتها .

وثانيهما : أن الأوربيين المعاصرين سـاورتهم الشـكوك فى تفوق حضارتهم وثقافتهم . وفى هذا الصراع المريب أصبح انتصارأوربا على بقية العالم أمرا مشكوكا فيه .

وواضح أن الاختيار بين التبادل الثقافى ، والتبادل الثقافى العكسى فى غاية الصعوبة . ويتضح ذلك من قصة قصيرة بقلم الأديب الأرجنتينى جورج لويس بورجيس ألفها فى سنة ١٩٤٩ .

تبدأ هذه القصة بالجمع بين مصير شخصين يفصلهمـا من حيث الزمن أكثر من ألف سنة : أولهما محارب اسمه دركتلفت من عهد الغزوات البربرية فى ايطاليا خلال القرنين السادس والسابع الميلادى ، وثانيهما امرأة هندية شقراء (من أصل انجليزى) أسرها الهنود الحمر فى سهول الأرجنتين . وقد اقتبس بورجيس الشخصية الأولى من أشعار بنديتو جروتشى ، واقتبس الثانية من ذكريات جدته الانجليزية التى قصت عليه هذه الحكاية . وكان دركتلفت قد جاء مع غيره من المحاربين ليهدم مدينة

رافينا ، ولكنه فى النهاية تخلى عن رجاله ، ليموت حاملا سلاحه دفاعا عن هذه المدينة ، وأمر بأن تكتب على قبره هذه العبارة :

« لقد فارق أسرته المحبوبة ، وهام بنا حبا ، معتبرا أن رافينا هى وطنه الثانى » ٠

ذلك أن در كتلفت أنبهر بمنظر المدينـة ، وكان يعرف أنه سوف يعيش داخل جدرانها كما يعيش الكلب أو الطفل ، وأنه لن يستطيع أن يفهمها ، ولكنه كان يعرف أيضا أنها أسمى قدرا من آلهته هو !

وقصة هذا الرجل البربرى الذى بهرته الحضارة الرومانية تتفق تماما مع رؤيتنا التاريخية والشعرية لهذا العالم الذى نعيش فيه ٠

ومن ناحية أخرى فان مصـير المرأة الشقراء لا يتفق مع عاداتنـا وتقاليدنا ٠ ذلك أن هذه المرأة اختطفها الهنود الحمر وهى طفلة فى أثناء احدى الغارات ، وتزوجت أحد الرؤساء من الهنود الحمر وأنجبت منه طفلين ٠ وتحكى جدة المؤلف هذه القصة التى هيجت شجونها ، وقلبها يفيض بالشفقة والهلع على مصير هذه الفتاة ، وتقول :

« واعجبا ! فتاة انجليزية صـغيرة تقع فريسـة فى يدى هـؤلاء الوحوش ! ولكن هذه الفتاة لا ترفض فحسب العودة الى بلاد الحضارة ، بل تقول ــ وهذه هى قمة المأساة ــ انها وجدت السـعادة فى موقعها الجديد ، وانها تفضل العودة الى الصحراء ، لا الى أرض الحضارة » ! ٠

لا شك أننا بحاجة الى عبقرية الشعراء لكى ندرك العلاقة بين هاتين الحالتين اللتين تبعد احداهما عن الأخرى بعـد المشرقين : حالة المحـارب البربرى (غير الرومانى) الذى بهرته الحضارة الرومانية ، وحالة الفتاة الانجليزية الأسيرة التى وقعت فى أيدى المتوحشين ، ومع ذلك فان رغبة كامنة استحوذت على فؤاد هذين الشخصين ، رغبة أعمق من أن يدركها العقل ، رغبة انصاع لها كل منهما ، على الرغم من أنه يصعب عليهما أن يجدا لها مبررا ! لا شك أن هاتين القصتين هما قصـة واحـدة ، وأنهما ــ يا الهى ــ وجهان لعملة واحدة ٠

فكرة السلام وفكرة الانسانية

كلود لوفور *Cloude Lefort*

فى القول المعاصر يميل التأكيد على « القيمة المطلقة » للسلام لأن يحل محل المثل الأعلى للسلام العام الشامل الذى صيغ فيما مضى صياغة كاملة · هذه الصيغة ، ان لم يجانبنى الصواب ، تحمل دلالة مطلب جديد : كيف يتاتى الحفاظ على المهمة الفلسفية ، والرغبة فى وضع أساس لفكرة السلام التى لا تتعلق فقط باعتبارات ظرفية ـ مهما كانت الظروف ملحة قهرية ، لأنها تتوقف على معرفة الخطر الذى تهـدد به حرب عالمية جديدة شعوبا بأكملها ـ وذلك دون الالتجاء الى « اليوطوبيا » ، أى الوقوع فى الأوهام التى غذت مشروعات السلام الدائم ؟ ومع ذلك فثمة صعوبات يبديها لنا الفكر الحديث ، تتعلق بتعريف السلام على أنه قيمة مطلقة · وعلى ذلك يبدو لى من المستحسن أن أدرس بايجاز تعريف هذا السلام لأفتح لى طريقا فى هذا الموضوع ·

تنتمى فكرة القيمة فى مفهومها الفلسفى الى أسلوب حديث فى التفكير · وعبثا نحاول البحث عن أثر لهذه الفكرة فى الفلسفة قبل القرن الماضى · انها تتضمن الرجوع الى شخص ما ، يستمد من نفسه ، عندما لا يوجد كفيل خارجى ـ مبدأ التفرقة بين ما هو مرغوب وما ليس بمرغوب ، بين الطيب والردىء ، بين الصواب والخطأ ، بين الجميل والقبيح · لا شك أن هناك ما يغرينا بأن نكتشف فى مذهب كانط ، والتفرقة التى يقيمها بين العقل النظرى والادراك العملى ، المقدمات المنطقية لفكرة القيمة الحديثة · الا أنه يجب أيضا الاقرار بأن القيمة لا تجد هنا مكانها ، لأن « الشخص » عند كانط يجد فى ارادته نفسها علامة لأساس مطلق غير مشروط ، فى حين أن هذا الأساس يتوارى عن المعرفة · وبوجه عام فمادامت فكرة معيار لسلوك الانسان قد تأكدت ، بالرجوع الى الطبيعة ، أو العقل ، أو الاله ، فان فكرة القيمة لا يمكن أن تكتسب لها

المترجم : احمد رضا محمد رضا

معنى • نضيف أن هذه الفكرة هى أيضـا غريبة على فلسفات التاريخ ، سواء كانت من النمط الهيجلى (نسبة الى هيجل) أو الماركسى • وسواء صور التاريخ على أنه بلوغ الروح غايته من الكمال ، أو على أنه انجاز لدعوة الانسان الاجتماعية فى ختام سلسلة من المتناقضات التى تنشأ من التقنية المتطورة ، والانقسامات الطبقية ، ففى كلتا الحالتين تستبعد المعرفة ، باعتبارها معرفة منبثقة من عملية واقعية ، تملك مفتاحها ، تستبعد عسف الفرد « الأنا » • على أنه من الأجدر الاتجاه ناحية «نيتشه» لايضاح الاتجاه الجديد فى التفكير بعبارات القيمة ، لأن عمله يتضمن هدما منهاجيا لكل «معيار • ولما لم تكن غايتى اجراء بحث تاريخى عن فكرة القيمة فانى أكتفى بأن أبدى أن فكرة القيمة انتشرت فى القرن التاسع عشر ، وبقدر أوسع فى فلسفة القرن العشرين ، وفى العلوم الانسانية لكى تدعم من جهة مفهوما جديدا للوجود ، حيثما لا يستطيع مفهوم الوجود الا أن يبحث فى حدوده عن المعنى ، وعن اللغو ــ مفهوما يطلق عليه بعد اسم « الوجودية » ، ومن جهة أخرى نظرية فى النسبية التاريخية لرؤى العالم ، أطلق عليها فيما بعد اسم « المذهب التاريخى historicisme وثالثا نظرية تعدد الثقافات تعددا لا يتجزأ • ولا شك فى أن أحدا لم يستجب لهذا الايحاء الثلاثى ، الوجودى ، والتاريخى ، والاجتماعى بأفضل مما استجاب به ماكس فيبر ، ولو أن ثراء أبحاثه تدل على أنه استطاع فى بعض الأحيان الافلات منها • وقد بالغ فيبر فى مذهب النسبية بكل أشكاله ناسبا الى الفرد مرة بعد أخرى تعسف القيم(وبخاصة المؤرخ الذى يبنى موضوعه فى المعرفة اعتبارا من واقع لا شكل له « متفرقات بحتة ») ، والى كل عصر يشكل مجالا فريدا للفكر والعمل ، وكل ثقافة تستخلص من أساسها الرموز الناتجة من تجربة ما هو مرئى ، وما هو غير مرئى • وعلى ذلك تحمل دراساته دلالة الاهتمام الشديد بانكار كل معيار عام للخير والشر ، للحق والباطل ، وحتى الصحيح والكاذب • ولا تصح هذه التفرقة الا بشرط أن تكون تابعة لموضوع المعرفة الذى قلنا منذ هنيهة انه لا يمكن بناؤه الا تبعا لقيم « الشخص » • واذا كنت أعتقد أنه من الصواب الرجوع الى فيبر فذلك لأن هذا المفكر ، باعتباره انسانا ، ليس من دعـاة الحروب ، ويجد فى تنـوع القيم ــ التى يدعمهـا الناس ، والشعوب ، والثقافات ــ العلمية فى اندلاع حرب أبدية • وفى رأيه أن الانسانية ، والشعوب مقضى عليها بالتمزق ، لأنها حسب حملته المشهورة « مسرح لحرب لا تغتفر بين الآلهة » •

واذا استوضحنا الأعمال المعاصرة لبعض المؤرخين ، والخبراء فى علم الانسان ، تبين لنا أن النزعة المأسـاوية الكلية لدى فيبر قـد فقدت

جاذبيتها ، مع الأسف ، لصالح نزعة نسبية غامضة تستبعد التفكير فى كل من مبادئه ونتائجه فى الممارسة العملية • وبدا لى منذ وقت بعيد أنه غذى حارج الدوائر العلمية مقالا دارجا ، عاميا ، يعتبر أن كل رأى وكل معتقد وكل حكم جيد بشرط أن يثبت أن الذين يجهرون به يؤمنون بقيمته ايمانا صادقا • مقال يمكن تلخيصه فى شعار « لكل انسان قيمة » • كذلك فان احترام فكرة هوية الغير ، ونقد « مركزية الذات » ، و « النزعة العرقية المركزية » (وبخاصة النزعة الى رفع شأن القومية الأوربية) ، يمكن تبريرها بالكامل ، وبالتالى وضع مبدأ التسامح • يتبين كذلك أن ثمة نسبية مطلقة تضفى شرعية على كل ضروب الغش والتضليل ، وبالأدق ، على كل نظم القهر التى تتذرع بأخلاقيات تشيد بنقاء عرق من الأعراق أو كمال أمة أو اقامة مجتمع بلا طبقات ، ولذلك تهاجم الأفراد والجماعات التى يحكم بأن طبائعها لا تطابق النموذج الصحيح • ولا شك أنه من الضرورى دائما ، التذكير بأن التسامح يحده عدم التسامح العدوانى حيال الغير • ولا جدوى من انتقاد أشكال النظام الشمولى اذا اقتصر على التصريح بالتفضيل الواقعى لنظام من الحريات • ومعنى النسبية لا يمحو شيئا ، انما يعبر عن ضرورة عالمية • واعلان الأمم المتحدة لحقوق الانسان شاهد قوى لهذا الارتباط الأساسى الذى يصعب بالتأكيد بل يستحيل فكه بين هذا وذاك •

وعلى ذلك تبدو لى فكرة السلام بمثابة قيمة مطلقة تمس جوهر المسألة الفلسفية فى عصرنا الحاضر • ان كلمة « قيمة » هى بمثابة دلالة على استحالة الرجوع منذ الآن الى ضامن معترف به من الجميع ، وهو الطبيعة والعقل والاله والتاريخ ، انها دلالة على وضع تختلط فيه كل أشكال السمو • الا أنه اذا افترضت « قيمة السلام » على أنها مطلقة فانها تتطلب أساسا لا صلة له بأى تفسير نسبى • ولعل هذه هى المهمة التى يتولاها تفكيرنا ، أى التساؤل فى اتجاه هذا الأساس ، وتفحص العلامات التى تتيح لنا أن نستشفها دون أن نتخلص من وضعنا الحالى ، الوضع الذى يرغمنا بالذات على أن لا نعتمد على تأكيدات قديمة اصطدمت بشدة بالتجربة الواقعية •

ومع أنى أدرك تمام الادراك مدى تفاهة التوغلات السريعة فى النظريات التى ظهرت فى ماض بعيد ــ فلكى يتسنى اثبات أصالتها بحسن ابتعاث الجدل الفكرى الذى انبثقت منه هذه النظريات ، وكذا ، وبالأكثر ، استعراض آفاق العالم الذى ظهرت فيه ــ فانى أخاطر بأن أذكر أول كل شىء مؤلفا ، أعتقد أنه أول مؤلف شكل بعبارات علمانية وسياسية فكرة

السلام ، لا باعتبارها قيمه مطلقة ـ فهذه الفكرة لم يكن لها وقتئذ وجود ـ ولكن على أنها خير للبشر كافة : ذلك هو كتاب "monarchie de Dante" الملكية لدانتى • ففى عصر كانت فيه فلورنسا ، وايطاليا بوجه عام مسرحا لمعارك متواصلة بين أحزاب عديدة ، تكفل دانتى باثبات ضرورة اقامة سلام دائم عن طريق انشاء نظام ملكى عام ، هذا العمل كثيرا ما نسب الى جدل استطال عدة قرون بشـأن تقدير حقوق الأمبراطور والبابا فى نمتيـل السلطة الالهية فى المجال الزمنى (الدنيوى) • أراد دانتى أن يعبىء موارد علم اللاهوت والفلسفة اليونانية ، وبخاصة الأرسطاطالية لصالح ادعاءات الأمبراطور • ولا جدوى من أن نتناول بالتحليل هـذا الجدل والظروف التى كتب فيها دانتى مؤلفه هذا ، فهذا أمر لا يهمنا ، وما يهمنا هو محاولة ربط فكرة السلام بفكرة الانسانية ، وبالأحرى بفكرة ظهور الانسانية ، وتكشفها لمدارك الانسان ، انسانية تطورت من قبـل فى غضون تشتتها ، وجهل الانسان هويته تلك الهوية التى يعتبرها كل شعب من خصائصه •

دانتى مفكر ، يختلف نظرية سيطرة عالمية وفى الوقت نفسه يبرز فكرة انسانية واحدة عبر تعدد المنشآت الانسانية ، ويا لها من رابطه عجيبة بين حلم الأمبراطورية وبين اقامة مذهب انسانى ، لا شك أنها عجيبـة ، ولو كان عندى وقت كاف ، لأظهرت مدى ما حظى به مؤلف « الملكية » فيما بعد من نجاح ، وتأثيره الساحر فى نفوس شارل كنت فى أسبانيا ، وأليزابيث فى انجلترا ، وهنرى الثالث وهنرى الرابـع وفرنسوا الأول فى فرنسا ، وكيف تلاحق بوحى منه التصور الأمبريالى وفكرة الرسالة الملكية فى خدمة الجنس البشرى • ولننظر فيمـا هو جوهرى : الانسانية تدرك أنها كذلك حين تخضع لسلطة واحدة ، وسوف تفوز بما يصور بنيتها حين تسلم لها بنية مليكها ، مثلما تبدو صـورة الانسان فى المرآة وهى حجة دانتى ، ان لها بالتأكيد أساسا لاهوتيا ، صورة الانسان هى صورة الله ، فقد خلق الانسان شبيها به ، وليس فى ذلك ما يخالف فى الظاهر تعاليم الكتب المقدسة ، ولكن ما هو حقيقى بالنسبة للمخلوق الكامل الحقيقى أيضا فى رأى دانتى بالنسبة لكل الناس الخائفين فى الأرض الواسعة وعلى تعاقب الأجيال . ولنذكر فقرة موجزة ، فبعد أن ذكر ما سبق قوله « لنصنع الانسان على صورتنا ، وشبيها لنا » ، وبعد أن لاحظ أن « الكون كله سمة من الطيبة الالهية » ، يضيف الفيلسوف : «وعلى ذلك فالجنس البشرى سعيد وفى أحسن حال حين يكون شبيها بالله فى قدرته ، ولكن حين يكون الجنس البشرى أكثر اتحادا يكون أكثر شبها بالله ، لأن فى الله وحده تكون الطبيعة الوحدوية

الحقيقية ، ولذلك جاء فى الكتاب :(اسمع يا اسرائيل : ربك واحد) ٠ وعلى ذلك فالجنس البشرى واحد ، وبخاصة حين ينصهر كله فى بدن واحد ، الأمر الذى لا يمكن أن يكون الا اذا خضع كله لأمر واحد » ٠

ذكرنا أن بنية الملك تضفى على الانسانية صورة وحدتها . وتبرز هذه الصورة على أنها هى نفسها الممثل المرئى للاله ، وكما أبدى ايرنست كانتوروفتش تتجلى طرافة دانتى بأحسن ما تتجلى فى تعريف للانسان يجمع معيار الاحاطة والشمول بمعيار الامتداد والاتساع . فالانسان هو الفرد البشرى ، وهو النوع البشرى ، ولسنا نظن أن السيادة التى يتصورها دانتى تتضمن تماثل هذا النوع البشرى ، فهو يقر لكل بنية ـ بنية الفرد أو الأسرة أو البلدة أو المدينة أو المملكة ـ بخاصية تميزها . ويؤكد دانتى ـ مؤيد أرسطو ـ أن لكل بنية غايتها الخاصة بها ، مثلها مثل الابهام واليد والذراع والانسان بتمامه ، ولكنها كلها مهيأة لغاية نهائية شاملة : الجنس البشرى ٠

وتقترن فكرة البنية الروحية بفكرة البنية العضوية لتمثيل انسانية متوافقة مع ذاتها ، كاشفة عن الخبر الاسمى ، ألا وهو السلام ٠ ومع ذلك يبدو لنا التفسير الذى يقدمه دانتى عن تطور الانسانية حتى عصره جديرا بالاهتمام ، فالواقع أنه لا يعرض الملكية العالمية على أنها حل ينتظر اكتشافه أناس لعلهم أخطأوا اذ عاشوا من قبل وهم يجهلون بعضهم بعضا ويتقاتلون ، وانما يعرض تلك الملكية وهى تنبثق من سلسلة من المعارك ، تحكمها فى الظاهر رغبة الأقوى فى الغزو ، ولكن تقودها سرا العناية الالهية التى تكشف للناس وضعهم الأخير : الا وهو وحدتهم ٠ أما مؤرخ السلام فانه يستخلص هذه الوحدة من الحرب ، ففى ختام سلسلة من الحروب التى انتصر فيها على التوالى الأشوريون والمصريون والفرس والمقدونيون وأخيرا الرومان ، تكشفت بفضل الأخيرين فى عهد أغسطس صورة عالم يضم بالفعل كل الناس ، وصار فى الامكان نزول المسيح على الأرض ليتجسد الانسان كما هو ، ولنتوقف عند هذه الفكرة السريعة ، حيث تضطرب مداركنا حين نلمح الدلالات الأولى لمذهب هيجلى (نسبة للفيلسوف الألمانى هيجل ـ المترجم) وأود هنا أن أرفق تفسيرين بهذا المذهب :

أولا : الاستعارات التى يجريها دانتى من أرسطو (من « السياسة » و « الأخلاق » ، الى « نيكوماك ») تثبت انقطاع صلته بالفلسفة السياسية الكلاسيكية ، وهذه السياسة كما نعلم كانت متصلة بتخطيط تاريخ دورى ، ولم تهتم بتصور الظروف التى تقضى بتجنب الحروب ، وكانت تجهل وجود الجنس البشرى خارج حدود « المدينة » ، وكان هناك سمات

ثلاث تبدو مرتبطة بعضها ببعض ، ولا شك أن سجية الانسان كانت تعتبر وثيقة الصلة بطبيعة المدينة . غير أن فكرة الطبيعة نفسها كانت تتضمن تحديد بنية سياسية بعيدة عن سائر الأبنية ، وصورة الأجنبي تعد دواما صورة عدو محتمل أو فعلى ، والواقع أنه اذا تركنا جانبا دعاوى الفلاسفة ، نلاحظ أسلوب الحروب التى شنها الأثينيون ، لا ضد المغيرين من البرابرة ، وانما ضد مدن اغريقية مسالمة ، ومن ثم لا بد لنا من التسليم بأنهم لم يترددوا فى الادعاء بلا حياء بحق الأقوى ، دون أن يخافوا استهجان الشعوب ، وقد ترك لنا ثوسيبويدس مثالا رائعا لسلوكهم حين وصف غزو ميلوس ، أما دانتى فانه بالعكس ينشىء فكرا يضع كل مجتمع سياسى فى آفاق انسانية ناشئة ، وفى الوقت نفسه يجعل من البحث عن السلام هدفا أسمى .

وثانيا : فان العلاقة التى يقيمها بين الملكية الأمبريالية وبين السلام — مهما كان تصوره لعالم متنوع ولكنه قادر على أن يعرف ذاته فى الزمان والمكان — هذه العلاقة تكشف عن مدى خطورة الضمان الذى يمكن أن يزوده الانسان لمطامح دولة عظمى ، حين يستهدف المشروع عالما تخلص من كل عداوة .

ان من يتأمل الجهود التى بذلها منذ القرن السادس عشر فقهاء عظام لتعريف قانون للشعوب ، يميل الى الحكم بأن نظرية دانتى قد قضى عليها ظهور الدول القومية ، غير أنه ربما لا يكون هذا صحيحا كل الصحة ، ذلك أن تلك الجهود ما زالت تشهد باهتمام انسانى وارادة لتصور وانشاء روابط متناســقة بين المجتمعات السياسية ، ثم اننى سبق أن أشرت الى هذه الظاهرة ، فالدول الأوربية الجديدة لا تكتفى بأن تستند الى نظرية خاصة بالسيادة ، بمقتضاها يدعى الأمير الذى لا يعلو عليه أى انسان أنه أمبراطور فى مملكته ، هذا الأمير الذى يدعى أنه يمثل بسلطته الزمنية الاله ، ويحكم فى « أرض مقدسة » ، ويقود « شــعبا مختارا » (أنظر الدراسات البديعة لجوزيف سترايير Joseph Strayer ، هذا الأمير تدفعه رغبة فى بسط سلطانه الى آخر حدود العالم ، انها رغبة قد تغير طبيعة الحرب ، وتلغى الحدود التى كانت تحتويها فى عصر الاقطاع . ويتبدى دون شك بوضوح وحى الأعمال القانونية فى فكرة أن روح الحرب لا يجوز أن تكون بعيدة عن روح الســلام ، وأنه بممارسة احداها يجب الاحتفاظ بفرض العودة الى الثانية . ان أعمال جروشيوس ، ويوفندورف ، وبورلاماكى . وفاتيل لا تحمل فقط طابع الواقعية ، أى أنها أسلوب من الاستدلال يعتبر الحرب حقيقة واقعة ، ويميل الى اخضاعها لحد أدنى من القواعد . هذه الأعمال تقرر أنه لا يجوز أن تهدم الحرب فرص السلام .

وأن الدول المتحاربة يجب أن تعرف وهي في حومة الوغى أنها سوف تعترف مستقبلا باستقلال كل منها كما كانت تعترف بذلك من قبل ، هذا اذن تنازل عن المثل الأعلى للسلام الدائم ، ولكن بسبب الرغبة فى منع الحرب المستديمة ، وسوف تتاح لى بعد قليل فرصة العودة الى هذه النقطة ، فالعرف القانونى الكبير يتولى مهمة سن تشريع ضرورى للحروب • على أنه يتبدى فى أصل هذا المشروع شعور بصالح مشترك ، مختلف عن صالح الدول ، بقى أن فكرة هذا الصالح المشترك ، عند الاقرار بسيادة الدولة ، لا يمكن أن تصير ركيزة لعمل قانونى متين ، ويبدو أن النظرية التى تنشىء السيادة تمنع ذلك ، فالواقع أن تلك التفرقة بين حالة الطبيعة ــ وفيها يعيش الناس فى اضطراب دائم ــ وبين الحالة المدنية ــ وفيها وبواسطة عقد مع واحد منهم ، أو عقد ثنائى للوحدة والخضوع ، يتولى الحكم ملك ــ أقول ان هذه التفرقة تبدو فيها الدولة بوجهين : حائلة أو كفيلة بتنفيذ القانون حيال أعضائها • وتتمتع بالاستقلال الطبيعى حيال الدول الأخرى ، ترى اذن ما هى الدرجة التشريعية العليا التى يمكن أن تخضع لها الدولة ، وأية حدود قانونية يمكن أن تصطدم بها ارادتها فى الحرب اذا كانت تتمتع بالسيادة ، وكيف لا يتسنى لها أن تملك السيادة اذا كانت السيادة تتوافق مع تكوين الحالة المدنية ورعايتها ؟

ان استبدال المثل الأعلى للسلام بقانون الحرب مر لا يصير واقعيا الا اذا نسينا أن الدول تمتثل لأهوائها ومصالحها وحدها وأنها لا تشعر بضرورة الامتثال لأية قاعدة تتعارض مع مصالحها . هذا هو على وجه التقريب ما يقوله روسو ، وفكرته عن السلام (التى عززها مشروع السلام الدائم الذى وصفه برناردن دوسان بيير) يوجهها تصور لحالة الطبيعة التى يعارض بها معارضة جذرية نظرية هوبز ، وبعكس هذا الأخير ــ الذى يرى روسو أنه يضفى على الانسان الطبيعى سمات الانسان الذى يصوغه المجتمع الحالى ، ويتخيل حربا تشنه الكافة ضد الكافة ــ ينكر روسو أن فى وسع الانسان الطبيعى أن يجد فى ظروفه باعثا يحمله على هلاك أقرانه وحتى بافتراض قيام نزاع بين انسان وجاره ، لتنافسهما فى ملاحقة غرض واحد ، وكذا بافتراض أن احدهما قد قتل ، فان العراك يتوقف بمجرد زوال السبب ، وهكذا يصرح الفيلسوف بأنه « ليس هناك بالمرة حرب بين الناس ، فلا حرب الا بين الدول » ، وبالعكس فانه يلاحظ تعاسة عالم ، حرم الناس فيه من الاستقلال ، بينما حظيت الدول فيه بالاستقلال ، « عالم يعتصم بهذه الهيئات الضخمة التى تستسلم لنزواتها ، فينعرض لصدمات تزداد شدة كلما تغلبت جموعها على الأفراد » ، ولما كان مهتما هو نفسه بالواقعية . فانه سجل استقلال الدول استقلالا طبيعيا ، وقرر

أن الدول هى وحدها القادرة على أن تضع حدا لحالة الحرب ، واذ يصرف النظر عن المحاولات التى يبذلها رجال القانون لدعم قانون للشعوب لا يقيد الملوك الا اذا وافقوا عليه ، فان حجته تستند بالعكس على ادراك هؤلاء المتنافسين للخطر الكامن وراء استحالة وضع حد للحرب ، وفى مقابل الوهم يوضع قانون للحرب ، يعرض صورة هاوية سحيقة : ذلك أنه اذا لم يكن الأمن مكفولا بالمرة ولم يكن الغزو مضمونا فى عالم يرى فيه كل انسان عدوا يظهر أمامه دائما ، فان الأمراء محكوم عليهم بأن ينفقوا أموالا لا حدود لها على الوسائل المادية والطاقات البشرية ، وكان فى وسعهم استقلالها فى وجهة أخرى والتحكم فيها من أجل سعادة دائمة ٠

ومهما كانت السذاجة التى تبدو لنا شائعة فى مشروع اتحاد دولى ينبثق من اتفاق فجائى بالتخلى عن سياسة القوة ، فان المسائل التى طرحها روسو لم تفقد شيئا من حداثتها ، لماذا يكون فى محاولة ادخال القانون فى الحرب فرصة ما للنجاح اذا ظل احترام هذا القانون خاضعا لمشيئة الملوك ؟ نذكر فضلا عن ذلك أنه ختم كتاباته عن مشروع السلام الدائم « لبرناردن دوسان بيير » بجملة لا تبشر بأمل كبير : « الشىء الوحيد الذى نقترحه (على الملوك) هو قدر كاف من الحكمة لكى يروا ما هو صالح لهم ، وقدر كاف من الشجاعة ليفوزوا بحظ من النجاح والسعادة ، فاذا بقى هذا المشروع رغم كل ذلك دون تنفيذ ، فليس ذلك اذن لأنه مشروع وهمى مستحيل ، اذ أن الناس حمقى ومن الجنون أن يكون الانسان عاقلا وسط مجانين » ، نقول أكثر من ذلك : ان حجة روسو يمكن أن تبدو فى زمنه أكثر غرابة مما قد نراه فى وقتنا الحاضر ، والواقع أنه يوجد فى صميم استدلاله افتراض ابادة مشتركة لزعماء الحركة ، والموضوع يتعلق باحتمال منطقى ، الا أن حالة التطور التقنى لوسائل التدمير لا تسمح أبدا بالتحول الى احتمال واقعى ، والظروف الحاضرة تعطى لتفكيره حجة لم يكن معاصروه يتوقعونها ٠

وعلى أية حال ، وبالاشارة الى ما ذكرناه عن دانتى ، ينبغى التسليم بأن الصلة القائمة بين فكرة السلام وفكرة الانسانية تكتسب هنا معنى جديدا ، وتبعا للتفكير فى الانسانية وانتقالها من حالة الطبيعة الى حالة الحضارة يتسنى قياس جنون الحرب ، والفرصة المتاحة لتجنبها ، ومع ذلك لا يهمل روسو فكرة أن الانسانية المتمدنة يمكن أن تتحقق فى بنية سياسية ، يشكل أعضاؤها هيئات صغيرة عبر الزمان والمكان ، ويستبعد صورة اندماجهم فى بنية واحدة ، ويبقى تعدد الدول ، ولا يتضمن ترابطها خضوعها لقانون سام ، ولكننى أجرؤ على القول بأنها تقتصر على استبطان تأثيرات الضرورة الطبيعية التى تتحول الى ارادة

الاعتراف المتبادل بينهما · ويضاف الى عملية التطور الحضارى عملية تهذيب انشائى ، ليست من قبيل الاندماج ، وانما هى بالأحرى من قبيل التسويغ العقلى ·

وتبعا لالهام مشابه يبدو لنا « مشروع السلام الدائم » الذى كتبه كانط أنه يسجل تقدما نظريا كبيرا · ولا شك أنه من المستحيل فى نطاق مقال صغير محاولة تحليل هذا الكتاب ، ولنقنع بتقديم بعض الملاحظات المفيدة لموضوعنا :

الملاحظة الأولى : يصوغ كانط ، طبقا للعرف القانونى ست مواد تعين الحدود التى يجب أن تمارس الحرب فى نطاقها · تقول المادة السادسة « يجب أن يبقى أثناء الحرب شىء من الثقة فى حالة العدو الذهنية ، والا فانه لا يمكن عقد أى صلح ، وتنتهى الخلافات بحرب ابادة » · ثم اذ هو يرى أن « الحرب ليست الا وسيلة تفرضها مطـالب الطبيعة (حيثما لا توجد محكمة قضائية تفصل بقوة القانون) من أجل الدفاع عن الحق بالقوة » ، فانه يضيف باختصار أنه لا يمكن اعتبار أى طرف « بمثابة عدو ظالم » وأن « القيمة هى التى تقرر الجانب الذى يملك الحق » · هذا تصريح يستحق التنويه به لأنه يناقض الصورة الشائعة لكاتب أخلاقى سياسى · ويعود أخيرا من ذلك الى اعلان ما فى حرب الابادة من خطورة ، بحجة أنه ليس فى مقدور أى زعيم أن يشغل المركز القانونى الأعلى بالنسبة لزعيم آخر ، ومن ثم يتسنى له أن يشن حربا تأديبية ، « ويترتب على ذلك : أن حرب ابادة يصيب فيها الدمار كلا من الطرفين فى وقت واحد . وفى الوقت نفسه تهدم كل حق ، لا تتيح اقامة سلام دائم الا فى المقبرة الكبرى ، مقبرة الجنس البشرى » · والشىء الغريب المتناقض أن حالة الطبيعة تزود كانط بشرط مراعاتها . ضمانا لحالة حرب متزنة ، واسوأ شىء فى نظره أن يتصور المحارب نفسه حائز لحق يعلو على النزاع ·

الملاحظة الثانية : بعد أن صرح كانط بأن الحالة القانونية . وهى غير موجودة فى الطبيعة ومن ثم يتعين انشاؤها . فانه يتولى فى القسم الثانى اثبات أن النظام الجمهورى ــ ويعنى به النظام النيابى ــ هو الوحيد الذى يمكن أن يقام عليه سلام دائم ، والواقع أنه الوحيد الذى يستجيب « لمبادىء الحرية التى تخص أعضاء مجتمع باعتبارهم أفرادا من البشر » ــ مبادىء تكفل تبعية الكافة لتشريع واحد ــ وهو وحده المشتق من فكرة العقد الأولى الذى ينبنى عليه كل تشريع قانونى . والواقع أنه فى مثل هذا النظام لا يصدر القرار باعلان الحرب عن مشيئة الأمير التعسفية ، ولكنه يتطلب موافقة المواطنين الذين يتضح أن فى مقدورهم . وهم خبيرون

بأحوالهم ، أن يقدروا المصائب التى سوف يعانون منها ، وهذه نقطة تستحق أن نتوقف عندها ، فالبرغم من أن التاريخ ينبئنا بأن شعوبا خاضعة لمثل هذا النظام قد وافقت فى ظروف عديدة على شن الحرب وأظهرت بذلك أنها تجهل أسبابها ومخاطرها ، وكذا عواقبها ، فانه يبدو لنا أن رأى كانط يزداد رسوخا فى الأذهان ، واذا كانت قوة الرأى العام ـ الذى يستنير بحرية الاعلام وتداعى الأفكار ـ غير كافية وحدها لضمان ارادة السلام عند دولة ، فلا شك فى أن غياب الرأى العام واحتكار السلطة لاصدار القرار (كما نتبين فى النظم الدكتاتورية ، والشمولية بكل أنواعها) يشكل تهديدا خطيرا لحالة السلام ٠

الملاحظة الثالثة : أن الغرابة الكبرى فى نظرية كانط تكمن دون شك فى التمييز والارتباط بين تصويرين للسلام : تصور أنه فكرة عقلية ، وأنه نتاج غائية الطبيعة ، ويؤكد كانط من جهة (القسم الثانى ، المادة الثانية) أن « الحكمة العليا عند رأس الدولة حكمه تشريعية أخلاقية سامية ، تدين الحرب على الاطلاق » ، ومن جهة أخرى (ملحق رقم ١) أن ضمان السلام الدائم يوجد فى الطبيعة « العامل الكبير الذى يخرج الوفاق من قلب النزاع المتفشى بين الناس ورغم ارادتهم » ٠ هذا التصور للطبيعة الذى يستخدمه كانط . كما يقول لنا ليتجنب فكرة العناية الالهية ، بحثنا على أن نرى أنه يعلن عن فكرة « التاريخ » كما يفهمها هيجل ، وبالاصح أن نفكر أن نظريته الخاصة بالغائية الطبيعية تعلن عن نظرية « حيلة العقل » ، وأقول وأنا أبتعد عن تفاصيل المحاجة ان اقامة السلام تبدو كنتيجة لانتشار الناس على وجه الأرض ، وتكوين شبكة من الصلات بينهم ـ وهى صلات مشروعة نوعا ما ـ تشهد بضرورة معيشة الناس معا فى وفاق ، ويصرح كانط فى هذا المعنى بأنه : « لما كانت الطبيعة قد دبرت الأمور بحيث يعيش الناس فى كل بقاع الأرض فانها أرادت أيضا ، بشىء من الاستبداد ، أن يعيش الناس فى كل مكان ، حتى دون أن يفترض هذا الالزام فكرة ما يجب عليهم بمقتضى قانون أخلاقى ، ولكنها اختارت الحرب لبلوغ هذه الغاية » ٠ ومهما كانت التحفظات التى أبدتها هذه النظرية عن الطبيعة ، نلاحظ أنها تؤيد مطلبا كان روسو يجهله ، ذلك أن روسو يرجع مسألة السلام الى معطيات ثابتة ، بعد أن يتم الخروج من حالة الطبيعة ، وهذه مشكلة لا تبدو قابلة للحل الا بقرار معقول يصدر عن الملوك الذين يهتمون دائما بتجنب جنوب انعدام الأمن ، أما كانط فانه على العكس يصف العملية التى يتأتى للجنس البشرى أن يتعرف بذاته على أنه بشر بحلم الواقع ، فى حيز واقعى وحيد وهو الأرض . ينصل بالتدريج بعضه

ببعض فى كل بقاع الأرض ، وهذه الحركة الطبيعية التى تجرى بغير علم الأفراد تتجلى لناظره أول كل شيء مكونة لمجتمعات سياسيه ، وثانيا ، منتشئة لعلاقاتها فى الحرب ، وأخيرا مكونة لأسلوب فى المعيشة الدنيوية أو اذا شئنا « لمعيشة مشتركة » تحت شارة السلام فى جوار كل مجتمع ، ومع الفارق بين مجتمع وآخر ۰ والحركة ، وهى طبيعية ، تتطلب عند كل مرحلة أن تنعكس فى شكل قانون : قانون مدنى يصاحب تشكيل وحدات سياسية ، وقانون الشعوب الذى يلازم الحروب ، وأخيرا قانون عالمى ۰ ولنوضح أخيرا التفرقة المشكلة بصورة قوية بين ما هو من النسق الطبيعى ، وما هو من النهج الأخلاقى : « حين أقول عن الطبيعة انها تريد أن يحدث شيء أو آخر ، فذلك لا يعنى أنها تفرض على واجبا أن أفعل ذلك (وهذا ليس ممكنا فى الواقع الا مع العقل العملى المتحرر من كل اكراه) ، ولكنها تؤدى هذا الشيء بنفسها ، سواء أردنا ذلك أم لم نرده ۰ (الملحق الأول للجزء الثانى) ، هذا الكلام يستدعى تفسيرا جديدا ففكرة السلام ، تبعا لرأى كانط حيثما تستحق أن ترتبط بمشروع عملى ، لا يمكن أن ترسخ فى مقتضيات « الأنا » المطلقة ، ولكنها تتطلب أن تقوم على تفسير علامات تدل على مستقبل الجنس البشرى ، أو بالأحرى على ارتقاء الانسانية نفسهـا ۰

ولنخط خطوة أخرى لاستخلاص مدى فكرة كانط فى كتابه « مشروع السلام الدائم » ، فمع أن العديد من الشراح أكدوا بحق تأثر كانط بتقاليد رجال القانون الكبيرة ، فانه يبدو لنا أن الفيلسوف قد تخلص من هذه التقاليد فى الكتيب الذى نتصدى له ، ويتجلى هذا فى فكرة القانون العالمى ، فهذا القانون انبثق فى وضع تكون فيه الأرض كلها آهلة بالناس ، ولما كان هذا الأمر معروفا فان الأرض تبدو للناس بمثابة سكن مشترك أو ملك مشترك لهم ، « المسألة هنا لا تتعلق بحب البشر ، وانما بالحق ، فالضيافة تعنى اذن حق الأجنبى عند وصوله فى اقليم الغير فى الا يعامل على أنه عدو » ، ما هو اذن هذا الحق ؟ « هو الحق الذى يملكه كل انسان فى أن يكون عضوا فى المجتمع بمقتضى قانون الملكية المشتركة لسطح الأرض ، ولا يمكن أن يتشتت الناس الى ما لا نهاية على وجه الأرض لأن الأرض كروية ، من الواجب عليهم اذن كجيران أن يحتمل بعضهم بعضا ، ولا يحق لأحدهم أساسا أن يكون موجودا فى بقعة من الأرض بدلا من أية بقعة أخرى » ، واذ يهاجم عندئذ سلوك الدول المتحضرة حيال الشعوب الأجنبية « التى تزورها » ــ ويبين أنها تخلط بين الزيارة وبين الغزو ــ أى أنه يهاجم الاستعمار ، فانه يختتم الفصل على هذا النحو : « وعلى ذلك ، فلما كانت العلاقات (الوثيقة ، أو الوسيعة)

السائدة فيما بعد ويوجه عام بين شعوب الأرض بحيث أن أى انتهاك للحق فى بقعة ما يشعر به الناس فى كل البقاع فان ذلك يستتبع أن فكرة قانون عالمى لا تبدو وهمية مبالغا فيها وانما هو قانون غير مكتوب ، سواء كان من القانون العام أو من قانون الشعوب ، لتحقيق القانون العام للجنس البشرى كافة وبالتالى السلام الدائم الذى لا يأمل أحد فى الدنو دائما منه الا بهذا الشرط » .

ولا يتصور كانط ، (أو هيجل) أن السلام يمكن أن ينتج من اندماج الدول ، ويصرح ــ ربما وهو يتذكر دانتى ــ أن فكرة الملكية العالمية فكرة خطرة للغاية : « مع اتساع سلطة الحكومة تفقد القوانين مزيدا من قوتها ، وبعد اقتلاع جذور الخير يكون طغيان شديد ينتهى الى الفوضى » (القسم الثانى ، الملحق الأول) ، وفى حين لا يجد هيجل كحد للسيادة المطلقة للدول سوى حقيقة واحدة هى « أن الدول تعترف بعضها ببعض ، وبذلك تقرر أنها تعيش بنفسها ولنفسها » (الجزء الأخير عليا ــ يميز قانونا عالميا مدونا فيما يمكن أن نسميه ألفة اجتماعية نامية من « فلسفة القانون ») فان كانط ــ وهو يستبعد فكرة سلطة تشريعية عليا ــ يميز قانونا عالميا مدونا فيما يمكن أن نسميه ألفة اجتماعية نامية فى النطاق العالمى ، وعلى هذا النحو لا يفتتح كانط طريقا يتعين دواما استكشافه ؟

حقيقة يلاحظ ريمون أرون أن الحرب العالمية الأولى سجلت تصدعا فى مفهوم القانون والسلام ، وينوه بأن العرف القانونى كله قد اتجه حتى ذلك الحين الى التصديق على مشروعية الحرب ، لا أن فكرة اعتبار الحرب خارجة على القانون تفرض نفسها منذ ذلك الحين ، ولم يكن هذا هو هدف كانط ، ويبدو لى مذهب هذا الحكم القانونى غريبا على مشروعه ، ونقد مؤلف « الحرب والسلام بين الأمم » لهذا المذهب لا يصيب ما فى « المشروع » من أهمية كبرى ، ويرى أرون بحق أن ميثاق بريان ــ كيلوج ، وانشاء عصبة الأمم أثبت أنه لاجدوى من اعتبار الحرب خارجة على القانون . فقد اصطدمت المحاولة بالحقائق الواقعة : احتفاظ الدول باستقلالها الطبيعى ، عدم قبول بعض الدول للوضع الراهن الذى كان المفروض أن يقوم الاتفاق على أساسه ، عجز السلطة الدولية عن استخدام وسائل الاكراه التى لم تكن فضلا عن ذلك تملكها لكى تجبر المخالفين على الاذعان ، أكثر من ذلك أنه تبين لنا أن ايديولوجيا السلام قد شلت الديموقراطيات ، وبخاصة فى فرنسا ، وثبت أن أعضاء عصبة الأمم عاجزون عن تطبيق العقوبات على هتلر وموسولينى حين شرعا فى خرق القانون الدولى ، وفيما يختص بفرنسا

فانها لم تجرؤ على سد الطريق فى وجه هتلر ، فى حين أنهـــا تملك قوة تفوق خصمها ، وأخيرا فان استسلام فرنسا وانجلترا فى ميونيخ جعل هتلر وأركان حربه على ثقة بأن انتصاراتهم لن تعترضها أية عقبات ، فاذا استندنا الى هذا التحليل ـ وهو مقنع فى ذاته ـ فانه يبـدو أن الدروس المستخلصة منه تؤكد نظرية أولئك الذين يدركون ما فى قوة الدول وسلطانها من عسف لا مفر منه ، ومن ثم يجادلون كما يتجادل الواقعيون ، ولا يتصـورون حلا آخر الا فى توازن القوى للتغلب عـلى محاولات العدوان ، ويعتمدون فقط على الارادة الدؤوب بأن يستبعد من الحرب الوسائل الكفيلة بتحويلها الى حرب ابادة ، ومن وجهة النظر هذه لا يمكن اعتبار السلام قيمة مطلقة الا تبعا لاعتبارات أخلاقية فحسب .

مثل هذا الاستدلال يتضمن بالفعل عيبـا جوهريا ، فالواقع أنه حيثما يصطدم بالحد الذى يفرضه اعتبار الدول أنها القوى المحركة الوحيدة الممكن التعرف عليها على المسرح العالمى ـ دول يواجه بعضها بعضا فى حالة من الطبيعة ـ فانه من المستحيل ابداء أى تعريف للمعتدى وللمعتدى عليه ، على أن اليقين الأخلاقى ليس هو الذى يميز بين المعتدى والمعتدى عليه ، انمـا الذى يميز بينهمـا هو الادراك السليم بالمعنى التقليـدى للمصطلح ، فى حين أن الجهاز القانونى التقليدى كله غير قادر على وضع تعريف لهما ، ترى على أى ادراك سليم قامت فى الحرب العالمية الثانية ـ على سبيل المثال ـ فكرة أن النـازية والفاشية خرقتـا قوانين البشر والشعوب ؟ .

وبوجه عام ، فان النقد الذى أجراه ريمون أرون على مشروع اعتبار الحرب خارجة على القانون يبدو صحيحا ، ولكن فى حدود تصور معنوى لا يحفل الا بالبديل : حالة الطبيعة ، وحالة القانون ، ولا تفهم هـذه الأخيرة الا بأنها الحالة المدنية ، وعلى ذلك ـ وكما تراءى بحق لروسو ـ فان محاولات رجال القانون اضفاء المشروعية على الحرب تظل أساليب بلا أساس نظرى ، وهى تنتمى اجمالا الى قواعد اللعب التى يراعيها اللاعبون طالما وجدوها مفيدة ، ولكنهم لا يترددون فى مخالفتها ان كانت مصلحتهم أن يخالفوها ، ومهما كان مدى هذه المحاولات ـ ولنا بالتأكيد أن نعتبرها مفيدة ـ فانها لا تتعدى حدود البرجماتية (فلسفة الذرائع) ، ولنذكر أن هيجل ، رغم أنه لا يمكن اعتباره من أصحاب نظرية السلام ، بحث على تجاوز هذا النطاق ، حين يتحدث عن اعتراف الدول بعضها ببعض فى الوقت الذى يجعل من الدولة سلطة مطلقة ، ولقد قلنـا ان هـذا الاعتراف قد افترض أنه مجرد أمر واقع ، ولكن من الذى لا يرى أنه

ليس مجرد أمر واقع ؟ أو أن رابطة القوة هى التى تجبر فى كل لحظة دولة ما أن تعمل حسابا لاستقلال دولة أخرى ؟ أو أن هنــاك بالفعل اعترافا متبادلا ، أى استبطان دولة لأهداف دولة أخرى ، فى مجال رمزى بالضرورة ينبغى تمييزه ؟

ترى ما هو هذا المجال الرمزى اذا لم يكن هو « الانسانية » ؟ الا نفهم من ذلك أن الانسانية كيان فريد فى ذاته يعلو الدول كما تعلو كل دولة الأفراد ؟

وما لم نتخلص من مفهوم الانسانية على أنها بنية كلية أو كيان سام يشمل الدول كلها باعتبار أن الدول هيئات كبيرة تضم رعاياها ، فليس هناك احتمال لنظرية تنشىء مفهوما جديدا للقــانون ، وبانتزاع الانسانية من هذه الصورة الخيالية ، فانها تتبدى بمثابة مضمار مادى وروحى فى وقت واحد ، ولا يمكن أن تكون أمرا واقعا يتولد فيه وينجذب نحوه كل شكل من أشكال الوجود والتعايش السياسية ، وبهذا الشرط وحده يمكن أن يكون هناك معنى لربط فكرة الانسانية بفكرة القانون . على أننا نلاحظ أن تصور قانون للانسانية يمكن أن يستند الى مفهــوم قانون اجتماعى ، فثمة عرف قانونى كبير يقوم على أساس تصور انتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ، لدعم النظرية التى تقول انه لا يوجد قانون الا حيثما يتأكد مبدأ الخضوع العام للعاهل ، ونحن اذ لا نؤيد هذه الفكرة فان المعرفة الانثروبولوجية ــ وبالأخص علم الاجتماع ، ومن جهة ، والفينومنولوجيا (علم الظواهر) من جهة أخرى ــ تكشف لنا عن شبكة من العلاقات الأساسية ، فضلا عن تشابك مخلوقات تتصور وتفكر وتعمل فى عالمها المشترك تشابكا يقوم على أساس التكوين الرمزى لكل مجتمع . ويبدو لنا القانون الاجتماعى فى أشكاله الأكثر بدائية وفى أشكاله الأكثر تطورا أنه لا يمكن أن يختلف فى شىء عن النموذج التقليدى الذى أجرؤ فأقول انه لا يقيم وزنا الا للبعد الرأسى لمجال المجتمع ، كذلك فمن العبث أن ننكر الفكرة القائمة فى كل مكان ، فكرة قطب للسيادة ، قطب للسلطة والقانون ، ويخطىء من يرجع الى هذا القطب وحده النظام الاجتماعى ، فالسلطة العليا ليست هى المنشئة الكلية للنظام الاجتماعى ، بل انها جزء منه ، تنبثق منه وتحدده ، وعلى ذلك يجب التسليم بأنه لا توجد فجوة بين عالم الدول وعالم الانسانية ، وأن القانون لا يتوقف عند حدود الدولة لأنه لم يستخلص منه أصوله .

ولا يظن أحد أن هذه الملاحظات تبعدنا عن موضوعنا ، انها تعود بنا الى الفكرة التى أجملها كانط عن قانون للانسانية « منبثق ، ومنكشف

اعتبارا من تجربة الحرب ، ومن ثم من تجاور الناس بعضهم لبعض ، بصورة متزايدة على سطح الأرض المحدودة » · ان رؤية كانط هي نوع من الحدس يثير دهشتنا ، ذلك لأن العالم الذى كان أمام ناظريه يبدو لنا ، بالمقابلة بعالمنا ، متعدد الأشكال والثغرات والنقائص ، الا أن تلك القدرة على الحدس ليست قاصرة عليه ، ذلك لأن معظم كبار مفكرى مطلع القرن التاسع عشر مهما كانت عقائدهم - ومنهم على سبيل المثال سان سيمون وشاتوريان فى فرنسا وماركس - يتصورون التواتر الجديد فى تاريخ البشر وتسارعه الهادىء متوافقا مع ظهور فضاء محدود حساس بذاته فى كل جزء من أجزائه ، ولعلنا نقول ان الحدس لا يكف عن التجدد الى عصرنا هذا الذى يتمتع بقدرة مذهلة على التخيل ، تسبقها مع ذلك سرعة التغير ، ان كلمات فاليرى التى كانت تبدو فى عام ١٩٣٨ (نظرات فى العالم الحاضر) جديدة كل الجدة فى نظر معاصريه ، لم تعد فى نظرنا سوى مجرد اثبات حالة ، كتب يقول « لقد تم اكتشاف الأرض المعمورة كلها فى وقتنا الحاضر ، وعرفت واقتسمتها الأمم · وانتهى عصر الأراضى المجهولة والأقاليم الحرة والبقاع التى لا يملكها أحد ، ومن ثم عصر التوسع الحر · لم يعد هناك صخر لا يحمل علما ، ولا فراغ على خريطة ، ولا منطقة خارج الجمارك وخارج القوانين ، وليس هناك قبيلة لا تملأ شئونها بعض الأضابير ، ولا توجد رموزها السحرية فى مكاتب العديد من علماء (الانسية) ، لقد بدأ عصر العالم المحدود » · ويضيف : « ان تضامنا جديدا وقويا وفوريا بين المناطق والأحداث هو النتيجة المحسوسة لهذا الحدث العظيم ، وينبغى لنا من - الآن فصاعدا أن ننسب كل الظواهر السياسية الى هذا الظرف العالمى الحديث » · وتحدث أيضا عن « ارتباط وثيق أكثر فأكثر بين تصرفات البشر » · حقا ، لم يحكم فاليرى بأن هذه التجربة الجديدة للعالم موفقة ، بل احتفظ بطابع الروح الاغريقية المولعة بالحدود النهائية ، وفى الفقرة ذاتها يتجلى قلقه : « ليس من الفطنة أو الحكمة أو الذكاء القضاء سريعا على هذا التعقد ، ذلك لأنه ليس هناك دوام أو استمرار أو سببية يمكن التعرف عليها فى هذا العالم ، عالم العلاقات والصلات المتضاعفة » ·

هذا الرأى لا يتسنى تجاهله ، فمن المؤكد أنه كلما اقترب الناس بعضهم من بعض ، تلامسوا بجوانبهم المجروحة ، ولكن هذا ليس الا بعض الحقيقة ، أليس من الأصح أن تكون العلاقات شديدة الخطورة لأنها ليست كثيرة بالقدر الكافى ؟ أليس ذلك لأن التبعية التى تزداد وثاقة بين أعمال البشر لا تجد استجابة لها فى النمو الحقيقى لحقوق الانسان ، وفى انشاء قطاع عام على المستوى العالمى ، حتى يمكن أن تجد الانقسامات تعبيرا آخر

نها خلاف الحرب ؟ أليس أيضا لأن حركة التحات بين المصالح الذاتية (الاقليمية) القديمة التى أصبحت فى نظر الكافة غير قابلة للالغاء تصطدم بمقاومات هائلة ، وتستثير من جانب الطبقات الاجتماعية القائمة وسائل جديدة للبقاء ، واستبعاد كل الذين يمكن أن يظهروا بمثابة (أنداد) رغم اختلاف وضعهم ؟ الواقع أن السلام لا يمكن أن يقوم الا على فكرة أن العلاقات بين الناس هى علاقات بين « أنداد » ، وهذا يعنى القول بأن هذه الفكرة لا تنفصل عن فكرة الحرية ، وأنه من الخداع باسم السلام ضمان كل شكل من أشكال استغلال الشعوب التى ترى نفسها — عن طريق قانون السوق — محرومة من موارد أراضيها ، وخاضعة لدكتاتورية صريحة أو مقنعة . كذلك من الخداع ضمان كل شكل من أشكال النظم الشمولية التى تنكر على الأفراد والأقليات الحقوق الأولية .

ولما كنا حريصين على ألا نستسلم للوهم والخيال ، وأن نأخذ فى الاعتبار مقتضيات العالم الحاضر ، فينبغى لنا ألا نخلط بين قضية السلام وبين مسالة من غير مبدأ ، وعلينا أيضا ونحن حريصون على الحقيقة — ألا نستسلم للنشوة التى يبعثها مشهد المنازعات الجارية ، فالأجدر بنا أن نعترف بأن العواهل (جمع عاهل) لا يقررون وحدهم مصائر الجنس البشرى ، كما افترض روسو ، وأن تقارب الناس بعضهم من بعض تقاربا هادئا يتم بفضل معرفتهم معرفة متبادلة ونامية لعاداتهم وعقلياتهم . وضروب التقدم فى التعليم والتربية ونشر المعلومات وازدهار فكرة حقوق الانسان ليست هذه كلها من قبيل العبث ، بل يمكن أن تؤدى الى نتائج سياسية حاسمة فى اتجاه السلام . ويبقى بالتأكيد سؤال : هل تخيب هذه الآمال ؟ اذا كان لا بد لها أن تخيب ، فمن الأولى — بدلا من أن نسلم مع روسو أنه من الجنون أن يريد الانسان أن يكون عاقلا وسط مجانين أن نسلم بتحفظ مع فرويد بأنه فى الصراع الدائم بين ايروس (اله الحب عند الاغريق — المترجم) وبين غريزة الموت قد ثبت يقينا أن هذه الغريزة هى الأقوى .

كلود لوفور

استاذ بمعهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية

آزمة وحضارة

أدموند رادر

- لم تعد عمليات انتاج السلع وما يحكم تبادلهـــا من قوانين دليلا كافيا لتفسير الواقع الاقتصـــادى الذى يستشهد به فيما يرتبط بفكرة الأزمة بوجه عام ، اذ أن الدوافع النفسانية والثقافية والأخلاقية المساندة لفاعلية الانتاج ، ترى اليوم على أنها العوامل الأكثر حسما ، على الرغم من أنهـــا عوامل متملصة • وبالتالى لابد من البحث عن الأسس الحاكمـة للأزمات الاقتصادية (وهل هى شىء آخر ؟) فى أرض جديدة تدور حول الدوافع الفكرية والمعانى الأخلاقية ، وشبكات الواجبـــات التى تتجاوز بمسألة الأزمة حدود المجال الاقتصادى ، وتضعها فى حدود حضارات (١)• ومثل ذلك التوسع فى الحياة الفكرية والسياسية ، وهى عناصر قائمة على الحساسية البحتة (يجب أن نسميها عناصر جمالية ؛ ولكن كيف توظف هذه الكلمة بكل ما تستأهله من ادراك حسى وحيوية ؟) • وهنا تؤدى التحليلات مرة أخرى ـ شريطة أن تكون بمثابة الأسباب الجوهرية ـ الى نقل الرسومات المنظورية نفسها من منطقة الى أخرى •

وتؤدى الصلة بين فكرة الأزمة وفكرة الحضارة الى جعل المواجهة بين الفرضيات والمناهج والنتائج على أعظم قدر من التباين ، وبقدر ما تكون الأزمة هى المعنية لايتجاوز الامر التحليلات المحكومة بمقتضيات علمية ، وبقدر ما تكون حالة الحضارة هى المعنية لاينجـاوز الأمر التركيبـات والأحكام المرتبطة بالقيمة على الدوام، ومع ذلك فان صلة أزمة ما بحضارة ما تفرض نفسها على العقل فى تجربة يومية لمدينة سلام مثلى ، ولعنف يشمل

المترجم : حسن حسين شكرى

(١) J. Bouvier : «Crises économiques» ، الموسوعة العالمية ، باريس سنة ١٩٧٤ ، و P. Mahrer, : «*crise économique*» ، المرجع نفسه ، الملحق ، مجلدان ، باريس سنة ١٩٨٠ المجلد الثانى •

كل الأمكنــة فى جميع الأوقات ، ولذلك لابد من بحث هذه الصــلة ، ولا شك فى أن هذا البحث سوف يتوقف بالاتفــاق عند مرحلة ايجــاز فرضية عمل تنتظر اثبات صحتها ٠

ولننظر نظرة تكامليــة لحالة حضارة ما : فالأزمات التى تعترض حالة الحضارة هذه مهما اختلفت نقاط الهجوم ، ومهما كانت التمزقات جذرية ، تنقش على الأفق نفسه ٠ وبالتالى قد تظهر مبتدئة بالمجال الشامل للتجربة الأنثروبولوجية ، وبعلاقة مولده وحيدة للتفسير المرتبط بحالات معينـــة ٠

ومن بين الملاحظات العديدة عن الحضارة والمعايير التى تتيح لنا تمييزها تمييزا موضوعيا نجد التعريف الأســاسى الذى صاغه أرنولد توينبى بقوله : « بوسعنا تعريف الحضارة بأنها سعى لايجــاد مجتمع تستطيع البشرية أن تعيش فيه معا على وفاق » (٢) ٠ ويقدم لنا هذا التعريف البسيط الواضح المعيار الذى نميز به بين الحضارة والثقافة ، أى أنه فى حالة الحضارة تدار بداية الأدوات الثقافية ادارة واعية مع مجال التحرر البشرى ، وهذا التحرر هو الذى يجعل للمجتمع الذى تحرر نفوذا على الثقافات الأخرى ، كما يتميز به مظهر الحضارات ٠

وبالنسبة لهذا الخط من خطوط تقدم الحضـــارة تظهر الأزمة بصورة عكسية ، بل تكاد تكون تهديدا مستمرا بالتمزق ٠ والآن فانه لنشوء موقف كهذا لابد أن تكون هناك حالة حضارة ٠ وهذا هو ما حدث فى أثينا القرن الخامس ق٠م ، وعبر عنه ثوسيدس لأول مرة ، مع شعوره بشذوذ وضعف عمل الحضارة ٠ واذا ربط بتأمل التاريخ المنظور فى حالة تمامه نجد هذه الفكرة مرة أخــرى عند بوليبيوس الذى شـــبه بدائلها ، أى النظام والفوضى ، بالدورات المنظورة فى الطبيعة ٠ كما نجدها فى رؤية القديس أوغسطين الموروثة جزئيا من التراث العبرى ، ووصف فيها « مدينة الله » و « مدينة الشيطان » بأنها مراحل حضارة ومراحل أزمة ، وهى فترة أسطورية فاصلة ســادت العصور الوسطى ، وأنجبت ميكيافيلى ٠ وقد تبنى ميكيافيلى على نحــو غير موفق فكر توســـيدس وبوليبيوس الايجابى والنقدى ، وبالتالى يبدو هذان المؤرخــان بمثابة وسيطين أصيلين للتصوير الحديث للتــاريخ ٠ كما استخدم فكرهمــا

---

(٢) Bordas, L'Histoire ; A. Toynbee. ، باريس سنة ١٩٨٥

مونتسكيو ، اذ أتاح له هذا الفكر فهم النمط المنظم للقوانين من ناحيــة أنه عمل للنظام الذى يحكم القوى الســـياسية والاجتماعية مثــل علم السيبرنيتيكا الحقيقى ، ويذكرنا بأن اليونـان القـدماء قد سموا فن الحكومة نفسه بهذه الكلمة ٠

وقد طرح نيتشة تفسيرا قيما للأزمة بلغة عصرية ، وكان بذلك أول محلل لها ، بل كان أشد المحللين راديكاليـــة دون شــك ٠ ويقوم تحليله العصرى على نزعة عدمية كاملة وعلى « انقلاب القيم » ٠ وقدم اجابات عن الأزمة الظاهرة للتاريخ الأوربى مقتفيا خط ثوسيدس الفكرى الذى أعجب بأحكامه على التاريخ بوجه خاص (٣) ٠ ورد جينوس على تمزقات التاريخ بتوكيد لايستند الا على ارادته وجسارته ٠ وقد تجدد مشهد التاريخ بهذا الفكر ، وساد مع أوزفلد اشبنجلر الذى أصر على أن الحضارات تتميز بخصائص معينة ، ومع أرنولد توينبى الذى علمنا أن نفسرها بلغة التحدى ٠

ومن ناحية أخرى رأى كارل ماركس أن الأزمة ليست غريبــــة على عملية التحضر وحسب ، بل هى مدمرة أيضا ٠ هذه نزعة راديكالية لابد أن نوضحها ٠ انها تعبير عن ثقة نظرية شغلت بها الماركسية فى مرحلة باكرة جدا ، فى اختيارات دون تنازل ، وسوف نناقش ما قامت عليه من منطق عنيد فى مواضع تالية من هذا المقال ٠

« ان عمليات التقدم فى تاريخ المسائل العقلية ، وبالتالى فى عمليات تقـــدم التـــاريخ الاجتمـــاعى ٠٠ التى أثارها فى وقت قريب منـــا georges Duby (٤) ، تعــد قراءة منقحة بدرجـــة أكثر لحركات التاريخ ٠ ولكن هل رأينا بوضوح الى أين يقودنا تقدم التاريخ الجديد ؟ »٠ ولربما يتيح التراكم المتأنى ، المرتب فى منظور شامل ، اكتشـــاف الدور المنشط للشعراء ، والزعماء ، والمهندسين المعماريين ، والفنانين ، والعلماء الذين شــغلواانشــغالا عميقا بنســــيج وابتداع تلك التعبيرات التى هى «الكنز المشترك» ٠ لكننا سنفسرها هذه المرة بأنها مستوى جيد ، اى على مستوى الهياكل التوليدية للتعبيرات ، ومستوى نسجها ومســـتوى القوة الفكرية لأحد حدودها ٠

---

(٣) *«Ce que Je dois aux Anciens», Le crépuscule des idoles* : F. Nietzsche. اريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة ١٦٧٤ ، جـ ١ ٠

(٤) Duby. C : *Des So'étés Médiévales* ، الدرس الافتتاحى فى كوليج ده فرانس ، باريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٧١ ٠

وهكذا منذ عصر توسيدس حتى المؤرخين الجدد ، وهكذا يرتبط مسار فكر ما ، باستثمار حضارة ما ، فى صـلتها بأزمة ما · والآن ، ودون نبذ الفهم المتكامل الذى تبتغيه هذه التقدمة ، نحب أن نفصل التساؤلات التى تفزع الأزمة الحاليـة للتـاريخ اليـوم بطريقة مذهلة · ولنعد اذن الى ما للحضارة من أعمال نبيلة فى صلتها بالأزمة · وقد قلنا ان ثوسيدس هو أول من سماها بهذا الاسم في «خطبة عن أول موتى الحرب» ، بكلمات وردت على لسان سركليس ابان الحرب البلوبونيزية (٥) · لقد قامت مدينة أثينا من خلال حركات منتظمة متسمة بالذكاء والاقدام ، وسط مزيج متناقض من الأحداث ، وهى مدركة لما عاشته من مخاطر بسبب نوعياتها · ألم يأت تفوقها من أن الآثينيين كانوا قادرين دائما ، وفى رخاء تام ، ومتسمين باقدام مماثل ؟ أو لم يكن تفوق الآثينيين يتشبث « برعاية ما هو جميل تجاه غاية الانسجام والأمور العقلية تشبثا قويا ؟ » · وصار ما أنتجته أثينا فى أعمال الفن والفكر أنموذجا لمدن أخرى ، وكان بذلك وراء ثقافات معينة ، بل مصدر وحى لحضارة عبر عن فكرتها هنا لأول مرة · لقد نشأت أثينا على حساب مخاطرة جسور تعادل ما قدر عليها أن تخوضه من مخاطرات لتجتاز الأزمة التى هددت سيطرتهـا · ومن ثم نقول ، ونعلل ، ان ثوسيدس عبر عن نفسه بما تمليه غريزة الهلينيين العميقة التى تظهرها اللغة اليونانية القديمة · حقا ان كلمة Krisis فى هذه اللغة تعين لحظة اتخاذ القرار ، لا لحظة خطر الاضطراب الذى يؤدى الى التمزق أو الى كارثة مشهورة ، لكن الاختيار هو الذى يحدد نهائيا نتيجة الأعمال بطريقة أو أخرى · لقد استبدت باليونان فكرة الشكل المتعرج الدقيق ، والصور الجانبية المحددة ، والهيئات الفاصلة فى سلوك أشبه بسلوك الحجار الذى يأبى اجراء أى تصحيح بعد ما ينهى عمله ، فى حين نميل نحن الى النظر الى الأزمة نظرة الترقب والقلق ، والشك والتردد ، كما يفعل بول فاليرى فيما كتبه باسم «La cris de l'esprit» (أزمة الروح) · ولم يكن ثمة شيء من هذا القبيل عند اليونانى القديم الذى كانت غريزته تملى عليه اتخاذ القرار بالعمل فور ظهور الخطر : كانت الأزمة عنده حكما يصاحبه مصير غير قابل للاستئناف · وتجرى حرب البلوبونيز بهذا الأسلوب وعيا بالحقيقة التاريخية ، وجمالا منفردا فى الكتـابة ·

---

(٥) La guerre du péloponnese : *Thucydides.* ترجمـة · *Jacqueline de Romilly* : مجموعة Budé ، باريس ، Les Belles Lettres سنة ١٩٥٨ ، الكتاب الثانى ، والرابع والثلاثون ـ السادس والأربعون (ونرشح ترجمتنا هنا) ·

وقد افتتح بوليبيوس المفهوم الذى صوره ثوسيدس خلال العمل ٠ ولخص قاعدته النظرية فى كتابه « تاريخ عالم البحر المتوسط من ٢٢٠/٢١٩ الى ١٤٥/١٤٤ ق٠م » ، (الكتاب السادس) ؛ الذى خصصه « للأنماط المتعددة للدساتير ، ودورة تتابع نظم الحكم خلال قانون طبيعى » (٦) ٠ وظهر له أن النظام السياسى ومنه المؤسسات الرومانية كان من أعظم الصور اللافتة للنظر التى أمدنا بهـا التاريخ ، وعدها جديرة بالملاحظة ، وبدا له أن النظام الرومانى كان مرحلة هامة من المراحل الدالة على تطور الجماعات الاجتماعية ـ مدنا أو دولا ـ وتتناقض بجلاء مع المراحل الفوضوية التى تظهر ببعض سماتها اللصيقة بها الفكرة الحديثة للأزمة ٠ وتؤلف هذه السمات دورات رائعة مع النظام السياسى الرومانى ٠

وثمة ميزة أخرى من ميزات فكر ميكيافيلى السياسى يجب فهمهما ، هى القول بأن أساس الحياة الاجتماعية يعد فريسة لعمليات مسخ مستمرة ٠ يقول هذا فى كتابه « الأمير » ، ويصوره كنظرية فى كتابه «Florentine Histoire» (التاريخ الفلورنسى) ٠ « فأكبر نتيجة عادية لما تعرضت له الامبراطوريات من ثورات هى نقلها من النظام الى الفوضى ، ثم اعادتها الى النظام ٠ وليس من المسلم به فى أمور البشرية أنها تتوقف عند نقطة محددة حين تبلغ أوج اكتمالها ، بيد أنها حين تعجز عن المزيد من العلو تأخذ فى الدنو ، وللسبب نفسه فانها حين تبلغ أدنى حالات الفوضى لا تستطيع المزيد من التدنى ، فتعلو مرة أخرى ، وبالتالى فانها تسير من خير الى شر ومن شر الى خير على التوالى ٠ ومن المعروف أن الطرف الفنية تولد الراحة ، وأن الراحة تولد الخمول ، وأن الخمول يولد الفوضى ، وأن الفوضى تدمر الدول ، ولا يلبث النظام أن يولد من جديد وسط دمارها ، ثم تولد الطرف الفنية من النظام ، ويولد المجد والرخاء من الطرف الفنية » (٧) ٠ وهذا أحدث تحليل ٠ فالتاريخ خاضع لنظام سيبرنتيكى ، النتيجة فيه تؤثر فى السبب ، فالرخاء يحدثه

(★) بوليبيوس : (٢٠٣ ـ ١٢٠ ق٠م) مؤرخ اغريقى ، الف كتابه المعدم دكره فى ٤٠ جزءا ، لم يصل الينا منها الا الخمسة الأولى كاملة ٠

(٦) *Histoirre : polybius* مكتب الكواكب السبع ، باريس ، المجمع القومى للبحوث سنه ١٩٧٠ ٠

(٧) *«Histoires Florentines» : N. Machiavelli* ، الأعمال الكاملة ، مكتبة الكواكب السبع ، باريس ، المجمع القومي للبحوث ، سنة ١٩٦٤ ، ص ١١٦٨ ٠

النظام ، ويعيد توحيـــد الظروف لاسترخاء الطرف الفنية ؛ والفوضى تجعل النظام أمرا محتوما (٨) · بيد أن هنـاك أمورا كثيرة أخـــرى · والفوضى هى أساس الحيـــاة الاجتماعية ، وعندنا فكرة من أعظم أفكار ميكيافيلى الملهمة · والعمل السياسى يجب أن يفهم بالنســـبة للنسيج الاجتماعى بأسلوب فهم العمل الفنى ؛ وقد يتيح هذا الفهم معرفة أن أعظم تنظيم مستقر ، ومعترف به على أوسع نطاق ، وأن أعظم حكم ، ونظام راسخ للمؤسسات السياسية ، ليس الا ابتداعا لعبقرى من البشر عرضة للنقد فى حد ذاته ، وعرضة للخطر من كل جانب من جوانبه ، ولا يعدو أن يكون هياكل تنظيمية تحكمية بالغة حدا من الكثرة · ويفسح التنظيم والحكم والنظام مكانا للتبادل الذى يمكن غائية الحضارة نفسها (وببساطة أكثر يمكن التقدم الاجتماعى) من البقاء وسط تذبذبات الأحداث ، لكنه يسبغ عليها الشمول من خلال التنوع الذى يأخذ صورة قادرة على التعايش مع نظم أخرى تحوى عوامل مجهولة كثيرة · ولذلك فما دام الفكر الشمولى الحديث يستند على انفصال أفكار الهيكل التنظيمى والنظام ، حيث يمثل الهيكل التنظيمى طاقم العلاقات المتبادلة المكشوفة ذاتيا ، ويمثل النظام طاقم منطو على مخاطرة العلاقات المتبادلة المكشوفة الى مالانهاية التى تشرب الهيكل التنظيمى الذى تحيط به باضطرابات ، حيث تكون الهياكل التنظيمية آخر الأمر قوام كثير من الجماعات المنظمة ، والجماعات الشاذة القابلة للنقد ، والمعرضـــة للكوارث ؛ لكن العبقرية البشرية تحافظ على وجودها باختراعات متعاقبة ·

« مجتمع يرقى بذاته من الوحشية الى النظـام · ومادامت النزعة البربرية هى عصر الواقع فمن المحتوم أن يكون عصر النظام هو امبراطورية الخيالات ؛ وحيث لاتوجد سلطة قادرة على تأسيس نظام يقوم على اكراه أجساد بأجساد وحسب ، فلابد أن توجد قوى خياليـــة » · لقـد كتب بول فاليرى هذه العبارات فى مقدمته لكتاب مونتسكيو «Lettres persanes» (رسائل فارسية) (٩) · كما أمدنا النظام الملكى الفرنسى بدعامة للفكر الألمعى الهادىء لمؤلف كتاب «De l'esprit des lois»

---

(٨) E. Radar : «Information et politique chez macchiavelli» المجلة العامة ، Ded · سنة ١٩٨٣ ، بروكسل ·

(٩) P. Valéry : «Préface aux lettres persanes» ، الأعمال الكاملة مكتبة الكواكب السابع ، مجلدان ، باريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة١٩٥٧ ، المجلد الاول ، ص ٥٠٨ ·

(روح القوانين) • ويمكن توطيد السيطرة الاجتماعية بالقوانين الحسنة ، شريطة أن تكون مقبولة فى الضمائر ، كما هى منقوشة فى المراسيم • كما أن من الضرورى أن تنظم القوانين للآخرين بأسلوب تنظيم ميكانيزم آلية الساعة للحقبة التى تسن فيها بأتقال معادلة • وتتطلب ممارسة السلطة من كل ممثل سياسى أن يصور بالضبط أدوار الطاقم الذى سرعان ما يصبح أثمن شىء للصالح العام •

وفيما يتعلق بالأمور العامة «Res Publica» يؤسس مونتسكيو الحياة الاجتماعية على السيطرة الفكرية للقوى السياسية التى تفترض وجود طبقة متعلمة مهيمنة لديها متسع من الوقت لهذه السيطرة ، لكنها طبقة تمارس المنافسات فى « شفافية » لدرجة قد تنبثق منها الديمقراطية فى أى مرحلة ، أو تتولد عنها حقا ؛ ذلك لو قبلنـا فكرة الجيل المثقف النقى ، لكن أليست هذه ميزة للأعمـال التى من هذا القبيـل التى تؤسس مثل هذا الأصل ؟

ويوضـح كتاب « روح القوانين » الهياكل التنظيمية الفاعلة فى الحياة الاجتماعية ، مع القراءة المتباينة • ففى كل مكان ترى القوى التى تحمل طبيعيا على أنها ضرر شديد ، وفى كل مكان يقترح تبادل معادل فى بداية التقدير العادل للطاقات التحررية وموقفها العكسى • ويبدأ بهذه القراءة السياسية سن الدساتير ، وفهمها على أنها ادارة لأزمة دائمة •

وحين تناول نيتشه مشكلة الأزمة فى أوربا التى أوقفت على النزعة العدمية كان التفسخ الذى شخصه فى نظره هو وحده مجرد عرض من أعراض الحضارة التى استسلمت للضعف الذى أمسك بخناقها • وحين يأتى رجل عبقرى فانه يفرض قيما جديدة ، ويستنبط من نفسه وحده أسباب رفضه ، بل يفرض « ظروفا » جديدة • وليس العبقرى نتـاج عصره بحال ، اذ أن العلاقة بين الرجل الفذ وبين عصره تقوم على الجدل • ويحدث العبقرى أمرا جوهريا يتعذر نقص جوهره ، يتأتى من صفات بركانية لتفجره • ولا تتطابق مأثرة العقلية العظيمة مع ايماءات وأفكار أو أعمال الحقبة الزمنية التى يشكلها بارادته ، مع أن تدخله قد يتلاءم عن قرب مع صور المرحلة ، وقد يوجد الاختراع الذى يتعهده فى صورة علاقة متناقضة ، أو علاقة مأساوية مع الحقبة التى يعيش فيها •

ولاشك أن عمل العبقرى سوف يثبت ، اذا اكتمل مجراه فى علاقة لازمة لعصره ، لكنه لن يكون أبدا على صلة التابعية أو التكافؤ • بل على

العكس يكون فضله هو اعطاء شكل على ما كان ناقصا فى سعى متلهف على انهاء مالم يكن سينتهى ، بل لما لم يفكر فيه أحد ، لولاه هو • ويظهر العبقرى أشبه بمجموعة عنيفة من الطاقات الكامنـة فى أرض راكدة : « ولنأخذ حالة نابليون • فمن المحتمل أن تكون فرنسا الثورة ، بل قل فرنسا قبل الفترة الثورية ، قد أنتجت بنفسها نتيجة مناقضة تماما للنتيجة التى أوصلها نابليون اليها ، وواقع الأمر أنها أنتجت هذا النمط• وحيث ان نابليون كان شخصا آخر ، ووريثا لحضارة أنضج وأرسـخ وأقدم من تلك الحضـارة التى كانت فى عمليـة انفصال وتلاش فى فرنسا ، فقد أصبح هو السيد •• » • لقد أعطى الرجل العظيم شكلا للمادة الاجتماعية الكامنة فى أرض راكدة •• « ، ومازالت هذه الحقبة أكثر شبابا ، وخفة ، وخضرة ، وتعرضا للشك ، بل صبيانية نسبيا •

ويواصـل نيتشـة حديثة فى كتابه «Le crépuscule des idoles» (أفول الأصنام) (١٠) •

وبعد نتيشة اقترح اشبنجلر ، ثم توينبى ، تأملا للتاريخ المصوغ حول فكرة :الاختراع المدن على أنه شكل مستقل فى مواجهة من ينكره • اكتشف اشبنجلر عشرات الحضارات التى أضفى عليها هيكلا تنظيميا عضويا أصيلا يتعذر نقص قدره ، وقد تصور سلفا وجود قانون تطور هذه الحضارات فيها ، على أسلوب قانون الوراثة فى تصور الجنين • وربما يحكم قانون من القوانين ، أو هذا القانون نفسه ، أفرادا مثلما يحكم سكان مدينة ما مجتمعين • وقد يكشف التاريخ الحق صـورة « شكل عام » بتعبيرات متنوعة للثقافات : أساطير ، رموز ، علوم ، فن ، سياسة • « كلما كان الشكل أعمق كان أقوى وأمنع ••• ؛ ويستطيع الشخص الذى ينتمى الى هذا الشـكل السيطرة عليه بسـهولة وحرية تامة •• مثال ذلك برنس لينى (*) ، ومونسارت ، اللذين يعدان تاريخا عاما لأعلى سلطة • انها الصورة الفوتوغرافية الجامدة التى دبت فيها

---

(١٠) "Ma conception du génie» : F. Nietsche.

المرجع نفسه . فقره ٤٤ •

(*) لينى . الأمير شارل جوزيف (١٧٣٥ ــ ١٨١٤) جندى نمساوى ، ولد فى بروكسل ، ظهرت براعته فى حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) ، خدم فى السلك الدبلوماسى النمساوى فى عديد من البلاطات الأوربية . عينته كاترين الثانية امبراطوره روسيا (مشيرا) • كانت له رسائل مع شخصيات بارزه منها : كاترين الثانية ، وجوته ، وفردريك الأكبر ، وفولتير ، ولاهارب . (المرجم) •

الحياة ٠٠ » (١١) وحين تتوطد السلطة لانسان ما فانه لايجد مهلة للكف عن استحسان مواهبه اذا كان متفوقا ٠ وبالتالى لايفشل فى « اطلاق تيار للعمل التكاملى » ، أى للعمل المطبوع بحيويته وحيوية أمته ٠ وهذا هو الاختراع ازاء التكيف الحى المحكوم بمصير لاتواجهه أزمة الا من خلال الافتقار الى الايمان ، والى ثقة الشخص فى نفسه ، والى التهذيب المضاد ، والتسيب المبتذل ٠٠ واذا لم يكن الزمن قد عفى على فكر اشبنجلر الأسطورى العضوى الأرستقراطى فالسبب أنه يشير الى شىء آخر نحس باكتشافه سلفا : تنظيمات حية نابعة من خلية مجتمع عالمى تحكمها سلطات زمنية متباينة ؛ لاتنهض علاقتها التكنولوجية باعطائها أهمية ٠ وليست الأسطورة سوى استعانة بفكر متحرر يتجاوز عوامل التحكم العقلانية فى كل مرة ، لدرجة أنها تحرمها بالحالة الراهنة للمعرفة من الدليل الحدسى المنظم لفن المعمار الداخلى للعمل الذى يتشرب به هذا الفكر ٠ وبالتالى تحفظ مملكة الأسد للعقل ، وتبقى غريزته على نوعيتها للتساؤل والتفسير مع توافر أسباب مألوفة ، حيث لامناص من تفسير ماهو شاذ ٠ ولم تنحرف قوة اشبنجلر عن ذلك ألبتة ٠ ومن ثم يواصل كتابه «Decline of the West» (انحلال الغرب) تزويدنا بالتساؤلات ، مع أن فرضياته تتسم بالجرأة ٠

لقد أراد اشبنجلر أن يقرأ قدرا داخل شخصية عضوية لوحدات حضارة : نحن نعرف اليوم أن الجماعات المعقدة ابتداء من الخلية حتى المجتمعات البشرية تتطور مصادفة من تفرعات الى تفرعات ، وتتعرض كل من هذه التفرعات لمصائر متعددة منذ بداياتها حتى امتدادها الكامل ٠ ومن ميزات المؤرخ توينبى العظيمة فى كتابه «A Study of History» (دراسة التاريخ) أنه أوجب رؤية الاختيار الذى تتأثر به الحضارات فى مادتها ، ذلك هو اختيار الاختراع (١٢) ٠

وبالتالى يكون المصير الذى جانب فيه اشبنجلر الصواب ، حين اعتقد أنه تصور نمط ومسار الحضارات التى نراها ٠ لأنه لم توجد حضارات الا على حساب أزمات تحدتها بصورة متعاقبة ، وتلاشت بسببها فى معظم الأحيان ٠ وذلك هو سر القوة المنفردة لكتاب توينبى المتقدم ذكره ، لأنه

---

(١١) *O. Spengler* : Le Déclin de L'occident ترجمة *M: Tazerout* باريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٤٨ ، مجلدان ، المجلد الثانى ، ص ٤٠ ٠

(١٢) *Toynbee.* المرجع نفسه ٠

وصف فى كل حضارة من الحضارات الواحدة والعشرين التى درسها عملا بطوليا جمعيا ، عملا لنشاط حمل لحدوده للاختراع فى اللحظة نفسها « لأعظم انحراف فى التوازن » • أو بالأحرى عملا يشبه كثيرا ما يطرأ من تطورات خلال الأزمات والتحديات التى تقهر بالمزيد من المخاطرة وبالتهور اللذين يحتاجان الى تفوق والى اختراع أعظم •

ومن ثم ففى دراسة المجال التاريخى الذى اقترحه توينبى تصور لهذا التطور المتعذر الغاؤه ، الذى هو التاريخ نفسه ، والى أى حد كان أنموذجه مقبولا من الناحية المادية ، كما كشف علم الفيزياء المعاصر • وباستحضار تعذر الغاء المستقبل ، « تمزق الاتساق فى المعادلات من ناحية الزمن » ، وقد وصف Prigogine, Stengers عملية دينامية وحيدة تكشف عن •• « تاريخ يقطع تعاقب التفرعات » (١٣) •

وقد استخدم علم الفيزياء من خلال وجوده كاستعارة لتعيين الظواهر العقلية التى تهرب من التجربة الايجابية : فى هذه الحالات لا يكون الأمر مسألة تفسيرات ، بل يكون المدى الذى تفضل فيه فرضية على أخرى ، وتوجيه التجارب باتباع منطق ما ، وجد فيه شكل أولى للتماسك •

هل نستطيع الشك فى أنه كان ثمة مراحل للتوازن ، ولحقب اتسمت بالتركيب ، والتوافق ، والسيطرة الواعية على العمليات التى تؤثر فيها ، أم أن هذه الأمور لم تكن سوى دعامة ؟

وفكرة العصور الاجتماعية التى سادها نظام للاستقرار يميزها عن المراحل الفوضوية : أهى مجرد وهم ؟ ان الشك فى البيعة الخاطئة لمراحل التوازن أمر مشروع • أما لمسألة بلوغ الذرى ، والعصور الذهبية ، والوصول الى القمم ، فليست الا تصويرا أسطوريا ، ومظهرا كاذبا يخفى تحته اضطرابات كامنة • وليس لتلك العصور التى نسميها عصورا « كلاسيكية » أى علاقة بالأزمة فى وقع الأمر ، بل هى عصور قائمة بذاتها لدرجة تدعو الى الاعتقاد فى حذفها رغم وجود تلك العلاقة • وهذه نقطة تجدر دراستها هنا •

ويرى بول فاليرى فى كتابه «La crise de l'esprit»

---

(١٣) La Nouv.lle alliance : *I. Prigoggine and I. Stengers.*
مكتبة العلوم الانسانية ، باريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٧٩ ، ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ •

(أزمة الروح) أن « السلام هو الحالة التى تتجلى فيها العداوة الطبيعية بين البشر فى مجال الابداع ، لا فى مجال للتدمير ، كما يحدث فى أثناء الحرب » (١٤) . ولما كان للعصور والجماعات والثقافات سمات وأعمال لافتة للنظر تتجلى من ثم حالة الحضارة ، وتشتهر بعمل ابداعى أقوى له صلة وثيقة مذهلة بالموضوع . أما الأزمة فانها تخترق نسيج الجسد الاجتماعى والسياسى والشبكة الاقتصادية ، كما تفعل فى عصور أخرى ، ومع ذلك تستمر أعمال ابداعية متعددة الأنواع فى نسج خيوط جديدة ويجب أن يكون ذلك هو مفتاح « عصور » بركليس ، وأوغسطس ، وسانت لويس ، والنهضة الأوربية ، ولويس الرابع عشر ، وأمريكا الأوربية فى السنوات من ١٨٧٢ حتى ١٩١٤ ، اللافتة للنظر بما أنتجته من اختراعات جرى تبادلها على الفور .

وهذه هى الحقب التى انتشرت فيهــا سمات وأعمال معينة بقوة محمومة ، وعبثت فى كل الجبهات . فما الداعى للدهشة اذن من القول بأن العصور الذهبية هى مشهد تضاعف المعرفة وتنوعها فى التقدم الذى فاق الادراك الحسى للأزمة الكامنة ؟

وكذلك صنعت منذ ذلك العصر حالة ثقافة رفيعة المستوى ، سوف تسمى حالة حضارة ، فما هو عمل الحضــارة ؟ انه الاستجابة الفكرية المنظمة لحالة من الفوضى ، والأزمة ، والتمزق ، واختــلال التــوازن ، والخطر . أو هو مرحلة عمل مكثف للعبقرية البشرية استجابة لوضــع يهدد التــوازن القــائم بالدمار . ويحتمل بالتالى أن يصاحب الأزمة فى مراحل تاريخيـــة أخرى انتــاج متزامن لأعمال تحاول التغلب عليها ، أو تعادلها ، الأمر الذى يزيد حجم وعلاقة هذا الانتاج الوثيقة بحركة مفعمة بالخطر ، وبسمات وأعمال ملائمــة لتوصــيل رسائل الحلول : « لن يوجد غير رمز يطرح للتداول » ، كما يقول : Ferdinand de Saussure (١٥) . ومجمــل القول أن مراحــل العظمة ، والنزعات الكلاسيكية ، والعصور الذهبية ، وعصور التوازن ، ومراحل توكيد طرازما ، وسنوات نشاط شعب ما ، قد لاتخلو من أزمة ، لكن

---

(١٤) *P. Vléry.* : «La crise de l'esprit» ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، سنة ١٩٥٧ ، ص ٩٨٨ ـ ١٠١٣ .

(١٥) *J. Starobinski* : Les mots sous les mots , Les anagramme (de Ferdinand de Saussure
مجموعة Le chemin ، باريس ، المجمع القومى للبحوث سنة ١٩٧١ .

ربما تسود هذه المراحل بديهة مخيفة للسيطرة المأساوية لتناقض لايقهر ، وتحديات التمزق بطفرة أو مخاطرة ، أو اختراع لارجعة عنه • وبالتالى توجد استجابة فى الساعات الحاسمة تكيف نفسها بدقة مع الأزمة • وبدون التخلص من الأخطار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ـ التى تستجيب لها بصورة محكمة ـ قد تقاوم الساعة المطلقة للحضـارة حتى ما يسمى « يوتوبيا » ، مع أنها شكل مضاد ، وطريق للتغلب على هذه الأخطار ، والحضارة تواصل مسيرتها • وعلى العقل الذى يبتغى الفهم أن لا يدرس غير الحلول التى أوجدها عبقرى ؛ لأنها النسيج الخالى من العيب على ما يبدو ، وسلسلة متصلة ، وتفسير بالعقل وحده يستبدل بالفوضى• لقد أيقظ غاندى وأقام أمة برسالتـه الى نبذ العنف ، وسـوف تبقى « يوتوبيته » حية مع مايشوبها من ألوان الخداع ، وجمع ديجول شتات فرنسا الحرة •

لكن ثمة تحفظ • لأن انتشار مثل هذه السـمات قد يعد بديلا للتمزقات والأزمات ، بل مظهرا أوليـا لثقافة مشغولة بعمليـة نموها ، تستحسن رؤية التركيب والتوازن للذين سيتأكدان بأسلوب أسطورى فى معظم الأحيان :

(ان الأقدار على اتفاق مع أحكام المصير ، قال لمغازلهم : « لاتتوقفى عن الدوران ••• ») (١٦) •

ويبشر النشيد الرعوى الرابع لفرجيل بعصر الذهب الذى تغزله الأقدار بناء على أمر الآلهة • فقد احتاج أوغسطس قيصر الذى قام بحركة مضادة للجمهورية الى تبرير حكمه • ولاقى هذا المعنى التنبؤى ترحيبا • ولامناص من الشك فيما يسمى « عصورا ذهبية » من حيث انها عمل لخدمة أحد الطغاة فى واقع الأمر ، ولخدمة طبقة سائدة بحثا عن قضية عامة تكون ضمانة لها فى كسب الرأى العام • ومع ذلك فانه ما ان تظهر المؤسسة الاجتماعية حالة التوازن هذه حتى نجدها تثبت في الأيديولوجيات السياسية ، وتحددها نزعة شكلية ، ونزعات أكاديمية تجهز لاعادة ظهور أزمة أكثر حدة ، أو أشد خطرا ، لأنها لم تعد قائمة فى الضـمائر • كما لاتكون الارادات على أهبة الاستعداد بعد ، وكأنهـا قد جردت من جوانبها العملية القوية • وتتحطم دائرة الاغراءات والطوارىء التى أكدت

---

(١٦) *virgil* : Bucoilques ، النشيد الرابع ، الأبيات ٤٦ ـ ٤٧ ، ترجمة : بول فاليرى ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •

التقدم البطولى حتى تمهل عمليات الابداع · لأن التقدم فى الابداع يحل محل اضطراب أزمة غير خاضعة للسيطرة · وتصـــبح عمليات التكتل والانفصال والتدمير أكثر حدة ، وقد تبقى بلا حلول · وتعمـل وجهـة النظر الرسمية المشوهة بالأسطورة على تأخير ادراك الحقائق الجديدة ، ولا توجد بعد قواعد معتدلة ، بل ردود فعل فاشستية قمعية بيروقراطية ·

والفكر الاســتبدادى لكارل ماركس الذى يبلغ ذروته فى تحليله للأزمة بكتــابه «Das Kapital» (رأس المال) ، وتحوى مخطوطاته التى لم تنشر بعض صفحاته الأعظم قوة · حيث يصــل الى استنتاج هو أن صراعا طبقيا محتوما لامناص من حدوثه ، وأن الرأسمالية لامناص من القضاء عليها ، ويرفض رفضا قاطعا أن يتصور مستقبلا يصاحبه تطور متبادل للطبقات المتعادية التى قد تتغلب على متناقضات النظام الرأسمالى· كما يرفض التنبؤ بطبقة عاملة يتــاح لهــا النهوض بوساطة اتحادات العمال ، وتشارك فى المسئوليــات الاقتصــــادية ، حتى تصبح الطبقة الرأسمالية ــ طوعا أو كرها ــ أكثر تعقلا فى « شــهواتها الجامحة ·· الى الثروة والاستغلال » ، بل عد ذلك اضطرابا فى الفكر ، ونفى نتائج تأمله عن الأزمة المحتومة التى سيؤول اليها مصير النظام الرأســمالى : « رأس المال مناقض لنفسه فى العمل » ·

فهل يحدونا الأمــل ، فى هذا القرن العشرين ، أن تحقق أمريــكا الأوربية ، التى نرى فيها موجة طاغية للعلم والأسلوب الفنى والاقتصاد لم يعرف له فى تاريخ البشرية مثيلا من قبــل ، تضامنــا بين الطبقات المتعادية فى فرصة من فرص التطور نفسه ؟ ان ذلك أمر ضرورى لبقاء العلاقة بين البلاد المتقدمة صناعيا والبــلاد المتخلفة التى يجب عليهــا العمل لاعادة تشكيل علاقة الاستغلال التى يشجبها كتاب « رأس المال » ، ولايمكننــا التحدث عن « الذكاء والتفوق الحقيقى للطبيعة فيما يتعلق بالمجتمع كله · وباختصار عن الازدهار الكامل للفرد الاجتماعى » (١٧) ان حالة الأزمة تعم كوكب الأرض جميعا ، وليس مؤكدا ألا تزداد سوءا ·

ونصل الآن الى منطق الأزمة ، أى زيادة الاختلال المؤدى الى انفصال

---

(١٧) K. *Marx* : Oeuvres ، مكتبة الكواكب السبع ، باريس ، المجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٦٨ ، المجلد الثانى «Machinisme, science et loisir, Economie Créateur» ص ٣٠٤ وما بعدها ، Les crises ، ص ٤٥٩ وما بعدها . وايضا «Fragments» ص ١٤٨٤ وما بعدها ·

لارجعة فيه للمؤسسات غير المستقرة • ويشبه السير « تجاه أزمة » سير المرء تجاه مدفع ، أى تبنيه استراتيجية للثورة ، ويتم هذا من خلال القوى الجديدة التى تقضى على من يعاديها •

وتستبعد استراتيجية الأزمة مبدأ التعايش السلمى ، مع أنه أمر ضرورى لها مهما كان الثمن • كما أن البديل بين الحرية الفكرية ، والتعايش واستراتيجية الأزمة ، والثورة والحرب شأن آخر معرض للخطر : السلام ، الحفاظ على أرواح البشر ، والحرية الفكرية ، وتدعيم الحضارات ، وتأييد تقدمها • ولقد كان تفجر الذكاء والموهبة واضحا بدرجة لافتة للنظر فى السنوات الأولى للثورة الفرنسية • وفى برلين خلال العقد الثالث من هذا القرن حتى مجىء النازية ، ونفيهما كل من بريخت وأينشتين ؛ وفى ايطاليا حين تولى موسولينى السلطة •• كبح الذكاء والموهبة فى كل مرة ، ثم خنقتهما الحلول الفاشستية التى أنهت الأزمات • وتفيد مثل هذه التوافقات أن الأزمة تثير فى المرحلة التى تظهر فيها أفكارا ، وتدعو الذكاء الى الاستجابة من خلال مبتدعات كثيرة • ومن ذلك يأتى التوقد الفكرى والفنى للعصور التى تصنع الأزمات • ويشمل « السير تجاه الأزمة » احتمالات من هذا القبيل • بل انه يعادل استراتيجية الحرب التى تستهدف ابادة العدو • ولايترك مكانا لاحتمالات معينة تعتمد على عبقرية البشر ، كما تظهر فى تقدم العلم والتكنولوجيا ، والاهتمام بالصالح العام لأن الأمر العام هو الذى يمكن من خلاله استعادة الضمير بغض النظر عن السلوك الطبقى •

ان رسالة مجتمع ما ابتداء من مستوى الثقافة حتى مستوى الحضارة هى نتيجة أزمة فى خصوصيتها وانتصارها • وبالتالى فالأزمة مرتبطة بتقدم • حيث تحتشد ثقافة عتيقة بأعمال نموها • وتعد قدراتها على الاختراع بديلا عن وضع اقليمى وبيئة تحس فيها التأثيرات الأجنبية ، لكنها لاتنقى ، ولا تمثل تحديات ؛ ولاتتجاوز الأفق • وقد يكون وصف حالات للحضارة من هذا القبيل وصفا ايكولوجيا : نوع من التركيب بين الخاصية الاجتماعية والاقتصادية وبين جغرافيتها الخاصة • ان قدم الثقافات الذى لم ينطلق الى حضارات يكمن كمونا دقيقا فى هذا الاستقلال الذاتى المتركز فى ذاته ؛ وبالتالى فانه يتسم بسمات نزعة اقليمية معينة على الدوام •

وعلى العكس تكسب الثقافة التى تدخل عصرها الكلاسيكى لنفسها تلك الخصائص العقلانية ، والشاملة ، كما يقول اشبنجلر ، وتجلب لها

حالة حضارة حين يضع اقتحام الثقافات الأجنبية نفسه موضع التساؤل الكافي ، وكذلك عمليات التوازن التى تكون قد ثبتتها آنذاك • وفى الوقت نفسه ، تجد ذرائعها الخاصـــة بابتداع يحـل محلها فى منطقة للنمو • ويعقب هذا التطور الماثل فى استمرارية القيم المكتســبه ، لكن بلغة الانفتاح والتركيب ، والتركيب الملحوظ والتطور المشهور •

وحين يعاد فحص عصر كلاسيكى من هذا القبيل لحضارة ما بدءا من أساليبها الفنية حتى أخلاقيـــاتها ، بسبب العامل « الأجنبى » ، نجده يستجيب بهياكل تنظيمية مفتوحة تربط المرحـلة الأسمى بالمستويات السابقة بطريقــة ايجابيـــة تشبه الخمائر التى تؤثر فى الكل تأثيرا استرجاعيا • وكان الأمر هكذا فى نهاية العصر الحجرى الحديث ، حيث تطورت ثقافة جزر سايكلادس الى حضارة ، هى الحضارة المينوئية (*) التى تمثلت الاضافات الفينيقية والمصرية فى صورة تركيب جديد •

وأثينا فى القرن الخامس ق٠م ، وفلورنسا فى عصر آل ميدتشى ، وعهد لويس الرابع عشر ، وكلها مراحل واجهت فيها ثقافة ما أزمة بسبب التدخل الأجنبى ، فهيأت نفسها لقهر هذا التدخـل على الأفق العالمى • ولم يكن هذا الأفق شاملا العالم كله ، بل الأفق المطوق للأراضى المكتشفة • ويمكن أن يأخذ التطور مجراه باستمرار القيم المكتسبة • وأن يأخذ مظهرا فى العالم كله • وهناك رد جديد يتمثل فى رسم منظورى شامل مفتوح لمواجهات لا نهائيــة ، ولما ينتجه العقـل من تطورات • وكانت الثقافة القائمة حتى ذاك الوقت هى الحل لما تواجهه جمـاعة ما من مشـــاكل اقليمية ، بل ترقى الى مستوى الحلول التى يمكنهـــا استيعاب جميع الاختلافات دون أن تضعف بالمزج • وربما تنتهى هذه الظاهرة بصورة مثالية ـ قبل أن تكون هدفا لكوكب الأرض فى عصرنا ـ فى أجيال عصر النهضة الغربية • واستطاعت بوساطة الأســاليب الفنية ، والطباعة ، والملاحة فى أعالى البحار ، واكتشاف القارات ، وترسيخ علم ســـياسة الدولة ، أن ترتقى الى تلك المستويات العقلانية والعالمية للحضارة التى تضفى عليها ـ بمجرد ما أن تجربها ـ سمة « النهضة » •

ولنضرب مثالا شبه معاصر ، وغير متوقع من النظرة الأولى ، بالنسبة لموضوعنا • وهو مثال يرتبط بعمل أدبى بحت للكاتب جيمس جويس • يعد رسما توضيحيا لمشكلات الحضـــارة وعلاقتها بثقافات متفردة فى

(*) نسبة الى مينوس ، وكان لقبا ملكيا يحمله ملوك كريت مثل ما كان ملوك مصر يحملون لقب فرعون (المترجم) •

مستواها الذى قلما تحققه ذاتيا وعالميا فى آن واحد · وهذا هو سبب استمرار تأثير عمل جيمس جويس تأثيرا حاسـما على الوعى المعاصر ، لأنه يفعل هذا ، قبل كل شيء ، فى منظور خصب ، ربما يكون مفتاحا لما يجب أن يسلك من طرق · لقد رفع جيمس جويس ـ بلغة الانجليز الغزاة ـ الحقائق المعنوية لأيرلندا الذليلة الى ذرى جديدة ، أى الى أبعاد حضارة العصر الحضرية والكوكبية · وبهذا الأسلوب ، تكسب الثقافة لنفسها مرتبة الحضارة بالمعنى الذى أدركها به اشبنجلر ، أى الثقافة التى يحكمها العقـل والقيم ، وهذا هو المعنى العالمى ، وتظهر مرحلة الحضارة بكل ما للكلمة من معنى ، حين تواجه ثقافة ما تحديا وتهديدا من تلك العوامل التى تظهر فى أفقها ، فتجد في ديناميتها الباطنية القدرة على جمع شتاتها وتمثلها ، دون أن تختفى هى ؛ وتواتيها فرصة الارتفاع على ذاتها ، وعلى ما يواجهها من تحديات وتهديدات ، فترتقى الى مستوى التبادلات أو الى آفاق العالم ، بل الى عالمية محددة الموقع تاريخيا · لقد شعر جيمس جويس ، وهو طالب شاب فى دبلن ، بالسخرية تجاه أنصار نهوض اللغة الأيرلندية التى سقطت فى مهاوى الاهمال · وفى رأيه أن ذلك نـوع من الضعف في مرحلة تحتـاج الى أكبر قدر من القوة ، لقد أراد أيرلندا « معاصرة وطيدة العزم » · وبالتالى وجد أن من واجبه أن يكتب روايات بلغة العدو ، ليؤكد عبقرية أمته · وكان هذا كسبا هائلا لايرلنـدا ، حيث دخلت الثقافة الغيلية (*) من خـلال مؤلف رواية «Finnegan's Wake» (يقظة فنجانز) فى مناقشـات عصرية للحضارة ، وشاركت فيها بأسلوب رائد : الحضارة هى ثقافة راغبة فى أزمة وحسـب ، حتى تقهرها ، وتزداد نموا ، وهذه هى قوانين الحياة ، وبتسرع أكثر تلك هى قوانين العقل · وعلينا أن ننظر الى شكل ذلك « اللامتناهى » الذى يكسو به هوسرل (*) النزعة الانسانية الأوربية (١٨)·

ولنعـد الى النزعة العصرية المفهومة على أنها ادراك لأزمة مفتوحة لتاريخ يشق طريقه ، ويبقى هذا التاريخ ليفسر كل جوانبها · وليسـت

(*) الغيلية : لغة السلتيين فى أيرلندا والمرتفعات الاسكتلندية (المترجم) ·

(*) ادمند ، هوسرل : (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) فيلسوف ألمانى · مذهبه الظواهرية ، وهو محاولة لدراسة الشعور الذاتى فى علاقاته بالأشياء التى يعيشها (المترجم) ·

(١٨) E. Husserl : «La crise de l'umanité europénne et de la philosophie». مجلة الميتافيزيقا والأخلاق ، العدد ٣ ، باريس سنة ١٩٥٠ . منقولة عن نسخة Paulet ٢ ، باريس ، ابريل سنة ١٩٦٨ ·

النزعة العصرية رفضا للتاريخ من أجل الفائدة الحالية . بل هى الوعى بأن التاريخ لا يفسر ولا يحلل أى شىء ، لكنه مصــاحبة تهكميه للحاضر ، كما يرى جويس فى روايته « يوليسس » الأمر الذى يزيده ابهاما · والأمر المثير بدرجة أكثر ، هو أن يرى التاريخ فى ضوء الأحداث الحالية على أنه تعاقب لاستجابات قائمة على المصادفة · والدورات التى تبدو فيه ليست الا المراحل التى بلغ فيها الاختراع ذروته هنــا أو هناك ، فى أعمــال للحضارة ، ولا تخدم النزعة الكلاسيكية والعصور الذهبية ، وبلوغ الذرى على أنها أوضاع ، بل بكونها توضيحات لقيم العقل البشرى الذى لابد أن يحظى بالاعتراف به فى كل أزمة ·

وعلى الأفق الكوكبى الذى تظهر فيه العقلانية الفنية المنتجة أصبحت أداة التفوق اللا محدود مخاطرة كبرى · وليست هذه العقلانية وحدها التى يعد النظام الرأسمالى أحد أشكالها البارزة من بين الاشــكال الأخرى ، ويضع الثقافات فى الأزمة التى يؤثر فيها ــ بل يؤثر فيها جميعا ، اذا لم يدمرها ــ على أن هذه العقلانية هى وسيط انفصالها نفسه بدرجة تكون فيها لغايات السلطة أو الربــح أســبقية على غايات التحرر البشرى · ولن يــكون التغلب على هذه الأزمة بأى الطرق رجعــة الى قيم الماضى ، بل نتيجة اختراع لاتتحدد صيغته فى مكان محدد · ويمكن لطاقات العقل البشرى أن تتقدم لمواجهة الأزمة باختراع بديل للخطر · وفى بداية أزمة ما لاتكون ثمة صورة لشىء بعينه مختلفة اختلافا شاملا ، تولدها مخاوف أو تراجعات · ويمكن التغلب على هذا بحلول جريئة · ولابد من مساندة هذه الحلول بنشر الوعى ، وبالتحليلات ، والمشروعات ، والاستراتيجيات التى تقرر الأعمال والوسائل المتسمة بالجسارة فى المقام الأول ، لتكون ردا عليها ·

ادمون لدرادر

(بروكسل)

المصاهرات الزوجية بين الأسر الحاكمة فى الأرستقراطية الرومانية

دونالد سيم

١

لا شك أن المصاهرات الزوجية بين الأسر الأرستقراطية الرومانية فى عصر الجمهورية تتطلب دراسة دقيقة ومستفيضة ٠ ولا يسلم الباحثون فى هذه المصاهرات من الوقوع فى خطر المبالغة أو تبسيط الأمور ، مما يترتب عليه نشوب الكثير من الجدل واختلاف الآراء ٠ يضاف الى ذلك الملل الناشىء عن البحث فى عصور خالية من الشواهد التاريخية التى تعطى فكرة صحيحة عن الشخصيات موضوع الدراسة ٠

ويمكن تجنب البحث فى هذا الموضوع الواسع والمعقد بحجة الصمت الذى نلتزم به النصوص التاريخية ٠ وصحيح أن الاحتجاج بصمت النصوص احتجاج سلبى وجزئى ، ولكن اذا لجأنا الى هذا الصمت مع الضمانات اللازمة أمكن أن يعطينا ذلك مؤشرات تنير السبيل ٠ ويؤيد ذلك ما هو معروف فى علم البحث الجنائى من أن الكلاب البوليسية اذا لاذت بالصمت فى الوقت الذى يجب فيه أن تنبح اعتبر ذلك دليلا على وجود شىء غريب مخالف للمعتاد ٠

ولذلك يجدر بنا أن نبذل الجهد فى دراسة الأسر أو العشائر التى تحاشت فيما يظهر على مر العصور المصاهرات الزوجية عن طريق الزواج أو التبنى ٠ ولكننا سنقتصر هنا من باب الايجاز على البحث فى المصاهرات التى تمت بين أبرز الأسر الارستقراطية القديمة ، أعنى طبقة الأشراف التى احتكرت المناصب والسلطة الرسمية ، الى أن حان الوقت الذى تسنى فيه لطبقة العامة أن تصل الى منصب القنصلية فى منتصف القرن الرابع ٠

المترجم : أمين محمود الشريف

يضاف الى ذلك تحفظ آخر ، وهو أن مؤرخي الرومان يعترفون بوجود خمس عشائر رومانية بارزة هي آل اميلوس وآل كلوديوس وآل كورنيلوس وآل فابيوس وآل فاليريوس • وكان لكل بيت من هذه البيوت دوره منذ البداية في تاريخ الجمهورية ، وامتد هذا الدور الى عهد الامبراطورية •

٢

وسندرس في البداية — على سبيل التمهيد وتحديد الموضوع — مثالا من المصاهرات المشهورة في عصر الغزوات الامبراطورية الكبرى • وهذا المثل يتعلق بآل اميلوس والفرع الرئيسي من آل كوزنيلوس • وتفصيل ذلك أن سيبيو الشاب الذي حل محل فابيوس العجوز في الصراع مع هانيبال (قائد قرطاجة) تزوج امرأة من آل اميلوس ، هي شقيقة اميلوس بولس ، فاتح مقدونيا • وعندما أوشكت سلالة سيبيو أفريقانوس أن تنقرض تدخل بولس وقدم أحد أبنائه ليكون ابنا بالتبني ، وهو سيبيو اميلوس الذي هدم قرطاجة •

وتكررت هذه المصاهرة ، وان تمت بعد فترة طويلة ، كما تشير الى ذلك احدى الحقائق العرضية : ذلك أن اميلوس لسبيدوس القنصل الثوري في سنة ٧٨ قدم الى أحد أفراد أسرة سيبيو ولدا ليكون ابنا بالتبني كما قدم أيضا حفيده بولس اميليوس لبيدوس ، ابن أخي لبيدوس أحد أعضاء الحكومة الثلاثية ، وأحد الأرستقراطيين الأوائل الذين أيدوا وزيت قيصر في الوقت الذي حدثت فيه معركة اكتيوم • وتزوج بولس هذا كورنيليا التي تنتمي الى أسرة سيبيو ، وهي المرأة التي تكلمت من القبر حسبما جاء في آخر قصيدة للشاعر بروبرس ، وقدمت العزاء لزوجها وولديها •

٣

وعلى عكس ذلك تماما نجد أنه لا يوجد على مدى قرون طويلة أي نسب أو قرابة بين العشائر الثلاث الأخرى ، وهي آل كلوديوس ، وآل فابيوس ، وآل فاليريوس • أكثر من ذلك أن آل كلوديوس يبتعدون عن آل اميليوس وسيبيو ، وترجع أقدم حلقة ثابتة بين البيوت الثلاثة الى عهد القيصر أغسطس • ذلك أن ميسلا ابيانوس القنصل في سنة ١٢ م تبناه فاليريوس ميسلا باسم أبيوس كلوديوس •

وقصارى ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن هــذه الظاهرة جديرة بالتنويه ، كما أنها بحاجة الى تفسير ، وان كان منطويا على مخاطرة وعرضة للانتقاد • وفى مثل هذه الأمور يجب التزام أقصى قدر من الحذر ، لأن الشواهد التاريخية مبتورة ومتفرقة ، وبخاصة فيما يتعلق بالزوجات • ففى القرن الأخير فى عهد الجمهورية لا نجد سوى امرأتين من آل فابيوس •

ويلاحظ أن نجــم طبقة الأشراف أخذ فى الأفول ، كما يتضح من قوائم القناصل (جمع قنصل وهو أحد الحاكمين الرئيسيين فى حكومة روما القديمة) • مثال ذلك أنه لم يوجد سوى قنصلين من طبقة الأشراف خلال مدة تسع سنوات (بين ١٢٦ و ١١٦ ق٠م) • ولم تستطع أسر الأشراف أن تحتفظ بهذا المنصب ، بل اشرف بعضــها على الفناء التام • وكذلك لا يوجد أى قنصل من آل فاليريوس ميسلا طــوال قرن كامل (من ١٦١ الى ٦١ ق٠م) كما لا يوجد أى قنصل من آل فابيوس بين ١١٦ و ٤٥ • ولكن الحظ ابتسم فى الوقت نفسه لبعض ذوى القرابة البعيدة : مثال ذلك أن آل فاليريوس فلاسيوس لمع نجمهم خلال الفترة التى أفل فيها نجم آل ميسالى • وبعد وفاة سيبيو اميليانوس آل الأمر الى آل ناسيسى الذين انحدروا من سلالة ابن عم افريقانوس الأول • ولكن الأمر لم يدم لهم طويلا اذ توفى أحدهم (فى ١١١ م) وهو يتولى وظيفة قنصل ، واختفى ابنه من المسرح السياسى بعد أن تقلد وظيفة « البرينور » (القاضى عند الرومان) •

وقد أدت عدة أسباب الى هذه النتيجة ، وهى الأخطاء السياسية ، وعدم الخصوبة (العقم) وقلة الأطفال ، وانتشار الأوبئة ، وسوء الأحوال الصحية فى العاصمة • ومع ذلك استــمرت الأسر قائمة برغم عــدم استمرارها فى الحكم ، ولم تفقد مكانتهــا الاجتماعية ، واستعاد بعضها مجده ، وبخاصة أشهرها وأعرقها فى القدم •

٤

وربما كان من المتوقع أن تعمد الأسر الارستقراطية الى ضم صفوفها وحشد كل طاقاتها لتفادى خطر اقصائها عن تقاليد الحكم • ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل حدث عكس ذلك تماما • يضاف الى ذلك أن الأمل كان ضعيفا فى الحصول على تأييد الأسر الأخرى المتدهورة التى تعرضت لذلك المصير • لذلك اتجهت الأسر الارستقراطية الى مصاهرة الأسر القوية والكثيرة النسل من نبلاء طبقة العامة مثل أسرة سيسليوس متيلى التى امتازت

بالثراء وكثرة العدد ٠ وترتب على ذلك أن تقلد منها ستة أشخاص منصب القنصل خلال خمسة عشر عاما (١٢٣ ــ ١٠٩) ٠

يضاف الى ذلك ما تطلبته الحياة العامة من تكاليف في سبيل الوصول الى مراتب المجد والشرف واستعادة ثروة الأجداد . وكان أيسر السبل لتحقيق هذا الغرض هو مصاهرة الأصدقاء والموالى الذين جنوا أرباحا طائلة من غنائم الحروب الرومانية ٠

٥

وفى هذا القدر كفاية لتكوين صورة عامة للموقف ٠ أما فيما يتعلق بآل كلوديوس وفابيوس وفاليريوس فيجدر بنا أن نقول كلمة خاصة عن كل منهم ٠ وتفصيل ذلك أن بعض الأشراف مثل آل اميليوس ويوليوس كانوا يدعون أنهم من نسل الآلهة أو الملوك أو من نبلاء « ألب لا لونج » أو « تروا » أما آل كلوديوس وفاليريوس فيتضح من أساطيرهم أنهم دخلاء على مدينة روما اذ جاءوا من اقليم « سابين » ، فى حين أن المهاجرين المتأخرين من آل كلوديوس قدموا الى روما بعد تأسيس الجمهورية ببضع سنين، أما آل فابيوس فلا يوجد فى الشواهد التاريخية ما يدل على أصلهم ، مع العلم بأن هذه الشواهد غير وافية ٠

واشتهر آل كلوديوس بالغطرسة والكبرياء ، ويزعم أعداؤهم أنهم اضطهدوا طبقة العامة فى روما ، وهذا زعم باطل لأن آل كلوديوس كانوا خطباء شعبيين يتوددون الى العامة ويستغلونهم فى الوصول الى الحكم ، وكانوا يتخذون من العامة موالى لهم ، ويغيظون خصومهم بغطرستهم وكبريائهم ، ثم ان أصلهم البعيد لم يغض من قدرهم ومكانتهم على الأقل فى نظر الامبراطور كلوديوس آخر أفراد الأسرة ٠

ونقول بهذه المناسبة انه بدرت من هذا الامبراطور اشارة عابرة غير موفقة ، حين زعم أن آل كلوديوس لم يلجأوا قط الى التبنى فى حين أنه هو نفسه تبنى ولدا اسمه « دومتيوس هينوبربوس » ٠

٦

كانت طبقة الأشراف هى قوام الجمهورية الرومانية وزينتها . ولما تولى الدكتاتور « سيلا » مقاليد السلطة عمل على اعادة النظام القديم . وكان سيلا ينتمى الى طبقة الأشراف ، وتقلد الشبان الذين اختارهم

وأيدهم منصب القنصلية فى الوقت المناسب فى كل سنة ماعدا ثلاثة منهم من سنة ٦١ الى ٥٥ ، وخلال كل السنوات من سنة ٥٤ الى ٤٩ ٠ ومن هنا ظهرت الأسماء اللامعة العديدة الى أن حلت الكارثة التى عجلت بسقوط بومبى الكبير ، وانهيار الجمهورية أمام نائب القنصل (البروقنصل) فى اقليم الغال (فرنسا الحالية) ٠

ولم يخف أغسطس قيصر (الذى أسس الامبراطورية بعد سقوط الجمهورية) ميله الى طبقة الأشراف ، ولم يعرف وريثه فى الاسم والسلطة حدا يقف عنده أو عائقا يكبح جماحه عندما أسس ملكية أرستقراطية . وساعده على ذلك الحروب الأهلية التى نشبت فى البلاد ، وشيئا فشيئا نشأ جيل جديد ووصل الى السلطة كما تشهد بذلك سلسلة الشبان الأشراف الذين تقلدوا منصب القنصلية بين سنتى ١٦ و ٧ ، ومن بين هؤلاء الشبان اثنان ينتميان الى عشائر انتشلها أغسطس قيصر من وهدة الخمول (عدم الشهرة يقال فلان خامل الذكر بمعنى أنه مغمور غير مشهور) أما الباقون فكانوا ينتمون الى نبلاء طبقة العامة ، وقد عزز هؤلاء طبقة الأشراف التى هلك القسم الأكبر منها ٠

٧

تتجلى أهمية المصاهرات الزوجية فى عهد الجمهورية اذا ألقينا نظرة خاطفة على السياسة التى انتهجها أغسطس قيصر منذ البداية بعد معركة اكتيوم مباشرة ، ولم يكن لقيصر أسلاف عظام لأنه كان حفيد صراف بالبلدية ، ولم يكن له ولد ، بل كانت له بنت واحدة اسمها جوليا . وكلوديوس مارسيلوس ابن أخته أكتافيا ، وسرعان ما تزوج كلوديوس من جوليا ، ولكن قيصر وهب أيضا أربعة من بنات أخته اكتافيا رزقت بهن فى زيجاتها المتوالية ، وفى سنة ٢٨ زوج قيصر كبراهن المدعوة مارسيلا من ماركوس أجريبا ، أما الثلاث الأخريات ـ وكن يقاربن جوليا فى السن ـ فقد بلغن سن الزواج بعد ثلاث أو أربع سنوات ، فتزوجت مارسيلا الصغرى من ميسلا أبيانوس الذى توفى فى سنة ١٢م (وربما لم يكن أول زوج لها) ٠ وأما البنتان الأخريان (واسم أبيهما ماركوس انطونيوس) فقد تزوجت كبراهما من دومتيوس أبينوبربوس ، وصغراهما من دروسوس ٠

وليس هذا مقام تفصيل المصاهرات التى تمت بعد ذلك ، ولا التغييرات السياسية التى حدثت قصدا أو عفوا ، ولكن الملك العجوز اضطر فى النهاية ـ بعد أن شعر بخيبة الأمل فى توريث الحكم لآل بيته

بسبب وفاة الأميرين حفيديه الى أن يتبنى ربيبا له لم يكن يحظى برضاه ، وهو تيوبريوس كلوديوس · صحيح أن تيربريوس هذا كان ينتمى الى آل كلوديوس ، ولكنه لم يكن ينتمى الى السلالة الراقية من هذا البيت وهى سلالة أبيوس كلوديوس ·

وفيما يتعلق بتوريث السلطة العليا فان الاختيار لم يخرج عن دائرة الأسرة ، فقد تردد الاختيار - مثلا - بين أهينوبربوس زوج أنطونيا ، وفابيوس بكسيموس زوج مارسيا بنت عم قيصر ، واذا لم يتم هذا الاختيار فقد كان من الممكن أن يتحول مؤقتا الى سلالة اميليوس لبيدى ، وهو اختيار له مزاياه الظاهرة ·

وقد سبقت الاشارة الى بولس الشهير وزوجته كورنيليا التى كانت فى الواقع الأخت غير الشقيقة لجوليا ابنة قيصر · وكان لبولس هذا ولدان **أحدهما** اسمه ل · بولس الذى تزوج جوليا الثانية حفيدة قيصر ، وكلاهما تقرر اقصاؤه عن الحكم والقضاء عليه بعد أن تولى تيبريوس قيصر مقاليد الحكم (فى سنة ٢) · أما **الآخر** فهو ماركوس لبيدوس الذى لقب « بالمتغطرس » فى حكاية مشهورة على لسان الحاكم الأوتوقراطى (الحاكم الفرد ، المستبد) وهو يحتضر ، ذكر فيها رأيه فى بعض الأشخاص ، وقد زوج الامبراطور كاليجولا أخته دروسيلا من ابن ماركوس هذا ، ووعده بوراثة الحكم ·

٨

مما يدل على الاستمرارية بين الجمهورية والامبراطورية تشابه الأسماء والأشكال فى كلا النظامين ، ووحدة الشعارات والكلمات كما يقول المؤرخ الرومانى تاسيتوس ، والواقع أن الحكم الأوتوقراطى (الفردى) فى عهد الامبراطورية كان حكما قانونيا مبنيا على تفويض مجلس الشيوخ الشعبى سلطاته للامبراطور (أو التنازل عن هذه السلطات) ·

وهناك عنصران مختلفان للاستمرارية يفسران ويكملان هذا التعويض أو انتقال السلطة من مجلس الشيوخ الى الأباطرة : **أولهما أن** الأباطرة كانوا فيما يبدو آخر الأسر الحاكمة بعد بومبى وقيصر وأنطونيوس، وكانوا « زعماء أحزاب ملكية » كما وصفهم بذلك أحد المؤرخين الأغارقة · **وثانيهما** أن أغسطس قيصر عمل على استمرار الممارسات التى كانت

سائدة بين الطبقة الأرستقراطية وعرف كيف يستميل الى جانبه الأسماء الشهيرة والنابهة فى هذه الطبقة ٠

ونتيجة لذلك كانت الأسرة الحاكمة بمثابة ضربة موجهة لا الى الخصوم المنافسين المشتبه فيهم فقط (لأن أبناء سلا ، وكراسوس ، وبومبى اتهموا آل قيصر وآل كلوديوس بأنهم من السوقة المغتصبين للسلطة) ، بل أيضا الى معظم أعضاء الفريق القابض على زمام السلطة ٠ بيد أن لحمة النسب مع آل قيصر لم تكن هى السبب الأساسى الذى عجل بالقضاء على كثير من عائلات الأشراف ، بل كان السبب فى ذلك يرجع الى شيوع عادة الترف بين هذه الأسر منذ معركة اكتيوم كما قال تاسيتوس ، يضاف الى ذلك الاسراف فى الانفاق رغبة فى التظاهر والتفاخر مما أدى الى استنزاف ثروتهم ٠ أما مصير آل فاليريوس فقد كان يختلف عن ذلك ، بدليل المصير المحزن الذى حل بفاليريا ميسالينا زوجة كلوديوس قيصر ، وفى الوقت نفسه بابنة ابن عمها ميسالا أبيانوس ٠ ولكن ميسالا كرفينوس الذى كان مفخرة روما على عهد أغسطس تحاشى تزويج أولاده من الأسر الارستقراطية ، وكان آخر قنصل من سلالته يتلقى اعانة من نيرون ٠

٩

يكفى هذا القدر من الكلام عن الملكية الأرستقراطية التى انتهت بانتهاء عهد نيرون ، سليل ماركوس أنطونيوس ، وأهينو بريوس ، العدو اللدود لكل من بومبى وقيصر ٠ وقد اختار كورنيلوس تاسيتوس (وهو رومانى من الولايات الغربية) لكتاب له بعنوان « الجوليات » موضوع تدهور وسقوط روما ، وتضمن هذا التاريخ فصولا عن الأسرة الحاكمة ، والحرية الأرستقراطية والأسر القديمة ٠

وسرعان ما تولت السلطة طبقة ادارية تتألف من موالى وأتباع آل قيصر ٠ وبعد أن تولى السلطة لفترة قصيرة ثلاثة من المطالبين بالعرش ، قام حكام الأقاليم وقادة الجيش بتنصيب فلافيوس فسباسيان امبراطورا فى ٦٩ م وتولى الحكم لفترة قصيرة ، ثم حدث انقلاب مقنع فى خريف ٩٧ م تولى على أثره الامبراطور تراجان مقاليد الحكم ، وهو أول امبراطور من الأقاليم ، وكان ينتمى الى طبقة اجتماعية أرقى من طبقة فسباسيان ، اذ كان من أبناء أحد القناصل المشهورين ، كما كان من أفراد طبقة الأشراف الجديدة ٠

وهكذا وصلت أرستقراطية جديدة الى أوج المجد بظهور الأسرة الامبراطورية الثالثة أسرة « الأباطرة الأنطونين » ، وتعد هذه الأسرة من حيث تكوينهـا وعناصرها حدثا قديما متكررا أضفى عليه الزمن صبغة القداسة • وهذا الحدث هو مجموعة الأسر التى تربطها لحمة النسب وصلة القربى والمصاهرة ، وتتكون هذه الأسر من الصفوة المختارة فى جنوب أسبانيا (الأندلس) وأواسط فرنسا • وقد عبأت هذه الأسر ثروتهـا وطاقاتها فى سبيل هدف واحد ، وتشابهت من وجوه عديدة ، وان اختلفت فى أصولها البعيدة ، اذ ينتمى شيوخ الأندلس (السناتور) الى اليهود الايطاليين القدامى ، والجنود والتجار الذين استعمروا البلاد ، واستقروا فيها ، وكونوا على مر الزمن طبقة من الملاك ، فى حين أن ارستقراطيـة « الغال الناربونيز » تتكون من سلالة محلية ، تشهد أسماؤها الرومانية بحصولها على حق الرعوية الذى خولهم اياه نواب القناصل فى العهد الأخير من الجمهورية • والواقع أن مستعمرتى « نيم » و « فيين » كانتا بذلك أسبق من المستعمرات الرومانية مثل نربون وآرل •

ويبدو لأول وهلة أن الحكام الأنطونين الأربعة (وهم تراجان . وهدريان ، وانطونينوس بيوس ، وماركوس أوريليوس) كانت تغلب عليهم الصبغة الأسبانية • اذ كان موطن تراجان وهدريان هو مستعمرة ايتاليكا ، وهى مستوطنة قديمة بالقرب من اشبيلية ، وكان موطن آل أناى (الأسلاف الذكور لماركوس) فى مدينة أخرى بالولاية نفسها •

ولكن يجب أن لا ننسى الزيجات الغنية : ذلك أن تراجان تزوج بومبيا بلوتينا من مدينة « نيم » ، ولم ينجب منها ذرية ولا أحدا يخلفه • ولكن أنطونينوس بيوس كان من أهل نيم من جهة جديه : وهما أورليوس فلفوس ، وأريوس أنطونينوس (تولى كل منهما منصب القنصلية مرتين) • وكانت جدة ماركوس أوزليوس لأمه هى دوميشيا لوسيلا وكانت وارثة غنية أيضا من تلك المدينة •

١٠

أكدنا فى هذا المقال استمرار الأوضاع الاجتماعية خلال التقلبات التى طرأت على النظام السياسى ، وحين عرضنـا لذكر طبقة الأشراف والنبلاء الرومانيين أوردنا خلاصة موجزة عن بعض البيوت البارزة فى هذه الطبقة ، ومن بينها ثلاث تمتاز بسمات خاصة ، ومن المناسب ـ بلا شك ـ أن نتحدث عن السمات العامة التى تشترك فيها الطبقة الحاكمة

جميعا أيا كان أصلها ، ولما كنا قد بدأنا المقال بتأكيد أهمية الظواهر السلبية ناسب أن نقارن بين الأرســـتقراطية الرومانية والارستقراطية الأوربية من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر ، ذلك أنه يوجد بعض أوجه الشبه بينهما برغم اختلافهما فى الأدوار والسلوك فى ظل الملكية ، ويمكن تحديد أوجه الشبه والاختلاف بايجاز شديد فيما يلى :

فى روما استغنت أمة مارست الحروب عن ارتداء الزى العسكرى الموحد فى المدينة ، وحظرت الجمهورية اللجوء الى « المبـارزة » (معركة بالأسلحة الفتاكة بين شخصين فى حضور بعض الشهود لحسم النزاع بينهما بسبب اهانة وجهت من أحدهما الى الآخر) . ولما كان النزوع الى العدوان والغيرة على الشرف والعرض من سمات أعضاء الطبقات العليـا فقد اضطروا الى أن يحسموا منازعاتهم بالكلام والاقناع والمرافعة فى قضاياهم أمام المحاكم والمجلس الأعلى . ومن هنا أصبحت الخطابة وفن الاقناع شرطا للنجاح ، وكان على طلاب المناصب والساعين الى مراتب الشرف والمجد أن يجتازوا مراحل معينة محفوفة بالصـعوبات ، بغيـة استبعاد تميز الأكفاء ، وكان من شــأن القواعد التى تشترط بلوغ سن معينة أن تحد من تطلعات الشباب ، وأدى هذا الى تحقيق مبدأ « المساواة بين القلة المختارة » .

وفى حين جنح الرومان الى التفاخر بالأنســاب والتباهى بالمراتب والمقامات الرفيعة فانهم لم يصروا على « نقاء الدم » ، فكان أى رجل من آل اميليوس لا يفقد شيئا من حقوقه اذا انتسب بالتبنى الى آل كورنليوس أو فابيوس ، وقد تساهل الأرستقراطيون الرومان فى مسألة العلاقات الجنسية ، وتغاضوا عن الكثير من المحاذير فى هذا المجال ، وتستروا على النتائج المترتبة على ذلك . ولم يكن أى زواج تال يكفل الشرعية ، وكان أولاد الزنا ينسبون الى الآباء الذين أنجبوهم ، بيد أن روما لم تجز تعيين أولاد الزنا فى الوظائف العليـا أو فى منـاصب قادة الجيش والدوقات والأساقفة والكاردينالات كما هو الحال فى بعض المجتمعات الأوربية .

ولم تعرف روما أى نوع من الطبقات الكهنوتية المستقلة ، وكان القسيس يتولى القضاء ، ووضعت الحكومة الدين فى مكانه الصحيح . واتخذته وسيلة للتأثير فى الجماهير أو تخويفهم على حد قول بوليبى أحد الساسة الأجانب مبديا موافقته على ذلك .

وكان الشعب الامبراطورى مولعا بمظاهر الأبهة ، واقامة الاحتفالات ، وتنظيم المواكب . وتشييع الجنـائز ، ولكن الشعب لم يهتم بشـعارات النسب والنبالة ، وانما اهتم بتماثيل الأسلاف وشجرات الأنساب ، وأخيرا

لم يعترف الرومان بحق البكر فى الارث كله ، ولا بالألقاب المترتبة على ملكية العقارات أو القرابة ، أو الزواج ، ولكن مثل هذه الألقاب تغيرت أو اختلفت أو تراكمت ، فى حين أن طريقة الرومان فى التسمية كانت بسيطة وثابتة ، وكانت الأقدمية المكتسبة فى خدمة الجمهورية تحدد رتبة السناتور (عضو مجلس الشيوخ) ٠

هكذا كانت الأرستقراطية الرومانية التى استطاعت خلال ٥٣ عاما (تحديد بوليبى) أن تهزم قرطاجة وأن تحطم الممالك وتبسط سيطرتها على العالم ٠

خاتمة

اذا بدأ لنا أن نعقد مقارنة تاريخية بين المجتمع الارستقراطى فى روما وغيره من المجتمعات الارستقراطية وجب علينا أن نتحاشى الوقوع فى الأخطار التى تجرنا اليها مثل هذه المقارنات ٠ والطريق السوى لتحاشى هذا المحظور هو عقد المقارنة بين المجتمع الارستقراطى فى روما ومجتمع ارستقراطى آخر فى العصر الحديث ، هو المجتمع الارستقراطى فى مدينة (بوستون » الأمريكية ، ذلك المجتمع الذى تكون فى القرن التاسع عشر ، ومن بين الأسر التى قامت فى هذه المدينة أسرة « كابوت » وأسرة « لويل » اللتان ورد ذكرهما فى هذه الرباعية الشعرية :

هـذه هى مدينـة بوستون القديمـة الطيبـة
موطن الفـول ، والقـد (سـمك البكالاه)
حيث يتنـاجى آل لـويل مع آل كابـوت
وحيث يتنـاجى آل كابـوت مع الله وحـده

ويرجع تاريخ هاتين الأسرتين الى العصور الحديثة ، بالقياس الى أسرة « ونثروب » وأسرة « سولتونستال » (وهى الأسرة الوحيدة التى تحمل الدروع) ، وقد زادت ثروة هذه الأسر الناجمة عن التجارة الخارجية بفضل ممارسة الصناعة والأعمال المصرفية ٠

يضاف الى ذلك أن التعليم أدى الى توثيق العلاقات بين هذه الأسر ، اذ امتلكت جامعة مشتركة (هارفارد) بكل معنى الكلمة ، وظلت تهيمن على هذه الجامعة زمنا طويلا حيث التحقت تسعة أجيال منها بجامعة هارفارد بين سنة ١٦٥٩ وسنة ١٩٣٩ ٠

وشاعت المصاهرة بين الأسر فى المدينة ، وجرت على نمط متكرر ، مثال ذلك أن أربعة من كل سبعة من أسرة كابـوت تزوجوا من أسرة هيجنصن (من رجال البنوك ذوى الشهرة الفائقة) ، وأن ثلاثة من كل سته من أسرة بيبودى تزوجوا من أسرة لورنس ، وكانت المنافسة بين الأسر حادة وظاهرة ، ولكنها لم تؤد الى تجنب المصاهرة على النحو الذى لاحظناه بين بعض الأسر الرومانية ، بيد أن أحدا من أسرة سولتونستال لم يتزوج أحدا من أسرة لويل ٠

دونالد سيم
كلية ولفصن اكسفورد

الهند وأخطار التحليل النفسى

ككشمى كابانى وفرنسوا شينيه

جاء فى كتاب ظهر مؤخرا (١) أن الهند تعتبر ـ من حيث ما يعرف عنها من وفرة فى عدد سكانها من النساء الأمر الذى جعل منها ما يعبر عنه بكلمة « شاكتى ـ SAKTI » أى ما معناه المجتمع الأنثوى ـ واحدا من آخر مواقع « الأمومة » الحصينة فى العالم · ولو أن هناك حقا حضارة تختص بالأمومة ، بصرف النظر عن القوانين الشخصية والمدنية ، لكانت حضارة الهند ـ حيث يترعرع حب الأم لأبنائها ويزدهر وتثبت جذوره فى حرارة التكافل ـ هى العنصر العاطفى الساحر الجميل ، الذى يلقى بظلاله على الحياة كلها فيهـا ، ويطبعها بطـابع الحب والتآلف العضوى · لقد تشربت الهند المعجزة التى انطوى عليها هذا الحب الجارف المطلق الذى تجسد فى ملايين لاتحصى من الأمهات اللاتى ينشرن نوعا من الأمن العاطفى السعيد ، تشربته فى روحها من الحيـاة كلهـا قطرة بعد قطرة · وفيما حول هذا البيت السعيد الكبير انتظمت المجمـوعة التى تتكون منها الشخصية الهندوسية ، واتسق المضمون الرئيسى للحضارة الهندوسية ، التى تتسم بطابع من التماسك الفذ العجيب · وعندما كانت الشخصية الهندوسية تتكون وتبنى نفسـهـا انطلاقا من هذه « الوحدة الثنائية » ، فانها كانت بالضرورة فى حاجة الى محور يدور حوله أو يتجه اليه قطبها المزدوج ، أى قطب التلاحـم والانفصـال (٢) ، ان هذه هى النظرية العامة التى طلع بها س · كاكار ـ S. KAKAR الذى يزعم ـ

المترجم : موسى بدوى

(١) المؤلف هو : سودهير كاكار ـ Sudher Kaker ، والكتاب عنوانه (مو ر ـا Moksa أى العالم الداخلى ـ الطفوله والمجتمع فى الهند · ترجمه عن الانجليزية كلود دافنييه ، وكتبت مقدمته كاترين كليمان · ص ٢٤٩ فى النسخة الانجليزية وص ٢١١ فى النسخة الفرنسية ·

(٢) ص ٧٠ ـ ص ٢٤ ·

وهو يستند فى نظريته على نتائج التحليل النفسى العلاجى لعدد من الأفراد الهندوس ، وعلى الشواهد التى تجمعت مما تمثله المخيلة الجماعية فى هذه البلاد (مثل الفلكلور والأساطير وغيرها) ــ بأنه قد توصل الى الكشف عن منبع تطور الكائن الفرد من حيث مثله الأعلى فى الخلاص (MOKSA) فى طفولته المبكرة ، وبصفة خاصة فى المرحلة التى يستبد به فيها عنفوان الرغبة اللاشعورية لاستعادة فترة وجود « الأم الحنون » الحافلة بالعطف والحنان (٣) ٠

من هنا كان التساؤل ، من وجهة نظر هذا الفيلسوف المعنى بدراسة الحضارة الهندية والمتتبع للطرق المختلفة فى التحليل النفسى ، أمن الممكن والمشروع أن تقام صلة بين مذهب التحليل النفسى وبين الحضارة الهندية ٠

ان تحت أيدينا برهانا عن مشروعية هذا الادعاء فيما يقول به اثنان من علماء البحث فى أصول الجنس البشرى وتطوره وأعراقه ومعتقداته مما له علاقة بالتحليل النفسى ، وهما « أ٠ كاردينر «A. KARDINER و « ر ٠ لينتون «R. LINTON » ٠ فقد لاحظ الأول بتحليله للعلاقة بين فترة الطفولة وبين نماذج من السلوك فى ثقافة سكان جزيرة آلور ALOR ، وهى احدى جزر السند ، أن الطفل الذى تهمله أمه لكى تعمل أجيرة فى الحقول فيحرم من رضعة من ثديها يصل به الأمر الى أن تتكون لديه عقدة الشعور بالحرمان والانطواء على النفس ، والحقد على العالم بأسره ٠ وباختصار فان افتقار الطفل فى هذه الجزيرة الى مفهوم عطف الأم يمكن أن يضفى عليه صفة خاصة ، هى أن يتكون لديه المعنى الدائم للرفض ٠

ذلك أن أساليب التربية التى خضع لها هذا الطفل ، وأنظمة التغذية والتعليم الأولى التى اتبعت معه ، هى التى لونت الى هذا الحد رؤيته للعالم ، فلم يعد معقولا أنه يستطيع فيما بعد أن يعرف شيئا عن ذلك الحب الذى يشبه العبادة لأمه القديسة ، أو حتى للسيدة العذراء(٤)، وهو الذى كان رضاعه يتأخر دوما ، أو يؤجل الى وقت آخر ٠ والواقع أن كل شىء يمضى فى طريقه ، كما لو أن تلك « المؤسسات الأولية » التى تكلف بالرعاية التى يتقبلها الطفل أو يرفضها ، وكما لو أن طريقة

---

(٣) س٠ كاكار ــ موكشا ــ ص ١٢٩ ، ص ٨٥ ٠

(٤) أ٠ كاردينر « الحدود السيكولوجية للمجتمع » ١٩٤٥ ٠ ص ٢٣٣ ٠

تغذية الرضيع واستعباده ، وأنظمة التربية والتعليم الأساسية ، والوضع داخل الأسرة الكبيرة العدد وغير ذلك ، كما لو أن كل هذه قد استمرت واستطالت حتى وصلت الى مرحلة « المؤسسات الثانوية » ابتداء من الفلكلور والأساطير والطقوس الدينية ، الى أساليب التفكير نفسها • ويقول « س • كاكار » في هذا الصدد ان الوجود الدائم للاسقاط السحرى على النفس ، وخصوبة أسطورة الشعر فى الهند ، انما يجيئان من الأهمية الثقافية بمكان فى التطور الفكرى من النوع الأولى (٥) •

التكافل بين الأم والطفل

ونجد ، على العكس من ذلك ، ان الاثر الذى لايفطن اليه احد للتكافل المستمر والممتد بين الأم ووليدها ، وهو أثر بالغ العمق مع ذلك فى صميم النفس الهندوسية ، تجعله نزعة التدين المنتشرة فى هذه البلاد يتجه بشكل تلقائى نحو صورة « الأمومة » ، مثلما تبدو الرؤية الربانيه وتتجلى فيها قبل أى شىء آخر فى العبادة التى تتجه بأشكال شتى نحو الآلهة الكبرى (٦) • من هنا لا غرابة فيما صنعه أحد زعماء الدين ممن يعرفون باسم « فيفكاناندا VIVEKANADA » ، ورد ذكره خلال تتبع المؤلف فى تعمق كبير لموضوع « المشكلة التفردية للذكر » ، فقد عمد الى وضع أكليل من الزهور خلال رحلة له فى أوربا عند قدمى أحد تماثيل السيدة العذراء فى كنيسة صغيرة فى جبال سويسرا وهو يهتف وفقا لما رواه أحد تلامذته قائلا : « انها أم هى الأخرى » • وكما تقول صحيفة « لاليتا شاهزرناما LALITA SAHASRANAMA » فانه ما من ثقافة أخرى غير الثقافة الهندية قد مجدت على هذه الصورة دور الخلاص الذى قامت به السيدة العذراء ، الذى تمد وحدته الشاملة المشاعر الحية والذاخرة بالطبيعة المتدفقة • ومما لاشك فيه أن هذا النوع من النساء من الطبقة الوسطى ــ زوجات كن أو أمهات ــ هو الذى تدين له الهند لكونها قد أحبطت خطر النزعات الانتحارية التى تهدد الحضارة العصرية فى الغرب ، وقاومت طويلا آثارها • ان الشخصية الهندوسية النفسية والاجتماعية التى قامت بنيتها فى عمق نتيجة للعلاقة بين الأم والطفل لايمكن أن تفوض س • كاكار بالادعاء بأن الهدف من الخلاص يتغذى على

---

(٥) ص ١٥٨ ــ ص ١١٠ •

(٦) ص ١٥٨/١٥١ ــ ١٠٧/١٠٤ •

(٧) ص ٢١٩ ــ ص ١٦٠ •

الرغبة الطفولية فى الذوبان والارتداد الى كنف « الأم الصالحة » • أول كل شيء لأن التفسير النفسى لأى تجـــربة دينيـــة لا يلغى مضمونهـــا الميتافيزيقى ، وأى حقيقة لايمكن أن تكون زائفة لمجرد أنى قد كشفت عن الطريقة الآلية التى تربطنى بها •

وبغير التنكر للتطلع المنتشر والذائع عن أمنيـــة الارتداد الى خفقان الرضاع من ثدى الأم وحـــرارة صدرها فان الهدف من الخلاص هو على وجه خاص تعبير عن التماس حالة من التكامل الشفيف فى المشاعر ، وهو تكامل يحصـــــل عليه المرء بنوع من التكثيف والتركيز ، وامتلاك الشيء الكثير •

ان الطفل هو بلا شك « أبو الانســـــان » كما قال وورد زورث WORDSWORTH ثم ردده من بعده فرويد • ولاشك كذلك أن اللاشعور عند الانسان قد ســـجل فى تلافيفه ذلك الفردوس الرائع ، الواقع خارج الزمان والمكان ، والحافل بالنعيم داخل الرحم •• الا آنه لا يترتب على كون الانسان قد مر بالطفولة قبل أن يصبح رجلا أن يصبح ذلك ضرورة ماسة لايستطيع الفكاك منهـــا قط • والواقع أن التماس الخلاص يعبر بشكل جوهرى عن النفور من فكرة العودة صغيرا فى صدر أم جديد ، ففيما بين مرحلة الوجود داخل الرحم وبين الخلاص يوجد عدم اتساق أساسى ، يحول دون أى رجعة من الثانى الى الأول •

هل هى عودة الى الرحم ؟

واذا كان الانسان يحاول على وجه التحديد أن لا يولد من جديد وتكون غايته هى الوصول الى الكائن الكامل ، فكيف يمكن تشبيه تطلعه الى الخلاص بالحاحه فى التماس الارتداد الى الرحم ؟ ان صورة الانغماس فى المحيط (٨) لا تعبر عن التحام ارتدادى خادع ، اذ أن طريق الخلاص لا يرتد سلبيا الى حالة ما هو غير متميز أو الى حالة الابهام الأولى التى كان عليها ، فهذا الطريق ـــ على العكس من ذلك ـــ هو مسار البشرية وعملها المتواصل المذهل فى الترتيب التفاضلى الذى يجرى فى مرحلة الطفولة المبكرة ، بمساعدة صيرورة واعية لتطور تبسيطى ، أى بالانتقال التطورى مما هو مركب الى ماهو بسيط ، ومن المتميز الى غير المتميز • أفليس

---

(٨) Chandogyo-Upanisad ـ المجلد السادس ـ ١٠ ـ ٢/١ ، موندا كا ، الجزء الثالث •

اذن مما له مغزى ان يعمد س · كاكار الى الخلط (٩) بين ديمومة التطورات النفسية اللاشعورية وانزلاقه الى ناحية من الزمن (١٠) ، وبين ما يقال له « وراء الزمن » الذى هو الا بدية المحددة التى تشبه تماما الوداع الأبدى ؟ ·

وفيما يتعلق بالوسوسة المغلفة داخل الفكرة التى يعبر عنها بكلمة « سامشارا SAMSARA » نفسها (أى أن يكون الانسان محكوما عليه الى مالا نهاية له بالتكرار الذى يتعين على وجه التحديد أن يتولى الخلاص سحقه) ينبغى التزام الحذر من الخلط بين ذلك وبين الاكراه على التكرار ، الذى يعبر من ناحية عن جمود المادة الحية فى شكل اتجاه الى الحفاظ على التجارب وتكرارها ، ومن ناحية أخرى عن مقاومة التغيير الناتج عن نوع من الاجراء المنظم ذى الاتجاه الارتدادى ·

الثقافة الهندية والتحليل النفسى

يبدو لنا أن الثقافة الهندية قد تلاءمت بصورة رائعة مع بحث نفسى تحليلى ، من حيث ان « النفس » الهندية قد عرفت كيف تحافظ على الآثار الحية للقيم التقليدية الضاربة فى القدم ، كمحافظتها على الأساطير والطقوس · وينحو كل هذا المضمون المستتر الى اظهار نفسه من خلال الحياة اليومية العادية ·

الا أنه ينبغى ـ قبل تناول مثل هذا البحث ـ التزود بمجموعة من المعارف ، التى تتيح بصورة أفضل فهم تصورات اللاشعور فى النصوص الهندية (١٢) ، كما يتعين بصفة خاصة أن يقول المرء لنفسه سلفا : ان المقابلة ليست هى التماثل ·

ان الانطباعات التى جمعت نتيجة للتحليل النفسى العلاجى لعدد من « المرضى » الهندوس ، قد كشفت فى جلاء ـ وان كان ذلك على مستوى مفردات اللغة فحسب (١٣) ـ كم هى فطرية فى الطبيعة الهندية الصميمة عناصر الثقافة الحكيمة المستقاة من النصوص السنسكريتية القديمة ،

---

(٩) نفس المصدر ص ٨٤ ـ ص ٤٦ ·

(١٠) يقول فرويد : « يحتفظ اللاشعور بالأشياء كما لو كانت فى مقبرة فرعونية » ·

(١٢) يقوم « كاباني » حاليا بجمع هذه النصوص تمهيدا لنشرها ·

(١٣) انظر ص ٨٧ ، ص ٤٩ ·

فلسفية كانت أو غير ذلك ، ومن خصائص هذه النصوص صياغة عدد من النظريات النفسية المتضمنة نداء باطنيا يقول بأن الانسان مدعو للعمل الاجتماعي أو الديني ، وبدون هذه النظريات لايمكن أن تكون هنـــاك دراسة جادة في علم البحث في أصول الانسان والجنس البشرى بصفة عامة . ولقد نلاحظ الى جانب ذلك أنه بممارسة التحليل النفسى فى الثقافة الهندية لا يكتفى المؤلف بأن يقدم لنا « العالم الداخلى » لنخبة مختارة من « عدد من الأفراد المتماثلين » (١٤) ، أى من « هندوس ينتمون الى طبقات شعبية مختلفة » (١٥) ظل اللا شعور لديهم مستغرقا فى تقليد يرجع الى زمن بعيد انتقل اليهم بشكل طبيعى عبر الأجيال المتعاقبـة ، ولكنـــه استحضر لنا بالطريقة نفسها وأسلمنا « عالمه هو الخاص » (١٦) .

أما القارىء المعنى بالشؤون الهندية ، الذى تشتد به الرغبة لوضع ثقته فى مؤلف يأخذ فى كتاباته بالتحليل النفسى أكثر من كونه متبحرا فى الشؤون الهندية أو الفلسفية ، والذى يكون عادة متفتحا ازاء الأسلوب التحليلى الذى يجد فيه عددا من الصفحات الرائعة تتبدى فيها الخصوبة من خلال التفاصيل الحقيقية التى نحملها فى فصلين متتاليين من الكتاب ، هذا القارىء لايستطيع طوال الفصــل الثانى الذى عنوانه « المفهوم الهندوسى للعالم » أن يتخلص من شعور عميق بالأسى ، سببه الأخطـاء الكثيرة والتشبيهات المتعجلة . ولكى يوضح كاكار « الانتماء الى الهند » ومدى عمقه لدى الهنود اضطر اضطرارا الى تنـاول المعارف الفلسفية الأساسية فى الهند ، ومنها « موكشـا «MOKSA» » و « دهـارما «DHARMA» » ، و « كارمان ـ «KARMAN» » وغيرها ، كما اضطر أن يخوض فى موضوع « اليوجا » والتحليل النفسى .

الطبيعة الحقيقية للخلاص
فى نصوص « أوبانيشاد فيديك »

يقتصر المؤلف على قوله : « اننى لا أتحدث هنا عن الفلسفة الهندوسية التى تستخدم مفاهيم تجريدية وعقلانية لا يستسيغها غير نخبة مختارة من الكهنة وشراح الكتب الدينية المقدسة » (١٧) ، لكى يصف بهذه الجملة

---

(١٤) ص ٣١ ، ص ٤
(١٥) ص ٣٦ ، ص ٨ .
(١٦) ص ٤٢ ـ ٦٩ ، ص ١٢ ـ ٣٤ .
(١٧) المصدر نفسه ص ٤٥ .

وحدها ذلك « الهدف الأسمى للانسان » وهو ما يعبرون عنه بعبارة « باراما بوري شارتا PARAMA - PURUSARTHA» . أي الخلاص (موكشا ــ Moksa وذلك في النص الرئيسي من كتاب « برهاد ــ آرانياكا ــ أوبانيشاد BRHAD - ARANYAKA - UPANISAD» الجزء الرابع ، ٣ ، ٢١ ، الذي يشير من خلال مقارنة مشهورة الى الحالة التي تعتبر بلا ازدواجية (١٨) · الا أن الترجمة (١٩) التي يسوقها س · كاكار لهذه العبارة لاتمت بصلة الى النص السنسكريتي ، الى جانب أننا نجد في الجزء الأخير اضافة لايوردها النص على الاطلاق · وفيما يلي الترجمة المذكورة :

« انها بالنسبة للانسان الذي يغط في سبات عميق حالة ما وراء الرغبة فيه ، بعد أن تخلص من الشر ، ولم يعد يداخله الخوف · فهو في هذه الحالة مثله كمثل رجل في أحضان امرأته المحبوبة اذ لا يعود يدري شيئا عما هو في الخارج أو في الداخل · وكذلك هذا الشخص الذي عانق المعرفة نفسها لايعود يدري شيئا عما هو في الداخل أو في الخارج · ذلك أنها بالنسبة له حالة لا ألم فيها ولا عذاب ، حيث تجد الرغبة ما يشبعها ، وحيث لا رغبة الا في الذات ، وحيث لا رغبة على الاطلاق » ·

والواقع أن هذا النص يبدو خاصا باللحظة التي يعمد فيها « أوبانيشاد UPANISAD» الى وصف حالات الأرق ، والنوم المشوب بالأحلام ، والنعاس العميق الذي لا أحلام فيه · والحالة الأخيرة هي التي يسود فيها الصفاء الكامل (سامبرا ساتا SAMPRASADA)

ان كل هذه التعاليم قد صدرت عن « ياجنافالكيا YAJANALKYA سعيا والتماسا للخلاص (فيموكشايا VIMOKASA) ، الذي مذاقه هو « السعادة الكبرى PARAMA-ANANDA» » ·

والخلاص كما يستفاد من الوصف الذي جاء عنه في نصوص أوبانيشاد ــ وقد كان يتعلق في جوهرة بالفلسفة المجوسية أو بالمعرفة المطلقة (جنانا JNANA) ــ ليس في الامكان تشبيهه بتجربة

---

(١٨) باو ــ BAU ــ الجزء الرابع ص ٢ ــ ٢٣ ـ ٣٠ ·

(١٩) ص ٤٦ ــ ص ١٦ ·

شعرية أو فنية ، حيث يتنـاول التعبير عن البعد العاطفى فى طبيعتنا ، انما الأمر خاص بتجربة صوفية يتعذر وصفها ، لأنهـا تتجـاوز الفكر وتتخطى لغـة التعبير ، فهى الحدس المباشر للكائن ، أو هى استبصاره. أو الرؤية المفاجئة التى لا تعتمد على خبرة سابقة ، فتجعله يدرك فى لمحة ما سوف يقع فى المستقبل ، وهو غارق فى صمته وشفافيته ·

يضاف الى ذلك أن مجرد تأويل ذلك بأنه حالة « اندماج » فى المثل الأعلى (موكشا MOKSA) لايكفى لتبيان مدى اختـلاف المدارس والمذاهب التى تمثلها ال « فيدانتا VEDANTA » وتنوعها (٢٦) · واذا نحن تعمقنا فى معانى « البيانات العظمى » أو ما يقال لها « ماها فاكيا MAHA-VAKYA (٢٧) وفيها عبارات مثل : « أنا البراهمانى ». (آهام براهما سمى AHAM BRAHMASMI) ، و « أنت ذاك » (تات تفام آزى TAT TVAMASI) (٢٨) نرى أن « سانكارا SANKARA» يصف الخلاص بأنه انجاز من قبل حالة اللا ازدواجية (آدفاتيا ADVAITA) وهو لايتوقف عن ترديد القول بأن : « من يعرف البراهمانى الأكبر يصبح هو نفسه براهمانيا » (٢٩) ·

وحتى بالنسبة ل « رامانوجا RAMANUJA» الذى يفسح مكانا فى كتاباته للورع الحار والعفو الالهى فانه يرى أن مجرد التأويل بحالة « الاندماج » يعتبر شيئا بالغ البسـاطة ، اذ أنه متى بلغ الخلاص أجله ظلت شخصية المتعبد ثابتـة الى الأبـد فى اتحـادها ، دون أن تنمحى أو تزول ·

القطب الآخر : شامخيا يوجا

وعلى هذه الوتيرة فان س · كاكار بالتجائه الى تفضيل تقديم صور

---

(٢٦) كانت ال « دارشانا Dorsana» ومعها ال « شامخايا SAMKHAYA» يوجا هى التى أثرت أكثر من غيرها حتى يومنا هذا بمنبعها الذى يرجع الى «الأوبانيشاد» فى الفكر الهندى . وكبار المعلقين الخمسة فى هذا الصدد هم : سانكارا ، ورامانوجا ، ونيمباركا ، ومادهافا ، وفالابها ·

(٢٧) باو BAU ١ ، ٤ ، ١٠ ·

(٢٨) جامعة شيكاغو ـ الجزء السادس ٨ ، ٧ ·

(٢٩) مونداكا اوبانيشاد ـ الجزء الثالث ٢ ، ٩ ·

الاستغراق والذوبان يكون قد حكم على نفسه بعدم معرفة القطب الآخر في التأمل الهندى ، وهو المعروف باسم « شامخيا يوجا SAMKHAYA QOGA» الذى يصف الخلاص في عبارات تدل على الانعزالية (خايفاليا KAIVALYA) (٣٠) ، وليس فى عبارات تشير الى اتحاد أو اندماج . ذلك أن الذين ينتمون الى تعاليم الـ « راجا يوجا RAJA-YOGA » انما يتخذ كل منهم لنفسه نموذجا يقال له « بوروشا PURUSA» ومعناه « الرجل » الذى هو الذكر الأول (PUMS) (٣١) المستقل بذاته ، والخامل ، والعقيم ، أى أنه مجرد ذات ، ومجرد وجود (٣٢) ، وعلى العكس من ذلك تماما فان الطبيعة التلقائية العادية « براكرتى PRAKRTI» ، التى هى متطورة ومثمرة ، أى أنها هى الكيان الأنثوى على أفضل مايكون ، هذه الطبيعة غير مدركة لما تفعل (آسيتانا ACETANA) (٣٣) ، أما دورها الذى تقوم به فهو مقصور على عرض مشهد العالم على الرجل (PURUSA) ، الذى هو مجرد مشاهد (٣٤) . وان الهدف النهائى للشامخيا التقليدية هو العمل عن طريق المعرفة الشاملة بالمبادىء الخمسة والعشرين (بانكا ـ فيمشا تيتاتفا ـ جنانا) (٣٥) ، وعدم الربط بين البوروشا والبراكرتى . أتباع اليوجا سوترا الا أن يستخدموا الوسائل العملية والمعنوية ، والنفسية والجسدية والعقلية للوصول الى هذا الفصل . فالاندماج اذن شيء آخر ، وكذلك الانعزال ، الذى يجدد الروح ، التى هى رقيق من حيث المظهر فى تلقائيتها . هذه « الانعزالية » التى يستنفد فيها الخلاص، كما يقول مذهب الشامخيا يوجا ، أليست تعنى أن الحيوية تقوم على الدعوة الى أن تتجاوز نفسها فى تلقائية روحية ، حيث تنحية النفس وتركها لنفسها تتحول الى توافق للنفس مع النفس ؟

« سميتا » و « سا »

واذا كان الأمر يتعلق بعقد مقارنة ، يقيمها المؤلف بين سيكولوجية

---

(٣٠) شامخيا كاريكاه ٦٨ ـ يوجا سوترا الجزء الثالث ٥٠ . ٥٥ الجزء الرابع ٣٤ .

(٣١) س.ك ١١ .

(٣٢) س.ك ١٩ الجزء الرابع ٣٤ .

(٣٣) س.ك ١١ .

(٣٤) انظر س.ك ٥٨ . ٦٥ ، ٦٦ .

(٣٥) تعليق « جاودا بادا » على س.ك ص ٤٤ .

اليوجا والتحليل النفسى (٣٦) ، فيتعين استطلاع التعرجات البارزة الناتجة عن المقابلات الاعتباطية التى تؤكد معرفة تقريبية بالمذاهب موضوع النظر • وليس هناك ماهو أخطر من أن تعقد بدون حذر مقابلة ، على سبيل المثال ، بين الرمزين اللذين ابتدعهما « فرويد » وهما «CITTA» و «CA». (٣٧) • ورغم الاحتياط التمهيدى الذى يحيط به المؤلف نفسه (٣٨) فان من يقرأ له يتعرض للوقوع فى عدم التمييز بين أحد هذين الرمزين والآخر • الواقع أن الرمز الأول وهو «CITTA» يتضمن الفاعليات النفسية ، الواضحة والمبهمة ، الشعورية واللاشعورية • ورمز «CITTA» فى قاموس اليوجا ـ سوترا « باتانجالى «PATANJALI» يقابل « العضو الداخلى «ANTAH-KARANA» الذى يتكون من « بودهى «BUDDHI» و « آهامكارا «AHAMKARA» و « ماناس MANAS» • ولفظ « بودهى » يعنى الخاصية العقلية لاتخاذ القرار والتمييز بين الأشياء ، وتعبير ال « آهامكارا » يقصد به مركز الأنانية والأثرة ، وتعبير « ماناس » يراد به مجموع الحواس ، لذا ندرك أن «CITTA» تجمع درجات « النفس » الفرويدية الثلاث : انفعال ، فوقى ، أنا • أو اذا تكلمنا بلغة ال « جونا «GUNA» لا تكون « RAJAS» « القدر » (٣٩) وحدها حيث يفور ويتفاعل الشكلان « راجا «Raga» و « تاما «TAMAS» • بل هناك فى الجزء الأسمى ، بالتوافق مع الكائن ، نورشفاف (ساتفا SATTVA) • وبالمثل فان ال «CITTA» ، وهى وعاء كل من ال « سامسكارا » وال « فازانا » للحياة السابقة وللحياة الحاضرة ، وتحدد الحياة القادمة ، وتغطى مجالا أفسح بكثير من الرمز الفرويدى •

ويرسم المؤلف وهو مستمر فى نطاق اليوجا سوترا خطا موازيا بين أسلوب « البراتياهارا «PRATYAHARA» وأسلوب الرابطة الحرة للعلاج بالتحليل النفسى (٤٠) • ان تعبير « براتياهارا » الذى يترجمه بجسارة : « تجمع نمو » ، انما يحدد بدقة أكثر « إنكماش الحواس » • ولقد يمكن الاتفاق معه على أن الانسان الذى ينفصل بصورة مؤقتة عن

---

(٣٦) ص ٥٣ • يتعين ايضاح أن رقة اليوجا منذ البداية تختلف جذريا عن التحليل النفسى لأن اليوجا لا تشفى مريضا ، فهى تفترض أساسا أن الانسان سليم وفى حالة طيبة •

(٣٧) ص ٥٤ ، ٥٧ •

(٣٨) ص ٥٥ •

(٣٩) ص ٥٤ ، ٥٥ •

(٤٠) ص ٥٨ ـ ص ٢٥ •

البيئة الخارجية يحدث عنده تدفق من الصور ، اذ أنه عند هذه المرحلة من فنون اليوجا لا تكون الروح قد تركزت بعد ٠ ومع ذلك فلقد يتعين الاشارة الى أن قصدية التدريبين تختلف كل منهـــا عن الأخرى اختلافا تاما ٠ ان هذا الانفصال بالنسبة للمبتدىء فى اليوجا هو المحطة الأولى فى التركيز ، أما بالنسبة لمن يجرى له التحليل فهو الوسيلة لبلوغ مستوى تدفق الصور أو استحواذ المشاعر عليه ٠

ويلح المؤلف كذلك كثيرا على المرحلة اللاحقة ل « الرايا يوجا » التى خصصت لجعل CITTA « وحيدة الاتجاه » (٤١) ٠ انهـــا المرحلة المتســـمة بتثبيت الروح (دهارانا DHARANA) فى نقطة واحـــدة (ايكاجراتا EKAGRATA) ٠ وهى تتضح من وصف اليوجا الشهير : « اليوجا هى وقف تغيرات الفكر » (٤٢) أو أيضا : « اليوجا هى وضع الفكر فى شكل مستقر تماما » (٤٣) ، وهدفها الأخير ليس هو تحويل ال «CITTA» (٤٤) فقط وانما اسكاتها أيضـــا ، لأنها تقف فى جانب الطبيعة (براكرتى PRAKRTI) ٠ وهنا يكون التناقض فى غاية الوضوح مع التحليل النفسى : ان CA يتكلم ! اما « الانعزال » فلا يمكن الحصـــول عليه الا بتعقيم واحراق الافتراضات اللاشعورية ، التى هى « جراثيم » « بيجا BIJA » لتجسيدات جديدة ٠ من هنا كانت أهميـــة ال « اساميرا جناتا سامادهى » التى يصل فيها تابع اليوجا لحالة اللاشعور باللاشعور ٠ هذه ال « سامادهى » وحرفيا « بدون معرفة الشىء » تسمى أيضا « سامادهى بغير جراثيم NIRBIJA-SAMADHI ٠

كونداليني يوجا

عندما يعالج المؤلف الفيزيولوجيا الدقيقة ل « الكونداليني يوجا » فانه يقع فى أخطاء فى غاية الوضوح ــ وان كانت عارضة ــ اذ أنه وضع ال «CITTA» فى ال « مولادهارا كاركا » (٤٥) ، التى هى فى الواقع

---

(٤١) ص ٥٥ ــ ٥٦ ــ ٥٨ ٠

(٤٢) يوجا ــ سوترا ــ الجزء الأول ــ ٢ ٠

(٤٣) يوجا ــ سوترا ــ الجزء الأول ــ ١ ٠

(٤٤) ص ٥٩ ، ص ٢٥ ٠

(٤٥) ص ٥٧ ــ ص ٢٤ ٠

مقرا الـ « كونداليني » وتتحكم في الجنس ، على حين أن الـ «CITTA» بشكلهـــا الثلاثي (يودهي وآهامكارا وماناس) مقــرها في « الكاكرا » السادســة ، وهي « آجنا كاكرا » اذ لايمكن تنزيل الـ «CITTA» الى الـ « ليبيدو «LIBIDO وهي الطــاقة الحيوية الشبقية في جوهرها وتتمثل فيها غريزة الحياة ، رغم أنها تحتويها ٠

وفضلا عن ذلك فأين يمكن العثور في مناخ اليوجا على هذا الجو المأساوي والرومانسي الذي هو محل البحث ٠

ان التحليل يعني على وجه التأكيــد « فك أجزاء الشيء » ، وجعله في حالة سيولة بعد أن كان في حالة جمود ، وذلك بالنزول به نحــو الأصل الذي كان عليه ، بحيث يصبح نسيجه الرمزي لمعانيه الدينية أكثر شفافية ٠ ان س ٠ كاكار يعود الى هذه النظرة انطلاقا من الكشف الذي توصلت اليه العالمة النمسوية « ميلاني كلاين «KLEIN من وجود فجوة بين الشيء الحسن والشيء السيء ، تساوي الحدين أو قانون اجتماع الضدين ، وبتأثيره قدر لصورة « الأم الصالحة » في الهند ان تتغير الى « الأم السيئة » البشعة (كالي ٠٠ على سبيل المثال) ٠ والواقع أن الكون الحي المقدس في الهند يتخذ بصفة خاصة طابع القرب ، مما يجعله حسن الطالع حينا ، وجالبا للشر حينا آخر ، وفقا للتقلبات التي تحكم التصورات التخيلية الخادعة التي كشفت عنها هذه العالمة ٠

اللينجا ٠٠ شجرة ودعامة مقدسة

غير أنه مثلما كانت تأويلات « كلاين » الخاصة بمرحلة الصبا عن « كرزنا KRSNA » وأسطورة « بوتاناه PUTANA » مقنعة (فيما عدا التشبيه القابل للجدل بين كرزنا و ديونيس) (٤٧) فكذلك يبدو تفسير قصة « اللينجا LINGA بأنها استعادة للثقة بالنفس بعد « الأحداث البالغة الحساسية في الطفولة المبكرة » (٤٨) في صورة المغامرة الفريدة في نوعها ، انها تعمد الى تبسيط الأحداث ، مادامت لاتعترف بشعور القداسة والعبء الكبير الذي يقع على المتعبد أمام اللينجا ٠ ولقد يجوز فضــــلا عن ذلك القول بأن الأصــــل في هذا الحجر المقام أنه لم يكن

---

(٤٧) ص ١٩٧ ـ ١٩٨ (١٤٢ ـ ١٤٣) ٠
(٤٨) ص ٢١٣ ـ ٢١٥ (١٥٦ ـ ١٥٨) ٠

يرمز على الاطلاق الى « عضو الذكورة » ، كما كان اتباع فرويد السطحيون يعتقدون لفترة طويلة ، وانما الى الشجرة المقدسة التى تعبد فى شكل دعامة مقدسة ، كنوع من المحور الميتافيزيقى الذى يعثر عليه فى الثقافات المتباينة ، ومصدر ل « العقد » أو أيضا السرة العضوية التى يتكون منها الكائن المرئى انطلاقا من الكائن غير المرئى ٠ فهذا الحجر القائم ، الذى يستخدم رمزا جسديا بدائيا ، أصبح يستخدم فيما بعد كرمز جنسى ٠ وبصفة عامة ، فان الطريقة المستخدمة اذا كانت تناسب بادرة « كرزنا » قابلة للتجريح ومخيبة للأمل فى حالة « سيفا » الذى هو اله الغريزة الجنسية والزهد فى الوقت نفسه ، ولو أن المؤلف قد لاحظ « التناقض بين الزهد الذى يلتزم به هذا الاله وبين الغريزة الجنسية التى يرمز اليها » لما استطاع حله الا على المستوى الشفهى ٠

الرضيع والأم

وهكذا تعرض علينا صورة مؤثرة ومخلصة للعلاقات التى تقوم بين الرضيع والأم ٠ فهذا الانسان الصغير يتفرد ــ كما هو معروف ــ بانعدام أساليب التكيف المعدة سلفا ، ويتميز بطول فترة اعتماده على الشخص الكبير الذى تفرض عليه طفولته ومرحلة ما قبل نضجه ٠ ان كلا من الثقافة الهندوكية والثقافة الغربية تستخدم لاحتياجاتها الفسيولوجية الأساسية طرقا للاشباع ونماذج من الردود تتعارض هذه مع تلك تعارضا جذريا ٠ ويسترعى النظر تناقض تجربة الطفولة الهندوكية مع صورة الطفل المعروفة فى الغرب ، ابتداء من القديس أوجستان حتى فرويد ٠ ففى مقابل البراءة العضوية السعيدة للطفل الهندوسى ، الذى تتيح له فترة اعتماده الطويلة على الغير أن يتدلل حتى دخوله الجامعة الأبوية ، نرى الصورة القاتمة لكائن متألم يائس ، عاجز عن أن يكفى نفسه بنفسه ، مستسلم بكليته للاحتياجات ومتاعب الحياة العضوية ، معرض لأهوال النمو ، وكله أنين وحسرة وغضب ، حامل على كاهله مجموعة من الغرائز التى تدعو الى الرعب والهلع ٠ ان الطفل الذى لم يكبر بعد وهو بالتالى معرض للشعور بأنه محروم من كل عون ربانى ، يكون فى رأى القديس أوجستان فريسة لنوع من الخبث الحقيقى الذى يغذى لديه الشبق الشهوانى والبغضاء ٠ وليس من شك فى أن هذا الموقف الذى يتخذه أوجستان ليس موقفا جامعا مانعا ، اذ تلطف منه الصورة التقليدية للطفل الذى تشمله « الرعاية » المسيحية ، كما كان الحال بالنسبة للطفل يسوع ٠ الا أنه عندما يهتف رجل مثل القديس أوجستان فى كتاب « الاعترافات Confessions» قائلا : « ألا من

يذكرني بخطيئة طفولتي ؟ » (٥١) فان الحنين الى مرحلة طفولة مبكرة كاملة لاتفتأ تتابع الهندوسي البالغ ٠

وفي مقابل الالتزام الهندوسي باحاطة الطفل بالسعادة مهما كان الثمن وشموله بالعناية والاهتمام بأقصى ما يكون (٥٢) ، تبرز أمامنا الحاجة التي لا ترحم ، التي ينقاد لها فرويد ، في عمل تربوي محوره الجوهري رفع عتبة الشعور بالاحتمال الى حد الكبت والحرمان ، ويقول فرويد في مرارة ان الكرب والكدر هما الاجراء التربوي الوحيد ، مادام صحيحا أن الممنوع يضفي في رأيه قيمة حضارية ، اذ أن البناء الحضاري يستند على وجه اليقين على مبدأ الزهد في الغرائز (٥٣) ٠

ولسوف يحتفظ الهندوسي طوال حياته بهذه المزية ، بفضل مثل هذا التكافل ، الذي ينطوي على سـلامة أصيلة للمشـاعر والأحاسيس ، ولن يتهدد الهندوسي البالغ أي فقدان للروح نتيجة استنزاف الحواس ، المصحوب بالارهاق والحيرة التي تجعل الانسان يضل عن وجهته ٠ واذا كان « العصاب النفسي » في آخر تحليل له هو عذاب الروح الذي لم يعثر على معناه (٥٤) كما جاء في عبارة جميلة ليونج JUNG فان تنعم المرء ذات يوم « بأم صالحة » يقي الهندوسي البالغ من مثل هذا الفقر الروحي ٠ ذلك أن حرارة القلب التي استمتع بها تبعد عنه كل شـعور بالألم ، مهما كانت تقلبات قدره ومصيره الذي قد يسـببه له « فطـام الحواس » ، والفرق اللانهائي للمعاني الذي كان « نتيشة » في القرن الماضي يراه يبزغ لدى الانسان الغربي المريض « بالعدمية » وهي أثقـل ضيف في الوجود ٠

عند هذا الحد يقدر المدى الذي يبقى فيه مفهوم التحليل النفسي ، الذي ينغلق على نفسه ، شريكا وضالعا في شطر جنسي ، حيث الشبق مرتبط ارتباطا وثيقا وعقديا بالغريزة الجنسية ٠ ويمضي كل شيء ، كما لو أن المؤلف وقد وصل الى مرحلة النضج يتطلع الى طرد وازاحة التسلط المنهجي الذي كان يشرف عليه في سـنوات تكوينه الأولى في

---

(٥١) المجلد الأول - الجزء السابع - ص ١١ ٠

(٥٢) ص ٢٦١ ٠

(٥٣) عن هذا الموضوع انظر كتاب (متاعب الحضاره) الفصل الأول ٠

(٥٤) س٠ ج٠ يونج - الشفاء السيكولوجي ١٩٥٣ - ص ١٨١ - ١٨٢ ٠

الغرب ٠ ومع ذلك فان الارتياب فى أن نوعا من اليقينية (مذهب فلسفى قائل بأن قوى الانسان العقلية قادرة على بلوغ الحقيقة اذا هو اعتمد على هذه القوى بطريقة منهجية) يحوم فى نفسه خلال تأويله وتفسيره ، سرعان ما ينحيها س ٠ كاكار جانبا (٥٥) ٠ ان تأويل المؤلف ، الذى يجد مرسى له فى النصوص « التانترية » (٥٦) ٠ (وهى مذهب هندوسى بوذى قديم) يحدث ما يسمى بنوع من « الاختزال التانترى » ٠

ان الحاجز العقلى الذى استخلصه س ٠ كاكار من التحليل النفسى أو من أسلوب « اريكسون ERIKSON» السيكولوجى (٥٧) قد تبدى فى نهاية الأمر وبه الكثير من عوامل الهبوط والبطلان نتيجة لضعف بعض التحليلات التى أوحى بها ، مما لا يؤهله لمحاولة الاقتراب من المطلق ٠ فهو غير صالح لمعاودة امتلاك الحيوية للقيام بمبادرة ميتافيزيقية تنفصل عن كل نزعة طبيعية وتجتث كل أنواع العبودية من الوضع البشرى ، تمهيدا لتحقيق « العبور » الثابت من النسبى الى المطلق ، عن طريق التقشف الزائد ، والادراك الروحى الذى يحرر الانسان ، والورع المتسم بالحب ٠ ومن المؤكد أن وصف تجربة الطفولة وحده لايكفى لرسم بيان واضح « معنى » القدر الانسانى اذا كان المقصود بكلمة « معنى » الجمع بين علم الكائن والقيمة ٠ ومن السذاجة الاعتقاد بأن تقرير « الوقائع » بحالتها الأولية يمكن أن تتأسس عليه صحة وصلاحية تفسير ما للمصير النهائى الذى قدر للانسان ٠ ان الرقيب لايختار الملامح البارزة وفقا لبعض المبادىء فحسب ، وانما هو لايستطيع تقييم النعيم العاطفى الذى شهدته مرحلة الطفولة الا اذا تحدد ارتباطها فى الاقتصاد الشامل للمصير الانسانى ٠ فكيف يمكن الحصول على تقويم لهذا المصير فى أبعاده الأخروية والا اذا رفعناه لذروة عالية يستطاع منها التعرف عليه أخيرا كوحدة واحدة لاتقبل التقسيم ؟ ولأن الانسان فى نقاش مستمر مع نفسه أو مع الآخرين ، ولأن المقدر على الانسان أن يتخلص من طفولته كلما تكيف مع مرحلة البلوغ ، فانه يستطيع الاضطلاع بماضيه دون أن يكون عبدا له ، اذ أن الآثار الباقية لديه عن طفولته تضفى طابعها على شخصيته ، ولكن بغير أن تتسلط عليها أو تعرقلها ٠ وترتيبا على ذلك فان تجربة الطفولة لاتفسر كل شىء ، ولايمكن لشىء أن يتملص

---

(٥٥) ص ٢٠٨ ـ ١٤٩ ٠

(٥٦) انظر على سبيل المثال ص ٥٦ ـ ٥٧ ٠

(٥٧) انظر ص ٨١ كتاب اريكسون (Childhood and Society) ١٩٥٠ ٠

من ضرورة الاختيار الأخلاقى الميتافيزيقى الذى يدل على قرار فيما يتعلق بمعنى الكائن ·

ان هنـــاك كذلك ضــــوءا قد ألقى على « البعد الجمــاعى للهوية الهندوسية » (٥٨) التى استبانت بوضوح فى نظرية « اريكسون » ، وبصفة خاصة « فان التعميق المتبادل لنفس الفرد والثقافة (٥٩) يجعل فى الامكان اعادة رسم تطور الكائن الفرد للانسان المتدرج المرتبة » (٦٠)· وبالنظر الى أن الواقع النفسى له دائما وجهان : وجه غريزى ووجه ثقافى ، فمن المستحيل التفكير فى احدى الغرائز بغير أن ندخل فى وصفها الاتجاه الذى نسجله عليها خلال المراحل المختلفة التى تعترى النفس من المدلولات والمصادر الثقافية المترسبة التى تصور الأســاطير مساراتهــا ، ذلك أن الأساطير تكشف المعانى المحركة للبنية النفسية للفرد أو أيديولوجيـــة التنظيم الاجتماعى · وكما أنها راسية بعمق فى جهاز ماقبل الادراك وتعتبر جزءا لا يتجزأ من كل تجربة فردية ، فان مجموعة المعتقدات والمواقف والقيم المشتركة مع مفاهيم الموكشا دهارما كارمان (KARMAN) ترسم نوعا من شبه الواقع (٦١) ؛ ومما لا شك فيه أنه قد يكون ملائمــــا أكثر ــ تمهيدا لوصف مثل هذا التصوير الثقافى الذى يصلح ليكون قاسما أعظم مشتركا للشخصيات الهندوسية وفيه تقع بؤرة التكامل الثقافى ــ الحديث عن « جهاز اسقاط الواقع » من أجل استرجاع التعبير الموفق الذى صدر عن « أ · كاردينر » وبعض الأمريكيين المعنيين بالثقافة ، اذ أطلقوا عليه تسميته «a projective reality system» · وربما كان « جهاز اســـقاط الواقع » هذا ــ والذى لا وجه للاعتراض عليــه ولو أنه يحدد منطقا غير مدرك للحيــاة الاجتماعية ــ هو الذى تدين له نفس الفرد والمؤسسات الثقافية فى أنها لاتشكل فى الواقع ســوى استمرارية واحدة ، يتبادل فى داخلها كل من المجال النفسى الفردى والمجال الثقافى بعد أن أصبحا متشابهين ، دون أى طــارىء تجريبى ولكن ببعض الظواهر الخفيــة من التأثير المتبــادل · يبقى بعد ذلك أن مفهوم الشخصية الأساســية ، من حيث نجاحها فى استخلاص هذا الوسط ذى الطابع الاشتراكى الذى يمثل القاسم المشترك الأعظم الذى يفرضه الانتماء الى وحدة ثقافية ، هذا المفهوم ربما لا تكون له قيمة الا باعتبــاره المكان الذى تجــرى فيه هذه

---

(٥٨) المذكرة الاولى ــ ص ٢٨٢ ·
(٥٩) ص ٢٤٥ ·
(٦٠) ص ١٨٦ ·

العمليات . واذا كان هذا المفهوم يأخذ علما بأجهزة التقويم فان الاقتراب الثقافى يبدو غير قادر على فهم سفر التكوين ويخفق فى أن يتطابق كلية مع الواقع الملموس . وعلى غرار الاقتراب الوثيق من فرويد فان هذا الاقتراب الثقافى ينطوى بدوره على بعض الانتقاصات ، مادام يحال فى آخر الأمر الى « المؤسسات الأولية » . وفضلا عن ذلك يكون من الملائم اظهار الفروق الدقيقة فى بعض التفسيرات الاجتماعية الوسطى التى يتحكم فيها مفهوم الشخصية الأساسية . وهكذا فان العالم المتخصص فى الشؤون الهندية ـ سواء كان سيكولوجيا أو فيلسوفا ، والذى يهب نفسه لهدف اعادة تصحيح التصوير المتكامل عن الثقافة الهندوسية ـ ربما كان يتعين عليه الامتناع عن أى محاولة لاتخاذ قرار موضوعى .

التغيير الحديث والثقافة الهندية

ان الهند المعاصرة لاتترك نفسها لكى تستحوذ عليها القوى التى تسعى الى تمزيقها أو المدمرة فى الحضارة الحديثة . وليس الأمر لأن مظاهر التغيير الثقافى تعرض الهند للغرق فى خضم الفوضى المتشنجة ، وانما ما يخشى منه هو أن يترتب على بعض التحولات التى أوجدها فى أيامنا هذه التطور التقنى وحركة التأقلم الاجتماعى والثقافى واختلاط الشعوب أن تتوقف هذه العملية المستمرة والمتناسقة للتعزيز المتبادل بين النفس والثقافة ، محدثة بذلك ما يثير الاضطراب بشكل خطر فى النشاط النفسى الفعال الذى تقوم به المنظمة الاجتماعية . وليس من المشكوك فيه أن النماذج الجديدة للسلوك التى يفرضها سياق التغيير الاجتماعى لاتتفق تماما مع البنية الشخصية التى استقرت بالفعل فى المجتمع الهندوسى . واذا كان صحيحا أن واحدا من أتباع مذهب « فيفكاناندا VIVEKANANDA» قد استطاع العثور على مخرج لها من خلال دوره كزعيم موهوب ، وان لم يعثر على حل للتناقضات التى أوجدتها الحيرة فى الاختيار بين أحد حدى البرهان النفسى لقضية التحديث ، فان الفرد الهندوسى المعاصر ـ الذى أعفى تقليديا من كل مسئولية شخصية ازاء الحركة ، ولكنه يواجه الآن بالحاجة الى عملية اعادة ضبط لنماذج سلوكه الحالية ـ يشعر بأنه فى حالة انعدام أمن متزايدة من حيث انه محروم من حد الأمن الانفعالى الذى كانت الثقافة التقليدية توفره له . وكما أن مقاومة التغيير واحدة من الخصائص الجوهرية فى التكوينات اللاشعورية فان مشكلة المقاومات المصاحبة التى

تحول أو تحـد من التعديل البنيوى فى الشخصية الهندوسـية تطرح نفسها بصورة حادة • ان صلاحيتها الدسـتورية التى تحول دون اعادة تفسير وضبط النماذج القائمة تجعل فى الامكان توضيح بعض ردود الفعل المدافعة عن الراديكاليـة السـياسية التى صـارت الهند هذه الأيام مسرحا لها •

لاكشامى كابانى
جامعة باريس
وفرانسوا شينيه

علم الاجتماع في أزمة

Giovani Busino جيوفاني بوزنيو

الموضوع الذى أعرض معالجته بايجاز هو بالتأكيد موضوع صعب ومعقد ، ولكنه بالأخص حافل بالخلافات فى فلسفة العلوم ، وفى تعقيدات التفسير ، ويجب – محاولة لتجنب هذه الفخاخ – وضع بعض الحدود الأولية والتذكير ببعض بديهيات التحليل الاجتماعى ٠

لا ينكر أحد أن علم الاجتماع ، منذ ظهوره على مسرح الفكر فى المجتمعات الصناعية الأوروبية ، قد أكد دواما نزعته العلمية بصورة شاملة ومطلقة فى الكثير من الأحيان ، وطالب بحق وصف وشرح التقنيات التى تتيح للمجتمعات الانسانية أن تفكر وتحكى وتعمل وتنتج وتستنسخ كل الروابط الاجتماعية ، تبعا لعمليات ظاهرة أحيانا وخفية أحيانا أخرى ، وباختصار أكد علم الاجتماع منذ فجر تاريخه أن العالم الاجتماعى يمكن تفسيره تماما رغم تنوعه وتباينه الظاهرين ، وأنه من الأوفق فى دراسة المجتمعات تطبيق نفس النماذج الادراكية التى يستخدمها العلم ٠ وحدة العلم هى الضمان لمعرفة صحيحة وموضوعية وصالحة للكافة ، ومن ثم لم يكن لعلم الاجتماع الا أن يختار القواعد المنهجية للعمليات التحليلية والبراهين الاستنتاجية والاستقرائية ، وبالاجمال لنموذج العقلانية التى نراها مستخدمة بنجاح فى الرياضيات ٠

لقد اعتقد علماء الاجتماع اعتقادا راسخا لزمن طويل أن هذا المذهب الطبيعى المنهاجى (كل العلوم تملك منهجا فريدا) سوف يكشف عن خفايا العلم ، ويكفل لهم وضوح الظواهر الاجتماعية ، ويضمن فى الوقت نفسه مشروعية علمهم ٠

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

وهكذا فان العلم ، وهو عقيدة عامة ووسيلة أكيدة لاكتساب اليقين يصبح بمثابة الحماية العليا ضد التناقضات والمنازعات ·

كان العلم فى نظر الأسلاف المؤسسين اجراء يضمن صحة الوصف والبرهان ، ويصحح الفروض والنظريات ، وهو قيمة فى الوقت نفسه وبنوع خاص ، بل هو نموذج الحقيقة نفسها ·

كان الاختيار ، وبالأحرى الاختيار الوجودى لصوصيولوجيا (علم اجتماع) علمية فى نظر فرجسون الى كونت ، وباريتو الى دوركايم ، وفيبر ، يتبدى بمثابة عرض لأزمه المجتمعات التقليدية ، واضعاف وظائف الدين فى تنظيم أقدار الأفراد والجماعات وفى التكامل الاجتماعى (١) · وعلماء الاجتماع هؤلاء يفترضون ، بالفطرة أكثر منها بالفكر أن العلم يجمع ويهذب وظائف الدين ، بل يجعلها أيضا أكثر نجاحا ، حقا ان علماء الاجتماع هؤلاء ، وبالأخص باريتو وفيبر (وبأسلوب آخر ميشيل ، وسيميل) لم يخطئوا فى خصوص التأثيرات النافعة لضروب التقدم العلمى ، ومع ذلك لم يتصور أى منهم أن مصير علم الاجتماع يمكن أن يتحقق تبعا لمسار آخر خلاف مسار العلم نفسه ·

هذا الاختيار لعلم الاجتماع كعلم للدراسة منهاجية والمعرفة المنظمة والمراجعة فى نمط تصورى معنوى ، كان من الضرورى أن يتضمن فى الوقت نفسه انضماما صادقا ومطلقا لمفهوم العقل باعتباره مجموعة من القواعد الضرورية والكافية للمعرفة ، والتعريف ان لم يكن بالموضوعات الاجتماعية ، فعلى الأقل بمراجعها ، ولم يحدث شىء من ذلك · ومن الجانب الآخر للاختيار الظاهر ، كان لكل عالم اجتماع ممارسة خاصة بالعقل العلمى ، فأحيانا كان هذا العقل « العلمى » مجرد قانون استكشافى ، بل انه ملكة سيكولوجية تزود الانسان بملكات ادراكية معينة ، وأحيانا بمثابة الأساس التام للأشياء أو علة وجودها ، وأخيرا بمثابة طريقة العثور على الحقيقة أو البراهين · ولم يكن هذا كل شىء ، ففى رأى أدولف كتيليه وفردريك لوبلاى مثلا أن الرجوع الى العقل العلمى له هدف آخر هو التذكير بوزن الحقيقة وتكوينها الهش ، ومن ثم الالتزام بقبول ما هو موجود ، واحترام العرف ، فى حين أن هذا الرجوع كما يراه الكثيرون يزودنا بأداة لقياس الوضع الحاضر والأسباب الباعثة على تجاوزه ·

وفى هذه الظروف يكون من العبث البحث فى تاريخ علم الاجتماع عن نظرية صورية للعقل أو مذهب يحدد قواعد العقلانية الصوصيولوجية

أما النظريات المادية فانها بالعكس كثيرة ، وهى نظريات تنسب العقل الى حقيقة ما على أنها مبدأ مفروض بصفة أولية ، كالطبيعة والتاريخ • وحتى كونت ، وسبنسر اللذين يقابلان بصراحة المعرفة العقلانية بالمعرفة التجريبية ، فانهما لا يفصلان أبدا نظريتهما فى العلم عن التاريخ والطبيعة • والآباء المؤسسون لا يفعلون أحسن من ذلك ، ومن ثم كان تأرجحهم المستمر من الغاية النقدية الى الوضع التحفظى ، وترددداتهم بين المقتضيات الأخلاقية والتعبيرية والضرورات الادراكيـــة ، بين هـــدف التخطيط الاجتماعى والعزم الاستبطانى المشتق من وضع خاص فى الزمن ، بـين التطلع الى تغيير النظام الاجتماعى وحالة الفضول الفكرى البحت لدى من يكشف الستار عن لغز الحداثة الكبير (٢) •

حين أعيد قراءة علماء الاجتماع القدامى ، ينتابنى دائما شعور بأن العقلانية ــ وبخاصة عند الألمان والايطاليين والفرنسيين ــ ليست موقفا بقدر ما هى اعتقاد ويقين بأن أنوار العلم تضىء التجربة الاجتماعيــة ، وهكذا تتكشف شيئا فشيئا اسرار الحياة فى المجتمع •

لم لا نقول هذا ؟

اذا قابلنا تحولات العقل الاجتماعى بتاريخ تحولات مفهوم العقــل كما حللها هوسرل ولوكاك ثم هورخيمر (٣) ، تبين لنا بوضوح ضــعفنا الفكرى ، فبينما حاول العلم الأوروبى انتزاع العقل من مجال الاحتمال بواسطة عملية استقصائية حقيقية تستهدف اثبات كل ما فيه من انحراف وضلال ، فان علم الاجتماع يتعجل عمليات الاختصار • ويستثير فرديناند تونيز فى عام ١٨٨٧ الانفصام الذى لا يمكن علاجه (٤) ، فهو اذ يواجه «الجمنشافت» «Gemeinschaft» «بالجسيلشافت» «Gesellschaft» وينسب الى هذه الأخيرة ــ وهى شكل حديث للنظام الاجتماعى ــ احتكار العقل والعقلانية ، فان تونيز يربط العقل والعقلانية بشكل من أشكال النظام الاجتماعى وبعصر تاريخى معين ، فالمجتمع ــ فى مقابل الجماعة ــ يختلط بالعقل المجرد ، ويختلط العقل المجــرد بالعلم • ومع أن تونيز يقول بصراحة ان التاريخ له معنى ايجابى يتجلى عند تحــول المجتمع التقليدى الى مجتمع صناعى ، فانه مع ذلك ينسب تفكك المجتمع التقليدى وهدمه ــ وهو الذى يتمتع بقيم ايجابية أو مجازية وواقعية ــ ينسبه الى العلم وتجريداته • وفى المجتمع الحديث يحل المجازى محــل التعبيرى والصورى ، والمهمة محل الأفراد • والمعروف أن مثل هذه الدعوى قــد دعمها جورج سيميل الذى جعل من المال فى مستهل هذا القرن رمــزا للتعقل فى مقابل التخيل ، والفكر فى مقابل الشعور • وينتهى سيميل

ىى سام ١٩١٠ ، فى Hauptprobleme der Philosophieالى نبذ العقل ،
وآنف نظرية عن المعرفة ، وفيها الشعور والارادة والاستبصار (الحدس)
والحساسية هى وحدها التى تشغل مكانا محددا ، وبعد ذلك يقطع صلته
بعلم الاجتماع ، ولهذا السبب فان علماء الاجتماع يقراون كتاباته فقط
اعتبارا من الخمسينات (٥) ٠

وقبل ذلك ببضع سنين ، فى عام ١٩٠٢ كان فيرنر سومبارت فى
كتابه : Der moderne Kapitalismus قد حول العقلانيه الى خاصيه
تقنيه ، وأسلوب منهاجى يضمن تكافؤ الوسائل للوصول الى التحكم فى
الطبيعة والغايات(٦) ٠ والراسماليه ، على المستوى الاقتصادى والاجتماعى
هى التى تحقق بالكامل مثل هذا التكافؤ ، وعلى هذا المسار ــ ولكن بمزيد
من الدقة وحدة الذهن ــ يجعل ماكس فيبر من الرأسماليه الشكل
الأكثر فعالية ، ومنطقا لعمليات عقلنة الروابط الاجتماعية فى المجتمعات
الحديثة ، ومن ذلك الحين ، أصبحت طرق علماء الاجتماع مختلفة كثيرا
عن الطرق التى اتبعها ديكارت وكانط وفيشت وهوسرل وأخيرا
فنجنستين ، فبابتعادهم عن الفلسفة صار فى مقدورهم بمزيد من
السهولة تحويل العقل والعقلانية والتعقل الى أداة تنتج أبواب المستقبل
التاريخى للمجتمعات الحديثة وتجعل منها عاملا لتفسير الرأسمالية
ومشتقاتها ، ونتائج هذا التحول عكسية : فالعقلانية العلمية بهذه
الصورة قد اقتصرت على استخدام الوسائل والاجراءات المناسبة لتحقيق
غايات معينة ، ويظل هذا الفكر ــ وهو شكل غائى من أشكال المعرفة ــ
هذا الفكر الذى يحصى يظل أساسا فكرا آليا ٠

وعلماء الاجتماع ، وهم يمزجون الذرائعية بالبرجماتية ، والاسمية
بالواقعية ، والوضعية بالماركسية ، ويقابلون الادراك والتفسير بالشرح
وما هو فردى بما هو اجتماعى ، فانهم لا يدعون القلق ينتابهم حيال
ما هو غير عقلانى وغير وضعى ، ذلك لأنهم سوف يعالجون هذه الأمور بكل
الوسائل العلمية ٠

ويبدى باريتو فى هذا الخصوص قدرة جريئة على التخيل ، فالغباء
هو اهتمامه الرئيسى ، يضعه فى فئة كبيرة يقابلها بفئة أخرى : «المعقول»
ويقول أنه عمل منطقى ، و « غير المعقول » ويقول انه عمل لا منطقى (٧) ٠

أما الأعمال المنطقية فانها تشكل « العمليات التى ترتبط منطقيا
بالغرض منها ، ليس فقط بالنسبة للشخص الذى يؤديها ، ولكن أيضا

بالنسبة للذين عندهم معلومات أكثر اتساعا » • أما سائر الأعمال ،فيقال بالطبع أنها « لا منطقية » ، ويوضح بارينو أن هذا لا يعنى أنها « مخالفة للمنطق » ، من ذلك أن « اللامنطقى » هو مجال المنازعات والانفعالات والمؤثرات والتصورات والمشاعر والغرائز ، ويجعل العلم فى الامكان صياغتها صياغة مقالية (استدلالية منطقية) ، ويكشف عن تفوقها فى السلوك والتصرفات . ويعد أساليب لتنظيم المواقف والأفعال دون التمكن من ارجاع هذه الى أسبابها الحقيقية ، وتصرفات البشر هى أساسا لا منطقية ، ولكن فى مقدور العلم أن يكشف ما فيها من منطق مخبوء ومدفون ومستتر •

ولا يعمل فرويد شيئا خلاف ذلك ، مع عقلنة الدلالات ، والاكراه الدفاعى ، والتكوين الارتكاسى • ويبقى اذن « اللامنطقى » وهو متغير منخلف ، يبقى بمثابة تخلف وانحراف ومقاومة وهامشية (حدية) وكبت وبدائية الخ •

ان التمييز بين البواقى والانحرافات ، بين الأعمال والقيم ، بين موضوع المعرفة وصاحبها ، والحياد بالنسبة للغايات والقيم ، وتحييد علم الأخلاق ، والأبعاد المعيارية والتعبيرية ، كل هذه تخلق وهما بأن فى الامكان الأخذ فى الاعتبار العوالم الاجتماعية ، من الناحيتين الموضوعية والعلمية ، ويبقى الثمن الذى يدفع نظير هذا السراب فادحا : فالعقل ينزل الى مرتبة عامل من العوامل المكونة لعصر تاريخى ونظام اقتصادى واجتماعى ، ويختزل الى مجموعة معارف المنطقة الرياضية الخاصة بالطبيعة ، فيسمح بالتكهن اعتبارا من الحقائق السابق ملاحظتها ونتائج الملاحظات التى يتعين اجراؤها ، وعلاقة الوسيلة بالغاية تفوق القيم والحكم والمعنى •

ونحن لم نقترب قط فى الممارسة اليومية للبحث الاجتماعى من النماذج الحالية للعلوم التجريبية والتحليلية ، كما أن المعرفة الاجتماعية تنتج فقط معلومات منحرفة ، كل ذلك أمر معروف ، ولكنه يعتبر ذا أهمية غير جوهرية •

والمذاهب الأحدث عهدا ، من علم الأحياء الاجتماعى الى علم الاقتصاد الجديد ، ومن الماركسية الجديدة الى البنيوية الجديدة ، الا تكمل فى الواقع مفهوم العقلانية باعتبارها مواءمة الوسائل للأهداف المقصودة ؟ تتصور نظرية وظيفة المنفعة الشخصية شخصا قادرا على اجراء اختيارات كاملة فى عالم متكامل ، ولكنه خال من المعانى ، أما نظرية العقلانية

المحددة ، باسلوب سيمون ، فانها تعد ممثلا له قدرات تقييم محدودة ، ولكنه بطريق التلمس يجرى اختيارات للتكيف والبقاء ، حتى النظرية التى تطرح مبدأ أن العقلانية تتأثر بالانفعال ـ وهى طاقة قابلة لتوجيه انتباه الانسان الى مشكلات خاصة فى لحظات معينة ـ حتى هذه النظرية تعتبر الحدث والأحاسيس وثيقة الصلة بالموضوع حينما تتيح اهتمام الانسان باطلاق حركة التكيف التطورى (٨) . ومع ذلك فان هذه العقلانية الاجتماعية هى عقلانية آلية لأنها تكيفية ، وهى تكيفية لأنها آلية حقا ، ان النماذج التطورية الأخيرة لا تتطلب الكمال الشامل ، ولا الهدف النهائى ، ولكن هل هو تقدم حقيقى أن « يقترح » الانسان الاتجاهات التى يمكن أن تجرى فيها العمليات العقلانية ؟ اننا نبقى هكذا فى مجال « العقل الآلى » القادر على اكتشاف مسائل جزئية ونوعية ، ولكنا لا نعرف كيف نختار ونرتب بالتدريج بصورة ملائمة المقاصد والأهداف ، وكيف نسوى الخلافات الناشئة من تعارض القيم والهدف النهائى الذى يتعين الاتجاه اليه . ان انعدام اليقين فى مضمار البحوث، والاستحالة التى كنا الى الآن نعانيها لنحصر أوضاع التفاعلات (بين أفراد) وننظمهما ، رغم الجهود التى يبذلها أصحاب نظريات الاختيار والتأثيرات السيئة ، تذكرنا دائما بأن العقلانية التى تخضع العناصر الادراكية لتحقيق الأهداف المتباينة التى لا يهتم بها العلم ، هذه العقلانية تبقى اعتقادا يبدى افتراضات بمعرفة علمية ، انها ليست سوى محاولة بسيطة لأن يعتبر من قبيل العلم تبرير معتقدات معينة وقيم مميزة لمجتمع أو ثقافة معينة (٩) .

لم يعد علم الاجتماع ـ وبالذات لأنه أجرى اختزالا ذرائعيا فى الربط بين المعرفة والعمل ، وبالذات لأنه فصل بلا روية ما هو ادراكى عما هو معيارى وعما هو تعبيرى ، ولأنه لم يعط أى تفوق للكائن فى علم الأنطولوجيا ، وللادراك فى نظرية المعرفة ، وللقيم والمعانى والتعبيرات الرمزية ـ لم يعد علما ولا ضميرا للمجتمع ، لهذا السبب نتكلم عن أزمة علم الاجتماع ، فتساءل عن مهمة الأخصائى الاجتماعى ، ومهما كان الأمر ، فهناك شىء يبدو مؤكدا : أن العجز الادراكى لعلم الاجتماع ، الذى هو فى الآونة الحاضر آفة خطيرة ، يخشى أن يصير حتميا اذا لم نعمل بسرعة شديدة على تغيير عاداتنا الفكرية حتى تكون ملائمة .

ترى ماذا نستطيع أن نعمله لنخرج من هذه الأزمة الطويلة القاسية ؟

كتب برودل متهكما فى خطاب استلمه أحد مراسليه قبل وفاته ببضعة أسابيع ، كتب يقول : افرض أن علم الاجتماع اسلوب خاص لمعقولية المجتمعات الحديثة الصناعية ، ومعرفة خاصه مدرجه فى سياق تاريخى معين ، ولنفرض أن ملاءمة ومشروعية هذا الأسلوب من المعرفة يصدران عن هذا الظرف التاريخى ، وأدخل علم الاجتماع فى التاريخ، فسوف تخرج هذا العلم من الهزال الذى هو فيه فى الوقت الحاضر ٠

ويبدو لى أن ارتباط علم الاجتماع بالتاريخ بصورة مبهمة حقيقية ظاهرة للعيان ، ومع ذلك أشك فى أن بمقدور التاريخ أن يخرج كلية من هذه الأزمة التى كتب عنها المأسوف عليه الفن جولدنر Aavin Guidner صفحات تتميز بنفاذ البصيرة بصورة نادرة (١٠) ٠ فالواقع انه اذا كان علم الاجتماع ينتمى ـ كما اعتقد مع برودل (١١) Braudel ـ الى نمط معين من المجتمع ، ويبنى المجتمع اعتبارا من تصور ما ، وكانت الكلمات التى تستعمل لوصف الحقيقة الاجتماعية تسهم أيضا فى انتاجها وتنظيمها ، فكيف اذن يتأتى لهذا الفرع من المعرفة أن يحلل ويشرح شرحا موضوعيا ، من الخارج تقريبا ما أسهم فى بنائه ، بغض النظر عن فكر الذات العارفة ؟ اذا كان عمل علم الاجتماع (التمييز ، التعريف . التصنيف ، التسمية) يلصق من الخارج على ما سبق حصره نظاما مزودا بمعنى ، فما هو النظام العلمى الفلسفى للفئات التى يتحقق بواسطتها أو بالفعل تصور المعانى ونسبتها ؟ لقد أثبتت مذاهب الادراكية ، والتأويلية ، والمنهجية السلالية ، والنظرية الراسخة ، والنزعة البنيوية اللاحقة ٠ أثبتت (١٢) بطرق متباينة بالتأكيد الصعوبات فى انشاء معرفة عالمية على أحداث معينة ، ومزج المعانى الخاصة بلغات معينة فى مجموعة متماسكة ٠

وعلى ذلك فما العمل ؟ هل ينبغى الاكتفاء بتفادى مشكلات اللغة المتعلقة بالملاحظة ، والاستقراء ، وبأسلوب بوبر أن يستبدل بالاستدلال التفنيد (النقض ، الدحض) ٠ أى طريقة التجربة والخطأ ؟ هل ينبغى ، اذا لزم الأمر ، وتبعا لاقتراح هوسرلHWSSERLاختراع أساليب خلاف الأساليب التى تتبعها العلوم المسماة بالوضعية ؟ أو أننا مقضى علينا بالنزاع الأبله بين علم الاجتماع العلمى وعلم الاجتماع الأولى بين المذهب الكمى والمذهب الكيفى ، بين العلمانية والمساءلة الجمالية ، بين النسبية المطلقة وكثرة التفسيرات وبين الحشو والتلاعب بالألفاظ ؟ ليس عندى حل اقترحه ، ولكنى أرى أن الوضع الراهن لا يحتمل ، ويجب الخروج من المأزق ، فلنحاول ذلك على الأقل ، بادئين بالتمييز بين العقل والبرهان ٠

العقل Raison قدرة وقيمة ، انه أسلوب تكوين الفرد الاجتماعي ويعطى هذا الأخير « امكانية أن يجد ويعمل لنفسه شيئا له معنى فى المدلول الاجتماعى القائم » (كامستررياديس Castoriadis) انه تكيف اجتماعى وايمان بهذا التكيف ، ويتعين بأن فى وسع الانسان أن يعرف ويحكم ويتصرف طبقا لمبادىء ، ويطبق أحكاما منسقة (تحليلية ، وتركيبية . وافتراضية) على الأفعال ، ومنذ أيام الاغريق الى يومنا هذا ، تنوع تاريخ هذا العقل وتضاعف ، وعرف تحولات وأزمات ، وولد فلسفة « الانوار » ، وكذا التحليل النفسى ونظريات الارتباط باعتباره قدرة منتجة للعلاقات الاجتماعية ، وكذا مذهب « فطرية » الأبنية العقلية . هذا التاريخ ، تاريخ العقل ، أعطى بين ما أعطاه ، مهمة للبروليتاريا (الطبقة الكادحة) ، وأساسا لنظريات التحرير اللاهوتية . هذا العقل، باعتباره قدرة ، جزء مكمل للانسان « العاقل » homo Sapiens تجلى أكثر فأكثر ، وهو دائما بمثابة قيمة فى صيرورة حضارتنا . على أن تطور علم الانسان (الأنثروبولوجيا) الأساسى بالمعنى الذى يقصده مورن Morin (١٤) هو وحده الذى يمكنه أن يساعدنا على فهم كيف ولماذا يتكون (الأنا) مع الغيرو بهم . ولماذا تعد الجماعات البشرية معان ودلالات ، وتقومها (أى تقيمها) ، واعتبارا من هذه التقويمات تبنى الواقع الاجتماعى وتحوله وتفرضه وتخضع له مثل هذه الانثروبولوجيا الأساسية يمكن أن تزودنا بنظرية عن « الأنا » الحقيقى ، واعادة العرف الفلسفى الذى تهدم منذ السبعينات باعلان فناء الانسان » .

اما البرهان raisonnement فانه بالعكس من ذلك اختصاص ، انه موقف يتمثل فى استخدام المعايير الشكلية التى تكفل الصلات والقرارات ، وتداول عمليات الاستدلال ، أو الدليل (الحجة) ، واجراء عمليات الاستقراء ، والاستنباط . والتماثل . وبلوغ النتائج .

وتبدو لى أعمال جان بياجيه Jean Piaget (١٥) بشأن نشأة الذكاء عند الطفل أنها أنجح محاولة لايضاح كيف يتكون عند الأشخاص ذوى ثقافة معينة القدرة على اجراء استدلالات « وأفكار مجردة اعتبارا من تناسقات داخلية » ، هذه القدرة ، وهى توازن مثالى « ملازمة لكل نشاط واع » ، ونتاج جماعى ، يعرفها بياجيه بأنها « خضوع لمبادىء التناقض » . واعتراف بضرورة البرهان نفسه » .

على أنه بالرغم من بياجيه ، وتقدم الدراسات فى الذكاء الاصطناعى والقصدية والغائية (١٦) ، ورغم أعمال فودور Fodor

وجونسون ليرو Johnson-Lairo (١٧) ، وفى مجال البرهان الاحصائى وأعمال كاهنمان Kahneman وتفيرسكى Tversky (١٨) . فاننا لم تعرف بعد بنية البرهان ومختلف تنظيماته ، اننا نعرف بعض الشىء عن منطق الاستنباط ، ولكنا نعرف القليل جدا عن سائر أشكال البرهان ، وبخاصة البراهين الاستقرائية ٠

وعلى الرغم من بوبر (١٩) ، وكارناب Carnap (٢٠) وجودمان Goodman (٢١) لم تزل قواعد هذا اللغز ــ لغز الاستقراء ــ غامضة يقول البعض انه لا وجود لها ، ولقد كشف جان بليز جريز Jean Blaise Grize عن بعض آليات العمليات الجدلية كالتخطيط وجعلنا نستشعر بأية شروط تنظم موضوع العرض (أو البيان) تخطيطا يصدقه الموجه اليه ٠ ومع ذلك فان جريز نفسه يجعل من امكانية قبول الايضاحات والبيانات وتلقيها ــ حيث نشأت قبل مضمون الجدل وخارجه ــ يجعل منها شرطا ضروريا لصحة الجدل ٠ (٢٢)

والتفرقة بين العقل والبرهان تسمح فى المرحلة الحالية لأبحاثنا أن نرى بأى أسلوب آلى يندمج فى العالم كل كائن حى جديد ، وينتج موضوعات اجتماعية بفضل تفاعله مع البيئة ، وبأية كيفية يلحق التطور فى سلوك كائن اجتماعى تجاه الكائنات الاجتماعية الأخرى فى النشاط التعاونى نفسه ، وهو غالبا ما يكون رمزيا ، لأن فعاليته بين الأشخاص مكفولة بعلامات مقبولة ومنقولة بواسطة ثقافة ما ٠ (٢٣)

العقل هو الطريقة التى بفضلها تتجلى العلاقة بين الجسم والوسط وبواسطته يمكن ظهور موضوعات لا وجود لها بغيره ٠ العقل هو الذى يخلق موضوعات اجتماعية ، ويضفى عليها معنى ٠ ويدعمها بانشاء مؤسسات ٠

أما البرهان فانه تشكيل عمليات يتسنى لنا اجراؤها اعتبارا من هذه الموضوعات نفسها التى أعدت من قبل بمقتضى تلك الصفة التى يختص بها الجنس البشرى ، والتى يسميها كاستورياديس « الخيال المطلق » أو امكانية اصطناع معان اعتبارا من لا شىء تقريبا ٠

واذا كان العقل وظيفة للجنس البشرى تكفل الوحدة العميقة فيما وراء مظاهر الثقافات المتغيرة ، ففى وسعنا أن نؤكد أن المقتضيات الشكلية والبراهين المتعلقة باللغات الصورية والطبيعية ، والنظم الشكلية تميز بالعكس الثقافة الوحيدة التى تبسط لنفسها مشكلة العلاقات بين العقل والبراهين ٠ بأن تجعل العقل بصراحة جزءا من البراهين ٠

والمصاعب الكبرى فى علم الاجتماع تصـــدر عـــن تلك « الثقافة الناشئة من قبل » كما يقول جريز · فالواقع أن علم الاجتماع - بعكس فروع أخرى من المعرفة التى تطبع المقتضيات الشكلية - لا يتأتى له أن يعزل الأمور السابق اعدادها ، ويتستر على مجـال لصالح مجال آخر . ولا يتيسر لعلم الاجتماع أن يجعل فى نظم صـورية الموضوعات التى خلقتها بواعث أخرى ذات دلالة ، لأنه لا يملك أساسا جوهريا ليجـــد التوافقات بين معنى الأحداث البشرية ومعانى البيانات النظرية الصادرة بشأنها (التى لها دائما صلاحية داخلية) ، يضاف الى ذلك التعقيدات الناشئة من العلاقات الغامضـة المتبادلة بين التموضع العلمى والمنفعـة الاجتماعية . بين نقد توجيهات العمل والطلب الاجتماعى للايضاح ·

كيف يمكن اذن تذليل هذه الصعوبات ؟ ذلك بتحليل الممارسـات الاجتماعية وجمع الانتقادات الموجهة اليها ومحاولة اكتشـاف أسـاليب التكوين والنتـائج والوظيفة الاجتماعية والألفة الاجتماعية ، وذلك على مستوى اصطناع موضوعات اجتماعية ، وقد يتاح لنا بهذه الكيفية بعض الفرص لندرك ما يوجه الأفهام ويحددها ، ويضفى الشرعية على المصادرات والبديهيات ، والافتراضات · وثمة علم عبر التـاريخ ، متصل بمختلف الثقافات يمكن أن يوضح هذه الثقافات القائمة من قبل ، والضرورية ، حتى لتعميم نظرته « المحاجة » لجريز ومدرسـته ، ولكن أيضا الادراك السـابق للتصرف الاتصــالى ، والتفاهم اللغوى كمـا شرحهما يورجن هابرماس Juergen Habermas فى كتاباته الأخيرة · (٢٤)

ان الارتجاجات والدوامات والاستبصارات وفن الوصـل والتطعيم واستشفاف البراعم الجيدة فى علوم ومعـارف متروكة ومهملة ، كمـا تقدمها لنا كتب ادجار مورن ، تبدو لى بمثابة التقدمات الضرورية لبعث حيوية العلوم الاجتماعية · (٢٥)

الأمر كذلك بالنسبة لأعمال لوى ديمون (٢٦) Louis Dumont · فنظريتـه ، نظرية المقارنة ، التى ينبغى بالتأكيـد تحسين صياغتهـا وتعميمها ، تعطينا من الآن بيـانات ثمينة عن المشكلات الصـادرة من أن الاطار المعنوى لعلم الاجتماع مشتق من وضـع تاريخى خاص ، ومن أنه لا يوجـد فى علم الاجتماع أية وحـدة متميزة . وأن العناصر الأولى هى مجموعات منظمة ومصطنعة بحكم مكوناتها صلات مترابطة ، وليس لها معنى الا بانتمائها لهذه المجموعات المبنية (٢٧) ·

انني أصوغ هنا بضعة مشروعات ، بينما كان من الأولى أن أعرض بضعة نتائج محددة ، ولكن هل يتسنى لى أن أفعـل شيئا آخر فى لحظة تفكك فيها مجتمع علم الاجتماع وشاعت الفوضى فى معارفه ، وكادت تقاليد المعرفة الناشـــئة على أنها ادراك وعلم للناس الذين يعيشون فى مجتمع تستنفذ ؟ هل من الأفضـل الاحتفاظ بذكرى تقليد ما ونقله حين نعرف أنه ضرورى لنـــا للتحكم فى التحولات والانحرافات والسراب فى مجتمعاتنا الحالية ؟

وحيال الأخطار الناشئة من استخدام الطاقة النووية فى كوكبنا ، ونمو البيروقراطية فى كل صلاتنا الاجتماعية ، وتجاوزات العقلانيـــة العلمية ، وحيال ما تبين لنا من ان العلم الحديث كله يستهدف ــ كما كانت الميتافيزيقا فيما مضى ــ تنظيم العالم واخضاعه والنزول بالانسان والطبيعة الى مستوى أشـياء قابلة للتلاعب بهـا وتدولها ، وحيال تحول عالم منظم بأكمله وخال أكثر فأكثر من المعـانى تحوله خـارج الروح النفعية ، وحيال خراب الطبيعة الذى يهدد امكانيات بناء جنسنا البشرى على قيد الحياة ، ماذا فى استطاعتنا نحن علماء الاجتماع أن نفعله ؟

أعتقد أن فى وسعنا أن نعيش مع تطورات العلم والتقنية بكيفيـة أقل خطرا ، حيثما نستطيع أن نحافظ فى صورة حية نشيطة ــ الى جانب الفكر الذى يحصى وينتمى الى العلوم الآلية ــ على فكر يتأمل ويتبصر ، كما قال مستر ايكهارت ٠

فى مقدور علم الاجتماع أن يسهم فى هذا الشأن ، وفى مقدور علم اجتماع تأملى واستبطانى ــ كأداة تحرر من الحاضر تنشد تنظيم شكل واحد محتمل من أشكال الحياة ، وبمثابة الحقيقة الوحيدة ، وفكر يتأمل ويتبصر ــ فى مقدوره أن يتيح لنا أن نتفهم حقيقة الحضـــارات الأخرى وأساليب المعيشة الأخرى فى هذا العالم ، وأن يتيح لنا مجالا للمناقشة ، وأن يستشف فى سائر الثقافات بدائل لحياتنا الحاضرة ٠

جيوفانى بوزينو

جامعة لوزان ،

وجامعة جنيف

مذكرات

(1) R.A. NISBET, *The Socialogical Tradition*, New York. Basic Book., 1966 (tr. fr. *La Tradition sociologique*, Paris, Puf. 1984) ; F. PAUL-LEVY, «A la fondation de la sociologie : l'idéologie primitiviste», *L'homme*, nos 97-98, janvier-juin 1986, XXVI (1-2), p. 269è286.

(2) J. HABERMAS, *Theorie und Praxis*, Frankfurt a. M., Suharkamp, 1971, 4e éd. (tr. fr. *Théorie et pratique* Paris ,Payot 1975).
und die traszendentale Phanomenologie, Den Haag, Nijhoff, 1959

(3) E. HUSSERL *Die Krisis der europäischen wissenschaften* (tr. fr. *La Crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*, Paris, Gallimard 1976); G. LUKACS, *Die Zerstoerung der Vernunft* (avec une nouvelle préface), NeuWied, Luchterhand 1962, Oeuvres, vol. 9 (tr. fr. *La Destruction de la raison*, Paris, L'Arche 1958-1959,
2 vol.) ; M. HORKHEIMER, *Zur Kritik der instrumentellen Vernunft*, Frankfurt a. M., Fischer 1967 (tr. fr. Eclipse de la Raison, Paris, Payot, 1974).

(4) A. BELLEBAUM, *Ferdinand Tonnies*, in *Klassiker des Soziologischen Denkens. Vol. 1 : Von Comte bis Durkheim*, Dirk *KASLER éd.*, Munich, Beck, 1976, p. 232-266 et p. 487-493.

(5) Cf. H. J. DAHME et O. RAMMSTEDT éds, *George Simmel und die Moderne*, Frank furt a. M., Suhrkamp, 1984, mais également P.E. SCHNABEL, *Die Soziologische George Simmel und die Moderne Gesamtkonzeptiin George Simmel. Eine wissenschaftshinslorische und wissenschaftsldeoretische Untersuchung*, Frankfurt a M., Fischer 1974. En françois voir : G. SIMMEL, *Sociologie et épistémologie de l'histoire. Une étude d'épistémologie.* Introduction et traduction de l'allemand par R.. Boundon, Paris, Pauf 1984.

(6) F. RIZZO,*Werner Sombart*, Naples, Liguori 1974 ; F. Rapaeel *Judaesme et capitalism. Essai sur la controverse entre Max Weber et Sombart*, Paris. Puf 1982.

(7) G. BUSINO, *Introduction à une histoire de la sociologie de Pareto*, Genève, Droz 1983.

(8) H. A. SIMON, *Reason in Human Affairs*, Stanford, Cal., Stanford U.P. 1983. Cf. aussi B. WILSON éd., Rationality, Oxford, Blackwell 1979; M. HOLLIS and S. LUKES éds. *Rationalityt and Relativism*, Oxfordi Blackwell 1982 ; I.C. JARVIE, Rationality and *Relativism. In Serarch of a Philosophy and History of Anthropology* Londres, Routledge and Kegan Paul 1984.

(9) G. BUSINO, *L'individualisfe méthodologique* Lausanne, IASUL 1984.

(10) A.W. *GOULDNER*, *The Coming Crisis of Western Sociology*, New York, Basic Books 1970 et, du même, *For Sociology. Renewal and Critique in Sociology Today*, Harmondsworth, Penguin Books 1975

(11) F. BRAUDEL, *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion 1969.

(12) A. GIDDENS, New Rules of Sociological Method. A positive *Critique of Interpretative Sociology*, Londres, Hutchinson 1976 ; R.A. WALLACE and A. WOLF, Contemporary *Sociological Theory*, Paris Seuil 1975 ; ID., *Les Carrefours du labyrinthe*, Paris, Seuil 1978 ; ID., *Domaine de l'homme*, Paris, Seuil 1986 .

(14) E. MORIN, *Science avec conscience*, Paris, Fayard 1982; ID., *Sociologie*, Paris, Fayard 1984.

(15) J. PIAGET, *Etudes sociologiques*, Genève, Droz 1977.

(16) H.L. DREYFUS, *L'Intelligence artificielle. Mythes et réalités*, Paris Flammarion 1984 ; J. SEARLE, *L'Intentionnalité*, Paris, Minuit 1985 ; G. CELLERIER, «La genèse historique de la cybernétique ou la téléononmie est-elle une catégorie de l'entendement ?», *Revue européenne des sciences sociales*, XIV, 1976, nos 38-39, p. 273-290.

(17) J.A. FODOR, *The Language of Thought*, Cambridge, Mass., Harvard U.P. 1975; P.N. JOHNSON-LAIRD and P.C. WASON éds, *Thinking, Reading in Cognitive Science*, Cambridge, Cambridge U.P. 1977, et surtout *Mental Models, Cambridge*, Cambridge, Cambridge U.P. 1984.

(18) D. KAHMEMAN et alii, *Judgement under Uncertainty*, *Heuristics and Biases*, Cambridge Cambridge U.P. 1982.

19. K. POPPER, *The Logic of Scientific Discovery*, New York, Harper and Row 1968 (tr. fr. *La logique de la découverte scientifique*, Paris, Payot 1982); *ID., Conjectures and Refutations. The Growth of Scientific Knowledge*, New York Harper and Row 1968. Cf. aussi P. JACOB. *De Vienne à Cambridge, L'héritage du positivisme logiques de 1950) nos jours*, Paris, Gallimard 1980, spéc. les p. 121-176.

(20) J. HINTIKKA éd., *Rudolf Carnap, Logical Empiricist : Materials and Perspectives, Dordrecht*, Reidel 1975 et P.A. SCHILPP éd., *The Philosophy of Rudolf Carnap*, La Salle, Ill., Open Court 1963.

(21) G.OODMAN. *Fact, Fiction and Forecast, Indianapolis*, Hackett 1979; ID., *Ways of Worldmaking*, Brighton, Harvester 198. Et aussi : P. JACOB, *op. cit.*, p. 177-195.

(22) J.B. GRIZE, *De la logique à l'argumentation*, Genève Droz 1982. Pour certains prolongements de cette problématique voir : R.J. FALMAGNE éd., *Reasoning : Represeitation and Process, Hillsdale*, N.J.. Erlbaum 1975; R.M. FARR and S. MoscoVICI éds., *Social Representations*, Paris, Ed. de la Maison des sciences de l'homme 1984.

(23) G. BUSINO, *Les Théories de la socialisation*, Lausanne, IASUL 1985.

(24) J. HABERMAS, *Theorie des kommunikativen Handelns*. Vol. I : *Handlungsrationalitat und gesellschaftliche Rationalisierung*; vol. II : Zur *Kritik der funktionalistischen Vernunft*, Frankfurt a. M., Suhrkamp 1981.

(25) Cf. notamment E. MORIN, *La méthode III. La connais-*

(26) L. DUMONT, *Homo hierarchicus. Le système des castes*

sance de la connaissance. Livre premier. Anthropologie de la connaissance, Paris, Seuil 1986.

et ses *implications*, Poris Gallimard 1979; ID., *Homo aequalis, Genèse* et épa ouissement de l'idéologie économique, Paris, Gallimard 1977; ID., Essais sur l'individualisme. Une perspective anthropologiques sur *l'idéologie moderne*, Paris, Seul 1983.

(27) Cf. G. BERTHOUD et G. BUSINO .éds), *L'expolaration de la modernité. La démarche de Louis Dumont*,*Genève*, Droz 1984; G. BUSINO, "Pour une» autre «théorie de la comparaison», *Revue européenne des scences sociales*, XXIV, 1986, no 72, p. 209-216.

(28) Lire à ce propos le volume Ordre et désordre. Textes des conférences et des entretiens organisés par les vingt-veuvièmes Rencontres internationales de Genève, 1983. Neuchâtel, La Baconnière

المصادر الأفريقية لحركة الفنون الزنجية بالولايات المتحدة الأمريكية

ادوارد · م · آكو

لقد أصبحت العلاقات الأدبية بين البعث الجديد للذاتية السوداء فى الولايات المتحدة الأمريكية (أو ما يسمى هارلم الجديدة) وبين الحركة الزنجية الافريقية معروفة جيدا · فنحن نعلم أن شخصيات أدبية افريقية مثل سنجور ، ودماس وسيزار ، كانوا قراءا ملتهمين للانتاج الأدبى للأمريكيين السود المنشور فى مجلات مثل «فرصة» و «العالم الزنجى» (*) · وقد كان غذاءهم الفكرى مستمدا من قصائد لانجستون هيوج ، وكلود ماكاى ، وكونتى كلين ، وجان تومر ، بمجرد ظهورها على صفحات هذه المجلات · وقد ظهرت بعض قصائد هؤلاء الأمريكيين السود فى مطبوعات باريس الخاصة بالسود مثل مجلات « القارات » و « البرقية الافريقية » و « صيحة الزنوج » وكذلك فى مجلات « عالم السود » و « دفاع شرعى » · وينتمى ذلك بالطبع الى التاريخ الأدبى المعاصر (١) · وعلينا أن نحيى

ترجمة : الدكتور حمدى الزيات

(*) تم تقديم نسخة أولى من هذا المقال فى أبريل ١٩٨٥ الى جامعة الينوى بالولايات المتحدة الأمريكية ·

(١) ميرسير أ· كوك مؤلف كتاب « لقاءات أدبية بين افريقيا والهند الغربية والأمريكيين السود » ضمن سلسلة الكاتب الأسود فى أمريكا ، دار نشر لويد براون ، لوس أنجلوس عام ١٩٧٣ صفحة ١٢٦ ـ ١٤٠ ، وادوارد أ· اكو صاحب رسالة دكتوراه بجامعة الينوى عام ١٩٨٢ (غير مطبوعة) وبعنوان « نهضة هارلم والحركة الزنجية ، علاقات أدبية وآثار متبادلة » ، وصمويل أ· أسين مؤلف « تاثير العالم الجديد على الأدب الافريقى الحديث » ضمن سلسلة دراسات الأدب المقارن ، ربيع عام ١٩٧٧ ، صفحة ٧٤ ـ ٩٣ ، وكريستوف ديلى فى بحث مقدم الى جمعية الأدب الافريقى فى فلوريدا وبعنوان « علاقة ليون داماس بالنهضة الزنجية » فى ١٢ ـ ١٤ أبريل عام ١٩٨٠ ، وايرين دوبس جاكسون فى مقالتها بعنوان « ظاهرة النهضة الزنجية وآثارها » فى سلسلة دراسات أدبية باللغة الفرنسية =

فى هذا المجال دور المترجمين كوسطاء أدبيين فى نقل الثقافة على ضفتى المحيط الأطلنطى ، وأذكر فى هذا المقام أشخاصا مثل بوليت ناردال ، وادوارد جونز ، ولويس أخيل ، وميرسير كوك ، من بين العديدين (٢) ٠

واذا كانت رياح الشرق الاستوائية قد هبت من الغرب الى الشرق خلال أعوام العشرينات من هـذا القرن ، وذلك ما بين أمريكا السـوداء وافريقيا أو جزر الكاريبى ، فلقد حـاول بعض المؤلفين الادعاء بأن هذه الرياح « الفكرية » قد عكست اتجاهها خلال أعوام الستينات أوائل السبعينات ، وقد ظهر ذلك جليا فى كتابات البعض ، مثل أوفواتى كودجو فى بحث بعنوان « المثلث العقائدى ، التأثيرات العقائدية المتبادلة بين هنود الغرب الافريقيــين ، والأمريــكيين الافريقيــين ، والافريقيين » ويشـير رروبرت ٠ ج ٠ فايسبورد فى مقـال ممتاز تحت عنوان « الاحســاس الافريقى لدى أمريكا السوداء » (٣) ، وبعبارات جذابة ــ ازدياد الحماس لمعرفة كل ما يخص افريقيا من جانب المواطنين الأمريكيين السود ٠

وعلى كل حال فان كلا من المؤلفين السابقين ، لم يعلق أهمية كبرى على تأثير القيم الجمالية الافريقية والحركة الزنجية على نهضة هارلم الجديدة ٠ واذا لم يمكننا أن نخصص فصلا بذاته للملحوظات التى ستذكر فيما بعد ، فانه يمكن اعتبارها على الأقل شرحا هامشيا فى سلسلة دراسات تدور حول التأثير الأدبى المتبادل بين افريقيا السوداء والأوساط الأمريكية الافريقية الأصل ٠

= لما وراء البحار ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٢١ ــ ٣١ ، وادوارد أ٠ جونز كاتب مقال « الكتاب السود من المحدثين بالفرنسية فى الثلاثينات وميلاد المدرسة الزنجية » فى مجلة Cla بتاريخ ١٤ سبتمبر عام ١٩٧٠ ، صفحة ١٨ ــ ٣٤ ، وشارلز لارسون فى مقال بعنوان « العلاقات الأدبية بين افريقيا وأمريكا السوداء ، تشابه أساسى » والمنشور فى مجلة المختار الزنجية ، مجلد ١٩ ، ديسمبر ١٩٦٩ . صفحة ٣٥ ــ ٤٢ ، ونجاندوبيوس صاحب المقال « دور الأمريكيين السود فى الأدب الافريقى الزنجى » مجلة الكونغو ــ افريقيا مجلد ١١ ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٣٣٧ ــ ٣٤٤ ٠

(٢) مازلنا ننتظر المقالة التى توضح دور ميرسير أ٠ كوك كوسيط بين نهضة هارلم والحركة الزنجية فى أمريكا من جانب ، والحركة الزنجية مع حركة الفنون السوداء من جانب آخر ٠

(٣) روبرت ج٠ فايسبورد فى كتابه « الضمير الأسود المعبر عن افريقيا » فى سلسلة افريقيا والافريقيين والأمريكيين السود ، دار نشر جرين وود ، وست بورت ، كونكتكت ، عام ١٩٧٣ ٠

ويجب أن نلاحظ أولا أنه بعد فترة ازدهار فى السنوات العشرين من هذا القرن تميزت بحركة جارفى ، يبدو أن الحماس حول افريقيا قد هبط الى أدنى درجة فى منتصف الخمسينات . ففى احدى استطلاعات الرأى التى قادتها مجلة ايبونى اتضح أن افريقيا تحتل المركز الأخير فى الأهمية بين الموضوعات المقترحة على القراء لابداء الرأى . ثم تغير موقف الأمريكيين السود بعد أقل من عشر سنوات . وكان ذلك التغير نتيجة للوضع الاجتماعى والسياسى على الساحة الأمريكية من جهة وبسبب تطور الأحداث السياسية فى افريقيا من جهة أخرى .

وجدير بالذكر أن خطة مارشال واعلان مذهب ترومان ،عام ١٩٤٧ قد تزامنا مع بداية الحرب الباردة التى تحددت معالمها بقوة خلال اثنتين من الحروب الساخنة ، الأولى هى حرب كوريا التى استمرت من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٢ ، والأخرى هى حرت فيتنام واستمرت من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٣ ، وفى ظل المناخ السياسى السائد خلال الحرب الباردة فان كل نقد متعمق للحياة الأمريكية ، فى اطار من الثورية ، كان يعتبر بمثابة خيانة عظمى ، ومن هنا ظهرت عمليات مطاردة المارقين . والقوائم السوداء ، وحلف اليمين على احترام الدستور ، وكذلك قضايا التجسس ، وذلك يعنى سيادة القيم المحافظة فى المجتمع ، وفى هذه الفترة كانت الصحافة تكيل المديح للطريقة الأمريكية فى الحياة ، وزيادة معدل الدخل السنوى ، وتمتدح حسنات شبكة الطرق السريعة ، والأسواق المغطاة الفخمة المقامة فى الضواحى الراقية فى محيط المدن الكبرى ، والتى تبدو بمثابة واجهات عرض للحرية الفردية ، وجنة للمستهلك الحامل لبطاقة ائتمان .

وقد ظهر واضحا اعتبارا من منتصف الستينات أن حقيقة النسيج الاجتماعى تخفى وراءها انقسامات عميقة ومشاكل اجتماعية خطيرة . وعند هذه النقطة كان المحللون يفترضون أن الطبقة المتوسطة ذات العيش الميسور ، التى ارتضت مصيرها (ونحن هنا نتحدث عن البيض) اذا كانت تعانى من شىء ما فان هذا الشىء ، هو أزمة روحية سببتها وفرة الاستهلاك ، وهو ما أطلق عليه عالم اجتماع سويدى عام ١٩٤٤ لقب « المأزق الأمريكى » أو الفشل الكبير للديموقراطية ، ونقصد به التمييز العنصرى (واللامساواة بين الأجناس) ، الذى لم يهتز له الوجدان الشعبى آنذاك .

ويبدو أن مصير السود فى الولايات الجنوبية ومدن الشمال الكبيرة . وهم من القاطنين فى الأحياء القذرة والمنعزلة ، هذا المصير لم يعكر صفو

الضمير الأمريكى الجماعى الا عندما قامت الحركات الأولى من أجل الاعتراف بالحقوق المدنية للسود فى نهاية خمسين عاما من هذا القرن ، وتمثلت هذه الحركات فى المظاهرات وحملات المقاطعة التى نظمها القس مارتن لوثركنج (٤) ·

وقد حاول السود بشدة منذ أن أعلن ميثاق التحرر من العبودية عام ١٨٦٣ أن ينضموا للتيار العام للأمة الأمريكية ، غير أنه كلما أصروا على محاولاتهم تعددت العقبات فى طريقهم نحو اللحاق بهذا التيار · ومع اجتماع عوامل عدة مثل البطالة المتفشية لدى الشباب ، والاستغلال الفاحش من جانب ملاك المساكن غير الصحية حيث يتزاحم السكان السود ، وكذلك القسوة البوليسية ، بات الاعتقاد قويا بأن قوانين المساواة المدنية لن ترى النور أو تدخل حيز التنفيذ · وبدأت حدة الغضب تتزايد لدى السود ، وبالرغم من أن الجمعية الوطنية لتقدم الملونين قد أعلنت شعارها « كلنا أحرار » بحلول عام ١٩٦٣ ، الا أنه فى الحقيقة ، فان الحرية قد تغيبت عن اللقاء بالسود فى هذا الميعاد ·

وبدأت سلسلة من الاغتيالات لقادة السود ، وببساطة للشخصيات المشتبه فى تعاطفها مع السود ، مما أدى الى زيادة مخاوف هؤلاء الذين أحسوا أن الأقدار دفعتهم كى يصبحوا غرباء فى أوطانهم ، ويمكن أن نخص من بين هؤلاء الضحايا جون كنيدى (عام ١٩٦٣) ، ومالكوم اكس (عام ١٩٦٥) ، ومارتن لوثركنج (عام ١٩٦٧) ، وقد تخيل الكثيرون أن وفاة رائد حركة الاحتجاج السلمى هو بمثابة علاقة أكيدة على استنكار أمريكا للمسيرة السلمية نحو المساواة المدنية · ومع اندلاع الغضب نزل بعض الشباب من السـود الى الشـوارع ، حيث أحرقوا عدة ضـواحى سكنية ، وبدا للكثيرين من السود أن مصيرهم المؤكد هو الابادة ، واذا رغبوا فى الحياة كمجموعة عرقية متميزة فعليهم بالتعاون مع كل الجماعات البشرية التى يلفظها المجتمع الأبيض فى العالم (٥) ·

---

(٤) أسجل اعترافى بالجميل نحو آلان اشتبرجر ، والذى استقيت منه بعض أفكار هذه الفقرة والفقرة السابقة لها · ولمزيد من المعلومات فهناك كتابه « خلفية ثقافية » فى سلسلة مرشد هارفارد للكتابة الأمريكية الحديثة ، (الناشر دانيل هوفمان كامبردج ــ ماسشستوس) عام ١٩٧٩ ، صفحة ١ ــ ٥٠ ، دار نشر جامعة هارفارد ·

(٥) ويليام ك· تاب فى كتابه « الاقتصاد السياسى والقرية الزنجية » نيويورك ، عام ١٩٧٤ صفحة ٢١ ــ ٣٤ · يستخدم تاب نموذج المستعمرة الافريقية لكى يصف حال الأمريكيين السود كشعب يرزح تحت نير المستعمرين البيض ، فمثل غالبية دول العـالم الثالث ، الدخل السنوى للفرد منخفض ، معدل النمو السكانى مرتفع ، كما أنهم يعتمدون =

ومع توالى الأحداث بدأ البعض يضع نفسه فى خدمة النضال ضد الاستعمار أكثر مما يضعها فى خدمة قضيته الأصلية (الحقوق المدنية)(٦) ٠ وكان لزاما على السود فى هذا النضال استعمارية البيض أن يقوموا بتوحيد فصائلهم فى قوة واحدة من أجل دحض قوى التسلط لدى البيض التى طالما فرضت وصايتها عليهم ، وبذلك لم يكن هناك مجال للانضواء تحت تيار الأمة الأمريكية ، والاجابة حينئذ هى الانفصال ، ففى خلال اجتماع لمؤتمر القوة السوداء فى نيووارك بولاية نيوجيرسى صوت المجتمعون لصالح دولتين منفصلتين ، احداهما للسود ، والأخرى للبيض ٠

ويعزى جانب من هذا الاندفاع ونفـاذ الصبر المتزايد من جـانب السود الأمريكيين الى استقلال الدول الافريقية حديثة العهد وظهورها على الساحة الدولية ٠ وعندما زار كوامى نكروما الولايات المتحدة عام ١٩٥٧ ، قبل اعلان استقلال غانا بقليل ، فانه استقبل بحماس فى هارلم وفى الحى الشرقى فى شيكاجو ، وحدث نفس الشىء مع سيكوتورى القادم من غينيا فى عام ١٩٥٩ ، وكذلك مع باتريس لومومبا فيما بعد ، وقد نال هذا الأخير شعبية طاغية بين طلبة جامعة هاوارد عندما أثارهم بتصريحاته ومنهـا « (٧) لقد شيد الافريقيون أمريكا ، وأنه بفضل السود أصبحت أمريكا قوة عظمى ، واذا كان الافريقيون قادرين على ذلك فى العالم الجديد فعليهم بفعله فى قارتهم الأصلية » ٠ ولهذا لم يكن مستغربا ، فى ظل هذه الظروف ، أن يشعر الأمريكيون السود بغصة فى القلب عندما اغتيل لومومبا عام ١٩٦١ ، واعتبروا ذلك مشابها لما كان يجرى لهم من عمليات الشنق السريعة على ضفاف المسيسبى أو فى ولاية آلاباما . وبدأ الكثيرون فى التفكير فى نظام جديد لحياتهم فى أمريـكا . وفى مراجعة عـلاقاتهم بافريقيا والشعوب الافريقية ٠

وكان العنصر الأساسى الذى لفت الانتباه وأثار خيال الأمريكيين السود بدون شك ، هو كفاح الماوماو فى كينيا ، فقد توصل شعب كينيا

= كلية من الوجهة الاقتصادية على الأسواق الخارجية ، والمشروعات ينقصها رأس المال والخبره الفعالة . ويمتلك الأجانب معظم الشركات . ومعظم المناصب الرئيسية فى ايدى غرباء قادمين من أماكن بعيدة . وليس لدى الأمريكين السود اى سلعة تصديرية سوى الأيدى العاملة غير المدربة ٠

(٦) كتاب جون هوب فرانكلن يحتوى على مناقشات ممتعة لهذه الفترة ، ويسمى « من العبودية الى الحرية » عن تاريخ الأمريكيين السود ٠ نيويورك ، عام ١٩٦٧ ٠

(٧) مسرور فى مجلة ايبونى ، مقال فاريسبورد ، صفحة ١٥ ٠

خلال نضاله ضد الاستعمار البريطاني الى الاستنتاج بأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتحريرهم من الاستعمار ، وعندما قارن الأمريكيون السود مجهوداتهم بما يقوم به اخوانهم فى كينيا ، فانهم أدسوا بالضعف والخور : فكل هذه التظاهرات من أجل الحرية والاضرابات والمسيرات الى واشنطون كانت عديمة الفاعلية ، وعندما كان مارتن لوثركنج يبشر بأن تقديم آلام ومعاناة السود قربانا على مذبح الحرية ، على أمل أن ينتهى ذلك الى نيل حقوقهم رغما عن الأعداء ، فان ذلك كان يقابل بالشك فى كل مكان ، وكان لزاما على السود الأمريكيين التأسى بما فعلته كينيا ، ألا وهو اتباع طريقة الكفاح المسلح (٨) ٠

وهكذا أصبح اسم « ماوماو » مرادفا للكفاح المسلح لدى الأمريكيين السود فى أعوام الستينات من هذا القرن ٠ وفى خطاب ألقاه مالكوم اكس فى ديسمبر عام ١٩٦٤ فى هارلم قال ان ماوماو أصبحت بالنسبة له رمزا للوطنية الافريقية ، وللكفاح فى سبيل الحرية ، وأنها تمثل ما يجب فعله تماما فى آلاباما ، وجيورجيا ، وحتى فى مدينة نيويورك (٩) ٠ ثم ظهر كتاب فرانزفانون بعنوان « عبيد الأرض » الذى ترجم للانجليزية عام ١٩٦٣ ، ليعضد نظرية هؤلاء الذين اعتقدوا أن السلاح وحده هو القادر على تصحيح موقفهم ، وعلى حد قولهم فقد أدت القسوة والعنف الى ظروف الاضطهاد التى يعيشونها (أى السود) حاليا ، ولذلك فان العنف المضاد وحده هو القادر على اصلاح هذا الخلل٠ ويعترف كل من هوى نيوتن وبوبى سيل من منظمة الفهود السوداء ، بالفضل الفكرى لفانون حيث يقولان « ان الأحاسيس والأفكار والعواطف التى مزقتنا ظلت مبعثرة وغير منسجمة ، حتى اللحظة التى قرأنا فيها كتاب فانون ، وحينئذ اتضحت لنا أشياء كثيرة ، وأصبح موقفنا أكثر تحديدا ، وهو ما سمح لنا بتشكيل منظمة سياسية » (١٠) ٠

---

(٨) مصطلح « ماوماو » استعمل فى الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٢ ، بواسطة مجلة نيوزويك ، نوفمبر ١٩٥٢ ، صفحة ٤٤ ، وظهر بعد ذلك بمعنى « ينشر الرعب » فى قاموس هاربر ، عام ١٩٧١ ، صفحة ١٠٧ ، وكذلك لدى قاموس الافريقيات وتأثير افريقيا الوسطى على اللغة الانجليزية ، تاليف جيرالد م٠ داجليش ، والمنشور بواسطة دار نشر جرين وود عام ١٩٨٢ ٠

(٩) مجلة ايبونى / صفحة ١٤ ٠

(١٠) منشور فى « الحضارة الفرنسية المعاصرة » ، فصل بعنوان « فرانز فانون وعلاقته بايديولوجية الأمريكيين السود فى فترة الستينات » بقلم ميشلين ريس ، ربيع عام ١٩٨١ الجزء الخامس ، رقم ٣ صفحة ٣٧٤ ٠

وقد أشار ستوكلى كارمايكل ، أحد المفكرين فى حركة القوة السوداء ، الى أهمية أفكار فانون حيث يذكر فى كتاباته « ان فانون بالنسبة للكثيرين من السود بالولايات المتحدة الأمريكية فى طريقه لأن يصبح أحد هؤلاء الذين نستمد منهم جانبا كبيرا من طاقتنا الروحية » (١١) ٠

وكلما زاد تباعد السود عن المجتمع الأمريكى نلاحظ كما يقول جون هنريك كلارك مجهودا كبيرا لاستعادة الميراث الافريقى المفقود (١٢) ٠ وهنا بدأ تمييز بين صنفين من الزنوج ، هؤلاء الذين بدا أنهم لا يستطيعون أو لا يريدون التخلص من عقلية العبيد القديمة ، وأولئك الفخورون بماضى افريقيا وبانتمائهم للجماعة الزنجية السوداء ، وانتشرت فى الجامعات بدعة النوادى والجمعيات « الافريقية » ٠ ثم حاول الطلبة وبطريقة غير سلمية أحيانا المطالبة بدراسة مقررات ذات علاقة بافريقيا وذلك لاعادة التوازن مع نظام التعليم الرسمى المفروض على السود ، وبالنسبة للكثيرين فان بقاء الشخصية العرقية السوداء فى أمريكا مرتبط بصحوة الوعى فى افريقيا وبصحوة الثقافة الافريقية ، وبدأ البعض فى دراسة اللغة السواحلية ، وذهب آخرون الى المطالبة بتدريس هذه اللغة فى المدارس الثانوية (١٣) ، واستلهم المؤلفون الشبان فى هذه الفترة ــ وهم الذين أصبحوا فيما بعد نواة لحركة الفنون الزنجية ــ استلهموا أفكارهم من هؤلاء الذين وضعوا مواهبهم الخلاقة فى خدمة النضال لتحرير اخوانهم ، فكان طبيعيا أن يستديروا نحو افريقيا ليبحثوا فيها عن المؤلفين الرواد للحركة الزنجية ، وذلك ليقوموا بنفس دور الكاتب فى المجتمع الافريقى التقليدى ، وقد ساعد هؤلاء الكتاب الجدد على ذلك ظهور عدة مؤلفات حول افريقية ، صادرة عن الكثير من الجامعات والمدارس التى وضعت برامج

---

(١١) كتاب ستوكلى كار مايكل « ستوكلى يتكلم ، القوة السوداء والوحدة الافريقية » نيويورك ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٣٦ ٠

(١٢) عنوان مقال لجون هنريك كلارك فى كتاب « النار السوداء ، مجموعة الكتاب الأمريكيين من أصل افريقى » ــ الناشرون هم لى رواجونز ولارى نيل ، نيويورك ، دار نشر ويليام مورو ، عام ١٩٦٨ ٠ ويختتم كلارك مقاله بفقرة جاءت فى كتاب جون فاندركوك « أى جنس يمكن تمثيله برجل ، فطالما أنه لا يستغل مواهبه ، ولا يفتخر بماضيه ، ولا يعتز بذكرياته ، فليس له أمل فى تحقيق ذاته بشكل كامل » ص ١٨ ٠

(١٣) مجلة ايبونى ، صفحة ١٨ ، خــلال الحملة الانتخابيــة عام ١٩٦٨ ، اقترح دونالد ريد تغيير اسم منطقة شرق بالتو فى كاليفورنيا الى نيروبى ، متعللا بأن غياب الأسماء الافريقية عن الخريطة الجغرافية الأمريكية سيترك اعتقادا بأن الأمريكيين الحقيقيين هم من أصل أوروبى ، أى اعتبار أن المواطنين من الأصل الافريقى ، امريكيون غير حقيقيين أو دخلاء ٠ ولكن الاقتراح لم ينفذ اطلاقا ٠

عديدة للدراسات الافريقية ، وقد نال المرجع التقليدى ، الذى ألفه الألمانى أخصائى الشؤون الافريقية جان هاينز جان تحت اسم « الثقافة الافريقية الحديثة » . ونال نجاحا كبيرا واسع المدى ، بعد طباعته عام ١٩٦١ ٠ وخاصة بعد اختياره « كتاب العام » بواسطة مجلة المكتبات ، ويقول مؤلفه فى الفصل الخامس حول طبيعة ووظيفة الأدب والثقافة الافريقية : ان السحر ما هو الا سحر الكلمات ، سواء كانت تعويذة أو طقوسا خاصة ، وسواء كانت لجلب النعمة أو النقمة ، فمن خلال كلمة معينة يستطيع الرجل أن يفرض سيطرته على الأشياء (١٤) ، ويتحكم الرجل بقدرته اللغوية طبقا للفلسفة الافريقية فى الأشياء ، فيمكن أن يغير طبيعتها حسب رغبته ، ويجعلها تعمل من أجله ، أو يطوعها لارادته ، ولكن السيطرة على الكلمات يعد نوعا من ممارسة السحر ، وممارسة السحر بالكلمات هى كتابة الشعر » (١٥) ٠

واذا تركنا كتاب جان هاينز جانبا ، فسوف نجد كتبا أخرى مترجمة ساعدت على تعريف هؤلاء الكتاب الشبان (رواد حركة الفنون الزنجية فيما بعد) بالثقافة الافريقية ، وبرؤيتها الخاصة للعالم ، ومن هذه الكتب نجد « العودة الى الوطن » تأليف ايميه سيزار عام ١٩٦٨ ، و « فصل من السنة فى الكونغو » عام ١٩٦٨ ، وكذلك « مأساة الملك كريستوف » الصادر عام ١٩٦٩ لنفس المؤلف الأول ، وهناك أيضا كتاب نومان شابيرو « الذاتية الزنجية وعلاقتها بالشعر القادم من افريقيا وبحر الكاريبى » فى عام ١٩٧٠ ، ونجد كذلك لسزار « مقالة حول الاستعمار » المنشور عام ١٩٧٠ ، وكتاب مارى كولينز «الشعراء السود المتحدثين بالفرنسية» ، ونستطيع أن نذكر ذلك الكتاب الذى نال التقرير ، والذى ألفته ايلين كونروى كينيرى ويدعى « القصائد الزنجية ، مجموعة أشعار مترجمة عن الفرنسية » فى عام ١٩٧٥ ٠ وجدير بالملاحظة هنا ، أن مؤلفات جان هاينز ، وسيزار كانت تظهر تحت رعاية دارنشر جروف فى نيويورك ، التى لعبت دورا مماثلا لما لعبته دار نشر ريدر فى باريس فى العشرينات ،

---

(١٤) كتاب جان هاينز جان « الثقافة الافريقية الحديثة » ، دار نشر جروف ٠ عام ١٩٦١ ، صفحة ١٣٢ ٠

(١٥) نفس المرجع السابق ، بعض الأفكار المنشورة هنا يرجع الفضل فيها الى مقال جيمس ارنولد الرائع « استقبال الأمريكيين السود لسيزار ، حوار صعب فى الولايات المتحدة الأمريكية » ، وكذلك مجموعة « سيزار ٧٠ » ، تأليف م و م٠ نجال ، الذى نشر فى باريس فى دار مطبوعات سيلكس عام ١٩٨٤ صفحة ١٤١ ٠ وكذلك مقالة توماس ٠ أ٠ هال ، فى نفس المجموعة وبعنوان « سيزار فى عالم أمريكا الشمالية الأبيض » ٠

حيث قامت بجهود ملحوظة لتعريف قراء الفرنسية فى افريقيا وبحر الكاريبى بأعمال المؤلفين الأمريكيين السود (١٦) ٠

وبدأ الكتاب الأمريكيون السود الشبان البحث عن كيفية الاستفادة من تجاربهم المكتسبة من خلال قراءاتهم فى اثراء محاولاتهم الأدبية الخاصة ويبدو هذا واضحا على وجه الخصوص للمفكرين النظريين للحركة ، ويقول هوايت فولر الذى ساعد على ظهور العديد من الشعراء الشبان فى هذه الفترة « لم يكن لوليم شيكسبير علاقة بالروح الثورية التى انتشرت بشدة فى أحياء السود » (١٧) ٠ وقد لاحظ جون أونيل أن السبب يعود ، ولو جزئيا ، الى صعوبة ارتباط السود بكيانهم الذاتى تحت اطار الأمة الأمريكية أو القيم الغربية ، تماما مثلما هو صعب على الدجاجة أن تكتشف أنها تنتمى الى فصيلة « جالينيسيا » بينما هى منزوعة الريش وتلفحها

---

(١٦) وهكذا نشرت النسخة الفرنسية للقصة الشهيرة « بانجو » التى كتبها كلود ماكاى ونشرت فى دار نشر ريدر عام ١٩٢٩ ٠ ويجب أن نتحدث كذلك عن الدور الهام لبعض المجلات مثل « المنصة الافريقية » التى تنشرها الجمعية الأمريكية للثقافة الافريقية ، ومجلة ماســشستوس التى تساهم بمقالاتها النقدية فى التعريف بالأدب الافريقى فى الولايات المتحدة الأمريكية ٠ ولنذكر هذه المقالات التى ظهرت فى « المنصة الافريقية » ، مجلد ١ ، رقم ١ ، صيف ١٩٦٥ ، مقالة من تاليف جيمس ايفى بعنوان « زنجية الرئيس ليوبولد سنجور » من صفحة ١٣٩ الى ١٤١ ، وفى مجلد ١ ، رقم ٤ ، ربيع ١٩٦٦ ، مقـالة بقلم ليوبولد سنجور بعنوان « الوظيفة والمعنى للمهرجان الزنجى العالمى الأول » من صفحة ٥ الى ١٠ ، ومن صفحة ١١ الى ٢٠ مقالة بقلم لانجستون هيوج « هارلم والظاهرة الزنجية فى العشرينات » ، وفى صفحة ٥٦ الى ٧٤ مقالة بقلم توماس ميلون « أصوات جديدة للشعر الافريقى بالفرنسية » وينشر ميرسير كوك كذلك مقالا بعنوان « شعر ليوبولد سنجور » من صفحة ١٢٤ الى ١٣٦ ، الجزء الثانى ، رقم ١ صيف ١٩٦٦ ، وكذلك ايلين كونروى كينيدى لها مقال بعنوان « أربعة شعراء افريقيين » من صــفحة ١٠٣ الى ١٠٧ ، الجزء الثانى ، رقم ٣ ، شتاء ١٩٦٧ ، ومقال لميرسير كوك بعنوان « زيارة الرئيس سنجور ، قصة المدن الخمس » من صفحة ٧٤ ــ ٨٦ ، ومقال للكاتب نوامى جاريت بعنوان « الزعيم الروحى للظاهرة الزنجية ، تحية الى رينيه ماران » من صفحة ١١٦ الى ١١٩ الجزء الثانى رقم ٤ ، ربيع عام ١٩٦٧ ، ومقال لميرسير كوك بعنوان « شعر ليون داماس » من صفحة ١٢٩ الى ١٣٢ ، وكتب اميل سنيدر مقالا بعنوان « مدخل الى الشعر الزنجى باللغــة الفرنسية » من صفحة ١٣٢ الى ١٣٤ ، وفى سلسلة الوجود الافريقى التى تصدر فى باريس ، كتب توماس كاسيرير بحثا بعنوان « نظرة شاملة لأعمال عبد الله سيدى » عام ١٩٦٥ ، وكذلك كتب الب باهلى كونوم « غناء البحيرة » فى نفس السلسلة ، عام ١٩٦٥ الجزء الثالث رقم ١ ، وأخيرا أ٠ س٠ جرنش فى مقال بعنوان « التكوين الثقافى للكاتب فى أفريقيا الواقعة تحت الاستعمار الفرنسى » ، صيف عام ١٩٦٧ من صفحة ٣٤ الى ٤٣ ٠

(١٧) هويت فولر فى كتابه « نحو جماليات أدبية سوداء » ، نيويورك دار نشر وبل داى ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٩ ٠

نار الشواء • اذن السود هم شعب افريقى (١٨) ، ويجب أن يكون الهامهم مستوحى من التقاليد التى حددها رون كارنجا بقوله « لقد أعلن ليوبولد سنجور أن كل فن افريقى يحتوى على ثلاث خصائص مشتركة : وظيفة يؤديها وانتشار جماعى ثم ارتباط بقضية ، وحيث أن ذلك يتطابق مع تقاليدنا ، فاننا يجب أن نستلهمه كقاعدة نقيم عليها بنياننا يتجاوب مع حاجاتنا الحاضرة » (١٩) •

وقد كتب أحمد الحمصى ، وكوفى وانجارا فى مقدمة كتابهما الجامع « فنون زنجية ، موسوعة لأدب السود » ما نقرأه فيما يلى :

« هذا هو الغناء والصلاة ، وهذه هى التعاويذ والطبول تدق للمحاربين ، ومعها أنســام العاشقين تطـل من روح باتريس لومومبا ، وكوامى نكروما ، وسيكوتورى ، المكتشفين والأنبياء ، تقـدم لكم جوهر الأرواح ، كمـا تقدم لكم هذه الحقيقة ، وهى أننا نحن البداية ونحن النهاية •

« أيهــا الاله الحى مولونجو ، هانحن نقــدم لك ابداعات روحنـا ، تضحية منـا ، وحتى تمنحنا القوة كى نحارب بسلاحنا معركة التحرير ، وحتى تمنحنا أخيرا السلام فى السماوات ، ومرة ثانية سلاما وسلاما » •

وتثير هذه القصيدة حربا أدبية ، يظهر فيها مدى ارتباط المؤلفين بقضيتهم ، وقد لاحظ وودى كنج أن كثيرا من كتاب هذه الحركة يشعرون بهذا الاحساس الذى وضعه فرانز فانون بأنه المرحلة الثالثة من معركة تحرير الشعب الراسخ فى قيود الاستعمار ، فالمرحلة الأولى هى الهضم ، والثانية هى التحضير للكفاح ، والثالثة هى المرحلة الصعبة حيث « بدلا من اضفاء الاحترام على عمليات تهدئة الجماهير ، يثور الكاتب ، ويجعل من نفسه الموقظ للشعوب النائمة ، عندما يضع نفسه فى صورة الكاتب المقاتل ، وخلال هذه الفترة وجد الكثيرون ، رجالا ونساءا ، من الذين لم يحلموا يوما بكتابة عمل أدبى . وجدوا أنفسهم وسط ظروف استثنائية حركت فيهم الدافع للكتـابة الى ذويهـم ، والبحث عن اللغة التى تغزو

---

(١٨) جون أونيل « فنون سوداء ــ ملحوظات » صفحة ٤٧ •

(١٩) رون كارنجا « الوطنية الثقافية السوداء » ، ٣٣ •

(٢٠) أحمد الحمصى وهارون كوفى دانجارا فى « موسوعة أدبية عن الأدباء السود » ، منشورات وترويت للفنون السوداء ، عام ١٩٦٩ ، صفحة ١٣ . وكانت العادة فى هذه الفترة أن يتخذ الكتاب الأمريكين السود اسماء افريقية وأن تسمل كتاباتهم ألفاظا من اللغة السواحلية •

القلـوب ، وتصبح متحدثة باسـم حقيقة جـديدة تتحرك على سـاحة الحياة » (٢١) ٠

وهكذا يدعى الشعراء الافريقيون أنهم بقوة الكلمة يستطيعون تدمير العالم بحالته الحالية ، وبناءه من جديد على الصورة التى يرغبونها ٠ ونجد نفس المضمون فى العبارات التالية للامام أميرى بركة « اننا نحن السحرة السود ، والسحر الأسود هو ما يتقطر داخل الغرف السوداء للقلب ، فالوجوه الشاحبة تصبح دائما شاحبة وبيضاء كالموت ، ولا يمكن لضوء النهار أن ينقذها ، لأننا نسيطر على الليل » (٢٢) ٠ وخلال أعوام العشرينات ، واذا نحينا جانبا حقيقة انتشار قصائد الأمريكيين السود فى باريس ، فان عددا من هؤلاء المؤلفين توجه الى باريس ، والتقى بعدد من الكتاب الشبان القـادمين من افريقيـا ، ومن بين هؤلاء المؤلفين نذكر كلودماكاى ، ولانجستون هيوج ، وكونتى كلين ، والشاب آلان لوك ٠

ثم فى خلال أعوام الستينات والسبعينات ، عكست الرياح الثقافية اتجاهها لتهب عبر الأطلنطى ، من الشرق الى الغرب (من افريقيا الى أمريكا) ، حيث ذهب كل من سيزار ، وسنجور ، وداماس فى زيارات مشهورة الى الولايات المتحدة ٠ وقد خص الأخيران الكتاب السود الشباب بالتشجيع والنصيحة ٠ زار ليوبولد سنجور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٦ (٢٣) ، بينما زارها سيزار عام ١٩٦٨ وهو فى طريقه الى جزر المارتينيك ، ومن المحتمل أن يكون داماس هو أكثرهم تأثيرا وذلك لأنه قضى الأعوام الأخيرة من حياته فى الولايات المتحدة ، فقد استقر هناك فى عام ١٩٧٠ ، وتم تعيينه عام ١٩٧١ فى كلية المدينة الفيدرالية ، ثم احتل كرسى « أستاذ متميز لأدب السود » فى جامعة هاوارد ، وظل مرتبطا بهذه الجامعة مثل سابقتها ، حتى موته عام ١٩٧٨ ، وقد ساعد ايلين كونروى كينيدى خلال اقامته ، فى وضع مؤلفها الموسوعى حول تراجم

---

(٢١) كتاب ودرى كنج « الأرواح السوداء ، مهرجان الشعراء السود الجدد فى أمريكا نيويورك ، دار نشر راندوم هاوس عام ١٩٧٢ ، صفحة ١٧ ٠

(٢٢) كتاب ليروا جونز « مقالات اجتماعية » نيويورك ، دار نشر ويليام مورو ، عام ١٩٦٦ ، صفحة ٢٥٢ ٠ ولارى نيل وهو أحد المفكرين النظريين الأساسيين للحركة وقد أشار بأن ليروا جونز (أميرى بركة) هو أول من استخدم لفظ « فنون سوداء » ٠ بمعنى ايجابى ، وفكرة أن سلطة الكلمة تستطيع تدمير العالم بما هو عليه وذلك لبنائه من جديد على الصورة التى يتمناها الشعب الأسود ، ويبدو ذلك فى قصائد بركة بعنـوان « فن أسود » و « فناء والدى الأسود » ٠

(٢٣) مقالة ميرسير كوك حول رحلة الرئيس سنجور ، والمذكرة فى هامش رقم ١٦ ٠

الشعراء السود المنشور عام ١٩٧٥ ، وأخيرا يجب أن نذكر بصفة خاصة أن داماس كان مستشارا روحيا لمجموعة من الشعراء السود الشبان في هذه الفترة ، ولقد حياه بعضهم في الكتاب المؤلف والمهدى الى ذكراه ، مثل جيون جوردان الذى يتحدث عن والده الغنى والسياسى ، وكذلك جين كورتز فقد كان بالنسبة لها أخا ومعلما · كما قال عنه هاكى مادهابوتى أنه كان يعرف كل فرد شخصـــيا ، وأنه قرأ وشـــجع كل الشعراء وكذلك نجد نفس التقدير لدى ايوجين ردموند ، ولارى (٢٤) ، وكما قال دانيل راسبن عنه « ان داماس لم يكن يريد أكثر من رد الجميل الى اخوانه الأمريكيين ، الذى طالمـا تعلـم منهـم فى أعـوام الثلاثينـات من هـــذا القرن » (٢٥) ·

وهكذا أصبحت الدائرة مغلقة ، فقد ترك المؤلفون السود خلال عصر النهضة الأولى في هارلم الأمريكية آثارا على الحركة الفكرية الزنجية فى افريقية ، ثم جاء دور كتاب افريقية فيما بعد ، ليؤثروا وبشدة على حركة الفنون السوداء الأمريكية الحديثـة · ونلاحظ أنه يوجد تشابه كبير بين المشاكل التى يواجهها الافريقيون والأمريكيون السود وسكان جزر الأنتيل السود ، ومن المرجح ألا يتوقف تبادل الأفكار وطرق التعبير بين هـذه الجماعات السوداء فى الأعوام القادمة ، وذلك للمطالبة بحقوقهم الفردية والجماعية ، وهـذا ما يعبر عنه جيدا لانجســتون هيوج حيث يقول :
« اننا أولاد عم ، أنا وأنت » ·

أنت القادم من جزر الأنتيل
وأنا من غانا
نحن أولاد عم ، أنا وأنت
أنت القادم من الولايات المتحدة ·
وأنا الافريقى
اننا كلنا اخوة ، أنا وأنت » (٢٦) ·

ادوارد · أ · آكو
جامعة ياوندى

---

(٢٤) مقالة باسم « الانسان ليون داماس ، فى ذكراه » مجلة الاتجاهات الجديدة مجلد رقم ٣ ، يوليو ١٩٧٨ ، صفحة ١١٣ ·

(٢٥) كتاب دانيل راسبن « ليون داماس ، رائد الحركة الزنجية (١٩١٢ ــ ١٩٧٨) المطبعة الجامعية ــ واشنطون عام ١٩٧٩ ــ صفحة ٢٧ ·

(٢٦) لانجستون هيوج ، قصائد مختارة ، نيويورك ، مجلة Vintanges عام ١٩٧٤ ، صفحة ٢٧٥ ، ٢٦٦ ·

فجر الفكر الاقتصادى فى دول الغرب وروسيا

أندريه ف · أنيكين

١

يرتبط تطور علم الاقتصاد ارتباطا وثيقا بالبنية الرأسمالية . ولئن كان مفكرو العصور القديمة والعصور الوسطى قد صاغوا عددا من الأفكار والآراء فى هذا المجال فان علم الاقتصاد بالمفهوم الحديث للكلمة لم يبدأ بالفعل الا خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وهو الوقت الذى تطورت فيه مناهج البحث فى العلوم الطبيعية ، وأنشئت فيه أولى الأكاديميات والجمعيات العلمية (فى دول مثل انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا) · وارتبطت المراحل الأولى من بداية تطور علم الاقتصاد بتلك التطورات ، فضلا عن أن الاقتصاديين الأوائل قد ركزوا اهتماماتهم بصفة عامة على المشكلات الفعلية التى تواجه الدولة والاحتياجات الفعلية لها · ولما كانت البنية كانت سائدة فى نظم الدولة فى أوربا آنذاك هى نظام الحكم الملكى المطلق كان الاقتصاديون الأوائل من المستشارين الذين يقومون بالدراسات ويقدمون التقارير للسلطة الحاكمة يضمنونها العديد من المقترحات السياسية والاقتصادية · ومن ثم سيكون حديثنا عن مشاهير الاقتصاديين الذين ظهروا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على أنهم « رجال مقترحات » ·

ولقد استطاع الموهوبون القادرون من بينهم أن يدركوا أن مصلحة الدولة أهم بكثير من مصالح السلطة ، ولكن مؤلفاتهم اتجهت فى الوجهة المضادة للتناقضات الرئيسية ، فما كان يهم السلطات أولا وقبل كل شىء هو الضرائب وكيفية ايجاد دخول أو موارد جديدة · وأملا فى توقية الضرورات الاجتماعية وجه الاقتصاديون كل بحوثهم نحو هذا الهدف دون

المترجم : محمد جلال عباس

أن يروا بوضوح أن أضمن وسيلة لتحقيقه هى تطوير الرأسمالية التى تعتبر ضرورة لمواجهة النظام الاقطاعى الذى يستند عليه النظام الملكى ، وهكذا سوف نرى أن مصير مؤسسى علم الاقتصاد كان مصيرا سيئا بل كان فى أغلب الأحيان مصيرا مأساويا .

بدأ علم الاقتصاد فى الأزمنة الحديثة على أنه اقتصـــاد سياسى . ويكشف لنا ذلك عن توجهات هذا العلم الجديد نحو مشاكل اقتصاديات الدولة ، فعبارة اقتصاد سياسى فى حد ذاتها قد استخدمت لأول مرة كعنوان لكتاب من تأليف الكاتب الدرامى والاقتصادى الفرنسى أنطوان دى مونتشريستان Antoine de Montchrestein نشر عام ١٦١٥ ، غير أن هذا العلم الجديد لم يكتسب أول شكل محدد له الا فى مؤلفات العالم الانجليزى وليام بيتى William Petty (١٦٢٣ ـ ١٦٨٧) . كما ظهرت فى أواخر القرن السابع عشر أيضا مؤلفات الفرنسى بييردى بويسجلبرت Pierre Boisguillbert (١٦٤٦ ـ ١٧١٤) . ونذكر هنا ملاحظة عابرة هى أن كارل ماركس اعتبر هــذين العــالمين مؤسسين لعلم الاقتصاد السياسى الكلاسيكى فى كل من انجلترا وفرنسا . ولقد قام الكثيرون بدراسة حياتهما وأفكارهما . وفى عرضنا لهــذين العالمين فى هذا المقال رأينا أن نتناول الى جانبهما شخصية مرموقة هى شـــخصية ايفـــان تيخوتوفيتش بوسوتشــكوف Ivan Tikhonovitch Passochkov الذى يعتبر مؤسس علم الاقتصاد فى روسيا . وكان بوسوتشكوف (١٦٥٢ ـ ١٧٢٦) مزارعا ومستثمرا ومفكرا وكاتبا عاصر كلا من بيتى وبويسجلبرت . وان كان أقل منهما سنا ، كما أنه لم يكن له أى احتكاك بهما بل لم يقرأ أيا من كتاباتهمـــا . والمثل يقـــال عن بويسجلبرت ، فانه ـ على حد علمنا ـ لم يكن له علم بوجود بيتى الذى كتب قبله بعشرات السنين . ويمكننا أن نرجع عزلة هؤلاء الكتاب بعضهم عن بعض الى الأحوال التى كانت سائدة فى ذلك العصر والى الطبيعة النوعية لأنشطتهم .

أصدر بوسوتشكوف أعماله بعد أن اكتمل نضجها فى عهد بطرس الأول أو بطرس الأكبر الذى تميز بأنه عصر تحول حيث بدأت روسيا خطوات الاقتراب من مستوى غرب أوروبـــا فى المجالات الســـياسية والاقتصادية والثقافية . لذلك امتلأت أفكار بوسوتشكوف بطابع هـــذا التطور رغم أنه لم يسافر الى غرب أوربا ولم يتعلم أى لغة أجنبية بل انه كان فى بعض الأحيان ينتقد الكثير من عنـــاصر التغريب ويرفض الأخـــذ بالتوجهات الأوربية التى كانت تســـير نحوها روسيا آنذاك ، ذلك أن روسيا كانت فى بداية القرن السابع عشر متخلفة فى أوضاعها الاقتصادية

والاجتماعية كثيرا عن غرب أوربا ، وأخذت الرأسمالية فيها شكلا مغايرا يتناسب مع ما كان سائدا فيها من نظام رق الأرض الذى امتد خلال القرن الثامن عشر وازداد تعمقا . بيد أننا نجد فى آراء وأعمال بوسوتشكوف الكثير من النقاط التى يشترك فيها مع معاصريه الغربيين ، كما أن بعض معالم شخصيته تقدم لنا مادة غنية لمقارنته بشخصية كل من الاقتصادى الانجليزى والفرنسى حيث نجده أحيانا مناقضا لهما . وعلى أى الأحوال فان كلا منهم كان مجبرا أو مضطرا للتعبير عن روح أمته والعصر الذى يعيش فيه .

كان كتاب الفقر والثروة هو أهم مؤلفات بوسوتشكوف ، كتبه حوالى عام ١٧٢٤ وظل طوال حياته فى صورته المخطوطة ، ولم يكن هذا الكتاب معروفا الا فى دائرة محدودة فى أوساط العلماء ورجال الحكم . وتدلنا الوثائق التى وصلت الينا على أن لومونوسوف M. V. Lomonosov أكبر علماء الاقتصاد فى روسيا فى القرن الثامن عشر كان على علم ودراية شخصية بهذا الكتاب الذى لم يطبع حتى عام ١٨٤٢ فى الوقت الذى كانت فيه بعض الكتب الأخرى الأصغر من مؤلفات بوسوتشكوف قد طبعت . واكتشف بوجودين M. P. Pogodine المخطوطة وظهرت منذ البداية كل أنواع الشكوك الغريبة التى يخبرنا بها هذا المؤرخ حيث يذكرنا بالتناقضات التى أثيرت حول أصالة مؤلفات شكسبير حتى ان البعض قد ظن أن مؤلف هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مزارعا لا علم له بالأسرار ، ولكن محتوى الكتاب يؤكد أن مؤلفه كان شخصا أكثر تعليما وأكثر استنارة من ذلك . بيد أن المؤرخ بوجودين يثبت أن كل تلك الافتراضات ليس لها سند قوى ، وفى نهاية النقاش حول الكتاب اعترف بأن بوسوتشكوف هو المؤلف الفعلى .

طبعت بعض مؤلفات بوسوتشكوف الأخرى التى تتناول موضوعات فى الدين والفلسفة الأخلاقية وغيرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غير أن أهمية تلك المؤلفات قليلة بالنسبة لنا لموضوع علم الاقتصاد. ثم ظهرت المجموعة الكاملة من مؤلفات بوسوتشكوف فى روسيا ثم فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (الاتحاد السوفيتى) ، ولكن الكتابات حول هذا الموضوع ناقصة فى الغرب ، فلم ينشر الا واحد من كتب بوسوتشكوف فى ألمانيا عام ١٨٩١ (١) . كما أن معظم دوائر

---

(١) بروكنر : ايفان بوسونشكوف : افكار ومواقف فى روسيا فى عصر بطرس الأكبر ليبزج ١٨٤٨
A. B uckner, Iwan Possochkow, ideen und Zustaend in Russland zur Zeit Peterdes Grossen, Leipzig, 1848. وتوضع أيضا بالروسية

المعارف الغربية تغفله تماما ، فلم يذكر في دائرة المعارف الأمريكية سوى اسمه وعنوان الكتاب في المقال المخصص عن الاتحاد السوفيتي ونص على أنه أول كتاب روسى يتناول موضوعات اقتصادية ، وأن كتابه يعتبر بصورة خاطئة تنبؤا بأفكار وآراء آدم سميث في المجال الاقتصادى (٢) ، وهي نقطة سنعود اليها فيما بعد • ولكن علينا هنا أن نذكر حقيقة هامة عن بوسوتشكوف الذى تميز بأسلوبه الأدبى هى أن دراسته اليوم لا تقتصر على المؤرخين والاقتصاديين بل يتناوله أيضا اللغويون وفقهاء اللغة • فقدمت رسالة جامعية عن لغة بوسوتشكوف عام ١٩٧٣ فى جامعة مونستر بالمانيا الغربية (٣) ، وكذلك جاء ذكره فى كثير من الكتب التى تناولت عصر بطرس الأكبر وعهده بصور مختلفة •

وتعتبر مؤلفات بوسوتشكوف وبصفة خاصة كتاب الفقر والثروة مصدرا له أهميته الرئيسية بالنسبة لعصر بطرس الأول ، فقد استخدمها المؤرخ الروسى القديم كليتشوفسكى V.O. Klinchevskij وبخاصة هذا الكتاب بتوسع كبير فى أقسام كتابه مسيرة التاريخ الروسى التى خصصها لعصر بطرس الأول (الأكبر) والاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والمالية التى نفذها ذلك القيصر المصلح •

وعلى حد علمنا لم تكن شخصيته أو أفكاره موضع مقارنة بشخصية وأفكار بيتى أو بويسجلبرت الا أننا سنحاول هنا تحليل بعض الأفكار الاقتصادية لهؤلاء المفكرين الثلاثة من زاوية جديدة باستخدام الفترة المعاصرة كمرجع للموضوع •

٢

كانت الأفكار المادية والتجريبية لكل من فرانسيس بيكون وتوماس هوبز هى المبادىء الفلسفية التى انبنى عليها الاقتصاد السياسى فى القرن السابع عشر ، واعترف بيتى فى كتاباته بأنه مدين الى حد كبير لأفكار بيكون ، وأنه من الأتباع المباشرين للفيلسوف هوبز • ففى خلال العقد الخامس من القرن السابع عشر كان بيتى يعمل سكرتيرا خاصا لهـذا

---

(٢) دائرة المعارف الأمريكية Encyclopedia Americana الجزء ٢٧ نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٢٩١ الى ص ٢٩٣ •

(٣) شنايدر : لغة بوسوتشكوف ، مونستر ، ١٩٧٣ •
R. Schneider, Die Sprache Pasoskovs, Munster, 1973.

الفيلسوف فى مقره بباريس حيث كان يقيم آنذاك ، وذكر بيتى فى شيخوخته أنه كان يدرس مع هوبز رسالة آندريه فيسالى André Vesale عن الدورة الدموية فى جسم الانسان ، وأنه أصبح طبيعيا ومارس مهنة الطب بنجاح لسنين عديدة كما هو معروف • ويعتبر ذلك من الظواهر المميزة للعصر ، اذ كثيرا ما نعثر على أسماء بعض الاقتصاديين الأوائل ضمن قوائم أسماء أطباء العصر ، ومن أشهرهم بعد بيتى العلامة فرانسوا كويزنى François Quesny (١٦٩٤ ــ ١٧٧٤) الذى يعتبر مؤسسا للمدرسة الفيزيوقراطية فى الاقتصاد وأحد الذين أكملوا أعمال بويسجلبرت •

ينتمى وليام بيتى لأسرة من الحرفيين وبذلك فقد صنع نفسه بنفسه ، وأحرز النجاح بفضل قدراته وطاقاته الذاتية ، فاستطاع أن يحصل على ملكية مساحة كبيرة من الأرض استحق بمقتضاها لقب النبالة ، وشارك بدور معين مع حكومة ايرلندا التى قضى فيها نصف حياته • ثم قضى النصف الآخر من حياته فى بلاط تشارلز الثانى ثم جيمس الثانى فى لندن • وهو الى جانب ذلك من مؤسسى الجمعية الملكية ، وبذلك شارك فى التطويرات الهامة التى حدثت فى العلوم الطبيعية فى تلك الفترة • ولقد بدا جهدا طموحا فى سبيل احراز مكانة سياسـية يكون له من خلالهـا قدرة التأثير ليطبق آراءه الاقتصادية تطبيقا عمليا ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وشوهد بيتى فى أواخر حياته رجلا بادى الحزن مفعما بالمرارة لأنه حاول فرض مقترحاته ولكن الأقوياء استطاعوا استبعاده واحباط جهوده بقسوة شديدة •

ورغم ذلك فان كتاباته التى نشرت فى حياته أو بعد مماته ومسودات أعماله ومذكراته ومراسلاته بل انطباعات معاصريه التى نقلوها الينا كلها تثبت لنا أنه مفكر جرىء غير عادى ، له ابتكاراته التى لا تنتهى وتصوراته واحساساته المليئة بالطرافة • ولكن كثرة الأرقام والحسابات فى كتاباته جعلتها حقا صعبة على القارىء العادى • فمن بين كتاباته بحث فى الضرائب نشر عام ١٦٦٢ يعتبر أول مؤلفاته الكبرى . وفى هذا الكتاب نجد عبارة معينة يبدو أنها أفلتت منه هى قوله : « ان أول شىء نحتاج اليه هو أن نحسب ... » (٤) • ولقد أصبحت هذه العبارة فيما بعد شعارا ومبدأ شخصيا له • وفى كتابه الذى ألفه فى العقد الثامن من القرن السابع عشر بعنوان الحساب السياسى ، ونشر لأول مرة فى العقد العاشر من ذلك

---

(٤) وليام بيتى : الأعمال الاقتصادية والاحصائية الكامله ــ موسكو سنة ١٩٤٠ ص ٧٤ •

W. Petty, Ekonomitschskie i Statisticheskie Roboty.

القرن ذكر بالفعل مبرراته عن دور الاحصائيات والمناهج الكمية وأهميتها في دراسة الظاهرة الاجتماعية ودافع دفاعا شديدا عن أهمية ذلك الدور . ويعتبر كتاب الحساب السياسي هذا صورة تقليدية لاستخدام الاحصائيات والبيانات السكانية أو الديموجرافية .

وتميز بيتي بمواهب غير عادية في الرياضيات . ورغم أنه حدد نفسه في كتاباته في اطار العمليات الحسابية الأربعة الا أن حساباته تميزت بالأصالة ، بل كانت توحي بوجود تناقض ظاهري . وكان كذلك رائدا في مجال المقارنات الاقتصادية الدولية التي تعتبر من الأمور ذات الأهمية في يومنا هذا ، ومنها أنه كشف عن حقيقة هامة هي أن سكان فرنسا يبلغون ثلاثة عشر مثلا لسكان هولندا وأن فرنسا بها من الأراضي الزراعية ما يزيد على ثمانية أمثال أراضي هولندا الزراعية ، ولكن فرنسا تعتبر أغنى وأقوى اقتصاديا بنسبة ثلاثة أمثال هولندا فقط (٥) .

ومن بين المقترحات التي قدمها بيتي للحكومة الانجليزية نجد أن بعض آرائه تمتاز بالأصالة والتقدمية بالنسبة لعصره ، مثال ذلك اقتراحه بانشاء مكتب مركزي للاحصائيات (ورشح نفسه لادارته) ، واقتراحه بعمل خطة لتدريب العمال على مهن معينة بحيث توضع الخطة على أساس المتطلبات الاقتصادية ، واقترح كذلك تقسيم الأراضي الى وحدات بلدية أو بلديات ، وكان ذلك بعد الحريق الكبير الذي وقع في لندن عام ١٦٦٦ ، وذلك لضمان اعادة بناء المدينة على أساس من التخطيط وغيره من الاعتبارات . وبالاضافة الى ذلك كانت له آراء ساذجة ومبالغ فيها ولكنها مع ذلك تنم عن شخصيته الفذة ، مثل اقتراحه باقامة نظام تعدد الأزواج للمرأة خلال سنى خصوبتها بقصد تحقيق أقصى زيادة سكانية ممكنة في ايرلندا .

ومن بين معادلاته وحساباته أنه يعبر في تناوله لكل أنواع الآراء المتميزة عن استطاعته أن يجمعها معا في نسق نظري واحد بأقل جهد ممكن . ولقد صاغ بصفة خاصة صورة شديدة الوضوح لعصره هي نظرية المنفعة المحسوبة في ضوء مقدار العمل اللازم لتحقيقها أو انتاجها ، وعلى أساس هذه النظرية طرح سؤالا عن العوامل الدقيقة التي تحدد ثمن السلعة . وظن كارل ماركس الذي كان على دراية بمؤلفات بيتي ويقدرها تقديرا كبيرا أن بيتي قد شرح بذلك مبادىء نظرية النقود بطريقة تفوق بها كثيرا على آراء معاصريه الذين يبارونه في علمهم . كما أن بيتي عرض

---

(٥) المرجع السابق ص ١٦١ .

قبل ظهور آدم سميث بقرن من الزمان على الأقل الأهمية الكبرى لتقسيم العمل فى التطور الاقتصادى .

وخلال القرن السابع عشر كانت نظرية المركنتالية Merchantilism أو النظرية التجارية هى النظرية السائدة فى مجال الفكر الاقتصادى ، وهى نظرية تنبنى على المبادىء الأساسية التى بمقتضاها تمارس الدولة دورا فعالا فى السياسة الاقتصادية وتحقيق التوازن التجارى . ولقد قبل بيتى الى حد كبير مبادىء هذه النظرية ولكنه لم يستطع أن يسايرها تماما ، اذ أنه من حيث النظرية الاقتصادية والسياسة الاقتصادية يعتبر من أوائل ممثلى الاتجاه الجديد ونقصد به علم الاقتصاد السياسى الكلاسيكى . ورغم أن آدم سميث كان بالمقارنة مع بيتى يعد من المحافظين فان هذا الاقتصادى الاسكتلندى العظيم يعتبر بحق وارثا أصيلا لآراء بيتى (٦) .

وفى تناولنا فيما يلى لتطور الفكر الاقتصادى فى روسيا من المفيد أن نستطلع المظاهر المبكرة لآراء بيتى وانطباقها على هذه الدولة . ظهر تعبير « الحساب السياسى » كما عرف اسم بيتى لأول مرة فى روسيا خلال العقدين السابع والثامن من القرن الثامن عشر من خلال ترجمة مؤلفات الاحصائى السياسى الألمانى الذى يسمى أحيانا باسم كامير اليستين Kameralisten

وأدى ربط الآراء مع مؤلفات بيتى فى الديموجرافيا أو الدراسات السكانية الى التفكير فى لومونوسوف Lamonousov الذى يعتبر أول مؤلف علمى فى هذا المجال وله كتاب بعنوان : « وفى سبيل الحفاظ على سكان روسيا وزيادتهم » (١٧٦١) وهو أول الكتب فى هذا الموضوع أيضا . ولم يكن لومونوسوف يعرف شيئا عن مؤلفات بيتى ، ولكن من المؤكد أنه درس مؤلفات العلماء الألمان التى ظهرت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ممن يعرفون مؤلفات بيتى . ولكن على أى الأحوال هناك عدد من أوجه التشابه بين لومونوسوف وبيتى حول المشاكل السكانية ، أولها وجود نظرة أو اتجاه تفاؤلى باعتبار أن السكان يمثلون

---

(٦) لسنا بحاجة ملحة هنا لذكر كل المؤلفات التى تناولت وليام بيتى ، ولكننا نحيل القارىء هنا الى كتاب ألفه كاتب هذه السطور ونشر بالروسية والانجليزية والفرنسية كذلك تحت عنوان : شباب علم « المفكرين الاقتصاديين قبل ماركس » موسكو سنه ١٩٧٥ .

A. Anikine, The Youth of a Science. «Econo.‐ic Thinkers b.fore Marx», Moscow, 1975.

الثروة الرئيسية للأمة ، وثانيها أن مبادىء العلوم الطبيعية كانت الأساس الذى استخدمه كل منهما فى دراسة العمليات والتطورات السكانية . وهناك ثالثا الأسلوب الواضح والبليغ الذى أتبعه كل منهما . ومما يثير الدهشة حقا ان مخطط لومونوسوف فى البحوث الاقتصادية والاجتماعية التى وصلت الى أيدينا ضمن مؤلفاته عن السكان ما هى الا آثار من مشروعات بيتى .

هذا ، ولم يبدأ اهتمام الكتاب الروس بآراء بيتى السياسية الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبخاصة فيما يتصل بعلاقة تلك الآراء بنظريات آدم سميث ، وريكادو ، وماركس . يظهر هذا الاهتمام واضحا لأول مرة فى مؤلفات الاقتصادى الروسى زيبر N. I. Ziber الذى نشر كتابه عن الاقتصاد السياسى فى كييف عام ١٨٧١ . ويبدو أن زيبر كان أيضا أول من تحدث عن بيير بويسجلبرت . وذكر زيبر هذين الاقتصاديين (بيتى وبويسجلبرت) فى معرض تناوله للأشكال الأولى لنظرية القيمة .

٣

يمثل بويسجلبرت بصفاته نوعيـــة الموظف المدنى القضائى التى تنطبق على أوائل الاقتصاديين الفرنسيين ، وهى النوعية التى ينتمى اليها اقتصاديو القـرن الثامن عشر مثـل فينسـانت دى جورتاى Vincent de Gournay وجاك تورجو Jaque Turgot وغيرهمـا . ولد بيير لى باسانت دى بويسجلبرت Pierre de Pesant de Boisguillebert عام ١٦٤٦ فى روين لأسرة نورماندية من طبقة النبلاء ، وشغل مناصب قضائية وادارية عالية فى روين سنين عديدة اكتسب لنفسه خلالها سمعة ومكانة طيبة . وربما تراءى للنـاظر من الخارج انـه كان باسـتطاعة بويسجلبرت أن يكون أكثر نجاحا فى حياته لو أنه لم يستخدم الاصرار والعناد فى محاولة تطبيق مقترحاته الاقتصادية فان ذلك قد جعل الآخرين يعتبرونها ضربا من الجنون . وفى مواصلته لهذه الطريقة انتهى به الأمر الى معاداة وزراء لويس الرابع عشر الذى كان يحكم البلاد فى أواخر القرن السابع عشر . غير أن الكثير من معاصريه وبخاصة دون سانت سيمون ومارشال فوبان قـد تركا لنا أوصـافا تدل على أنهم كانوا يحترمونه ويعطفون عليه . كان بويسجلبرت فى واقع الأمر عنيدا وغير اجتماعى ، ولكن هذه الصفات الشخصية لم تغط على ايمانه بالأخلاقيات الرفيعة ، فقد تجاوز عن مصالحه الشخصية ، ولم يكن يخشى الدخول فى صراعات

مع الأقوياء فى سبيل الدفاع عن آرائه التى كان يرى أن الغرض منها هو انقاذ فرنسا من الضياع الاقتصادى والأزمة وتحسين حياة الناس وأحوال المزارعين • ويبدو أن الفضل يرجع اليه فى ذلك القول المشهور الذى أصبح له دور اجتماعى وسياسى كبير فى حياة فرنسا : « فلاحون فقراء يعنى دولة فقيرة ، وفلاحون أغنياء يعنى دولة غنية » • ومما يثير الدهشة هنا أنه فى الوقت نفسه تقريبا عبر ايفان بوسوتشكوف عن هذه الفكرة بمثل هذه العبارات تقريبا رغم اختلاف الظروف التى كان يعيش فيها كل منهما •

كانت مشاعر بويسجلبرت تجاه الشعب غامضة ، اذ لاحظ أحد الروس العظام الذين درسوا تلك الفترة وكتبوا عنها : « أنه لم يكن يحب الشعب حبا حقيقيا لأنه لم يكن رجلا شعبيا أو عاطفيا ، ولذا فان قدرات الجماهير كما رآها آثارت فى نفسه ازدراء شديدا لهم •• بيد أن نظرته الأرستقراطية المتعالية وازدراءه للفقراء والجماهير غير المتعلمة سارت جنبا الى جنب مع فهمه لأهمية دور الجماهير فى الحياة الاقتصادية » (٧) •

ولقد عرض بويسجلبرت آراءه فى المؤلفات العديدة التى نشرها فيما بين عام ١٦٩٥ وعام ١٧٠٧ ، وكذلك فى رسائله التى لم تنشر حتى القرن التاسع عشر • وفى عام ١٧٠٧ أبعد لمدة من الزمن عن وظيفته ونقل الى وظيفة بمحافظة بعيدة لأنه نشر نقدا لاذعا وادانة جريئة للحكومة • ولكن سرعان ما تراجع عن ذلك واستطاع أن يعود الى روين ويحتفظ بآرائه لنفسه • وفى هـذا الصـدد ذكر عنه المؤلف الأمريكى روبرتس H.V.D. Roberts ملاحظات فى كتابه الذى كتبه عنه فقال انه مثل كوبرنيق وجاليليو كان يعتبر نفسه داعية لفكر جديد ، غير أن هذا لم يكن السبب فى أنه لم يطمع أن يجلل نفسه بتاج الشهداء • ولم يتمكن مع ذلك من أن يقتنع بأن من يعتلى السلطة قد يأتى عليه اليوم الذى يقبل فيه الصيغ التى كان يدعو اليها ببساطة (٨) •

ويلاحظ فى مقترحات بويسجلبرت أن العناصر المالية والاقتصادية والاجتماعية مترابطة ترابطا وثيقا ، فمثلا اقترح أن تجرى اصلاحات جذرية

---

(٧) سافين : عصر لويس الرابع عشر A. N. Savine, Vjek Ljoudovika. موسكو ١٩٣٠ ص ٢٢٥ •

(٨) روبرتس : بويسجلبرت ، اقتصادى عصر لويس الرابع عشر . نيويورك ١٩٣٥ ص ٨٧ •

H.V.D. Roberts; Boisgillbert, Economist of the Reign of Lowis XII.

فى الضرائب وأن تقام نظم تقدمية تفرض الضرائب وتجبيها ، وتتضمن هذه الاقتراحات ضرورة ازدياد نسبة الضرائب كلما زادت الدخول ، فكان اقتراحا جريئا بالنسبة لنظام الضرائب الفرنسى المعمول به فى ذلك الوقت الذى كان على عكس ذلك تماما رجعيا فى طبيعته ، اذ كان يعفى بعض الطبقات مثل النبلاء ورجال الدين من دفع الضرائب المباشرة ٠ وطالب بويسجلبرت أيضا بالقضاء على الكثير من العقبات التى تقف فى وجه التجارة الداخلية والتى كانت تميز النظام الاقطاعى فى فرنسا ، ومن خلال تلك الاجراءات المقترحة كان يتوقع أن يحقق توسعا فى السوق الداخلية وأن يطور تقسيم العمل ، ويزيد فى تداول السلع والنقود ، وهدفه من وراء كل ذلك هو تحقيق الحرية الكاملة فى تجارة الحبوب بما يشجع على مواصلة هذا الانتاج ٠ ولكى يتقدم ويتحسن الاقتصاد بصورة أفضل رأى أن ظروف المنافسة الحرة تساعد التجارة على تحقيق المنفعة الفعلية فى موقع السوق ٠

ويعتبر ارتباط فكرة الوضع الأمثل للأسعار بفكرة النسبية الاقتصادية من المبادىء التى أضافها بويسجلبرت لنظرية القيمة وللاقتصاد السياسى بصفة عامة ٠ ويعتبر هذا من المباحث المميزة له كما تميز بيتى عن تيار أصحاب النظرية التجارية التى كانت طابع الفكر الاقتصادى فى تلك الفترة ٠ فلقد فصل بويسجلبرت نفسه عن التجاريين باصراره على فكرة الحرية الاقتصادية ، وتمسكه بتنفيذ اجراءات الاصلاح الاقتصادى بصورة موضوعية ٠ وتنقسم الأفكار الاقتصادية على أساس عبارة « دعه يعمل — دعه يسير » التى تعبر عن جوهر السياسة الاقتصادية التى ارتبطت بالعلم الجديد ٠ وتنسب هذه العبارة اما لأحد كبار التجار فى عهد لويس الرابع عشر وهو فرانسوا ليجيت François Lagendre أو للوكيل التجارى فينسنت جوربيت Vincant gouriet (صديق تورجوت) ٠ ولو أن بويسجلبرت لم يكن هو مبتكر هذه العبارة الا أنها جاءت آنذاك مسايرة لطريقة تفكيره ، حيث انه استخدم عبارات مشابهة لها تماما ٠

ومات بويسجلبرت عام ١٧١٤ تقريبا مع بداية تجربة جون لو John Law الذى كان على مثاله من رجال المقترحات العبقرية ولكن توافرت له الى جانب ذلك فرصة نادرة ليطبق بعضا من آرائه الجريئة ٠ وفى ذلك الوقت (بداية النصف الثانى من العقد الثالث من القرن الثامن عشر) ، كان بوسوتشكوف يؤلف فى أجزاء كتابه الذى أعده ليقدمه للقيصر المصلح ٠

٤

استخدم المؤرخ الروسى الكلاسيكى كليوشيفنسكى كتاب بوسوتشكوف مرجعا له فى تحليله للأحداث الرئيسية التى وقعت فى عهد بطرس الأكبر . وقد قال معلقا على أحد مقترحات بوسوتشكوف : « لو أن القيصر الأكبر قرأ هذه السطور الموجهة له شخصيا لرضى عنها كل الرضى » (٩) . وأما المؤرخون الآخرون الذين درسوا مؤلفات بوسوتشكوف وعلى رأسهم المؤرخ كافنجاوس V. V. Kafengaus فقد أوضحوا أن القيصر لم يطلع على مخطوطات بوسوتشكوف وبالتالى لم يكن لعبقرية هذا المؤلف أى تأثير فى عهده . وكان بليخانوف G. V. Plekhanov محقا تماما فيما قاله عن بوسوتشكوف كرجل اقتصاد فان كل معاصرية ، وان كانت آراء هؤلاء المعاصرين تحولت الى حقائق فى حين بقيت آرؤه العبقرية مسطرة فى الورق فقط . ويعتقد بليخاتوف أن وضع بوسوتشكوف كمزارع سمح له بأن يرى مؤلفات الآخرين الذين كانوا جميعا من الطبقة الارستقراطية ولم ير هؤلاء المؤلفون أو بالأحرى لم يرغبوا فى رؤية ما كتبه بوسوتشكوف (١٠) .

بدأ تطور ذلك النوع من الكتابات ـ كما يذكر المؤلف ـ أناس متعلمون أوصوا فى كتاباتهم بتطبيق اجراءات معينة فى المجالات السياسية والاقتصادية فى عهد بطرس الأول ، وكان من الطبيعى أن تؤدى المطالب المباشرة والحاجات الملحة التى تواجه الدولة الى فرض سياسات خاصة وتطبيقها ، غير أننا لانعرف بالتحديد الحالات التى تخذت فيها قرارات بناء على مشروعات من ذلك النوع الذى قدمه هؤلاء المؤلفون .

وتتلخص الخطوط العامة لسياسة القيصر الاقتصادية فى زيادة الوظائف الاقتصادية التى تتولاها الدولة ، وتحقيق المركزية ، وتنظيم الحياة الاقتصادية ، مع تكثيف الجهود فى التطوير الصناعى والمواصلات والنقل البحرى والتجارة الداخلية ، وتأكيد حقوق الملاك على أراضيهم مع تطوير الزراعة فى اطار نظام رقيق الأرض ، وتطبيق الحماية بالنسبة

---

(٩) كليوشينسكى : مسيرة التاريخ الروسى ، الجزء الرابع ـ موسكو ١٩٣٧ ـ ص ١١٧ .

V. O. Kliuchevskij; Kours Rosskoj Istorii.

(١٠) بيخانوف : تاريخ الفكر الاجتماعى الروسى ، الجزء ٢١ من مجموعة الأعمال ، موسكو / لينتجراد ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

G. B. Plekhanov, Istorija Roasokoj Obchtchestvennoj Mysli.

للتجارة الخارجية ، وتكوين أسطول تجارى وطنى ، والاتجاه الى تحقيق التوازن فى التبادل عن طريق التوازن التجارى وادخال المعادن الثمينة الى البلاد ٠

كان بطرس الأول يهدف من وراء ذلك الى تحقيق التقارب بين روسيا وغرب أوربا ، فكان من الطبيعى أن يطبق سياسة اقتصادية من النوع الأوربى وبخاصة تلك التى تصل بتطبيق مذهب التجارية الى شكله الناضج نضجا كاملا ٠ بيد أن المبادىء العامة لمذهب التجارية يقتضى أن يكون لكل دولة خط تطورى معين ، وتختلف روسيا فى ذلك عن غيرها من دول أوربا بأكثر مما تختلف دول أوربا المتجاورة بعضها عن البعض ، فالتطور الرأسمالى الذى كان هدفا أساسيا من أهداف بطرس الأول ونتيجة حتمية للاصطلاحات التى أدخلها اتخذ فى روسيا شكلا غير عادى وصل الى الحد الذى احتفظ معه بالعلاقات الاقطاعية ، وعبودية الأرض ٠ وفضلا عن ذلك فان سرعة ايقاع الاصلاح ومدى عمق المهام المفروضة تطلب قيام اجراءات شديدة وقاسية ٠ ففى تطبيق مذهب التجارية فى روسيا كانت المشكلات الزراعية تحتل مركزا أعظم بكثير من المركز الذى احتلته تلك المشكلات فى جهات أخرى ٠ كذلك لم يتواجد فى روسيا نظام المشاركة أو نظام الشركات فى كل المجالات والأغراض التطبيقية بل لم يتطور ذلك النظام رغم محاولات القيصر ادخال بعض القواعد الأوربية المطبقة فى هذا المجال ٠

وتعتبر المراسيم والأوامر القيصرية التى أصدرها بطرس الأول ووثائقه ومراسلاته فى حد ذاتها آثارا ذات أهمية كبيرة فى مجال التفكير الاقتصادى الاجتماعى الذى ساد فى ذلك العصر ٠ كما أن الأيديولوجية البطرسية ، واستخدام السلطة السياسية لفرض التطور الاقتصادى ، واعادة تنظيم ميزانية الدولة وزيادة الدخل ، وتمويل النفقات العسكرية ، كانت كلها من المسائل ذات الأهمية العظمى ٠ ولكى يبرر القيصر الاصلاحات والتغييرات التى يريدها كان يتحدث دائما عن التزامات الدولة وواجبها أن تهتم بالصالح العام والمصالح القومية ، وفى هذا الصدد نورد النص التالى من أقوال العنصر كمثال :

«والآن نعلن ، من أجل رخاء رعايانا ، أننا نولى أكبر اهتمام لتطوير أحوال وطبقة المهن والحرف ، ومن خلال ذلك سوف تتحسن كل أحوالنا

ونتطور لنصبح أغنياء » (١١) ·

هذا ، ويبدو أن هناك ثلاثة عناصر كانت تهيمن على كل أنشطة وأفكار بطرس الأكبر (الأول) وأفكار من ينفذون ارادته هى :

١ ــ التركيز على دور الدولة ونشاطها ·

٢ ــ تبرير كل ما تقوم به الدولة بأنه للصالح العام ·

٣ ــ الاشارة الى الأوضاع فى أوربا الغربية وضرورة التوصل الى مثلها ·

هكذا كانت نتائج الاصلاحات القيصرية ضخمة وطويلة الأمد ، ولكن تحويل روسيا الى النمط الأوربى ظل فى كثير من جوانبه سطحيا أو من جانب واحد ، اذ كان من السهل تبنى بدعة لبس الشعر المستعار ولكن دون أن تفكر الرؤوس التى تلبسها بطريقة جديدة ، ذلك أن الحياة القومية والفكر الوطنى فى روسيا قد حافظت على الشكل الذى اكتسب على مدى القرون · ومن خلال التعارض بين اتجاهين المحافظة على القديم وادخال أو تبنى التغير تولد الكتاب الأصيل الذى ألفه بوسوتشكوف ·

٥

كان هناك خلاف وبحث دائر حول تاريخ ميلاد ايفان تيخونوفتش بوسوتشكوف Ivan Tikhonovitch Possochkov ولكن انتهى الأمر الى أن بوسوتشكوف ولد عام ١٦٥٢ فى قرية امبراطورية (من أملاك أسرة روماتوف) تسمى بوكروفسكوى ــ روبتسوف Pokrovskoji Roabtsov فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم موسكو · ولا يعرف شىء عن طفولته أو تعليمه ، ولكن من المؤكد أنه نما وشب وعاش وسط الشعب الروسى وبخاصة مزارعى منطقة موسكو وغيرهم من الطبقات العاملة والتجار وصغار الموظفين وصغار رجال الدين المجاورين لطبقة الزراع ·

---

(١١) نقلا عن : تاريخ الفكر الاقتصادى الروسى . الجزء الأول ــ القسم الأول . موسكو ١٩٥٥ ص ٢٦٦ ·

Istorijo Rousskoj Ekonomitschekoj Mysli.

وتميز بوسوتشكوف بأنه متعدد القدرات ، فقد كان حرفيا ومبتكرا موهوبا (قام بتطوير بعض الأسلحة النارية ، وصنع مطبعة لصك العملات المعدنية) (١٢) ، كما كان مستثمرا ورجل أعمال نشيطا ، فضلا عن علمه باللاهوت · وكان يتميز بأنه رجل دعاية بارع عرف كيف يعرض بوضوح المصالح الاقتصادية والسياسية للتجار والصناع ، وقد ظهرت هذه القدرة حينما بلغ الخمسين من عمره فى الوقت الذى كانت فيه خبراته عن الحياة المحيطة به قد اتسعت كثيرا ·

وهناك مصدران رئيسيان لسيرة هذا الكاتب هما مؤلفاته الخاصة وملفات الشرطة السرية التى طالما كانت له معاملات معها بسبب حب استطلاعه وجرأته فى الكتابة ·

أعتاد خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر أن يقيم فترات متفرقة فى دير سانت أندرو (الذى يقع الآن داخل زمام مدينة موسكو على الربوة العالية التى تطل على نهر موسكوفا) فينزل ضيفا على ابراهام كبير رهبان الدير · وكانت صلته مع كبير الرهبان قد بدأت حينما طلب الراهب المقرب لبطرس الأكبر فى شبابه من بوسوتشكوف عمل نموذج طباعى لصك نقود بقصد اهدائه للقيصر ، وكانت قد تكونت حول هذا الراهب ابراهام مجموعة من المتعلمين ، والكتبة من كل وزارات موسكو (وهم الفئة المتوسطة من الموظفين) ، وبعض البرجوازيين · وكانت هذه المجموعة تجتمع لتناقش الأحداث السياسية فى وقت كان فيه هو ورفاقه لا يقرون الكثير من تصرفات بطرس ، وأخذوا يعارضون بعض التجديدات ، وانتقدوا أيضا النفقات الباهظة على الوظائف المدنية وافتقاد العدالة فى المحاكم · وفى أواخر عام ١٦٩٦ قدم ابراهام دراسة جزئية أدان فيها تلك المثالب وغيرها ، وانتقد سلوك القيصر نفسه ، فلم يمض وقت طويل حتى قبض عليه وبدأ التحقيق معه لاكتشاف شركائه ورفاقه · وفى ذلك الوقت ظهر لأول مرة اسم ايفان بوسوتشكوف وأخيه رومانى ضمن عدد آخر من الأسماء التى كشف عنها التحقيق ·

قدم ايفان بوسوتشكوف للمحاكمة ولكنه استطاع أن يدافع عن نفسه ويقنع المحكمة ببراءته · ويرى كتاب سيرة بوسوتشكوف أنه استطاع أن يفلت من هذه الأزمة لأن القيصر شخصيا كان يعرف عنه أنه شيخ الحرفيين وأنه مخترع موهوب ·

---

(١٢) كان وليام بيتى أيضا من المبتكرين وبخاصة فى قطاع بناء السفن ·

أما بالنسبة لرفقة أبراهام وبوسوتشكوف فانهـــا كانت بمثابة المدرسة السياسية والأدبيـــة ، فسرعان ما ظهر أول مؤلفاته ودراساته الموجهة الى الحكومة ورسائله الى ممثلى السلطة متضمنة مقترحاته ومبررات التحسينات التى يجب أن تدخلها حكومة البلاد فى الشئون العسكرية والماليـــة .

هذا ، ولم يصل الى أيدينا تقرير الاصلاحات الماليـــة الذى قدمه فيما بين عامى ١٦٩٩ و ١٧٠٠ ، وكان تقـريره عن سـلوك الجيوش (سنة ١٧٠٠) هو أول أعماله التى وصلت الينا ، وذكر أحد كتـاب السير عن هذا الكتاب « أن مؤلفى الكتب العسكرية قد دهشوا من آراء بوسوتشكوف عن الفنون الحربية ، اذ كانت آراء سابقة لزمانها » (١٣) . فعلى سبيل المثال انتقد استخدام المدفعية ضـد التشكيلات المتقاربة ، وأوصى بتدريب الجنود على الأعمال الفردية فى تشكيلات متفرقة .

وفى وثيقة ترجع الى عام ١٧٤٠ نجده مسجلا كرئيس للأختام فى دار الأسلحة (والمخازن) ، وفى ذلك الوقت كان يعمل كمستثمر ، وحاول الحصول على امتياز منجم للكبريت (فى الوقت الذى بدأت فيه الحرب ضـد السويد وكانت هنـاك حاجة ملحة الى امـدادات الكبريت لعمل البارود) . كذلك حاول الحصول على ترخيص بعمل أوراق اللعب وحق بيعها ولكنه فشل فى ذلك . أما فى عمله كموظف مدنى فقد نقل من دار الأسلحة الى انتاج الكحوليات (التى كانت من احتكارات الدولة) حيث عين رئيسا لمصانع الكحوليات فى مدينة نوفجورود .

والى جانب وظيفته المدنية أيضا قام بأعمال أخرى لنفسه فى التجارة والصناعة ، واشترى بعض الأراضى بما عليها من مزارعين ، وأصبح بذلك مالكا وواحدا من المالكين لعبيد الأرض . وامتلك كذلك عددا من المنازل فى نوفجورود وبطرسبرج ، ومع ذلك قدرت ثروته قرب نهـاية حياته ببضع آلاف من الروبلات ، ومات وكانت عليـه ديون وضرائب مستحقة السـداد .

كان كل همه أن يكتب ، فأتم فى عـام ١٧٠٩ كتـــابه الكبير .

---

(١٣) باقلوسيلفتشكى فى كتابه عن بوسوتشـــكوف فى قاموس السـير الروسـية الجزء ١٤ ، سانت بطرسبرج ، ١٩٠٥ ، ص ٦١٨ .

P. Pavbo Silvitskij; «Passochkov», Roussikij Biografitchekij Slovar.

« المرآة الواضحة » الذى خصصه للدفاع عن المذهب الأورثوذوكسى الذى تعتنقه الدولة وتوجهه ضد الكفار أو معتنقى العقائد القديمة ٠ وهاجم فيه أيضا الحركة اللوثرية ٠ ويعتبر بوسوتشكوف بحق رجل القرن الذى عاش فيه ، اذ كانت فكرة التسامح الدينى فى نظره فكرة غريبة ، والهرطقة أو الفسق أو البدع كلها أمور تستحق فى نظره أقصى العقوبات دون هوادة ٠ ولقد اختفى هذا الكتاب الذى أثبت فيه بوسوتشكوف كل معارفه العميقة باللاهوت والتاريخ الدينى وظل مختفيا زمنا فى الأوساط الاكليريكية ثم نسى تماما ، ولم ينشر حتى عام ١٨٦٣ ٠

وفى عام ١٧١٩ كتب بوسوتشكوف كتابا كبيرا آخر بعنوان : « وصايا الأب لأبنه » نشر عام ١٨٧٣ ، فيه عرض للمبادىء الأخلاقية والقواعد السلوكية النابعة من المسيحية والتقاليد الأورثوذوكسية مع تبريرات لتلك المبادىء والقواعد ، ولكن تنعكس فيه صورة العصر بدقة ووضوح فيزدونا بمادة قيمة عن صفات مجتمع القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٤) ٠

وبعد الانتهاء من كتاب الوصايا عاود الرجل العجوز (الذى بلغ آنذاك السبعين) الى الكتابة ، فسطر مؤلفه العظيم : كتاب الفقر والثروة ، وهو كتاب موسوعى يتناول السياسة والاقتصاد والقانون والعسكرية والمشاكل المختلفة والأخلاقيات والديانة كلها فى ايجاز يجمع خبرات حياة كاملة ٠ وأتم هذا الكتاب فى فبراير عام ١٧٢٤ وأوكل الى بعض رجال البلاط توصيله الى القيصر ، ولكن القيصر مات فى يناير ١٧٢٥ ٠

وحدث فى خلال صيف عام ١٧٢٥ أن سافر بوسوتشكوف من نوفجورود الى بطرسبرج ليحصل على ترخيص بفتح مصنع منسوجات ، ولكن قبض عليه هناك وسجن فى قلعة بطرس وبول حيث قضى نحبه فى فبراير ١٧٢٦ ٠ ولا تساعد الوثائق التى وصلت الى أيدينا على أن تحدد السبب الحقيقى فى القبض عليه والتحقيق معه والاعتراف الذى أودعه السجن ، فكل ما يمكن أن نقرأه عن ذلك نجده فى احدى الوثائق السرية التى تنص على : «أن رجلا من طبقة التجار يسمى ايفان بوسوتشكوف حجز فى السجن بسبب قضية سرية هامة من قضايا الدولة » (١٥) ٠

---

(١٤) المرجع السابق ص ٦١٠ ٠

(١٥) كافانجاوس : برسوتشكوف : « حياته وأعماله » ـ موسكو ـ لينتجراد ـ مطبوعات الأكاديمية الروسية للعلوم سنة ١٩٥٠ ، ص ١٣٧ ٠
B. B. Kafangaus, I. T. Poussochkov, Ghizn i dejatal'nost.

ولقد توصل كافنجاوس بعد تحليله لكل المعلومات والبيانات التاريخية المتوافرة لعامى١٧٢٥ و ١٧٢٦ الى نتيجة هامة هى : «أن أمر بوسوتشكوف اختلط عليهم فى قضية فبودتشى ابانوفسكى أسقف نوفجورود الذى اتهم بالتعدى على الأمبراطورة كاترين الأولى (أرملة بطرس الأكبر) وفى جرائم أخرى متعددة . والمعروف أن أحد القضاة سأل أحد المتهمين فى معرض القضية عن حيازته لنسخة من مخطوطة كتاب بوسوتشكوف المأخوذة من مكتبة الأسقف . والحقيقة التى رئيت فى الموضوع من زاوية معينة هى أن هذا الكتاب الجرىء هو الذى أثار شكوك السلطة التى كانت على علم بعلاقة بوسوتشكوف بالأسقف • وهاجمه معظم الذين درسوا حياته وأعماله وبسبب هذا الكتاب حتى قبل أن يصل كافانجاس الى هذه النتيجة •

٦

أدى ظهور الطبعة الأولى من كتاب بوسوتشكوف (عام ١٨٢٤) الى لفت الأنظار الى التشابه فى عنوانه مع كتاب آدم سميث : « بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم » . فيرى البعض أن الأمر لم يكن مصادفة ، فكلاهما يثير بأسلوب واضح المشكلة الرئيسية فى علم الاقتصاد السياسى التى تتمثل فى التساؤل عن الميكانيكية الاجتماعية لزيادة الثروة وتطور القوى المنتجة • ولكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن من السذاجة بمكان ، لهذا السبب بعينه ، أن يعتبر بوسوتشكوف سابقا لآدم سميث ، أو حتى موحيا له بالفكرة ، اذ يجب أن لا ننسى أن آدم سميث هو منشىء الاقتصاد البرجوازى ، فى حين لم تكن الأحوال السائدة فى روسيا تسمح بتكوين مثل هذا النوع من الاقتصاد •

ويتكون كتاب بوسوتشكوف من تسعة فصول فى نحو مئتين وخمسين صفحة فى طبعته الجديدة ، وتوجد المشاكل الاقتصادية متناثرة فيه ، فقد يعثر عليها فى أماكن من الكتاب لانتوقع وجودها فيها • بيد أن هناك بعض الفصول التى تختص بتناول هذه المشاكل تناولا مباشرا مثل الفصل الرابع عن طبقة التجار ، والفصل السابع عن المزارعين ، والفصل الثامن عن مشاكل الأرض . والفصل التاسع عن مصالح القيصر حيث يتناول اقتصاد ومالية الدولة • نشر هذا الكتاب فى روسيا أربع مرات آخرها طبعة عام ١٩٥١ مع تقديم وتعليقات كافانجاوس وهى الطبعة التى نرجع اليها هنا • وكما هو الوضع بالنسبة لمؤلفات كل من بيتى وبويسجلبرت فان كتاب بوسوتشكوف قد

استلفت الأنظار واجتذب اهتمام القراء ، وذلك على الرغم من أن عدم التخصص دفع الناشر الى وضع الكثير من التعليقات وشرح للمصطلحات من وقت لآخر خلال الكتاب ٠

أراد بوسوتشكوف أن يقدم كتابه الى بطرس الأول مع رسالة شخصية يلخص فيها أن الغرض الرئيسى منه هو شرح أصـــول الفقر وأسبابه وكيف أن الثروة يمكن أن تنمو وتزداد لتحقق الرخاء للدولة ٠ ونظرا لمعرفة بوسوتشكوف بمواضع اهتمامات القوى الحاكمة فقد وعد كما وعد غيره من مخططى الغرب بأن تطبيق برامجــه ســوف تكون له نتــــائج مباشرة على زيادة ايرادات الدولة ٠ وأنهى مقدمة الكتاب بتنبؤ حذر فيه من تآمر أعدائه من الغيورين والحاقدين اذا وقع كتـــابه المليء بالأمانة والاخلاص فى أيديهم ، والتمس حماية القيصر له منهم ٠

أى نوع من الاصلاحات يمكن أن يقترح على صاحب السلطة الذى طبع هو الآخر على فكرة الاصلاح ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه ٠ فاولا كانت أفكار بوسوتشكوف تساير اتجاهات الجهود التى يبذلهـا بطرس الأكبر ، ولكنها كانت تستهدف المصالح المباشرة للتجار والصناع، ولهذا السبب كانت آراؤه تقدمية وأكثر ديمقراطية من مفاهيم القيصر وقراراته ٠

كانت بعض الاجراءات التى اقترحها بوسوتشكوف تهدف الى تصحيح المفاسد العديدة ، لا تلك التى ترجع الى الأزمنة القديمة فقط بل أيضا تلك التى تكاثرت فى بعض المناطق فى ظل اصلاحات القيصر ٠

واتخذ بوسوتشكوف فى مواضع أخرى مواقف محافظة بل رجعية أحيانا ، ذلك أنه تمسك بكونه رجلا ينتمى الى قرن سابق ويصعب عليه تفهم وقبول الاتجاهات الجديدة كلها ، فبتشدده فى أمور الدين أثبت أنه وطنى متعصب عنيد فى وطنيته وأنه نصـــير لتنظيمات معقدة ومرهقة تتضمن الكثير من العناصر المتعلقة بالقطاع الاقتصادى والحياة اليوميــة للشعب الروسى ٠

وتنتمى أهم مقترحاته بطبيعتها الى الفئة الأولى ، فكان كتابه كله مليئا بالحماسة الوطنية والاهتمام برخاء بلده ، وعلى الرغم من أنه كان مؤمنا بالنظام الملكى فقد كان يعانى فى داخله من أجل الشعب الروسى ، ومن أجل المزارعين الذين كانوا يمثلون آنذاك الأغلبية العظمى من السكان الذين خرج هو من وسطهم ٠

لم يكن بوسوتشكوف فى حقيقة الأمر معاديا لنظام السخرة أو رق الأرض ، ولكنه اقترح معالجته ببعض عناصر انسانيـة وتدعيمه ببعض العقلانيـة الاقتصـادية فقـال فى ذلك « لا يعتبر ملاك الأرض (Pomiechtchiki) ملاكـا أبديين للمزارعين ، ولهذا السبب لايعاملونهم معاملة حسنة . ولكن السيد الحقيقى لهم هو السلطة التى تحكم كل روسيا ، فالملاك لايملكون المزارعين الا لفترة محدودة ، ولهذا السبب يجب أن لا يحطموهم ، ويجب أن تحميهم قوانين القيصر حتى يصبحوا أمناء غير تعساء ، فالمزارعون كثروة هم ثروة يملكها القيصر »(١٦)

ويؤسس بوسوتشكوف فكره هنا على أساس مبادىء قديمة تعطى ملاك الأرض نوعا من حق الوصـاية على المزارعين الذين عينتهم الدولة أوصياء عليهم ، ولا تعطيهم هذه الوصاية حقوقا فقط بل تلزمهم أيضـا بواجبات نحو الدولة ونحو المزارعين أنفسهم · واقترح كذلك قانونا يحد من التزام المزارعين نحو الملاك ، ويفصل المزارعين عن ملاكهم ، وفى حقيقـة الأمر يعطيهم ذلك حق تملك الأرض مدى الحيـاة ، وقد توقع لو نفذ هذا الاجراء أن تتحقق الزيادة المنشودة فى انتاجية الأرض ·

ومن أجـل الاستخدام العقلانى أو المتعقل للقوى العاملة وخاصـة بالنسبة للعمل الموسمى اقترح توسيع قاعدة نظـام الضرائب المباشرة التى تسدد نقدا Obrok وهو يختلف عن نظام العمل الاجبارى فى مزارع الملاك (barchtchina بمـا يقـدمه من ميزات مشجعة ، وأوصى أيضا بتحرير المزارعين من العمل فى الأرض وتشجيع استخدامهم فى الصناعة والتجارة مما يؤدى الى اخضاعهم لنظام الضرائب المباشرة النقدية التى تتناسب تناسـبا طرديا مع العمل الذى يقوم به العامل شحذا لهممهم ودفعا لهم للاهتمام بنتائج عملهم · ولابد من أن نعترف بعامة أن آراء بوسوتشكوف حول فوائد العمل بدون راتب (ولكن فى حدود معينة) واعتماد الأجور على مقدار العمل الذى يؤديه العمال كانت ظاهرة منتشرة فى عهده وفى ظروف عصره ·

أما عن مقترحاته الخاصة بالتجارة والصناعة فانها تقدم لنا المبرر الذى يجعلنا نضع بوسوتشكوف فى موضعه بتيار مذهب التجارية فى

---

(١٦) بوسوتشكوف : كتاب الفقر والثروة ، مطبوعات أكاديمية العلوم الروسية سنة ١٩٥١ ، ص ٨ ·

I. T. Possochkov, Kniga o skoudnsti i bogatstrje.

التفكير والسياسة الاقتصادية ، فهو يكشف لنا عن ضرورة تطوير التجارة والصناعة باستخدام أساليب خاصة للتنظيم والحماية من جانب الدولة · وناقش أهمية طبقة التجار وأهمية التجارة ، واقترح انشاء شركات للتجارة الخارجية · وتحدث عن الرغبة في تقليل السلع المستوردة ، وعدم قبول الطريقة التى يتم بها تصدير المواد الخام ، وضرورة تطوير بنية الصناعات الوطنية لتتجه البلاد الى تصدير سلع مصنعة ، الى غير ذلك من أمور · وكانت مناقشاته لجميع هذه الأمور ذات طابع ينتمى الى مذهب التجارية (١٧) ·

ويبدو أن تقويم بوسوتشكوف بأنه من أنصار التجارية تقويم صحيح ، بيد أن مردوكوفيتش ينتقد ذلك الى حد أنه يذكر أن بوسوتشكوف لايمكن بحال من الأحوال أن يعتبر من المنتمين لمذهب التجارية · ولكن اذا نظرنا الى ظروف العصر وظروف البلاد وجدنا أن الاتجاه نحو التجارية لدى بوسوتشكوف كان أمرا عاديا بل حتميا · أما عن اختلافه فى بعض النقاط مع أنصار التجارية الأوربيين فهو موضوع آخر · فالعنصر الأساسى هو أن بوسوتشكوف فكر فى طرح أسئلة عن المصادر الداخلية للثروة أو بمعنى آخر عن تطور القوى الانتاجية أو المنتجة ، وفضلا عن ذلك كان يميز بين الثروة المادية وغير المادية للأمة ، وهذه فى حد ذاتها نقطة كبيرة الأهمية اذا ما قومناها فى ضوء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى تواجهنا اليوم · ففى قوله « والأكثر أهمية من الثروة المادية فى حقيقة الأمر هو الحقيقة المطلقة » (١٩) ، فكلمة الحقيقة المطلقة هنا تحمل فى طياتها فكرة حلم بتحقيق يوتوبيا أو مدينة فاضلة يسود فى زمانها وأوضاع عصرها جو من الأخلاق الرفيعة الادارة الجيدة ؛ والأمان الشخصى ، وتتهيأ فيها لكل فرد فرصة التعليم الأساسى وتحصيل المعارف ·

وعلى مثال الاقتصاديين الآخرين الذين ظهروا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تختفى عند بوسوتشكوف بعض عناصر نظريته الاقتصادية فى معرض تفصيله للعناصر الدقيقة وعرضه للمشاكل التطبيقية بحيث تصبح تعبيرات تفتقر فى أغلب الأحيان الى الوضوح · ففيما يختص بالعوامل التى تتحكم فى تحديد ثمن السلعة مثلا كانت له

---

(١٧) راجع كتاب تاريخ الفكر الاقتصادى الروسى الجزء الأول ص ٣٣٩ ·

(١٩) بوسوتشوكوف ، الكتاب السابق الاشارة اليه ، ص ١٤ ·

وجهتا نظر ، تقى تناوله لأضرار تصدير المواد الخام والفوائد التى تعود من تحويلها أو تصنيعها محليا يوضح لنا بطريقة فيها شىء من التفصيل أن ثمن السلعة يتحدد على أساس تكاليف الانتاج ، ونظرا لأن النفقات التى يدفعها المصنعون ثمنا للكتان والقنب مضافا اليها أجور التصنيع أقل منها فى خارج البلاد أصبح من الممكن : « بأسعارها الحالية أى الأسعار التى يحصلها الأجانب أن يباع النسيج بأسعار أفضل » أو بمعنى آخر يقصد اللعب على هامش المنافسة بالاستفادة من ارتفاع أسعار المنتجات الأجنبية . غير أن بوسوتشكوف فى ميله بصفة عامة الى الاعتماد على أساليب الادارة السلطوية يقترح فى فقرة أخرى فرض أسعار موحدة بمعرفة السلطة على جميع التجار من أجل تجنب المنافسة الضارة ، ولكن ذلك ينطبق على السوق الداخلية فقط ، أما بالنسبة للمشترين الأجانب فقد أوصى بأن يقيم التجار الروس نظام أسعار موحدا واحتكاريا لبضائعهم ، على أن تحدد هذه الأسعار على أساس مزدوج : اقتصادى سياسى . فمن الناحية الاقتصادية « يمكننا أن نعيش بدون سلعهم فى حين أنهم هم لايستطيعون احتمال العيش بدون سلعنا لمدة عشر سنوات » أما من الناحية السياسية فللملكية الحاكمة الحق فى اصدار القرار « فان قرارها يرفع أسعار سلعتنا أو خفضها يقبل كقرار صحيح دون مناقشة » (٢٠) ، ويبدو أن بوسوتشكوف اعتبر أن الأجانب سوف يشترون السلع بالأسعار التى يحددها القيصر من قبيل احترام النظام الملكى الحاكم فى روسيا .

ولقد رأى بوسوتشكوف بوضوح الصلة القائمة باعتماد زيادة الثروة على انتاجية العمل ، وبذلك وضع المبدأ الذى يحتم أن العمل لابد أن يأتى بالربح ، وهو شىء أكثر من أجر العامل ، ويعتمد هذا الربح على انتاجية العمل (٢١) . أما بالنسبة للدولة ككل فان الربح يعتمد على مدى امكانية استخدام كل شخص قادر على العمل والانتاج . وهاجم بوسوتشكوف الكسل ، وأوصى باتخاذ بعض الاجراءات لمواجهة شر

---

(٢٠) المرجع السابق ص ١٤٧ ــ ١٢٢ ــ ١٢٥ .

(٢١) دوبروليبوف : أثر الثقافة الشعبية فى تطور الأدب الروسى ، مجموعة أعمال فلسفية مختارة ، الجزء الأول ــ موسكو سنة ١٩٤٥ ــ ص ١٠٥ .
N. A. D:brolubov, Stepe-i Dutchastija nardnostirazitii, Izb:anye filosfoskie proizvedenija.

الكسل · وأوصى أيضا ــ كما لاحظنا سابقا ــ بأن تتبع كل الوسائل الممكنة من التشجيع المادى لحفز العمال على العمل ورفع انتاجيتهم ·

أدت افتراضات واقتراحات بوسوتشكوف الى اثارة دهشة القراء الأوائل الذين أطلعوا على كتاباته ، فبعد نشرها بقليل قرأها الناقد المشهور والفيلسوف دوبروليوبوف N. A. Dobroluibov ذو الاتجاهات الثورية الديمقراطية فوصفها بأنها ظاهرة غير عادية فى الثقافة المكتوبة على عهد بطرس الأكبر ، ووصف المؤلف بالشجاعة ، وقال انه قد علم نفسه بنفسه فوصل بذلك الى درجة استطاع معها أن يناقش موضوعات الاقتصاد وهو العلم الذى أصبح « تاج العلوم الاجتماعية » فى منتصف القرن التاسع عشر ·

ان كتاب بوسوتشكوف هذا يعتبر بحق أثرا أدبيا ، فهو ملىء بالملاحظات الحية والعبارات والصيغ القوية المؤثرة ، والسخرية الشعبية اللاذعة · ولغته قوية كأفكاره حتى ان ليوتولستوى الذى كان من القراء المهتمين بكتابات ، بوسوتشكوف ومن المعجبين به كانت لديه خطة فى أواخر العقد السابع وأوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن يكتب رواية عن عصر بطرس الأكبر ، ومن الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية بوسوتشكوف الذى ظهر فى المخطط العام للرواية على أنه الرجل المتعلم · ولانعرف شيئا عن شكل وملامح وتقاطيع بوسوتشكوف ، ولكن تولوستوى تصوره رجلا قصيرا قوى البنية أحمر الشعر ذا لحية صغيرة ، ووجهه كثير الندوب (٢٢) ·

٧

يقال فى أغلب الأحيان أن مولد الاقتصاد السياسى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ارتبط ارتباطا مباشرا بمشاكل الأموال والنقود ، ولقد ناقش المفكرون الثلاثة الذين تناولناهم هنا هذا الموضوع فأسهموا بالكثير من العناصر فى نظرية النقود ·

وأولهم وليام بيتى فقد وضع بعض الأسس لنظرية النقود فى

---

(٢٢) ليو تولستوى . الاعمال الكاملة L. N. Tolstoy, Polan. Sabr. Sotch.
الجزء ١٧ موسكو سنة ١٩٣٦ ــ ص ٢١١ ·

الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ، فتحدث عن النقود على أنهـــا سلعة من السلع تؤدى دورها كقيمة عامة ، مثلها فى ذلك مثـــل أنواع السلع الأخرى اذ أن لها قيمة ذاتية تنشأ نتيجة العمل ، ومع ذلك تتحدد قيمة استهلاكها تحديدا كميا بالفرق بين تكاليف العمل اللازم لاســـتخراج المعادن الثمينة والعمل فى مجالات أخرى للانتاج . ذلك أن الكمية المطلوبة للتداول من النقود تتحدد بناء على كمية التجارة وما يدفع بصورة مطلقة نظير كميـة السلع المنتجة والأســـعار وعدد دورات تداول الوحـدات النقدية فى العمليات المختلفة (معدل الدورة النقدية) . فالنقود المعدنية ذات القيمة الكاملة (أى النقود الحقيقية) يمكن استبدالها بعملات ورقية يصدرها البنك ، ويصف بيتى النقود بانها « شـحم الجسد السياسى » مشيرا بذلك الى أن العملات هى بمثابة الشـــحم ضرورية لتسيير الآلة الاقتصادية بما يجعلها تعمل بطريقة سليمة .

ويتناول بويسجلبرت المسألة من وجهة نظر مختلفة تماما . فحينما يذكر أن عدم الانضباط فى ميكانيكية أو آليـة الاقتصاد انما يشير الى ظواهر معينة تنبىء بأزمات اقتصادية مقبلة يرجع بذلك أصل الأزمات الى طبيعة النقود . ونظرا لأن النقود لاتمثل فى حد ذاتها سلعة استهلاكية فقد بدا له أنها عنصر صناعى فيه ضعف كامن ، ولكن مع ذلك اكتسب سلطة غير طبيعية على الناس . ويعتبر بويسجلبرت صاحب فكرة ميزت الاقتصاد السياسى الفرنسى عن غيره ، ولئن كانت تلك الفكرة ذات طابع يوتوبى فانها ذات أهمية كبيرة تتمثل فى أن الاقتصاد يجب أن يتحرر من سلطة النقود . ويمكننا تتبع هذه الفكرة حتى نصل الى جوزيف برودهون Joseph Proudhon (١٨٠٩ ــ ١٨٦٥) وهو مفكر آخر أصيل ولكنه ينتمى الى عصر آخر .

وهنا نجد أن بوسوتشكوف يمثل أيضا تيارا مختلفـــا فى فكرته ونظرته للنقود عن فكرة ونظـرة بيتى وبويسجلبرت . فلقـد كان أول روسى يشرح ببساطة ووضوح نادر نظرية الاسمية nominalism (وهى نظرية تحكم الدولة فى النقود أو النظرية الوثائقية) . فالحقيقة الرئيسية التى تميز النقود فى رأيه هى أنها تحمل خاتم الدولة ، وعليها تعتمد القدرة الشرائية بحكم وضعها القانونى المستند الى سلطة الدولة . وليس المهم هو وزن أو نقاوة المعدن المستخدم فى النقود ، ولكن المهم هو القيمة الاسمية للنقود ، وتتحدد هذه القيمة أيضـا بمعرفة السلطة السياسية . والجدل الرئيسى الذى يدور حول هذه الفكرة هو انه من

الممكن ، فى اطار حدود معينة ، أن يتم تداول نقود معينة مصنوعة من معدن رخيص أو حتى نقود ورقية ، وهذه النظرية هى التى تسمى تاريخيا نظرية الاسمية nominalism اشتقاقا من كلمة اسم nomen .

ومن المؤكد أن بوسوتشكوف لم يكن يعلم شيئا عن تجربة جون لو John Law ومن ثم فان آراءه فى هـذا الموضـوع كآرائه فى غيرها من الموضوعات آراء أصيلة · وقد أدى اقتراحه بصك نقود بمعدن عادى مطبوع عليها قيمة عالية الى الأغراض التى أدت اليها عملة رجل الماليـة الاسكتلندى لتوفير دخل للخزانة وبذلك وفر المزيد من الايرادات النقدية للبـلاد ·

وبالروح المؤمنة بالنظام الملكى كتب بوسوتشكوف يقول : ان كلمة القيصر لها من القوة ما يمكنها من اصدار أمر بصك قطعة نقود من النحاس وزن زلطة Zolotnik (٤ر٦ جم) لتداولهـا بقيمة تسـاوى روبلا كاملا · وفى نص آخر تناول الموضوع بطريقة أكثر نفعية (براجماتية) دون فتح مجال كبير للجدل ، وذلك باقتراحه اسـتخدام وزن زلطة من النحاس لصـك عملات تساوى كوباك Kopek (أى عشر روبل) وهى قيمة أكبر من قيمة النحاس بكثير بل وأكثر من القيمة الاسـمية المحددة للزلطة النحاس التى كانت تصك فى ذلك الوقت ·

ومن جهة أخرى عارض بوسوتشكوف بشدة احداث تغييرات طفيفة فى قيمة النقد كما عارض عملية خلط النحاس بالفضة أو خلط الفضة بالذهب ، وكان مقتنعا بالفكرة القائلة بأن العملات الروسية يجب أن تعمل من معدن نقى كنقاوة العقيدة الأورثوذوكسية ، أو صك عمـلات رخيصة من النحاس الخالص ولكن بقيمة شرائية عاليـة · وأشار بأن يقتصد فى استخدام الفضة (وهى المعدن الأكثر استخداما فى صك النقود على عهد بطرس الأكبر ، وكان يستورد من الخارج) كما رأى صـك كميات قليلة من العملات الذهبية وذلك لضرورتها فى اظهار مكانة الدولة فى الخارج ·

وانتهت نظرية النقود عند بوسوتشكوف مثل كل آرائه الأخرى بتطبيقات دقيقة محسوبة ، فبتطبيق تلك الاقتراحـات قدر أن الايرادات التى سـوف تحققها الخزانة بصك قطع العشرة كوباك بالنحاس تبلغ ٣٧٠ روبلا من كل رطل من النحاس وستبلغ جملة الايرادات من صك عشرة آلاف رطل من المعدن ١٨٨٤٠٠٠ روبل وهو مبلغ ضخم بالنسـبة

لجملة ايرادات الدولة فى عهد بطرس الأكبر وكانت أقل من ثمانيــة ملايين روبل (٢٣) ٠

والعنصر الغريب هنا هو أن بوسوتشكوف لم يعط أهمية كبيرة لمسألة جذب المعادن الثمينة الى داخل البلاد ٠ وهذا يدعو الى التساؤل : هل كان من المهم ادخــال الذهب والفضــة اذا ما كان بالامكان تحقيق التداول النقدى وضبطه باســتخدام النحاس ؟ رأى بوسوتشــكوف أن الهدف الرئيسى من السياسة الاقتصادية هو تطوير الصناعة والبدء فى انتاج سلع جديدة ، وكان هذا الاتجاه بالنسبة لعصره اتجاها تقدميا فى نظر أنصار مذهب التجارية ٠ أما عن توهم نظــام نقدى يــكون دوره الاقتصادى الرئيسى هو زيادة كمية العملات المعدنية المتداولة فقد كان أمرا غريبا على أسلوب وتفكير بوسوتشكوف ٠

ولعل من الأمور الهامة هنا أن لا نغفل حقيقة هامة هى أن هذا المؤلف لم يقترح استخدام النحاس كنوع من العملة السائدة جنبا الى جنب مع صكات الذهب والفضة ، بل انه قصد استخدام نقود نحاسية ذات قيمة فعلية أقل ، وغير قابلة للاستبدال بمعادن ثمينة أن تكون تلك النقود أساسا لدورة التداول الاقتصادى ، فنقوده النحاسية اذن يمكن أن تكون على مثال النقود الورقيــة التى نستخدمها حاليا ، فهى العملة الوحيدة المتداولة وصلتها مع الذهب مفقودة تماما ٠ وتعتمد القوة الشرائية لمثل هذه النقود أو العملات على أنها تصدر بكميات محددة على أساس الائتمان أو الثقة فى بنك الدولة ، وهذا بالضبط ما أراده بوسوتشكوف كقاعدة لتداول العملات المعدنية المصنوعة من النحاس الخفيف ٠

لكن القرن الثامن عشر كان مختلفــا عن القرن العشرين ، فالنقود التى تخلو من القيمة الذاتية وليست لها قيمة حقيقية فى السوق تستخدم كأساس للنظام النقدى لم يكن ممكنا فى ذلك العصر ، فلم يســـتخدم النحاس الا فى نهاية القرن كمعدن تصك به النقود ، وكانت الحكومات أيضــا مضطرة الى صك عملات نحاســية تحتوى على قيمة حقيقية لقطع العملات أو قريبة منها ٠ وبالاضافة لذلك كانت النقود توزن ، فمثلا البياتاك Piatak وهى تساوى ٥ كوباك كانت تزن ١/٤ رطل ، أى أكثر من عشرة جرامات لا جرامين كما سبق أن اقترح بوسوتشكوف ٠

---

(٢٣) يوسوتشكوف : الكتاب السابق الاشارة اليه ص ٢٤١ ، انظر أيضا كافنجاس : الكتاب السابق الاشارة اليه ص ٩٩ ٠

وفى عام ١٧٤٨ حينما قررت الخزانة استخدام نقود نحاسية كى تدفع مبلغ ألفي روبل قيمة الجائزة التى قررها القيصر للشاعر لومونوسوف على أعماله الشعرية اقتضى الأمر وضعها فى شحنتين كبيرتين ٠ ويمكننا أن نتصور هنا مشاعر السرور والسعادة التى تملأ نفس الشاعر عندما تصل اليه هاتان الشحنتان وما يتطلبه الأمر من مكان لتخزينهما ٠

وفى ختام البحث نذكر باختصار حادثة عرضية ان لم تكن لها صلة مباشرة بأعمال بوسوتشكوف لها طرافتها فى تاريخ روسيا الاقتصادى وعلاقاتها الثقافية مع أوربا فى ذلك الوقت ٠ فى عام ١٧٢٠ بعد أن نجح نظام « لو » ثم سقط ظهر شباب روسى ارستقراطى هو الأمير شتشرباتوف I.A. Chatcherbatov كان قد أرسل للدراسة بالخارج فترجم من الفرنسية الى الروسية كتاب الاقتصادى جون لو عن النقود والتجارة وأرسل الترجمة الى القيصر ٠ وبخلاف ما حدث لمخطوطة بوسوتشكوف أظهر القيصر اهتماما بالغا بهذا العمل رغم صعوبة أسلوب المترجم (حيث لم تكن اللغة الروسية آنذاك قد تطورت الى الحد الذى يجعلها تستوعب مصطلحات الموضوع المعقد لهذا الكتاب) ، وربما أتى ذلك الاهتمام لأن القيصر نفسه قد تذكر الأيام التى أقامها فى باريس حينما كان لو فى أوج عظمته ٠

ونتيجة لهذا الاهتمام أمر القيصر بتوجيه الدعوة الى الاقتصادى جون لو الذى أصبح فى ذلك الوقت بعد سقوط نظامه من المهاجرين ، ليقيم فى روسيا ويعمل فى حكومة القيصر ، وعرضت عليه شروط مغرية بالحضور ، فكانت أمامه فرصة ليكون مديرا لشركة التجار الروس للتجارة مع بروسيا ٠ وكان القيصر ـ الذى كان مغرما بالأرقام ـ يهتم بتقدير ما يمكن أن تضيفه تلك الشركة من دخل لايرادات الدولة ، ووجد انها قد تصل الى نحو مليون روبل سنويا ، وحفظت هذه الوثيقة فى المحفوظات (٢٤) ٠

ولئن لم تذكر المصادر الروسيه أى شىء عما كان متوقعا أن يقوم به « لو » من انشاء بنك واصدار عملات ورقية فى روسيا الا أن الكتب

---

(٢٤) بيكارسكى : العلم والأدب فى روسيا فى ظل بطرس الأكبر ٠
P. Pekarskij, Naouka i literaturav Rossi pri petra velikom.
الجزء الأول ـ سانت بطرسبرج سنة ١٨٦٢ ٠ من ص ٢٤٣ الى ٢٤٧ ٠

الفرنسية عبرت عن الفكرة بأن ذلك هو الحل المنتظر » (٢٥) ٠

وعلى أى الأحوال لم تكن روسيا مستعدة آنذاك لتقبل فكرة البنوك أو فكرة العملات الورقية ٠ ولم تظهر تلك الفكرة الا بعد نصف قرن فى عهد كاترين الثانية ٠

أما بالنسبة لدعوة جون لو فقد رفض الاقتراح الذى قدم اليه ، ولكن ذلك الرفض كان لأسباب أخرى ، فربما كان جون لو يأمل فى العودة الى فرنسا ليواصل نشاطه فى السيطرة على الدولة ٠

أندريه ٠ ف ٠ أنيكين
(أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى)

---

(٢٥) ليمونتى تاريخ ريجانس P.E .Lemonty, Histoire dela Régance
الجزء الأول ، باريس ١٨٣٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ ٠
انظر أيضا كتاب داريدان : جون لو أبو التضخم المالى ٠
J. Daridan, John LaW, Pére de L'Inflation.
باريس سنة ١٩٣٨ ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ٠

التعريف بالكتاب

سير رونالد سيم Sir Ronald Syme

ولد عام ١٩٠٣ فى نيوزيلاندة ، أستاذ التاريخ القديم فى جامعة اكسفورد من عام ١٩٤٩ الى عام ١٩٧٠ ، الأمين العام والرئيس السابق للمجلس الدولى للفلسفة والدراسات الانسانية ، عضو الأكاديمية البريطانية ، عضو مشارك فى المعهد الفرنسى · قام بكتابة عدة مؤلفات عن دراسة العقائد الرومانية والتاريخ الأوجستى ·

كلود لوفور Claude Lefort

ولد عام ١٩٢٤ ، أستاذ فى مدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماع ، تلميذ ميرلو بونتى Merleau-Ponty حيث قام بنشر مؤلفاته بعد وفاته ، كتب عديدا من المقالات والكتب عن الفينومينولوجيا (علم الظاهرات) والفلسفة السياسية ، وعلم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا (علم الانسان) · ويميل فى أحدث كتبه الى التوسع فى نظرية الديمقراطية الحديثة ·

ادموند رادار Sdmond Radar

أستاذ فى المعهد العالى لفن العمارة بسانت لوس بروكسل ، أسهم بالكتابة فى مجلات بلجيكية مختلفة عن الفن والتاريخ · ألف كتبا عديدة فى مجال تخصصه ·

جانوس ريز Janos Riesz

ولد عام ١٩٤١ فى بورايست ، له دراسات فى الأدب والفلسفة فى هايدلبرج وروما وبون ، قام بالتدريس فى ميتز (١٩٦٨ ــ ١٩٧٠) وفى مينز وبيروت حيث تولى منصب أستاذ كرسى الفيلولوجيا (فقه اللغة التاريخى المقارن) الرومانية والأدب المقارن · ومجال تخصصه هو الأدب الافريقى فى اللغات الأوربية والعلاقات الأدبية بين أوربا والعالم الثالث ·

لاكشمى كابانى **Lakshmi Kapani**

دكتوراه من جامعة باريس ٤ ــ السوربون ، أستاذة مساعدة للفلسفة الهندية فى جامعة باريس ۰ أ ۰ نانتير ۰ تغطى فى تدريسها كل النواحى الرئيسية فى الثقافة الهندية ۰

فرانسوا شينيه **François Chenet**

درس فى دار المعلمين ، دكتوراة فى الفلسفة وأستاذ فى المرحلة الأولى العليا ومحاضر فى جامعة باريس ٤ ۰

جيوفانى بوزينو **Giovani Busino**

ولد عام ١٩٣٢ ، أستاذ علم الاجتماع العام فى جامعة لوزان وعلم الاجتماع التاريخى فى جامعة جنيف ۰ ألف كتبا كثيرة فى النظرية الاجتماعية والأبستلوجيا وتاريخ التحليل السيكولوجى ، رئيس تحرير **Oeuvres complétes de Vilfredo Parteto** (ثم نشر ٢٨ مجلدا منذ عام ١٩٦٣) ۰

ادوارد أو ۰ آكو **Edward O. Ako**

ولد عام ١٩٥١ فى الكاميرون ، درس فى جامعة الليبنوى ، يقوم بتدريس الأدب الأمريكى والنظرية الأدبية فى ياوندى ، وقد أكمل لتوه عاما كمدرس مقيم على منحة فولبرايت فى جامعة بنسلفانيا ۰

أندريه ف ۰ أنيكين **Anderi V. Anikin**

ولد عام ١٩٢٧ ۰ عضو معهد الاقتصاد الدولى والعلاقات الدولية فى الاتحاد السوفيتى وأكاديمية العلوم ، أستاذ فى جامعة لومونوزوف بموسكو ۰ نشر كتبا كثيرة باللغة الروسية ترجمت الى لغات مختلفة ۰

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٣٨٥

مجلة ديوجين
العدد الثمانون
فبراير / ابريل ١٩٨٨

في هذا العدد

غرس الجماليات الحضرية

أرنولد بيرلينت

(١)

تعد المدينة ، وخاصة المدينة الصناعية، بالنسبة لغالبية الناس نقيضا للجماليات . وقد تضم المدينة بين جنباتها أقساما لها سحرها الخاص ، الا أن الشاحنات والسيارات قد ألحقت الهزيمة بشوارعها وجعلت المشاة ينطلقون مهرولين أمامها كما يفر المهزوم أمام المنتصر. وتبدو الحدائق وكأنها واحات عابرة وسط صحراء من خرسانة وأسفلت . وتظل ضوضاء الماكينات والالكترونيات واللغو وناطحات السحاب الضخمة والعربات المتحركة – هي الملامح الطاغية للتجربة الحضرية. وتبتلع الثقافة الشاملة والهياكل الشاملة كل سمة شخصية أو خاصة . بل لقد أصبح المستقر البشري مهددا وتحوطه الأخطار.

ليست هذه صورة مبالغا فيها ، ولكنها صورة وصفية واقعية للبيئة الحضرية التي يمر بتجربتها كل من يعيش في المراكز الصناعية الكبري في العالم ، وبدرجة أقل كل من يعيش في مدن الأقاليم الأقل اتساعا . ومما لا شك فيه أن المراكز الحكضرية تقدم مكاسب هامة في مقدمتها قدرة تلك التجمعات من الثروة والسكان علي أن تحيا حياة ثقافية غنية في مجالها وتنوعها . ولكن هناك علي الجانب الآخر تضحيات يقررها في الغالب أولئك الذين لا يقدمون هذه التضحيات ولكنهم اناس تمكنهم قدرتهم السياسية والمالية من تحصين أنفسهم ضد كثير من الموبقات الحضرية وأن يهربوا من حين لآخر من أجل فترة راحة – الي أماكن المتعة والاغفخة.

غير أن مكاسب الحياة المدنية ليست في حاجة للمطالبة بتضحيات بشرية ، فليس هناك مبدأ ضروري يتحكم في الحضارة الصناعية التي تطالب بالتضحية بالرقة والمتعة والجما ل في سبيل التقدم المادي. فكل من المدينة والحضارة تنبع من فكرة الجماعة ومازالت المدينة هي الواعدة بأن العالم الكلاسيكي هو المكان الذي يشعر فيه الناس بانسانيتهم .

المترجم : سعاد عبد الرسول حسن

ولكن ما هي المدنية الانسانية أو المدنية المانحة للانسانية ؟ ماهي شروط التجربة التي تجعل البيئة تساهم في حياة السكان؟ وكيف يمكن لهذه الشروط أن تؤثر علي نوعية تجربتهم؟

في اعتقادي أننا نتفهم هذه الشروط بطريقة أفضل من خلال فكرة الوعي الادراكي ، ونعني بذلك الوعي الحسي لشخص ذي ضمير ، وهو وعي له صداه في أروقة تاريخ محصلة ثقافة ما، أو في تاريخ التداخل الاجتماعي لحياة الجماعة والأنشطة الشخصية . ويقع مثل هذا الوعي في مكان الوسط بالنسبة لفكرة الجماليات ، وتفوق أهمية كل ما هو جميل أو يبعث علي الرضا حيث يشتمل علي كل مجال التجربة الادراكية الجوهرية باعتبارها مركز القيمة .

وفي ضوء هذا المفهوم تقع الجماليات في مركز المحور بالنسبة لكينونة البشر ، وتمتلك البيئة الحضرية الامكانية العظمي لتحقيقها . كيف يمكن ذلك ؟ .

عند محاولة سبر أغوار التساؤل يصبح من الأهمية بمكان أن نعرف ما الذي نعنيه بكلمة مدينة ، لأن هذا اللفظ نفسه يمكن أن ينطبق بصورة مماثلة علي الأماكن القديمة التي يقطنها عدة ألوف قليلة من السكان ، وكذلك علي حشود العواصم الحضرية التي تضم عدة ملايين . فاللفظ لا شك نسبي ، فالتغيرات الكيفية في طبيعة المنظمة العضوية والحياة الاجتماعية تحدث بتوافق مع التغيرات الكمية . وقد تحقق أغراضنا بطريقة أفضل ، وتصبح أكثر شمولا لو اعتبرنا المدينة تجمعا للناس والهياكل بمثل هذا الحجم ، وهذا التشابك الذي لا يصبح فيه صلة ترابط بين نسبها بعضها للبعض الآخر ، بل انها تتخطي أنشطة الحياة اليومية لمعظم سكانها.

وبينما هناك مدن في الشرق وفي الصين علي وجه الخصوص تكون في الغالب مخططة مسبقا فان ذلك لا يحدث كثيرا في الغرب حيث كان من المألوف حتي مطلع هذا القرن أن تنمو المدن بطريقة التكاثر . وفي الحالتين عندما يتم التخطيط يكون لمواجهة احتياجات خاصة تكون سياسية أو حزبية أو دينية بصفة خاصة .. فالمستعمرات التجارية والحاميات الحربية تتطلب التنسيق والنظام حتي تعمل بصورة كافية في حين أن المدن المقدسة تمثل بطريقة نمطية بعض الأشكال الرياضية التي تمثل الكون . وتقودنا أمثلة تلك المدن الي مدينة نوقراطيس في مصر في القرن السابع قبل الميلاد والي المدينة الدينية بيرسيبوليس في فارس في القرن السادس في حين أن هناك دليلا علي المدن المخططة يأخذنا الي أبعد من ذلك الي مدينة المعبد في سقارة في مصر التي يرجع تاريخها الي ٢٧٠٠ عام قبل الميلاد .

وهناك العديد من التخطيط العضوي المتنوع الذي وضع لأغراض مختلفة . فالوحدات المستطيلة الشكل لقدماء الصين وبعد ذلك التخطيط المالبزي في آسيا الصغري كان يسهل الأنشطة التجارية والرقابة السياسية ، وبينما كان تنظيم المدن المثالية دائريا أحيانا ، وهي خطة كان من الممكن أن تكون نافعة لأغراض الدفاع ، فإنه كان له أيضا طبيعة جذب قوية ورمزية كنوع من التعبير عن النظام الكوني . وهذه الاحتياجات الخاصة تفرض متطلبات تحدد طريقة تنظيم المدن بهدف تحقيق هذه المتطلبات واضفاء طابعها وخلق حالة ونوعية الحياة داخلها [1] . وفوق ذلك فبينما هناك ظروف خاصة قادت الي بناء مدن مخططة فقد ظهرت أماكن للاقامة داخل هذه المدن دون مثل هذا التوجيه ، ولم تتلق جموع السكان الريفيين التي تعيش في المدن والقري الا القليل من المساعدة من قبل تلك التنظيمات

.(1) Lewis Mumford, The City in History, New York, Harcourt, Brace & World, 1961, pp. 124, 191-193; Yi-Fu Tuan, Topophilis, Englewwodd Cliffs, Prentice-Hall, 1974, ch. 11. esp. p. 152.

المرشدة . ومع ذلك فان نمو معظم المدن بطريقة بطيئة في المرحلة السابقة علي التكنولوجيا الصناعية قد أعطي الفرصة للعمل المتأني سواء علي المستوي الشخصي أو الاجتماعي علي الأقل بالنسبة لسكني البرجوازيين . وكانت القرارات تميل لأن تكون قرارات طويلة المدي . وبينما لم تكن هناك مراجعات بيروقراطية فقد كان يسود احساس بالوقت باعتباره تدريجيا وثابتا وبالمستقبل باعتباره لا يقاس بالسنوات . وكان التتابع البطئ والمنتظم للسنوات مع ارتباطه بالقبضة المحكمة للتقاليد يعمل في توازن وتناسق ليخرج ما نعجب به وندرسه اليوم من عمارة وتنظيم . ولقد كان كل ما هو غير مناسب يزول ويمحي بعد مشاورات طويلة أو بفضل تقلبات الطقس أو المناخ . وكل ما كان يستطيع أن يثبت نفسه في ظل هذه الظروف كان يستمر في البقاء ، ومع ذلك فإن هناك العديد من التراكيب الحضرية التي تكدست علي مر السنين في عملية تراكمية نتج عنها بيئات عضوية ثقافية كل منها ذات درجة عالية من التكامل والذاتية الواضحة.

اننا نشعر بأكثر من حب الاستطلاع والطرافة في القري والمدن القديمة في أجزاء عديدة من العالم . إن هناك شعورا قويا بتناغم الزمن والمكان وبنوع الحركة المتولدة عنهما . إن هناك احساسا بالذاتية بالمكان الذي ينتمي اليه الناس ويكون له طابع مميز يستطيع الزائر العابر أن يدركه ويحس به . أما بالنسبة للأشجار الهرمة فإن هناك وعيا بالعلاقة بين الماضي والمكان. وتمتلك تلك التجمعات الحضرية الخاصية الثمنية للاستمرارية الانسانية . وليس من المستغرب أن تكون هذه هي الصفات التي نتعرف عليها ونحاول الحفاظ عليها في المراكز القديمة في أكثر المدن حداثة حيث يميل الكثير الي طمس المعالم من خلال التعمية والمكســب الشخصي أو استغلال عنصر المعيارية.

(٢)

ومع ذلك فما زال هناك الكثير الذي نقدمه غير الوقت والتاريخ فخبرتنا الادراكية بالمدن تجعلنا ننظر اليها علي انها اماكن تموج بالنشاط مع وجود أعداد كبيرة من الناس الذين تشغلهم مجالات واسعة من الأنشطة ، وهؤلاء يمثلون الصفة الحضرية المحورية . وبعض المدن يمكن أن يطلق عليها مدن المشاة حيث يتزاحم الناس في الطرقات معظم أوقات النهار وأحيانا أثناء الليل ، ويكون الناتج خليطا من النشاط والضجة . ولعل من أهم العوامل التي تساعد علي فهم جماليات المدينة هذه الصفات الحسية التي تتولد في المدن . وهذه الصفات متنوعة ووفيرة، وهي ليست صفات بصرية فقط ولكن أيضا شمية وحركية وسمعية . وينتج عن الأماكن الحضرية أحاسيس وفيرة بعضها محفز وبعضها يبعث علي الاحباط . وهذه البيئات الحسية يمكن أن تكون أماكن خصبة تساعد علي ظهور ثقافات ابداعية ، وقد تكون نوعا من الجلبة الشديدة الاضطراب تقضي علي أي نوع من الحساسية الادراكية وتشتته .

وهكذا فان المدينة مهما كانت هي في النهاية بيئة جمالية وهي كأي بيئة بشرية تعد نتاجا لعمل بشري . مع سرعة مرور الزمن ومع الوعي الادراكي الذاتي ومع الدروس المستفادة من النمو الطائش الماثل أمامنا استطعنا أن نتحقق من أية عمليات تشكيل واعادة تشكيل هذه البيئة لا يمكن اغفالها من أجل بعض المكاسب أو من أجل عوامل سياسية ، كما أنها لا يمكن أن تترك للحركة الجيولوجية لعصر ما قبل الصناعة أو التخطيط الرياضي للعقل المتأمل . كيف إذن يمكن لملامح التصميم الحضري أن تشكل بطرق تكون حرية بأن تخلق بيئة غنية في قيمها واهتماماتها الجمالية ؟ وكيف يمكن التنسيق بين عناصر التجربة الحضرية من أجل ايجاد حالة من الوعي الادراكي يمكن أن تشجع الصفات الانتاجية والحيوية لحياة شاملة وتطلع للمعرفة واهتمام ورغبة في البحث والاستكشاف والتعجب ؟ وبطريقة أكثر خصوصية كيف يمكن أن نولد الظروف في مدينة نشأت في الماضي بطرق معتمدة غالبا علي الصدفة

والطرق العشوائية ؟ والظروف التي تشجع التطور الادراكي والنشاط البداعي والرضا والانجاز البشري ؟.

لقد كان للتطور غير الموجه في الماضي خاصيته العبقرية. لقد كانت المدينة نوعا من الخلق الاجتماعي الذي يتشكل محكوما بنظم الطقس والوظيفة والوقت . ولقد نتج عن هذا التطور اساليب ونظم وهياكل دارجة تعكس وتوجه في الوقت نفسه الانماط الاجتماعية وروح الثقافات الاقليمية . ومع ذلك فقد استطاعت التكنولوجيا الصناعية أن تحدث تفككا في معظم هذه القيود . فقد كانت مواد البناء تنقل بالسفن الي أماكن تعد هذه المواد بالنسبة لها غريبة وغير مألوفة ، فناطحات السحاب المكسوة بالرخام كانت ترتفع في مناطق رملية أو جرانتينية ، وتقام المنازل المتحركة تحت بساتين باسقة . وفي الولايات المتحدة يوجد المنزل الريفي بجوار المستعمرات السكنية كنتيجة للتطور الذي حدث في الضواحي في طول وعرض البلاد . وهناك تصميمات متشابهة وضعت في ظروف مختلفة متماما مع التجاهل التام لنماذج المناخ المحلي مما ترتب عليه تزويدها بنظم قوية للتدفئة وتكييف الهواء لتعويض هذا التجاهل . ولقد أدت المعيارية والتوزيع الجماعي الي استجلاب السلع الاستهلاكية الباهظة التكاليف الي نفس الأسواق في نفس الشوارع الرئيسية لكي تجهز في نفس المطابخ في المنازل المطورة مع تجاهل الاقليم وجغرافية المكان والموسم والمناخ بل حتي جنسية السكان .

وكأن قدرا قد أصاب الناس . فنحن كشخصيات فردية نربط أنفسنا بأماكن مميزة أصبحنا أيضا كسلع موحدة يمكن نقلها واحلالها ونقلها بسهولة من مكان الي آخر . لقد أصبحت أفكارنا ورغباتنا وحتي احتياجاتنا مصممة لكي تقابل متطلبات السوق الجماعية . لقد أصبح من الصعب أن نعرف كيف تتولد نماذج سلوكنا سواء تلك المتعلقة بالعمل أو الجنس أو الأسرة أو العلاقات أو الترفيه . ذلك لأن أنماطا جديدة من التفكير والعمل قد أفسدتها وسائل الاعلام بصورة سريعة بحيث أفقدتها تلقائية وأمانة ردود فعلها تجاه الظروف التى ظهرت فى ظلها لأول مرة . لقد أصبحنا إذن نشبه البيئة التى نعيش فيها . بل فى الحقيقة لقد أصبحنا نحن البيئة نفسها. ولم يعد النقد الماركسى المتعلق بالعزلة منطبقا . وقد لا يكون هذا التحليل منطبقا عندما يستطيع الناس أن يميزوا بعيدا عن آلاتهم وأعمالهم وأشكالهم الانتاجية والاجتماعية وأيديولوجياتهم . ولكن عندما تستوعبنا هذه الأشياء كلية وعندما نتحد معها بحيث نصبح مجمعا بيئيا اجتماعيا وثقافيا فإن شيئا لن يبدو غريبا بالنسبة لنا . بل أن عملية التكيف تتغلغل داخلنا حتى العظام ، ونصبح نحن وعالمنا شيئا واحدا . ولقد كان ذلك فى حقبة تاريخية متقدمة بعد حالة متناعمة من الانجاز المتبادل بين الشخص والمكان ، ولكن فى عصرنا الذى يتميز بالتكنولوجيا الصناعية والإلكترونية فإن ذلك يمثل حالة من التعتيم وبالتالى اختفاء العنصر الانسانى الفردى . إن التطور غير الموجه للمدينة العضوية الاجتماعية له ضحاياه .

وعلى الرغم من عدم الرضا الذى يسببه فقد الذاتية الفردية فانها فى الحقيقة ليست نتيجة التصنيع الشامل والثقافة التجارية الشاملة . فهذه الوحدة بين الشخص والمكان العضوى الاجتماعى هى ملاحظة من جانب علماء الأجناس والجغرافيين حول الثقافات الانسانية بصفة عامة . أما تعرفنا عليها الآن فهو نوع من الربط بين أقصى درجة ضغطت فيها الحساسية الانسانية فى ظل الظروف الراهنة والتناقض القائم بين هذا الموقف والأسطورة العصرية التى تقول بانفصال الفرد عن النظام الاجتماعى . ويكمن العنصر الأخلاقى اذن لا فى حقيقة هذه الوحدة ولكن فى خاصيتها .

وهناك أيضا تناقض فى التجربة النوعية للمدينة الحديثة . والارتباط الشديد بين عناصر الانتعاش من ناحية وعناصر الصد أو عدم المضيافية من جهة أخرى يجعل من الصعب تقويم قيمة المدينة . لقد كانت المدينة دائما مكانا حيويا بالنسبة للثقافة البشرية (وأنا أستعمل هذه الكلمة بمعناها

الأنثروبولوجى) . والمدينة الآن بحجمها وتشابكها الذى يفوق كثيرا الفترات السابقة وبطابعها المتفرد أصبحت أكثر بريقا .

إن المدينة الحديثة تعد قلب الكيان الاجتماعى . وهى القوة المحورية لنشاط أى مجتمع . وهى المكان الذى يفرز فيه المجتمع أشكاله وقواه الاكثر وضوحا وليس فقط نماذجه التجارية والمؤسسية والاجتماعية والتغيرات التى تحدث فيه بل أيضا أشكاله الادراكية .

هذه الأشكال لا تظهر فقط فى الهياكل التى تشكل المدينة العضوية ولكنها تظهر أيضا بطريقة أكثر عمقا فى كل من تنظيمات هياكلها العضوية بل الأهم هنا فى بيئتها الحسية . وتعد العمارة والحدائق والخطة العضوية للمدينة وخاصة تراكيبها من الأحاسيس البصرية والسمعية والحركية والنموذج الاجتماعى لبيئة شعب ما . وفى عبارة أخرى فإن المدنية تعد بمثابة متحف وليس متاية من الانجازات الماضية قطعت من جذورها ومن روابطها مع الأنشطة التى نبعت منها ، بل إنها تعد مجموعة مشاركة وغير معدلة للعالم الاجتماعى للثقافة المعاصرة. ومن الواضح أن واجهات المتاجر ما هى إلا حاويات متحفية تضم الفن والصناعات الانسانية لمجتمع ما ، كما أن المتاجر تعد بمثابة التجمعات الخاصة لهذه المصنوعات . ومع ذلك فإنه يتحتم علينا أن ننظر إلى أبعد من ذلك ، إلى التعرف على الشوارع التجارية كأسواق خطية والأحياء التسويقية كناطق تسويقية للسكان المحليين والاقليميين . فهذه الأسواق تمثل معرضا حضريا يقدم إثارة اللون والحركة وأصوات ثقافة حية وبيئة ادراكية نوعية غنية .

ويحمل مثل هذا النشاط الاجتماعى المكثف على وجهه مشكلات وعجائب المدينة . ونحن نتحدث هنا فقط عن الظروف النوعية للمعيشة الحضرية الحديثة ، غير أن هناك جوانب أخرى أقل حظا . وكثير من هذه الجوانب يكون مألوفا لمعظم المدن الصناعية فى العالم ، كما أنه يختلف من حيث الدرجة ، فى حين أن هناك جوانب أخرى أكثر خصوصية بالنسبة لأماكن معينة. وعلى الرغم من أن هذه الجوانب قد تكون معروفة جيدا ولا يمكن تجنبها بأى حال من الأحوال فإنها لا تقل أهمية بل لقد تبعث على الأسف. إن احتلال الشاحنات وعربات الأتوبيس وعربات الركوب للمدينة أدى إلى تدنيس بربرى لأى مكان يمكن أن يرتاده الانسان خارج المنزل . لقد تحولت الشوارع الحضرية إلى أماكن ضارة جدا بالصحة ، كما أنها لا تبعث على الشعور بالأمن . وكثيرا ما يتحطم الغرض الذى من أجله أنشئت هذه الشوارع ، وهو سرعة الحركة بطريقة انعكاسية لتحطيم الذات . أما الميادين الحضرية فقد تحولت إلى أماكن لانتظار السيارات . أما واجهات المنازل التى تصل إلى مستوى الشارع فقد أخفتها العربات الواقفة فى أماكن الانتظار . أما تلوث الهواء الذى لا مهرب منه بما له من أضرار مباشرة فقد تناوله الكثير من تعليقات الصحافة والقليل من التشريعات . أما الماكينات المولدة للدخان فقد بقيت ظاهرة للعيان وأصبحت معظم المدن تغلفها سحابة سرطانية تشبه عش الغراب . ولما كانت الضوضاء غير مرئية وغير محسوسة وبالتالى لا يمكن تسجيلها فى صور فقد تم تجاهلها بطبيعة الحال . ومع ذلك فإن الأصوات المحيطة لا يمكن الهروب منها سواء داخل المنازل أو خارجها . ولم يعد الأمر يقتصر على المحيط الذى تخلقه وسائل المواصلات وما تسببه من اتساخات الأسطح (والذى يجب أن يضاف إليه آلات جز العشب الموجودة دائما فى الضواحى) . كما أن هناك أيضا الأصوات التي تحطم الأصوات البشرية بدهاء من خلال استيعاب تلك الأصوات ، ونعني بها صوت الهمهمة الصادر من مكيفات الهواء وأنظمة التهوية وأزيز أضواء الفلورسنت . وقد يطلق علي هذه الظروف الادراكية أنها ظروف ضاغطة أو أنها نوع من الضغط البيئي ، وقد يأخذ ذلك أشكالا عديدة . فهناك الضغط المعماري الذي تسببه حشود ناطحات السحاب التي تبعث علي الرعب ، أو الميادين العامة العارية التي تعد في حد ذاتها

تضاد جدليا يثير الاهتمام . أو قد يأتي الضغط بصفة عامة من المحيط المادي غير الرحب ، وهناك ضغط حراري ناتج من صعوبة تكييف مستوي الحرارة في المباني العامة ومكاتب المؤسسات وحجرات الفنادق . ويأخذ الضغط الاجتماعي اشكالا عديدة تتراوح بين الأصوات العالية وأصوات الراديو المجلجلة الي الخوف المستمد من الجريمة . ونحن نعاني في معظم الأحوال من ضغط الأعباء الحسية الزائدة التي لا مهرب منها . وربما تكون الحالة الأكثر في هذا المجال الطرق تحت الأرضية في مدينة نيويورك حيث يوجد أقدم وأكبر نظام تحت الأرض للسكك الحديدية وهي تعد اليوم أكبر سجن جماعي للابتكار الصناعي يوجد في هوة صحيقة تحت الأرض.

(٣)

وهكذا فإن الادراك الحضري قد يأخذ أشكالا عديدة ففي بعض الأحوال يكون محفزا للحياة ، وفي أحوال أخري يصبح عاملا ضاغطا . إنه خليط غني وأحيانا شديد الوفرة من الأفكار الادراكية التي يكون بعضها ايجابيا بالنسبة لنا ويكون بعضها الآخر سلبيا . ومع ذلك ففي أزمنة وأماكن أخري وكانت المدينة بمثابة بيئة متناسقة ، وليس معني ذلك أنها كانت خالية من الصعاب والمخاوف ولكن كانت تبدو في أحسن حالاتها حيث تتداخل القوي التي تتيح فرصا مثمرة للابداع والانجاز . ومن أمثلة هذه المدن : أثينا في عهد بيريكلين ، ولندن في العهد الاليزابيثي (اذا غضضنا الطرف عن انخفاض درجة النظافة) ، و"البندقية" في عصر النهضة ، و"انتويرب" في القرن السادس عشر ، وكيوتو في عصو "الهيان" . وربما يعد عقد صلح كامل بين القوي المتعارضة هدفا يستحيل تحقيقه بالكامل، ومما لا شك فيه أن المدينة لها تاريخها الذي تبدو فيه اسقاطات مثالية منذ أفلاطون وتوماس مور حتي القرن التاسع عشر وجماعات اليوتوبيا في العصر الحاضر . ومع ذلك فقد نما نوع من التشابه بين سمات المدينة وسمات الجماعة منذ الأزمنة الكلاسيكية حتي اليوم عندما كانت المدينة تعمل لا كغابة فوضوية أو ميدان للمعركة تتصارع فيه قوي تعمل وفق قواعد قانونية أو قواعد خارجة علي القانون ، ولكن كبيئة مادية واجتماعية يعمل فيها الأفراد والجماعات في اطار التقاء القوي المختلفة لتحقيق انجاز مشترك ، وربما كانت تلك هي الحالة السائدة قبل محاولة الدولة الحديثة الغوص في الأعماق واستيعاب السمات الاقليمية والتقاليد كما تخرجها في أكثر الجماعات قوة . وقد ظهر ذلك قبل ما حدث من تقديم التكنولوجيا العلمية الحديثة لتلك التغيرات السريعة والهدامة الي نسج الحياة الحضرية التي أخذت مع تطور السمة العالمية تحمل التوحيد القياسي للمنتجات والمؤسسات والناس أنفسهم الي مدي أصبح ينذر بعواقب وخيمة . ويسير ذلك جنبا الي جنب مع الطابع العالمي.

فإذا كان الادراك بمعناه الواسع هو محور التجربة فكيف يمكننا إذن أن نتفهم التجربة البيئية في ضوء ما تعنيه هذه التجربة ؟ وبالتأكيد ليس باعتبارها نوعا من الاستقبال السلبي للمحفز الخارجي . وقد اسلم هذا الميراث من الفلسفة التجريدية القياد خلال قرن ونصف مضيا تحت تأثير التطورات العلمية والفلسفية التي أكدت علي المساهمة النشيطة لتجربتنا التي نقوم بها كمدركين وفاعلين . وتعد الماركسية والبراجماتيه وعلم نفس الجشطالت والفلسفة الوجودية مصادر فكرية اسهمت في تحويل هذا الادراك الذي ما زال غير مكتمل .

وقد ساعدت هذه التطورات علي أن نتعرف لا علي تأثيرها التشكيلي في العملية الادراكية فقط . ولكن أيضا علي صعوبة تعريف حد فاصل بين حضورنا الانساني وبين البيئة وبين انفسنا كأجساد واعية وبين الظروف التي نعمل ونعيش في اطارها . ولقد بدأنا نتحقق من أن البيئة ليست مكانا غريبا يوجد خارجنا ولكنها شئ ملتحم مع اجسادنا وذواتنا . إن وضعنا بالنسبة لبيئتنا يشبه الموجات الصغيرة المتحدة المركز التي تنتج عندما يلقي شئ ما في مياه راكدة ، فالبيئة بالنسبة لنا تحوط بنا من كل جانب كقاعدة تحتل فيها مركز الوسط . وكما تستخدم وسائل البناء الدارجة المواد المحلية والتصميمات الوطنية التي تأخذ علي مدي فترات طويلة أشكالا تتناسق مع المناظر الطبيعية وتنتمي اليها ، نفعل نحن أيضا الشئ نفسه حيث نلتحم مع جوانب المناظر الطبيعية الحضرية ونأخذ منها توزيع الألوان والخطوط الخارجية ونتجاوب مع مجاميعها ونلتحم مع حركتها . وهناك دائما ضغط يدفع نحو التوافق بين الشخص والمكان ولكنه لا يكون دائما ارتباطا سعيدا . والكثيرون منا يشبهون المحبين المخنثين الذين ذكروا في رسائل افلاطون ، فنحن نبحث لا عن اعادة تجميع اوصالنا المقطوعة ولكن معن الأماكن التي ستكملنا في النهاية ، وتجعلنا كلا واحد مرة اخري . وبعض الناس ممن يسعدهم الحظ ليسوا في حاجة للبحث بعيدا ، وهناك غالبية من الناس يجب أن تبحث علي نطاق واسع ، وهناك قليل من الناس يمكنهم أن يشكلوا الأماكن لتتناسب مع انفسهم .

وتحوي هذه الأماكن بالضرورة أناسا آخرين ، فنحن حيوانا ت اجتماعية ، والجماعة التي ينتمي اليها الآخرون تكون امكانية الوصول اليها أكثر كما أنها تكون أكثر في البيئة الحضرية. والمدينة كبيئة تعد أماكنها أكثر قربا لنا من أي أماكن أخري . وتعد البيئة الانسانية الأكثر تفوقا هي تلك البيئة التي تعتبر نتاجا لوسيط بشري، وعلي الرغم من أن المناظر الطبيعية هي

طبيعة بشرية يؤثر عليها عمل الانسان بدءا من الخضرة التي تكسوها والأمطار التي تسقط عليها حتي مناخها وسطح ارضها فإن المناظر الطبيعية الحضرية تعد المناظر الطبيعية الانسانية الأكثر تفوقا . فرغم أن العصا قد تشير الي ملامح رئيسية علي سطح الأرض مثل

التلال العظيمة ومجاري المياه فان المدينة هي ابتكار الانسان . وهناك قدرة عظيمة مقدسة تبدو في الطريقة التي صاغ بها الحيوان البشري الكتل والفضاء الواسع وكيف أثر علي الطقس وعلي شكل الرياح وكيف مارس قوي الفناء علي انواع وأعداد السكان بدءا من الحشرات والطيور وحتي الحيوانات المستأنسة والأليفة بما فيها الانسان . ولكن ما يهمنا هنا هو البيئة الأخلاقية أكثر من البيئة المادية ، ومناخ القيم والأعمال المعيارية التي تعرف المجتمع الانساني، بل نحن نهتم بالبيئة الجمالية أكثر من البيئة الأخلاقية وفي الأحاسيس النوعية التي تنشط وتوجه الادراك . ومهما كانت المدينة فانها ستظل البيئة الجمالية المتميزة .

كيف تظهر هذه البيئة الجمالية نفسها ؟ إنها تظهر نفسها بالتأكيد فيما وراء الملامح المادية والتخطيط . فالمدينة عالم ادراكي ، عالم يتشكل فيه المجال النوعي للادراك الحسي ويتم فيه توجيه التقائنا بهذا المجال . فهذا اقليم يزخر بالناس والأماكن تم ابتكاره بالكامل من خلال العنصر البشري . ويساعد حجم ومكان المباني ونظام وملامح الأماكن الداخلية وعرض واتجاهات الشوارع وأماكن الميادين والحدائق علي خلق القاعدة المادية التي تحدد فرص حركة الناس وظروف تفاعلهم . ولا يمكن أن نعتبر ذلك مجرد تنظيمات مادية ولكنها نوع من الحضور المادي الذي يحسه الجسد والحواس ويشعر به اذا كان مرحبا أو عدائيا منفرا أو ودودا وضاغطا أو باعثا علي الراحة ، كما يشعر بما بين هذه الأحوال المتناقضة من فروق دقيقة . وينطبق نفس الشئ علي الجوانب الادراكية الأخري للحياة الحضرية . فالطرق التي تشكل الضوء والظلال حسب وضع الهياكل والأنسجة والألوان التي تعطيها الأسطح ، وكذلك مواد الطرق والمباني واختيار الرسوم ، كلها جوانب نوعية للبيئة لها مثل أهمية تشكيل البيئة الحضرية . وتلعب الأصوات دورا مشابها فالمدن لها أصواتها المميزة التي لا تكون ظاهرة ولكنها تكون محسوسة وتحدث بمثل التنوع كبقية الملامح النوعية للبيئات والأصوات الصناعية وضوضاء المواصلات والراديو وأجهزة التسجيل والأصوات البشرية وتساهم جميعها في نسيج سمعي ثلاثي الأبعاد يكون ثقيلا ومتسعا يخترق الحوائط الصلبة ويحتوي كل شئ في عالمه .

وهكذا تشكل الجماليات الحضرية العالم الادراكي للمدينة والطرق التي تتم فيها تجربة الحياة في المدينة من خلال نوع من الادراك الحسي من جانب الأشخاص باعتبارهم كائنات

عضوية ادراكية وقادرة علي التفكير . وتنصهر المعاني الثقافية والتاريخية مع المدركات الحسية لتشكيل نوعا من الوسيط السائل الحساسية . وأنا استخدم لفظ "الحساسية" بمعناه المزدوج حيث اشير الي كل من المشاعر والمعاني حيث يرتبط الادراك والدلالات في تكامل تجربتنا.

وفوق ذلك وكما أشرت من قبل فإن البعد الأخلاقي يكمن هنا لأنه بينما يكون الادراك محايدا بطريقة نوعية فإنه لا يكون كذلك من وجهة النظر الاخلاقية ، فالكتلة والمكان موجودان وتقتضي طريقة تنظيمهما وتحليل تشكيلاتهما الموضوعية التي تشبه تلك التي نقرنها بالعلم . ولكن حيثما يوجد الناس تظهر القيم الانسانية وتصبح تلك القيم بالضرورة اهتماما محوريا . وكشرط للادراك والعمل البشري فان البيئة تعكس نوعا من التأثير لا يكون محايدا . والتنوع اللانهائي يكون ممكنا هنا بلا شك ، ولكن يمكننا في الوقت نفسه أن نفرق بين تلك البيئات التي توسع مدارك سكانها وتلك التي تعمل علي انغلاقها واعاقتها وبين تلك التي توسع النشاط الانساني وتلك التي تنتقده وتثبطه . وليس هناك أي غموض حقيقي هنا ولكن نوع من الخلط فقط . وتعني محاولة الغاء العنصر الادراكي البشري في التخطيط باعتباره شخصيا وغير محسوس ومتغيرا جوهر جميع القرارات والافعال وتعني اشباع الحاجات البشرية بما فيها تلك التي تعتبر حاجات بشرية غريزية .

البيئات اذن هي نتاج بشري ، وأكبر دليل علي ذلك البيئة الحضرية ، وتصطبغ البيئة بالقيم الانسانية في ضوء طريقة تشكيلها لظروف المعيشة وتوجيهها لأنماط السلوك ونوعية ومميزات التجارب التي تحتويها.

ومع ذلك فالمدينة الحديثة تعد خليطا كثيفا وغنيا جدا من النشاط الادراكي الذي قد يساعد بعضه علي توجيهنا وفتح السبل أمامنا وقد يهددنا بعضه الآخر ويعمل علي انكارنا . فهل يمكننا أن نعيد امتلاك ناصية الأمور بالنسبة للجماليات الانسانية التي كانت تسود المدينة قبل العصر الصناعي ونعيدها مرة أخري للعالم الحضري في المستقبل ؟ وكيف يمكننا أن نضع الملامح النوعية لبيئة انسانية نموذجية ونوجهها نحو غايات انسانية ؟ .

لقد فشلت كثير من التطورات الحديثة في هذا المجال . فقد نتج عن الاهداف السياسية

والاقتصادية بيئات تجاهلت كثيرا المدركات غير الملموسة ومحور التجربة الانسانية . وقد أدي ذلك الي وجود بيئات مزيفة ، بيئات تخدع العين وتوهمنا بأماكن حقيقية بدلا من الأماكن الأصلية التي تشبع الحاجات البشرية.

ما هي البيئة المزيفة ؟ اننا نعاني في مجتمعاتنا الصناعية التجارية الحديثة من بيئات تحيط بنا ومن سطوح ومضامين تقدم صورا لأشياء ملموسة وهي تفشل بذلك في اطفاء ظمئنا ولهفتنا للوجود في مكان نشعر فيه بالراحة والانتماء . ويبدو هذا الزيف أكثر صخبا في الاسكان المتطور بما في ذلك التطورات التي تتسم بالبذخ حيث تقدم لنا خططا شاملة وواجهات منوعة قياسية مع تصميمات داخلية لا توجد علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا علاقة بينها وبين الموقع والتاريخ وشخصيات الناس الذين يسكنون هذه المنازل. وقد أصبحت هذه هي الصفة العامة لمناطق الضواحي في العالم الصناعي حيث توجد مناطق تتسم بالتنافر مع نظام الأشياء . وربما يكون الشئ الأكثر وضوحا هو أن هذه البيئات التي قد تكون مصدرا للقهر أو أن تكون عقيمة أو تبعث علي التقليل من قيمة الأشياء وتكون دائما بيئات مخادعة وزائفة ، هي ظروف يتحملها الناس دون أي وعي في الغالب بكنه هذه الظروف وبدون علم بانها تتعارض مع انسانيتنا وتخلق نوعا من التعاسة والاحباط العام . فهل يمكن أن نستغرب أن يؤدي مثل هذا الوضع الي سلوك عدواني أو نوع من عدم الانتماء ؟ إن تفهم أهمية هذه الظروف البيئية يساعد علي شرح الأشكال الواضحة للعنف الحضري والأشكال الهادئة لليأس التي تسود مناطق الضواحي .

ومن ناحية أخري فإن فكرة البيئة المزيفة تسمح لنا بأن نتبين الجانب الآخر الذي يبدو فيه ما يجب أن تكون عليه البيئة الانسانية . مثل هذه البيئة التي يمكن أن تحل محل أو تلغي هذه المشاعر وردود الفعل الهدامة وتشجعنا على توجيه طاقاتنا في طرق خلاقة وفعالة ، هذه البيئة يجب أن تقوم علي معرفة أن البيئة لا تقع حولنا ولكنها مستمرة ومتكاملة مع ذواتنا . هذه الفكرة يجب أن تحل محل فكرة البيئة باعتبارها شيئا خارجيا ومتباعدا ، تلك الفكرة التي تعتبر المصدر النظري للبيئة المزيفة

(٤)

كيف يمكننا أن نميز مكانا يتسم بالصدق ونعني نوع البيئة الصادقة حيث لا ينتمي الناس فقط بل يغمرهم شعور بالراحة والترابط العاطفي والفاعلية ؟ أين يمكن أن نجد مثل هذا المكان؟ ربما يكون من الممكن أن نلمح بيئة حقيقية تكون جزءا من المكان الذي نعيش فيه وكذلك الناس الذين يعيشون فيه ، في تلك المدن التي لم تعرف العصر الصناعي والتي استطاعت أن تعيش قرنين من التغير التحويلي دون أن تفقد طابعها الشخصي ، وقد يمكننا أن نحس بعض صفات هذه البيئة في تلك المدن التي كانت قائمة خلال القرن التاسع عشر والتي لم تستسلم بكل ما تحمله من صفات انسانية وجاذبية من أجل مصالح التصنيع . ومرة أخري يمكننا أن نري علامات بيئة صادقة في الأحياء القديمة الموجودة في العواصم الحديثة . ومن الممكن من خلال الاسقاطات الخيالية للمدن المثالية تصوير الملامح غير الموجودة ولكن التي يمكن أن تكون مرغوبة في المستقبل .

ويحاول الناس الآن أن يصلوا الي مثل تلك الأماكن وهم غير متأكدين أين يمكنهم أن يجدوها أو ماذا يمكن أن يبحثوا عنه ويقر الاهتمام السائد للحفاظ علي المباني والأحياء التاريخية وترميمها القيم البيئية التي تمثلها الأماكن التي تنتمي للماضي بالنسبة لنا ، وبينما قد يضفي ذلك لمسة رومانسية علي الماضي فإن الوضع هنا يتجاوز أكثر من مجرد الحنين الي الماضي . إن هناك اعترافا بأن التاريخ الاجتماعي يرتبط بأماكن خاصة وأن الاماكن لا تنفصل عن الناس والأحداث . وقيمة ذلك تبدو بصفة خاصة مع استمرار الصفات الانسانية في التواري بعيدا ، ولأن معظم المباني الحديثة مستمرة في الاتجاه السائد نحو مزج العنصر الأثري مع النمطية والعمومية التي لا يمكن أن تكون سببا في المظهر البراق للأساليب الفنية العالية . هذا هو الوضع السائد بدءا من أوربا الشرقية وحتي العالم الغربي . وتعد محاولة العمارة الحديثة اعادة ابراز الصفات الشخصية للأماكن القدية جهدا موجها لتحقيق هذه الغاية من خلال ربط العديد من التفاصيل مع التضمين التاريخي غير المباشر. ويقدم هذا التوفيق بين القيم المتعارضة نوعا من الملصقات التي تضم ملامح مميزة من التاريخ المعماري

وليس من المكان الذي يعطي لنفسه خاصيته الصادقة .

ومع ذلك فإن التمسك بالماضي مهما كان الشكل الذي يأخذه يعد في النهاية تمسكا لا طائل من ورائه بظروف اجتماعية لم تعد تنتمي اليها . إننا في حاجة الي أن نشعر بتاريخنا باحساسنا بهذا التاريخ من حولنا ، ولكننا لا نستطيع أن نبقي علي أحياء أو مدن علي حالها دون تغير من غير تحويلها الي متاحف لا حياة فيها من خلال نوع من التحنيط المعماري كما هو الحال في مدينة روتيبنرج أوب ديرتوبر" ومدينة "وليام سبرج" ومدينة "فيرجينيا" وغيرها من المدن المشابهة . كما اننا لا نستطيع أيضا أن نقوم بتصنيع مكان لسكني البشر من خلال مجرد تقليد الأساليب القديمة. مثل هذه الجهود ما هي الا محاولة للتمسك بقيم هامة ، الا اننا نواجه بصعوبات جسام عند ترجمة هذه القيم الي أشكال يمكن أن تعمل في مجتمعات التكدس السكاني التي ظهرت في مرحلة ما بعد التصنيع . هل هناك اذن من وسيلة لكي نستعيد ونحفظ الفردية والنسب النوعية والجماليات الانسانية في المدينة القديمة ؟

إننا نقول ببساطة أن مجرد الاحتفاظ بالسمات الخارجية ليس هو الحل . واذا أخذنا الميدان كمثال نجد أن الساحات قد اختفت من مناطق المدينة الواسعة وأصبح الميدان الحضري مكانا لوقوف العربات كما هو الحال في الميدان الكبير في بروكسل الذي أصبح دائرة للمرور أو ميدان الكونكورد في باريس الذي صار مركزا للتعامل في العقاقير وكذلك حديقة ميدان واشنجتن في نيويورك . ومع ذلك فإن الميدان التقليدي لم يكن دائما مكانا لممارسة النشاط البشري الا بطريقة هامشية . فكانت المقاعد الخشبية الطويلة موجودة علي حدود وحواف الفراغات لكي يجلس عليها الناس . وكانت هذه المقاعد مصممة كأشكال بصرية يمكن تقويمها من علي مسافات أو كأشكال لها جاذبية من حيث النظام الهندسي . ولقد كان الاستثناء العظيم يتمثل في أشهر وانجح الميادين علي الاطلاق ونعني به ميدان سان ماركو في فينسيا الذي ظل قرونا عديدة مكانا نموذجيا للحياة الاجتماعية ، وكانت الميادين القديمة والجديدة علي السواء تتنافس معه .

وتعد النافورة أحد الأمثلة التقليدية القوية للتصميم الحضري وقد ظلت محتفظة بأهميتها الانسانية . وقد ظلت النافورة باعتبارها أقدم المراكز الاجتماعية محتفظة بقوة جذبها حيث تسحب الناس من حلقات المرور ليقفوا عند حوافها أو في داخلها . ولقد ظلت النافورة تمثل قوة سحرية بالنسبة لنا منذ كانت تتمثل في البداية في بئر القرية الي عيون ومساقط المياه في

قلب المراكز الثقافية الحديثة.

أما الأصوات الحضرية فهي كما أشرنا غير ظاهرة ولكنها منتشرة مثلها مثل اي سمة أخري من سمات المدينة . فمنذ البدايات الأولي للمجتمع البشري ظهر تاريخ الأصوات الاجتماعية لجذب انتباه طلبة العلم فقط [٢] . ومن الممكن أن تستخدم الأصوات الحضرية لتشير الي تغيرات واحتياجات التصميم الحضري الانساني بطريقة أفضل من استخدام أي سمات بيئية أخري .

وتبدو الأصوات الطبيعية أقل وضوحا في المدينة . لقد كانت هذه الأصوات موجودة قبل أن يقطن الناس في أي مكان خاص ، كما أنها صاحبتهم في سكناهم لتلك الاماكن ونعني بتلك الأصوات اندفاع الرياح وصوت سقوط المطر وصياح الطيور وربما صوت المياه الجارية. ومع أن هذه الأصوات تنتمي الي الطبيعة فقد تأثرت بهيكل المدينة . فالمدن تخلق الرياح ، ويمكننا أن نسمع صوت مرور الرياح بين الأشجار وحول أركان المباني وأثناء هبوطها في الشوارع التي تشبه الأخاديد والتي تحيط بناطحات السحاب . وتؤثر الأشجار والحدائق والشوارع والميادين جميعها علي ظهور الطيور كما أنها تشجع وجود البعض وتعمل علي اختفاء البعض الآخر . وتعد العصافير الانجليزية وطائر الزرزور والحمام من أكثر الطيور التي استطاعت أن تتغلب علي الظروف وتعيش في الولايات المتحدة أوالمطر مجموعة من النغمات التي تجعل هياكل المدينة بمثابة ألواح تصدر عنها أصوات أو عزف يصدر عنها رجع الصدي نتيجة لعزف الأمطار عليها ، ونعني بهذه الهياكل أسقف السيارات والشبابيك وأسقف المنازل .وحتي حفر الطريق تصدر عنه أغنياته المميزة ، وقد تتدفق مجاري المياه والأنهار عبر المدينة ولكن الأولي تتفرع من مصادر تحت الأرض في حين أن الأخيرة لا يصدر عنها عادة غير أصوات قليلة ، غير أن شوارع المدينة تخلق لنفسها البرك والمستنقعات الخاصة بها والناتجة عن الأمطار الشديدة التي تصدر عنها أصوات تصاحبنا أثناء سيرنا أو أثناء قيادة السيارة . وعلي الرغم من أننا لا نقرن الأصوات الطبيعية مع المدن في العادة فإن هذه الأصوات تكون حاضرة ولها أهميتها .

---

(٢) CF. R. Murray Schafer, The tuning of the world, New York, Knopf, 1977.

وتبدوا الأصوات العضوية أكثر وضوحا : مثل صياح الباعة في الشوارع وأصوات المحادثات بين الناس وصوت لعب الأطفال ونداءات الآباء وهمهمات أو صخب التجمعات وأصوات الحيوانات مثل نباح الكلاب ومواء القطط وصهيل الخيل . هذه أصوات مباشرة صادرة عن الحياة نفسها . ومهما كان المعني الذي تنقله فهي تقدم الدليل علي أن الأحياء لهم حضور نشيط.

ومع ذلك فمثل هذه الأصوات المباشرة الصادرة من الحياة تتغلب عليها في معظم الأحيان أصوات الماكينات . فالشاحنات وحافلات الركاب والقطارات والدراجات والطائرات وآلات البناء تملأ الهواء بالضوضاء وأبخرة العادم التي لا يمكن الهروب منها والتي تفرض وجودها وتلوث المكان . وهناك الاجراس والصفارات وصوت الأبواق والعجلات والاطارات عند الارتطام بالرصيف . كل هذا يساهم في خلق مجموعة من الأصوات النشاز المغلفة بالقطران في الأماكن الفضاء التي تحيط بالصوت البشري وتهزمه .

وأخيرا فإن هناك الأصوات الجديدة التي تنتمي لعصر الالكترونيات مثل الأبواق والميكروفونات ونظم التحدث الي الجماهير والراديو واجهزة التسجيل وأجهزة التليفزيون. هذه الأصوات يتزايد حضورها . هذه الأصوات تعطي انطباعا مزيفا بأنها أصوات أشخاص أكثر منها أصوات ماكينات أو أصوات غير شخصية . هل ستشكل هذه الأصوات المحيط السمعي لمدينة المستقبل ، وهل ستكون هذه الأصوات مستمرة وضاغطة بحيث تعطينا الوجود البشري الذي لا يخفي وراءه شيئا غير أجزاء وأسلاك الآليات الالكترونية ؟ .

كيف يمكننا أن نعيد الحضور الانساني في الصوت ؟ هل يمكننا أن نخلق مناخا سمعيا يستطيع فيه الصوت أن يعيد تأكيد سيادته بحيث يصبح ما نسمعه هو الأصوات المباشرة للناس لا للماكينات أو نظم التحدث ؟ ويصبح البعد السمعي للبيئة الادراكية قادرا علي الاختراق كما هو قادر علي الانتشار . واذا ماستطعنا أن نضمن اجسادنا فيما نفهمه من خلال البيئة فإنه يتحتم علينا أن نتعرف علي أن الصوت ليس له حضور عضوي أكثر من الفضاء أو الكتلة وأن توجيه أشكاله ونسبه يعد بالمثل جزءا من تصميم البيئة .

تشير هذه المناقشة الي بعض السمات الجوهرية للجماليات الحضرية . فالميادين والنافورات والأصوات ما هي الا جوانب للبيئة الحضرية التي يقدم تاريخها الطويل وأهميتها

المتواصلة مفاتيح الجماليات المعاصرة للمدينة . وتعد الأماكن الفضاء التي تحتاج الي الوجود البشري لاستكمال مقومات وجودها وأماكن التجمعات الاجتماعية وأصوات أنشطة الناس من بين مكوناتها الجوهرية . ولما كانت الأصوات غير مرتبطة بمكان واحد ولكنها تنتشر بعيدا في جميع الاتجاهات فإن تجربة المدينة لا تعد مقابلا لشئ منعزل ومنفصل يمكن أن نعيش بمعزل عنه ، ولكنها مفهوم ادراكي وعالم حسي ملئ بالمعاني والارتباطات التى ندخل فيها ونشارك فيها . وربما يمكننا أن نفكر في المدينة باعتبارها وسيطا دائما الكثافة المتغيرة لا يمثل فيه الناس غير مكون واحد بين مكونات عديدة . وتمثل الأبنية والشوارع والميادين والحدائق والعربات والأصوات ودرجة الحرارة والروائح والرطوبة والرياح واللون جزءا من كتالوج طويل لأشياء ادراكية وصفات مرتبطة مع الحضور الانساني النشيط الذي يشكل البيئة الحية التي نطلق عليها اسم المدينة . وفي ظل هذا المفهوم قد تصبح المدينة مثالا لكل الفنون . وتصبح جماليات المدينة بطريقة صارخة ومؤكدة خلافا لأي حالة أخرى هي جماليات الانشغال فهي حالة من النشاط الادراكى والتجاوب الذي يستوعب حساسيات الشخص بحيث يصبح هناك استمرارية لا انفصال واندماج لا عزلة أو تباعد . ويصبح كل شئ مكملا للآخر . وتصبح المدينة مكملة لسكانها ويصبح السكان مكملين للمدينة [٣]

ليس هذا من ضرب المديح للمدينة . فالتماذج الشكلي بين الشخص والمكان الذي يعد مركزيا بالنسبة للعملية الحضرية يعتبر عملية كثيفة ومعقدة تقارن في الغالب مع مسرحية تؤدى على المسرح العالمي [٤] . وربما يكون تتابع الأحداث اللانهائي الذي يشكل هذا المسرح الحضري يتسم بالطابع التراجيدى أكثر منه بالطابع الفكاهي . ومع ذلك فإن هذا المسرح لا يشبه المسرح التقليدي من حيث أنه مسرح بلا نظارة ولكنه مسرح يعمل فيه مشاركون في العمل .

---

(٣) مقالتي " المشاركة الحمالية والبيئة الحضرية" في المصادر الحضرية .

١ ، ٤ (صيف عام ١٩٨٤) ٣٧ - ٤٢

(٤) اعطي J. B. Jackson تقريرا وافيا عن استخدام المسرح واستعارات الدراما لوصف البيئة المحيطة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر "البيئة المحيطة باعتبارها مسرحا" البيئة المحيطة ٢٣ رقم (١) (١٩٧٩) ٣-٧

كذلك يختلف المسرح الحضري عن المسرح التقليدي في أن مكان الأحداث غير محدد كما أن المكان والزمان غير منظمين . وعندما نتعرف علي تلك الخصائص يكون من الممكن أن نتفهم الطابع الجمالي للحياة الحضرية وكيف تتطلب هذه الحياة جهد الفنان والفيلسوف ، الأول ليقودنا في الظروف التي تسير التجربة في ظلها ، والثاني لكي يساعدنا في توجيه تلك الظروف نحو الهدف أو الانجاز البشري .

ويعد التعرف علي الأهمية البشرية من الأهمية بمكان هنا ، ولكن تطوير البيئة الحضرية ليس سهلا أو بسيطا . فنحن لا يمكن أن نوافق علي العقلية الهندسية التي تنظر الي كل المشاكل باعتبارها مشكلات فنية لها اجابات تكنولوجية . ففي أعماق المشكلات تكمن صعوبات بشرية . وهذه تتطلب حلولا تأخذ في اعتبارها تأثيرها علي نوعية التجربة الانسانية . وفوق ذلك فإن الصفات الجمالية للمدينة يجب أن لا يتم التفكير فيها باعتبارها سمات تجميلية مفروضة من الخارج علي هيكل حضري مشكل بالفعل أو سطح لامع يضاف الي شئ مكتمل من الناحية العملية . كذلك لا يمكن أن نأخذ الجماليـــات الحضرية فقط باعتبارها مــــكونا منفصلا عن خطة شاملة ودون النظر لا الي الظروف الخاصة للاستيطان أو الجغرافيا أو الثقافة أو التاريخ أو خصائص المناخ السياسي والاجتماعي أو نزوات الناس المعنيين .

ولعل الاستعارة الزراعية التي استخدمتها في عنوان هذه المقالة قد استخدمت عن عمد . فهي توحي بالحاجة الي غرس البيئة الحضرية بما فيها البعد الجمالي الذي يعد جزءا من كل مكان بحيث تقدم الظروف التي يمكن أن يتطور الناس في ظلها ويزدهروا . وتتطلب البيئات الانسانية وقتا لكي تنمو ، وقد تظهر من بين الاحتياجات والظروف والتقاليد المحلية . ولعل ما كان ينظر اليه باعتباره نموا حضريا تلقائيا ذا نسب ومجال يتمشي مع الحجم البشري والنشاط البشري الذي يكمله يتحتم علينا الآن أن نختاره بعناية وننجزه بسرعة . ولكن نفس المبادئ العضوية تكون منطبقة . ويحتاج التخطيط في ظل تلك الظروف الي بستاني يكون ذا موهبة وعلي درجة من الحساسية ويستطيع أن يتفهم أن أحداث توازن المتناقضات بين مكونات بيئة ما يجب رعايته وتغذيته بجعله متجاوبا مع الصفات المميزة لكل هذه المتناقضات ومع التداخل الحادث فيما بينها ومع العشوائية الكامنة في عملية معقدة ومؤقتة . هذا هو التبادل الجوهري بين الناس والمكان، وتوجد جماليات البيئة في الارتباط الادراكي بينهم . ولعل القدرة علي غرس الجانب الوظيفي والجانب الجمالي باعتبارهما جانبين غير منفصلين لنفس

النمو الحضري هو الذي يجعل التخطيط فنا ويجعل المخطط فنانا . فهل هناك عمل أكثر من هذا عمقا أو مجالا أكثر أهمية [٥].

أرنولد بيرلينت

(جامعة لونج أيلانـــد)

---

(٥) هناك مقالة سابقة تتحدث عن جوانب مختلفة للجماليات الحضرية

انظر أرنولد بيرلينت

Urban " Aethetic Paradigms for an ecology", Diogenes, 103 (Fall (1978) 1-28 .

الأغنام الصغيرة والبحر

الملاحة المبكرة في البحر الأبيض المتوسط

جبرائيل كامبس

حينما نذكر الأغنام والبحر تبدو لنا الصلة بسيطة للغاية بين الأغنام كنوع وبين عالم بحر تيش . وربما نجد لذلك مبررا إذا تذكرنا عنوانا من عناوين قصص هيمنجواي مثل "أغنام بانورج" التي اندفعت بغريزتها الي القاء نفسها في البحر وراء قائدها . ولربما اتجهنا أيضا الي تبرير تلك الصلة عن طريق ما تؤدي اليه الرياح من حدوث تموجات خفيفة علي سطح البحر الأبيض المتوسط تشبه تجاعيد الصوف علي أجسام الأغنام .. ولكن ما فائدة كل هذه التصورات ؟. الأفضل من ذلك هو أن أصرح بالاشارة الي واقعية العنوان ، ذلك أنني أقصد بالفعل مناقشة موضوع الأغنام ، والصغيرة منها خاصة ، في علاقتها برحلات البحر ، أو باختصار سوف أحاول التوصل الي أن استئناس الأغنام انما يرتبط ارتباطا وثيقا بالملاحة المبكرة في البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في حوضه الغربي .

لم يمض زمن طويل علي بدء علماء ما قبل التاريخ ، الذين اعتبروا أنفسهم بسطاء وغير معقدين القيام بأعمال الدراسة والتنقيب لحل تلك المشكلة بطريقة وضعية مؤكدة . كان من أول نتائج ذلك الكفاح الطويل الذي استمر خلال القرن التاسع عشر قبول فكرة وجود انسان قديم وتطوره ، فأقاموا بذلك العديد من الافتراضات القاطعة التي اعتمدت علي البيانات التي كان

المترجم : محمد جلال عباس

يعتقد انها علمية . ولكنها كانت في حقيقة أمرها تتصف بالمنطقية وسوف نلاحظ أن أحد تلك الافتراضات قد ربط بين العصر الحجري الحديث وأصل استئناس الحيوان ، وافتراض آخر بأن استقرار الانسان والزراعة وظهور الفخار ، كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعصر الحجري الحديث ، حيث ان ذلك العصر كان بمثابة العصر الذهبي الذي شهد تغيرا في أحوال الانسان . فالانسان ، ذلك الكائن الذي يستنفذ ويستهلك من الطبيعة ، والذي كان مجرد صياد وجامع للثمار وهدام للطبيعة ، أصبح راعيا وزارعا ومنتجا . ومما يستحق الذكر هنا أن الفلسفة الماركسية طالما أكدت علي ثورة العصر الحجري الحديث وأعلنت أنها هي أولي الثورات التي سيتتابع حدوث أمثالها في المستقبل .

ومن الخطأ أن نعتقد أن ذلك التحول كانت له جوانب اقتصادية فحسب . بدت واضحة في تحسن الأحوال المعيشية . والحصول علي غذاء أفضل وحدوث نمو سكاني ، بل أن المجتمع والعقل وحياة الروح قد تغيرت جميعها بسرعة ساتلة وبصورة جذرية تماما مثلما حدث في الجوانب الاقتصادية ، فنحن الآن ننتمي الي حد ما للعصر الحجري الحديث . وكانت أعقاب العصر الحجري القديم أو فترة العصر الحجري الوسيط في المرحلة التي امتدت فشغلت الفترة من الألف الثامنة الي الألف السادسة قبل الميلاد وحقق الانسان خلالها أعظم التغيرات الجذرية التي أنجزها في تاريخه ، غير ان تلك التغيرات بدلا من أن تكون تغيرات طبيعية كسابقتها كانت في هذه الفترة تغيرات في مجال اسلوب الحياة وحياة المجتمع .

ومن بين الافتراضات النظرية التي تبدو سليمة من الناحية المنطقية ومقبولة بصفة عامة . ما يؤكد اصول وشكل الثورة . أو التغيرات الجذرية فمن الصفات البارزة المميزة للعصر الحجري الحديث أن التحول الاقتصادي قد جاء نتيجة طبيعية لتفاقم طريقة الحياة الاستنزافية . اذ أن ظهور الزراعة وتطورها أجبر الانسان علي البقاء بجوار الحقول كي يقوم باعداد التربة للزراعة ثم يقوم بعملية بذر الحبوب ثم مراقبة نمو النبات واخيرا جني المحصول . وكان من نتائج انتاج كميات وفيرة من الطعام عدم الحاجة للتنقل للحصول علي الطعام النادر كما كان عليه الوضع فيما سبق وكذلك أصبحت القطعان التي أخضعها الانسان لسيطرة الجماعة توفر اللحوم والبقول اللازمة لسد حاجة الانسان حتي قبل أن يتطور الأمر ويستخدم الانسان الصوف ومنتجات الألبان . ونظرا لأن الانسان لم يعد بحاجة الي كثير من التنقل والتجوال ليبقي بجانب الحقول فقد أخذ ينظم بيئته بطريقة أكثر استقرارا ودواما ، فبدلا من اللجوء الي مأوي يتغير كل يوم أو اقامة أكواخ تتغير أو يتنقل بها مع فصول السنة

كما كان يفعل أسلافه في العصر الحجري القديم ، أخذ يصمم مأوي دائم ذا حجم مناسب وأكثر احتمالا لظروف الأجواء الطبيعية ، وهكذا أحلت المنازل محل الأكواخ .

ولأن المنتج من الحبوب يحتاج الي حماية فان ذلك المنزل لم يعد مجرد مكان يأوي اليه بل أصبح يضم ضمن بنائه العناصر المادية اللازمة لتنظيم ذي أساس اجتماعي اسري يكون لكل فرد بداخله مكان خاص ودور يؤديه . ويرجع الفضل في حدوث النمو السكاني كذلك الي التحسينات والتعديلات التي أدخلت علي اسلوب الحياة . فلم تعد هناك جماعات صغيرة من الصيادين تتجول بحثا عن الصيد في أماكن شاسعة حول الأماكن التي يأوون اليها بل أصبحت التجمعات كبيرة تضم الكثير من الأفراد الذين استقروا في مناطق محددة ، وأصبح من النادر أن نجد في مخلفات العصر الحجري الحديث منزلا منعزلا ، بل وجدنا القري التي يبدو أن انشاءها كان نتيجة مباشرة للتنظيم الاقتصادي الجديد .

وقد تواصل وضع التطورات التي صحبت واعقبت ذلك التغير المحسوس في قائمة تنبني علي المفهوم القديم الذي يرجع كل التطورات الي اصول اقتصادية . فبناء علي هذا المفهوم الماركسي تعتبر كل التطورات الثقافية نتيجة للتغيرات التي حدثت في المجال الاقتصادي ، علي أن هناك فكرة أخري يتمسك بها غوردون تشايلد مؤداها أن ذلك النظام الاقتصادي الجديد قد تم ابتكاره أو بالأحري فرضه علي الانسان نتيجة للضغوط الطبيعية التي وقعت في مكان ما بالشرق ، وأن النظام انتشر من ذلك المكان الشرقي الي سائر الجهات التي يسكنها الانسان في العالم .

لم يعد هذا المفهوم القديم منطبقا اليوم نتيجة لظهور مدرسة جديدة حررت نفسها من التفكير التقليدي وأصبحت تفكر في ضوء النتائج المنظورة الملموسة التي توصلت اليها البحوث الأثرية في الشرق خلال العشرين سنة الأخيرة . فقد قامت حفريات عديدة مثل حفريات بيرو J. Perrot في عين الملاحة ، وحفريات كوفين J. Cauvin في تل المريبط ، وحفريات كونتنسون J. Contenson في تل اسوارد وتل رماد. قدمت لنا كل تلك الحفريات وغيرها اثباتات مؤكدة ومقبولة علي أن الانسان أنشأ قري ليعيش فيها معيشة دائمة قبل أن يعدل من استراتيجية غذائه بالتحول الي فلاحة الأرض ورعي الحيوانات . ونتيجة لهذه المعلومات تغيرت الصيغة التقليدية القديمة الي العكس وأصبحت الصيغة الجديدة هي أن تحول الانسان للزراعة كان نتيجة لاستقراره المكاني ، وعلي هذا الأساس يصبح التغير الاقتصادي نتيجة للتغير

الثقافي . هذا ولم يكن الجفاف هو السبب الذي أدي الي تسهيل استئناس الحيوانات كما يتصور غوردون تشايلد ، ولم تكن فلاحة الأرض هي السبب في استقرار الانسان في مكان واحد ، بل أصبح العكس هو الصحيح ، ففي ضوء المعطيات الجديدة كان الاستقرار الذي هو ظاهرة ثقافية اجتماعية هو الذي أدي الي التقليل من تحرك الانسان من مكان الي مكان ، فشجعه ذلك بالتالي علي السيطرة علي الحيوانات والاحتفاظ بجواره بأنواع الحيوانات التي استأنسها فيما بعد وعلي البحث عن أنواع النباتات التي اختار من بينها الحبوب ذات القيمة الغذائية (١) .

أصبحت الفكرة القائلة بأن الشرق له قصب السبق كأصل مؤكد لكل ما حدث من تقدم اقتصادي ثقافي موضع التساؤل والجدل . ذلك أن الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن أشغال السيراميك ، التي تعتبر أحد المعايير التي يقاس بها العصر الحجري الحديث، نشأت أصلا في سوريا في الفترة ما بين الألف السادسة قبل الميلاد ، وأن فترة من الزمن قد انقضت قبل أن تنتشر تلك التقنية في انحاء الشرق الأوسط وأقطار البحر المتوسط ابتداء من عام ٦٠٠٠ قدم . فلم يعد يشارالي هذا الافتراض علي أنه من الاثباتات الهامة علي صحة المصدر الشرقي للسيراميك ، فقد أصبحنا اليوم نعلم تماما أن السيراميك ابتكر في فترات مختلفة في أماكن متعددة منعزلة (مثل أمريكا الوسطي) أو متباعدة (مثل اليابان ، والشرق الأدني ، والصحراء الكبري) ، وبذلك اصبح من الصعب الاعتقاد بأن هذه التقنية التي ظهرت أول ما ظهرت في الشرق الأدني قد انتقلت منه بصورتها الي كل تلك المناطق . وعلي حد معارفنا الحاضرة لم يعثر علي أقدم اشكال الفخار لا في سوريا ولا في الأناضول بل في جنوب

---

(١) هذه الافكار وردت في كتاب كوفين بعنوان القري الأولي في سوريا وفلسطين في الفترة من الألف التاسعة الي الألف الثامنة قبل الميلاد .

J. Cauvin, les premiers villages de Syrie - Palestine du IX au VIII millerаire avant J.C., Maison de l'Orient mediterraneen, Lyon 1978

الصحراء الكبري (في تجلجال بهضبة آير التي يرجع تاريخها الي ٤٧٠٠ قدم بمقياس التاريخ المبني علي دراسة اشعاع النظير الكربون١٤)[٢]

لماذا لا ينطبق ذلك علي التقنيات الأخري للعصر الحجري الحديث ؟ ألم يبتكر الهنود الأمريكيون خلال ما قبل العصر الكولمبي زراعة الذرة والفول والطماطم ، وغيرها من المنتجات الزراعية دون أن يستعيروها أو ينقلوها من الشرق الأدني ؟ وفضلا عن ذلك فإن الهنود الأمريكيون قد استأنسوا ايضا حيوان اللاما.

ولنعد الي الأغنام ، فمن المهم بادئ ذي بدء أن نتذكر أن العلاقة قد قامت بين الانسان والحيوان منذ العصو الحجري الوسيط ووصلت قرب نهاية ذلك العصر الي درجة من التعقيد جعلت خبراء علم الحيوان يواجهون صعوبة كبيرة في التمييز بين ما كان مستأنسا منها وما كان بريا . وهناك ظاهرة أكثر اثارة للدهشة هي العكس . فلم يؤد استئناس المواليد من صغار تلك الحيوانات الي تعديل كاف أو اعادة تشكيل للحيوان ، فكلما اقتربنا من فترة بداية الاستئناس زادت صعوبة التمييز بين الحيوان المستأنس والحيوان البري الذي أخذ منه الحيوان المستأنس . وهي حقيقة يجب ألا نغفلها .

---

(٢) اصطلاح التاريخ الكربوني ١٤ (C. 14 Chronotogy) يعني التاريخ الذي يتم تحديده بقياس الاشعاع الكربوني للنظير ١٤ الذي تحتويه العينات ، وتحدد المعامل والمختبرات هذا التاريخ بالنسبة لما قبل الحاضر (ق ح) وهو في الواقع ما قبل عام ١٩٥٠ . والواقع أن هذه التواريخ ليست مضبوطة تماما ، ولكي تحصل علي التواريخ وفقا للتقويم فلا بد من تصحيحها أو كما يذكر المختصون عمل المعايرة (Calilrate) وذلك بان تدخل في الاعتبار تحديد التاريخ بواسطة عمر الأشجار dendrochronology . ولتجنب أي أخطاء في التفسير استخدمنا في هذه الدراسة الاشارة الي كل من التقويم الزمني قبل الميلاد (ق م) وقبل الحاضر (ق ح) باعتبار أن ايا منهما لا يرتبط بالتواريخ المطلقة للفترة التي تهمنا هنا والتي هي قبل ذلك بكثير . وبناء علي ذلك فان اي عينه يكون تاريخها الكربوني ٦٢٠٠ + ١٦٠ ق ح او ٤٢٥٠ ق م تقابل في التقويم النتائج الزمنية ما بين عام ٥٣٦٠ ، ٤٩٢٥ ق م . ولما كانت المعايرة بالعمر الشجري لا يمكن أن تتجاوز عام ٧٢٤٠ قبل أي قبل الحاضر فمن المفضل الاستمرار في استخدام التاريخ التقليدي بالزمن الكربوني (ك ١٤) كي نتجنب أي نوع من الخلط .

حاول البعض التغلب علي هذه الصعوبة باستخدام الاحصاءات ، فنظرا لسهولة تحديد عمر الهيكل العظمي عن طريق فحص الأسنان أو تقدير درجة صلابة الغضاريف أصبح من الممكن عمل منحني يبين أعمار الحيوانات المذبوحة التي عثر علي بقاياها في مختلف طبقات الحفائر ومقارنة ذلك بمنحني أعمار حيوانات الصيد . فإذا ما ظهر أن نسبة الحيوانات الصغيرة غير المكتملة النمو أكبر فإن ذلك يدل علي وجود الستئناس . واعتمد التأكيد من وجود الاستئناس في منطقة زواي شامي شانيدر في جبال زاجروس خلال الألف العاشرة قبل الميلاد علي هذه النظرية. بيد أن هذا الدليل أصبح اليوم موضع تساؤل ، فليس من شك في أن مسألة أصول الاغنام المستأنسة أصبحت مسألة مطروحة ومتكررة في الكثير من البحوث . ومن الواضح انها مسألة تلقي اهتماما عظيما لأنها تمس العناصر البنائية للعصر الحجري الحديث ، غير أنه من الضروري تناولها دون اخفاء أي بيانات ومع التجرد من أي تعصبات أو أفكار مسبقة ، كما أنه من الضروري تحديد التساؤل حولها في اطار الزمان والمكان معا.

ومع اختيار الأقطار المحيطة بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط يمكننا أن نحدد عناصر البحث ت بسيت تلورمون تساؤلات ثلاثة رئيسية هي :

– هل يوجد في غرب البحر المتوسط، أو بمعني آخر في جنوب غرب أوربا والجزر وشمال افريقيا ، أي أنواع من الأغنام الأصلية قد تكون مصدرا للمستأنسة ؟ .

– هل هناك امكانية لافتراض وجود رعي أغنام قبل الألف السابعة قبل الميلاد وهي الفترة التي بدأ فيها تنظيم التبادل واحتمالات قيامه في كل انحاء المناطق المحيطة بالبحر ؟ .

– ما هو شكل الاغنام التي تواجدت خلال العصر الحجري الحديث ؟

أقدم الأغنام في الغرب :

عبر الكثير من الكتاب في فترات مختلفة عن رأي يقول بأن الأغنام الأوربية المستأنسة قد يكون لها أصل محلي[٣] ، ويستند هذا الرأي علي وجود نوع بري من الأغنام هو أكثر الأنواع ملائمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط علي وجه الخصوص . حقا إن بعض بقايا الأغنام البرية اكتشفت في بعض مواقع العصر الحجري القديم ، ولكن رغم وجود مثل هذه المواقع فان عددها والبقايا العظيمة فيها بصفة عامة نادرة بدرجة لا تسمح بالتمييز الدقيق . وربما وجدنا من هذه المواقع التي ترجع الي العصر الحجري القديم نحو عشرة مواقع الا أن أربعة منها تنتمي الي العصر الجليدي الأول (ريس Riss) وهي الموجودة في كل من كوان دي لارجو ، ولونيل فيبي ، ولازرايت ، وكهف الأوبزرفاتوار ، وهناك موقع آخر يرجع الي الفترة بين الجليدية المسماة فورم ١ في بيش دي لازي ، واثنان يرجعان الي الفترة بين الجليدية فورم ٣

---

(٣) انظر المراجع التالية :

– م بارلي ول . دي فيتانوف : كهف الملاحظة في موناكو

- M. Boule and L. de Villeneuve, La Crotte de l'Observation a Monaco-Archives de L'Institute de Paleontotogie Humaine, I, Paris Masson, 1927

– ب دوكوس : طبقات عصر المعادن في شاتونيف لي ماريتجوي : الثدييات ومسألة الاستئناس في فرنسا

P. Ducos, "Le Gisement de Chateauneuf Les Marligires. Les memmiferes et les d'anthropologies prehis-problems de la domestication en France. "Bulletin de Museetoire francais. t. II, 1985 P. 119-133 .

– نفس الكاتب: بعض الوثائق الخاصة ببداية الاستئناس في فرنسا

- Id. "Quelques documents sur les debuts de la domestication en France "La Prehistoire Francais, to II, 1976, P 165-171

– ج . موراي : بداية الزراعة الأوربية : دراسة في الدلائل التاريخية والنباتية حتي الألف الثانية قبل الميلاد

- J. Murray, The First European Agricolture, A study of the Astrotogical and Botanical Evidence until two thousand B.C. Edinburgh University Press, 1970.

– ج . كورتين : الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديث في بروفانس

- J. Courtin, "Les animeaux domestiques du Neolitique provencal"., L'elevage en Mediterranee occidentale, Aix-en-Province, CNRS, 1977, P. 67-

في مغارة ليستالو ومغارة مونتارديت ، وثلاثة ترجع الي العصر الجليدي الأخير في بلام دي جلوس . وأيري ياجس أو محمية باجس وفالورجيوس . وفي معظم هذه الحالات أمكن تمييز نوعية الحيوانات فقط ، ولكن وجود أغنام برية خلال العصر الحجري القديم أمر محتمل ولكنه غير مؤكد ، كما أن الأماكن التي حددها بوبلين يشك في وجود الأغنام البرية فيها[٤] ، ولا بد أن نضيف أنه لا توجد وصفات تسمح لنا بتحديد علاقة مؤكدة بين تلك الأغنام البرية والنوع المستأنس المعروف بأغنام آريس (Ovis Aries). ولنا أيضا تحفظات علي النتائج التي توصل اليها باولي والذي يقول :

" إن الأغنام المستأنسة مولدة من اصول متعددة ، وأن الفصائل المتعددة ربما تكونت محليا في البلاد التي كانت الأصول البرية تعيش فيها [٥] " . وبناء علي هذه الطريقة من التبرير قد تتأكد لدينا فكرة الأصول المحلية للخيول المستأنسة في مناطقنا نظرا لأن الحصان البري كان منتشر الوجود خلال حقبة البليستوسين العليا أو ربما وجد منذ بداية حقبة الهولوسين .

ومن بين أنواع الأغنام التي يحتمل وجودها خلال العصر الحجري القديم لم يتبق الا فصيلة الموفلون المعروفة باسم أغنام موسيمون (Ovis Musimon) من جزيرتي كورسيكا وسردينيا . أما الحيوانات الأخري التي تسمي خطأ بالموفلون ذات الياقة (Amnotragus Lervia) التي توجد في شمال افريقيا فانها لا تنتمي الي فصائل الأغنام ، ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال أصول للأغنام المستأنسة ، ورغم أنه كانت هناك تسمية انجليزية خاطئة لها بأنها أغنام البربر فانها في الحقيقة أقرب ما تكون الي الماعز التي تسمي اموتراجوس وهي النوع الوحيد في تلك المناطق ، ونجدها في المغرب تعيش في مثل الظروف البيئية التي تعيش فيها ماعز الأيبكس (Copra Iboex) أو تيس الجبل الأوروبي .

---

(٤) ف. بوبلين : بالبونتولوجيا الاغنام او بداية رعي الاغنام

- F. Doplin," Paleontologie du mouton", Les dibuts de l"elevage du mouton, colloque d'ethnozoblogie, Alfortville, 1977, P. 9-10

(٥) م باولي وج دي فيلينيف M. Boule and J. de Villeneuve

السابق الاشارة اليه ص ٤٩

ولعل أغنام الموفلون الوحيدة التي مازالت موجودة في الغرب هي فصيلة أغنام موسيمون التي لها مثل الصفات الوراثية (٥٤ كروموزوم) ا لتي تتصف بها أغنام الموفلون الآسيوية أو الأغنام الشرقية (Ovis orientatis) ، التي تولدت منها الأغنام المستأنسة المعروفة باسم أغنام آريس . ولقد كان موضوع الدراسة التي قام بها أخيرا بولين وفيني عن أغنام موسيمون هذه وتوصلا فيها الي أن الموفلون (٦) هي أصلا أغنام مستئانسة أدخل عليها الانسان عناصر معينة جعلتها تعود الي الحالة البرية ، أو بمعني آخر قد لا تخرج أغنام الموفلون عن كونها أصلا أغناما مستأنسة نقلت الي الأدغال وتركت فيها . وظاهرة العودة الي الحالة البرية ظاهرة معروفة وكثيرا ما تتكرر في الجزر المهجورة أو التي يقل ارتيادها وينطبق ذلك غالبا علي الماعز البري الذي يرجع أصلا الي نوع كان مستأنسا وتركه بعض البحارة عمدا عن قصد معيق أو لبعد النظر تحسبا للعودة . فلم يكن غريبا إذن أن يجد روبنسون كروزو في جزيرته بعضا من تلك الماعز . وتعتبر هذه المبررات التي اوردها لين وفييني قوية لأنها تعتمد علي أنه لم يعثر في جزيرة كورسيكا علي أي حفريات تشير الي وجود هذا النوع ، فلم يعثر فيها الا علي انواع من الثديات الأرضية أكبرها حجما الفأر الشبيه بالأرنب المعروف باسم لوجوميس أو برولاجوس السرديني (PROLAGOS SARDUS). أما الثديات الموجودة الآن في الجزيرة فقد أدخلها الانسان عن قصد أو غير قصد أثناء أسفاره العديدة بين كورسيكا وأرض القارة (٧)

---

(٦) ف . بوبلين و ج . د فيني : ملاحظات عن اصل الأغنام في كورسيكا

- F. Poplin and J. D. Vigne, "Observations sur l'origine des ovins. Corse", Congress prehistorique de France, 21 session, Montauban-Cohors, 1979, p. 238, 248

(٧) ج . د فيني : الثديات الأرضية غير المجنحة في عصر ما بعد الجليد في كورسيكا وعلاقتها بالانسان

- J. V. Vigne, Les mammifieres terrestres du Post-glaciaire de corse, et leurs rapport avec l'homme; etude paleo ethnozoologique fone sur les essements, Thesis, Paris VI 1983, 3t.

لئن بدا هذا البحث غريبا في مجاله فانه يتفق تمام الاتفاق مع الملاحظات الخاصة بالحياة الحيوانية في الجزر الأخري الكبيرة الموجودة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي وتستثني جزيرة صقلية التي اتصلت أرضها بالقارة عدة مرات خلال الزمن الجيولوجي الرابع. أما عن الثديات الأرضية التي وجدت في جزر الباليرو وفي سردينيا فقد يرجع وجودها الي تدخل الانسان كما هو الحال في جزيرة كورسيكا .

بيد أن هذا البحث ينقصه البيانات المحددة عن الحياة الحيوانية في أراض مثل كورسيكا حيث تسود تربة حمضية لا تسمح بالاحتفاظ بالعظام . وبالاضافة الي ذلك هناك مثال خاص دقيق هو أن بقايا الأغنام والخنازير التي وجدت في الطبقة مالثامنة عشرة من ستار أراجوينا سينولا Araguina-Sennola التي يطلق عليها اسم بونيفاتشيو Bonifacio فانها ترجع الي تاريخ ٦٥٧٠ ق م ± ١٥٠ ق م وهي طبقة سابقة لطبقات العصر الحجري الحديث(٨). ولا نجد لهذه الظاهرة الا أحد تفسيرين :

– إما أن تكون العظام التي بها آثار حريق ظاهرة تؤكد أنها كانت جزءا من طعام السكان في عصر ما قبل الحجري الحديث ممن كانوا يعيشون في ذلك السفح ، وأنها من مخلفات حيوانات مستأنسة من الأغنام والخنازير ، وفي هذه الحالة ربما كانت هذه المخلفات تمثل أقدم دليل علي الاستئناس المبكر الذي يسبق ببضع آلاف السنين مؤشرات استئناس الأغنام في الغرب

– والا فان تلك العظام هي مخلفات فصيلة الموفلون والخنازير البرية . وفي هذه الحالة تصبح الفرضية التي ترفض أن الأنواع المستأنسة قد عادت الي حالتها البرية علي اعتبار انها تدل علي ارجاع ادخال الأغنام والخنازير الي زمن أسبق بكثير قد يرجع بالتاريخ الي ماقبل تعمير كورسيكا بالسكان .

---

(٨) ف . دبلانفراشي و م. س. وايز : ارجويناسينولا : عشر أعوام من دراسات ما قبل التاريخ في بونيفاتشيو

– F. de Lanfranchi and M.-Cl Weiss, "Arguina-Sennola. Dixannees de fouilles pre-historique a Benefacio, Archeologia Corsa, Nr. 2, 1977.

علي أن هناك تفسيرا آخر ربما يقلل من صعوبة التفسيرين السابقين ، هو أن تلك البقايا العظمية التي وجدت في الطبقة الثامنة عشرة قد أتت الي هذه الطبقة نتيجة التداخل من الطبقة السابعة عشرة التي تعلوها وحتي ترجع الي أوائل العصر الحجري الحديث .

أما هـ . دواداي الذي قام بعمل البحوث الحضرية في المستوي الثاني (ب) من نفس هذه الطبقة فانه لم يذكر أي اشارة تدل علي وجود مخلفات عظمية ، بل الأكثر من ذلك أنه لم يتحدث عن العثور علي أي آثار لعظام[٩]. وأود أن اضيف هنا أن حفائر برولاجوس المتعددة في نفس الموقع يمكن أن تكون سببا في تداخل العظام التي ترجع الي العصر الحجري الحديث في الطبقات التي تقع تحتها .

فهل لدينا في أجزاء القارة الأخري – خلاف مثال أغنام موفلون في كورسيكا – آثار تدل علي وجود أغنام برية في أي وقت من الأوقات التي استأنس الانسان خلالها ا لحيوان مما قد يسهل علينا افتراض أن الاغنام المستأنسة ترجع الي أصول محلية ؟ الاجابة علي هذا التساؤل بالنفي .

ولننظر الي وضع الأغنام التي وجدت آثارها وسط مخلفات العصر الحجري الوسيط ، ففي بريتاني ، وبالتحديد في موقع تيفياك [١٠] ، لم يعثر الا علي أسنان أغنام ، وهي حالة وحيدة لا يمكن أن تعتبر برهانا مقبولا . فهل كانت تلك الفترة من أواخر العصر الحجري الوسيط (الألف الخامسة قبل الميلاد) ، علي أحسن الافتراضات ، معاصرة لأوائل العصر الحجري الحديث في حوض البحر الأبيض المتوسط التي أدخلت فيها الأغنام الي جنوب فرنسا؟ .

---

(٩) هـ . دوداي " الهياكل العظمية النسائية في مقابر العصر الحجري الوسيط في بنيفاتشيو"

- H. Duday, "Le squelette du sujet feminin de la sepulture preneolithique de Bonifacio (Corse)", Cahiers d'anthropologie, Laboratoire d''anatomiede Saints Peres, Paris 1975.

(١٠) م. وسانت من بيكوراتوم. بولي وهـ. ف. فالواز: تيفيال : "مدينة الموتي من العصر الحجري الوسيط في موربيهان

M. and St. J. Pequart, M. Boule and H. V. Vallois
"Teviei, station. necropole-mesolithique du Morbihan", Archiv de l'Institute de paleontogie humaine, 18, Masson, Paris.

تنطبق هذه الملاحظات عن الشك في المخلفات والاعتقاد في حداثة الرواسب التي تحتويها عن المخلفات الأخري التي عثر عليها في منطقة المحيط الأطلسي قبل مواقع كابيسودا أرموريكا في البرتغال [١١] ، كوزولدي جرامات ، وفارتينيت ، وكلاهما في منطقة اللوت والجارون ، وروفيجيناك أو روفينياك في الدوردوني .

تبدو الأمور أكثر تعقيدا في مناطق البحر الأبيض المتوسط منها في مناطق ساحل الأطلسي ، ذلك أن الأغنام التي كان يعتقد انها استؤنست ظهرت في أربعة اماكن ترجع الي ما قبل العصر الحجري الحديث هي شاتونيف لي مارتيجوي (عند مصب نهر الرون) وجراماري (في فوكلوز) ، وكهف الغزال وستاردورني (في أودي) ، ومن الصعب الآن قبول فكرة ضم موضعي منطقة بوفانس الي هذه الأماكن .

نحن نعلم تماما أهمية الستار العظيم في منطقة شاتونيف لي ماريتجوي الذي أسهم اسكالون دي فونتون (M. Escalon de Fonton) في عمل تتابع طبقي له يبدأ من أواسط العصر الحجري الوسيط الي أواسط العصر الحجري الحديث . ولقد عثر كاتب هذه السطور علي آثار أغنام في طبقات كاسيلنوفيان تنتمي الي ثقافة محلية ترجع الي العصر الحجري الوسيط وتسبق مباشرة مطلع العصر الحجري الحديث . وباستخدام بيانات هذه الحفريات استطاع ديكوس أن يقرر وجود نوع محلي من الأغنام البرية أو المستأنسة من هذا النوع البري في ذلك العصر[١٢] ، ثم قام بالعمل في الموقع الآخر فيما بعد ، وهناك بعثة

---

(١١) ا.ا. مانديس كوريا : الأبحاث الجديدة في موجي
A. A. Mendes Correa, les nouvelles fouilles a Muge "XV Congres internationale d'anthropologie et d'archeologie prehistorique, I., p. 257-272

(١٢) ج. روسيت – لاروك "ثقافة العصر الحجري الحديث وأوائله في أكويتين"
J. Roussot-Larroque, "Neolithisation et Neolitique dncien d"Aquitaine"

(١٣) ب. ديكوس "أغنام شاتونيف لي مارتيجوي" ، الرعي في البحر المتوسط الغربي
- P. Ducos, "Le mouton de Chateauneuf les - Martigues", L'elevage

حفريات حديثة بدأت عملها عام ١٩٧٩ تحت قيادة كورتان (١٤) فأدخلت تعديلات كثيرة على هذه البيانات .

وأهم ما فيها أنه لم يعثر على آثار أغنام في طبقات كاسيلنوفيان، وحتى مع الدقة البالغة التي تمت فيها الحفريات لم يلاحظ وجود أي علامات أو دلالات ذات أهمية عن الفترة الأخيرة من العصر الحجري الوسيط . ويؤكد التتابع التقريبي السالف الذكر صحة التسلسل الزمني الذي يحدد الجزء الأخير من الفترة الكاستلنوفيه فيما بين ٧٦٣٠ ± ١٥٠ ق ح أو عام ٥٦٨٠ ق م و ٦٧٢٠ . ١٤٠ قح أو ٤٧٧٠ ق م. كما يحدد البداية البداية للعصر الحجري الحديث فيما بين ٦٩٠٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٩٥٠ ق م و ٦٢٠٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٢٥٠ ق م . وحتى لو كانت الحفريات الأخيرة عام ١٩٧٠ قد أكدت أن الأغنام قد وجدت في الفترة الكاستلنوفية فعلينا أن لا ننسى ما كان يمثله الحيوان بالنسبة لاقتصاد الجماعة وغذائها . فالأغنام كانت تمثل ٢ ٪ فقط من اللحوم التي تستهلكها أي جماعة في تلك الفترة في شاتونيف . بينما كانت الأرانب تمثل ٩٥٫٥ ٪ من غذائها . وتغير الوضع في بداية العصر الحجري الحديث فأصبحت الأغنام تمثل ٢٧٫٦ ٪ والأرانب ٦٥٫٣٪ من لحوم الغذاء . وفي الطبقات التي تمثل تطور فترة البداية هذه أصبحت لحوم الأغنام تمثل ٦١٫٨٪ وانخفضت نسبة الأرانب الى ٣٫٩٪ وهكذا يبدو لنا بوضوح أن وجود أغنام كاستلينوفا في أول الأمر كان رغبة في الاستطلاع أكثر من كونه عنصرا أساسيا في الاقتصاد الغذائي (١٥)

---

(١٤) ج. كورتان و ج ايفين وى توماريت "مراجعة التسلسل التاريخي المطلق مع الطبقات في موقع شاتونيف لي ماريتجوي عند مصب الرون"

- J. Courtin, J. Evin, V. Thommeret, "Revision de la stratigraphie et de la chronologie absolue du site de chateauneuf - les Martigues (Bouches du Rhone)", l'Anthropologie, t. 89, 1985, p. 543-556

(١٥) ب . ديكس . المرجع السابق الاشارة اليه سنة ١٩٧٧

وقد وجدت الأغنام أيضا في جراماري ، وهو موقع مفتوح في ميثاميس (Methamis) بمنطقة فوكلوز، الا أن التسلسل التاريخي عن هذا الموقع غير مؤكد وفيه الكثير من التناقض (١٦) . ولعل ذلك يرجع الي ما تعرض له سطح الأرض من تغيرات لأنها غير محمية مما يجعل المثال غير قابل للتطبيق .

هذا ولم تقدم لنا الحفريات التي تمت في تكوينات ما قبل الكمبري بمواقع لانجدوك أي دليل علي وجود بقايا للأغنام ترجع الي عصر أقدم . وكنتيجة لأعمال الحفائر التي قام بها كل من جوملين وجيديس(١٧) أصبح كهف الغزال وستار دورني معروفين ونلاحظ فيهما بعض الحقائق ، فبقايا الأغنام في كهف الغزال متواجدة في مثلث العصر الحجري الوسيط ، وترجع الي بداية الألف السادسة قبل الميلاد (٧٧٦٠ ± ٧٥ ق ح أو ٥٨١٠ ق م) وكانت الأغنام في ذلك الوقت تمثل ٢٠٪ من الأنواع الشائعة ، وفي دورني توجد ظاهرة مماثلة فتظهر الأغنام في الطبقة الثامنة التي تأتي أيضا في نهاية مثلث صناعات العصر الحجري الوسيط ، وتمثل الأغنام فيها ٣٨ ٪ من الأنواع الشائعة في الغذاء ، وتقل هذه النسبة في الطبقة السابعة التي يرجع تاريخها الي ٦٨٥٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٩٠٠ ق م

بناء علي ذلك تكون بقايا الاغنام التي عثر عليها في حفائر اقليم اودي التي ترجع الي ما قبل العصر الحجري الحديث معاصرة للأغنام المستأنسة التي وجدت في طبقات العصر الحجري الحديث في مواقع حفائر بازي بجزيرة كورسيكا (٧٧٠٠ ± ١٥٠ ق ح أو ٥٧٥٠ ق م) وفي برايا أماري في جنوب ايطاليا (٧٥٥٠ + ٨٥ ق ح أو ٥٦٠٥ ق م) وكوفافوسكا في اسبانيا (٧٦٤٠ ± ٧٠ ق ح أو ٥٦٩٠ ق م ، وغيرها من المناطق .

---

(١٦) ت . بولين المستوطنة العصر الحجري الوسيط في جراماري بميثاميس – دراسة الحياة الحيوانية .

- Poalain, "Le camp mesolithique de Gramari a Methamis (Vaucluse)

(١٧) د. جيديس " بداية الرعي في وادي اودي"

- D. Geddes, Les debuts de l'elevage dans la vallee de l'Aude", Bulletin de la socie te prehistorique francaise, t. 78, 1981, p. 370-378

ويمكننا القول باختصار أنه من الثابت أن الأغنام قد ظهرت بصورة مباشرة في الأقاليم البحر سطية بفرنا في نهاية العصر البوريالي (Boreal) . ولم يكن ذلك بحال من الأحوال قبل ٦٠٠٠ ق م . ومن المحتمل أنها سبقت ادخال تقنية السيراميك . هذا رغم أن الطبقات النادرة التي تنتمي الي العصر الحجري الوسيط وتحتوي علي بقايا الأغنام تبدو معاصرة لأوائل العصر الحجري الحديث بما يحتويه من مصنوعات فخارية سواء الناعمة منها أو المزخرفة أو التي عليها طبعات غائرة أو محفورة

وعلينا أن نأخذ في اعتبارنا أيضا عنصرا له أهميته التي لم تقدر بدرجة كافية ، ذلك أنه في أثناء الألف السابعة والسادسة قبل الميلاد لم تكن مياه البحر قد بلغت مستواها الحالي ، وبالتالي فان المواقع التي كانت موجودة علي امتداد الشاطئ أنذاك أصبحت اليوم مغمورة تحت المياه . ولا يتم اكتشاف مثل هذه المواقع الا بالصدفة المجردة كما حدث في موقع ليوكات - كوريج Leucate-Correge التي جاء ذكرها في أحد المطبوعات الحديثة [١٨] . بيد أنه من المحتمل العثور في بعض هذه المواقع المغمورة علي بعض الآثار التي تدل معلي تقنيات ومصنوعات العصر الحجري الحديث التي اكتسبت عن طريق الترحال بالبحر .

وعلي حد علمنا لم تظهر مشكلة وجود أغنام العصر الحجري الوسيط في أي مكان آخر من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فالأغنام في كل من ايطاليا وأسبانيا تعتبر من الحيوانات المستأنسة ذات الأهمية . ولقد كشف بوبريمان عن أن الأغنام المستأنسة ظهرت في اسبانيا خلال العصر الحجري الحديث فقط ، وأن هذه الحقيقة مؤكدة تماما مثل استخدام السيراميك وزراعة الحبوب في ذلك العصر[١٩] ولكن افتراض استئناس الماعز الذي انبني علي وجود بقاياها في طبقات ترجع الي أواخر العصر الحجري القديم فـــي كوفافوسكا (٧٥١٠ ق م) يحتاج الي اثبات ، إذ أن كثرة وجود عظام الماعز ربما يكون مؤشرا علي أنه كان صيدا

---

(١٨) ج . جويلين و ا . فرايزيس و ر . مونتجاردان وغيرهم : ليوكات كوريج أحد المواطن القارئة لأغنام الكارديالي في العصر الحجري الحديث .

- J. Guilaine, A. Freises, R. Montjardin et al., Leucate-Coirrege, habitatonoye du Neolithique cardial, Toulouse-Sete, 1984

(١٩) هـ . ب يوبريمان : الرعي في أسبانيا في العصر الحجري الحديث

- H. P. Ucrpmann, Elevage neolithique en Espagne", L'elevage en Mediterranee accidentale, Aix-en-Provence, CNRS, P. 87-94 .

الشكل ١ - الكباش " الكروية الرأس " من المنقوشات الحجرية في جبال أطلس الصحراوية ١ - في حجرات سيدي بوبكر ٢ - جلمود الأبيض ٣ - بوعالم تظهر فيها القلنسوة الجلدية مع شريط الذقن مزخرفة أو بدون زخارف وطوق حول الرقبة أو الظهر وزخرفة للعمود الفقري

مفضلا (٢٠) مثله في ذلك مثل ظبي البابول الذي وجدت بقاياه ضمن آثار الكبسيين الذين يرجع اليهم الفضل في استئناس هذا الحيوان .

وحقيقة الأمر أن الحفريات القليلة التي تمت حديثا في شمال افريقيا لا توفر الا معلومات قليلة عن العصر الحجري الحديث في حوض البحر الأبيض المتوسط القديم ، بيد أن هناك بعض الحقائق ذات الأهمية التي كشفت عنها تلك الحفائر هي :

– أن الأغنام وجدت منذ بداية العصر الحجري الحديث في منطقة طنجة حيث وجدت مخلفاتها في كهوف الخريل (٢١) ومغارة الصافية ، ومغارة الخيل ، ومغارة العالية (٢٢)

– عدم وجود أو علي الأقل ندرة الأغنام في طبقات العصر الحجري الحديث ، وكذلك ندرة مشغولات السيراميك المحفورة أو المطبوعة في تلك الطبقات من حفريات كهوف وهران .

هكذا كان ظهور الأغنام في هذا الساحل مرتبطا بوصول السيراميك خلال العصر الحجري الحديث ، كما أن تلك الأغنام كانت ترجع الي اصول خارجية . ولقد ظهرت في المناطق الداخلية الشاسعة حضارة مزدهرة هي الحضارة الكبسية قبل ذلك ببضع آلاف من السنين ، وهناك اكتشفت تلك الثقافة الكبسية التي تبدو انها احدث من تلك التي اكتشفت في

---

(٢٠) س . أولاريادي جوزي واستيفيزاسكالا را و ا. ييل "الاستئناس في البيئة القديمة في كهف فوسكا (كاستيللون)"

- C. Olariade Gusi, J. Estevez Escalera & E. Yll, "Domestication Y. Paleo-ambiente de la Eoval Fasca (Castellon), Le Neolothique ancienn medeterranean, Colloque international de prehistorie de Montpeblier, 1982, P. 107- 120

(٢١) ا. جاديس : كهوف الخريل في اشاكار بمحافظة طنجة

- A0 Jodin, "Les grottes d'El Kharil a Achakar, province de Tangier, Bulletin d'archeologie marocaine, t. III, 1958-1959, P. 249-313

(٢٢) ا . جيلمان " ما قبل التاريخ المتأخر لطنجة"

- A. Gillman, "A later Prehistory of tangier, Moraco"., American School of Prehistoric Research, Bulletin No 29, 1975

قلب الصحراء الكبري . وبعد الألف الخامسة قبل الميلاد أصبح استئناس الماعز والأغنام ظاهرة موثقة ومؤكدة (في كهف كابيليتي أو خانقة سي محمد الطاهر : ٦٨٠٠ + ٢٥٠ ق ح أو ٤٨٥٠ ق م) (٢٣)

والحضارة الكبسية التي ترجع الي العصر الحجري الحديث ميزة خاصة تتمثل في أنها خلفت لنا علي السفوح الصلصالية لجبال أطلس الصحراء كثيرا من الرسوم التي تدل علي وجود الأنواع القديمة من الأغنام مصورة بخواصها الحيوانية تصويرا جيدا ، وموضحة بصورة واقعية يمكن منها تحديد فصيلتها بسهولة .

كانت جميع أشكال الصور موضحة بأمانة ودقة جعلت من السهل التعرف علي فصيلة أو أكثر من أغنام الصوف من فصيلة لونجيب Ovis Longipes أو أغنام فيتزنجر الطويلة القرون التي اختفت من المغرب ولكنها مازالت موجودة في نطاق الساحل الممتد من موريتانيا الي تشاد (٢٤) . أما الأغنام القصيرة الشعر فانها تماثل فصيلة كانت مستأنسة منذ عهد قديم جدا وظلت موجودة في مصر حتي عصر الدولة الوسطي ، وهي التي تسمي أغنام منديس (أو فصيلة الأغنام المصرية القديمة Ovis paleoegyptiaca)، وتتميز عن تلك التي وجدت في كهوف جبال الأطلس بأن قرونها ذات علامات حلزونية جانبية ، وهي صفة ما زالت موجودة في بعض فصائل أغنام نطاق الساحل (وبخاصة التي ترعاها قبائل الفولاني

---

(٢٣) س . روبيت ، اقتصاديات الرعي السابق للزراعة في شرق الجزائر

- C Roubet, Economic Pastorale preagrecole en Algerie orientale, Le Neolithique de trandition capsienne, CNRS, Paris, l978

(٢٤) ج دوتريسولي . الرعي في النيجر

- G. Doutresoulle, L'elevage au Niger, 1924, Ltd., L'elevage au Soudan Francais, l952

الشكل ٢ – مشغولات السيراميك الكارديااليه في أقطار غرب البحر الأبيض المتوسط

وتعرف باسم سامبوران Samboran) . ولعل الدقة البالغة التي تميز زخرفة قرون الكباش الكروية ، وكذلك تزيينها بالريش والأصابع ، ووجود الأطواق والأغطية ، لا تؤكد فقط أنها كانت تمستأنسة ، بل ان ذلك كله يعتبر أيضا دليلا يؤكد ما كان لهذه الأغنام من أهمية شعائرية (٢٥) .

وعلي الرغم من أن أغنام جبال أطلس الصحراء لم تظهر في نقوش الجدران التي وجدت في تاسيلي الا في مرحلة تالية علي ذلك بقليل فانها كانت كسائر الأغنام المستأنسة من فصائل ترجع الي أصول من الشرق الأدني خلاف تلك التي كانت موجودة في مناطق التل المجاورة أو في الأقطار البحروسطية الأخري . ويبدو أنها دخلت الي هناك من مصر غبر القارة حيث كان هناك طريق قديم يمر بجنوب برقة الي سرت ثم يدخل في منطقة الأعشاب في المغرب . ولقد ظل هذا الطريق طوال عصور ما قبل التاريخ وخلال العصور التاريخية الأولي هو طريق الغزوات الاآتية من الشرق . وهناك طرق متعامدة عليه تمتد من الشمال الي الجنوب تصله بغرب البحر المتوسط وأشباه الجزر الأوربية . ومن الطريف أن يكتشف في تاريخ أغنام المغرب ذلك الازدواج الذ يعتبر ظاهرة خاصة تميز اقليم البربر(٢٦) .

---

(٢٥) ج . كامبس : حضارات ما قبل التاريخ بافريقيا الشمالية والصحراء

- G. Camps, Les civilizations prehistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Doin, Paris, 1974, Id, "Le belier a spheroide des gravures rupestres de l'Afrique du Nord"., Eneyelopedie berbere, edition provisoire, cahier No 22, Oct., 1978

(٢٦) ج . كامبس : أصول البربر : دراسة لآثار والشعائر الجنائزية فيما قبل التاريخ

G. Camps, Aux origines Berberic. Monument et rites Furcraires protohistorique, A.M.G., Paris 1961, ID., "Berberes aux merge de l'histoire"., Toulouse, 1980

فهل كانت أغنام شمال البحر الأبيض المتوسط لها مثل هذه الصفات الظاهرية ؟ إن من الصعب تأكيد ذلك ، لأنها لم تصور في رسوم ولكننا قد نعتقد أن الأغنام التي استؤنست مبكرا لم يكن لها ذلك الغطاء الصوفي الغزير الذي يشبه ما كان يتدثر به أوليوس ورفاقه أثناء هروبهم من غضب بوليفيموس . فلا بد أن تلك الأغنام القديمة كان لها شعر قصير خشن ، وربما كانت الأغنام التي وجدت في أوربا مثل فصيلة الموفلون الكورسيكية أكثر تطورا من أغنام افريقية إذ أن شعورها لم تكن تنمو بل كانت تتساقط كما يحدث في الفصائل التي ترتفع الي متسوي الأنجورا مما لم يساعد علي انتظام نمو الغطاء الصوفي الذي يمكن أن يستخدم كصوف الغزل(٢٧) . ولم تغريني صورة مثل تلك الأغنام أراها في الطبيعة البكر وأجسامها خالية من الصوف ، وبكرات المغزل تختفي تماما من مواقع حفائر العصر الحجري الحديث ، فلا نجد تلك الآلة الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق توضع في نهاية المغزل لتلف حولها الخيوط التي تسحب من المادة الصوفية التي جزت من ظهور الأغنام .!

الملاحة المبكرة

في كل هذه الدراسات الميدانية التي ظهرت فيها الأغنام المستأنسة في الغرب افترضنا أنها جاءت عن طريق البحر لأنه أقرب تفسير يتفق مع المنطق ويصبح من الضروري الآن أن تورد المناقشات التي دارت حول هذا الموضوع لتدعيم هذه الفرضية وبحث الظروف التي أدت الي ادخالها بصورة أكثر تفضيلا .

من الأمور الهامة بادئ ذي بدء اننا نلاحظ في اقدم الحفائر التي عثر فيها علي آثار الأغنام القديمة أنها توجد في المناطق الساحلية أو القريبة من البحر ، وهي بذلك تقع في النطاق الذي انتشرت فيه مشغولات السيراميك الأصلية التي لا شك أنها جاءت عن طريق البحر . تؤدي بنا هذه الملاحظة الأولية الي أن نستبعد الي حد ما فكرة الأصل القاري لهذه الأغنام ومجيئها من هضبة الأناضول والبلقان حيث أنها استؤنست هناك وكان السكان

---

(٢٧) ج . روجيت "تطور أساليب جز شعر الأغنام ، بداية رعي الأغنام

- J. Rouget, "L'evolution de caracteres de la toision du mouton"., Les debuts de l'elevage du mouton, Colloque d'ethnozootechnic Al fortville, I977, p. 25-32

يرعونها منذ الألف السابعة قبل الميلاد . علي ذلك لا يمكن أن نعتبر اقليم نهرالدانوب في العصر الحجري الحديث كمنطقة ادخلت فيها أوائل الأغنام المستأنسة . وبالتالي فان الأغنام المخروطية الشكل تماثل تماما فصيلة أغنام الموفلون (الأغنام الشرقية Ovis orientalis) أتت من هضبة ايران وجبال زاجروس ، وهذا يجعل الأغنام القديمة ترجع الي أصل شرقي ، ويؤكد ذلك عدم وجود فصائل محلية من تلك الأغنام في الغرب . ولكن يتبادر هنا سؤال : هل كان سكان حوض البحر الأبيض المتوسط يعرفون الملاحة من زمن مبكر يرجع الي حوالي ٦٠٠٠ ق م ؟ قد نندهش إذا ما تتبعنا مدي قدم ا لملاحة علي امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط . وبين الجزر والقارة فربما تكون رغبة الانسان أو حاجته للسفر بالبحر قد ظهرت منذ زمن مبكر جدا ولو لمجرد القيام بصيد الأسماك وحيوانات البحر ، وهو ما أظهرته العديد من الرسوم التي خلفها المجليين . ولكن أسماك السالمون وبعض الحيتان في الحقيقة من بين الأحياء المائية التي تسبح من البحر مصعدة الي داخل مجاري الأنهار مما ينعدم معه الدليل علي قيام ملاحة حقيقية في البحر خلال العصر الحجري القديم ، علي الأقل في أوربا ، لأن ذلك لا ينطبق علي جهات أخري من العالم . مثال ذلك لا يمكننا أن نتصور استيطان استراليا منذ ٣٥ ألف عام دون أن يقوم هؤلاء المستوطنون الأوائل بعبور خلجان تورس التي تعتبر ممرا مائيا واسعا لدرجة جعلت الحيوانات الكيسية (الكنغر) تعيش وحدها دون منافس لها من الثدييات المشيمية.

ولعل من المسلم به أن كلمة ملاحة لا تنطبق الا علي الأسفار البحرية ذات الأهمية الخاصة. فإذا ما نظرنا الي منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط نجد أن عبور مضيق ماسينا (الذي يبلغ اتساعه الآن ثلاثة كيلومترات) لا يمكن أن يعتبر من قبيل الملاحة . بالاضافة الي ذلك لا يعتبر عبور المضايق البحرية في أي مكان من العالم دليلا في نظر معارضي فكرة وجود ملاحة في عصور ما قبل التاريخ ، لانهم يحاولون تفسير وجود تشابه علي جانبي الممرات علي أساس النظرية التي تفسر وجود اختراعات متشابهة بأنها مصادفة تأتي نتيجة لتشابه الضغوط البيئية . ولئن كانت نظرية الحتمية في تفسير تشابه صناعات وثقافات ما قبل التاريخ قد أصبحت غير مقبولة الا أن زيارات الجزر أو حتي الاستيطان فيها يعتبر أحسن اثبات علي قيام الملاحة منذ أن انفصلت تلك الجزر عن القارة خلال عصر البليستوسين ، كما أن انتشار مشغولات السيراميك الأصلية وتجارة الزجاج البركاني (الأوبسيدون) يعتبر دليلا آخر علي قيام الملاحة .

ظهرت صناعات السيراميك في ثقافات الشعوب المحيطة بالحوض العربي للبحر الأبيض المتوسط منذ ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وربما قبل ذلك ، كما نشأت أساليب معينة في

زخرفة أقدم أنواع الفخار مما جعلها تحمل اسم الفخار الكارديالي وكانت زخرفة هذا النوع من الفخار تتم بضغط ظهر محارة بحرية مكرنشة تسمي كارديوم (Cardium) أو طرف محارة مروحية لها أسنان كالمشط تسمي بيكتن (Pecten) علي سطح الطين قبل أن يجف ويحرق . ولذا أطلق علي هذا الفخار اسم الفخار الكارديالي اشتقاقا من أسم المحارة . ويبدو في توزيع هذا النوع من مصنوعات السيراميك أنه يوجد بكثرة علي طول الشريط الساحلي الممتد من منطقة اليكانتي حتي جنوه، ويقل انتشاره في البرتغال والأندلس وشبه جزيرة ايطاليا ، ثم يظهر مرة أخري بكثرة حول البحر الأدرياتي وفي بعض الجزر المواجهة لساحل دلماتيا وأبوليا . وجزيرة كورسيكا غنية بهذا النوع من السيراميك الكارديالي حيث عثر علي كميات كبيرة منه في أكثر من اثني عشر موقعا موزعة في سائر أنحاء الجزيرة . ولقد وجد نوع آخر من السيراميك يطلق عليه اسم السيراميك التيراني في كل من سردينيا وتوسكانيا (في بينزا) . ووجدت الزخارف الكارديالية أيضا في صقلية علي بعض الزهرياتي من النوع الذي يسمي استنتينللو ، وكذلك عثر علي مخلفات فخارية بها تقليد للزخارف الكارديالية عملت دون استخدام المحارة في أحد مواقع مجموعة جزر مالطة (مغارة دالام) . ولم يعثر علي آثار بها مشغولات فخار كارديالي لا في جزر الباليرو ولا في الساحل الجزائري والتونسي ، مما يدل علي أن ظهور مثل هذا النوع من صناعات الفخار واماكن اخري لا يمكن أن يعزي الي الابتكار الذاتي . ويفسر ذلك بأن محار الكارديوم موجود بكثرة علي طول ساحل شمال افريقيا كله مثلما يوجد في السواحل الأوربية . فلو أن انسان العصر الحجري الحديث كان قد اتجه بدافع ذاتي غامض الي استخدام هذا في المحار في زخرفة أوانيه الفخارية ، فلا بد أن يكون ذلك قد حدث يفي كل مكان وجد فيه ذلك المحار. بالاضافة الي ذلك هناك نحو عشرة مواقع عثر فيها علي مصنوعات سيراميك كارديالية في اقصي شمال المغرب حول مضيق جبل طارق والمنطقة الشمالية من تطوان ، لا شك أن وجودها يرجع الي المعرفة بهذه التقنية في صناعات السيراميك نتيجة لقربها من الثقافات الكارديالية في اسبانيا(٢٨) وفي جميع المواقع التي عثر فيها علي بقايا مشغولات السيراميك الكارديالي باستثناء اقدم طبقات أبوليا (في رأس نينيجاتا) عثر أيضا علي آثار أغنام مستأنسة ، وينطبق ذلك علي كل مواقع الحفريات في كل من الجزر والقارة علي حد سواء .

---

(٢٨) ج . كامبس : العلاقة بين أوربا والشمال الأفريقي خلال العصر الحجري الحديث وعصر النحاس

- G. Camps, "Les relations entre l'Europe et l'Afrique du Nord pendent le Neolithique et le Chalcolithique, "Praehistorica Francisco Jurda oblata Salamanca, 1984, p 187-205.

وتعتبر تجارة الزجاج البركاني دليلا آخر علي وجود ملاحة في عصور ما قبل التاريخ، وإن كان استخدام كلمة تجارة هنا فيه شئ من المبالغة بالنسبة للكميات القليلة التي نقلت من هذه الأحجار واستخداماتها في أماكن عديدة . والأوبسيدون (obsidian) أو الزجاج البركاني هو نوع من الصخور البركانية . أو هو بالأحري زجاج طبيعي يسهل النقش عليه (٢٩) ، وله خواص مميزة في سهولة تقطيعه وتشكيله ، وبالتالي فان هذا الحجر أو الصخر كان من المواد المفضلة لدي صناع ما قبل التاريخ . ففي بحر ايجه كان الزجاج البركاني الموجود بوفرة في جزيرة ميلوس يصدر منذ نحو أحد عشر ألف سنة الي جزر البلوبونيز (فرانسي وأرجيف) . أما في الحوض الغربي للبحر المتوسط فقد كان مصدره كل الجزر الموجودة في

---

(٢٩) قائمة المراجع التي تناولت تجارة الأوبسيدون متعددة نذكر منها علي وجه الخصوص :

– ج . كورتان : مسكلة الأوبسيدون في العصر الحجري الحديث بمنطقة ميدي في فرنسا

J. Courtin, "Le problem de l'obsidienne dans le Neolithique du mio-li de la France", Hommage a Fernand Benoit I, Revue des Etdes Ligures, t. 33, I972 p.m. 93-I09.

– هالام وس.أ. واريد وس رينفرو : الأوبسيدون في غرب البحر المتوسط – خواصه بنا علي التحليل النيتروني وتحليل الأطياف الضوئية .

- R. Hallam, S. E. Warren, C. Renfrew, Obsedian in Western Mediterranean, Proceedings of the Prehistoric Society, Vol. 42, I976, p. 85-110.

– ج كامبس : الملاحة في فرنسا خلال العصر الحجري الحديث وعصر البرونز

- G. Camps, La navigation en France au Neolithique et a l"age du bronze", La Prehistoire Francaise, CNRS, Paris, I976, t 2, p. I92-20I.

– س. بيرلس : عشرة آلاف عام من الملاحة البحر وسطية

- C. Perles, Des Navigateurs mediterranees il y a I0,ooo ano", La Research Nr. 96,I979, p. 82-83

– و . وليامز تورب و س. أ. وارين ول . ه . هـ . بارفيلد : مصادر وتوزيع الاوبسيدون الأثري في ايطاليا الشمالية

- O. William Thospe, S. E. Warren, L. H. Barfield,"The Sources and the Distribution of Archeological obsidian in Northern Italy", Preistoria alpina, vol 15, I979, p. 73-92.

– و. ويليامز ثورب و س . أ وارين و ج كورتين : مصادر وتوزيع الأوبسيدون الأثري من جنوب فرنسا

- O. William Thorpe, S. E. Warren, J. Courtin, "The Distribution and Sources of Archeological Obidian from Southern France", Journal of Archeological Science, t. II, I984, p. I35-I46

البحر الثيراني ، ومنها مواقع مونت آركي في جزيرة سردينيا . وجزيرة بالمارولا (في أرخبيل بونتين) وليباري أحدي جزر أبوليا وبانتيليريا في مضيق صقلية وفي أواسط العصر الحجري الحديث وربما قبل ذلك ، كان الزجاج البركاني ينقل من جزيرتي سردينيا وليباري لاستخدامه في مناطق بروفانس ولانجدول . بل في أماكن أبعد من ذلك مثل قطالونيا . كما أن الحجارة المأخوذة من بانتيليريا كانت تستخدم في تونس وشرق الجزائر التي كانت تحصل علي امداداتها أيضا من ليباري . وقد عثر علي آلة قطع سليكونية من صخور هذه الجزيرة في تيبيسا بالجزائر . ولئن كانت تلك المواقع هي أقصي ما وصلت اليه هذه التجارة فإن الزجاج البركاني استخدم أيضا منذ أوائل العصر الحجري الحديث بكثرة في شبه جزيرة ايطاليا وفي كورسيكا وحتي في جزيرة لامبيدوسا التي تبعد نحو ١٤٥ كيلومترا عن انتيليريا . وكانت سفن ليجوريا آنذاك قد بدأت تزور سواحل لانجدوك حاملة مشغولات السيراميك ذات الطبعات الزخرفية . وأدخلت فيها الكثير من الأدوات المصنوعة من الزجاج البركاني التي جلبت اصلا الي جزيرة ايوليا (عثر عليها في حفائر موقع بورتيرانجس التي ترجع الي ٦٤٣٥ ± ١٢٥ ق ح أو ٤٤٨٥ ق م)

ومثلما كان يحدث في بحر ايجه كان الزجاج البركاني ينقل من الجزر الي القارة منذ زمن سابق للعصر الحجري الحديث ، وقد لوحظ ذلك في موقع مثل ارماديللوستيفانين في ليجوريا حيث عثر عليه في الطبقة الخامسة من حفائر العصر الحجري الوسيط ، ويرجع تاريخه الكربوني الي ٨٤٠٠ ± ١٠٠ قدم أو ٦٤٥٠ ق م ، حيث عثر في هذه الطبقة علي مكشط وعدد من الشظايا القاطعة من هذا الزجاج البركاني ، ربما اتت من جزر ليباري[٣٠]

أما الدليل الثالث علي قيام ملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال عصور ما قبل التاريخ فهو تعمير بعض جزر معينة بالسكان . فلم نعد نري أن مثل تلك الجزر قد عمرت خلال عصر البرونز وهنا لا بد أن نستبعد الجزر الساحلية التي تقع قرب القارة والتي كان الكثير منها ملحقا بالأرض الأصلية القريبة منها حينما بدأت حركة الملاحة المبكرة ، فانفصالها آنذاك

---

(٣٠) انظر المرجع السابق تأليف : ويليامز تورب وس . ١. وارين ول هـ بارفيلد (سنة ١٩٧٩)

لم يكن قد اكتمل ، وكذلك الحال بالنسبة لصقليه فانها تعتبر الي حد بعيد امتدادا لشبه الجزيرة ، وبذلك فهي حالة خاصة لانها عمرت بالسكان منذ البداية مع تكوين خليج ماسينا خلال الفترات المتتابعة فيما بين العصور الجليدية ، فليس من الغريب أن يكتشف مع المصنوعات الأشولية والموستيرية أمثلة من نقوش الجدران التي ترجع الي العصر الحجري القديم ، وما يستتبع ذلك الوضع من العثور علي ثروة متنوعة من مخلفات المصنوعات التي ترجع الي أعقاب العصور الجليدية.

وهناك وضع آخر علي عكس هذا تماما يظهر في جزر الباليرو وهي مجموعة جزر كبيرة في البحر الأبيض المتوسط تبعد عن الساحل ، وان كانت احداها وهي جزيرة ابيزا تظهر للعيان بمجرد الابتعاد عن رأس ناو (Cabo de la Nao) . والظاهرة المتمثلة هنا هي أن الحياة الحيوانية في هذه الجزر كانت متميزة بشكل واضح كوجود بعض أنواع من الحيوانات مثل Myotragus balecaricus ظلت بها حتي وصول الانسان الذي جاء متأخرا كثيرا.

وفيما بين هذين النقيضين توجد مجموعتان من الجزر ، احداهما متنوعة الخواص ولكنها مهمة في دراستنا هذه ، وهي تتكون من حلقة الجزر المتناثرة التي تحيط بصقلية بما فيها جزر أيوليا ، وجزر ايجاديا وبانتيليريا ، وأرخبيل مالطة ، والي جنوب جزر بيلاجيا ، أما المجموعة الثانية فتتمثل في الكتلتين الأرضيتين اللتين تكونان جزيرتي كورسيكا وسردينيا .

وسوف نتناول هذه الجزر بالدراسة علي الترتيب بدءا من الجزر القريبة من صقلية ثم جزر الباليرو واخيرا وحدة كورسيكا وسردينيا لنبحث في معرض الدراسة عن أقدم الآثار التي تدل علي الاستيطان البشري لنصل من ذلك الي تحديد الخواص المميزة لكل من هذه الجزر أو الأرخبيلات .

مالطة

يتكون أرخبيل مالطه من جزيرتين هما مالطة وجوزو وعدد من الجزر الصغيرة والكتل الصخرية الكبيرة مثل كومينو . ويبعد أرخبيل مالطه عن جزيرة صقلية بنحو مئة كيلومتر ، ومن

ثم فقد كان معمورا بالسكان منذ بداية العصر الحجري الحديث [٣١] ويوجد بها فخار من نوع السينتينالو الصقلي كما عثر فيها علي مصنوعات سيراميك فيها تقليد للسيراميك الكارديالي . وأقدم تاريخ سجل في هذه الجزر حتي الآن باستخدام تحليل النظير ١٤ (التحليل الكربوني) هو في احدي طبقات حفريات اسكوريا الذي احتوي مشغولات سيراميك بها أختام زخرفية ترجع الي الفترة الزمنية التي تعرف باسم غار داهام (٤١٩٠ ± ١٦٠ ق م) ، ولكن هناك ما يدعو الي الاعتقاد بأن استيطان هذه الجزر أو علي الأقل زيادتها يرجع الي أزمنة سابقة علي ذلك بكثير . وعلي أي الأحوال ليعتبر هذا دليلا مؤكدا علي أن الأغنام والخنازير والماشية كانت ترعي هنا ، كما كان القمح والشعير والعدس من المحاصيل التي تزرع بها منذ العصر الحجري الحديث .

وفي خلال تلك الفترة وصل الي مالطة زجاج بركاني من ليباري (احدي جزر أرخبيل أيوليا) . وبدأت أواسط العصر الحجري الحديث (مرحلة اسكوريا الرمادية ثم مرحلة اسكوريا الحمراء) منذ الألف الرابعة قبل الميلاد وهي الفترة التي قويت فيها العلاقات مع جزيرة صقلية ، وفي نهاية هذه الفترة حدث تحول واضح ، فقد أقيمت المعابد باستخدام الكتل الحجرية الضخمة (في مرحلة ماجار ومرحلة تاركسيان خلال النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد) . ويعتبر هذا التطور الفني انجازا واضحا يؤكد الحقيقة القائلة بأن المالطيين أصحاب الحضارة التراكسيانية لم يكونوا علي علم باستخدام المعادن الا حينما دخلت الجزيرة في بداية الألف الثانية قبل الميلاد . وليس من شك في أن الذين أدخلوها هم الغزاة الذين هدموا المعابد حوالي عام ١٩٨٠ ق م .

جزر بالاجيا

لئن كان أرخبيل مالطه معروفا فان ذلك لا ينطبق علي الأرخبيل الذي يضم الجزر الصغيرة المعروفة باسم بالاجيا الواقعة فيما بين مالطة وتونس . وأهم ظاهرة في هذة الجزر هي اكتشاف مستوطنات ترجع الي أوائل العصر الحجري الحديث في لامبيدوسا(٣٢) . ويمكن

---

(٣١) ج . د. ايفانز : آثار ما قبلا التاريخ في جزر مالطه

- J. D. Evans, "The Prehistoric Antiquities of the Mata Islands", Athlone Pressm London, 1971

(٣٢) ج . راضي "طبقة رواسب العصر الحجري الحديث في" جزيرة لامبادوزا

- G. Radi, "Tracce di un insedimento neolitico nell'isola di Lampedusa", Atti dello Societa toscana di Scienze naturali, Pisa, 1972

ربط هذا الاكتشاف بثقافة ستانتينللو في صقلية (الألف الخامسة والرابعة قبل الميلاد) ، وفي الوقت نفسه كان الزجاج البركاني الذي يرد من بانتيلاريا علس مسافة ١٤٥ كيلومترا مستخدما في هذه الجزر . وتعتبر لامبيورسا جزيرة منعزلة اذ تبعد ١٦٥ كيلومترا عن مالطه ونحو ١٢٥ كيلومترا عن ساحل تونس ، وهي بذلك أكثر جزر البحر الأبيض المتوسط عزلة ، ولكنها كانت واحدة من أوائل الجزر التي وصل اليها الانسان زائرا .

جزر بانتيلاريا

تقع بانتيلاريا في أحد المواقع الحرجة من البحو الأبيض المتوسط ، فهي في مضيق صقلية ، وتقع بالنسبة لها في جنوبها الغربي ، وتبعد سبعين كيلومترا عن دأس بون ونحو مئة كيلومتر عن رأس جرانيتولا . وفي هذه الجزيرة البركانية أكبر مستودع من الزجاج البركاني الذي كان الطلب عليه كثيرا في ذلك الوقت . ولا يعرف بالتحديد تاريخ الاستيطان الأول لهذه الجزيرة ، ولكن بانتيلاريا كانت بالفع ل تصدر الزجاج البركاني منذ أوائل العصر الحجري الحديث الي أربعة اتجاهات هي : لامبادوسا ، ومالطه ، وصقلية ، وتونس . فقد عثر في كهف حمده قرب ماكتار في تونس علي قطع من الزجاج البركاني ترجع الي أواسط الألف السادسة قبل الميلاد فيما بين ٧٤٤٥ ± ١٢٥ ق ح أو ٥٤٩٥ ق م و ٧٦١٠ ± ١٢٥ ق ح أو ٥٦٦٠ ، كما عثر في موقع آخر قرب حرجلة علي الساحل علي شظايا من الزجاج البركاني ترجع الي أواسط العصر الحجري الحديث (٥٢٧٠ ± ١٤٠ ق ح أو ٣٣٢٠ ق م)

جزر أيوليا

الي جانب العلاقات القديمة مع صقلية وكالابريا فان لجزر ايوليا أيضا قيمة أثرية ترجع الي اتجارها في الزجاج البركاني الذي يؤخذ خاصة من ليباري التي تعد أكبر هذه الجزر . فلقد كشفت دراسة أقدم الطبقات الحفرية في المناطق المرتفعة من الجزيرة [٣٣] عن وجود صلات وثيقة مع صقلية منذ أن سكنها الانسان ، كما وجدت بها مخلفات من أنوا ع سيراميك سيثتينالو عليها زخارف مطبوعة علي بعضها باستخدام محار كارديوم ، وفي بعض الطبقات الأحدث وجدت أوان فخارية مطلية طلاءا جميلا وتتكون زخارفها من شرائط حمراء وبيضاء .

---

(٣٣) ل. برنابو بريا : سبق صقلية علي اليونان

L. Bernalbo Brea, Sicilia prima dei Greci, Milan, 1958

م. كافالير : دراسة عصر ما قبل التاريخ في أرخبيل ايوليا

M. Cavalier, "Ricerche preistoriche nell'archipelago ealiano", Rivista di scienze preistoriche, t. 1979, p. 45-137

كما عثر علي أنواع السيراميك التي ترجع الي أصول شرقية ويوجد مثلها في شبه جزيرة ايطاليا التي انتشرت منها الي كل من صقلية وجزر أبوليا . وابتداء من الألف السادسة قبل الميلاد ، إن لم يكن قبل ذلك ، كانت جزيرة ليباري تصدر الزجاج البركاني الي كل من صقلية ومالطه وكالابريا (كهف مادونا في باريا أماري ، ٧٥٥٥ ± ٨٥ ق ح أو ٥٦٠٥ ق م).

بيد أن هذه التجارة شهدت انتشارا أوسع منذ الألف الخامسة قبل الميلاد حيث وصل الزجاج البركاني من ليباري الي يورنيراني (في هارولت) . وخلال الألف الرابعة قبل الميلاد كان يصدر الي كل الأنحاء حيث وجد في حفائر موقع شازيين في منطقة فوكلوز ، وكذا في حفائر جوتييه التي ترجع الي ثقافة العصر الحجري الحديث وفي مخلفات الحضارة الكبسية قرب تيبيسا بشرق الجزائر . وأخيرا شهدت الحضارة التي ازدهرت في أرخبيل أبوليا تضاؤلا في أهميتها في أواخر عصر البرونز لانعدام الطلب علي الزجاج البركاني (الأوبسيدون) .

جزر ايجاديا

لا يمكن فصل دراسة جزر ايجا ديا عن صقلية فهي شبيهة بالجزر الكبيرة في أنها كانت مسكونة منذ العصر الحجري القديم ، ويدل علي ذلك وجود نقوش علي الجدران في كهف ليفانز ، وتمثل صور خيول أبقار وغزلان مع أشخاص يلبسون الأقنعة (٢٤) . وبناء علي التقديرات التاريخية المتعددة لطبقات الحفائر الأثرية وربطها بهذه الرسوم الفنية يمكن القول بأن هذه الجزر كانت معمورة منذ الألف العاشرة قبل الميلاد ، ويؤكد ذلك بعض الدلائل المنية علي مقارنة الأنماط الفنية ، ومن المؤكد أيضا أن هذه الجزر كانت آنذاك متصلة بجزيرة صقلية.

---

(٢٤) جزر يوزي "فنون ما قبل التاريخ في ايطاليا"

- P. Graziozi, L'Art preistorica in Italia, Sansoni, Florence, 1974

جزر الباليرو

نتيجة العزلة الكبيرة التي تتميز بها جزر الباليرو فان تحديد تاريخ سكناها يكون أصعب بكثير من تحديد زمن السكني الأولي في مجموعات الجزر الأخري ، القريبة من صقلية . فبناء علي المعلومات المتوافرة لدينا وأحدث البيانات يمكننا القول بأن جزيرة ماجوركا قد عمرت في أواخر عصر النحاس (٣٥) ويتأكد ذلك من التواريخ التي حددت لآثار المواقع (موقع كاباني دي سانكوتكسترا ١٨٠٠ ± ٨٠ ق م وموقع كهف لوس موبرنوس ١٨٤٠ ± ٨٠ ق م) ويؤكده أيضا المنشآت القديمة المبنية علي طراز نوفيتا ، وكذا مصنوعات السيراميك ذات الأشكال الناقوسية . بيد أن الزيارات السابقة علي هذا العصر لهذه الجزر مؤكدة أيضا ويفسرها وجود بقايا هياكل بشرية في كهف موليتا بجزيرة ماجوريكا عثر عليها في طبقات حفائر ميوتراجوس بالاريكوس ، وهي ترجع الي ٧١٣٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٥١٨٠ ق م . ولسوء الحظ لم يعثر علي أي مخلفات من صنع الانسان مع تلك البقايا ، ومع ذلك فاننا نعرف تماما أن مواقع أخري منعزلة تماما مثل جزيرتي بانتيلاريا ولامبادوزا قد وصلت اليها زيارات بشرية في مثل ذلك التاريخ . ولو اننا استبعدنا امكان استيطان جزر الباليرو في الألف السادسة قبل الميلاد فاننا سوف نلاحظ أنه في ذلك الكهف وعلي عمق متر ونصف من السطح وجدت عظام بشرية ترجع الي ٥٤٣٠ ± ١١٠ ق ح أو ٣٩٨٠ ق م ، وفي جزيرة ماجوركا تم تقدير التاريخ الكربوني لإحدي طبقات جرف سون ماتجي فوجد أنه يرجع ٥٧٥٠ ± ١٥٠ ق ح أو ٣٨٠٠ ق م ، عثر علي مكشط مع الكربون ، وكان هذا هو الأثر الوحيد الذي يمثل تواجد الانسان هنا . يؤدي بنا هذان التاريخان الي اعتبار أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد أقدم تاريخ لاستيطان جزر الباليرو . ومن الغريب أيضا أن نلاحظ أن هذه الجزر لم تعرف صناعة السيراميك حتي عصر النحاس . وذلك لأن جزيرة ماجوركا مثلها مثل جزيرة كورسيكا تقدم لنا الدليل علي أن

---

(٣٥) ١ و . هـ . والدرين : بيئة ما قبل التاريخ والثقافة في جزر الباليرو : حفائر ودراسات في بعض الكهوف والاسقار والمستوطنات

W. H. Waldren, "Balearic Prehistoric Ecology and Culture, The Excavation and Study of Certain Caves, Rock Shelters and Settlements", B.A.R. International Series, No. 149, 1982

الانسان قد غامر وخرج الي البحر قبل أن يعرف فن صناعة الفخار أو علي الأقل دو أن يهتم بتلك الصناعة التي كانت معروفة آنذاك في جهات أخري ودون أن يدرك ضرورتها لبعض استخداماته . ومازالت الصعوبة قائمة امام عدم معرفة الفخار في جزر الباليرو حتي قرب سنة ٢٠٠٠ ق م . ويبدو كما لو أن تلك الجزر قد عادت الي العزلة بعد استيطانها وحرمت من كل الاتصالات البحرية لمدة طويلة تقرب من الفي عام . حقا أنه من الصعب أن نتصور ذلك ، ولكن من الصعب أيضا أن نتصور عدم اكتشاف آثار السيراميك في أزمنة مبكرة عن ذلك لو فرضنا انها كانت معروفة لدي سكان تلك الجزر .

كورسيكا وسردينيا

تمثل جزيرتا كورسيكا وسردينيا نمطا وحالة خاصة ، فاذا أخذنا في اعتبارنا أن مضيق بونيفاسيو يمكن عبوره اما مباشرة أو عريق لافيزي ومادالينا فتصبح الجزيرتان بمثابة وحدة واحدة ، وانهما انفصلتا عن القارة منذ البليستوسين . ويرجع اعتبارهما نمطا أو حالة خاصة فان ذلك يرجع الي تعميرهما المبكر الذي يرجع الي الألف السابعة قبل الميلاد إن لم يكن قد تم تعميرهما قبل ذلك . وهناك أربعة مواقع في كورسيكا تقدم لنا الدليل علي تواجد الانسان قبل العصر الحجري الحديث في كل من كهف سكريتا وكهف ستريت ، وكلاهما قرب سانت فلورنت في الجزء الشمالي من الجزيرة وشوراشيا جيهو قرب ليفاي ، وأرجوينا سينولا علي خليج بونيفاشيو في الجنوب . ويرجع تاريخ الطبقة التي ترجع الي ما قبل العصر الحجري الحديث في حفائر شوارشياجيهو الي ما بين ٨٥٦٠ ± ١٧٠ ق م أو ٦٦١٠ ق م و ٨٣٠٠ ± ١٨٠ ق م أو ٦٣٥٠ ق م . أما طبقة الحفائر في أروجوينا سينولا فانها أيضا مما قبل العصر الحجري الحديث وتاريخها ٧٥٢٠ ± ١٥٠ ق م أو ٦٥٧٠ ق م ، وهي واقعة فوق منطقة جبانة ترجع الي تاريخ أقدم عثر فيها علي هيكل عظمي لأنثي محفوظ بصورة جيدة يعتبر أقدم ما عثر عليه من آثار ما قبل التاريخ في كورسيكا . وفي أحد المواقع في جزيرة سردينيا نجد حفائر كوربيدو والتي وجدت تحت مخلفات تنتمي بوضوح الي العصر الحجري الحديث (من فخار وحيوانات مستأنسة) . وفي احدي طبقات هذه الحفريات عثر علي عظام محروقة لأغنام من فصيلة برولاجوس ترجع الي تاريخ ٩١٢٠ + ٣٨٠ ق م أو ٧١٧٠ ق م فلا يقتصر الأمر بالنسبة لهاتين الجزيرتين علي أن بهما دليلا علي تواجد الانسان من زمن سابق للعصر الحجري الحديث فحسب ، بل إن فيهما أيضا دلائل ومخلفات من أوائل العصر الحجري الحديث في بازي يرجع تاريخها الي ٧٥٢٠ ± ١٥٠ ق م أو ٥٧٥٠ ق م وفي شوراشياجيهو يرجع تاريخها الي

هكذا يسهل علينا أن نعزو الوضع الخاص لجزيرتي كورسيكا وسردينيا الي قربهما من القارة . فمسافة البعد عن القارة كانت أقل من ٥٠ كيلومترا في الوقت الذي كانت فيه جزيرة البا علي شكل شبه جزيرة ممتدة من ساحل توسكانيا . ويجب أن لا يدهشنا قدرة الانسان آنذاك علي عبور تلك المسافة علي لوح مسطح أو زورق منحوت في جذع شجرة ، فلا نحتاج هنا الي أن نتذكر وجود الزجاج البركاني الوارد من جزيرة ميلوس في حفريات طبقات أعالي العصر الحجري القديم (أي أواخره) في موقع فرانشيتي ، وفي موقع أرماديللوستيفانين في ليجوريا . وحتي فيما قبل ذلك لا ندهش اذا تذكرنا أن عبور مضيق نورس الذي يبلغ اتساعه الآن ١٧٠ كيلومترا قد عبره الاستراليون الذين اصبحوا محليين لدرجة تسميتهم بالأستراليين الأصليين .

علي ذلك لابد أن نقبل – كقضية مسلمة – أن الانسان حتي قبل أن يعرف تشكيل الفخار وحرقه لم يتردد في أن يغامر بركوب البحر . فهل حدث آنذاك أن ظهرت الأغنام المستأنسة في الوقت الذي كان فيه أقدم تبادل عبر البحر الأبيض المتوسط مازال في بدايته . ولم يكن قد اتخذ بعد شكله الفعلي ؟ وهل تم ذلك عن طريق سلسلة من الاتصالات الملاحية كانت تتم علي مراحل قصيرة انتقالا من جزيرة الي أخري ؟ يبدو لنا أن ذلك ممكن ، خاصة اذا ما تذكرنا وجود أغنام كاستالينوفا في شاتونيف لي مارتيجوي ، والعثور علي بقايا أغنام في الطبقة الثامنة عشرة من حفائر ارجويناسينولا . ولكن هذه المجموعة من الآثار ، وكذلك آثار أغنام جراماري التي ترجع الي العصر الحجري الوسيط ، مازالت موضع جدال . في الوقت نفسه نجد أن هناك صلة قائمة ومؤكدة بين الأغنام البرية والفخار القديم في جميع المواقع باستثناء موقع أو اثنين في رأس نافيجاتا . أما بالنسبة للأغنام التي ترجع الي العصر الحجري الوسيط والتي عثر عليها في منطقة مأودي (في موقع دورني ، وكهف الغزال) فانها معاصرة لأوائل الأغنام التي ترجع الي العصر الحجري الحديث ، بل يبدو انها مولدة عنها .

وربما تدهشنا أيضا انتشار الأغنام عن طريق البحر ، فمن الصعب أن نتصور امكان حمل الحيوانات في الزوارق الخفيفة ، ولكن لماذا نتمسك بهذه النظرة المحدودة ونتمسك لفكرتنا عن أن قدرة انسان ما قبل التاريخ كانت محدودة فتقتصر تصوراتنا علي استخدامه الزوارق الخفيفة ، فقط ؟ حقا إن الملاحة للوصول الي جزيرة لامبادوسا أو بانتيلاريا أو ابيبيزا تحتاج

الي معرفة وخبرة ممتازة في اجتياز البحار حتي مع وجود قوارب اكبر من الزوارق الخفيفة والمحفورة في جذوع الأشجار ولم نعثر مع الأسف علي أي آثار تدل علي وجود أي قوارب كبيرة . لم نعثر الا علي عوامات قليلة مصنوعة من جذوع الأشجار كانت تستخدم في الأنهار وفي المصبات الخليجية والخلجان واقدمها ما اكتشف أخيرا في نويين علي نهر السين وقدر تاريخها بالاشعاع الكربوني ١٤ في الألف التاسعة أو الثامنة قبل الميلاد . ولم نعرف شيئا عن استخدام قوارب طويلة ذات غاطس عميق تسير بالمجاديف أو الشراع ال من الرسوم التي عثرنا عليها في بحر إيجة . وكان المصريون آنذاك يعرفون بناء القوارب من ألواح خشبية مثبتة مع بعضها بالتعشيق وتتكون نقوشات مقدماتها ومؤخراتها وجوانبها من كتل مصنوعة من أعواد البوص .

ومع الساعات القليلة أو الأيام القليلة التي كانت تتطلبها الملاحة خلال الألف السابعة والسادسة قبل الميلاد لم يكن أصعب مما نتصور أن تحتل القوارب قليلا من قرب المياه أو سلال الفاكهة وأكياس اللحوم المدخنة ، أو ربما عدد قليل من صغار الأغنام كذلك حتي الصغيرة منها من السلع ذات القيمة الكبيرة التي كانت تقدم كهدايا لقبائل العصر الحجري الوسيط التي كانت آنذاك علي استعداد للتأثر بجماليات ثقافة العصر الحجري الحديث .

ولا يعوزنا سوي أن نتصور الدهشة التي غمرت برابرة الغرب حينما قدمت لهم لحوم الانعام دون اضطرار الي صيدها ، فربما ساعدنا هذا التصور علي أن نتفهم السرعة الكبيرة التي انتقلت بها الأغنام عن طريق البحر .

جبرائيل كامبس

(جامعة بروفانس)

منهج لدراسة الحياة البشرية

و . كيم روجرز

إذا كانت الحقيقة – داخل حدود الحياة البشرية – هي – كما قال فيكو (Vico) هي ما يصنع ، فإن واجب دارس الحياة البشرية يمكن أن يكون ، وينبغي أن يكون ، الكشف مما صنعته الكائنات البشرية عن أي نوع من الصناع هم يكونون ، وأي أنواع الانتاج تسمح به ظروفهم .

ينبغي أن تبذل عناية خاصة للطرق المتنوعة التي تعيش بها الكائنات البشرية علي نحو ما يكشف عنه البحث في مجالات مثل علم الانسان (anthropology) ، وعلم الآثار (archaeology) ، والتاريخ (history) ، وكذلك علم النفس الاكلينيكي (clinical psychology) . وكما تبين المناشط البشرية ، علي اختلافها الكبير ، وفي ظروف متشابهة أيضا ، أن الكائنات البشرية يمكنها أن تختبر ، وأن تفعل أشياء كثيرة لا تفعلها ، لذا ينبغي للمرء أن يكشف أيضا عن الطرق التي بها تفرض قيود أو رقابة علي صنع حياتها كأفراد . وكأعضاء في هيئات اجتماعية مختلفة اختلافا تاريخيا واجتماعيا .

ترجمة : الدكتور حسن صبحي بكري

وعلي خلاف إجراءات ديلثي Dilthcy التي تستلزم الكشف ثانية في العالم عن تشعب البناء العقلاني العام للكائنات البشرية (١) فإن الحياة البشرية الواقعية ينبغي أن تعامل علي أنها "مرايا" تنعكس منها الطرق التي يتبعها الفرد ، وهيئته الاجتماعية عندما يعملان ويختبران في ظروفهما ، فنري منها العلاقات الحيوية رؤية واشحة ومحددة تماما ، كما تري العلاقات الأخري – الأقل منها صلة – رؤية أكثر عتمة ، وعلي مسافة بعية . إن السبيل الوحيد لتفهم حياة بشرية خاصة أو حياة هيئة اجتماعية خاصة تستلزم فحصها من خلال كثير من مثل هذه "المرايا" – ولكن لما كان عددها غير مهم فإن .»الصورImages» الناتجة لا يمكن البتة تركيبها لتكون بناء كاملا ومترابطا عقلانيا . إن الحياة البشرية لا تمثلها صيغة شمولية يكون لكل عنصر فيها موقع مقرر منطقيا وصلة لا تتغير بجميع العناصر الأخري ، ولكنها يجب أن تري في ضوء صلات تاريخية متنوعة خاصة بأعمال وخبرات من الماضى والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بظروف يمكن بها أن تتغير .

هل يلزم هذا الأمر المرء بشكل من الأشكال النسبية (relativism) ؟ إن هذا لسؤال يثير قضية خيالية ، لأن طريقة فهم النسبية واطلاقيتها (absolutism) المترابطة وغير القابلة للانفصال قائمتان علي امتداد زائف لموقف تجريدي صحيح نحو الواقع (reality) . وكلاهما يقبل انفصال الذات عن العالم مما لا يحدث الا في التجريد وكأن به تمييز واقعي ، مع قبول نظرية تشابه خاصة بالحقيقة التي تفترض مثل هذا التمييز . ولما كانا قائمين علي هذه المقدمة المنطقية الزائفة ، وذلك لا يساعدنا علي فهم أي شئ البتة فان كلا هذين المصطلحين وطرق الحكم التي يشيران اليها ينبغي لنا أن نسقطها من قاموسنا الفلسفي والعلمي .

فإذا خلصنا الي أن مجرد التحكمية (arbitrariness) أمر غير مقبول من الناحية المنهجية (methodologically) ، فكيف ينبغي للمرء أن يقرر حدوده ؟ أي كيف ينبغي للمرء عندما يدرس عادات فرد من الأفراد ، أو أعراف هيئة اجتماعية أن يقرر ما ينتمي أولا ينتمى لبحثه ، كيف يقرر في أثناء دراسته للأحداث متي تبدأ هذه الأحداث أو متي تنتهي ؟ ما الأمور المرشدة أو القواعد التي ينبغي تطبيقها هنا ؟ ألا ينبغي أن ندخل أنفسنا في مصطلحات قيمنا مما يجلب النظام والحدود لتساؤلات المرء ؟ وسواء كان هذا حقا أو لا فإن الذي يرشدنا دائما في اقرار ما يجب أن نعلمه هو الشئ المهم لنا في ظروفنا نحن . ولما لم

يكن ثمة بديل واقعي فإن المرء عندما يقرر حدود موضوعه ينبغي أن يبدأ بتوضيح دوره هو باعتباره المنظم لمواده .

من المسلم به علي نطاق واسع اليوم في الدراسات البشرية أن المرء يستخدم لغة هيئته الاجتماعية ووسيلة المعرفة الخاصة بها كي يحصل علي المعلومات المتعلقة بموضوعه ، أي أنه لما كان الترتيب الاجتماعي (socialization) هو الوسيلة (medium) التي يمكن بها أن تدرس الكائنات البشرية الأخري والهيئات الاجتماعية البشرية بأية حال ، فإن ذلك يجب أن تشمله دراساته . ومع ذلك فعندما يبدأ المرء في أن يدرس الكائنات البشرية فإن منهجه ينبغي أن يؤدي به الي أن يسأل أسئلة لا عن طريقة الاتصال عند تلك الكائنات البشرية فقط بل عن الكائن البشري الذي تستخدمه أيضا ، ويجب أن يكون البيان الذي يعطيه المرء بيانا يسمح للآخرين بأن يكونوا قادرين علي اعطاء بيانات مختلفة عن بيانه .

وقد يقابل المرء هذه الطريقة العكسية لتفهم مواد الدراسات البشرية بطريقة اتباع هاسرل Huserl ، وقد عبر جورويتش Gurwitsch (٢) عن هذه الطريقة أحسن تعبير ، وهو الذي كان يري أن دراسة كل موقف ثقافي تقتضي ضمنا اعمالا شعورية تجعل من العالم الثقافي المعين لجماعة تاريخية اجتماعية ندا مرتبطا بها ، ولذلك فمهمة علم الظواهر (phenomenology) هي البحث والكشف عن هذه الاعمال الشعورية وبقدر ما تتطور العوالم الثقافية في استمرارية تاريخية مع بعض بقدر ما يؤدي هذا الأمر الي دراسة التطور التاريخي للشعور (٣) .

ولكن جورويتش يؤكد ذلك قائلا « من وجهة النظر التاريخية ليس ثمة حق لاعطاء أي عالم حي خاص امتياز من الامتيازات » وعلي الرغم من الفوارق الموجودة بين العوالم الثقافية وبالتالي بين أشكال الحياة الشعورية المرتبطة بها ، فهي جميعا . كما يري تغيرات داخل اطار لا يتغير كما يحدده البناء الشامل والجوهري للشعور . إن ما يهم في هذا السياق الحالي، كما يؤكد مرة ثانية ، هو الاشارة الي الشعور باعتباره الوسيط الوحيد والشامل للدخول .

ومع ذلك فان من الأمور المريبة ، إن لم يكن ذلك من قبيل الاختزالية Redwctionism

غير المبررة أن تفهم أعمال كائن بشري وخبراته علي أنها « أعمال شعورية » act of Consciowsness فقط . وإلي جانب ذلك فإن لجوء علم الظواهر المبهم إلي الشعور كوسيط للدخول إلي العالم يفترض ضمنا أن الآخرين أشياء يجب علي المرء أن يأتي اليها . ولكن الشعور ليس بضروري بهذا المعني لان الآخرين يقدمون معا الي الحياة مع المرء نفسه ، وهم علي نحو ما قريبون إلي المرء كقرب المرء نفسه لان المرء لا يكون ألبتة منفصلا تماما عن الآخرين حتي الممات .

ليس « شعور ...... » بل الحياة البشرية هي في الحقيقة الواقع الأساسي عند الكائنات البشرية لأن ذلك الامر ، خارج ذاته وداخله ، لا يمكن فهمه أو معرفته . فإذا كان علي كائن بشري أن يفهم نفسه أو أي شيء آخر فإن من المسلم به أن حياته – وهذا بالمفهوم السيري [biographical] وليس بالمفهوم البيولوجي [biological] هي الحقائق الاساسية الرئيسية . إنها لذات أهمية قصوي لا لان الحياة البشرية تكون [أو لا تكون] مختلفة عن حياة الاشياء الواقعية الاخري ، بل لان الحياة البشرية هي مفتاح فهم كل ما يتبقي . إن كل شيء يفهمه الكائن البشري موجود في حياته ، كعنصر أساسي منه .

إن الحياة عند الكائن البشري – كما قال أورتيجا ortega – « هي مسألة ما نفعل وما يحدث لنا » ومسألة « التعامل مع العالم ، والتوجه اليه ، والعمل فيه ، والانشغال به » إذن سوف تبحث الدراسات البشرية الفرد الحقيقي والاعمال المشتركة للكائنات البشرية وخبرتهم في الظروف التي يعملون ذلك بشأنها ، لا يدرس المرء التطور التاريخي للشعور ، بل التتابع التاريخي لاعمال الكائنات البشرية ، خبراتها في ظروفها .

ولا يمكن إن يكون صحيحا أيضا أن لا يخصص امتياز – من وجهة نظر تاريخية – لعالم حياة خاص ، لانه عند كل جماعة تاريخية اجتماعية ، وكل فرد كذلك ، يكون ماضيهما ذا أفضلية جوهرية علي حاضرهما . إن الكائنات البشرية تكدس ماضيها ، وتحمله معها . ويجب عليها أن تختبر حياة بشرية في الحاضر في ضوء هذا الماضي تماما [الذي منه تنطلق نحو المستقبل] .

ويمكن تشبيه تقدم المرء بهذه الطريقة بذلك التقدم الذي يميز سير المرء في طريق غابة طوله خمسة أميال حيث سيعرف المرء أنه يجتاز الميل الرابع لانه قد اجتاز الميل الاول، والثاني، والثالث، وبالاضافة الي ذلك فإنه بعد رؤية تلك الاماكن الاخري في وقت سابق فإن المكان الذي يكون فيه الآن يراه مختلفا عما اذا كانت رحلته قد بدأت في هذا المكان ، لان المعني الذي سيكسبه يتغير دائما علي طول الطريق بسبب تلك العملية التي تسمي [خبرة الحياة] التي ينحصر اختلافها الرئيسي في أن المرء قد مر بتلك الاماكن الاخري وأنه قد رآها من قبل .

ولما لم يكن بد من معرفة صلة الماضي بالحاضر والمستقبل فهل يمكن معرفة الاحداث الماضية معرفة صحيحة ؟ فإذا أمكن المرء – وهو ما لا يكون ممكنا – أن يضع جانبا فهم المؤرخ لذاته ولعصره ، فما زال الجواب بالنفي . لا مفر من المفارقة [anachronism] التاريخية ، لان المرء عندما يعود الي الاحداث السابقة تكون الاحداث اللاحقة قد حدثت من قبل ، وبذلك لا يمكن بالفوز بالماضي كما كان . ولا يستطيع المرء البتة أن يفهم الماضي كما كان لأن لمرء يعرف الكثير بدرجة مفرطة ، فيعرف المرء ما لم يعرفه أولئك الذين يرغب في تفسير حياتهم ، أي ما كانوا يرغبون في اختياره ، وماذا كانت نتيجته ، وما كان يتبع ذلك وعلي هذا النحو – وعلي سبيل الوهم والتناقض – تكون نظرة المرء الي الماضي محددة لانه لا يبحث الا عن تلك البدائل السابق اختيارها والتي يمكن المرء – من وجهة نظره الحالية – أن ينسبها الي تلك النتيجة .

هل يمكن تفسير الاحداث الماضية؟ أي هل يستطيع المرء أن يكتشف أسباب الاحداث الماضية ؟ كلا ، لان التاريخ لا يمكن تمثيله كسلسلة طولية واحدة . إن البحث عن الاسباب في التاريخ ينبثق من [النتائج] التي لم يكن في الامكان تحديدها أمام اختيارآت الافراد الضالعين لأن هذه [النتائج] كانت عواقب اختياراتهم من بين عدة أزمان مستقبلية ممكنة . ولا يستطيع المرء البتة أن يعرف قدرا كافيا يعرف به السبب في أن تلك كانت الاختيارات التي قرروها لان علي المرء أن يعرف أيضا تلك الامكانات الاخري . ماذا كان يمكنهم أن يفعلوه ، ولكنهم لم يفعلوا ، وما هي صلة اختياراتهم وتلك الامكانات بعواقب القرارات السابقة والامكانات المستثناة المرتبطة بهذه الي الابد [adinfinitwm] وعلاوة علي ذلك لما كانت هذه الاعمال – وهي المختارة من بين عدة أزمان مستقبلية ممكنه – موجهة الي هدف فإن الاعمال السابقة في حد ذاتها لا تقرر الاعمال انتالية . إن الأعمال التي يتلو الواحد منها الآخر لا تعتبر بذلك

أنها مترابطة بالمصادفة . فالأحداث التاريخية توصف - علي وجه أكثر ملاءمة - بأنها مترابطة بطريقة إبداعية ، مثلها في ذلك مثل أنغام موسيقية في قطعة مرتجلة ، كما يوجد مثلا في موسيقي ال "جاز" Jazz .

قد كان لدراسة " الطبيعة Nature أي العلوم الطب Ntural Science أثر بارز في جميع صور البحث في فترتنا التاريخية . وتنبثق العلوم الطبيعية من اقتناع ذي أساس متين علي ما يبدو فحواه أن بعض نواحي عالم الاشياء الحسية منتظم في اتسلق ، وخاضع لسلوك يمكن التنبؤ به ومتكرر دوريا وهي " الطبيعة Nautre إن " الطبيعة " هي تفسيرنا لهذه الاشياء . أي حل إرتآه بعض الكائنات البشرية ، بدءا - علي وجه الاحتمال - ببعض مستعمري " أيونيا Ionia "من الاغريق في القرن السادس قبل الميلاد . حل لمشكلات معينة وضعتها أعمالهم في ظروفهم . إن العلوم الطبيعية قد أثبتت أنها عون كبير لنا ، ولكنها يمكنها أن تصير أيديولوجية إذا ما اعتبرنا التجريد الذي تدرسه [أي الطبيعة] شامل للواقع بأسره.

إن الطريقة التي اتخذتها العلوم الطبيعية للحصول علي معرفة من الطبيعة في "أن تفسرها " . وإن التفسير يستبدل بالشيء المباشر شيئا آخر - كما يدعي - أكثر وضوحا . لقد حاول العلماء - عن طريق التنظير - أي وضع النظريات - البحث عن واقع مستتر خلف عالم خبرة كل يوم [لقد كان التنظير علي هذا النحو نوعا من البناء النموذجي] . تتكون النظريات من مفاهيم تكون إذن مترابطة في شكل قضايا أو أحكام تتعلق بأمور وعلاقتها بعضها بالبعض الآخر وبها يفسر المرء النواحي المنتظمة لعالم الأشياء الحسية ، ويتألف هذا الأمر اليوم عادة من نسبة "النتائج" [effects] إلي"الأسباب" . [causes] بلغة "القوانين" إن دور " القوانين laws " في البحث العلمي هو تقديم قواعد عامة ليستخدمها العلماء في الحصول علي حقائق معينة . أي إنها " تحكم "govern" الطريقة التي يبلغ بها المرء معرفة علمية بالواقع . وأن هذه " القوانين" تبررها فاعليتها وانها لذات شرعية عملية [operational Valedity] .

إن الحقائق التي تنشدها العلوم الطبيعية هي تلك الأنواع من التغيرات في العلاقة التي يمكن التنبؤ بحدوثها علي وجه الدقة . وعلاوة علي ذلك فإن الحقائق - وهي الي حد ما ذات استقلالية - يسبق اختيارها بفضل تطابقها مع المفاهيم المستعملة في النظرية العلمية .

وليس ثمة فجوة تفصل بين الحقائق والنظرية ، إنما المسألة استكمال أو عدم استكمال سلسلة تجريبية أنتجت نظريا بحقائق تثبت تجريبيا . ومع ذلك فإن العلاقة الجدلية dealectcal بين النظرية والملحوظات التجريبية تكون محفوظة . ولذلك يتطلب البحث العلمي أن يكونا عرضة للمراجعة النقدية بصفة مستمرة ، أي أن العلوم الطبيعية ذات تقنية مركبة فيها – buelt en mechanism للتصحيح الذاتي self - correcteo لنظرياتها وحقائقها .

إن الطريق الذي تسلكه العلوم الطبيعية اليوم كان غالبا طريق البحث عن القوانين التي قد كانت تحكم سلوك نسبة معينة من أناس معينين علي مدي فترة من الزمن قائمة علي التحليل الاحصائي statiscal analysies وليس البحث عن " قوانين " تمكن من التنبؤات بنتائج التفاعلات المستقبلية future interactions ومع ذلك لا تستطيع "القوانين" كوسيلة لدراسة حياة الهيئة الاجتماعية – تلك "القوانين" التي تعتمد صحتها علي استقرار الهيئة الاجتماعية أن تساعدنا علي فهم التغير الاجتماعي أو الاستمرار أكثر من الاحتكام الي "القوانين" من النوع الآخر .

لا تستطيع أية معالجة طبيعية [natwralistic] علي نحو صارم لأية مجموعة تاريخية اجتماعية أن تجعل الديناميكا dynamics المستمرة أمرا مفهوما ، تلك الديناميكا التي تصبح بها متحولة الي مجموعة مختلفة ، ولا أن تفسر كيف كان في الامكان أن تنشأ من شكل آخر من أشكال الحياة الجماعية في المقام الاول ولكنها لا تستطيع أن تفسر مصادر القوة لاعراف جماعة من الجماعات أو لماذا هي مستمرة . وصفوة القول أنها تخفي الحقائق الطارئة من الوجهة التريخية ، أي حقائق تغيراتها وحقائق استمرارها . وفضلا عن ذلك فإن هذه "القوانين" يمكن الاحتكام اليها أيضا من الوجهة الايديولوجية من أجل تبرير مقاومة تلك الجماعة للتغيير التاريخي .

ولكي يفهم المرء حياة البشر عليه أن يكف عن الزعم بأنها شئ طبعي وأن يسلم بالطبيعة التاريخية لنظام حياة البشر الذي يدرك به الكائن البشري الواقعي أو الهيئة الاجتماعية امكانات ظرف خاص بطريقة محددة معينة . وسواء ابتكرت صور جديدة من الحياة البشرية أو استمرت صورها القديمة فإنها يجب أن تفهم في ضوء علاقتها بتاريخها .

قال " أورتيجا " إن الحياة البشرية هي ما نفعله حول ما هو حادث لنا ، وعلي هذا

النحو تكون حياتي هي " ذاتي وظروفي " myself and my cirumstance بالمثل وصف " أوكسلول uexkull العمل Action ، والادراك [perception] بأنهما مترابطان في عالمي الحيوان والكائنات البشرية . ومع ذلك ينبغي للمرء أن يدرك ادراكا واضحا بأنه بلغة ما يستطيع كائن بشري أن يفعل ، أوما يفعل حول ما يحدث له يصبح هذا الامر من ظروفه هو ، تلك الظروف التي تناسبه حينئذ تناسبا جيدا أو تناسبا ريئا بوصفه فاعلا [Actor] .

إن عمل أي كائن بشري وظروفه يكونان محددين وغير محددين معا ، أي أن عمله يمكن أن يرتبط بظروفه داخل حدود علاقات ممكنه كثيرة . وإن الدور الذي يمثله كل منهما لا يصبح محددا الا بقدر ما يوجد داخل حياة فردية خاصة باعتباره نظاما . وبهذه الطريقة لا يصبح ذلك النظام محددا الا بواسطة العلاقات الخاصة بين الاعمال والظروف .

إن المعيشة هي ذلك النظام القابل للتعديل والخاص بالتفاعلات بين الكائن البشري وظروفه حيث ترتب نمذجة أعماله ونمذجة ظروفة بطريقة نشيطة وتفضيلية وهو لا يحتاج الي أي نظام خاص وإن كان يبدو وأنه قد يمتلك بضع أفضليات فطرية [innate] ولكن كثيرا من الاضطراب يبدو خطرا يهدد الكائن البشري [إذ بدت لنا أعمال أي كائن بشري أو ظروفه مضطربة فإننا نقول عنها إنها " قفرة wild ، وان " القفر widerness " يظل دائما عند أطراف الحياة البشرية] .

ولما كانت الكائنات البشرية تستطيع أن تفعل ، وتقدر أن تدرك أكثر بكثير مما هي في واقع الأمر تفعل وتدرك ، كان علي المرء أن يسلم تسليما مناسبا بنماذجها المفضلة في العمل والادراك كما قد بين " جولدشتاين Goldstein " فإن هذه النماذج المفضلة قيود مفروضة علي أعمال الكائن البشري ، وعلي ظروفة التي يبتكرها أو يكتسبها عن طريق اشتراكه في حياة هيئته الاجتماعية الخاصة . إن هذه الطرق المفضلة في نمذجة أعمال الكائنات البشرية وخبراتهم الفردية والجماعية هى التي ينبغي أن تكون موضوع الدراسات البشرية .

ينبغي للمرء أن يبحث في ماضي أي فرد من الافراد أو ماضي أي هيئة من الهيئات الاجتماعية عن نماذج مفضلة للاعمال والخبرات ، وأن يبحث في الحاضر عن تلك النماذج التي وجدت في الماضي ، وحيث تتداخل النتائج يكون ثمة هدف للدراسات البشرية ، أي أن

النموذج المفضل هو الذي يستمر . وحيث تتوقف عن التداخل يكون ثمة غرض آخر للدراسات البشرية : أي تحول النموذج المفضل أو المفضل أو تغيره . وإن الشيء الأخير وحده لا يدعو الي الفهم ، لان الاستمرار يحتاج الي الفهم أيضا . وإن الاستمرار وكذلك التغير في الحياة البشرية ينبغي أن يؤخذ قضية مسلمة ، بل يجب أن يكون لهما تفسير .

إن العوامل الرئيسية المؤثرة في الاستمرار تتضمن الدور الذي تمثله – كضوابط – الاشياء المصنوعة الحالية ، والادوات ، والمؤسسات والمناظر مما يجسد مهارات معينة ، ومواقف ، ومعتقدات ، وقيما ، وغير ذلك . وينبغي للمرء أن يلحظ أن دراسة الكلمات التي يستخدمها أعضاء هيئة اجتماعية معينة يمكن أن تكون أداة قيمة يستطيع بها المرء أن يفهم ويقدر ناحية من نواحي الحياة البشرية حدثت في الماضي ، لأنه غالبا يمكن أن يوجد في لغتها [كما يوجد في قوانينها] شيء من الاجداد البعيدين [Atavistic] بشكل حقيقي . ومع ذلك يجب أيضا علي المرء أن يتذكر أنه بعد اختفاء الاسباب الاصلية لظهور كلمة من الكلمات أو نشاط من الانشطة أو عرف من الاعراف بعد اختفائها بزمن طويل فإن هذه قد تستمر ، ولكنها بعد تغيير لوظيفتها أو معناها أو بعد أن توقفت عن أن يكون لها معني أيضا، تكون مفهومة .

إن دراسة المرء للنمذجات [patternigs] الفردية والعامة التي تفضلها الكائنات البشرية – نمذجات علاقاتها الحيوية ، وترتيب أعمالها وخبراتها مع البعض الآخر ، وظروفها – هذه الدراسة ينبغي أن تبدأ – كما قلنا آنفا – بفحص حياة فرد خاصة ، أو حياة هيئة اجتماعية خاصة تنعكس فيها هذه الأمور ، ولكن التقدم في الدراسات البشرية يعتمد علي قدرة المرء علي صوغ التعميمات من ادراكه للشيء الفريد [The unique] وينبغي لدارس الحياة البشرية عندما يصوغ التعميمات أن يسير مثل رسام الخرائط الذي يعمل في منطقة غير مرسومة ، علي الرغم من أن الرحالة ربما وطئوها تماما ، لكي يعين حدودها ، ومظاهرها الرئيسية ، ويضع العلامات التي قد تهتدي بها الكائنات البشرية الاخري فيما بعد، برؤيتها علاقات كل منها بالبعض الآخر ، كلما تحركت هذه الكائنات في المنطقة للاستقرار فيها وتنمية مواردها .

أي إن المرء يعمم عندما يتخذ نمذجات [patternings] مفضلة لأعمال وخبرات فردية أو عامة لتكون " نقاط أصل points of origin " لكي يربط بينها بواسطة

وصف متكامل أو تخطيط [Schema] ، وبدون تمثيل الظهور الكامل لجميع نماذج الاعمال والخبرات هذه بخصوصياتها والمميزات والأستثناءات التي تتبعها مع ذلك بوصفها وقائع تاريخية ، لا يمكن أن تتكرر ، وفريدة ، فإن هذا الوصف أو التخطيط ، مع ذلك ، يظهر امكانية ارتباط بعضها بالبعض الآخر . ولما كان تخطيط هذه النمذجات المفضلة للاعمال والخبرات يعتمد علي إمكانية ترابطها الواضح كأجزاء لنظام يمكن تعديله في حياة الكائن الحي الخاصة ، فإن ذلك يقوم حينئذ بدور حاسم ، بخصوصه تكون التفصيلات مشتملا عليها في التخطيط [Schema] .

وأخيرا فعندما يربط المرء بين عدد من الاوصاف (schemata) حتي يستبين منها أوجه الشبة وأوجه الاختلاف قد يشتق من المقارنة بينها أوصافا محلية أكثر تعميما ، أو عالميا أيضا عن الطرق التي تتبعها الكائنات البشرية في صنع حياتها الفردية أو الجماعية .

وإنه لأمر عظيم الأهمية أنه عندما يصف المرء بعامة نوعا من الارتباط بين النماذج المفضلة في مواده ينبغي له أن يدرك متي تستعمل الاستعارات ، وأن يتأمل بعناية أي نوع تكون هذه الاستعارات ، لأنها سيكون لها أثر حاسم – وإن لم يكد غالبا أن يكون مسلما به – في نوع الارتباطات والاختلافات المنشودة . وعلي وجه التخصيص فعندما يتعين وصف نظام الحياة البشرية المنتجة تاريخيا فإن من الواجب تجنب استخدام أي نوع من الاستعارات المشتقة بيولوجيا ، وأيضا مثل هذه الصور [images] التي تبدو ساذجة مثل "النمو" growth "و" التطور" development أو الانحدار decline وبدلا من ذلك ينبغي للمرء ألا يستعمل سوي هذه الصور التي تبين تفاعلات الكائنات البشرية بعضها مع بعض أو تبين ظروفها .

وعلي الرغم من أن كل وصف موجز [Schema] يخلص اليه المرء عن طريق وصف تعميمي لناحية من نواحي حياة بعض الكائنات البشرية علي الرغم من ذلك ، يكون هذا الوصف الموجز شيئا ينتجه دارس الحياة البشرية . لذلك يجب علي المرء أن يقاوم دائما إغراء رؤية ما ينتج عن عمله علي أنه كان حاضرا من قبل كما هو في حياة تلك الكائنات البشرية . إن صحة الوصف الموجز تنحصر في الخصب والقدرة علي التعميم التي لكل من النماذج المفضلة الخاصة للعمل والخبرة التي يري اعتبارها " نقطة الاصل point of origina " أي أن عدد وتنوع النماذج الاضافية للعمل والخبرة التي أقامها الوصف الموجز علي هذه

يساعد علي الربط أو المقارنة بين بعضها والبعض الآخر .

ولكي ألخص ما ذكرت فإن للمنهج الذي أقترحه لدراسة الحياة البشرية الأركان الأربعة التالية :

١- الانعكاسية Reflexivity :
أي أن يتخذ المرء من حيوات بشرية واقعية متنوعة يعاملها علي انها "مرايا" تنعكس فيها بوضوح تقريبا طرق الفرد وهيئته الاجتماعية في العمل والاختبار في ظروفهما ، وكذلك أن يوضح المرء أيضا دوره بوصفه منظما لهذه المواد حتي يقرر ما يحتاج الي معرفته علي وجه التحديد – أي ما هي حدوده الموضوعية thematic والزمنية الخاصة لموضوعاته – بلغة ما هو مهم له في ظروفه هو نفسه .

٢ – الانتماء التاريخي Historicallity ، أو ادراك القابلية للتعديل في ترتيب حياة الفرد والحياة الاجتماعية ، أي ملاحظة علاقات الفرد أو الهيئة الاجتماعية بماضيهما ، وحاضرهما ، ومستقبلهما ، والتتابع التاريخ لأعمالهما وخبراتهما فيما يتعلق بظروف قد تتغير بذلك ، وكذلك مراعاة ما يؤثر فيها مما نسميه «خبرتهما بالحياة experi-ence of life وتراكم ما ضيهما الذي به يتغير المعني الذي سيكون للماضي والحاضر والمستقبل عن طريق وجودهما في تلك الأزمات السابقة .

٣ – ادراك الأفضلية في نماذج أعمال الكائنات البشرية وخبراتهم : أي بحث الطرق المفضلة التي بها تنمذج patterning مختلف الكائنات البشرية أعمالها وخبراتها في حياتها الفردية والجماعية ، وبالتحديد البحث في حاضرها عن نماذج موجودة في الماضي لكي تبلغ – علي هذا النحو – ادراكا للنموذج المفضل الذي يستمر ، وإدراكا لتحول أو تغيير النموذج المفضل .

٤ – الإيجاز الوصفي schematizing أي تعميم generalization النماذج المفضلة لعمل الكائن البشري وخبرته : أي معاملة النماذج المفضلة للأعمال

والخبرات عند الفرد أو الهيئة الاجتماعية علي أنها نقاط الأصل "points of origin" لربطها عن طريق وصف متكامل أو موجز وصفي يعتمد علي علاقتها الواضحة بعضها ببعض (أي الواضحة لدي الباحث) كأجزاء من النظام القابل للتعديل الخاص بحياة بشرية خاصة ، وكذلك تجميع أوصاف موجزة schemata حتي تري أوجه التشابه فيها والاختلاف ، ويعبر عنها بواسطة أوصاف موجزة أكثر عمومية أيضا . وينبغي للمرء أن يلحظ أيضا الحاجة الي تغيير هذه الأوصاف الموجزة إذ أن بعض هذه النماذج المفضلة المترابطة علي هذا النحو تتغير علي مدي التاريخ أو يبطل استعمالها ، أو تبتكر لها نماذج جديدة.

إن منهج العلوم الطبيعية ، وعلم الظواهر المبهم transcendental phenomenology ينفصلان عن الحياة البشرية ، أحدهما ينفصل عن التاريخ ، والآخر عن أعمال الكائنات البشرية التي علي قيد الحياة وإن المنهج الذي أجملته آنفا –علي عكس ذلك – يجعل من الممكن دراسة حياة البشر الواقعية .

و . كيم روجرز
جامعة ولاية إيست تنيسي

المراجع

(١)

W. Dilthey, "Entwirfe zur Kritik der historischen Vernunft", Gesammelte Schriften, Leipzig and Berlin, B.G. Teubner, 1927, Vol. VII, p. 101. Northwestern University Press, 1974, P. 11

(٢) علي الرغم من أن الملحوظات الآتية تعبر عن بعض الأسباب التي قد طورت من أجلها طريقة مستقلة عن طريقة «جورويتش » ، واتباع «هوسرل» الآخرين . وإني يجب أن أعترف أني سأكون دائما مدينا له لإطلاعي علي أهمية «كورت جولدشتاين» ، وتقديمي اليه ، وهو الذي تتضح صلة عمله بالدراسة الراهنة فيما بـ . . في هذا المقال

A. Gurwitsch, Phenomenology and the Theory of Sience, (٣) Evanston, III., Northwestern University Press, 1974, p.11.

(٤) Ibid., pp. 24,25

(٥) Ibid., p. 12.

(٦) إذا كان هناك مراقب وأمامه كائن بشري آخر أو حيوان ، ويرغب في بحث عالمه ، كان عليه أن يدرك أن الدلالات التي يري أنها تصنع عالم هذا الكائن الحساس الآخر هي دلالاته هو ، ولا يرجع أصلها الي عجب ذلك الكائن الآخر بعالمه الذي لا يستطيع أن يعرفه بطريقة مباشرة علي الإطلاق ، ولا يستطيع أن يفهم الحيوان الا باعطائه طبيعة البشر بصفة جزئية . وتنحصر مهمة المراقب الرئيسية في تقرير عدد دلالاته هو وطبيعتها ، دلالاته التي تظهر في العالم المحيط للآخر ، وفي أية فئة يعملان كدلالات فيه ، بملاحظة أولئك الذين يؤثرون فيهم .إن مدي الدلالات وتنوعها مثبتة بواسطة التكوين الجسماني لكل كائن حساس . قارن .

J. Von Uexkull, Theoretical Biology, New York, Harcourt, Brace and Co., 1926, pp. 78-84

J. Ortega. Y. Gasset, Some Lessons in Metaphysics, New York, Norton, 1969, p. 36, History as system, New York, Norton, 1961, p. 14 قارن What is Philosophy ? New York, Norton, 1960, pp. 216-218

(٨)

J. Ortega Y. Gasset, Meditations on Quixote, New York, Norton, 1961, p. 45

(٩) بالطبع منذ أن استحثت أعمال «أوكسكول» جزئيا فكر «أورتيجا» نفسه ، تلك الأعمال التي كتب مقدمة لأحدها .

Obras Completas, Madrid, Reviste de occidente, 1966, Vol.VI

(١٠) J. Von Uexkull, World of Animals and Man, in Instinctive Behaviors, C.H. Schiller, ed. New York, International University Press, 1957, p. 49.

(١١) كما لم يدرك «أورتيجا » لأنه يبدو أنه كان ذا رأيين في هذا الموضوع قارن .

Origin of Philosophy, New York, Norton, 1967, p. 39, Man and Crisis, New York, Norton, 1958, pp. 107-108 and Man and people, New York, Norton 1967, pp. 61-61

(١٢)

Otto Fridrich, " What do babies know?" Time, vol. 122, No. 7, August 15, 1983, pp. 52-59.

(١٣) قارن :

Cf. K. Goldstein, The Organism, Boston, Beacon, 1963, pp. 35-48, 42-44; also, Human Nature in the Light of Psychopathology, New York, Schocken, 1963, pp. 85-87

(١٤) K. Goldstein, The Organism, pp. 340-366; Human Nature in the Light of Pschopathology, pp. 174-186

الفلسفة المقارنة :

ما هي ؟ وماذا ينبغي أن تكون ؟

دايا كريشنا

إن كافة الدراسات المقارنة تضمر شيئا من المماثلة أو المطابقة ، وشيئا من المخالفة أو المايزة في ذات الوقت ، وهو موقف يحفل بكثير من العسارة الفكرية التي ينبثق عنها خلاف لا ينقطع يتصل بالتساؤل عما إن كان ما نعرض له هو الشئ نفسه أم أشياء عدة . ويستطيع المرء أن يحل هذه العقدة الجوردية* بتقرير أي منهما ، ولكن الوضع سيعاود الظهور مرة أخري كما لو كان مقيدا بمنظور المقارنة نفسه وليس بمثال بعينه منها . وحتي متي سنظل ماضين في "التعريفات الإسمية" ، إذ أن العملية لن تنتهي ، وفي الختام فان "كل شئ هو ما هو وليس شيئا آخر" . ولو زهدنا في «التعريفات الإسمية» حيث لا تكاد تعطينا معرفة تذكر وآثرنا «التعريف بالوصف» الذي يعطينا «الوقائع» فهو أيضا موصول لا ينتهي كالأسماء ، فكما علمنا الجانيين ** منذ أمد بعيد انها من عمل الدرستي التي نملكها أو وجهة النظر التي نتبناها .

---

* Gordian Knot : كناية عن العقدة التي يحكم وثاقها ، وتعود التسمية الي الأسطورة الإغريقية التي تقول بان جورديوس - والد ميداس – الفلاح الذى صار ملكا على فريجيا حسب اسطورة زعمت للفريجيين ، بأن خلاصهم من زمن سادت فيه الفتن لن يكون إلا بتولية أول من يقترب من معبد زيوس في إحدي العربات وكان هذا الشخص هو جورديوس الذي راوه ملكا عليهم ، وقام عقب توليه الملك بتكريس هذه العربة للإله وثبتها في أحد الصواري بعقدة محكمة كانت سببا في نشوء اسطورة أخري تقول بان من يستطيع فكها سيكون له ملك آسيا ، ويقال أن الاسكندر هو الذي قطع هذه العقدة بسيفه (المترجم)

** JAINS : المشتغلون بفلسفة هندية تقليدية تنشغل بتفسير الآداب والنصوص الفيدية ، وتشمل جزءا ينشغل بالكتابات الباكرة التي تهتم بالممارسات الصحيحة ، وجزءا أخر ينشغل بالكتابات المتأخرة التي تعني بالفكر الصحيح (المترجم)

DRSTI ***.

المترجم : محمد عزب

« كيف يكون المشابه مشابها ؟ » سؤال يمكن أن يطرح دائما وهو بلاء كل المقارنات اذ يصيبها باللايقينية والالتباس وهو داء عضال من ناحية المبدأ . ومع ذلك فان الهوية المجردة شئ لا يستهوي أحدا . ف أ = أ تدفع المرء بالكاد للتحرك قدما ، و أ = ب كما يعرف كل انسان منذ فريج تثير من المشكلات ما يبدو عصيا علي أي حل ، علي الأقل بالنسبة للعقل النظري الخالص . وبالنسبة للعقل العملي ، بصفة خاصة غير ذاك الذي يسميه كانت «خالصا» ، فلا مشكلات لديه علي الاطلاق مع تلك المصاعب التي يثيرها العقل النظري الخالص أو حتي غير الخالص ، وهذا الموقف هو ما جلب علي الفلاسفة هذا الامتياز المبهم في أن يعتبروا أكثر الناس بعدا عن الواقعية في العالم .

ولكن «الدراسات المقارنة» ليست مقارنات فحسب ، إنها مقارنات بين مجتمعات وثقافات وحضارات . وعبر التخوم التي حددناها بـ "نحن" و "هم" فان عالم «الدراسات المقارنه» هو محاولة لا مندوحة منها للنظر فيما هو -علي وجه التحديد- حقيقة أخري من وجهة نظر خارجة عنها . والتناقض الذي يكمن في الأساس الفعلي « للدراسات المقارنة» يمكن البحث عن تفسير له بمناشدة كليات كافة المعارف ، واندماج هذه المعارف في "نحن" -الناعمين بالامتياز- الذين من خلال وجهة نظرنا يتم الحكم علي كافة المجتمعات والثقافات "الاخري" وتقويمها . وتكمن جذور هذا "الوضع المتميز" في القوة السياسية والاقتصادية للمجتمع الذي حدث وكان الرائي واحدا من اعضائه . إن الدراسات الانثربولوجية التي تنبثق منها معظم «الدراسات المقارنة» كانت - في جملتها - الحاقا لامتداد النفوذ السياسي والاقتصادي لبعض بلدان غرب أوربا علي العالم خلال الثلاثمائة عام الأخيرة أو ما يقرب من ذلك ، ولما كان هذا الامتداد قد جاء مصحوبا ، لا بالنمو الظاهراتي في بعض مجالات المعرفة التقليدية فحسب ، بل أيضا بتعيين وتثبيت الحدود الفاصلة لمناطق جديدة تتوخي ميادين جديدة للمعرفة ، فإن الاحساس بالمطالبة بصلاحية شاملة لكل ما يدعي بأنه معرفة تنتمي الي ما تم اكتشافه في الغرب كان مطلوبا تسويغه وتبريره . وهكذا نظر اليه كمعيار كلي يتم بواسطته الحكم علي كافة المجتمعات والثقافات الأخري في أي مكان بالعالم ، لا في ميادين المعرفة وحدها ، بل في كافة الميادين سواء أكانت تتصل بها أم لا.

وهكذا فإن الدراسات المقارنة تعني -في الواقع - المقارنة فيما بين كافة المجتمعات والثقافات بمصطلحات المعايير التي تزودنا بها المجتمعات والثقافات الغربية في مجالات المدرك وغير المدرك ، وبدلا من أن ينظر المفكرون ممن ينتمون الي المجتمعات والثقافات الأخـــري الي

المجتمع والثقافة الغربيين من منظورهم الخاص نراهم وقد قبلوا المصطلحات التي زودهم بها مفكروا الغرب ونراهم وقد حاولوا أن يظهروا أن ما تحقق في مختلف المجالات علي نطاق ثقافاتهم يوازي ذاك الذي في الغرب ومن ثم لا يمكن اعتباره اقل أهمية منه علي الاطلاق . وقد أعاق ذلك ظهور ما يسمي "مقارنة الدراسات المقارنة" التي ربما كانت قادتنا الي منظور أكثر توازنا في هذه المجالات .

وفضلا عن هذا فان ما يدعي بالدراسات المقارنة كان في المقام الأول بحثا عن الوقائع facts أو ترتيبا للمعلومات بشروط ومصطلحات بنيان تصوري conceptual structure قد سبقت صياغته في الغرب . أما القضايا التي كانت مدار بحث عن اجابات لها ، فقد كانت مقررة سلفا في ضوء العلاقات التي كانت تعتبر ذات دلالة أو النظريات التي كانت تحت الاختبار . وفي الحالات حيث كانت الثقافات تري مستقلة بذاتها فقد كانت بمصطلحات القيم التي تنتظمها النظم الثقافية بأكثر مما هي بمصطلحات بنيات تصورية تحدد الحقل المدرك بذاته ، ومهما يكن الأمر فان الفلسفة ليست الا بنيانا تصوريا في حد ذاته، ومن ثم فان أية محاولة للتفلسف المقارن كانت مضطرة الي أن تفضي الي ادراك بنيان تصوري بديل : الي اسلوب آخر في رسم تنظيم الحقل المدرك غير ذاك الذي تعوده المرء ، وبالرغم من أن من الطبيعي مثل هذا التوقع فلم يكن هذا ما حدث ، إذ كيف يستطيع المرء أن يسلم بامكان مخطط تصوري بديل عندما يكون "الممكن" نفسه مقيدا بمخطط تصوري وجد المرء نفسه مولودا فيه .

وهكذا وجدت <<الفلسفة المقارنة>> نفسها منذ البدايات الأولي غارقة حتي الأذنين في مستنقع التساؤل عما اذا كان هناك ما هو "فلسفة" خارج التراث الغربي ، واستغرق ادراك الباحثين بأن ما يدعي بتاريخ الفلسفة الذي كانوا فيه يكتبون ، ليس الا تاريخا للفسلفة الغربية ، وليس للفلسفة خارج نطاق نصف الكرة الغربية ، ردحا طويلا من الزمان . لقد كان راسل هو أول من اعترف صراحة وبالذات في عناوين كتبه مما يتصل بتاريخ الفلسفة بأنها تاريخ للفلسفة الغربية وليس للفلسفة بوجه عام . ولكن المشكلة بقيت كما هي حتي يومنا ، هل نعترف بما هو موجود كـ <<فلسفة>> خارج التراث الغربي أم لا ، وقد اثير السؤال مرارا وتكرارا فيما يتعلق بالفلسفات الهندية والصينية وهما التراثين البارزين خارج التراث الغربي . ومنذ عهد قريب تفجر النقاش حول ما اذا كان هناك شئ مثل الفلسفة في إفريقيا أم لا . ومن المثير للدهش أن هذا التساؤل لم يثر علي الإطلاق بالنسبة للفسلفة الاسلامية ، من المحتمل

لأنها اشتقت الهامها رأسا من الاغريق وشيدت بوعي منها فوق اعمالهم ، وفي الحقيقة فإن معظم تواريخ الفلسفة الغربية قد أفردت فصلا للفلسفة العربية ، ولكنهم يعاملونها في الغالب كشئ هام في سياق المدخل الغربي الي افلاطون وارسطو حتي حان الحين الذي أصبحا فيه متاحين في مصادرهما الاغريقية ، أو أيضا كفصل اضافي علي شئ ضئيل الأهمية في تطور التيار الرئيسي للفلسفة في العالم الغربي.

إن الجدل فيما يتعلق بوضع الفلسفة في الصين أو أفريقيا أو حتي العالم العربي ليس موضوع المناقشة هنا ، لهذا السبب البسيط ، وهو أنني لا أعرف الا القليل عن التراث الفلسفي في تلك الحضارات ، أما بالنسبة لمناقشة القضية الهندية التي أعرف عنها أكثر قليلا فربما يكون من المتوقع القاء بعض الضوء علي مشكلات الفلسفة المقارنة منذ أن ظهرت وحتي اليوم .

إن السؤال الأول والرئيسي الذي شغل بال كافة هؤلاء الذين عنوا بحق بما يسمي التراث «الفلسفي» في الهند يمت بسبب الي تلك النقطة الفاصلة ، وهي كيف يمكن أن يعد فلسفة بمعني الكلمة في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون معنيا قبل كل شئ بالانعتاق* ، اعني التحرر من إمكان مكابدة مطلقة ، تحررا يعد نهاية عملية ومحتومة لا يكاد يكون فيها ما هو نظري . يضاف الي هذا حسبان كيف يمكن لتراث معرفي ألا يعد فلسفيا بحق وهو يسلم بسلطان الوحي والالهام أو بسلطان قوة جبارة يفترض أن لها حق الهيمنة علي العقل والتجربة كليهما ، والحق يقال أن دائرة معارف الفلسفات الهندية ** قد سردت بصورة رسمية العلاقة الجبرية فيما بين الفلسفة الهندية والانعتاق ، وأكدت أن السالف لا يفهم دون اللاحق . فلا غرو إذن ألا تدرس الفلسفة الهندية في أقسام الفلسفة بمعظم الجامعات الغربية ، فلا الطلبة ولا المدرسون في هذه الأقسام يفترض فيهم أنهم يجدون السعي في سبيل الانعتاق . إن احالة الفلسفة الهندية الي أقسام الهنديات *** وعزلها الفعلي عن كافة الاهتمامات الفلسفية الفعالة اليوم يعبر عن نفسه . أما الوجه الآخر لنفس العملة فيشهد عليه ما يعرف باحياء الاهتمام بالفلسفة الهندية في أحرام الجامعات الغربية وذلك في أعقاب الولع ببعض الموضوعات علي نحو التأمل فيما يجاوز الخبرات الانسانية واليوجا ... الخ .

---

* Moksa : التحرر من الوجود اللا متناهي المتمثل في التناسخ في الديانة الهندوكية (المترجم)

** Encyclopedia of Indian Philsophy

*** Indology

*** Sutras الكتب المقدسة الهندية (المترجم)

ومع ذلك ، فعلي المرء أن يوائم فيما بين هذا الانطباع السائد عن الفلسفة الهندية ، وبين حقيقة أن أي عمل من أعمال الفلسفة الهندية (بورفا باكس Purva pakss) لا بد أن يقدم وأن يدحض ويفند قبيل أن يبني الانسان موقفه ، وعلينا أن نتذكر أن الموقف المقابل لا يجلي فحسب بل يقدم أيضا ، لا مع كافة الحجج التي سيقت في مصلحته فيما قبل ، بل وأيضا مع كل ما يمكن أن يتصور المرء فيه تدعيما له بأي طريقة كانت . واذا جزم المرء بشئ لم يستطع أن يوفر له مسوغا (هتو) hetu ، فعليه أن ينبذه من مجال الفلسفة وأن يكف عن درجة في عدادها . وحتي السوتراس *** الخاصة بالمدارس الفلسفية علي مختلفها ، والتي يفترض انها الأعمال الأساسية الخاصة بها . فانها لا تدلي باسباب المواقف التي تتبناها فحسب ، بل انها تدحض أيضا المواقف المضادة فضلا عن أن كافة الأسباب لا يمكن النظر اليها علي انها متساوية الصحة ، وأن الكثير من الفكر يمضي الي تحديد ما هو استدلال صالح وكيف يمكن تمييزه عما هو مضل غير صحيح .

ليس هذا فحسب ، فتاريخ الجدل الذي تضمه وثائق قضايا الفلسفة ، مفكرا تلو آخر ، وتطور هذا الجدل ونواحي القصور التي يحددها كل منهم في مواقف الآخرين ، لم يكن فيه تكرار متحجر للمواقف ، بل تعديل في موقف المرء في ضوء النقد الحاد للخصوم ، أو حتي إصلاح متطور لموقفه ، في ضوء هذه الانتقادات ، وإن الجدل الهام بين البوذيين والنيا بيكاس Naiyayikas الذي بدأ بـ"دينجاناجا" في القرن الخامس الميلادي وانتهي في القرن الحادي عشر تقريبا ، يحمل لنا الدليل علي ذلك . وقد شهدت هذه الفترة التي امتدت ما يقرب من ستمائة عام علي الجانب البوذي كثيرا من الشخصيات البارزة مثل "دينجاناجا" و "دهارماكيتري" و"دهارموتارا" و "سانتاراكسيتا" و "كمالسيلا" ينتظم ضدهم " أوديوتاكارا" و"كوماريلا"وبرابهاكارا" من مدرسة ميمانسا (١) ، و"فاكاسباتيميسرا" و"جياناتا و"أودايانا"

و"سري دهارا" . وبعد اختفاء البوذية من المسرح الهندي هناك الجدل الهام بين الأدفايتيين* "Advaitin" ومعارضيهم ، والذي كان آخر أعاظم من مثلوهم علي الجانبين "مادهوسودان ساراواتي" و" فايا ساتيرثا" علي الترتيب . والي جوار هذا نجد التطورات الثورية المتطرفة في الـ"نيايا Nyaya"** فيما بعد "جانجيش " في القرن الثاني عشر والتي استمرت حتي القرن السابع عشر ، فترة امتدت ما يقرب من خمسمائة عام ظهر فيها علي الأقل ستة وثلاثون مفكرا نالوا حظا كبيرا من الشهرة واسهموا بكتاباتهم في تطوير وتنقية الفكر المنطقي في الهند ، تطورا أرسي معايير جديدة للإحكام العقلي لم تستطع أية دراسة أن تبقي بمنأي عن تأثيره (١).

إن طول الفترة من القرن الخامس الميلادي حتي القرن السابع عشر ، والعثور علي دليل -علي درجة عالية من الوضوح – علي تفلسف ذو أساس متين ، مع تبادل مستمر للجدل والجدل المضاد فيما بين المشاركين نجم عنه اضطراد في صقل المواقف ، لهو انجاز عقلي علي أعلي نظام خليق بأن تفخر به أية حضارة . ومع ذلك فان الصورة العامة للفلسفة الهندية يصعب اعتبارها فلسفة بالمعني المحدد للكلمة في مفادها الغربي ، لأنها معنية قبل كل شئ بالانعتاق Moksa ولا تستطيع الفكاك من قيودها التي تربطها بانكشاف الحقيقة العلوية revelation التي تعدها شيئا قاهرا يعلو فوق العقل والتجربة .

وعلاوة علي هذا ، فإن هذا المعني المترف للكلمة التي يحمّلها الغرب بزعم تحكمي ، والذي يفترض انه يزودنا بالمعايير الاصطلاحية التي نحكم بواسطتها علي أي عمل يدعي لنفسه اسم «الفلسفة» من المفترض أن يحدد لنا معالمها في نسق مطرد منـذ عهـد طاليس حتي

---

(١) م. شاكرافارتي ، "تاريخ الي (نافيا-نيايا Navya-Nyaya) في البنغال وميثيلا"

In Debi Prasad Chattopadhyaya Ed. دراسات في تاريخ الفلسفة الهندية Vol. Calcutta K.P.Bagchi & Co., 1978, pp. 146-82

* Advaita : اللاثنائية الفيدية التي تنكر فصل أي وجه من وجوه الحقيقة عن وحدانية براهما المجردة (المترجم)

** Nyaya : منظومة فلسفية تقليدية في الهندوسية تعني قبل كل شئ بالتحليل المنطقي وفلسفة العلوم (المعرفة) (المترجم)

يومنا هذا . ولكنه ادعاء كاذب كما يعرف الجميع ، وأن ما حسبوه علي أنه فلسفة في الغرب علي مدي فترات زمنية طويلة لا يمكن وصفه بذلك لو أن هذا التحديد قد فرض في الغرب بنفس الصرامة كما هي الحال عادة مع الثقافات غير الغربية ، ولو اعتبرنا افلاطون وأرسطو قسما استثنائيا في الميراث الغربي ، وأعدنا قراءة كل التراث الغربي وتأمله بمصطلحات ما حدث هناك منذ القرن السابع عشر لكان هذا هو السبيل العادية من خلالها نستوثق من ذلك ، ومن الغريب حقا أن المفكرين الغربيين لم يرتكبوا وحدهم هذا الخطأ بل أن كثيرا من المفكرين غير الغربيين أيضا قد سلموا به دون تساؤل .

إن المفكرين الهنود الذين عنوا بالفلسفة لم يبتلعوا الطعم حتي آخره فحسب ، بل حاولوا أيضا أن يغنموا الاحترام والتوقير للفلسفة الهندية إما باكتشاف تماثلات للمواقف الفلسفية الغربية في التراث الهندي ، أو بالزهو من حقيقة أن الفلسفة الهندية لم تكن مجرد ممارسات عقلية جافة انشغلت بانسفسطة للسفسطة في حد ذاتها ، ولكنها عنيت بأعمق مباحث الوجودية المتصلة بعبودية وتحرر وجود الانسان في عمقه الساحق ، وهكذا كان للفلسفة الهندية كل ما كان علي انفلسفة الغربية أن تظهره بمصطلحات أقصي التأملات الابستمولوجية والانطولوجية حنكة وصقلا ، كما كان لها هذا الوسم الفريد والخاص بأن تكون روحية معنية بالانعتاق ، ونُسمي – علي نحو مناسب – أن الفلسفة لو كانت عملا من أعمال العقل الانساني لوجب عليها اظهار المشابهات عبر الثقافات الي حد ما ، وبالمثل فانها كعمل انساني مجبرة علي أن تهتم بما يعده الانسان –في حضارة معينة – صالح البشرية ، أو بما يعده الخير الأسمي للانسان .

إن الموقف المحتوم لهذه المصطلحات –الممنوحة كل الحقوق – عند أي مقارنة يمكن التغلب عليه لو أن المصطلحات التي تعمل كمعايير للمقارنة قد تغيرت عن عمد كي تزودنا بمعايير مختلفة للمقارنة ، ويأتي هذا التزويد من حقيقة أن كل ثقافة يمكن أن تري الثقافة الأخري بمعاييرها الخاصة ، وهكذا تصبح سيدا للمقارنة وخاضعا لها مرة تلو أخري ، ولكن نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية فإن هذا الوضع لم يحدث ، لأن المفكرين في الثقافات موضوع الملاحظة قد ادمجوا في نواتهم تصنيفات ومعايير المعقولية الغربية ، ، وهكذا يلاحظون ويفهمون ويقارنون ثقافاتهم بمصطلحات زودهم بها الغرب ، وإذا اقتبسنا عبارة شهيرة لسارتر فإن كافة الثقافات عدا الغربية قد تضاءلت الي منزلة 'موضوعات' بأن صارت محل فحص ، بمعني انها تلاحظ وتدرس بواسطة المفكرين الغربيين بمصطلحات مفاهيم وتصنيفات غربية لا تعامل كقيد أو حد ثقافي بل كسمة شاملة . وبمفاد أعمق وأكثر تحررا فإن الغرب

وحده ويدهاء قد انتحل لنفسه دون حق منزلة المتسيد بينما تدني بمنازل الآخرين الي مرتبة الخاضعين .

وتزداد المشكلة تعقيدا من حقيقة أن معظم المناقشات بشأن الفلسفة الهندية انما تدور باللغات الأوربية ، وهكذا فإنه بحكم الاضطرار ينبغي ترجمة المصطلحات السنسكريتية الي مرادفاتها الغربية معطية الأخيرة وضعا ساميا في تقرير ما تعنيه الأولي أو ما يجب أن تعنيه ، بينما لم يحظ الموقف العكسي بأية مكانة بطبيعة الحال ، الا أنه منذ فترة قريبة عندما حاولوا في بونا تجربة ترجمة بعض الموضوعات عن راسل وويتجنشتاين الي السنسكريتية حتي يمكن استنباط مدي استجابة الاشخاص المدربين علي الفلسفة بالطريقة التقليدية لهذه الترجمات ، حينئذ صارت المشكلة جلية واضحة – كيف عقل البانديت Pandits – وهم فلاسفة دربوا علي الكلاسيكيات السنسكريتية بالطريقة التقليدية – ما يقوله راسل وويتجنشتاين ، وحيث كانت كثرتهم لا تعرف الانجليزية كان ضروريا ترجمة الموضوع الي السنسكريتية ، ولكن هذه المصطلحات التي تحمل دلالاتها المعتادة ، بقيت مرتبطة ذهنيا بها ورفضت فرض معـان جديدة عليها . ومنذ وقت باكر تمت محاولة تجربة مشابهة علي صفحات "البانديت" وهي صحيفة كانت تصدر في مدينة بناريس في القرن التاسع عشر ، ولكن نتائجها – علي قدر ما أعلم – لم يتم تحليلها بوضوح حتي اليوم .

وعلي أي حال ، فقد بقيت القضية ، وهي كيف يمكن ترجمة بنيان تصوري بمصطلحات بنيان آخر ، خصوصا عندما يكون الأخير ليس بلغة مختلفة فحسب ولكن له أيضا تاريخه الخاص من التطور النابه عبر ألف عام ، وهذه نقطة هامة ، فقد جاء زمن ترجمت فيه نصوص فلسفية معقدة من السنسكريتية الي لغة التبت والي الصينية وأخيرا من الصينية الي الكورية واليابانية ، ولكن في معظم هذه الحالات حيث لم يكن هناك تراث فلسفي قومي عالي التطور ، يستطيع المرء أن يصوغ مصطلحات جديدة دون أن يصل الي تعارض مع طرائق التفكير المستقرة سلفا ، وحتي في مثل هذا الموقف كما بين ناكامورا من أن الترجمة لا بد أن تصل الي مصطلحات ، إن لم تكن بالنسبة لما هو عقلي ، إذن فعلي الأقل مع ما يعتبر روح الأمة وطابعها الثقافي (٢) .

---

(٢) طرق تفكير الشعوب الشرقية Makamura, Hajime: Ways of Thinking of Eastern Peoples Honolulu, East-West Centre Press, 1964

ومهما يكن الأمر ، فإن السبيل الوحيد الذي تأتي منه أولي الخطوات نحو أي حل للمشكلة يكمن في النظر اليها من كلا الجانبين ، وهو ما يعني النظر الي كيف يبدو كل منهما عندما يري من وجهة نظر الآخر ، وما من ثقافة أو تراث يمكن أن يتبوأ مكانا متميزا في هذه المباراة من ملاحظة الآخر وفهمه والحكم عليه وتقويمه بمصطلحاته الخاصة .

بيد أنه ليس هناك ثقافتين فحسب في العالم ، وقد يكون من الصعب أن يقال عن يقين كم هناك منها ، أو حتي أن تُعطي بعض المعايير المسلم بها في الحدود التي قد يعيّن بها المرء الفروق أو الخطوط الفاصلة فيما بين الثقافات . وليس من الضروري أيضا أن يكون لكل ثقافة هويتها المميزة في كافة المجالات أو حتي أن تكون مبدعة فيها جميعا . بيد أنه يمكن أن يكون هناك بعض الشك في أنه مهما يكن البعد الذي نختاره من ثقافة ما لنمعن فيه النظر ، فقد سعت وراءه بالإبداع أكثر من ثقافة واحدة ، وصنعت كل منها اسهاما كبيرا فيه ، ولكن مادام الأمر هكذا فإن التعدد البديل لوجهات النظر التي تُري فيها كل ثقافة من وجهة نظر الأخري لا بد أن يكون بحق متعدد السمات . ومثل هذا التوقع في الزمن الحاضر يكاد أن يكون طوباويا . إن كل أمة اليوم تحيط بحدود الغرب وبها تري وتقيس وتحكم علي نفسها ، وهي لا تحيط بشئ عن جيرانها حتي بالرغم من أنهم ربما قد صنعوا اسهاما مؤثرا في الحقل الذي تهتم به . وهناك بطبيعة الحال أسباب تاريخية لهذا الوضع السائد في الوقت الراهن ، ولكن هذه الأسباب مازالت مستمرة في العمل ، ومن الصعب النظر في كيفية التغلب عليها الا بالجهود المشتركة للمفكرين في نظام ينتمي لثقافات متعددة ، وواع مع ذلك بالحاجة الي تجاوز أزمتهم الثقافية المركزية .

إن مشكلة الهوية الذاتية لتراث فكري في نطاق مساحة ثقافية ، يتعارض مع المطالبة بالكلية أو الشمولية التي تقرها كل الحقائق ، ولكن لا بد أن نتذكر أن المطالبة بهذه الكلية قد تم بالكاد تحقيقها فيما قبل بواسطة كل المطالبين بالحق الشرعي . إنه قسر ضمني في النماذج الغربية بانها شمولية وليست ثقافة ذات حدود شأن كل الثقافات الأخري . وهناك بطبيعة الحال المشكلة الأخري : وهي كيف تُقارن البنيات التصورية البديلة أو كيف نفصل فيما بينها . إن المدخل الكنياني Kuhnian قد برهن علي لا قياسية البنيات التصورية البديلة حتي في نطاق تراث ذو لغة مشتركة وثقافة وتاريخ ولكن عندما تختلف هذه الأخيرة جذريا ، فكيف يستطيع المرء أن يفكر في المقارنة أو كشف المغايرة أو الحكم عليها ، ومع ذلك فإن الحكم بـلا

قياسيتها يقتضي ضمنا حقيقة ، لا لأن كلاهما قد تمت مقارنته فحسب ، بل وأن كلا منهما قد تم ادراكه وفهمه بوضوح وجلاء . إن الوعي الذي يصنع ذلك يمتلك القدرة من ثم علي هذا التقمص الفكري الذي يستطيع في نطاق الخيال التصوري أن يقتحم عالما جديدا من التجلية والوضوح ، فإذا لم يشعر بأنه في بيته فسيشعر علي الأقل بأنه ليس بغريب عنه .

ولكن الفكرة بأن اختيارا لا بد وأن يقع بالضرورة فيما بين البنيات التصورية البديلة نفسها – وما إذا كان من الواجب تأصيلها في الثقافات المختلفة من عدمه – ربما لم تكن مقبولة ، وقد ينظر الي البنيات التصورية كأدوات لتنظيم التجربة واعطائها معني ودلالة . وهكذا فإن كل بنيان تصوري متاح يظهر حدود البني الأخري ، ويقترح امكانيات بديلة لم تكتشف بواسطتها . كذلك يمكن رؤيتها كشئ يشد انتباهنا الي حقائق تجاربنا التي تجاهلتها المنظورات الأخري الي سبل تنظيم ونمذجة التجارب التي فاتتها رؤياها .

ويأتي هذا بكل العمل المعرفي – الذي يمكن حفزه – الي حافة العمل الفني بشكل خطير ، وقد يدفعنا – إن مضينا الي خاتمته المنطقية – الي التخلي عن المطالبة بالحقيقة برمتها ، وقد لا يُري التماثل مع الفنون كاشارة خطر تحذرنا من اننا لسنا علي الدرب الصحيح وانما كاشارة –علي الأقل بالنسبة لهؤلاء الذين يقوّمون عالم الفن علي أنه شئ مرتفع القيمة– إلي أن الأشياء ليست بالغة الخطأ حتي ولو لم تكن مكتملة الصحة . إن التصورات لا يمكن أن تكون صورا أو رموزا ، وقلما كانت أمر مشاعر وأحاسيس فحسب ، وإن التساؤلات عن الحقيقة والزيف لا يمكن أن يسمح لها بأن تظل غائبة لفترة طويلة ، حتي لو كانت متفاعلة مع الطبيعة ، ومع ذلك فان ما ينبغي أن نتذكره هو أن العمل المعرفي لا نهاية له شأن أي عمل آخر ، ومن أنه بالرغم من أن المطالبة بالحقيقة من الحتم أن يأخذ مجراه ، فإن من المؤكد بنفس الدرجة أنها سوف تظل دون تحقيق في الوقت المناسب ، وسيظل المستقبل ماثلا أمامنا دائما ليبين لنا ، ليس محدودية معارفنا وزيف ادعاءاتنا فحسب ، بل لينبهنا أيضا الي آفاق جديدة لم يُحلم بها من قبل .

وفي الحقيقة أن تنوع البنيات التصورية التي تحدثنا عنه تكمن جذوره في المعزل التاريخي للثقافات ذات التبادل الضيق –إن وجد– فيما بينها ، وقد رعت هذه العزلة عوامل جغرافية وسياسية ولغوية سهلت في نفس الوقت التفاعل فيما بين بعض الناس واعاقته فيما بين بعضهم الآخر ، لقد عملت التجارة والدين بوجه عام علي عبور التخوم للفتح المادي والروحي ،

ولكنها قلما حظيت بنجاح حقيقي يكون موضعا لاعتزازها ما لم تساندها قوة سياسية . ويجثم خلف الطابع الفردي الذي يمنحه هذا التطور في العزل النسبي لثقافة ما ، حدوث هذا الشئ الذي طرق العقول الكبيرة كمشكلات تتطلب حلولا أو أسئلة تبحث عن أجوبة في البدايات الأولي لأي حضارة .

وفي الحقيقة أنه لا يمكن تحديد البدايات القطعية في ثقة ، بيد أنه يمكن أن يكون هناك شئ من الشك في أنه عند بدايات كافة الحضارات المدونة يقف افراد بارزون يطرحون المشكلات ويثيرون التساؤلات ويصفون علي الأقل الاتجاهات التي يمكن البحث فيها عن الحلول والاجابات المحتملة . إن هذا الوضوح فيما يدرك كمشكلة ، أو في الاتجاه الذي يتم اختياره لحلها هو ما يميز تراثا عن آخر ، وهذا هو - أو ما ينبغي أن يكون هو - الشئ ذو الدلالة بالنسبة للثقافات والتراثات الأخري .

وهناك بطبيعة الحال شمولية موضوعية للعقل الانساني من جانب ، ولظروف الحياة الانسانية من الجانب الآخر ، وهذا هو ما يكفل ضرورة وجود تكرار مناسب فيما بين المشكلات المطروحة والحلول المقترحة لها . ولكن هذا قد يحظي فقط باهتمام مؤقت الا بالنسبة لهؤلاء الذين يشاركون بحماس في موافقة انسانية بعينها بحيث أن الاهتمام الأعظم بالنسبة لهم هو في اثبات أن كل الأشياء ذات القيمة قد وجدت معهم واستعارها الآخرون منهم ، وأساسيا فإن إيمانهم الراسخ هو أن ما لم يبدع بواسطتهم أو بواسطة اسلافهم فمن الممكن ألا يعد شيئا ذا بال ، أو حتي إن كان كذلك فمن المؤكد أنه أقل رتبة مما ابدعوه أنفسهم أو اكتشفوه . ولكن بمجرد أن يسافر الانسان حتي يصادف شيئا مختلفا ، شيئا يدفع الانسان لأن ينظر مجددا الي العالم بشعور من العجب والجدة ، هكذا يقوم المرء باسفار تصورية الي الثقافات الأخري ليتفقد العالم من خلال أطر تصورية جديدة .

إن المدخل المشوّق الي الفلسفة المقارنة ينبغي الا يكون بحثا عن المشابهات وانما عن المفارقات ، وحتي هذه المفارقات لن تكون ممتعة فلسفيا الا عندما تكون بينة واضحة ، لا بمصطلحات المذهب الذي تنتمي اليه وانما بمصطلحات المشكلات المدركة ومحاولات حلها. وأخيرا فإن الحجج التي تساق حيال وضع معين هي التي تهم العقل الفلسفي ، وفي هذا الخصوص فإن التراث الفلسفي في الهند غني بصفة خاصة من حيث أن شكل تقديمه وعرضه يشتمل علي سوق حجج خصومه أولا ثم تأسيس موقف المرء علي أساس من تفنيد هذه الحجج ودحضها .

إن البحث عن مشكلات فلسفية مميزة تري كمشكلات ، أو عن سمات مميزة في الحلول المقدمة لمشكلة مألوفة لا يتأتي بالنظر في التراث الأجنبي فحسب ولكن باثراء وعي المرء بامكانية بديلة في الفكر ، امكانية قد سبق تحقيقها . إن الوعي بهذه الامكانية التي سبق تحقيقها قد – حسبما هو مأمول – يحرر خيال المرء التصوري من الكَرْه غير المتعمد لتراثه التصوري . وهكذا فإن الفلسفة المقارنة قد تعمل كمحرر مشترك لكل من التراث الفلسفي من القيود التي تفرض عليه من ماضيه بدلا من أن يكون ما هو في حاضره ، ومن فرض معايير إحدي الثقافات المتسيدة علي كل ماعداها من ثقافات وتقويم منجزاتها الفلسفية بمصطلحات هذه الثقافات .

دايا كريشنا
جامعة راجاثان

الثقافة الجماهيرية ، والثقافة العالمية

"أمركة"(١) الثقافة وسياسة الحماية الثقافية

جريجوري كلايز

إن الحديث عن تأثير الثقافة الأمريكية علي أوربا وبقية العالم ليس بالأمر الجديد . وما الحديث عن الآثار الثقافية لأجهزة الفيديو ، والإذاعة بالأقمار الصناعية ، وأجهزة التلفاز ، ومحتوياها ، سوي أحدث فصل في مسرحية طويلة ومستمرة تحاول فيها الثقافة الأمريكية الفتية والعدوانية أن تضرب الثقافة العريقة في أوربا القديمة (أو تجتاح وتمحو الثقافات القومية ، الغربية والضعيفة ، في الدول المتخلفة ، وتجر الأهالي من جوزة الهند الي الكوكاكولا في جيل يعاني من أزمة الهوية) . ولكن علي الرغم من كثرة ما كتب عن بعض جوانب هذه القضية ، وعلي الرغم من أن معظم غير الأمريكيين الذين احتكوا بالثقافة الأمريكية أدركوا بعض أبعادها ، فلا يزال هناك الكثير من الأمور الغامضة ، أو التي أسيئ فهمها . وسنعالج في هذا المقال جانبين لهذه المشكلة الكبيرة والمعقدة ، أولهما نوضح فيه كيف فهم النقاد حتي الآن "أمركة" الثقافة العالمية (صبغ الثقافة العالمية بالصبغة الأمريكية) ، وذلك بالرجوع الي النقد الذي وجه الي الثقافة الجماهيرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، مع إيراد بعض الأفكار الحالية عن ماهية الثقافة الأمريكية ، وبيان كيف أصبحت هذه الثقافة دولية أو

---

(١) أمركة الثقافة أي صبغ الثقافة بالصبغة الأمريكية

المترجم : أمين محمود الشريف

عالمية . وهدفي من هذا المبحث الأول هو ، علي وجه الخصوص ، فصل «الثقافة الأمريكية» عن الثقافة التجارية والصناعية بوجه عام ، لأن ادماج هاتين الظاهرتين أمر شائع ، ومن شأنه أن يؤدي بالقارئ الي الوقوع في الخطأ . وأما الجانب الثاني فهو الحديث عن «الثقافة العليا» التي تنمو الآن بالفعل . ومع أنها لا تهدد العالم ، كما يظن الكثيرون ، فإنه يجب التصدي لها ومقاومتها إذا أريد أن لا ينزوي كثير من مقومات التجربة الانسانية في المتاحف الأنثروبولوجية . علي أن القضية الرئيسية التي سأدافع عنها هنا ليست هي الولاء والانحياز للثقافة الأمريكية أو الأوربية ، بل هي قضية "تنوع" الثقافات الذي يعد التعبير الثقافي الحر أهم شكل كله . ولذلك فإن محاولتي الدفاع عن سياسة حماية الثقافة تمثل الرغبة في تجاوز الرفض الساذج للثقافة الأمريكية ، وتفادي المواجهة بين الثقافة والمجتمع الصناعي نفسه . ولكن ذلك يقتضي تجاوز البحث التقليدي في ثقافة بلد ما ، ومحاولة نقل الحديث عن الثقافة الجماهيرية الي الساحة الدولية حيث أن الحديث الحالي عن هذه المشكلة شديد التعقيد ويفتقر غالبا الي الدقة.

١ - الثقافة الجماهيرية والحديث عن الثقافة الأمريكية

ترجع معظم الأبحاث التي تدور اليوم حول المزايا النسبية للثقافة العالمية الخاصة بالصفوة الممتازة في مقابلة الثقافة الدنيا أو الجماهيرية أو الشعبية، الي المناقشات التي دارت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وإن كانت جذور هاتين الثقافتين ترجع الي أثينا القديمة . وقد شهدت الفترة التي بدأت من أوائل القرن الثامن عشر فما بعده زيادة ملحوظة في محو الأمية بين أفراد الشعب الأوربي مما أدي الي الإقبال علي الأدب لإشباع غريزة حب الاستطلاع ، وإرضاء المستويات الفكرية لجماهير أكبر عددا من الصفوة الممتازة القليلة العدد ، والمتعلمة تعليما عاليا . وسرعان ما أدي هذا الي الشكوي من الأنواع الأدبية الجديدة ، بحجة أنها أفسدت ذوق الجمهور . وما أن ابتدعت الرواية (القصة الطويلة) حتي أفسحت المجال أمام الروايات الرخيصة المزيفة ، وظهرت في الوقت نفسه الصحف والمجلات لتلائم أذواق الجماهير علي نحو لم يسبق له مثيل . وقد أعرب النقاد عن أسفهم حين ظهرت في مقابل كل طبعة شعبية من شكسبير ألف رواية من روايات الإجرام والمغامرات التي تباع ببنس واحد ، وتمجد حياة القرصان (لصوص البحر) وقطاع الطرق ، في حين ظهرت في مقابل كل رواية من روايات شارلز ديكنز خمسمائه رواية مزيفة ، نشرت علي شكل مسلسل . ويعزي بزوغ الثقافة الحديثة في المقام الأول الي زيادة الثروة ، وتوافر وقت الفراغ ، والانتاج

الآلي . ولما ظهرت الثورة الصناعية ساعدت الآلات المدارة بالبخار بالاضافة الي عدد من الطرق الفنية والعلمية الجديدة علي نشر المطبوعات علي نطاق واسع .

وعلي الرغم من أن عبارة « المجتمع الجماهيري» لا تطلق اليوم الا علي الولايات المتحدة بين مجتمعات القرن التاسع عشر فإن نقد ثقافة العصر الصناعي بدأ في بريطانيا في أوائل القرن التاسع عشر إذا اعتبر النقاد «الأمركة» رمزا للابتذال والسوقية ، وعدم التمييز ، وبروز ذلك النوع الساذج من المساواة الذي أشعر كل مانسان بأنه يتساوي مع غيره في الخير والفضيلة والصلاح والفضل . وتجلي التخوف من هذه الظاهرة أول ما تجلي في مجلدين للناقد الفرنسي الأرستقراطي "الكسيس دي توكفيل" بعنوان "الديمقراطية في أمريكا" (١٨٣٥ و ١٩٤٠) حيث وصف ثقافة الديمقراطية الجديدة بالضحالة والضآلة والسطحية والهبوط ، وأرجع أصل هذه الرذائل الي السيادة الثقافة للأغلبية . وحفزت هذه النظرة أكبر مفكر بريطاني في ذلك القرن – وهو جون ستيوارت ميل – الي اعادة النظر في اتجاهاته الديمقراطية حفاظا علي المركز الاجتماعي للصفوة المتعلمة . علي أن "الأمركة" كانت هي الكلمة التي وقع عليها اختيار "ماثيو أرنولد" في كتابه "الثقافة والفوضي" الذي أثار جدلا كبيرا حول مزايا «الثقافة الشعبية» و«ثقافة الصفوة» حيث رأي أرنولد أن وظيفة الدولة والثقافة هي القضاء علي آثار الديمقراطية أي اشراك الأغلبية في النظام السياسي والاجتماعي وهو الأمر الذي يؤدي في رأيه الي تفكيك عري المجتمع نتيجة السماح لكل فرد بأن يقول ما يشاء ، كما يؤدي الي الابتذال والتفاهة الناجمين عن عدم الاكتراث بمعايير التفوق والامتياز . إلا أنه رأي أن الأرستقراطية ليست مؤهلة للحفاظ علي الثقافة لأنها فقدت الاهتمام بهذه المهمة . وكان أرنولد يأمل –بدلا من ذلك– أن تتخلص الطبقة الوسطي من آفة الرغبة الجامحة في احراز الثروة ، وعلو المنزلة ، وبذلك تتعلم سماحة النفس وتحرص علي الكرامة الشخصية ، وتحب الذكاء والجمال . وفي رأيه أن الثقافة تعني تنمية الشخصية من كافة جوانبها ، والسعي الي الكمال الذاتي ، مما يؤدي في النهاية الي كمال الجنس البشري بوجه عام ، وأن التعليم بأوسع معانيه هو مصدر الثقافة ، وهذا يقتضي قيام الدولة بتنظيم التعليم الثانوي ، والتوسع في التعليم الجامعي .

وقد تعدلت هذه الموضوعات وأعيدت كتابتها بطرق مختلفة خلال بقية القرن التاسع عشر ، بأقلام بعض الكتاب مثل مل ، ورسكن ، وبوركارت وماركس . وقد ذكرنا اسم الأخير هنا لأنه يتضح بجلاء أن رد الفعل لظهور المجتمع الصناعي لم يتضمن فقط تنديد "المحافظين"

بالسلطة الاجتماعية التي تتمتع بها الأغلبية ، الذي بدأه "بيرك" بنقد الثورة الفرنسية ، ولكن تضمن أيضا تنديد "الراديكاليين"* بالنتائج المادية ، وأساليب الحياة ، ووسائل الانتاج الفنية في المجتمع الصناعي . وإنك لتجد أيضا فيما كتبه كوبيت ، وأوين ، وموريس ، وغيرهم (اقتصرنا هنا علي التمثل بالانجليز) تنويها بضرورة الثقافة مع ضرورة تغيير النظام الاجتماعي حتي تتاح الفوائد المادية الناجمة عن أساليب الانتاج الحديثة لأغلبية الشعب ،. وسنري أن نقد كل من المحافظين والراديكاليين للثقافة الحديثة يتداخل بعضه مع بعض ، وانهما يشتركان في وجهة النظر ، حيث إن كلا منهما يندد بما تتسم به الثقافة الحديثة من تحذير الجماهير ، ومعارضة التقدم واتباع الأساليب القاسية المتوحشة .

ومن هذه الجذور التي بدأت في القرن التاسع عشر تطور نقد الثقافة في المجتمع الصناعي الحديث تطورا كبيرا ، وبخاصة بعد ١٩١٨. ثم إن المؤثرات الأمريكية علي أوربا بعد ١٩٤٥ ، وعلي المناطق النائية من العالم ابتداء من الستينات ، ضاعفت كثيرا من تأثير الثقافة الحديثة علي التطور الاجتماعي بشكل عام ، حتي أدت في النهاية الي ظهور شبح ثقافة عالمية متجانسة . وبزوال الأرستقراطيات الأوربية وسرعة التصنيع تعالت صيحات المعذبين الذين لا تجلب لهم أساليب الحياة الحديثة سوي الحكم بالاعدام عن طريق خنق الثقافة بالتدريج التي أصبحت (في رأي الناقد الانجليزي ف . ر – ليفيس) لا تعني بتثقيف المرء لذاته بنفسه ، بقدر ما تعني بتذوق الفن والأدب عن طريق التعليم . ولكن يجدر بنا أن ننوه بأن المناقشات التي دارت حول ثقافة المجتمع الصناعي الحديث انصبت – بوصفها نظرية تقوم علي التفكير الدقيق ، وتستند الي الحجج والبراهين – علي الثقافة الأمريكية أولا ، ثم علي تأثير أمريكا في أوربا ثانيا . وتكمن نقطة الضعف في هذه المناقشات في اغفالها للاقطار الأخري من العالم ، وللأساليب التقليدية لنشر الثقافة . وسنشير الي نقاط الضعف هذه في المبحث الثالث من هذا المقال .

وكان التطور الأساسي في نقد الثقافة خلال القرن العشرين هو التحدث عن فكرة «الثقافة الجماهيرية» كنتيجة للمجتمعات الصناعية التي عاشت فيها أغلبية الشعب ، وهيمنت علي الحياة الاجتماعية الي حد كبير . وعلي الرغم من وجود أشكال مختلفة من الثقافة الشعبية فإن هذه الأشكال اختلفت عن الثقافة الجماهيرية من عدة وجوه هامة . من ذلك أن الثقافة الشعبية جنحت الي التعامل مع العالم المادي المألوف مباشرة لدي الشعب ، والمتصل بشئونه والمرتبط بتقاليده ، كما جنحت الي أن تكون تجربة عاطفية صحيحة تتطلب المشاركة الفعلية ،

---

* المراد بالرد يكاليين هم المتطرفون الذين يهدفون إلى قلب الأوضاع القائمة والأفكار السائدة ومنهم كارل ماركس . (المترجم).

لا أن تكون أمرا سلبيا . ولكن الثقافة الجماهيرية جنحت الي فصل صناع الثقافة عن مستهلكيها حتي أصبحت الثقافة تقوم بدور المتفرج . ولما لم تعد الثقافة الجماهيرية مرتبطة بأذواق الصفوة المحدودة فقد هدفت الي إرضاء الذوق المتوسط الذي يتطلب مقياسا معينا . بيد أن هذا المقياس يتم وضعه بواسطة الجماهير لا من أجلها . وتنتقل مبادرة التغيير الثقافي من الصفوة الي الجماهير . ويدور محور الاهتمام في الثقافة الجماهيرية حول اللهو والتسلية نظرا لأن الأغلبية تعزف عن التعلم والفنون العالية ، ويصبح المقياس الأدبي والجمالي للحكم علي المنتجات الثقافية هو الاستحسان الشعبي والنجاح المالي الذي يصرف بدوره المواهب الكامنة عن الاهتمام بأشكال التعبير الفني . يضاف الي ذلك أن انتشار وسائل المواصلات يضعف الروابط بين الأفراد كما يضاعف منها ، ويؤدي عدم الاكتراث الي الاشتغال بتوافه الأمور . وللقضاء علي أسباب الملل والسأمة في الحياة يصبح الهروب من الواقع المرير هدفا ثقافيا أساسيا .

وبالاضافة الي المناقشات التي دارت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين حول الثقافة العالية والهابطة تركز نقد الثقافة الجماهيرية علي أمريكا ، وظهر ذلك النقد في الثلاثينات ، وازدهر في العالم المتكلم بالانجليزية بعد ١٩٤٥ . وكانت الولايات المتحدة أول أمة تكونت نظمها وتشكلت هويتها في عصر التكنولوجيا حيث استبحر العمران (وبخاصة بعد ١٩٤٥) وأصبح ركنا أساسيا من الهوية الثقافية ، وحيث خلق رخاء الأغلبية البيضاء أسلوبا في الحياة مبنيا علي استهلاك السلع ، وقائما علي مذهب المتعة القائل بأن اللذة والسعادة هما الخير الأسمي في الحياة ، وذلك بدلا من الاهتمام بالتعليم المؤدي الي الثقافة . ولذلك كان من المهم في أي بحث عن "الأمركة" أن نسأل : الي أي حد تعبر الثقافة التي نشأت في القرن العشرين – وبخاصة في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية – ثقافة أمريكية خالصة ، والي أي حد تعتبر هذه الثقافة نتيجة منطقية لمرحلة معينة من المجتمع الصناعي ؟ والسبب الذي يحدونا الي هذا السؤال هو أن كثيرا مما ينتقده الأوربيون في أمريكا ليس "امريكيا" خالصا ، وأن كل أمر مستجد ومبتذل حل محل التقاليد القديمة ليس "أمريكيا" خالصا ، وانما هو حديث فقط واذا عرفنا ذلك تغيرت نظرتنا كثيرا نحو الثقافة الأمريكية . وهذه مشكلة كبيرة لا يمكن حلها ولا استيفاء بحثها في هذا المقال . ولكن في وسعنا أن نقترب منها إذا درسنا مصادر الثقافة الأمريكية . واليك البيان :

أول هذه المصادر أن أمريكا كانت بلادا جديدة . ولذلك كان شعور الأمريكيين -ولا يزال- بوجود تقاليد موروثة أضعف منه في أي أمة أخري . ولما كان الأمريكيون قد تخففوا من أثقال التقاليد الماضية غير حاملين فوق ظهورهم سوي غشاء رقيق من عناصر التجربة الأنجلوسكسونية التي غلبت علي الثقافة الأمريكية الي وقتنا هذا ، فإنهم تطلعوا الي المستقبل في صياغتهم للثقافة ، بدلا من الرجوع الي جذور التقاليد القديمة .

وترتب علي تدفق المهاجرين من الخارج أن اضطرت أمريكا خلافا لما حدث في كثير من البلدان - أن تصوغ تقاليد قومية مشتركة في الوقت الذي استبحر فيه العمران ، وقامت ثقافة حضرية شاركت فيها امريكا بلادا أخري في القرنين ١٩ و ٢٠ ، وكان معني صياغة ثقافة قومية قوية تتألف من عناصر متعددة ومتنوعة من قومية ، وعنصرية ، ودينية ، ولغوية ، وثقافية (مع غلبة العنصر الأنجلو سكسوني) أن أصبح من الضروري أن تعلم غيرها من الشعوب ثقافة رقيقة (هزيلة ، ضئيلة ، قليلة الغناء) ومتجانسة وموحدة ، ثقافة تقوم علي أكبر قدر مشترك . ومن الطبيعي ألا يكون هذا القدر المشترك كبيرا . ومع أن الثقافة الأدبية المحدودة في ولاية نيو انجلند (انجلترا الجديدة) وصلت في بداية القرن ١٩ الي مستوي رفيع فإن المستوي القومي في الأدب كان ضعيفا بشكل واضح ، لأن هذا الأدب كان يخاطب بالضرورة أقواما ينتمون الي جذور مختلفة نشأت في بولندا ، وايطاليا ، والمانيا ، والسويد (ثم المكسيك وفيتنام وكوبا فيما بعد) كما نشأت في انجلترا ، واسكتلندا ، وايرلندا .

وثانيها أن الثقافة الأمريكية بدأت من نقطة ضعيفة لأنها لم تكن سوي شعبة واحدة من تراث أنجلو سكسوني غني وضخم ، يتألف من : الأدب ، والمسرح ، وفن العمارة ، والرسم ، الخ . ولما كانت أمريكا في وضع غير موات ، بسبب تبعيتها لانجلترا ، فقد اضطرت الي أن تدخل حلبة المنافسة مع المستويات العليا لكل من الثقافة الأنجليزية عامة ، والثقافة الأوربية خاصة ، دون أن تساندها طبقة أرستقراطية قوية .

وثالثها أنه علي الرغم من أن انجلترا كانت أول دولة صناعية فإن أمريكا خلقت في القرن العشرين ثقافة صناعية شاملة كونتها - ثم سيطرت عليها في النهاية - تكنولوجيات جديدة ، أكثر مما حدث في أي دولة أخري . وهذا يصدق بوجه خاص علي الثلاثين سنة الأخيرة . وفي مجال السينما أيضا لعبت هذه الوسيلة الاعلامية دورا جوهريا ، سواء في خلق ثقافة أمريكية قوية ، أو تصدير تلك الثقافة الي الخارج ، لأن هذا هو الجانب الوحيد من

أمريكا الذي يراه معظم العالم .

ورابعها وهو أهمها في رأي كثير من النقاد – أن أمريكا كانت أول مجتمع حديث استطاعت فيه المشاركة الجماهيرية في الحياة السيساسية والاجتماعية ، بالاضافة الي الرخاء الواسع النطاق ، أن تحول مستويات الذوق الشعبي الي طرق قريبة التناول من التعبير الثقافي ومن السهل في مجتمع يقدر النجاح التجاري تقديرا كبيرا ارضاء رغبات الجماهير مع اثراء منتجي الثقافة في الوقت نفسه . وأهم من ذلك أن مبدأ المساواة الذي تدعو اليه الديمقراطية يضفي صفة الشرعية علي الذوق الشعبي . ذلك أن تزويد الأشخاص بالثقافة التي يفضلونها سواء أكانت عالية أم هابطة أم غريبة ليس سوي مظهر من مظاهر الديمقراطية السياسية . وهذا مصدر من مصادر القوة والضعف معا . فاما أنه من مصادر القوة فلأنه عندما يتغلب التنوع علي التجانس في الثقافة فإن ذلك يكون مصدرا للإلهام ، وإما أنه من مصادر الضعف فلأن ذوق الأغلبية يكتسب صفة القداسة الي أبعد حد بحيث لا يمكن مخالفته بسهولة .

وآخرها أن هيمنة المشروعات الحرة في أمريكا أدت الي تركيز وسائل الانتاج الثقافي – المذياع والتلفاز والمتاحف والمسارح – في يد القطاع الخاص ، وخضوع هذه الوسائل بصورة مباشرة لضغوط مستهلكي الثقافة ، لأن الشعبية في هذه المجال هي معيارس النجاح أكثر من أي شئ آخر . ولهذا جاء جانبه السلبي والايجابي معا . فأما جانبه السلبي فهو عدم استطاعة أي نظام كالدولة مثلا أن يرفع المستوي العام للثقافة أو ينشر أشكالا مختلفة للثقافة (كثقافة الأقلية مثلا) وأما الجانب الإيجابي فهو ضآلة الاستغلال السياسي لوسائل الاعلام ، وهذا يعد بلا شك نعمة كبري في نظر الذين يخضعون لثقافة مفروضة من جانب السلطات الرسمية .

هذه بعض اسباب السمات الخاصة التي تمتاز بها الثقافة الأمريكية . وهناك بالطبع قيم خاصة تتكرر في محتوي الثقافة الأمريكية ، نتيجة لتطورها التاريخي مثل الفردانية (عدم خضوع المصالح الفردية لسيطرة الحكومة أو رقابتها) ، والاعتماد علي النفس ومذهب المنفعة (تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس) ، والبيوريتانية (أو التطهرية ، ومعناها التمسك الشديد بأهداب الدين والفضيلة) ، وما شابه ذلك . وهذه قيم أقل أهمية بالنسبة لموضوع مقالنا. ولكن يجب قبل أن ننتقل الي موضوع انتشار الثقافة الأمريكية في أنحاء العالم أن نتأكد أولا هل توجد ثقافة أمريكية مفردة تهيمن علي الأشكال الثقافية الأخري في الولايات المتحدة .كما افترضنا حتي الآن ؟ إن معظم النقاد يتفقون علي وجود عدد كبير من الثقافات

في أمريكا يمكن تقسيمها الي أربع مجموعات رئيسية . هناك أولا : أنواع مختلفة من الثقافة الأنجلو سكسونية طبقا للأقاليم (الجنوب – الشمال الشرقي – الغرب الأوسط – الغرب، ثم المحليات الداخلة في هذه الأقاليم) ، وطبقا للديانة (البروتستنت – الكاثوليك – اليهود) . وثانيا : إن القومية أو العرقية عامل حيوي في تباين الثقافة الأمريكية لأن هناك فروقا جوهرية بين الحياة الثقافية لكل من الأماركة (الأمريكيين) المنحدرين من أصل صيني أو ياباني ، والأماركة الذين هم من جزر هاواي ، وبورت ريكو ، ثم الزنوج والايطاليين والبولنديين وغيرهم من العناصر العرقية البيضاء . وثالثا : إن العمر أو السن عامل هام في التعبير الثقافي. صحيح أنه لا توجد ثقافة شبابية واحدة (خاصة بالشباب) ، ولكن عملية التجانس الثقافي أكثر وضوحا بوجه عام بين الشباب ذوي الخلفيات المختلفة . وفوق كل هذه الفروق الثقافية المتميزة توجد مجموعة من الثقافات الذوقية أو الطبقية ، أي الخاصة بطبقة معينة وإن لم تكن وقفا علي هذه الطبقة . يمكن تمييز خمس منها علي الأقل : عالية ، ووسطي عالية ، ووسطي هابطة ، وشبه شعبية ، وهابطة . وهذه الأقسام ليست جامدة إذ توجد ثقافات تنتشر وتمتد في غير نظام أو اتساق كأغصان الشجر (ويحدث ذلك في أمريكا أكثر مما يحدث في أي دولة أخري). ولكن يمكن القول بوجه عام أن الثقافة الذوقية الرئيسية في الولايات المتحدة اليوم تنتمي الي ثقافة الطبقة الوسطي – الدنيا التي حلت محل الثقافة الذوقية الدنيا ، وأصبحت النمط السائد خلال الخمسينيات .

ما هي إذن الثقافة الأمريكية في مرآة الحاضر ؟ في الموسيقي وحدها يمكن أن نجد موسيقي كلاسيكية ، وموسيقي ريفية ، وموسيقي الروك ، والموسيقي الشعبية ، وموسيقي الجاز ، وغيرها من الأساليب الأخري العديدة . ولعل أشهرها ذلك المزيج من النغمات المستمدة من هذه الأنواع ، والمعروفة غالبا باسم "الاستماع السهل " والمسموعة باسم "موزاك" في المطارات والمصاعد والمطاعم . وتلي هذه مباشرة من حيث الشهرة موسيقي الروك الريفية والسائدة . ويوجد في كل الأشكال الثقافية الأخري أنواع مماثلة من التعبير سواء في الموسيقي أو الأفلام أو التلفاز أو عادات الأكل أو النزوات العارضة (مثل المخدرات والمشي الوئيد) .

وواضح أن من أهم ما تعرضه الثقافة الأمريكية علي العالم هو البرامج التلفازية . ومن المفيد أن نقول بضع كلمات من هذا الموضوع ، لأنه سيكون نموذجا لما أعرض له فيما بعد من الكلام عن انتشار الثقافة . ومعلوم بالطبع أن التلفاز هو أحدث وأعمق الوسائل الشعبية في عصرنا ، وهو يمثل في نظر الكثيرين الجانب القبيح من الثقافة الشعبية أكثر مما تمثله

الروايات البوليسية والكتب الهزلية ، ومهازل (كوميديا) الإذاعة الهابطة . وتبدو لكل ذي عينين آثار التلفاز بعد نحو أربعين سنة من استخدامه ، ففي ١٩٥٥ انخفض الاستماع للاذاعة في أمريكا بنسبة ٥٠٪ وانخفضت القراءة بنسبة ٢٠٪ (علي الرغم من أن بعض الأشكال الهابطة من القراءة الترويحية انخفضت أكثر من غيرها) وشاهد معظم خريجي المدارس العالية التلفاز ثماني ساعات يوميا في المتوسط ، وانفقوا أمام أجهزتهم ما يزيد بنسبة ٥٠٪ علي ما أنفقوه في حجرة الدراسة . والتلفاز هو المصدر الرئيسي للأخبار عند ٦٤٪ من الأماركة . وفي أي وقت تجتذب البرامج التلفازية الشعبية المشهورة نحو ٤٠ مليون نسمة ، أما الأشكال المختلفة من الثقافة العالية فانها تجتذب نحو نصف مليون . وعلي الرغم مما بذل من جهود في العقود القليلة الماضية لتصوير حياة الأقليات بشكل أكبر فإن التلفاز لا يزال الي حد كبير مرآة حياة وقيم الطبقات البيضاء والوسطي ، والوسطي الدنيا . لذلك فإن هذه الحياة والقيم أصبحت هي الشكل الثقافي الغالب في أمريكا الحديثة ، بل أصبحت هى الوجه . الذى تظهره أمريكا للعالم .

٢ – استعمال الكوكاكولا : أمركة «الثقافة العالمية»

الآن وقد تكلمنا بايجاز عن موضوع الثقافة الجماهيرية ، وعرضنا لبعض مقومات الثقافة الأمريكية ، يجدر بنا أن نتكلم عما كان لهاتين الثقافتين من آثار ، وما يمكن أن يكون لهما من تأثير علي بقية دول العالم . وسنعرض بايجاز في هذا المبحث لبعض عناصر الثقافة الأمريكية التي أمكن تصديرها الي الخارج بأعظم قدر من النجاح ، بعد الحرب العالمية الثانية. وسنحاول أن نعالج بعض أوجه الصراع بين الثقافة العليا التي أخذت تبرز الي عالم الوجود وبين الثقافات التقليدية . والنقطة الرئيسية التي سأركز عليها حديثي في هذا المقام هي أن الكلام علي هذه الثقافة لا يخلوا من المبالغة ، وأن كثيرا مما يطلق عليه اسم «الأمركة» لا يعدو أن يكون هو انتشار الثقافة الصناعية ، لا الثقافة الأمريكية بالذات . علي أنه متي اتضح هذا المعني أمكننا أن ندرك أن كلا من الثقافة الصناعية الحديثة ، وصورتها الأمريكية الخاصة تهدد تقدم الثقافة الانسانية بصورة خطيرة ، وسأتكلم هنا بايجاز عن هذا التهديد ، ولكن سأرجئ الكلام عن مواجهته الي المبحث الأخير . ونظرا لضيق المقام فاني سأتغاضي عن الكلام في توسع وسائل الاعلام عند الدول الأخري ، وإن وجب الاعتراف –علي الأقل– بنجاح الجهود التي تبذلها لتصدير الثقافة كل من انجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والهند ، والاتحاد السوفييتي ، ومصر ، وغيرها من الدول ..

وجدير بالذكر أن تصدير الثقافة الأمريكية بدأ بعد الحرب العالمية الثانية بصفة جوهرية ، وإن كانت بوادر النفوذ الثقافي الأمريكي قد ظهرت بعد سنة ١٩٠٠ ، إذ أخذت هوليوود الأفلام بمجرد أن صنعتها وأصبح نفوذها قويا في أواسط العشرينيات . وخلبت موسيقي الجاز ألباب طائفة كبيرة من الشباب الأوربي بين الحربين ، وفي الثلاثينات أخذت بعض المظاهر المادية لمستويات المعيشة الأمريكية العالية تنتشر علي نطاق واسع ، كالأطعمة المجمدة والمشروبات غير المسكرة ، ولكن هذه لم تكن شيئا مذكورا بالقياس الي ما كان للثقافة الأمريكية ، والأساليب الفنية للإنتاج ، والعادات الاستهلاكية ، من تأثير هائل علي عالم نهكته الحرب واستبدت به الرغبة في الفوز بنصيب من مغانم «الحلم الأمريكي» كما أن النظام السياسي الأمريكي استهوي العالم أيضا . وكان من أول وأقوي رموز هذا الغزو الثقافي الجديد مشروب الكوكاكولا الذي قدم للجنود الأمريكيين في الخارج بثمن زهيد لا يتجاوز خمسة سنتات ، مهما بلغت تكاليفه بالنسبة للشركة المنتجة لهذا المشروب . وفي عام ١٩٥٠ تحالف زراع الكروم (المعدة لصنع الخمور) والشيوعيون في فرنسا وحاولوا صد هذا التيار بتقديم قائمة من المشروبات غير المسكرة ، ولكن علي غير جدوي . وفي السنة التالية لاحظ المفكر السياسي الفرنسي "ريموندآرون " أن المفكرين الأوربيين تنبأوا بأن "علب الطعام المحفوظ" سوف تحل محل الطعام المطهي في البيوت وأن الكوكاكولا سوف تحل محل أشهر منتجات الأرض (أي الخمر) ، وأن الثلاجة التي تقضي علي مذاق الطعام سوف تنذر بزوال القبو الذي تخزن فيه الخمر (وقد أصاب المحز في القولة الأخيرة علي الأقل). وفي الستينيات تعالت نذر المفكرين عندما بدأت موجة من الاستهلاك بين الأهالي لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وفي أواخر العقد السادس – كما قال أحد المراسلين – ساور القلق الفرنسيين حول مصير الطعام ونددوا بانتشار بارات (مشارب) الحليب والهام (فخذ الخنزير ، وكانوا يملحونه ويجففونه ويدخنونه ، أي يعالجونه بتعريضه للدخان) ، والبيض والهامبرجر (شطائر من لحم البقر) ولكنهم اقبلوا بسرور علي أجهزة التدفئة المركزية واستعمال المجمدات (أي حجرة التجميد في الثلاجة المعروفة باسم الفريزر) ، والغسالات ، والسيارات الكبيرة ، وكلها من مظاهر الحضارة التي نسيناها اليوم بعد أن فقدت الهالة التي أحاطت بها في البداية حيث عرضت علي الشاشة الفضية ثم أصبحت حقيقة واقعة.

وفي أواخر العقد السادس وأوائل العقد السابع خفت حدة الشعور بالعداء نحو أمريكا ، وتاقت نفوس الأوربيين الي التمتع بثمرات الثقافة الأمريكية ، وأشتعلت في نفوسهم من جديد جذوة الحماسة لانتحال أساليب الحياة الأمريكية ، كتناول الوجبات السريعة ، وممارسة لعبة

البولنج ، واستعمال آلات البيع (باسقاط قطعة نقدية في ثقب) ، وشراء السيارات الكبيرة ، باستخدام بطاقات الائتمان ، واقامة الأسواق المركزية (السوبر ماركت) ، وتناول الكعك المحلي بالسكر والمقلي بالدهن ، وانشاء الموتيلات (جمع موتيل ، وهو فندق علي الطريق العام يبيت فيه السائحون ويوقفون سياراتهم في ساحته) ، ومحال بيع المرطبات التي يستطيع الناس أن يشتروا منها ما يريدون وهم في سياراتهم ، والكعك المحتوي علي مزيج من العناصر الغذائية المعدة اعدادا تجاريا ، ودور السينما التي يستطيع الناس أن يشاهدوا ما يعرض فيها وهم في سياراتهم ، وطعام الفطور المكون من حبوب نباتية ، وغير ذلك كثيرا .

وعلي الرغم من أن الأماركة نجحوا في جعل وقت الفراغ عند عامة الناس أكثر تنوعا وجاذبية فإن كثيرا من عناصر الجاذبية في الثقافة الأمريكية كان يكمن في مظاهر النشاط والاثارة التي تعج بها الحياة الأمريكية ، وهو الأمر الذي كان يستهوي أفئدة الشباب "الغاضب" في انجلترا خلال الخمسينات ، وإن لم يخلب ألباب نظرائهم من أبناء الجيل التالي بيد أنه لم يعد من الضروري أن يهاجر الأوربيون الي أمريكا لتحقيق هذا . ذلك بأن الحلم الأمريكي" الذي راود خيال الأوربين سرعان ما أصبح حقيقة واقعة في أوربا .

ويؤخذ من ذلك أن الثقافة الأمريكية في نظر الشباب كانت تعني الجدة ، والنشاط ، والعصرية ، والتقدم ، والسيطرة التكنولوجية وإيثار اللذة والشهوة علي كبح جماح النفس والعفة . ومع الأشكال الجديدة للديمقراطية أصبحت الطبقات المتوسطة والعاملة أكثر ثراء وقوة منها في أي وقت مضي . بيد أنه اتضح في أوائل الستينات – وهو أمر مسلم به الآن – أن التحول الذي طرأ علي أوربا (سنعرض لبقية العالم بعد قليل) لم يكن يرجع الي «الأمركة» بقدر ما يرجع الي انتشار أنماط الاستهلاك وأساليب الانتاج المناسبة لمرحلة معينة في تطور المجتمع الصناعي . وربما يتحسر النقاد بسبب «الفراغ الروحي» في الأدب الأمريكي ، ولكن الأمر الذي أثر في أوربا الي حد بعيد هو انتشار التكنولوجيا والاسراف في استهلاك السلع والمنتجات ، لا الآثار الثقافية الضيقة للمجتمع الأمريكي . صحيح أن الناس كانوا ينحون باللائمة علي الشباب لسهرهم الي ساعة متأخرة من الليل ، ورقصهم علي صوت الموسيقي الصاخبة ، واسرافهم في تعاطي الخمور ، وممارستهم للجنس ، متأثرين في ذلك بالنفوذ الأمريكي ، ولكن الناس أصبحوا يدركون يوما بعد يوم أن كل هذه المفاسد ترجع الي شعور الفرد بالاستقلال والفردية والحرية ، وهو الأمر الذي شجعت عليه هذه المرحلة من المجتمع الصناعي ، حيث تضاءلت أهمية القيود والضوابط التقليدية ازاء هذا الجم الغفير من البدع

المستحدثة ، في حين أن ثراء وبروز القوة العظمي (أي الدولة القوية والمراد بها هنا أمريكا) أدي الي الإقلال من الاشتغال بالشئون السياسية (حتي نهاية الستينيات علي الأقل) والتنظيمات الاجتماعية التقليدية ، وصار الناس لا يهتمون بالتقاليد ، والانهماك في الملذات ، والحرص علي حيازة الثروة والتكنولوجيا . ولكن علي الرغم من أن كل ما هو عصري كان مرادفا لكل ما هو أمريكي في العقد السادس ، فإن ذلك لم يعد صحيحا بعد عشر سنوات . وكتب بعض المراقبين الحكماء أمثال حنا أرندت يقول في أواسط العقد السادي "الحق أن العملية التي يخشاها الأوربيون ليست هي الأمركة، وانما هي بزوغ العالم الحديث بكل تعقيداته وآثاره ، وصار من الواضح في أواسط الستينات أن الأمركة لا تعني سوي أن أمريكا خلقت أول مجتمع استهلاكي ، وأنه متي نما الاستهلاك الجماهيري في أوربا أصبح من الواضح أن الأوربيين – برغم اقبالهم علي كثير من المنتجات الأمريكية وبرغم ضخامة الاستثمارات الرأسمالية الأمريكية في أوربا – قادرون علي انتاج سلعهم الخاصة وتوزيعها وتنظيمها واستعمالها . وقد تغيرت أمريكا كثيرا بعد ١٩٤٥ ، وأصبحت أوربا أكثر التصاقا بها ، ولكنهما لم تصبحا شيئا واحدا ، ولم تتقدما نحو وحدة الهوية . والواقع أن الجهود الصادقة التي بذلت لأمركة بعض الأوربيين –كما حدث في المنطقة الأمريكية التي احتلتها أمريكا في ألمانيا الغربية بعد الحرب– باءت كلها بالفشل بعد عشرين عاما ، وإن كانت بعض الاستفتاءات الأخيرة قد دلت علي أن ألمانيا الغربية لا تزال هي أقل الدول الأوربية شعورا بالعداء نحو امريكا .

لقد تركز حديثنا حتي الآن حول أوربا بعد الحرب العالمية الثانية ، فما بال بقية دول العالم، من الإنصاف أن نقول هنا إن التغلغل السطحي –علي الأقل– للثقافة الأمريكية كان يتناسب طرديا في أي بلد مع درجة تصنيع هذا البلد ، وثروة الطبقة الوسطي والعاملة فيه ، ومشابهة نظامه للنظام السياسي الأمريكي . مثال ذلك أنه حدث في عام ١٩٢٦ أن انتشرت مطاعم الهامبرجر في ٤١ دولة من بلاد العالم ولكن عددها في اليابان كان أكبر منه في أي دولة أخري ، وجدير بالذكر أن أمريكا تحقق فائضا في ميزانها التجاري يقدر بنحو بليون دولار سنويا تحصل عليه من توريد الأفلام والمسلسلات التلفازية الي المسارح البالغ عددها ٨٠٠ و ١٠٠ ، واجهزة التلفاز البالغ عددها ٤١٧ مليونا في كافة أنحاء العالم ، ولعل الجزء الأكبر من ذلك يخص البلاد التى تشارك أمريكا في قيمها (يلاحظ أن نحو ٢٠٪ من وقت البث التلفازي في أوربا مخصص لبث البرامج الأمريكية ، في حين أن ما يقرب من ٦٠٪ من الأفلام المعروضة في جميع أنحاء العالم مصنوعة في أمريكا) . بيد أن الانتشار الفعلي للبرامج

الأمريكية يتجاوز بالطبع نطاق المجتمعات الصناعية المتقدمة . ولهذا كانت الأفلام وأجهزة التلفاز – الي جانب السياحة ، وهي وسيلة أخري لنشر القيم الغربية – من أكبر الوسائل لتصدير الثقافة الصناعية بعامة ، والأمريكية بخاصة ، الي جانب أنحاء العالم .

علي أن الناس يقبلون هذه القيم طوعا أو كرها . ولذلك يوجد قدر من التوتر لا يستهان به بين الثقافة العليا والثقافة التقليدية في جميع انحاء العالم . ومرة أخري نقول إنه علي الرغم من وجود هذه القيم في كثير من أنواع الثقافة فإن هذه الأنواع جميعا معروفة تماما عن طريق وسائل الاتصال ، والطرق التي يدرك بها هذا التوتر واضحة تماما . ذلك أن معظم المجتمعات التقليدية تقوم علي أساس الأسرة أو القبيلة أو القرية أو الديانة أو الأعراق . . وكما رأينا في حالة أمريكا فان انتشار نوع معين من الثقافة قد يلعب –بل إنه يلعب بالفعل – دورا مركزيا في خلق هوية قومية من هذه الأشكال الصغيرة من الهوية ولكن الثقافة الصناعية العليا تتجه نحو العصرية لا التقليدية ، والعالمية لا القومية ، والمساواة بين الجنسين (الرجل والمرأة) لا السيطرة ، والديمقراطية لا الدكتاتورية ، والتعليم العام لا الخاص ، والتماثل لا التمايز.

ولذلك كانت وسائل الاتصال الجماهيرية خاصة قادرة علي التأثير في عملية بناء الأمة ، وفي مهمة تكوين هوية الأمم الجديدة في اطار النظام الدولي . وبالاختصار يمكن القول بأن وسائل الاعلام الغربية أو الشمالية قد تؤيد بعض الجماعات في بلدان العالم الثالث (وبخاصة جماعة الصفوة الممتازة الحديثة) ، كما يمكن أن تؤيد – بل انها تؤيد بالفعل – أيديولوجية التنمية الغربية في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في العالم بوجه عام ، وتصور التاريخ العالمي والشؤن المعاصرة بأنها تتفق مع هذه القيم . ولذلك نجد في العالم كله أن النظام الدولي لوسائل الاتصال يعمل علي نشر القيم الغربية وبخاصة القيم الأمريكية في هذا القرن (وهذا هو السبب في أن عبارة "الأمبريالية" أي الهيمنة الثقافية) تنطبق علي عصرنا . والدليل علي ذلك أن معظم أنباء العالم يقوم علي جمعها وتوزيعها ٤ وكالات للأنباء (الصحافة المتحدة ، والصحافة المتحدة الدولية ، وكالة رويتر ، وكالة الصحافة الفرنسية) وكذلك تقوم بلاد الغرب المتقدم بادارة عدد كبير من الاتصالات الهاتفية والكبلية والأقمار الصناعية التي تصل الي عدد كبير من سكان العالم عن طريق التوسع في ارسال محطات الاذاعة (الاذاعة البريطانية، وصوت أمريكا ، والوكالات الأمريكية المتحدة) . وقد سبق أن ذكرنا بعض الحقائق عن التلفاز . ونقول هنا أن الولايات المتحدة (وكذلك الصين) لا تستورد من البرامج الا أقل من ٢٪ ، ولكنها تصدر نحو ٨٠٪ من جميع البرامج التي يتم تصديرها . وعلي عكس ذلك

تستورد فرنسا ٩٪ واليابان ١٠٪ ، في حين أن المكسيك وايطاليا واستراليا وغيرها من الدول العديدة تستمد نحو ٥٠٪ من برامجها التلفازية من مصادر أجنبية (والسعودية ١٠٠٪) ويتناسب عدد الأفلام السينمائية المشاهدة في كل أنحاء العالم تناسبا طرديا مع عدد الأجهزة التلفازية الموجودة في أي بلد واحد . وعلي الرغم من أن الهند - ويليها اليابان - هما أكثر الدول إنتاجا للأفلام في العالم فإن الأفلام الأمريكية تشاهد فيهما علي أوسع نطاق . ولو أنك انعمت النظر في الإحصاءات الخاصة بوسائل الاعلام المطبوعة لألفيت سيطرة الغرب واضحة . وعلي الرغم من وجود نحو ٥٠٠ لغة مكتوبة في العالم فإن ثلثي المواد المطبوعة لا تنشر الا بخمس لغات . وفي بعض الحالات يصل توزيع بعض المجلات أو الدوريات الي حجم هائل . مثال ذلك أن مجلة ريدرز دايجست (مجلة المختار) تبيع أكثر من ١١ مليون نسخة في الخارج وتطبع بـ ١٣ لغة قومية .

وقد أدت سيطرة الغرب علي وسائل الاعلام في السنوات الأخيرة الي مطالبة دول العالم الثالث خاصة بالرقابة علي هذه الوسائل . وسندرس في المبحث التالي بعض هذه المقترحات بشئ من التفصيل . وتركز هذه المطالبة علي حق كل الدول (وهو ما يبرره ميثاق الأمم المتحدة) في نشر أنبائها وقيمها بطريقة وافية ومنصفة .

كما تطالب هذه الدول أيضا بلاد الغرب بالمساعدة في اقامة نظم اتصال في العالم الثالث، وتقديم العون لوكالات الأنباء في الدول غير المنحازة ، واقرار حق الحكومات في تقييد حرية بعض مصادر الأنباء ، وتدفق الأنباء عبر الحدود القومية ، وانشاء محكمة عليا تابعة لليونسكو بحيث لا تخضع للسلطة القومية وذلك لمراقبة سلوك وسائل الاعلام في جميع أنحاء العالم .

وقد زعم كثير من النقاد الذين ناقشوا في العشرين سنة الأخيرة تأثير وسائل الاعلام الجماهيرية علي الثقافات غير الغربية أن غلبة النفوذ الغربي وبخاصة الأمريكي كان لها تأثير ضار علي بقية العالم . وقد ورد مثل هذا الزعم - كما رأينا - في المناقشات التي دارت حول تأثير الثقافات الجماهيرية الموجودة في بعض الثقافات القومية ، وبخاصة في الولايات المتحدة . ولكن الواقع أن نقاد الثقافة الجماهيرية لم يسلموا كلهم بهذا الزعم الذي يغلب عليه طابع التشاؤم ، إذ يذهب بعضهم - مثلا - الي القول بأن القيم التي تنطوي عليها الثقافة الأمريكية ليست أكثر إغراقا في المادية من قيم الثقافة الأرستقراطية في أوربا القديمة التي شيدت البندقية ، وفرساي ، وكنيسة القديس بولس ، ويقولون أيضا أن حياة أغلبية الشعب

قبل القرن العشرين كانت أشد انحطاطا منها في البلاد الصناعية اليوم ، إن كثيرا من مظاهر الثقافة العالية في القرون الماضية قد بولغ في تقديرها ، وصورت بصورة رومانسية لا تخلو من المغالاة ، ويوجهون النظر الي شيوع الأمية قبل القرن العشرين ، والي اتاحة اسباب الثقافة العالية الآن لأغلبية الشعب أكثر مما كان في أي وقت مضي ، وبخاصة فيما يتعلق بالاطلاع علي الثقافات الأخري . كل هذه العوامل تدل علي أنه لا يمكن الجزم حتي الآن بتدهور المستوي الفكري والثقافي عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية في المجتمعات الحديثة. صحيح أن الشعور بهذا التدهور موجود بين المفكرين علي نطاق واسع ، ولكن لم يثبت حتي الآن أنه يقوم علي أساس متين سواء في أمريكا وفي أوربا . كيف ينبغي – إذن– النظر الي تلك المسألة بالنسبة للثقافة العليا وبقية العالم ؟

لقد لاحظنا أن من النتائج الرئيسية لوجود نظام قومي لوسائل الاعلام ، يستند الي برامج شبه متجانسة كالذي يوجد في الولايات المتحدة ، تحقيق درجة هامة من الوحدة الثقافية . والقول بأن الناتج الثقافي المنبثق من الأفلام والتلفاز ضعيف المستوي قول يفتقر الي الإثبات. ومن المسلم به أن برامج وسائل الاعلام تعمل علي وحدة الثقافة . ولكن الذي يضار هنا هو البرامج التي تخدم الأقلية العرقية ، والاقليمية ، والطائفية ، والبرامج الخاصة باللغة الثانية ، واللهجات المحلية . ولذلك كانت «لعنة» هذا النوع من وسائل الاعلام هي الوحدة لا ضآلة الجودة .

والحالة الشبيهة بذلك هي قيام نمط من الثقافة الدولية علي الأساس الذي قامت عليه الثقافة الجماهيرية . ووجه الشبه في ذلك أن المشكلة الرئيسية في هذه الثقافة الدولية هو تأثيرها في الثقافة القومية والمحلية والعرقية والقبائلية والدينية واللغوية . وذلك أنه يوجد دائما في كل بلد من البلدان –كما سبق أن أوضحنا– بعض الجماعات التي تروق لها بعض البرامج الغربية – وأخري تمقت هذه البرامج (والثورة الإيرانية خير شاهد علي الصراع الأخير بين الجماعتين) ثم أن التحول الاقتصادي يخلق طبقات جديدة ، بالاضافة الي أن ظهور صفوة فنية وحكومية حديثة تعلمت تعليما غربيا ، يؤدي الي طلب المزيد من القيم الغربية التي تعلمتها هذه الصفوة . ويحدث أحيانا أن نجد أمة مزقتها الخلافات القبائلية واللغوية والدينية والعرقية فتضطر الي الاعتماد علي هذه القيم الأجنبية (تأمل الأثر الذي أحدثته اللغة الانجليزية في الهند) .

ولما كان من المرغوب فيه تنويع الثقافة العالمية الي أقصي حد (وهو المبدأ الذي سندافع عنه في المبحث التالي) فإن تأثير وسائل الاعلام علي المجتمعات غير العربية يكون ضارا حتما فمهما بلغت هذه المجتمعات من التطور ، ومهما تلاءمت البرامج مع الأهداف الظاهرة للحزب الحاكم أو غير الحاكم ، أو أهداف الأغلبية والأقلية العرقية ، حتي حينما تلقي قضية الوحدة القومية تشجيعا من ثقافة أجنبية . ذلك بأن الثقافة العليا -كما رأينا- تنحو نحو الوحدة والتماثل ، وتقضي علي معظم أشكال الولاء التقليدي ، وتفرز مبادئ العالمية والتحضر، والنمو التكنولوجي ، والتوسع الاقتصادي ، وزيادة الاستهلاك السلعي الي أقصي حد . وواضح أن النمو الاقتصادي له نهاية ، ولذلك كان من حقنا أن نعترض علي نشر هذه المبادئ في عالم لم يدرك بعد كثيرا من الأخطار الكامنة في التصنيع الذي بلغ درجة عالية من التقدم.

ولنقصر كلامنا علي الثقافة ، فنقول إن الخطر الكبير الكامن في وسائل الاعلام في جميع أنحاء العالم هو الوحدة والتماثل ، والقضاء علي تنوع الثقافة ، والأشكال المختلفة الكثيرة للتعبير الثقافي الانساني . فلنبحث الآن في اسباب أهمية هذا التنوع ، والعراقيل التي تقوم في سبيله .

٣ – التعدد الثقافي ، والدولية ، والنسبية

لقد رأينا حتي الآن أنه علي الرغم من أن انتشار الثقافة الصناعية (وبخاصة في صورتها الأمريكية) قد يمثل تهديدا "للثقافة العالية" أقل مما يقدره الكثيرون ، فإن ثمة خطرا ماثلا من نوع آخر علي المستوي العالمي ، هو خطر التجانس الثقافي . صحيح أنه ليس ثمة من الأسباب ما يدعو الي القول بظهور تكنولوجيات جديدة تصبغ العالم حتما بالصبغة الأمريكية الخالصة . وصحيح أن استخدام الأقمار الصناعية (كالأريسات) ، والنظم الكبلية الجديدة ، سوف تتيح للأقاليم والدول أن تدبر احتياجاتها الثقافية علي نحو لم يخطر علي بال أحد من قبل . وصحيح أن ازدياد الثروة سوف يتيح تقليد الصناعات الفيلمية الناجحة في بعض الدول مثل الهند ، وهونج كونج ، ومصر ، والمكسيك . ولكن برغم ذلك كله فإن انتشار الثقافة العليا قد يساير عوامل التوازن هذه ويتغلب عليها الي الحد الذي لا يكون فيه التعدد الثقافي هدفا للسياسة القومية والدولية . وسنتكلم أولا بايجاز في هذا المبحث علي ماهية التعدد الثقافي ، وثانيا كيف يمكن الدفاع عن هذا المبدأ واستعادته . علي أنه قد يكون من المفيد أن نكرر : لماذا كان التعدد الثقافي مثلا أعلي جديرا بالدفاع عنه ، وما هي قيمة المبدأ الفلسفي الذي

يقوم عليه هذا النفوذ وهو التنوع الاجتماعي والفردي .

الواقع أن مبدأ التنوع الثقافي في المجتمع المفتوح المتعدد الأعراق والسلالات هو من المبادئ التي حظيت باعتراف متزايد في كثير من البلاد العربية خلال العشرين سنة الأخيرة ، علي الرغم من أنه لم يحظ بالدفاع الكافي الا في أوقات نادرة في البلاد ذات التقاليد الحرة ، وفي أوقات اشد ندرة -مع الأسف - خارج هذه البلاد . ويربط الدفاع التقليدي الحر عن التنوع (وخير بيان له لا يزال هو كتاب "مل" بعنوان "في الحرية" (١٨٥٩) وبين الرغبة في التنوع ، وضرورة التقدم الاجتماعي بوجه عام . ذلك أن التقدم الفكري والعقلي لأي أمة وللعالم بوجه عام لا يتطلب حرية الفكر والبحث فحسب ، بل يتطلب أيضا حرية الأفراد في اختيار أساليب الحياة والنشاط ، مما يسمح بأوفي قدر من نمو الشخصية من كافة جوانبها ، فهذا النمو الكبير يستطيع الأفراد اكتشاف وتغذية مواهبهم وقدراتهم التي تمكنهم من ابتداع المخترعات وابتكار المنتجات الثقافية . ولا تكمن قيمة التنوع في اثراء التجربة التي يتيحها للجميع فحسب ، بل أيضا في اختلاف أنماط النشاط الذي يفتح أمام الأفراد آفاقا من الاختيارات في رسم خططهم في حياتهم . يضاف الي ذلك أن متانة أخلاق الفرد وحريته تكمن في قدرته علي تجاوز الأساليب المعتادة في التفكير والعمل ، واقتحام آفاق جديدة من الفكر والعمل بطريقة تلقائية وعمدية . . هذا والانقياد الأعمي للصادرات والتقاليد هو أكبر عدو للفردية والشخصية ، في حين أن أقدر الناس علي التخطيط وتدبير شئون الحياة هم الذين وصلوا الي أعظم درجة من الحرية ، وأسمي قدر من تنمية ملكاتهم ، لأن هذه الملكات لا يمكن استخدامها علي الوجه الأكمل الا حيث يستطيع الفرد أن يقرر مصيره بنفسه ، وينأي عن التقليد .

وعلي ذلك فالتماثل والتجانس هما العدو الأكبر للتنوع الذي يطلق عليه اسم التعدد الثقافي. وقد ظهرت فكرة هذا التعدد في أوائل هذا القرن كقيمة يجدر بنا الدفاع عنها في مقابلة "الأمركة" التي سبق أن فرضت سلطانها علي المهاجرين الجدد الي الولايات المتحدة بيد أن تطبيق فكرة التعدد الثقافي يرتبط باسم كندا أكثر مما يرتبط بالولايات المتحدة التي لم يظهر فيها التعدد الثقافي بشكل جدي إلا في الستينات والسبعينات ، وبخاصة فيما يتعلق بالثقافة الزنجية الفرعية . ومنذ ذلك الحين أخذ الباحثون يهتمون اهتماما كبيرا بمشكلة التنوع والتجانس الثقافي ، وأرسيت -علي الأقل- أسس الاعتقاد بقيمة التعدد الثقافي .

ويمكن تعريف التعدد الثقافي بأنه وجود ثقافات مختلفة ومتعددة في أمة واحدة ، مع وجوب اتفاقها مع الوحدة القومية الي أقصي حد (تقوم هذه الثقافات في العادة علي أسس عرقية ، وإن قامت علي كثير من الأسس الأخري)

وعلي الثقافات التي تمسك بزمام السيطرة بسبب القوة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية التي تتمتع بها الطبقات أو القبائل أو الجماعات المساندة لها ، أن لا تحاول استئصال شأفة منافسيها ، علي الرغم من أنه حيث لا تسيطر جماعة واحدة أو حيث تكون هذه السيطرة واهية الدعائم ، فإن ذلك يغريها باستئصال منافسيها تدعيما لسيطرتها (كما يحدث بالفعل في أي مجتمع استعماري وفي كثير من الدول الإفريقية والأسيوية الحديثة ، وفي دول أمريكا الجنوبية) . ويجب الاعتراف بكافة الثقافات الموجودة في الأمة الواحدة ، وإن عاد ذلك ببعض الضرر علي بعض الجماعات . ويجب أن يفهم التعدد الثقافي ، الذي يعني تعدد الاتجاهات في الأمة الواحدة ، علي أنه "دولية ثقافية (نظام دولي ثقافي) عند البحث في العلاقات بين الدول . وهذه الدولية الثقافية تحترم فردية الدول ومواردها الخاصة ، وتضمن حق البقاء لمختلف الأمم والقبائل والطوائف الدينية والجماعات العرقية والطبقات الاجتماعية ، وذلك علي خلاف الاتجاه أو النظام العالمي الذي يهدف الي تحطيم حواجز التمييز الثقافي والقومي، كوسيلة لضمان السلام والوفاق الاجتماعي . ويتضمن معني الدولية الثقافية هنا أنه يجب علي الثقافات التي لا تتلاقي معا ملاقاة الند للند ، بسبب إختلاف قوتها أو عدد سكانها، أن تلتقي معا علي الاحترام المتبادل وأن يحمي القوي فيها الضعيف .

ولا تلبث هذه الفكرة أن تصطدم بعدة عقبات يتعذر تذليلها ، ولعل أظهر هذه العقبات هو واقع السلطة الاجتماعية والسياسية في الدولة . ولا تتمثل هذه العقبة في أمة كاملة التكوين تقوم فيها ثقافة عريقة علي أسس متينة ، ولا تواجه تهديدا من غيرها من الثقافات المماثلة ، وتشعر بالعطف الأبوي علي ثقافة الأقليات التي تعيش معها . وانما تتمثل هذه العقبة في دولة ناشئة تري أن الهيمنة الثقافية عنصر هام من عناصر السلطة الاجتماعية والسياسية ، فمثل هذه الأمة لا تقبل التضحية بميزة يمكن أن تحصل عليها من وراء السيطرة علي الثقافات الأخري . وحتي في الدولة الناضجة المستقرة فإن مثل هذه الفكرة يمكن أن تكون لها نتائج مدمرة ، كما لو سمح الاتحاد السوفييتي -مثلا- بتعزيز الثقافة الاسلامية في آسيا الوسطي السوفييتية - والحل الوحيد المعقول لهذه المشكلة هو تنفيذ الاقتراح الذي سنطرحه فيما يلي ، وهو اعطاء سلطة أكبر لمنظمة ثقافية مركزية كمنظمة اليونسكو ، إذ دلت التجارب علي أنه لا

يمكن تكليف الدول الفردية التي تخوض صراعا يائسا ضد الجوع والديون والاضطرابات الداخلية بمهمة الحفاظ علي الثقافات المختلفة .

وأخطر من هذه العقبة عقبة النسبية الثقافية أو نسبية الثقافة ، بمعني أنه لا يمكن أن تدعي إحدي الثقافات انها وصلت الي درجة الكمال المطلق ، وأنها أرقي من كل الثقافات الأخري . ونظرا لضيق المقام سأضطر الي صرف النظر عن بعض الحالات الفردية الهامة كحالة الثقافة التي تسود فيها فكرة <<صيد الرؤوس>> أي اجتزاز رؤوس الأعداء ، والاحتفاظ بها تذكارا للانتصار علي الأعداء، وكبعض الثقافات الأخري التي تشيع فيها الفواحش والمنكرات . ويرجع مثل هذه الحالات الفردية الي وجود خلاف مستحكم بين التقاليد والأعراف الموروثة وبين القيم العليا في الثقافة الغربية مثل الديمقراطية والمساواة (بين الرجل والمرأة) . جميل جدا أن تقوم كل أمة بتطبيق مبدأ تعدد الثقافات ، ولكن ماذا يعني هذا المبدأ عندما ننظر الي وضع المرأة الأليم والمنزلة الدنيا التي تحتلها في كثير من الأمم ، وعندما ننظر الي معاداة النظام الأبوي لمعظم أشكال الديمقراطية . وفي الحقيقة – ونحن نقولها بصراحة تامة – أن القيم الرئيسية في المجتمع الغربي ، وهي الديمقراطية والحرية والمساواة ، لا وجود لها في معظم المجتمعات الأخري أو –علي الأقل– لا توجد بأشكال مقبولة لدي معظم المجتمعات الصناعية الغربية . وهنا يتعين علينا إما أن نلتزم بهذه القيم العليا ونضحي بمبدأ التعدد الثقافي وإما أن نضحي بقيمنا الغربية التي نري أنها أسمي القيم ، ونؤكد مبدأ التعدد الثقافي .

وتزداد هذه المشكلة تعقدا إذا علمنا أن الثقافة العليا التي أشرنا اليها في هذا المقال ، بمعني انتشار الثقافة الغربية وبخاصة الأمريكية ، تؤيد بصفة خاصة ، وعلي وجه التحديد ، القيم الغربية في العلم ، والتكنولوجيا ، والتصنيع ، والتمدن ، وانتخال الأساليب العصرية . وهذه الثقافة العليا هي في جوهرها ثقافة عالمية تفرض نوعا معينا من التجانس . وكما عبر عن ذلك الناقد "كنيث بولدنج" : إن الثقافة العليا هي ثقافة المطارات وناطحات السحاب ، والقمح الهجين ، والمخصبات الصناعية ، وتحديد النسل ، والجامعات ، وهي عالمية في مجالها فكل المطارات مطار واحد ، وكل الجامعات جامعة واحدة . بل إن لهذه الثقافة لغة عالمية ، هي الانجليزية الفنية ، وأيدلوجية واحدة هي العلم" . كيف إذن يمكننا التوفيق بين قيم الثقافة العليا وقيم كل الثقافات الأخري ؟

الجواب علي هذا السؤال الذي يعد واحدا من أصعب الأسئلة في عصرنا هو "بعناية وحرص وحذر" وبدون الخوض في أي تفكير طويل في القيم الغربية يجب أن نؤكد أن معظم البشر ينتفعون بهذه القيم من الحرية والمساواة والديمقراطية متي اقترنت بالثراء والرخاء ، وكل المطلوب منا هو تحويل هذه القيم الي ثقافات أخري حتي لا نضطر الي أن نأخذ الحضارة بكل عيوبها ومحاسنها . ومعظم الدول غير العربية تأخذ اليوم بهذه النظرة ، وتختار من منتجات الحياة الغربية كل ما هو نافع ، وترفض كل ما هو ضار . ومثل هذا الاختيار هو عملية طويلة ومعقدة للغاية . ولكن في هذه الموازنة بينالقيم الغربية وغيرها من القيم الثقافية تعد السياسة القومية والدولية والثقافية وبخاصة السياسة الاعلامية ، علي أعظم جانب من الأهمية . وسنتكلم في المبحث الأخير معن بعض السياسات والوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا الغرض .

٤ – تنفيذ سياسة الحماية الثقافية

إذا أريد أن لا تتحول صورة العالم بأسره إلى صورة الثقافة العليا بالتدريج وجب اتخاذ تدابير مضادة متقدمة ومبنية علي التفكير الدقيق . وكما أن القومية الأمريكية قد استوعبت مختلف الأقوام في بوتقة الانصهار وفسحت الآن الطريق (في الجامعات علي الأقل) أمام تعايش الثقافات المتعددة ، كذلك يجب التوسع بأسرع ما يمكن في ارساء أسس السياسة القائمة علي تعدد الثقافات في العالم بأسره ، نظرا لأن التكنولوجيات الجديدة تزيد من نفوذ الثقافة العليا يوما بعد يوم . وقد نجحت بعض الدول نسبيا – مثل الهند ونيجيريا – في تنفيذ سياسة تعدد الثقافات ، في حين أن غيرها مثل كويبك ، وبلجيكا ، وأولستر ، والاتحاد السوفييتي ، لم تصادف نجاحا كبيرا في هذا المجال ، ومن الواضح أن السياسة الاعلامية هي نقطة انطلاق ممتازة ونموذج رائع للوسائل الأخري الواجب اتباعها لحماية الثقافة أيضا: ذلك أن وسائل الاعلام والاتصال لا يمكن استخدامها بسهولة فحسب ، بل هي قادرة علي الخير والشر معا . وكلما ازدادت أحدث وسائل الاتصال انتشارا أتاحت الافادة الي أقصي حد من اتجاهاتها الحديثة . ولا شك أن التدهور التدريجي الذي أصاب ثقافة الأقليات (الطبقات العاملة والعرقية ، والاقليمية ، والعنصرية) وحال دون تحولها الي ثقافة جماهيرية ، يمكن وقفه ، بدرجة كبيرة ، عن طريق البرامج الرشيدة ، وإذا اتضح عجزنا عن التخلص من آفات المجتمع الصناعي أمكننا بلا شك وقف بعض آثاره .

وأهم سياسة اعلامية نقترحها في هذا الشأن تتعلق بالتعليم بوجه عام ، لا بوسائل الاتصال خاصة ، إذ يجب أن يتعلم المواطنون في كل أمة تقدير الثقافات العالية في بلادهم ، دون احتقار الثقافات الحديثة أو الاقليمية أو العرقية أو ثقافة الأقلية ..الخ. كذلك يجب أن تهدف نظم التعليم في العالم بأسره الي تزويد الطالب بالثقافات الرفيعة ، دون أن تبث في نفسه روح الاحتقار للثقافات الأخري . وهذا الضرب من السياسات يتضمن الاعتراف بأن الثقافات الرفيعة أكثر شمولا ، وأقدر علي تزويد المرء بالمعلومات ، وادعي الي إرضاء عاطفته . ولكن جميع الثقافات الذوقية (التي ترضي أذواق طوائف معينة من الناس) تستحق درجة من التقدير والتأييد للجمهور الذي يتذوقها . ومن الاجراءات الواجب اتخاذها في هذا السبيل أن تقوم بعض الدول مثل الولايات المتحدة بزيادة الانفاق علي وسائل الاعلام التي تتولاها المؤسسات الخاصة (إسوة بما هو متبع في ألمانيا) ، بهدف نشر الثقافة الانجلو سكسونية الرفيعة فحسب ، بل أيضا بهدف نشر الثقافات الفرعية ، من عرقية وعنصرية ، واقليمية ، ودينية ، وكذلك نشر البرامج المحلية.

وقد قدمت عدة اقتراحات في مجال السياسة الاعلامية بصفة خاصة يمكن أن ندرجها هنا تحت عنوان "حماية الثقافة" ، وفحواها أن حرية التجارة المطلقة في المنتجات الثقافية – في سوق ثقافي احتكاري – لا يعود دائما بأي فائدة علي جميع الأطراف ، ولا علي الاقتصاد بوجه عام . وأول هذه الاقتراحات هو تعزيز دور اليونسكو التي تعاني "أزمة ثقة" حادة في الوقت الحاضر . وقد تعالت الصيحة خلال العشرين سنة الأخيرة بضرورة تعزيز هذا الدور الذي لا يمكن أن يكون الآن كما كان في الماضي ، إذ يجب أن ندخل في ا عتبارنا الآثار التي ترتبت علي وسائل الاعلام الجديدة . صحيح أن هناك بعض الاعتبارات السلبية في هذا الاقتراح يمكن الاحتجاج بها ضد الدعوة الي الحاق شبكة عالمية للاذاعة المرئية والمسموعة بهيئة اليونسكو مهمتها خلق تعددية ثقافية بأي شكل ممكن . من هذه الاعتبارات السلبية أن هذا المشروع سيكون محفوفا بالطبع منذ البداية ببعض العقبات السياسية علي اختلاف أنواعها ، كما أنه سيكون مثارا للجدل الشديد . ولكن هذه الاعتبارات لا تنهض حجة علي بطلان هذا الاقتراح .

وثاني هذه الاقتراحات ضرورة بذل الجهود القومية لتقنين انتفاع الأقليات بوسائل الاعلام، عن طريق زيادة البرامج المخصصة لها ، وبث الاذاعات بلغة الاقليات ، وربما تحقق ذلك بانشاء قناة جديدة (كما فعل الانجليز بشأن اللغة الويلزية (نسبة لإقليم "ويلز" بانجلترا).

ويمكن الاحتفاظ بمعايير عليا علي كل المستويات بشرط أن لا تخضع الاذاعات والبرامج في محطات الاذاعة الخاصة لرقابة أو سيطرة المعلنين (اذا سمح لهم بالاعلان) أو المؤسسات التجارية التي ترعي برنامجا اذاعيا أو تلفازيا بأن تدفع مبلغا من المال لقاء تخصيص فترات منه للاعلان عن منتجاتها . ومن النماذج الجديرة بالاحترام لإفادة الأقليات من وسائل الاعلام ما هو متبع في هولندا التي تخصص وقتا في الاذاعة المرئية والمسموعة لمعظم الأقليات بنسبة حجمها العددي . ولكن لا بد أن تتجاوز جميع البرامج الخاصة بالثقافات الفرعية مجرد تمثيل الأقليات بنسبة حجمها ، لأن هذا التمثيل غير كاف علي الأرجح لمقاومة الاندماج في ثقافة أوسع نطاقا وأكثر سيطرة .

وهناك بعض اعتراضات علي هذه البرامج المخصصة للثقافات الفرعية . منها أن هذا قد يفسر بأنه تزويد للشعب بثقافة ذات مستوي أدني ، بدلا من الارتفاع به الي ثقافة ذات مستوي أعلي ، أو يفسد بأنه إعطاء الشعب ما يريد بدلا من اعطائه ما هو مفيد ، أو يفسر بأنه تشجيع لأهداف اجتماعية غير مرغوب فيها ، ومخالفة للأهداف التي يتوخاها السواد الأعظم من الشعب ، أو يفسر بأنه تشجيع علي استهلاك الثقافة بدلا من خلق الثقافة علي وجهها الصحيح ، أو يفسر بأنه تعزيز للتمييز الجامد بين أذواق الجماهير ، ويفسر بأنه اضعاف لوظيفة وسائل الاعلام التي يجب أن توظف لتوطيد الصلات بين أفراد الأمة الواحدة أو يفسر بأنه تقديم للمعلومات والأخبار التي ترضي أهواء طائفة معينة ، بدلا من ارضاء مالأمة علي اختلاف طوائفها .

ولما كان كثير من الاقتراحات التي طرحت حتي الآن تتضمن تقديم برامج عامة فإن هناك خطرا آخر يضاف الي ما ذكرناه وهو خطر الرقابة والسيطرة السياسية . وخير وسيلة لتفادي هذا الخطر هي فرض ضوابط صارمة لتحقيق الإنصاف وعدم المجاملة ، ووضع نظام اعلامي مختلط يجمع بين النظام العام والنظام الخاص ، علي أن تتولي الرقابة الموازية بين النظامين .

هذه ليست سوي قليل من الأفكار الهامة التي طرحت في السنوات الأخيرة لمعالجة مشكلة الثقافة العليا التي برزت الي الوجود حديثا ، ولتوفير أسباب الحماية لثقافة الأقليات في كل مكان . وقد رأينا في معالجتنا لموضوع الثقافة الجماهيرية في الولايات المتحدة خاصة أنه توجد أوجه شبه وأوجه اختلاف بين مشكلة الثقافة في دولة بعينها ومشكلة الثقافة في اطار النظام الدولي العالمي . ولا يمكن أن يوجد بين الأمم خاصة ثقافة "عالية" و "ثقافات هابطة"

بالمعني الجمالي للكلمة ، وإن كنا قد رأينا نظيرا لهذه المشكلة في مسألة القيمة النسبية للحرية والمساواه والديمقراطية في المجتمعات الغربية ، ومسألة القيم المتعارضة في المجتمعات التقليدية . علي أن التشابه بين الثقافة الدولية والثقافة القومية يتجلي بأوضح مظاهره عندما تتم عملية التجانس والتماثل الثقافي بتأثير الثقافة العليا ، ولأن هذه الثقافة تؤثر تدريجيا علي مختلف الثقافات الخاصة بالأقليات في العالم كله ، تماما كما تؤثر الثقافة المسيطرة في أمة ما علي ثقافة الأقليات في هذه الأمة . وكثيرا ما تطلعت الأمم الأخري الي أمريكا ورأت فيها صورة مستقبلها . ولكن إذا لم تتخذ تدابير قوية لوقف عملية التصنيع التدريجي في العالم فلن تتجانس الثقافة الصناعية كما لن تجانس عملية التصنيع نفسها . ويخطئ من يظن أن التنوع الثقافي في الأمة لن يقل نتيجة لهذه العملية (عملية التصنيع) . ولكننا نرحب بنتيجة مصاحبة لذلك وهي زيادة معرفتنا بالثقافات الأخري نتيجة التوسع في سبكة الاتصالات العالمية . ويخطئ أيضا من يرفض التسليم بأن الثقافة العليا تؤدي في نظر الكثيرين الي التحرر من أغلال المجتمع التقليدي ، وكما أن الثقافة الجماهيرية هي نتيجة الديمقراطية كذلك الثقافة العليا هي نتيجة حتمية للرخاء والثراء الملازم لعملية التصنيع . بيد أنه لا أساس للخوف من أن تكون الثقافة العليا عائقا دون النمو والتطور . ذلك أن ثقافة التصنيع يمكن أيضا أن تكون متنوعة ، وملائمة للأذواق القومية وغير القومية ، ومشاركة – لا مدمرة – للثقافات القائمة قبل حركة التصنيع . ومن ذلك يتضح أن ثمة من الأسباب ما يدعو الي التفاؤل في مثل هذه السياسة القائمة علي التعايش السلمي بين الثقافات .

جريجوري كلايز
(جامعة هانوفر ، غرب ألمانيا)

المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر

هانز إولوخت جومبريخت

كثيرا ما اعتبر القرن الثامن عشر هو "العصر العظيم للمسرح الفرنسي[١] علي الرغم من كبار كتاب المسرح في الجيل السابق ، مثل كورنيي ، وراسين ، ومولبير . وينبغي أن لا تفهم عبارة " العصر العظيم " بالمعني المعتاد في تاريخ الادب علي أنه " العصر الكلاسي " ذلك لأن أبنية المسرحيات الفرنسية الناشئة في القرن الثامن عشر ، ومضمونها لم يكن لها تأثيرات معيارية علي الانتاج المسرحي في القرون التالية . ومع ذلك فنحن علي حق حين نستخدم مصطلح " العصر العظيم " للمسرح الفرنسي في تلك الحقبة . فمن جهة ، ومن وجهة نظر "تاريخ المسرح " نحن علي حق لأن بعض تقنيات المسرح الناشئة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر قد أثرت في المسرح تأثيرا يمتد الي عصرنا الحاضر ، وأصبحت طبيعية لدرجة تعوق تفسير المسرحيات التي ترجع الي عهود سابقة . ثانيا لأن ارتياد المسرح في ذاك الأوان كان من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية الجارية ، وعلي الأقل بالاجازات والأعياد عند مختلف المستويات الاجتماعية في فرنسا . وعلي ذلك يحق لنا دون شك أن نعتبر المسرح مركزا رئيسيا للمعرفة ، وأن رسالته التي تنتشر بالتدريج هي في صميم عملية التنوير .

---

[١] أنظر مثلا: Maurice Descotes, Le public, de theatre et son histoire, P.U.F., 1- Mau: 1964, p. 173

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

ويتطلب اعتبار المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر وسيطا لحركة التنوير التركيز في ثلاث مسائل تجعل لهذا البحث هويته العلمية :

أ] سوف نقتصر علي النظر في الأنماط الدرامية في القرن الثامن عشر ، تلك اللتي ساعدت علي اتساع مجال " المعرفة التنويرية "

ب] ونحلل هذه الأنماط بالسؤال عن الظروف التي ساعدتها علي نقل هذه " المعرفة التنويرية " الي جمهور النظارة يتحتم علينا تحديد الكيفية النوعية التي عدل فيها بنيان المسرحيات هذه المعرفة ، وكيف أعدت وسائل الاتصال بالمشاهدين ليكونوا قادرين علي تلقي هذه المعرفة .

ج] وإذا قبلنا الافتراض التفسيري بأننا لا نستطيع التفكير في " التنوير " دون التفكير في " الثورة الفرنسية " فان هذا يتضمن – بعكس المؤلفات التاريخية السابقة – أن نأخذ في الاعتبار المسرح في سنوات الثورة ، وأن التغيير في ظروف الاتصال قد أدي أيضا الي تغيير وظيفة المسرح بين ١٧٨٩ وعام ١٧٩٩ ، ومن ثم ينبغي صراحة أن تظل طبيعة المسرح الفرنسي في " حركة التنوير " بمنأي عن خلفية مسرح سنوات الثورة الفرنسية .

أولا – نظرة برجماتية للمسرحية علي إنها أداة إتصال :

تحليل النصوص من وجهة نظر براجماتية معناه إعادة وضع هذه النصوص في دلالاتها الاتصالية حتي يتسني فهم الوظائف [أي التأثيرات علي المعرفة السابقة لدي المتلقين] التي كان مؤلفوها يأملون الوصول اليها ، والتي تتحقق في لحظة التلقي . بعبارة أخري إننا نعتبر النصوص دائما – من وجهة نظر براجماتية – بمثابة وسيط وأداة لنقل المعرفة .والنصوص بإعتبارها أدوات لايصال المعرفة تجعل هذه المعرفة أحاسيس واقعية ، ومن ثم فهي مصادر تتيح لعلماء التاريخ الاجتماعي أن يعيدوا بناء المعرفة السابقة . ومن جهة أخري لا نستطيع ، من وجهة نظر براجماتية أن نبقي عند مجرد إعادة تشكيل المعرفة التي نقلتها النصوص أو إفترضتها .

ونحن إن اعتبرنا أنواع النصوص بمثابة الوسيط يتحتم علينا أولا أن نفصل المعرفة التي تفصح عنها هذه النصوص عن نماذجها البنائية المنظمة لكي يتأتي لنا [كما أشرنا من قبل] أن نسأل أنفسنا ماذا وكيف يدل تحويلها الي لغة منطوقة أو مكتوبة علي المعرفة المقصود التعبير عنها . عندئذ ينبغي التمييز بين الأبنية النصية باعتبارها مكونا للنوع الأدبي وبين

Sitzim Lebenr الذي يمثل عنصرا مكونا ثانيا للنوع ، أي قوالب الاتصال بالجمهور ، وهي ضرورية لامزجة الجمهور حين يكتسب المعرفة .

ولكي نصف المسرح بأنه وسيط نشير الي ثلاث حقائق براجماتية تشكل فرعيته [بقوة ، وتاثيرات مختلفة] :

أ] تستقبل الجماهير المسرحيات استقبالا جماعيا ، وأختبار المتفرج رد فعل سائر المتفرجين هو العامل الذي يحدد ما يتلقاه هذا المتفرج [وهذا هو السب في أن " فضائح المسرح " علي سبيل المثال ، تختلف في قوامها ، باعتبارها أحداثا ، عن الفضائح الصادرةعن الكتب] .

ب] وحتي اذا كان المنظر [علي خشبة المسرح] تحدده عادة المسرحية فإن تزامن التجربة لدي الممثلين والمتلقين ينطوي بداهة علي هامش نوعي من " حرية التفاعل " هذا الهامش يمكن ملؤه مثلا باستجابات المتفرجين ، وبردود الفعل المختلفة من الممثلين . وعلي أية حال فإن حالات الانتباه التي يتطلبها هذا " الهامش " من المستقبلين تختلف عن نظيرلتها في الكتب [لم يزل عرف الملهاة المرتجلة " Commedia dell, arte " حيا في فرنسا في مطلع القرن الثامن عشر ، وكان يستخدم هذا الاسلوب النوعي من الاتصال] .

ج] المعرفة التي يراد الافصاح عنها أثناء العرض يشملها بالتاكيد نص المسرحية شمولا معنويا [كما هو الحال في الكتاب] . غير أن عملية النقل التي يؤديها الممثل تقدم المعرفة الي المتلقي بكيفية أقرب الي تجربة التفاعل اليومية من تجربة قراءة الكتب.

ويبدو أن لهذه الحقيقة نتيجتين بالنسبة للمتلقي ، من وجهة نظر برجماتية . أولا – يمكن التسليم بأن المسرح يؤثر بنوع خاص علي آليات المتفرج الانفعالية ، لأسباب عديدة ، وبخاصة لأن المتلقي لم يعد مطلوبا منه ، بفضل الممثل ، أن يلتمس من "خياله" فكرة عن الواقع [٢].

---

[٢] انظر: 2- Wolfgang Iser, "Akte des Fingierens", Funktionen des Fiktiven edited by W. Iser and Dieter Heimrich, Munich, Fink, 1981 (Poelik und Hermeneutick 10)

ثانيا – إن الوضع المتوسط للعرض المسرحي يبعد المتلقي بالفعل عن كاتب المسرحية ، وعن التأثيرات التي إعتزم بلوغها ، بإعتبار أن الايجاز [الكثير أو القليل] الذي يستعين به لجعل البنية المعنوية فـي النص ذات طابع موضوعي يمكن أن يضعفه أداء الممثل ، وطبيعة المفاهيم الخاصة بالمسرح ، [من المحتمل أن الدراسات الخاصة بالمسرح ، والمشاهد الاستهلالية ، كمقدمة للمسرحيات والشائعة في أدب القرن الثامن عشر الفرنسي ، تعمل ، مع أشياء أخري ، كوسيلة لربط الصلة بين المتلقي والمؤلف] (٣)

ولكي نسهم اسهاما مجديا في التاريخ الاجتماعي علي أسس جديدة يتعين أن يكون تقديمنا لمسرح القرن الثامن عشر الفرنسي متجها صوب هذه المقدمات البراجماتية . والاعتبار بهذه المقدمات هو الشرط الضروري لادماج نتائج البحث في تاريخ الادب والمسرح في التاريخ الاجتماعي بأسلوب نظري بارع . هذا البرنامج ، رغم كثرة الاعمال التي تنتمي لتاريخ الأدب والمسرح ، أو بسببها ، لا يمكن بالطبع إنجازه في بحث استهلالي . ومن الضروري تطوير " مخطط تمهيدي " و" تقدير أولي " حتي يتسني الاجابة عن سؤالين معقدين بأي من أساليب اتصالات مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي انتقلت المعرفة ، وتبين انتشارها علي أنها جزء من عملية التنوير؟ وما هي الأبنية النمطية التي تكونت خلال هذه العملية لكي تتيح الافصاح عن المعرفة التنويرية [ثقافيا، وفنيا] وإلي أي مدي استطاع المعاصرون فهم ظروف تكونها ، وامكانياتها الفعالة .

ثانيا : قرائن الاتصال في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي

يمكن تعريف " قرينة الاتصال " بأنها العلاقة القائمة بين عناصر المعرفة التي يدخلها في المسرحية المشتغلون بالتصال من أجل نشر هذه المعرفة [٤] هناك بالتأكيد بالنسبة لمستويات التجريديون شائع بين هذا التعريف وبين نتائج الدراسات التي أجريت علي المسرح الفرنسي

---

[٣] هذا البحث الذي يسعي من الناحية البرجماتية الي تحديد هوية المسرح كأداة اتصال ، يقوم علي نتائج حلقة دراسية بشأن " النصوص الدرامية ، وعرض المسرحيات " أقيمت في مدينة بوخوم في نصف السنة الدراسية ، بشتا١٩٧٩-١٩٨٠.

[٤] في هذا التعريف بعبارة "قرينة الاتصال" انظر

H.V. Gumbrecht, Funktionen parlamentarischer Rhetorik in der Franzosisehen Rovoution. Vorstudien zur Entwicklung einer historischen Textpragmatick, Munich, Fink, 1978, p.10-13

في القرن الثامن عشر . غير أنه يمكن التغلب علي هذه الصعوبة بالتأمل في الملاحظتين الآتيتين ، وفي نتائجهما . أولا : أن المعرفة النوعية التي يقترحها مخرجو المسرح وكتاب المسرحيات في فرنسا في القرن الثامن عشر ، والتي يفترض مقدما وجودها ، يمكن تقويمها من خلال إعادة بناء أنماط معينة من " الريبرتورات " [الذخائر – مجموع روايات الفرقة المسرحية – المترجم] ثانيا: تحديد مواقع المسارح ، علي الاقل في نطاق مدينة باريس ، والمعلومات الخاصة برسم الدخول الذي تفرضه المسارح . بكل ذلك يسهل الوصول الي استنتاجات بشأن الحالة الاجتماعية ، ومن ثم ، وبطريق مباشر ، المستوي التعليمي لدي جمهور النظارة .

ونود أولا أن نبدي بالأحري ثلاث ملاحظات عامة لهذا الوصف الموجز لمختلف قرائن الاتصال في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي . والأهم ، أول كل شيء ، لقياس التأثير المحتمل للمسرح كوسيط للتنوير ، أن نذكر أن أكبر مسرحين في باريس ، الكوميدي فرانسيز .

ومسرح الايطاليين Theahe des Italiens يدخلهما في المجموع ٣٥٠٠٠٠ متفرج في السنة [هذا الرقم هو بالتقريب عدد سكان باريس في تلك الفترة] ، إنما ينبغي بطبيعة الحال أن نعرف أن التردد المنتظم علي المسرح كان "عادة " عند معظم المتفرجين [٥] ثانيا: كانت تكلفة دخول معظم المسارح غير الموسيقية في باريس تعادل بالتقريب الاجر اليومي للعامل . أما رسوم دخول الاوبرا فكانت الضعف ، أي أنها كانت إجمالا تزيد بكثير علي مستوي الرسوم السارية في القرن العشرين [٦] ، ثالثا: قد يبدو من العجيب أنه في القرن الثامن عشر في فرنسا ، حيث ساد النظام المركزي المطلق [في الحكم ، وفي الثقافة] ، نشأت عدة أنماط من " الذخائر " المسرحية ، وبالتالي من مختلف قرائن الاتصال [٧] . وعلي ذلك فإن افتراضاتنا ، ولو أنها تشير أولا الي مسارح العاصمة ، يمكن اعتبار أنها تمثل الأقاليم أيضا الي حد ما . فضلا عن ذلك فإن الحدود الفاصلة بين أنماط الريبرتوار أقل وضوحا بلا شك مما يبدو من النظرة الشاملة التي سوف نعرضها .

---

[٥] From Henri Lagrave, "Le Theatre et le public à Paris, de 1715 à 1750, Rlincksiech, 1972, p. 193 ff.

[٦] المرجع السابق ، ص ٢٣٥.

[٧] Jean Gueniart, Culture et societé urbaines, dans la France de l'Ouest au XVIII siecle, Rlincksieck, 1979, p. 504

المعروف أن الامتياز الذي منحه الملك لفرقة موليير من الممثلين هو الذي أدي الي انشاء "الكوميدي فرانسيز" [٨] . والنظام الأساسي للكوميدي فرانسيز ، باعتبارها ممثلة للمسرح الفرنسي إبان حركة التنوير ، مستمر فوق كل شئ من حقيقة واحدة تهملها المؤلفات في تاريخ الأدب ، التي تهتم كثيرا بالعناصر الابتكارية . ورغم أن الكوميدي فرانسيز أعادت عرض الريبرتوار المسرحي للقرن السابع عشر الذي أجيز في نطاق التحديد المستمر للريبرتوار الكلاسيكي فإنها قدمت في تلك الآونة مسرحيات ذات مضمون جاد أو هزلي لبعض كبار المؤلفين ، منهم في القرن الثامن عشر فولتير ، وبومارشيه . وباستثناء الفترة من ١٧٧٠ الي ١٧٨٢ جرت عروض الكوميدي فرانسيز في مسارح قائمة علي الضفة اليسري من نهر السين، أي في وسط كانت ثقافته وأساليب معيشته مشربة بالأنواق الأرستقراطية . لذلك فمما له دلالة أن أعضاء الكوميدي فرانسيز المحافظين من حيث نزعتهم السياسية ، بعد الصراعات العنيفة التي جرت في السنوات الأولي للثورة (وسوف نعود الي ذلك) ، بقوا في مسرح الأوديون (الذي افتتح في عام ١٩٨٢) علي الضفة اليسري من النهر ، في حين أنشأ الممثلون الذين استلهموا مناخ الثورة السياسية والثقافية "مسرح الجمهورية" فن "الباليه رويال" "Palais Royal" علي الضفة اليمني من النهر (حيث لم تزل الكوميدي فرانسيز مستقرة الي اليوم) ، وذلك في محاولة لإدخال نمط فني جديد علي المسرح .

والضفة اليمني ، بلغة التخطيط ، والطوبوجرافيا (وصف الأماكن) الاجتماعية التاريخية ، تعتبر بيئة الطبقة الباريسية البورجوازية الموسرة ، وفيها قدمت فرق من الممثلين الايطاليين عروضا من مسرحيات القرن السابع عشر . ويتيح لنا عرض مسرحيات باللغة الايطالية علي جمهور النظارة الفرنسيين أن نستخلص نتائج هامة من حيث حقائق التلقي الواقعية . ويبدو أن اهتمام النظارة كان يتركز علي فن الممثلين في ارتجالهم المسرحي الذي زوده تقليديا كوميديا الفن (الملهاة المرتجلة) بحرية كافية ، بتقديم نخبة محدودة من الأدوار الهزلية (وفيها

---

[٨] أخذ قدر من المعلومات التاريخية المقدمة في الصفحات التالية من :

- The Introduction to the "Pleiade" edition for which Jacques Truchet was respobsible of Theâtre du XVIIIe siecle, vol. I, Gallimard, 1972, p. XV-LIX

احتمالات التنوع في المضمون احتمالات عرضية) . كان هؤلاء الإيطاليون قد أبعدوا من باريس في عام ١٦٩٧ بتحريض من مدام دومانتنون ، ولكنهم عادوا الي العاصمة الفرنسية في عام ١٧١٦ . ويشهد منحهم امتيازا ملكيا في عام ١٧٢٣ ، الي جانب أسباب أخري ، بتأثير أسلوبهم علي الثقافة في عهد الوصاية علي العرش . وعلي الرغم من أن " مسرح الإيطاليين" قد أخرج في العقود التالية عددا متزايدا من المسرحيات باللغة الفرنسية فإن تقليد "الملهاة المرتجلة" استمر في أداء رسالة هامة . وقد أكد الكثير من مؤرخي الأدب تأثيرها علي كوميديات ماريفو التي كانت تؤدي في الواقع علي "مسرح الإيطاليين" .، كذلك فإن اندماج هذا المسرح في عام ١٧٦٢ مع الأوبرا كوميك "Opera-Comique" الذي كان يديره الزوجان فافار Favarts، وهما من أوائل مخرجي المسرح في أثناء انعقاد الأسواق السنوية في باريس ، هذا الاندماج لم يكن متاحا بدون صلة القربي بين تقليد "الملهاة المرتجلة" والمسرح الشعبي .

كانت أنماط المسرح الشعبي موجودة منذ العصور الوسطي علي أنها حفلات ترفيهية للجمهور في المعارض والأسواق التي تقام سنويا ، ومن أهمها في باريس سوق سان لوران Foire St. Laurent في شمال شرقي المدينة ، وسوق سان جيرمان Foire St. Ger-main علي الضفة اليسري لنهر السين . وفي القرن الثامن عشر أكتسبت هذه التقاليد دلالة خاصة في تاريخ المسرح الكلاسي . ذلك لأنه بعد انقضاء فترة من التباعد بين الملهاة الشعبية وبين "الثقافة الرسمية" التي فرضتها دولة استبدادية تغلغلت هذه التقاليد في محيط المتفرجين المثقفين ، وكان لها تأثير حافز علي الانتاج المسرحي في اختيار العروض التي تقدمها المسارح الكبري .

تقول نظرية جاك تروشيه Jacques Tauchet إن اتصال هذه الدوائر الثقافية بعضها ببعض – وكانت حتي ذلك الحين منفصلة – يمكن متابعته الي حين ابعاد الممثلين الايطاليين من باريس في أوائل القرن الثامن عشر . وكانت العروض المسرحية في الأسواق لتحل محل الإيطاليين تستجيب للحاجة الي "التلهية الخفيفة" . وإن كون هذا الاحتكاك بين مختلف المجالات الثقافية قد استمر حتي بعد عودة الايطاليين . كما أنه قد وضع له نظام خاص – كما ثبت بنشأة المسارح الدائمة في حي Boulevard-du temple – لا بد أن يكون دليلا علي حاجة الجمهور المثقف الي عروض جديدة . وهو أيضا دليل ، في مسار هذا القرن علي أن الجمهور كان يضفي علي مسرحه وظائف جديدة ، وكان محتوي التسلية الشعبية وبنيانها

يتسمان دائما بذلك في مجال الاتصال . إن عزلة الأسواق والعروض المسلية التي تقدمها علي مدار السنة هي المقدمة السوسيولوجية (المتعلقة بعلم الاجتماع) لقيامها بدور "الاسراف المباح" (فرويد) . والتلهية الشعبية ، مثلها مثل "ثقافة الكرنفال" ، تنتهك المحظورات المتعلقة بالتعبير عن النشاط الجنسي (وليس فقط باسلوب التلميح) ، وتتخطي حدود النقد ، وتدنس المقدسات .

إن الأهمية الموجهة لهذا التعبير البدني في هذا الأسلوب من التلهية (وبهذا التعبير تحدث مثل هذه الانتهاكات) والذي يتحدد به تكوينها ، كان في الأصل بمثابة رد فعل علي الحظر الصادر من الدولة علي عرض مسرحيات خارج المسارح التي حظيت بامتيازات ، ولهذا كان الممثلون يستخدمون علامات مطبوعة تشرح تمثيلهم الصامت (الايمائي – البانتومايم) ، أو تشجع المشاهدين علي المشاركة في أداء أغنية معروفة (تمثيليات بلافتات) . وثمة وسيلة أخري لجذب انتباه النظارة دون استخدام اللغة تتمثل في ظهور الممثلين علي التوالي في أروقة المسرح الجانبية (في صورة استعراضات)

إن منح السلطات امتيازات لبعض المسارح ، ومنحها مزايا العمل المسرحي لبعض الممثلين، لهي أمور كان يحظي بها في الأسواق والمعارض كبار فناني المونولوج في مستهل القرن الثامن عشر . ولا يجوز غض النظر عن ظهور مثل هذه التكوينات المسرحية في ممارسة التمثيل في كبريات مسارح القرن الثامن عشر . ومع ذلك ينبغي أن يكون هذا الظهور موضوعا لدراسة منهاجية ، وبخاصة من زاوية التغيرات الوظيفية التي ترتبت عليه . والثابت أن ممثلي الأسواق جعلوا من الضرورة مزية، واستغلوا عدم حصولهم علي امتياز ملكي في ممارسات مسرحية أثبتت أن احتمالات الاتصال النوعيةأعظم قيمة من نظيراتها في المسرح الكلاسي ،. ويشكل ما يسميه تاريخ الأدب "مسارح المجتمع" العنصر الرابع في مضمار اتصالات التلهية في مسرح القرن الثامن معشر . وإذا كنا نستخدم هنا هذه الفكرة العامة ، رغم ما فيها من تباين ، فذلك لأن كل كأنماط "مسارح المجتمع" تشترك في صفة واحدة : ذلك أنها لا تعتمد في ايراداتها علي رسم الدخول ، ولكن يمولها بعض الهواة ، أو مؤسسات تربوية لا تسعي الي الربح . وتنطوي الطبيعة النوعية لمسارح المجتمع علي مجموعة من النتائج . فعالم التلهية عند أصحابها وجمهورها ليس مماثلا لعالم المهنة ، وتمثيل المسرحيات هو جزء من البرنامج التربوي في "الكليات" ، وبخاصة في الأقاليم ، وهو شكل واقعي للانفتاح الثقافي لدي الطبقة البورجوازية ، ووضع متفاعل بين الالتزام بالتمثيل وبين "العزلة الأرستقراطية" في

البلاط . هذا بصفة خاصة هو السبب علي الأقل في الصالونات البورجوازية ، وفي قصر فرساي – في أن أدوار الجمهور والمخرجين والممثلين ، وأحيانا المؤلفين ، أدوار قابلة للتبادل . وهذا هو أيضا السبب في أن امكانية الاسهام في مثل هذا "النشاط الجماعي الخلاق" كانت بمثابة رمز اجتماعي مشروع.

ويلقي هذا الموجز التاريخي الاجتماعي لمسارح المجتمع ضوءا علي حقيقة جوهرية أهمها علم الاجتماع الأدبي الذي يعمل بطريقة تخطيطية أكثر مما ينبغي ، حقيقة يمكن أن تكون دائما محدودة علي وجه التخصيص : ذلك أنه كان في المستطاع تعطيل الرقابة علي المسارح في مثل هذه البيئة . فاذا أخذنا في الاعتبار التفرقة بين الالتزامات النبيلة بالتمثيل وبين "العزلة الأرستقراطية" لما كان من المدهش أن يؤدي الكونت دارتوا الذي أصبح شارل العاشر عند عودة الملكية الي العرش دور فيجارو ، وتؤدي ماري أنطوانيت دور "روزين" في مسرحية "حلاق أشبيلية" في التريانون . ولم يكن من العجيب أيضا أنه حتي الخطب العنيفة المطولة في ظاهرها ، فيما قبل الثورة ضد النبلاء ، وذلك في مسرحية "زواج فيجارو" ، قد استمتع بمشاهدتها جمهور النظارة الأرستقراطيين في حفلات عامة للمسرحية في "الكوميدي فرانسيز" . كانت "مسارح المجتمع" أماكن تخدم الأغراض الاجتماعية للصفوة من المثقفين ورجال الاقتصاد في القرن الثامن عشر بفرنسا . إن الو ضع الاجتماعي التاريخي الذي حظيت به تلك الصفوة ليتيح تفسير السبب في إمكانية التعبير هنا عن غالبية أوضاع التنوير المتقدمة ، حتي ولو كان انتشار هذه المعرفة المتنورة لا يكاد يسهم في اثارة الشك في الأبنية والمؤسسات الاجتماعية لحكومة استبدادية .

ونحن إذ حددنا موضوع بحثنا في مقدمة هذا العرض ذكرنا أن الأنماط ووسائل الإتصال الخاصة بالمسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر التي يمكن اعتبارها بمثابة "وسيط للتنوير" هي وحدها التي سوف تؤخذ في الاعتبار . وبعد هذا الاستعراض السريع لأنماط الاتصال الأربعة يبدو واضحا أننا لا نستطيع الوصول الي تحديد حقيقي للموضوع . فالمتوقع أنه ليس في الوسع الاحاطة بمؤسسة تتولي وحدها نشر المعرفة التنويدية ، كما لا يمكن الاحاطة بمسرح لا يعمل الا علي الاعتراف بشرعية الحكومة الفرنسية قبل ثورة ١٧٨٩ . وبالكيفية نفسها فإن دراسة الرقابة في ذلك العصر ، كوسيلة استكشافية فتمييز النصوص "النقدية" و"المؤيدة" ، كما يفعل مؤرخو الأدب تلقائيا في الوقت الحاضر ، هذه الدراسة لا تؤدي الي شئ مفيد في مجالنا هذا وبالنسبة للمؤرخ الذي يثق كثيرا في الرقابة كدليل له ، فإنه لا يأخذ

في اعتباره المضمون التأويلي كعامل ممن عوامل الأداء المسرحي ، فكثير من النصوص التي تعتبرها الأجيال التالية نصوصا "انتقادية" ، اعتبرها المتلقون من عهد مضي نصوصا "بريئة" ؟ بل أن مؤلفيها كتبوها دون قصد جدلي . وتقنية الرقابة في فرنسا الخاضعة للحكم الاستبدادي المطلق في القرن الثامن عشر كانت تتدخل ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، حين يشعر رجال السلطة وذوو المراكز الرفيعة بأنهم هدف للنقد اللاذع ، أو حين تنتهك بعض المحرمات المعروفة [٩]

ومع أنه ليس في الامكان التمييز بوضوح بين نصوص الاتصال "التنويري" و"اللاتنويري في مسارح القرن الثامن عشر فإنه لم يزل في الوسع صياغة افتراض – صحيح علي أنه توجيه أولي لبحوث لاحقة – في شأن تأثير التقارب الوظيفي بين مختلف الأنماط المسرحية وتطورها . فالبيئة المميزة للتراجيديا (المأساة) هي "مكافأة الفضيلة" ، ومعاقبة الرذيلة"(١٠) ، والكوميديا (الملهاة) – كوميديا السولكيات ، هي "محاكاة ساخرة – باروديا – لأشكال شاذة من السلوك " ، تلك الموروثة من القرن السابع عشر ، والتي تتولي "الكوميدي فرانسيز " عرضها . هذه التفرقة أفادت فوق كل شئ في نقل وترسيخ واقرار العناصر الأساسية للمعرفة اليومية المعتادة التي تتألف من المقابلة بين الدولة والمجتمع في "العهد القديم" (قبل الثورة) .

وفي "الكوميديا الإيطالية" ، ومسارح الأسواق ، تطورت هياكل مسرحية يمكن عزلها عن الحياة اليومية الجارية ، باستخدام "منظمات" تتمثل في امتيازات ملكية ورقابة حكومية ، تيسر التعبير عن الشعور بالتعويض والتحرر . ومع ذلك فإن هذه الهياكل يمكن أن تكون بمثابة هامش للتعبير عن النقد ، ومن ثم تطرح المؤسسات الاجتماعية علي بساط البحث . ونحن إن تساءلنا عن الظروف المحيطة بظهور هذه المعرفة وانتشارها والتي لا يزال في وسعنا الي اليوم

---

[٩] انظر مثلا - Lagrave, op. cit., (note 5), p. 68

[١٠] انظر التفسير التاريخي الوظيفي المقنع بنوع خاص للتراجيديا الفرنسية الكلاسية ، الذي قدمه مانفريد فورمان :
- Manfred Fuhrmann: Einfuhrung in die antike Dichtungstheorie, Darmstadt, Wiss. Buehges, 1973, p.236-252

أن نصفها بأنها "متنورة" ، فإن نرجع – بكيفية متناقضة ، ولكنها في الوقت نفسه مقبولة – الي "مسارح المجتمع" theatres de societe ، ومع ذلك فإن هذا البنيان معقول لأنه كان من السهل رواج هذه المعرفة في "مسارح المجتمع" ، ولأن الصفوة هي وحدها المثقفة في الواقع تثقيفا كافيا لأن تنمي الأوضاع الفلسفية الخاصة بالتنوير .

ومن الوجهة المثالية تطور المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر بالتحول صوب النزعات الوظيفية الثلاث السابق ذكرها . فمسرحية "زواج فيجارو" لبومارشيه، التي يعتبرها مؤرخو الأدب تجسيدا مباشرا للمسرح علي أنه "وسيط التنوير" ، تصور مضمونا وتكوينات تقابل نظيرتها في المسرح الشعبي ، والملهاة الإيطالية : (أ) فهي من تأليف كاتب ينتمي الي الصفوة المثقفة ، وعرضت أولا في منظر اقامة بعض الهواة (ب) واستقبلها الجمهور بعكس ما كان يريده بومارشيه ، علي أنها تمثيل لحاجة جماعية الي تغيير المجتمع . (ج) وظهرت أخيرا ضمن مجموعة عروض الكوميدي فرانسيز ، وهي مؤسسة كان نشر المعرفة فيها يتم في حماية الامتياز الملكي .

ثالثا – أبنية الجاذبية في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي

نشير بعبارة "أبنية الجاذبية" ، متفقين في ذلك مع ولفجانج ايسر Wolfgand Iser [١١] الي الظواهر نفسها المرتبة ترتيبا تدريجيا ، وتشكل موضوعا للنصوص اللغوية فإذا تركنا جانبا عبارتي "أبنية النصوص" و"أبنية العقدة" فإنا نؤكد أننا نحلل أشكالا كلامية في مجال التاريخ الوظيفي . معني هذا كما أشرنا في البداية أنه ينبغي لنا أن نأخذ في الاعتبار بناء ظروف المعرفة التي تحدث وقت التلفظ بها ، وكذا قدرة هذه الألفاظ علي جذب انتباه المتلقين ، وتمكينهم من استخلاص معانيها .

---

[١١] W. Iser, Die Appelstruktur der Texte. Unbestimmtheit, als Wirkungsbedingung literarischer Prosa, Constance, Uniersitatoverl, 1970, 3rd ed. 1972.

ولو سألنا مع مارتن فونتيوس Martin Fontius [١٢] : إلي أي مدي كان المسرح وسيطا لتنمية الوعي الطبقي في مجتمع التنوير لصادفنا للحال كوكبة أساسية متكررة من أبنية الجاذبية في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي . وثمة أشكال مختلفة من تمثيل الطبيعة البشرية تواجه "القوي المضادة المتغيرة دواما . بهذه النظرة ، يمكننا أن ننسب مراحل تطور المسرح الي أقسام من تاريخ "الجمهور البورجوازي" كما خططها كوزليك Koselleck ، وهابرماس Habermas [١٣] . وفضلا عن ذلك فإن هذه الوجوه في تاريخ المسرح تدل : (أ) في البداية علي مراحل في خلق نظرة لعالم له صفات الإنسان ، مقتبسة من نظرة لعالم له صفات الآلهة ، (ب) وفي النهاية مراحل في اختفاء فكرة "الطبيعة البشرية" التي حل محلها نموذج لهوية "الفرد باعتباره معيارا لبنية الحقيقة . ولهذا السبب ينبغي لنا أن نذكر أبنية الأنماط الأدبية ، لا علي أنها نتيجة فحسب ، بل علي انها عامل يسهم في تحويل أبنية العناصر الأساسية للمعرفة الاجتماعية .

وأخيرا نؤكد هنا ثانية أنه لا يسعنا في الصفحات التالية الا أن نضع مخططا للسمات الرئيسية لتطور أبنية الجاذبية في المسرح ، لأننا قد حددنا مجال بحثنا ، ومن ثم نقصنا المساحة التي يغطيها هذا البحث . مهمتنا إذن هي أن نكشف في منظور لتاريخ الأدب والمسرح علي امكانيات معينة لتفهم عملية التنوير ، الا أن نفكر بالتفصيل في كل نواحي تطور هذه العملية .

---

(١٢) "Theaterdebatten in der franzosischen Aufhlarung", Theater und Aufklarung. Dokumentation zur Aesthetik des franzosischen Theaters in 18. Jahrhndert, ed. by Renate Petermann and Peter-Volker Springborn, , DDR-Berlin?Munich, Hanser, 1979, p. 15.

(١٣) Reinhart Roselleck Rritik Rrise. Ein Beitrag zur Pathogenese der Burgerlichen Welt, Freiburg?Munich, Alber, 1959, reprinted Frankfurt, Suhrkamp, 1973.

أ] في مستهل القرن الثامن عشر : الطبيعة البشرية ، حيال نظام كوني [Cosmos] عدائي .

إننا نميل الي استخدام هذه الصيغة لتوصيف بنية الجاذبية في المسرح الفرنسي في مستهل القرن الثامن عشر ، فمصطلحcosmos [الكون ، العالم] الذي يعني هنا المبدأ المقابل للطبيعة البشرية ، لم يستخدم بدلالة لاهوتية أو فلسفية بحتة [مثل هذا التفسير لا ينطبق إلا علي تراجيديات هذا العصر] ، ويتميز عن المباديء المضادة الموجودة في بنيان المسرحيات التالية بطبيعته اللاشخصية والعالمية في وقت واحد ، وتبريرا للفرض الذي يؤدي بنا الي هذا التفسير نقدم التراجيديا في مستهل القرن الثامن عشر في مقابل التراجيديا القديمة في القرن السابع عشر [١٤] " المتوسط " في أبطال التراجيديات القديمة " مذنبون ، ولكنهم أبرياء " فهم من جهة ينتهكون قوانين الكون [وهو أمر نسميه في الوقت الحاضر " موضوعيا"] في حين تسهر الالهة للتأكد من إحترام هذه القوانين ، وهم من جهة أخري ، ينتهكون قوانين أخري [تسمي " شخصية "] لوجود نقائص في قدراتهم البشرية علي الفهم، ومن ثم يستحيل عليهم أن يتعرفوا علي نقيصتهم ، ويدركوا عواقب هذه النقيصة . مثل هذا البنيان لحبكة المسرحية ، القائم علي فكرة تفرقة جوهرية بين قوانين الكون وبين امكانيات المعرفة ، لا يمكن تصوره في عالم مسيحي ، ربه منظور لأنه أوحي للانسان بوصاياه ، ولهذا السبب عوقب الأبطال في تراجيديات كورني [cornei] علي فضائلهم ، وكوفئوا علي رذائلهم. ولهذا السبب أيضا نجد دائما في " راسين Racene " اهانة تعمل كوسيلة لتفهم نقائصهم ، حتي ولو أكدت دراسات " راسين " في السنوات الاخيرة أن فكرة الينسينية " jansenism " [مذهب أخلاقي مسيحي متشدد – المترجم] عن " إله خفي " تؤدي الي بنية نشعر بأنها تفاوت بين الإثم الشخصي وبين العقاب الالهي ، ونفسرها بأنها تمثيل [يعتبره المعاصرون شعورا مسبقا] لحاجة تدعو الي تعطيل قوانين العالم المسيحي . مثل هذه الحاجة الشعورية المسبقة وجدت تعبيرا لها مثلا في مسرحية " أوديب " لفولتير ، قدمتها علي

---

(١٤) هنا اقتبس علي نطاق واسع من كتاب لرولاندجال :

- Roland Galle, /Tragodie und Aufklarung, Zum Funktionswandel des Tragischen Zwischen Racine und Buchner, Stuttgart, Klett, 1976

المسرح الكوميدي فرانسيز في عام ١٧١٨ ، وإستقبلها الجمهور بحفاوة كبيرة ، وفيها يحتج أبطال الرواية ضد الكون ، ويصيح أوديبوس في خطبته الأخيرة " أيتها الآلهة القاسية " ، " جرائمي هي جرائمكم ، ومع ذلك تعاقبونني عليها (VV.1344f٠) وبهذا يقترب فولتير من التراجيديا القديمة بإظهاره براءة شخصية البطل ، ولكنه يطرح أيضا مشكلة الوضع الأساسي القائم تحت هذه المأساة وهي شرعية القوانين الألهية الغالية : ذلك لأن أوديبوس يعتبر الآلهة مسئولة عن الأوامر الأخلاقية نفسها التي تطبق أيضا علي الانسان . وبالطبع لا يكفي مجرد الصياح ضد " الكون العدائي " وإذ يصل أوديبوس الي نهايته الرهيبة فإنه يكتسب وعيا ذاتيا من تمسكه بالايمان ببراءته " استمر أيها القدر ،إستمر ، فلن تستطيع أن تصرعني " [V.1227] " وأري أخيرا ، في خليط بشع ، مرتكب المحارم ، قاتل أبيه [أوأمه] ومع ذلك فهو إنسان فاضل " [V 1333 F]

وعرضت أولي كوميديات ماريفو في " مسرح الايطاليين " وتتطلب منا اهتماما بالفروق البنيوية بينها وبين تقليد الكوميديا الذي استهله موليير في الكوميدي فرلنسيز ، بدلا من أن نتتبع مراحل التطور مثلما جري في تواريخ الأنماط الأدبية . وما لا يظهر في قائمة أدوار مسرحيات " الملهاة المرتجلة " لاريفو ، هم أولئك الأبطال " العاقلون " [بالمعني المقصود في القرن الثامن عشر ، ومن ثم فلا أهمية لهم في مفهوم نظارة الوقت الحاضر] ، الأبطال الذين يتباين " عقلهم تباينا قويا مع"غباء" أصحاب "الهوس الأحادي" [الفكرة الواحدة المتسلطة] في مسرحيات موليير . وإذا شئنا أن نطبق صيغتنا " الطبيعة البشرية ، حيال الكون العدائي" علي كوميديات ماريفو فلن نتوقع أن تتمثل " الطبيعة االبشرية الايجابية "دائما في أدوار معينة .

وعلي ذلك ففي " مفاجأة الحب " Surprise de lamour " التي مثلت علي المسرح في عام ١٧٢٢ يجبر الخدم "سيدهم" ليليو والكونتسية في النهاية علي عقد اتفاق غرامي . هذه الطبيعة ها هنا [علي الأقل بالنسبة للخادم أرليكان] هي نقطة النهاية لتطور ترك الخادم في خلاله كرهه للنساء ، ذلك الكره الذي شاركه فيه سيده ليليو في بداية الكوميديا .

وفي تأليف ماريفو لهذه التغيرات التي تطرأ علي أبطاله وبدوافعهم الدرامية المثيرة يمضي الي ما وراء تقاليد " الملهاة المرتجلة " ولكن لماذا لم يستطع ليليو والكونتسية أن يعترفا بحبهما

لتهدأ نفوسهما ، بعد أن كانا حتي الفصل الأخير قد تغلبا علي خوفهما من الحب [١٥] ؟ وكيف تأتي للنظارة أن يكتشفوا المشاعر التي إختلجت في نفوس البطلين أحدهما تجاه الآخر، حتي قبل أن يكتشف البطلان أنفسهما هذه المشاعر ؟ إن ما كان علي الحب أن يتغلب عليه فهي النهاية ، دون مساعدة من الخدم ، هو اللغة المتكلفة ، ومجموعة السلوكيات المصاحبة لها ، الأمر الذي يسميه مؤرخو الأدب : " الكلام المصطنع " واللغة المتكلفة والسلوك المصطنع يمثلان قوة لا شخصية ، عامة ، مجردة ، لا تستطيع الخصيصة الطبيعية لمشاعر الحب أن تظهر حيالها .

ومع ذلك تتيح تقاليد " مسرح الايطاليين " الاعتقاد بأن التمثيل الإيمائي والحركي الذي يصور " الطبيعة علي خشبة المسرح وما أشبه ذلك في مسرحيات ماريفو فيها دلالات كثيرة من تصرفات الممثلين غير الشفاهية ، نخلص من ذلك أن التباين بين معنيين في وقت واحد ، المعني في النص ، والمعني في الحركة الإيمائية غير الناطقة ، ينتج عنه تأثير مضحك في نفس المشاعدين [١٦] ، إن اللهفة التي تصيب قراء روايات ماريفو حتي في يومنا هذا حين يصلون الي ختامها ، لا بسبب " النهاية السعيدة في رواياته فقط إنما يثبت أن التنافر بين "الطبيعة البشرية " وبين " البيئة الاجتماعية المعادية " لا يدركه المرء علي أنه أمر شديد الوطأة علي النفس .

إن ما يثير الدهشة فوق كل شيء [علي الاقل من وجهة نظر التاريخ الوظيفي للمسرحيات نفسها] عند قراءة الرسائل الفرنسية في نظرية الدراما [١٧] هو التناقض بين الابتداعات في الاخراج المسرحي وبين الطبيعة الشعرية الملتزمة بالتقاليد ، حقا لقد دافع " لاموت La-motte عن التخفيف من القواعد الشعرية بالنسبة للوحدات الثلاث التي كانتت مرعية بعامة

---

(١٥) انظــر H.V. Fumbreeht, "Die Dramenschliessende Sprachhandlung im aristotelis-chen Theater und ihre Problematisierung bei Marivaux, Poetica 8, 1976, p. 376-379

(١٦) بخصوص المعالجة الكوميدية للغة عند ماريفو ، أنظر رينر فارننج

- Rainer Warning, "Romik und Romodie als Positivierung von Negativitat (am Beispiel Noliere und Marivaux)", Positionen des Negativitat, ed. Harald Weinrich, Fink, 1975 (= Poetik und Hermeneutik 6) p. 341-366

(١٧) مثال ذلك ، كما قدمت في المجموعة الأوربية المختارة والمشروحة

- Theater und Aufklarung, note 12

في القرن السابع عشر [باستخدام حجة التأثير الجمالي ليتسني ضمان " وحدة التشويق "]. ولكن الحقيقة أيضا أنه أيد استخدام النثر ، حتي في المسرحيات الجدية . ومع ذلك ينبغي لنا أن نكون علي حذر عند تفسيرنا مثل هذه الآراء علي عجل ، علي إنها توقعات لمسرح يهتم في النصف الثامن عشر بتزايد بالاقتراب من التجربة اليومية ، واندماج المشاهد معها . أما فولتير الذي وصفنا تراجيدياته بأنها " وسيط للتنوير المبكر " فإنه رفض هذه الاقتراحات التي تستهدف تعديل قواعد النموذج الكلاسي . وعلي ذلك نستنتج أنه علي الرغم من أن الكثير من تراجيديات وكوميديات أوائل القرن الثامن عشر كانت قادرة علي الاسهام في تمثيل مواقف مترابطة مع التنوير في مجال التاريخ الاجتماعي ، فالحقيقة مع ذلك هي أن مؤلفها قلما كان في عزمهم القيام بتنقيح نقدي للموضوعات التقليدية للمعرفة الاجتماعية في نطاق قرائن الاتصال التي يتيحها المسرح .

[ب] منتصف القرن الثامن عشر :

ظهر في منتصف هذا القرن أنماط من المسرحيات أطلق عليها أسماء " المسرحية المبكية " drame larmogant ، أو " المسرحية البورجوازية " drame bourgeois ، يتبين عند دراستها من وجهة نظر تاريخية وظيفية متميزة أنها أسهمت بقدر كبير في تكوين صورة للنقد الأدبي في القرن الثامن عشر باعتباره العصر العظيم في التقاليد المسرحية الفرنسية . نود أن نصف هذه المسرحيات بالصيغة الآتية :

" الطبيعة البشرية ، حيال الظروف الاجتماعية المناوئة " . وتشير هذه الصيغة الي ابتداع ضروري لتحليل التلقي ، تحليلا براجماتيا ، في مقابل الأشكال المسرحية في مستهل القرن . فالقوة المضادة للطبيعة البشرية لم تعد مجردة وعامة ، إذ أصبحت علي المسرح واقعا ملموسا في تصوير الأنماط الاجتماعية المأخوذة من الحياة اليومية الجارية ، وحتي في أبطال [الروايات] الذين يعرف المتفرجون تمام المعرفة أوضاعهم الاجتماعية .

علي أنه إذا كانت ظواهر القوة [التي لم تعد عامة] ذات الطبيعة التاريخية الاجتماعية تحتل مكان القوة المناوئة للطبيعة البشرية فإنه يبدو أن في الإمكان التغلب عليها ، وما دام تمثيل " الطبيعة البشرية " من الوجهة المنطقية يجب أن يتخذ له مركزا اجتماعيا فإننا نؤكد أن " الدراما البورجوازية " في منتصف القرن الثامن عشر قد أوجدت الدافع الأول لنمو الإدراك

الطبقي . حقا إن محتويات هذا الأدراك تتحدد غالبا بشكل طفيف ، ولم تعد فضيلة هذه " الطبيعة البشرية " – علي الأقل حين تواجه ظروفا معادية ، وأشرارا خطرين – لم تعد بعامة من قبيل " البراءة " ولكنها بالأحري " انعدام الرذيلة " .

وثمة مسرحيتان كتبهما ديدرو ، بينهما بضع سنوات " الابن غير الشرعي " و " محن الفضيلة" [صدرت في عام ١٧٥٧] ، و "رب الأسرة" [مثلت لأول مرة في عام ١٧٦٠] بالاضافة الي مسرحية لميرسييه Mereier " بعنوان "المعوز" التي عرضت في عام ١٧٧٨] يمكن الاستعانه بها لشرح مدي التحول في بنية الجاذبية الدرامية [١٨] إن ما يمنع دورفال وروزالي من أن يتحابا في مسرحية " الابن غير الشرعي " ليس هو الفرق الطبقي ، ولكنه مرة أخري العادات الاجتماعية . غير أن هذه العادات لم تعد ، كما في ماريفو ، عادات البلاط، ولكنها نتيجة الصداقة التي تربط بين دورفال وكليرفيل .

وحتي إذا كان دورفيل وكليرفيل يحب كل منهما روزالي فليس هناك صراع بين هذين المتنافسين ، ولكن بينهما نزاع نبيل وعفيف . ولما لم يكن كليرفيل يعرف شيئا عن حب دورفيل كان في وسعه أن يقبل هذا النكران بالذات . ولما أدرك الموقف حاول مع ذلك أن يتفوق علي صديقه في الكرم . ولا بد أن روزالي كانت تبقي بلا زواج إن لم يكن والدها قد عاد فجأة من أمريكا بعد رحلة خطرة ليتعرف علي دورفال بأنه إبنه غير الشرعي .

ومن جهة أخري ، ورغم طبيعة دوربيسون العفيفة الطيبة ، فإنه يرفض رغبة ابنه سنت البان Saent -Ibin في زواج صوفي التي تزعم أنها يتيمة مفلسة . وهكذا حل " الظرف الاجتماعي المناوىء " محل الصراع الشريف بين الأصدقاء المتنافسين . ولكن صوفي تكشف عن نفسها لرب الأسرة ، وتبين له أنها من أسرة غنية ، فيدرك خطأه في أخذه الحالة الاجتماعية والأمور المادية في اعتباره بدلا من الفضيلة كشرط لزواج سعيد لابنه .

---

(١٨) بالنسبة للملاحظات التالية أنظر :

Peter Szondi, Die Theorie, des burgerlichen Trauerspiels im 18. Th. Der Ranfmann, der Hausvater und der Hofmeister, Frankfurt, 1973 .

وبالنسبة لميرسييه ومسرح السنوات الأولي للثورة الفرنسية بنوع خاص ، أنظر :

- H.V. Gambrecht, "Uber das Versiegen susser Tranen' in der Franzoschen Revolution. Ein Aspekt, aus der Funktionsgeschichte des genre serieux", Lendemains 4,1978, p. 67-86.

وأخيرا ففي مسرحية " المعوز " لمرسييه لا يكون الفرق بين الفقير [المفترض] وبين الغني مجرد عقبة في سبيل الزواج ، ولكنه علاقة مكبوتة في سياق الحياة اليومية . فجوزيف وأخته بالتبني ، شارلوت ، يضطران للعمل لكسب العيش ، علي نول النسيج ، حتي ساعة متأخرة من الليل . وحين يخلدان الي الراحة التي يستحقانها يمتنع عليهما النوم بسبب الأصوات المرتفعة الصادرة من الشاب العربيد الثري دوليس وصديقه دونوار اللذين يحتسيان الخمر ويصخبان في البيت نفسه .أما الأب الطيب ، والد الطفلين النساجين ، وكان فيما مضي مزارعا ، فهو مسجون بفقره . ومن البديهي أن يغازل دوليس شارلوت التي تشاء الصدف أن تكون في الواقع أخته كما يتبين له أخيرا ، ولكنا لاندهش من ذلك . ويري ميرسييه أن الفضيلة تقترن بالفقر، أو علي الأقل بانعدام المظاهر المادية ؛ أما الغني فعلي العكس من ذلك تلازمه الرذيلة ولا تتمثل " الطبيعة البشرية " حتما من خلال مشاعر الحب التلقائية ، وتقابلها " الظروف الاجتماعية المعادية " ، وتقترن بالمستوي الاجتماعي للطبقة البورجوازية الصغيرة المنحرفة المعرضة لاضطهادات الأغنياء . وإذ يواسي النساجان الفقيران كل منهما الآخر ، ويؤكدان انهما لا يشكوان من حالتهما ، ولا يغاران من الأثرياء وما يملكون ، فإنهما يثيران في نفوس النظارة شعورا بالشفقة ، وإحساسا بتعاسة المعوزين .

ولقد رئي مولد الدراما البورجوازية في الدراسات الشعرية المعاصرة علي أنه انقطاع فيما كان يسمي Status clause [مبدأ الوضع الاجتماعي] وهو مبدأ أساسي في أدب المسرح في القرن السابع عشر ، يقضي بأن النبالة هي وحدها التي تظهر في التراجيديا ، أما الكوميديا فأبطالها من غير النبلاء . أما في الدراما البورجوازية فالشخصيات البورجوازية هي وحدها التي تؤدي " أدوارا جدية " هذه الحقيقة عاقت التساؤلات والتفسيرات من جانب أدب الاجتماع الموجه صوب التصويرات التخطيطية المفرطة للطبقات الاجتماعية ، وتفاعلاتها ، ومن ثم رأي هذا العلم أنه من الممكن التعرف في المسرحيات البورجوازية ، علي " تصوير " لعملية تحرير البورجوازية مع ذلك ، وعلي مستوي التأثير الدرامي ، فإن كون الحركة الدرامية شبيهه بتجربة الحياة اليومية [ميرسييه] دون توافق بين المجالين ، كما تدل " الأحداث المفاجئة " علي ذلك ، ليدل فوق كل شيء علي أن هذه التجارب يجب الآن نقلها في الوسط المسرحي الي النظارة بشروط أخري .

ولقد عرف بورماشية تلك "المتعة" التي يسببها هذا التشابه عند المتلقين والتي وضعها " لاموت " في قلب نظريته عن الدراما علي إنها " الشعور الذي يجعلنا في حالة إنسان يعاني ". أما المسرحيات الفرنسية في منتصف القرن ، بتكوينها الجذاب الجديد فإنها تتيح صياغة نظرية في المذهب الحسي ، تقرر أن التجربة تأتي من الاحساس وحده . وحينما يشارك المتلقون أبطال المسرحية معاناتهم يتنبهون الي أن " الطبيعة البشرية " لا تنمو أو تتطور إذا اضطهدتها النظم الاجتماعية . ولكن لماذا يزول جزء من قوة هذه التجربة بالنهايات الحتمية السعيدة في كل المسرحيات ؟ لنا أن نفترض أن الخلاص من التوتر في الفصل الأخير يتيح للمتفرجين المترددين علي المسارح ، في نطاق ثقافة استيطانية ، تسمي في القرن الثامن عشر "حساسية sensibilité العودة الي الشعور بالاشفاق علي الأبطال (ذلك الشعور الذي خالجهم قبل ذلك بقليل) . هذا هو الشرط الأساسي لأن يكون للمتفرج القدرة علي الاحساس بالشفقة نحو الآخرين ، وهو بمثابة جوهر "الطبيعة البشرية" لدي الناس كافة .

في وسعنا أن نؤيد نقطة هذا التفسير القائم علي التأثيرات البرجماتية ، وذلك بالاشارة الي الشواهد والحجج المقتبسة من البحوث التي نشرت في فرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر . وفي الوقت الذي عرضت فيه المسرحيتان اللتان اجريتا تحليلهما آنفا ، نشر ديدرو بحثين : محادثات بشأن "الإبن الطبيعي" و "حديث في الشعر المسرحي" ، ويشهد بنجاح هذه الرسائل تعدد طبعاتها . وفي تباين غريب إزاء التطور البطئ في الاهتمام بمسرح العامة ، بالنسبة للدراما البورجوازية ، يؤدي بنا هذا التحليل الي التفكير في أن العلاقة الوظيفية بين الاخراج المسرحي وبين البحوث في الفن المسرحي قد انعكست منذ بداية هذا القرن . وقد أصبح هذا التفكير الآن بمثابة «وسيط للتنوير» ، ذلك لأنه وهو يتعلق بالامكانيات الوظيفية للمسرح ، يشير دواما الي الثوابت الأنثربولوجية التي يعتقد أنها جزء من النفس ، ولأنه يسعي الي فهم علاقته بالنظم الاجتماعية المعاصرة . وفي الإمكان رؤية هذا الأمر ، خاصة حيث تبدو نتائج هذا التفكير ناقصة ، وغير مقبولة . لقد عرف ديدو مثلا أنه لا يكفي الاستشهاد بالأحوال الموروثة من النظام الاقطاعي لفهم "الظروف الاجتماعية" في مقابل تطور "الطبيعة البشرية" . هذه الأحوال يمكن أيضا إيضاحها في نطاق العلاقات الأسرية ، وفي علاقات الملكية . ولم يحاول ديدرو بالطبع أن يجري دراسة لعملية التطور الاجتماعي التي تفضي الي الهياكل الطبقية ، كذلك لم يحاول ميرسييه الوصول الي الطبقات الحاكمة التي أصمت آذانها عن سماع مسرحياته ، ولكنه فرق بين مستمعيه من "الطبقة المتوسطة القراء" (أو "الشعب " كما يسميه) وبين مستمعيه من الدهماء الذين يقترح لهم تلهية خفيفة ، وأحداثا احتفالية ، بدلا من

المسرحيات ، مع أنه يبدي دهشته من "الدفء الانساني ، وذكاء الانسان" لدي هذه الجماعة .
أما روسو ففي "رسالته الي دالمبير" بشأن العروض المسرحية (١٧٥٨) يبدي رفضه التام للمسرح ، يدفعه الي ذلك دون شك منافسته لفولتير . ولما كان هذا الخلاف يرجع اساسا الي تحليل تراجيديات وكوميديات القرن السابع عشر ففي وسعنا أن نفسره ، علي خلاف ما يقصده المؤلف ، بأنه يدل عل أمرين : فهو من ناحية يدل علي أن مفهوم المسرح في القرن الثامن عشر يعتبر مماثلا الي حد كبير لمسرح القرن السابع عشر ، ومن ناحية أخري يؤيد فكرة أن هذا المسرح لا يتجاوب في الواقع مع طلبات الاستقبال التي يفترضها فلاسفة القرن الثامن عشر .

إن أهدافنا، كما عبرنا عنها في البداية ، قد وجهتنا الي تفسير بحوث منتصف القرن الثامن عشر بشأن الفنون المسرحية علي أنها نوع من التفكير "الإنسي" (الانثروبولوجي) ، والنفساني (الصوصيولوجي) المسبق ، أكثر منه نظرة عامة تمهيدية للمارسة المسرحية . هذا الافتراض الوظيفي صحيح بطبيعة الحال لكن بالنسبة لاستقباله المعاصرفقط ، ذلك لأن نصا مثل "مفارقة بشأن الممثل" لديدرو يدل علي نقطة تحول في تاريخ المسرح ، فهو يطالب بأن يحل محل ما كان حتي ذلك الحين نمطا من التمثيل المعياري والخطابي فوق كل شئ نمط مسرحي أقرب الي الواقع ، وأشبه بهوية المتفرج ، كما كان الأمر بوجه عام في أواخر القرن الثامن عشر حتي بضعة عقود مضت . ولا بد لتاريخ الأدب والمسرح من النمط الاجتماعي أن يلحظ أن ديدرو قد استلهم كثيرا "فن المسرح" لريكوبوني F. Ficcoboni الذي كان لعدة سنوات مديرا لمسرح الايطاليون ومع استيعاب التكوينات الشعبية للمسرحيات أنشأ الفن المسرحي في منتصف القرن الثامن عشر مجالا مسبقا هاما لتحقيق وظيفته التاريخية كوسيط للتنوير . وثمة تغير في أسلوب ابداع المعاني مهيأ فن المسرح لهذه الوظيفة الجديدة ، وبدلا من نقل المعرفة في متتابعات معيارية من حبكة الرواية أو المسرحية (وحدة الموضوع) أصبح علي المسرحية الآن أن تحفز النظارة علي اكتساب التجربة .

ج] أواخر القرن الثامن عشر :

رأينا أن المعادلتين "الطبيعة البشرية حيال النظام الكوني" و"الطبيعة البشرية حيال الظروف الاجتماعية المعادية" تمثلان خطوات في تطور بنية الجاذبية السائدة في المسرحيات بين مستهل القرن الثامن عشر ومنتصفه . وإذا نظرنا بعين الاعتبار الي هذا التطور تبين لنا أن تغيرات كتلك التي تلاحظ مثلا بين مسرحيات ديدرو الأخيرة وبين كوميديات بومارشيه ، أو

تراجيديات ماري جوزيف شينيه Marie-Joseph Chenier فيما قبل الثورة الفرنسية (بالترتيب الزمني) ، لم تعد مجرد فروق طفيفة ، أو شديدة ، وفي سبيل توصيف أبنية الجاذبية (التي كانت تقليدية في العقد التاسع من القرن الثامن معشر) الموجودة في المسرحيتين المذكورتين آنفا فانا نقترح المعادلة "الطبيعة البشرية ، حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" . فالقوة المناوئة للطبيعة البشرية يمثلها الآن أبطال يستخدمون اعتمادا علي مراكزهم الاجتماعية ، الحق والقوة لقهر خصومهم الفضلاء ، ودون أن يكونوا هم أنفسهم في مركز يتيح لهم استخدام هذه المزايا لصالحهم .

هذا التفاعل الدرامي يتحقق بصورة مثالية في الـ Jus primae noctis الذي يطالب به من ناحية "كونت المافيفا Count Almaviva ، ومن ناحية أخري خبث "فيجارو" الذي يستخدمه دائما عندما يستبد به الغضب من تجاوزات سيده . ولم تزل الفضيلة تعاني ، الا أنها تثير الآن مقاومة تخيف مضطهديها . واذا تتبعنا وجهة نظر لوكاكس Lukacs في التأويل ، تلك التي شاعت عشرات السنين ، فاننا سوف نري مرة أخري في بنية الجاذبية المسرحية انعكاسا لعملية تاريخية اجتماعية ، وقد يشق علي المعاصرين ، بغض النظر عن الاتصالات ، أن يدركوا أنها من قبيل "الأدب" كانت تفسيرات خاطئة كهذه مصدرا لشهرة بومارشيه ، باعتباره مؤلفا "سابقا لعهد الثورة" (لا بالمعني الزمني للمصطلح فقط) [١٩] إننا دون شك أدني الي الحقيقة ، في مجال تاريخي وظيفي ، إن قبلنا ، في ضوء بحث جديد في تطور مجتمع القرن الثامن عشر، فكرة أنه يمكن في بنية الجاذبية في مسرحية زواج فيجارو أن تنطبق ضحكات المتفرجين الموجهة لكونت المافيفا علي الكثير من النبلاء ، أولئك الذين يرتكز وعيهم الاجتماعي علي اسهامهم بنجاح في أشكال جديدة من الاخراج ، أو قدرتهم علي المشاركة في مجالات "الفلاسفة" بدلا من الامتيازات المقترنة بمراكزهم . والآن يمكن صياغة قضيتنا بمزيد من الدقة . ذلك أن بنية الجاذبية في "الطبيعة البشرية ، حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" تقضي بالضحك علي النظم الاجتماعية التي أصبحت تعتبر جزءا من الماضي، ومن ثم لا تمثل علي الإطلاق توقعا لاندلاع الثورة (الفرنسية)

---

[١٩] لاجراء مراجعة تاريخية أدبية منوعة لهذه الفكرة أنظر :

- Dietmar Rieger, "Figaros Wandlungen Versuch einer edeologickritischen - analyse von Beaumarchais' Figaro - Almaviva - Trilogie", Romanistische Zeitschrift fur Literaturgeschichte, 1977, P.77-105

ويعلم كل مؤرخ في الأدب أن بومارشيه استفاد من استخدام تقليد "الملهاة المرتجلة" في المسرحيتين الأوليين لثلاثية فيجارو : حلاق أشبيلية وزواجة فيجارو ، ومن الواضح الآن أن هذه العودة مبتكرة، أو أنها من وجهة نظر تاريخية بنيوية "سابقة علي الثورة" . وما يميز بومارشيه عن ماريڤو هو فوق كل شئ نقل الأدوار المقتبسة من "الملهاة المرتجلة" نقلا مطلقا الي علاقات متفاعلة في المجتمع المعاصر . فالشخص الذي يشاطر فيجارو ضحكته الساخرة علي حساب المافيا في وسعه أيضا - بأسلوب واع الي حد ما - أن يسخر من انحطاط الكثير من النبلاء ويعجب بالذكاء الفطري لدي عامة الناس "الطبيعيين" (لأنهم بسطاء) . علاوة علي ذلك يفيد بومارشيه في "زواج فيجارو" فقط من هذا الاستقطاب الاجتماعي لأبطال المسرحية ، الشئ الذي يثير السخرية والضحك . وفي حلاق اشبيلية ينتصر النبيل وخادمه علي "الدكتور بارتولو" Doctor Bartolo العجوز ، الوصي علي "روزين "الجميلة"، كما كانت العادة في الكوميديا الايطالية منذ أكثر من قرن .

ينبغي الآن أن نتساءل في هذا التحليل التفسيري عن المؤشرات التي تؤدي الي اعتبار بومارشيه "مؤلفا لما قبل الثورة" . والجدير بالذكر أولا أن موضوع المسرحية قد انتقل الي اسبانيا ، ولعلها مناورة بارعة من المؤلف للتهرب من الرقابة ، والمرجح أنه مادام "التنوير " الفرنسي كان له نظرة ثابته (مقولبة) عن "أسبانيا المتخلفة" فلا شك أن بومارشيه أراد أن يظهر الفرق بين المافيا وبين نبلاء فرنسا المعاصرين ، كذلك فإن "فيتو" لويس السادس عشر لأمد طويل بتحريم أي عرض عام لمسرحية "زواج فيجارو" قد أسهم بقدر كبير في تقويم هذه المسرحية سياسيا ، كما فعلت بعض القصص الأدبية . ولسوف يذكر أكثر المؤرخين تشككا بدلا من ذلك أن آخر من ملوك العهد القديم كان مخطئا ، لا في انطباعه عن تزثيرات المسرح فقط ولكن أيضا في تقديره العام لمجتمع أواخر القرن الثامن عشر .

وقد حدد ماري جوزيف شينيه ٢٢ من أغسطس عام ١٩٨٨ تاريخا "للمقال التمهيدي"لتراجيديته "الشارع التاسع" أو مدرسة الملوك" . وفي ١٥ من ديسمبر عام ١٧٨٩ أضاف علي مقدمته "رسالة اهداء" الي الأمة الفرنسية . وأثارت المسرحية صراعا سياسيا وثقافيا احتدم في السنوات الأولي من الثورة ، الأمر الذي يفسر وجودها في كل تواريخ المسرح الفرنسي بين عام ١٧٨٩ ، وعام ١٧٩٩ . وربما لهذا السبب أهملت الي اليوم ضرورة فحص بنية جاذبيتها حيال خلفية الاخراج المسرحي في العقد التالي حتي العقد الأخير من القرن الثامن عشر .

وقد أطلق شينيه علي مؤلفه "تراجيديا وطنية" (في رسالة الاهداء) ، أو تراجيديا قومية" (في المقال التمهيدي) . ومع ذلك فمن الصعب أن نري في ذلك برهانا علي فرضية فونتيوس Fontius التي تقول إن "حاجات الجماهير التي أصبحت تشكل بالتالي القوي المحركة للثورة (...) هي الأصل في استقرار طبقة اجتماعية جديدة . تثري التراجيديا الكلاسية [٢٠]

ويستخدم شينيه كخلفية لمسرحيته "ليلة سان بارتلوميو" ، وهي حدث (مذبحة) في تاريخ الأمة يذكرها الفلاسفة دوما منذ أواسط القرن الثامن عشر ، للتشكيك في شرعية الملكية المطلقة . وفي هذا التأويل للحدث لا يري شينيه مطلقا أن الخاتمة الفاجعة لأبطال الهيجونون عقاب لهم علي آثامهم ، كما كان الأمر عادة في مسرحيات القرن السابع عشر ، بل أن ذلك لم يكن مسألة تفرقة بين حالة اجرام موضوعي وبين براءة شخصية، وهذا عنصر رئيسي في التراجيديا القديمة.

إن تطور "الفعل " في مسرحية "شارل التاسع" يشكل في الواقع صياغة جديدة للتباين بين "الطبيعة البشرية" التي يمثلها أبطال الهيجونوت وبين الطبيعة الشريرة التي اشتهرت بها الملكة الأم كاترين دي ميديتشي ، ومؤمرات كاردينال اللورين ، وضعف الملك . ولأن موت الهيجونوت لم يقدم علي أنه عقاب لهم علي خطأ ارتكبوه فلا يصح رؤية المكيدة في هذه التراجيديا علي أنها مثل لقواعد "الفعل علي المسرح" . ولما لم تكن المسرحية تؤدي الي نهاية سعيدة فانها لا تشجع المتلقين علي إنعام النظر في نفوسهم ليكتشفوا فيها مشاعر الشفقة

ولعله من الأفضل أن نري في هذه المسرحية التي يتجادل فيها الأبطال علي طريقة "فلاسفة التنوير" تطويرا تخطيطيا للأحداث السياسية المعاصرة ، وعلي أية حال تحذيرا للويس السادس عشر . حقا ، امتدح شينيه الملك في قصيدة له مهداة اليه قائلا إنه "زعيم شعب مخلص"، غير أن الملك قد فهم هو ومستشاروه أن السطور الأخيرة من هذه القصيدة تلميح بالسياسة المتبعة في البلاط وممثليها :

درب الطغاة لساني علي الغش والخداع ،

وأخمدت أصواتهم في نفسي طبيعتها ،

---

[٢٠] Theaterdebatten..., see note 12, p.21.

لقد خنت الوطن ، والشرف ، والقوانين ،
والسماء عاقبتني فجعلتني قدوة للملك .

كان من الطبيعي للنظارة المثقفين نسبيا في القرن الثامن عشر أن يدرجوا صورة شارل التاسع في المفهوم الشائع وتتنذ عن "الغائبة" التاريخية" . وفي هذه الرؤية بخاصة تبين جليا وجود تواز بين "زواج فيجارو" لبومارشيه ، وبين "شارل التاسع ، ومدرسة الملوك "لماري جوزيف شينيه . فإذا اعتبر التاريخ غائيا (موجها نحو غاية – المترجم) كان شارل التاسع طاغية ، نجح مرة أخري في ذبح خصومه الأشراف ، حتي ولو اعتبر ضعفه بمثابة بشير للانتصار علي الطغيان .

وفي اطراء شينيه لسلفه فولتير ، ذي الأسلوب الخاص به ، في مقاله التمهيدي ، كان واضحا أنه يدرك دور مسرحيته كتأويل لتجاربه السياسية . بل إنه كان علي يقين تام من أنه يري في التأكيد علي التأثيرات المقصودة نوعية "التراجيديا " في عصره، المغايرة للتراجيديات في مستهل القرن الثامن عشر.

لقد طور السيد فولتير الفضيلة في تراجيدياته بصورة أعمق مما طور فيها السياسة . الا أن اظهار فاعلية المسرح السياسية تدل علي حدود التفكير الشعري المنطقي الذي يمتد من الآن الي مضمار التفكير الفلسفي والانتروبولوجي ، مثلما جري مع ديدرو ، وروسو ، وميريسييه » الجمهور المحتشد يتلقي انطباعات قوية ومستديمة ، وليس ثمة واحد من المحدثين استشعر هذه الكهربية المسرحية كما استشعرها السيد فولتير» . وهنا يبدو التعليق علي المسرحية مرة أخري تابعا للنص الدرامي ، وتمثيله علي خشبة المسرح . وتغدو "تراجيدية شينيه القومية وسيطا للتنوير في اللحظة التاريخية التي تجد مجال تطبيقها في السياسة .

د] عصر الثورة الفرنسية

في مقدمة جاك بروست Jacques Proust لمجموعة الدراسات في تاريخ المسرح الفرنسي في سنوات الثورة ، التي نشرت في عام ١٩٧٩ ، يقول إن عام ١٧٨٩ ، لا عام ١٧٩١ (عام استعادة المسارح حريتها) ، هو الذي يدل علي انقطاع حقيقي في استمرارية

الانتاج المسرحي [٢١] والواقع أن صيغتنا "الطبيعة البشرية حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" يمكن تطبيقها أيضا علي قسم كبير من المسرحيات التي كتبت أو عرضت لأول مرة بين صيف عام ١٧٨٩ وصيف عام ١٧٩٢ . ومع ذلك فإن "المعركة" التي أثارتها مسرحية شينيه "شارل التاسع" الي جانب عرض هذه المسرحية هي دلالات علي تعديل جوهري في مضمون الاتصال الخاص بالمسرح . والآن تفسر الأعمال والأدوار علي أنها تعبير لأراء سياسية لدي كل من المؤلفين والممثلين بكيفية تبدو لنا مخططة تماما . عندئذ أصبح توافق الآراء السياسية أو اختلافها هو المعيار الباث في التفاعل بين الأفراد والجماعات . وإذا اعتبر الممثلون المحافظون في "الكوميدي فرانسيز" تراجيديا شينيه إهانة للويس السادس عشر فانهم عارضوا تمثيله . ولما شعر تالما Talma وغيره من أعضاء الكوميدي فرانسيز أن واجبهم المهني كممثلين ومواطنين أن يجعلوا من المسرح "مدرسة للوطن" فقد قرروا الانفصال عن زملائهم المحافظين ، وأسسوا "فرع الجمهورية " Theatre de la Republique ، وأقاموه علي الضفة اليمني من نهر السين ، الأمر الذي له دلالة خاصة.

وتبعا لنظريتنا تسجل شهور صيف عام ١٧٩٢ نقطة حاسمة في تاريخ المسرح الفرنسي، وتقوم هذه النظرية علي أساس ملاحظة أن موازنة الآراء السياسية لدي المؤلفين والممثلين بنظيراتها التي يعبر عنها الفعل المسرحي ، كما يري في الأحداث المحيطة بمعركة "شارل التاسع" ، أصبحت حرة ، وأدت الي اختصار أبنية الجاذبية الممكنة للمسرحيات . وثمة مرحلة قصيرة جدا في الليبرالية الثقافية والسياسية بلغت غايتها بسقوط الملك ، واعلان الجمهورية . ومن ذلك الحين صار المسرح يستخدم كنظام يعمل علي نشر المعرفة الرسمية الجديدة ، وبنتائج أهم مما كانت عليه في سنوات العهد القديم (قبل الثورة) . ويبدو علي الأرجح أن السياسيين ، في ذروة الثورة كانوا يخشون اللجوء الي تجارب المتلقين وحدها ، كما فعلت الدراما البورجوازية وكانت الخطة المتبعة في تلك الآونة تتمثل في استخدام رسوم بيانية تفسيرية أكثر بساطة ، سرعان ما تحولت الي قوالب ثابتة مناسبة لنقل التجربة اليومية لعامة

---

(٢١) Jacques Proust, Introduction, Romanistische Zeitschrift fur Literaturegeschich-te 3, 1979, p. 248

الشعب الي "المعني المرغوب" لدي الحكومة [٢٢] ولم يعد يكفي تمثيل الملك والنبلاء علي خشبة المسرح بأنهم "قساة ، همج، أو منافقون ، ومتعطشون الي الدماء [٢٣] ، بل كان من الضروري أيضا أن تنتصر الفضيلة في النهاية

وفي منظر (مسرحي) يفرض علي الاتصال مثل هذه الشروط كان التجاء بومارشيه الي تقاليد "الملهاة المدرة للدموع Comedie Larmoyante في الجزء الأخير من ثلاثية فيجارو "الأم المذنبة" La Mere Coupable غير ملائم بالمرة . ولم يكن التكييف الأخير لأسرة المافيفا للقواعد السلوكية المتبعة في الأوساط البورجوازية المتآلفة موافقا لأصول الأداء المسرحي . ومن جهة أخري يبدو أن الاتفاق التام بين الأيديولوجية المقررة وبين بنية الجاذبية المسرحية علي المدي الطويل قد أرضي القليل من ممثلي السياسات الثقافية الرسمية . وقبل شهر ترميدور (الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية – المترجم) كان المديح الذي أغدق في المقالات النقدية في الكثير من الصحف الباريسية علي المؤلفين الذين يخدمون "الأهداف الجمهورية" مجرد تقدمة لنقد مسرحياتهم ، لخلوها من المتعة .

لقد عرضت لأول مرة مسرحية "آزفة الملوك" Le Jugement dernier des rois التي كتبها سيلفان ماريشال Sylvain Marechal قبل اعدام ماري انطوانيت بالمقصلة ببضعة أيام ، وهي إحدي المسرحيات القليلة التي عرضت في عهد الارهاب ، ونجحت في الافلات من نقد أولئك الذين يمثلون السياسات الثقافية الرسمية دون أن يثيروا تبرم النظارة ، ولا شك أن الحدث السياسي في تلك الآونة قد استخدم كمنظر مسرحي براجماتي ، وحمل ماريشال علي العودة الي حكاية رمزية ذات مغزي أخلاقي كان قد ألفها قبل عام ١٧٨٩ . فكل شعوب الأرض تقبض علي ملوكها ، وتتركهم علي جزيرة مهجورة ، وهناك يثبت انهم "أناس بلا طبيعة بشرية" . وبدلا من أن يعيشوا معا بمثابة "متوحشين طيبين" يتشاجرون ، ويقتل بعضهم بعضا ، وهكذا يتخلص الناس من طغاتهم علي أيديهم . ولا يفوتنا أن حبكة الرواية هذه تقر مشروعية اعدام الملكة علي أنه تنفيذ للقانون الطبيعي . ومن المفيد بنوع خاص أن نلاحظ من

---

[٢٢] هذا التعبير "المعني المعاش ، هو المعني المرغوب " مأخوذ من "مني أوزوف":

Mona Ozouf, "La fete sous la Revolution francaise, Faire de l'histoire under the direction of Jacues Le Goff and Pierre Nora, Vol. 3, Gaillimard, 1974, p. 266

[٢٣] Journal, des Spectacles, 11 September 1793

زاوية ذرائع (براجماتيات) الاستقبال الطريقة التي تنتقل بها النظم المعقدة والمجردة ، والتقاليد والمصطلحات المنطقية الخاصة بفلسفة التنوير الي الثوار الفرنسيين المتطرفين (وأطلق عليهم اسم sans-culottes ـ أي من ليس لهم سراويل – المترجم) من خلال وساطة المسرح . ويأتي ممثلوا الشعوب الأوربية الي الجزيرة المهجورة ليتركوا بها ملوكهم ، فيصادفون بها لا "متوحشون طيبين" فقط ، ولكن ايضا رجلا مسنا ، لجأ الي الجزيرة هربا من مطاردة نبيل من النبلاء كان قد أغوي ابنته . وحين يثور البركان في الجزيرة تتولي الطبيعة القضاء المبرم علي الملوك .

-يبدو أن عنصرا من العناصر المكونة للنص في مسرحية ماريشال التي حظيت بنجاح اسطوري لدي الجمهور يتمثل في استعانته بتقليد في الأداء المسرحي في ملاهي الأسواق ، ذلك هو الاستعراض . فالمسرحية تبدأ بموكب لجمهور من الرعاع المتطرفين يدخلون المسرح واحدا بعد واحدا ، منهم فرنسي ، وانجليزي ، واسباني ، وسرديني ، واخيرا ألماني ، يتنافسون في صب اللعنات علي الطغاة . وفي ختام المسرحية مشهد لشجار بين الأمبراطورة ، وملك بولندا ، وملك نابولي ، وملك بروسيا ، والبابا ، وملك أسبانيا ، وكاترين أمبراطورة روسيا من أجل قطعة من الكعك.

هناك أسباب وجيهة من وجهة التاريخ البنيوي والوظيفي لإنهاء هذه النظرة العامة للمسرح الفرنسي باعتباره وسيطا للتنوير مع السنوات الأولي لعهد حكومة المديرين (في فرنسا من ١٧٩٥ الي ١٧٩٩ – المترجم). فإذا رجعنا مرة أخيرة الي خطة التفسير التي حاولنا بها ابراز التغيرات الأساسية التي طرأت علي بنية الجاذبية في المسرحيات يبدو لنا أن "الطبيعة البشرية" تقدم الآن في الكثير من الأحيان علي أنها القيمة السلبية في تباين الدلالات اللغوية الأساسية : فبدلا من أن تواجه بالظروف الاجتماعية غير الملائمة ، أو تضطهد من قبل الصفوة الموسرة الفاسدة ، فهي الآن نقطة الانطلاق الانتروبولوجيا جديدة ومتشائمة ، نوع من "الدافع الشرير" الذي يهدد الزعماء الذين يمثلون المفهوم الجديد الخاص "بالانسان العظيم المنعزل" . ففي شهر يوليو عام ١٧٩٥ ظهر علي خشبة المسرح في باريس نسخة من باميلا Pamela مقتبسة علي نطاق واسع من "جولدوني Goldoni" ، أرفق بها المؤلف قصيدة غزلية يشرح فيها أنه لا يري في بطلته رمزا للاستعداد الفطري لعمل الخير مع الناس كافة، بل يري فيها أمرأة جديرة بأن تحي الأمل في القدرة علي التسامي بالطبيعة الحيوانية "الجوهرية" في المخلوقات البشرية " . لا شك أن الجنس البشري جنس شنيع يجمع صفات

النمر والقرد . الانسان من بين الحيوانات كلها هو الأكثر توحشا ولكي تهذبه السماء خلقت له فضائلك " .

إن صورة الانسان وهو ينعزل بعيدا عن المجتمع ، كما نجدها في وكل نواحي الأدب ، لابد أن ينظر اليها فيما له علاقة بالتجربة اليومية ، وهي جديدة نسبيا من زاوية تاريخية اجتماعية .بزغت في فرنسا بالذات في سنوات الثورة . كانت هذه التجربة التي لم يعد فيها المجتمع الجديد، بخلاف "العهد القديم" ، يسلك أسلوبا في المعيشة يعتمد علي الدولة التي ولد فيها الانسان ، ومن ثم أصبح المستقبل – من وجهة نظر شخصية – شيئا فشيئا ، غير قابل للتكهن به . وبالتأكيد علي العنصر المثير للشفقة لدي الانسان ، جعل الأدب فضيلة من هذه التجربة الضرورية السائدة . ويبدو أن الأدب سرعان ما تحول من دوره كوسيط للتنوير ، أو حافز لعمليات التجربة النقدية الي وظيفة جديدة تتمثل في تعويض "تكاليف" عملية تحويل الأبنية الاجتماعية هذه . واذا كان الأدب قد ساعد بالأرجح علي تحريك هذه العملية فلا شك أنه قد عجل تقدمها.

رابعا – لم لم يصبح مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي كلاسيكيا ؟

بدأنا استعراضنا لتاريخ الدراما بالاشارة الي التناقض بين الدور التاريخي الاجتماعي الهام الذي يبدو أن مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي قد لعبه ، وبين جاذبيته المحدودة لجمهور المسرح في الوقت الحاضر . والآن في ختام دراستنا ، وقبل أن نتساءل عن الأسباب التي تجعل إحياء هذا المسرح أمرا مستحيلا ، يتحتم اجراء تفرقة هامة . إن مؤلفي الملهاة ، مثل ماريفو ، وبومارشيه ، رغم انهم يقفون دائما في ظل موليير ، مازالوا يظهرون في برامج المسرح الحديث ، في حين أنه من العسير أن نتصور أن ينجح في عصرنا عرض "أوديب" لفولتير ، أو "رب الأسرة" لديدرو ، أو "المعوز" لميرسييه .

هناك بادئ ذي بدء نوعان من التفسير لهذا الوضع ، ليس أي منهما مقنعا عند الانتهاء من تحليله . أولهما أنه يستحيل احياء "المسرحيات الجادة" من الماضي . ولكن هذا التفسير مرفوض ، لا في فرنسا فقط ، وذلك بما يجري في مسارح فرنسا اليوم من اعادة عرض مجموعة كاملة من أعمال كورنيي ، وراسين بنوع خاص . أما التفسير الثاني فإنه يزعم أن موضوع مسرحيات القرن الثامن عشر تنتمي الي التجارب اليومية الوثيقة الصلة بالأحداث

التاريخية في تلك الحقبة . غير أن هذا التفسير أيضا لا يحل مشكلتنا ، ذلك لأنه إذا كان يفسر غياب "الدراما البورجوازية" في الوقت الحاضر فإن تراجيديات فولتير ، مثلا ، تقوم في الغالب علي أساطير العصور القديمة ، ومن ثم لم تزل باقية في قوائم المسرحيات .

ومن المحتمل أن تكون مسرحيات القرن الثامن عشر قد أصبحت بالنسبة الينا اجنبية بل ومؤلمة ، لأنها تقدم ، مع العنصر المثير للشفقة ، صورة للعالم مركزة علي الانسان ، أصبحت لعدم وجود بديل لها تبدو غير مفهومة لنا لأنها ترثي الانسان ، بدمع العين لكونه خاضعا لقوي خارجية يري الكثير من معاصرينا أنه قد تم السيطرة عليها . إنها في الحقيقة ، وبالذات لأنها تحيد عن مثل هذا الأسلوب المثير للشفقة ، والمدر للدموع ، وأنها تثير ظواهر الضحك والسخرية التي تبدو لأعيننا أكثر اثارة للإشمئزاز مما كانت عليه في أعين النظارة في القرن الثامن عشر ، وبدلا من التساؤل عن شئ بدا لنا واضحا لزمن طويل ، لكل ذلك استطاعت كوميديات ماريفو وبومارشيه أن تبقي حية . إن الأسباب التي تدفعنا من وجهة نظر تاريخية اجتماعية الي أن ننسب دلالة خاصة الي مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي هي نفسها الاسباب التي تقلل من فرص رؤيتها وقد بعثت من جديد .

هانز اولرخت جومبريخت

جامعة سييجن ، المانيا

تمثيل مباراة في أدب القصص الخيالي
أنموذج نقدي*

سوراب . راث

قرب نهاية رواية Light in August (ضياء في أغسطس) ، وفي مشهد من مشاهد الذروة بالفصل الأول ، وسلطات العدالة تطارد الهارب جو كريسماس عبر شوارع مدينة جيفرسون**، يقدم وليام فوكنر شخصية جديدة هي بيرسي جريم ، وهو نقيب بالحرس الوطني والنائب الخاص بالبحث الجنائي ، ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وكان يظل ساهرا في وسط المدينة حين تغلق متاجرها في عطلة آخر الأسبوع . وبينما تكون جماعات من المدينة قد بدأت لعبة "البوكر" يبقي جريم دائب البحث والتحري طوال الليل . وتسيطر الحماسة علي أفراد القوة التابعة له لتدعيم القانون ومساندة العدالة متصورين أنهم "عين خفية يقظة تديره لمراقبة أعمال البشر" [(١)]. وتستمر لعبة البوكر ليلة السبت بأكملها ، وفي هذه الأثناء يحدد مكان جوكريسماس ، وتجري مطاردته . وحينما كان جريم يعدو وراء

---

* يسرت إجراء جزء من هذا البحث منحة دراسية من جامعة ولاية لويزيانا في ربيع سنة ١٩٨٥

** أطلق وليام فوكنر علي الجنوب الأمريكي اسما خياليا هو مقاطعة "يوكنباتاوفا" ، وافترض أيضا أن ثمة مدينة باسم "جيفرسون" تقع في منتصف هذه المقاطعة (المترجم)

(١) وليام فوكنر "ضياء في أغسطس" ، نيويوك ، المكتبة الحديثة سنة ١٩٦٨ ، ص ٤٣٢ ينسب ما سيشار اليه من صفحات بعد ، الي هذه الطبعة

المترجم : حسن حسين شكري

المجرم الهارب في شوارع المدينة يقدم لنا فوكنر تيارفكر نائب البحث الجنائي من وجهة نظر غير محدودة :" لم يكن تواقا الي الانتقام ، أو مندفعا للغضب والاعتداء . كان يتحرك ، ويتوقف من آونة الي أخري بجسمه النحيل بسرعة وطاعة عمياء ، كما يتحرك أي ممثل علي خشبة المسرح (ص ٤٣٧) . وفي بقية الفصل لم يشترك جريم في لعبة البوكر ، بل أخذ يفكر ويعمل ، كما لو كان منهمكا في لعبة الشطرنج . لكنه لم يكن كاللاعب ، بل كالحصان أو البيدق في رقعة اللعب . وكانت مدينة جيفرسون هي الرقعة التي يتحرك فيها جريم وكريسماس من مكان الي آخر بقوتين أكبر منهما ، العناية الالهية الخيرة تحرك جريم ، والقوة الشريرة لعصيان الرب تحرك كريسماس ، وفي النهاية ، حين ضيق الخناق علي كريسماس ، وأصيب برصاصة قاتلة في مطبخ الكاهن هايتاور ، تبدو هذه اللعبة الخيالية آخذة في الانتهاء .

فما هو الأثر البلاغي لهذا الحدث الدخلي ، اعني التمثيل ؟ وكيف يؤثر في استجابتنا للقصة وللشخصيات ، وللحبكة ؟ وما هي جوانب التمثيل اللازمة حيث نقيم أنموذجا نقديا لنسيج أدب القصص الخيالي الذي يستعمل تمثيل – مباراة ، كمناورة بلاغية ماكرة لمعالجة أفعال الشخصيات واستجابات القراء ؟ هذه هي المسائل التي أود أن أناقشها هنا كنقطة بداية لاقتراح انموذج لتحليل نصوص تمثيلية.

وتستوفي رواية "ضياء في أغسطس" كمالها المنطقي وفقا للمستويات الروائية التقليدية بالقبض علي كريسماس . وفيها جوهر الحبكة الأرسطية : خلفية للشخصيات ، و"بداية" تؤدي الي صراع ، وحدث يتطور ويكشف عن التعقد "المتصاعد" بالتجربة : كارثة تفيد نهاية حدث مطرد . فقد ارتكبت جريمة ، ونهضت قوة الخير وسلطات العدالة للبحث عن المجرم الذي يمثل قوي الشر بوضوح في عالم مدينة جيفرسون ، وأخذت العدالة مجراها ، واستعيد التوازن الاجتماعي بهزيمة وأسر العميل الممزق الذي جري البحث عنه . ولكن ذلك تصميم لقصة تستدعي حدثا في رواية واقعية ، وبالنسبة لأولئك الذين غضوا النظر أو نسوا عالم بيرسي جريم الخيالي الذي يحملنا علي "تصديقه" حيث القوي المعادية معدة للانفجار علي الدوام في مبارة للقوة والبراعة ، نجد عند فوكنر من يذكرهم : "لكن الممثل لم يكن قد أعد بعد" (ص ٤٣٩) . أما المباراة التي يظن جريم أنه يمثلها ، أو آخذ في تمثيلها ضد جو كريسماس فلكي تصل الي نهايتها كان يجب أن يكون هناك "قتل " حتي يلقي أحد اللاعبين خارج رقعة اللعب ،

ويدعي الآخر الانتصار[٢] . وفي رواية "ضياء في أغسطس" يوضح طقس "القتل" هـذا نفسه ، فيما أبداه جريم لكريسماس من تخنث غريب رهيب وراء المائدة . وتمدنا لعبة البوكر باطار نفساني يعاوننا علي تقويم فعل جريم قبل الأوان : إذا صرفنا النظر عن الضرورات البلاغية التي تخلقها هذه المطاردة ، سيظهر جريم علي أنه شجاع شيطاني "مسطح" ، وتغيب عنا سخرية فوكنر القدرية في رسم الشخصيات ، ولو اشتركنا في مباراته ، سيظهر جدير فائزا أو بطلا ، ونفقد المعني الرمزي للتحول من مكان الي آخر في لحظة الانقلاب (٣) .

وبسبب الفكرة الشائعة التي تربط التمثيل بالتحرر والانطلاق ، كثيرا ما تثير الأعمال الروائية التي تستعمل تمثيل مباراة ، الشكوك فيما إذا كان مؤلفوها يراعون المناهج التقليدية للتطوير الروائي ، خاصة فيما يتعلق بوحدة الشخصية والحدث . علي أن المؤلفين الذين يستعملون تمثيل-مباراة كأداة بلاغية للسيطرة علي استجابة القارئ يلزمون أنفسهم ببناء روائي تقتضيه طبيعة المباراة . إذا أن كل موقف في تمثيل -مباراة يشمل بعض المفاهيم العامة التي يناقشها ، أعني (اختبار القوة البدنية /الذهنية) والتسلية وفقا لقواعد معينة ولحدود الزمان والمكان ، ومثال ذلك أننا نتوقع تطابق الرواية مع قواعد وأعراف "عوالمها" وأن تقدم لنا "مجموعة أفكار متناسقة" لنفهم كيف ترتبط الحياة . ولكي يقدم الكاتب هذه الرؤية الشاملة عليه أن يوضح ثلاث علاقات علي الأقل بين القصة وبين المجاز المستخدم فيها ، هي: أن يطور المباراة المحددة بطريقة المتلقي القادر علي التخيل ، وأن تكون المباراة ملازمة للفرض الأساسي وجوهرية فيه ، أو أن تكون مصدرا لفرضيات تتطرد بها القصة ، ولا بد أن يحدد دور المباراة علي أنه محك أخلاقي ، وأن يدعم استعمال المباراة كأداة لتعريف "العالم المجازي للعمل" . وهذه المقدمات المنطقية هي قوام الأنموذج الذي أود أن أقدمه فيما يلي :

---

(٢) يناقش كينيث بروك مفهوم "القتل" وكبش الفداء باسهاب في كتابه المسمي : "Philosophy of Literary Forms" ، باتون روج ، مطبعة جامعة ولاية لويزيانا ، سنة ١٩٦٧ ، الفصل الأول .

(٣) ادرك هنا ، وفي أمثلة كثيرة أخري ، انني اعتقد أن المباراة ليست الا مجازا مرسلا أو أنموذجا للقوة القدرية . وكثيرا ما استعمل الكتاب الأمريكيون من أتباع المدرسة الطبيعية بوجه خاص مباريات تقدم الطريقة (التي اعتقدوا) أن حياة الواقع تسير علي منوالها . ويجبر منطق بناء المباراة الممثلين علي صنع قراراتهم . ومع أن الممثلين لهم ارادة حرة فانهم لا يستطيعون إدارة ما يريدون ، لأن المباراة هي التي تمدهم بمنطقهم . وعلي الرغم من أن الشخصيات المماثلة لشخصية جريم قد تبدو شخصيات بطولية ، فانني اعتقد أن جريم ليس الا عملا أدبيا خطط المؤلف للتعبير عن المتعصب النمطي الذي يجانبه التوفيق في التمييز بين مباراة خيالية وواقع الحياة

لكن ما سبب الحاجة -أولا- الي أنموذج جديد ؟ والاجابة هي أننا لو نظرنا تاريخيا سنجد أن تحليل الأدب وفهمه قد اعتمد كل الاعتماد علي صورة عالم أكبر يحدد الاتجاهات الثقافية لعصرمن العصور إزاء الحياة والفن . وحين تفشل العقليات المبدعة والعقول الناقدة عن التوافق الزمني لفهمها لهذه الصورة في عصر ما يؤدي هذا الموقف الي تنقيح صورة العالم القديم ، والي أنموذج جديد لتصور الكون فكريا [٤] . ويشير فرانك كيرمود في كتابه "The sense of an ending" (الاحساس بنهاية) الي حاجتنا الي أنموذج جديد . حيث يلاحظ أن الرواية الانجليزية التقليدية تحدد شكليا بأنموذج مسيحي قوامه خطوط مستقيمة تبدأ بسفر التكوين وتنتهي بسفر الرؤيا ويقول : "سآخذ دقات الساعة أنموذجا لما نسميه حبكة وتنظيما يكسب الزمن روحا انسانية ، ويضفي عليه شكلا " ، ويشرح كيرمود ، و"يمثل الفاصل الزمني بين الدقة والدقة زمنا خالصا متتابعا غير منظم من النوع الذي نحتاج الي اكسابه روحا انسانية " . ويضيف قائلا "لقد تخلت الرواية الجديدة عن هذا المعيار . وعلي عكس الرواية "التوارثية" التي تمجد هذا الأنموذج اللاهوتي ، نجد أن رواية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أخذت شكلا مطابقا للأنموذج الدنيوي للحياة الانسانية . لكن الأنموذج الجديد كان أنموذجا تاريخيا وطوليا ، ويبدأ بوجه عام بمولد طفل ، وينتهي بموت أو زواج ، فالموت يضع نهاية لدورة الحياة ، والزواج يصنع بداية جيل جديد . وكما نسخت العقلانية الجديدة لذينك القرنين المبدأ اللاهوتي المتأصل في صورة العالم الذي كان جزءا من مذهبهما النقدي الأدبي ، نجد بالمثل أن التكنولوجيا الجديدة لعصرنا قد سلحتنا بقدرة تعيننا علي مناقشة حقيقة مراحل الحياة الانسانية في الأنموذج الدنيوي الذي انحدر الينا من ناحيتي الحبكة الروائية ورسم الشخصيات . ولم يعد الموت بفضل علم الطب -يقابل بعجز (علي مذهب الرواقيين) باعتباره جزء متكاملا للحياة ومصاحبا لها ، بل أطيلت الحياة ، وأجل

---

(٤) كان هذا التحول في المعتقدات الأساسية تحولا واقعيا حتي في مجالات العلم ، حيث يعتقد أن البرهان علي "الحقيقة" قد تم بالتطبيق العملي ، وبالتالي فهي دائمة . انظر كتاب توماس س . كوهن "The Structure of Scientific Revolution"، شيكاغو مطبعة جامعة شيكاغو ، سنة ١٩٦٢ .

(٥) فرانك كيرمود "الاحساس بنهاية" ، نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ، سنة ١٩٦٧، ص ٤٥ . ويقول كيرمود إن الرواية الجديدة قد ظهرت من معيار رواية القرن التاسع عشر: إنها تكرر نفسها ، وتشطر نفسها ، وتحور نفسها، وتناقض نفسها ، دون أن تراكم – ذات يوم – ما يكفي أن يكون ماضيا ، وبالتالي ، فإنها قصة بالمعني التقليدي الكلمة (ص١٩)

الموت أحيانا لسنوات عديدة بفضل أجهزة "إنقاذ الحياة" . وأصبح التحول من الحياة الي ما بعدها -مهما كان شأنه- محنة ، بل ساحة قتال للقوي . وبالمثل غير الزواج التعاقدي ، نتيجة للقوي الاجتماعية والاقتصادية لهذا القرن : لم يعد ينظر اليه كطقس اجتماعي يوحد اثنين في واحد برباط مقدس للحياة ، وأنكرت حقيقة أنه بداية جيل جديد . ولم بدايات ونهايات الحياة توظف بعد في بدايات ونهايات الحبكات الروائية . ويري فولفجانج إيزر أن رواية ثاكري "Vanity Fair" (سوق الغرور) هي نقطة منتصف الطريق في هذا التحول من رواية القرن الثامن عشر التي يمثلها فيلدنج الي رواية القرن العشرين التي يمثلها جويس ، ويدعو ايزر الي منهج أحدث تقوم فيه الرواية علي العلاقة المتغيرة بين المؤلف والقارئ - والكائنات البشرية والأكوان علي نطاق أوسع - وهي تستلزم "أن يجد القارئ لنفسه مفتاح لغز متعدد الجوانب" (٦).

واذا كان كثير من أدب القصص الخيالي الحديث متسما بخصائص تمثيل -مباراة (٧) ، فلا مناص من اشتقاق أنموذجنا الجديد لهذا الأدب من معتقداتنا الأساسية عن اللعب التي أسلم بأنها ما يلي : أن عبقرية لعبة ما تكمن في أنها منفصلة ومستقلة عن الواقع المشترك للحياة اليومية ، أن تجري أحداثها في زمان ومكان محدودين ، وبالتالي فإنها تبدأ بدخول اللاعبين والمشاهدين أرض الملعب ، وتنتهي بعودتهم منها ، فثمة لعبة تسيطر ، ويتحكم فيها اللاعبون ، وتوظف قواعدها كعوامل محددة للتفاعل بين اللاعبين والمشاهدين ، كما هي الحال تماما في هيكل القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لحياتنا خارج التمثيلية ،

---

(٦) فولفجانج إيزر ، The Implied Reader، بلتيمور ، مطبعة جون هوبكنز ، سنة ١٩٧٤ ، ص ١٠٣ .

(٧) لمعرفة عينة من الآراء النقدية التي تري أن تمثيل -مباراة ، يعد استعارة ملائمة لواقع عصرنا الجديد ، أنظر ما ياتي : جبرائيل جوزيبوفتشي ، The lessons on modernism an other Essays ، لندن ، دار ماكميلان ، سنة ١٩٧٧ ، فرانك كيرمود ، Sense of an Ending ، نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ، سنة ١٩٦٧ ، جوزي اورتيجا ، Meditations on Hunting ، نيويورك ، سكريبنر ، سنة ١٩٧٢ ، وتحقيق فيليب ستيفك لكتاب Anti -story ، نيويورك المطبعة الحرة ، سنة ١٩٧١ ، توني تانر The city of words ، نيويورك ، هاربر و رو، سنة ١٩٧١ . وانظر ايضا جون بارث ، ولورنس دوريل ، وفلاديمير نابوكوف وغيرهم المعروفين بما "بعد الروائيين" الذين وجدوا أن اللعب وسيلة ملائمة للتعبير عن نظرتهم الي العالم .

وتنطوي المباراة علي اطار ذهني توجد فيه الحقائق المتناقضة للعب وغير اللعب معا ، لتظل النماذج العادية للحدث والسلوك معلقة ونحن داخل أرض الملعب ، ولذلك نتوقع أن تشارك كل أعمال أدب القصص الخيالي التمثيلية في هذه الخصائص المشتركة ، مع أن الطرق التي يستخدمها الكتاب الذين يوظفون التمثيلية في هذا النوع من الأدب (٨) قد يتسع مداها .

ويبدأ اللعب بارتحال عن الواقع العادي ، وينتهي بعودة الي روتين الحيا ة ، ويتضح اختلافه عن حياتنا المنتظمة في أنه يجعلنا نحن المشاهدين واللاعبين نترك أشغالنا اليومية ، ونتجمع في مكان محدد لفترة زمنية معينة ، فإذا رفضنا مثل هذه الدعوة فإننا سنبقي خارج المباراة وستبدو لنا نوعا من العبث (٩) . ومن ناحية أخري فإن الحاجة الي الترويح تؤكد ضرورة مثل هذا الارتحال حين تتضاءل سيطرتنا علي البيئة المحيطة بدرجة نشعر معها بأن دورنا في نظام يزودنا بهويتنا ككائنات بشرية مهدد بالخطر ، وحين نحتاج الي الابتعاد عن هذه البيئة تماما . ويستهل جون جويزنجا دراسته في كتابه "Homo Ludens"

---

(٨) إن المعايير المتباينة التي استعملها القراء لتصنيف عناصر اللعب التمثيلي في الأدب تمثل طيفا ضوئيا عريضا لاستخدامات المؤلفين الخلاقة لها ، أنظر بوجه خاص ، روجر كايلوا man, play and games ترجمة ماير باراخ ، جلينكوا ، الينوي ، المطبعة الحرة ، سنة ١٩٦١ ، وربروت ديتويلر Games and play in modern American Fiction، في مجموعة الأدب المعاصر ، المجلد ١٧ ، العدد ١ (سنة ١٩٧٦) : ص ٤٤–٦٢ ، ورونلد فاوست The Rules of game : A para-theory of Literary Theories في عدد خاص من مجلة الجنوب الأوسط من Game, play and literature ، شتاء ١٩٨٦ .

(٩) إذا نظرنا الي حدث واقعي في لعبة ما ، نراه سخفا جليا . فكر مثلا في لعبة كرة القدم تري اثنين وعشرون فردا يجرون وراء كرة جلدية ، هدفهم الوحيد هو ركلهم لها داخل شبكة من الشبكتين القائمتين في آخر الطرفين المستطيلين للملعب . وفي لعبة الجولف التي يلعبها أناس ذوو وقار بضرب كرة دقيقة الحجم في حفرة بالأرض ، وتكون اللعبة أحيانا غريبة تماما عن الأنماط المتوارثة في حياة شعب ما ، لدرجة أنها لن تقبل ثقافيا ذات يوم ، كما هي حال لعبة كرة القدم في أمريكا الشمالية ، أو كرة القدم الأمريكية في كثير من البلاد الأخري .

(الانسان اللاعب) عن عناصر اللعب للثقافة بمناقشة هذه المقدمة المنطقية ، وأن اللعب أساسا صفة تعزي الي أهمية الانسان حيال كون ميكانيكي ، وأنه يتيح لنا تطبيق قدرتنا الفطرية لمعالجة ماجريات حياتنا . ومن منظور كهذا لا يكون اللعب مجرد مجال للهرب من الواقع ، بل يكون بحثا عن عالم منهجي بدرجة أكثر ، تتاح لنا فيه فرصة تحقيق التزامن بين أعمالنا ومقاصدنا [١٠] . ولذلك لا بد للقصة الخيالية أن تعتمد علي استعارات تمثيلية ، وأن تتوسل ببناء أكثر احكاما متماسك الدوافع والاتجاهات ، بل ببناء تقوم خصائصه علي الخطوط الموجزة الهادية التي يفرضها النص ومؤلف المباريات علي السواء .

وتنفذ جميع المباريات في نطاق زمان ومكان محددين ، وكما تعرف بداية المباراة بانصراف اللاعبين والمشاهدين عن عالم العمل تعرف نهايتها برجوعهم الي الروتينيات المنتظمة .. مع أن المشهد داخل أرض الملعب ربما يكون قد غير منظوراتهم إزاء أنفسهم واتباعهم وعالمهم ، وعلي الرغم من أن المكان المقيد قد يظهر محدودا من النظرة الأولي فإن أمكاناته تولد بصورة متناقضة سمة الاحساس المتحدد للعب . ويسمي اريك ايركسون هذا المكان الجديد بأنه "امتداد" للاعب . وفي دراسة حديثة عن شخصيات صمويل بيكيت يبرهن آلن ثيهر علي أن القوة الدافعة الوحيدة في قلب التمثيلية هي "فتح المكان المغلق وتجربة انعاش الجسد المصاب الدوار [١١] . ويقارن هويزنجا ، ساحة التمثيل بالمذبح المكشوف المتصف بسحر المعجزات والأساطير . وأنه مكان ملائم لاقامة الشعائر ، و"كون اسطوري" ، ويسميه روجر كايلوا ، بأنه "مكان طاهر" ، وعلي الرغم من أنه مقيد فان له سحرا علي من بداخل حدوده ، ويتيح ، ويتطلب ، أو يحتمل متغيرات جذرية كثيرة من مستويات السلوك المألوفة ، لكنه يتبع قواعده الراسخة بصورة صادقة ، كما يتبع العالم الخارج عن نطاق التمثيلية الخطوط الهادية للقانون المشترك للوطن .

---

(١٠) يبرهن آلن ثيهر ، في مؤلفه Words in Reflection ، شيكاغو ، مطبعة جامعة شيكاغو ، سنة ١٩٨٤ ، علي شخصيات بكيت تلعب مباريات لتؤكد نزماتها الفردية . ومن منظور كهذا يبدو اللعب حدثا ميكانيكيا ، حيث يضع اللاعبون أهدافا معينة ، ويتبعون استراتيجيات خاصة للوصول الي تلك الأهداف . حتي في المباريات التي تلعب فيها المصادفة دورا كبيرا يحسب اللاعبون الاحتمالات والمخاطر بدرجة قد تصل الي حد اليقين .

(١١) ثيهر ، ص ١٥٧.

(١٢) روجر كايلوا ، Man, play and games ، ترجمة ماير باراخ ، جلينكوا ، الينوي ، المطبعة الحرة ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٧ .

وبالمثل فإن البعد الزمني للتمثيلية هو الذي يحدد معناها ومغزاها . فقد تقدم صراعا من واقع الحياة استمر عشرات السنين في ستين دقيقة ، وتحسمه في آخر ساعة الزمن هذه . وربما تحسم حرب دائرة بين الكواكب علي شاشة التلفزيون في ثلاثين دقيقة بحساب نقاط يحرزها ممثلون متنافسون ، ويقلل مثل هذا الزمان المضغوط الامتداد الأفقي للزمن ، ويتيح إمكانات لا تقدر للزمن الرأسي / المتزامن . كما أن زمن التمثيلية غير حقيقي ، لأنه تحرر من الاستمرارية التاريخية في الزمن العادي ، بل يوجز المشاركون في تمثيلية رمزية هذه "اللا-حقيقة" ، وبهذا التحول يتجاوز الممثلون والمشاركون عن مبدأ السببية ومنطق الزمن ، أي عن (ما هو قبل ، وما هو بعد) ، لأن مسارهم خاضع لقوانين من صنع هذا التحول نفسه، وللاندماج وحده .

ومع ذلك تتوافر للعب الذي ليس له نهاية مغلقة ، أو المفكك البناء ، إمكانية حدوث مفاجآت لا تقارن ، بمعني أن نتيجته يمكن أن تتعرض لأي عدد من التحولات في الفترة الزمنية المحددة . وكما يلاحظ كايلوا " أن النتيجة التي تعرف مسبقا دون امكانية حدوث خطأ أو مفاجأة وتؤدي بجلاء الي نهاية لا مفر منها أمر لا ينسجم مع طبيعة اللعب" (١٣) . والواقع أن عدم التأكد من نتيجة المباراة هو مصدر متعتنا بحق . ونحن البشر لدينا حب لحدوث المفاجأة ، بل يكون لدي معظم المشاهدين في حالات كثيرة رغبة خفية في أن يروا من كان يعتقد أنه سيخسر فائزا علي من كان يعتقد أنه سيفوز ، مع علمهم يقينا أن الفريق أو الفرد المتفوق تتوافر ميزات تمكنه من الفوز . وفي تجربتنا للقراءة يري ايزر ، أن ثمة تشوفا مماثلا للمفاجآت ، مثل انعكاس توقعاتنا المنطقية ، وتصورات استمتاعنا الجمالي بالنصوص الأدبية (١٤) . وفي

---

(١٣) كايلوا ، ص ٧ .

(١٤) يقول ايزر : " في التذبذب بين التماسك و "التداعيات الغريبة" وبين المشاركة في الوهم ومشاهدته يتقيد القارئ باجراء عملية توازن خاصة ، وهذا هو قوام التجربة الجمالية التي يقدمها النص الأدبي (ص ٢٨٦) ، ويثبت أن "تحول المنظورات هذا يضفي نزعة واقعية علي النص ، ويعمل علي دنوه من تجربة الحياة ، كانت الرغبة الخفية للمشاهدين في حدوث مفاجأة واضحة في الأحاديث التلفزيونية التي سبقت اقامة مباراة بطولة كرة السلة التي نظمها الاتحاد الرياضي الجامعي القومي لكرة السلة سنة ١٩٨٥ بين فريق جورجتاون الذي فاز بالبطولة وفريق فيلا نوفا المتحدي له حيث أعرب انصار فريق جورجتاون عن تعاطفهم الخفي مع الفريق المهزوم .

الرواية القائمة علي تمثيل -مباراة ، يجب أن تكون مثل هذه المفاجآت جزءا لا يتجزأ من الموضوع ، لا أن تكون أدوات لمعالجة التأليف . ونحن نطالب بعقاب من "يحدد" فرصة الفوز في مباراة ، أو الكسب في مزاد ، أو السندات ببورصة الأوراق المالية ، لأن فكرة المباراة نفسها تفترض اتاحة فرص متكافئة للمتنافسين علي الفوز ، ونحن نتوقع من المؤلف /الراوي أن لا يتدخل في الاستطراد المنطقي ، وأن لا يقفل الرواية التي يبنيها علي قوة دافعة كقوة المباراة .

ومع أن قواعد مباراة ما قد تكون مقيدة مثل زمانها ومكانها فانها تسهم في احساسها بالتحرر ، لأن تلك القواعد قد وضعها المشاركون فيها ، أو قبلوها قبل دخولهم في عالم اللعبة وحين تبدو القواعد الراسخة الجذور المتسمة بالحزم غير متناغمة مع ديناميات المباراة ، بعد فترة من الزمن يحق لمندوبي اللاعبين والمشاهدين الاختيار بين تعديلها أو استبدالها ، وحين تقرر قواعد جديدة يصير علي المتنافسين الالتزام بها .

ولا يمكن أن يوجد اللاعبون والمشاهدون ، والملعب ، والقواعد الراسخة للمباراة ، بدون اطار ذهني مدرك لأصولها ، ويعمل علي خصوصية جوها ، وتدعيم سحرها . ويسمي هويزنجا هذا الاطار بأنه "فتنة" ناتجة من طريقة اللعب التي يقارنها بصوت تلاوة التعاويذ الذي يسود المعبد ، وينتج عنه سحر الطاعة . والمشاركة في اللعب تنطوي علي فرضية ذاتية ، وعلي خداع ذاتي متعمد ، وعلي "تذبذب" يبين النزوع الي مساندة الوهم والميل المضاد الذي يستهدف عدم التوهم (١٥) . وبالتالي يكون هذا الاطار الذهني محملا بمستويين في الواقع ، ونحن كلاعبين ومشاهدين في الوقت نفسه ، نمارس الواقع الطبيعي العادي للحياة ، مع أنه قد يكون معلقا وقتيا ، ونمارس واقع اللعب المبتدع المسيطر . ونتأرجح مع جدية هذين الادراكين ، لدرجة

---

(١٥) يرمز دور الحكم الي تناقض اللعب بطريقة فريدة . وهو رجل القانون في المباراة الذي ينفذ ويحمي قواعدها .
وحين يكون ثمة تلاعب خارجي بعيد عن سيطرة الحكم يتصرف الجمهور تصرفات مضادة للفريق أو للاعبين .
وتعد حالة برنامج جامعة توارن لكرة السلة في صلب هذا الموضوع . إذ أنه في ظل اتهامات بالرشوة وكشط النقاط حلت ادارة البرنامج الذي استمر علي مدي خمسة وستين عاما

أننا نشجع فريقنا فرحين بانتصاره ، أو يصيبنا اليأس لهزيمته ، مع علمنا بأننا لا نشاهد الا مباراة ، كما يخوض اللاعبون معارك عنيفة حول سفاسف تحدث في أثناء المباراة رغم علمهم بانهم يلعبون وحسب . ويصيبنا هذا التذبذب نفسه عند قراءتنا لنص من أدب القصص الخيالي . لكن الوهم يكون انتقاليا ، وفي الفواصل الزمنية التي نتحقق فيها من موقوتية التجربة . وتختفي عبقرية اللعب ، واطارها الذهني التمثيلي حين تحل حسابات حياة الواقع محل عدم اهتمام اللاعبين . وحينما تكتسب لعبة ما ، مخططة أصلا للتباري ، قدرا من الجدية المنفعية غير متناغم مع روحها ، تصبح هذه اللعبة واقعا ، وتصمم لعبة تنافسية جديدة لترمز الي جوانب اللعب فيها ، وبالمثل فإن تزجية وقت الفراغ البشري حين تصمم بلغة اللعب ، تستنبط لها مباراة جديدة لتهون من نتائجها التي تهدد بالخطر[١٦] .

وأري أن هذه الأمور الأربعة يجب أن تكون هي السمات المميزة لعناصر التمثيلية، وأسلم بانه حين يستخدم التمثيل أداة بلاغية في قصة خيالية فإنه يحكم ويحدد البناء القصصي بفضل مجموعات التوقعات التي يثيرها ويشيعها في أنفسنا . فكيف يساعد تعريف كهذا علي قصة خيالية تقوم علي تمثيل-مباراة ؟ يقدم لنا جاك إهرمان نقطة بداية لأنموذج نقدي لأبنية قصصية من هذا القبيل ، ويقسم التمثيلية الي نوعيها العريضين – تمثيلية حركة (Ludus)، وتمثيلية لفظية (jocus) – وحتي يقرب أعمال هويزنجا ، وكايلوا ، وإميل بينيفنيستي ، يري أن أنواع الواقع المختلفة وطبقة الوجود في تمثيلية تقدم من خلال الأبعاد الزمانية والمكانية للأدب :

... تقع مسألة التمثيل في كل من تطويل البناء (نظام منطقي يطوق مكانا في حدود شكل معين) ، وتطويل مسألة التاريخ (سبب جدلي تولد ديناميته زمنا ما ، كما عاشه فرد أو جماعة) [١٧]

---

(١٦) يفقد الرياضي المحترف مكانته كلاعب ، لا يلعب الا من أجل اللعب وحده ، علي سبيل المثال ، ولذلك ابتدعت نماذج جديدة للعب تقوم علي احصائيات دقيقة ، وتستهدف هذه النماذج إكساب اللاعبين والفرق الرياضية قدرا من المثالية والتورع .

(١٧) جاك إهرمان ، Homo Ludens Revisited ، دراسات فرنسية – جامعة يل ، المجلد ٤١ (سنة ١٩٦٨)، العدد ٥

ويشمل منهج كهذا المباريات والتمثيل في كل من الأدب الواقعي والخيالي ، كما أن ما يعرف في اللغة الألمانية "Bildumgsroman" (الرواية التصويرية) والأدب الخيالي "الطوباوي" لا يدعي أي منهما أن ما يعالجانه من موضوعات له وضع لا واقعي في نظرية الأدب والنقد ، ويصهر اهرمان صلة مثمرة بين القصص الخيالي القائم علي تمثيل- مباراة وبي أنماط الطراز البدني الذي يرجع الي عصر هرمخيروس ، وعصر الإغريق الذهبي الذي قننه أرسطو في كتابه "فن الشعر" ويربط تحليله روايات قائمة علي تمثيل -مباراة بالتراث الأدبي للبحث والاكتشاف المتأصلة تاريخيا وبكثرة في القصص الخرافي للرحلات - أي في الاغتراب والانفصال البدني ، والتوفيق بين لبها - في الزمان والمكان حقيقة كان أو خيالا ، كما هي الحال في الأعمال التي اصطلح علي تسميتها "Bildungsromann" بوجه عام.

وباستعمال هذا الأنموذج نقطة انطلاق ، وربطه بالمبدأين القصصيين اللذين اقترحهما تسفيتان تودوروف سوف اقترح انموذجا حركيا لأوضح أن القصة الخيالية القائمة علي تمثيل -مباراة تتبع تصميما بنائيا مطابقا لعلم البلاغة الكلاسيكي من ناحية الشكل . ويبرهن تسفيتان تودوروف في "المبدأين القصصيين" علي أن القصة الروائية "تحتاج الي تطوير حدث ما ، والى تغيير ، والي اختلاف " وعلي أن رسالة (أ) الي غير (أ) هي أنموذج التغيير كله. وعنده أن القصة الروائية بنوعيها تقوم علي مبادئ اطراد الأحداث ، وعلي تحويل الشخصيات والمناظر بين الوحدات الروائية . وبالنسبة للنوع الأول منهما ، وهو الروايات القصصية البسيطة القائمة علي تتابع زمني مرتب للأحداث ، أو علي معلومات موثقة ، يقترح تسميته "اسطوري" ، وبالنسبة للنوع الثاني ، وهو "نمط الرواية القصصية الذي يعان فيه مبدأ التتابع بالنمط الثاني لتحويل الروايات القصصية التي تكون أهمية الحدث فيها أقل شأنا من إدراكنا الحسي للحدث ، من ناحية درجة المعرفة التي نعلمها عنه ، تحويلا (نوعيا) ، يقترح تسميته «معرفي» . وارسم خريطة عن طبيعة التتابع والتحويل في الروايات القصصية يعين خمسة عناصر لا غني عنها في المثال الذي انتقاه ، وهو عمل بوكاشيو المسمي Swan-Geese story : (١) موقف التوازن في البداية ، (٢) انهيار لهذا الموقف (٣) إدراك لفقد التوازن ، (٤) بحث ناجع عن الشخص أو الشئ المفقود ، و (٥) اعادة توطيد التوازن المبدئي . ويتمسك بأن القصة لا بد أن تقوم علي جهل متبوع باكتشاف، وهذا أنموذج رئيسي أيضا للبحث عن الكأس المقدسة التي شرب منها السيد المسيح في

العشاء المقدس . والرواية الرئيسية في كل حالة هي قصة البحث الذي ينتج عنه قصة روائية (١٨)

ويتسم التمثيل بخصائص مماثلة للبحث سواء عن المتعة الحسية وحدها ، أو عن معني للحياة في العالم خاصة ، إذا قلبت الأحداث التي لا نجد لها تفسيرا ، ولا نستطيع التحكم فيها ، توازن الحياة العادية ، ولذلك فإن أنموذج الرواية التمثيلية يعتمد معلي التحويل أكثر من اعتماده علي التتابع . واللعب يمكن أن يفسره ولا يمكن أن يحلل ، لأننا حين نحدد مباراة ، فإننا سوف نخضعها مرغمين لمنطق خارجي غير مرتبط بها . وبطبيعة الحال يجب أن يكون تحليل المباريات بعد حدوثها بالفعل . وإذا طبقنا مقولة تودوروف عن "العناصر الخمسة التي لا غني عنها " علي موقف (تمثيل- مباراة) ، حيث يقدم الراوي التمثيل علي أنه وسيلة مجازية للحدث الدرامي ، ربما يجب الأخذ بما يلي كمثال في جميع القصص الروائية القائمة علي تمثيل-مباراة .

عزلة : تهاجم البطل مسائل لاحل لها عن الحياة من جميع النواحي ، ينسحب وقتيا من عالم الواقع للعمل طوعا أو كرها باحثا عن عالم ملائم . قد يكون العالم الجديد منتسبا الي ماض يأسر اللب ، يجد فيه سحر الحنين الي الوطن ، والاستقلال المغامر ، أو المستقبل الباهر ، حيث يخلق عالما يضفي عليه مثالية لحياة بلا أعباء أو ضغوط . وربما تتضمن رواية ما هذه الأرض الخيالية ، أو تقدمها بصورة خارجية عنها ، فتقع في مجال مجرد للخيال المحض ، أو تصوغها في مجموعة استعارات مرتبطة بالطقوس الدينية عن الواقع الملموس ، تقحم فيها عن قصد أو بعفو الخاطر .

هرب – مراقبة : يدخل البطل عالم التمثيل . وحيدا أو في صحبة ، حيث يواجه مسائل حياة الواقع ، وهو يعيش الآن ممثلا كان أو مشاهدا بوعي ثنائي ، الأول هو وعيه بالعالم الذي خلفه وراءه بقيوده وحدوده ، والثاني هو وعيه بالعالم الجديد الذي وصل اليه ، حيث تكون قيود جديدة تماما قد حلت محل القيود القديمة ، وعلي الرغم من أن الحدود الجديدة تمثل العالم "القديم " بصورة رمزية . وتمتدالمباراة علي سطح الزمن : تبقي حياته

---

(١٨) مجلة Diacritics ، المجلد الأول ، العدد الأول (سنة ١٩٧١) ، ص٣٨-٤٠.

خارج المباراة مستترة في الأعماق ، حيث يومض ماضية وحاضرة من لحظة الي أخري . ويسعي لكي يجد روابط ، ولكي يدرك العالمين بالمقارنة والمقابلة بينهما .

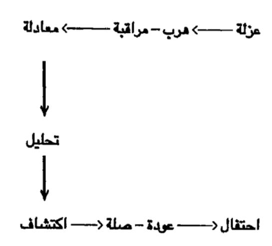
معادلة – تحليل – اكتشاف : يصل البحث عن حقائق متوازية في العالمين الي مستوي النشوة ، أو المس الأحادي ، حيث يتحرك العمل البدني للتمثيل تجاه حالة ميتافيزيقية، ويتخذ الممثل الاختيار المفضي الي الموت استعدادا للتضحية بنفسه ، إذا كانت حاجة المباراة تستدعي ذلك . ويفترض أن ماله أهمية في المباراة هو التطابق مع ما له أهمية خارجها أو التفوق عليه ، ويحمل عنيف مباغت ، يعيد البطل اكتشاف عالمه في ضوء جديد ، وتتسم قمة هذه اللحظة العنيفة بصورة أشبه بالذروة للفقد البدني ، والتشوه ، والموت ، أو بتجربة أشبه بالموت ، إما أن يعانيها البطل ، وإما أن يشاهدها كتذكار للمعرفة الجديدة المكتسبة من العالم الخارجي . إنه موت التضحية بالذات ، أو بذات انسان آخر .

صلة – عودة : يبرز البطل من التمثيلية مكتسبا لهدوء جديد حيال عالم الواقع . ويبدو الوعي الجديد صوفيا ، لا عقالنيا ، ويبقي غير قابل للتفسير أو التحول . ويصبح جزءا متكاملا مع وعي البطل . وإذا كانت صدمة المعرفة الجديدة قابلة للاحتمال يصبح البطل شهيد قضية ما . وإذا استطاع أن يمتصها فإنه يقبل العالم بشروط جديدة ، ويصبح زعيما .

احتفال : يعود البطل الي العالم العادي ، ويتراخي معه . ويجرب "يقظة من نـوم ، أو من تعويذة سحرية . وحين يكون نجاحه الفردي متزامنا مع نجاح جماهيري هائل ، يحتفل المشاهدون بهذه "اليقظة" بتنظيم استعراضات أو مسيرات تجوب الشوارع ، وتحتفي هيئات جماهيرية أخري بالممثلين . وإذا كانت المباراة خاسرة يستيقظ الممثل كشخص عرضة للحياة أو الموت . والعودة الي العالم العادي ، في حالة كهذه ، يحسب لتجديد سعيد.

ويستعرض ترتيب هذه المراحل الروائية نوعا من الاطراد من صراع البداية حتي حله النهائي وتأتي لحظة الاكتشاف من خلال تقليد رمزي للحياة ، ويكون تمثيلا ، ولا تأتي لحظة الاكتشاف هذه من خلال أنشطة البطل المنتظمة . ومن ثم يبقي الفهم الجديد أقل إيلاما ، وأكبر شأنا بالنسبة للوعي المتغير .

ويمثل هذا الأنموذج أيضا البناء الروائي علي أنه عملية عكس . حيث تمر رحلة البطل من العزلة الي العودة بتسع مراحل ، الأربع الأولي منها عكس نوعي عند نقطة التحليل ، التي تتصف بفهم حدسي ، وتليها المرحلة الحاسمة للاكتشاف . وربما تقدم الخطة بيانيا علي النحو الآتي :



وبالتالي فالعزلة ، وهي تفيد اخفاق البطل في التوافق مع نظام المشاركة في الحياة والقيم ، ويسفر عن انسحابه من مجتمعه المحلي ، ولا ينتهي بالاحتفال وحده ، لكن النهاية تعكس الحالة التي كان عليها في البداية أيضا . وعزلة البطل المفروضة عليه من قبل نفسه ، أو من ابتلائه بمجتمع صارم ، أو تفرضها عليه قوي خارجية بطريق المصادفة ، أو من أثر خدعة وقع فيها – تبدأ بالهرب ، ويكافأ بسخاء عند عودته التي تعد علامة علي قبول المجتمع كبطل أو زعيم ، كما لو كان اللاعب قد آثر التضحية بنفسه من أجل بني جلدته . وبالمثل فإن المراقبة المألوفة لطقوس المباريات تتغير الي مراقبة انتقائية خلال مرحلة الصلة ، وتؤدي المعادلة الشكلية الي اكتشاف مفيد بعد تحليل "الممثل–البطل" لتجاربه خلال التبادل الجدلي لنفس "الممثل –التمثيلية" ، واللاتمثيلية.

وبالتالي ، تكون الرواية دائرية ، علي الرغم من أنه ليس ثمة عودة الي البداية بصورة دقيقة . ويبقي التمثيل أداة للبطل ، وممرا تتعطل فيه "واقعية" الحياة الحقيقية عن العمل ، وتكون المباراة واقعية وبدنية أحيانا ، وتمثل علي المستوي الطبيعي ، وتكون مجردة أحيانا ، وتمثل علي المستوي التصوري ، وتكون خرافة اسطورية بعثت من الموت ، وتصور كطقس خيالي في بعض الأحيان ، وتكون أحيانا مقصورة علي الكلمات فقط ، وابتدعت لفظيا

وحسب . لكن تحويل الشخصية من حال الي حال ، وقيدها بالانسحاب من الواقع العادي وعودتها اليه ، يتبع الأسلوب الجوهري للمسرحية والمباريات للمناقشة ب الحوار.

سورا ب – راث

[جامعة ولاية لويزيانا]

التعريف بالكتاب

أرنولد برلينت Arnold Berleant

أستاذ للفسلفة في C. W. Post Centre بجامعة لونج أيلاند ، نيويورك ، منذ عام ١٩٦٢ . وأمين صندوق جمعية علم الجمال ، وعضو الاتحاد الدولي لعلم الجمال . ومؤلف كتاب "The Aesthetic Field, a phenomenology of Aesthetics Experience" (المجال الجمالي ، علم الظاهرات للتجربة الجمالية) ، وله مقالات عن : جماليات البيئة، وفلسفة الفن ، ونظرية القيمة الأخلاقية .... الخ

جبرائيل كامبس Gabriel Camps

متخصص في دراسة إنسان البحر المتوسط والانسان الأفريقي في عصور ما قبل التاريخ ، والعصور التي سبقت التاريخ المدون مباشرة ، عهد اليه برئاسة عدد من البعثات العلمية الي مناطق : Tassili N'Ajjer , Hoggar وهو المدير السابق لمعهد بحوث الصحاري ، والمسئول عن تحرير موسوعة "البربر" ، وأطلس منطقة البحر المتوسط الفرنسية لعصور ما قبل التاريخ ، وأطلس تونس ما قبل التاريخ

وليم كيم روجرز William Kim Rogers

ولد في ولاية كنساس الأمريكية سنة ١٩٣٤ ، وحصل علي درجة الدكتوراه في الفلسفة من المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية – نيويورك سنة ١٩٧٠ ، اشتغل بالتدريس في جامعات تشاتانوجا ، وأوهايو ، وولاية تينيسي الشرقية . يعد كتابا عن : علم الظاهرات للثقافة.

Daya Krishna **دايا كريشنا**

قام بدراسات كثيرة في جامعة دلهي ، حصل بعدها علي منح بعثات دراسية الي : الكلية الهندية ، والمعهد الهندي للفلسفة ، والمركز الشرقي الغربي ، وهاواي ، ومؤسسة روكفلر ، ويعمل عميدا لجامعة راجستان وأستاذا بها ، ألف كتاب : نظرة نحو التغيير الاجتماعي ، وكتاب : التغيير الحديث ...الخ ونشرت أبحاثه في الفلسفة ، وعلم الاجتما ع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأدب بالمجلات الأمريكية ، والانجليزية ، والإيطالية .

Gregory Claeys **جريجوري كلايز**

ولد في باريس ، وتعلم بجامعتي ماكجيل (مونتريال) ، وكمبرج (دكتوراه في الفلسفة لتاريخ الفكر الاجتماعي والسياسي ، سنة ١٩٨٣) ، يعمل أستاذا بجامعة وشنطن – سانت لويز ، يتركز اهتمامه في مجال تاريخ الأفكار ، وثقافة الطبقة العاملة ، والمشكلات التي تدعيها الدولة والتدخل ...الخ . يعد دراسة عن الفكر الاقتصادي الانجليزي في القرن التاسع عشر ، ودراسة عن الآلة ، والمال ، والعصر الألفي السعيد (الذي سيملك فيه المسيح علي الأرض)

Hans Ulrich Gumbrecht **هانز أولرخت جومبرخت**

ولد سنة ١٩٤٨ ، ودرس في ميونخ ، وريجنسبرج ، وسلامانكا ، وبافيا ، واشتغل بتدريس فقه القصة الخيالية في : بوخوم ، وريو دي جانيرو ، وبيركلي ، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس . بدأ تكوينه الثقافي في مدرسة Robert Jauss ، المعروفة باسم "School of "reception ، لكنه سلك طريقا شخصيا قريبه من علم التاريخ ، وتاريخ المفكرين بوجه خاص ، الي جانب اهتمامه بأساتذة الرواية الخيالية الألمانية . ألف كتابا عنوانه : UNE HISTOIRE DE LA LITTERATURE (تاريخ الأدب) ، كان مقدرا نشره بوساطة SUHT KAMP ، سنة ١٩٨٧

سوراب . راث Sura P. Rath

من أصل هندي ، درس بجامعتي تولون ، وتكساس ، ويدرس الآن في جامعة ولاية لويزيانا – شريفبورت – شارك في تأليف كتاب باسم "Anatomy of Finance: Terms" (تشريح المصطلحات المالية) ، ويقوم الآن باعداد عمل عن جماليات التمثيل والمباريات

مجلة ديوجين
العدد الواحد والثمانون
مايو / يوليو ١٩٨٨

فى هذا العدد

ت . ف جامكر يلدز و ف . ف . إيفانوف

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

١ – اللغة : نظام الرموز

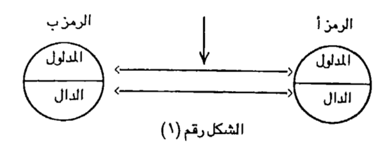
يمكن التفريق بين مستوين في بنية أي لغة بوصفها نظاما رمزيا وهما مستوي التعبير ومستوى المضمون * ويتحدد بالتالي كل رمز في اللغة بالتقاء هذين الجانبين. وهنالك نفرق بين اللفظ ودلالته أو الدال والمدلول اللذين يقابلان هذين المستوين من اللغة. وتتحدد العلاقات القائمة بين الدال والمدلول في الرموز اللغوية بتحديد العلاقات القائمة بين التعبير والمضمون. والسبب وراء الطبيعة المعقدة للرمز اللغوي في العلاقات بين الرموز على مستوى التعبير ومستوى المضمون.

ويكون الرمز اللغوي تعسفيا حين يقصر نفسه على العلاقات الرأسية. أو بتعبير أدق تتسم الصلة التي تربط بين الدال والمدلول بكونها تعسفية لا منطق وراءها، ولكن المنطق قائم جزئيا بين الرموز في علاقاتها الأفقية أي في العلاقات بين الدال والمدلول للرموز

* هذا المقال المترجم هنا يمثل الجوانب الأساسية في مقدمة مجلدي جامكريلدز وإيفانوف بعنوان اللغات الهندو أوربية والهنود الأوربيون (باللغة الروسية) وقدم له رومان باكوبسون بجامعة تبيليس ١٩٨٤. (ترجمة عن الروسية: سكوت والكر).

المترجم : دكتور علي علي شعبان. أستاذ مساعد بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر.

اللغوية المترابطة. وذلك لأن طبيعة العلاقات بين العنصرين الدالين كالتشابه أو الاختلاف فى البنية الفونولوجية تتحدد - إلى حد ما - بالعلاقات بين العنصرين المدلولين لهذه الرموز فى النظام الكلى (جامكريليدز ١٩٧٤، انظر الشكل رقم إ).



الشكل رقم (١)

ومستوى التعبير للرموز اللغوية له بناء داخلى معقد، إذ أن رمز اللغة المنطوقة ليس عنصرا بسيطا (مجرد صوت) ولكنه مزيج من الأصوات منتقى من بين كل أصوات اللغة، وبذلك يكون للعنصر الدال فى الرمز اللغوى بنية هرمية داخلية وهى البنية المزدوجة للغة. ويساعد توزيع الوحدات المنطوقة للرموز الملموسة فى اللغة وانتقاء هذه الوحدات من بين باقى الأصوات فى التعبير عن رموز ملموسة عن طريق نحو اللغة.

وبما أن الرمز اللغوى يتركب بهذه الطريقة فإن اللغة يمكن أن تخلق سلسلة لا متناهية من الرموز باستخدام عدد محدود من الفونيمات (الوحدات الصوتية) وتجميع هذه الفونيمات معا طبقا لنظام معين يجعل تكوين العبارات الصحيحة نحوريا فى أية لغة أمرا ممكنا[١].

والنظام الذى يشمل رموزا ناتجة عن تجميع الفونيمات بكل الطرق الممكنة نظريا (حتى ولو كانت هذه التجمعات محدودة الطول) يمكن أن يسمى نظاما (متكاملا) فى حين يسمى النظام الذى لا يستغل كل التجمعات الممكنة نظريا من العناصر ليكون رمزا يسمى نظاما "ناقصا" يتخلله قدر معين من الحواشى أو الزيادات. ويمكن أن يقال إنه نظام تستبعد منه بعض التجميعات نتيجة للقيود المفروضة عليه. والتجمعيات المقبولة فى مثل هذا النظام هى

١ - البنية المزدوجة للرمز اللغوى هى ملمح من ملامح اللغات البشرية وليست ملمحا من ملامح نظام التواصل عند الحيوان . فنظام التواصل عند الحيوان يقوم على الرمز (إشارة لتركيب أولى يتكون عادة من عنصر مفرد (هوكيت ١٩٥٨ ، بنفنست ١٩٦٦). وبذلك يتحدد عدد الرموز فى هذه الأنظمة بعدد العناصر المختلفة . وحيث إن إخراج هذه

التى تحدد بنية مستوى الشكل بالنسبة للرمز.

واللغات الطبيعية هى نظام "ناقص" من هذا النوع، إذ أن بها قدرا كبيرا من الزيادات التى تسهم فى كفاءتها كوسيلة تواصل. وهذه الخاصية فى اللغة هىَ التى تسوغ التغير فى البنية الصوتية للغة على مر العصور.

والتغير فى الفونيمات – مثل فصل اندماج فونيمين كان اندماجهما قائما فى مرحلة سابقة من مراحل تطور اللغة – أمر ممكن فى حدود زيادات هذا النظام اللغوى الذى يحدد مدى إمكان حدوث هذه التغيرات.

دعنا نتخيل نموذج ما يسمى بالنظام الكامل الذى يمكن تخيله نظريا والذى لا تستبعد منه أى تراكيب حيث إن كل التراكيب النظرية لعناصره تعد رموزا. والتغيير فى أى تتابع فونيمى بإحلال تتابع فونيمى آخر محله يؤدى بالضرورة إلى تغيير فى كل تتابع فونيمى، ويتمخض ذلك عن تجنب مزج الرموز وتجنب التشابه التام فى اللفظ دون المعنى أو تحريف المضمون.

ولكن تغيير النظام الفونولوجى فى الأنظمة "الناقصة" التى بها قدر من الزيادات لا يؤدى إلى مزج الرموز. وبذلك تصبح هذه التغيرات ممكنة. وهذا يفسر حقيقة كون اللغات لا تتأبى على التغيير وأن التغيرات الفونيمية عبر التطور التاريخى أمر ممكن.

٢ – تفسير التشابه بين الرموز فى الشكل والدلالة فى اللغات المختلفة وفكرة اللغات المنبثقة عن أصل مشترك.

حين يوجد تشابه فى الشكل والدلالة فى لغتين أو أكثر على مستوى الشكل والمضمون فى وقت واحد يثور التساؤل – بطبيعة الحال – عن أصل هذا التشابه. ويمكن تفسير هذا التشابه المتمثل فى تطابق الجانب الصوتى وتطابق الجانب الدلالى للرمز فى اللغات المختلفة بوصفه نتيجة لاندماج بعض الرموز عن طريق المصادفة.

العناصر المتعارضة بعضها مع البعض محدود نفسيا وعضويا فإن عدد الرموز بالتالى محدود نسبيا . والممكن الوحيد فى هذه الأنظمة هو التراكيب النحوية ، أى إخراج العبارات المكونة من رموز ملموسة عن طريق مزج هذه الرموز بعضها مع بعض وتكوين تركيبات أطول .

ويمكن التسليم بأن التقاء عوامل المصادفة البحتة أدى إلى حقيقة وجود كلمات عديدة متشابهة صوتيا ودلاليا فى لغتين أو أكثر. وإنه لمن الممكن أيضا أن نأخذ فى الحسبان احتمال تدخل عوامل المصادفة فى تحديد طول كلمتين أو أكثر فى لغتين أو أكثر (بوليفانوف ١٩٣١ ص ١٨٠ - ١٨١، جرينبرج ١٩٥٧ ص ٣٥ ومابعدها).

تقل نسبة احتمال المصادفة فى التقاء الرموز بزيادة عدد اللغات التى يكتشف فيها تشابه الرموز، ويكون مثل هذا الاحتمال أقل عند زيادة عدد الرموز. وإذا اكتشف عدد كبير من العناصر المندمجة (ن) - فيما بين ٢٠ أو ٣٠ أو أكثر - فى س من اللغات (س ترمز إلى لغتين أو أكثر) فإن نسبة احتمال المصادفة تنعدم فى الواقع. وهنالك يجب أن يقدم افتراض آخر (من الضرورى أيضا أن نأخذ فى الاعتبار حقيقة أن احتمال تصادف الالتقاء يتضاءل بناء على طول الكلمات المتشابهة، إذ إنه كلما زاد طول الكلمات قلت نسبة احتمال الالتقاء عن طريق المصادفة.

وهناك افتراض آخر أكثر قبولا يفسر تشابه الرموز فى لغتين أو أكثر وهو أن هذا التشابه ناتج عن التقاء اللغات تاريخيا واقتراض لغة ما بعض الكلمات من لغة أخرى (أو من عدة لغات) أو أفتراض لغتين من لغة ثالثة.

ولكن كل مغايرات التشابه الشكلى والدلالى للرموز فى لغتين أو أكثر لا يمكن أن يفسر بظاهرة الافتراض.

هناك نمط من التشابه بين رموز اللغات لا يمكن تفسيره باقتراض لغة من لغة أخرى، وهو يتمثل فى التوافق الفونولوجى المطرد بين الرموز المتشابهة. ويفترض هذا النمط من التشابه وجود علاقات بين أنظمة اللغات الفونولوجية تتمخض عن أن كل فونيم × فى اللغة أ يتطابق مع الفونيم ي في أحد رموز اللغة ب صوتيا ودلاليا. ويتطابق الفونيم ز مع كليهما فى نفس الرمز فى اللغة س وهكذا. وإذا تطابق الفونيم يً فى اللغة "ب" مع الفونيم × فى اللغة (أ) فإن موضع هذين الفونيمين بين الفونيمات الأخرى يمكن أن يفسر هذا التطابق.

وعلى أى الحالات يمكن الجزم بأن الفونيم × فى اللغة أ يتطابق مع الفونيم ي والفونيم يً فى اللغة "ب" فى كل المواضع.

وتدلل مجموعات الكلمات والمورفيمات التى تعبر عن الأفكار الأساسية والبيئة الإنسانية على هذا النمط من العلاقة بين اللغات.

وحين توجد حالات من التشابه المطرد من هذا النمط بين الوحدات الصوتية للغات موضع التحليل فإنها لا يمكن تفسيرها بشكل مرض عن طريق تصادف التطابق الصوتى والدلالى لهذه الكلمات ولا عن طريق اقتراض لغة من لغة أخرى ولا عن طريق الاقتراض من لغة ثالثة.

والتفسير الوحيد المحتمل لهذا النمط من التشابه بين الرموز فى اللغات المختلفة هو تقرير وجود أصل مشترك للأنظمة اللغوية. وبهذه الطريقة يمكن التسليم بأن هذه النظمة تتفرع عن نظام مشترك تطور فى عدة اتجاهات.

وفى ضوء هذا التفسير يبدو أن العلاقات بين النظم الصوتية للغات من الناحية التاريخية - مثل تلك العلاقات التى أشرنا إليها آنفا - نتجت عن تغيرات حدثت للوحدات الصوتية الأصلية وبعد أن تفككت اللغة الأصلية إلى لهجات تحول الفونيم × فى هذه اللغة إلى الفونيم × فى لهجة ما وإلى الفونيم ي فى لهجة أخرى وإلى الفونيم ز فى لهجة ثالثة، وهكذا. ويتضح جليا عند مقارنة هذه اللهجات أن هذه الفونيمات تنحدر من أصل واحد.

وبتصنيف هذه الفونيمات إلى مجموعات تمثل ملامح صوتية يسهل أن نتصور أن التغيرات التى حدثت للفونيم الأصلى × فى اتجاهات متعددة يمكن أن تكتمل باستبدال ملمح أو أكثر بملمح آخر أو أكثر.

ومن السهل أن نرى - بافتراض حدوث مثل هذه التغييرات على الفونيمات الأصلية فى اللغة ل - إن فونيمات اللهجات أ و ب و جـ المنحدرة من هذه اللغات متقاربة صوتيا. وهذا هو ما يدل على تشابهها الذى يثبت تاريخيا.

ويحدث التغير فى الفونيمات الأصلية فى حالات معينة بحيث تحتفظ بكامل ملامحها دون استثناء. وبذلك تتميز فونيمات معينة فى تلك اللهجات التى قورنت بتطابقها الصوتى الذى يعكس كل ملامح الفونيم الأصلى(٢).

---

٢ نظام الترافق الصوتى بين اللغات ذات الأصل الواحد يحتوى أيضا على عناصر متطابقة بعضها مع البعض . وبالتالى من المحتمل أن يحتوى عنصران متطابقان فى لغات مختلفة على فونيمات متطابقة مما ينتج عنه تطابق تام فى الشكل . وفى هذه الحالة يمكن أن يحدث نوع من الشك فى الأصل الأول لهذه الأشكال المتطابقة وفى إدراجها فى فصيلة الوحدات المعجمية المتطابقة . وهذا ييسر تقديم افتراض بديل

وبذلك فإن "التشابه" بين الفونيمات المتقابلة التى تنحدر من أصل مشترك - إذا كانت هذه الفونيمات ترجع إلى وحدة فونولوجية مشتركة - يتراوح بين التطابق التام والاختلاف الكبير فى كل الملامح الصوتية (وهذا يفترض إبدال ملمح أو أكثر من الملامح الأصلية).

ومن منطلق هذا التفسير يجب أن تدل كلمة "تشابه" على التوافق المطرد بين الفونيمات لا على التماثل أو الاختلاف فى الشكل الصوتى للرموز فى اللغات المختلفة التى تنحدر من أصل مشترك.

وفونيمات اللغات ذات الأصل المشترك التى قورنت متشابهة صوتيا. وهذا يعنى أنها تتطابق فى كل ملامحها أو أنها تختلف فى ملمح أو ملمحين. وهذا هو ما يحدد تقاربها الصوتى.

وتدل هذه الوحدات الصوتية المتقاربة التى تنحدر من وحدات فونولوجية مشتركة دلالة واضحة على التشابه بين رموز اللغات المختلفة المقارنة. وهذا التشابه الذى ثبت تاريخيا هو الذى يساعد على الجزم بأن هناك أصلا مشتركا لهذه اللغات.

ومع ذلك يمكن لهذا النوع من التشابه بين اللغات ذات الأصل المشترك أن تؤثر فى الفونيمات ذات المظهر المتباين المشتركة فى قليل جدا من الملامح المميزة.

والتشابه بين هذه العناصر بمعنى التطابق المطرد بينها يمكن أن يثبت من الناحية التاريخية ، ولكن الفضل يرجع إلى الأشكال التى تمتزج فيها هذه العناصر مع غيرها من العناصر التى تتميز عنها بالحد الأدنى من الملامح وإن كانت تتطابق معها صوتيا.

حول ظاهرة الاقتراض بين لغتين أو اقتراض لغتين من لغة ثالثة .

وليس هناك معيار شكلى ييسر التوصل إلى حل قاطع لهذه المشكلة . ولكن طول الفونيمات فى الكلمات التى أجرى عليها البحث يصلح أساسا لتحديد إمكانية تقديم حل أو آخر . ويحتمل أن تكون الكلمات غير القابلة للتحليل مقترضة . وعلى الجانب الآخر يجعل التركيب الفوتولوجى لهذه الوحدات المعجمية اعتبار كونها مقترضة من لغة أخرى ويفسر توافقها الفونولوجى . ومن المحتمل أن يحتوى هذا النوع من الكلمات على فونيمات لها مثيل فى اللغة المقابلة . وكلما طالت الكلمات قل احتمال كونها أصلية أو أن لها مثيلا مطابقا من وجهة نظر الدراسات الصوتية . وعلى هذا الأساس ينبغى أن نعتبر أن الكلمات الهندوأوربية ونظائرها الكارتيفالية هى تطابقات معجمية مأخوذة من النموذج المعجمى القديم، وليست افتراضات .

وبدون هذه العناصر الأخيرة يصعب بل يستحيل أن نتكلم عن "التشابه" أى عن التطابق المطرد بين العناصر الدالة في اللغات المختلفة التى يمكن – فى التحليل النهائى – أن تكون ذات أصل مشترك.

إذن يمكن أن نقبل نظريا وجود لغات ذات أصل مشترك أو تكون – بكلمات أخرى – نتاج تفرق المجتمع اللغوى الذى يصعب تحديد أشتاته. ويصعب تحديد ذلك لأن ما نفتقده فى هذه اللغات هو التشابه الصوتى الواضح بين رموزها ويمكن أن يكون الأصل المشترك لهذه اللغات بعيدا فتكون العلاقة بينها آنئذ نتيجة للتغيرات الكبيرة أو التبديل الكامل أحيانا للملامح المميزة فى الأصل اللغوى(٣).

وبما أن بعض الحقب التاريخية تشهد اختفاء عدد معين من الكلمات من المفردات أساسية يمكن أن نتخيل أن كل الكلمات والعناصر النحوية المشتركة أساسا قد سقطت فى فترة ما من فترات تاريخ اللغات ذات الأصل المشترك. وعندئذ يستحيل الكلام عن وجود أى علاقة بينها.

والعلاقة القائمة على التطابق المطرد بين فونيمات اللغة المختلفة – وهو تطابق يعول عليه عند تقرير أن هذه اللغات ذات أصل مشترك – يمكن أن يبرهن عليها بالكلمات المعروف أنها مقترضة. ويمكن أن يكتشف التطابق المطرد أحيانا فى الأنظمة الفرعية لنفس اللغة عند مقارنتها بلغة أخرى (أو بمجموعة من اللغات).

ويفرق عموما بين هذه النظم بناء على كلماتها ووحداتها الصرفية. فالنظام الفرعى س ١ (المحدد فونيمات متطابقة تشير إلى أصل مشترك) يحتوى بالضرورة على كلمات ووحدات صرفية ولواصق نحوية أساسية. فى حين نجد أن أبرز ملامح النظام الفرعى س ٢ هو الكلمات الثقافية التى تختلف باختلاف عصورها.

---

٣ – مشكلة توافق الفونيمات فى أنظمة متباعدة صوتيا – وإن كان يمكن إثبات تفرعها عن أصل واحد – ينبغى أن تعزى أساسا إلى وجود علاقة فونولوجية متبادلة بين المجموعات الصوتية المتمثلة فى الرموز ونظائرها الدلالية دون اعتبار للتشابه أو الاختلاف الصوتى الظاهرى . ويمكن أن يتم ذلك بتصنيف عدد كبير من الدالات المتقاربة فى مجموعة من اللغات . وهذا يمكن تحقيقه عن طريق استخدام بعض برامج الكمبيوتر .

من الواضح أنه يمكن أن نضع قائمة بالوحدات الدلالية المشتركة بين كل اللغات والتى تميز الوحدات المعجمية فى النظام الفرعى س ١ والتى لا توجد فى النظام الفرعى س ٢.

فى الحالة الأولى تقترض هذه التطابقات أصلا مشتركا للأشكال المتجاورة التى تنحدر من أصل أولى، فى حين تعزى التطابقات المطردة للفونيمات فى الحالة الثانية إلى ظروف اقتراض لغة من لغة أخرى.

وكثيرا ما تكتشف عدة أنظمة فرعية من التطابق بين عناصر اللغات المختلفة، وهذا يسير استنتاج أن لغة ما اقترضت من لغة أخرى فى فترات مختلفة. ومع ذلك فلن يوجد فى النظام الفرعى س ١ إلا شبكة فردية من التطابق مع اللغات الأخرى تتوافق فيما بينها فونولوجيا.

وكقاعدة عامة يحتوى س ٢ على عدد من الأشكال أقل مما يحتويه النظام الأساسى س١. وهذا يعنى أنه يمكن عزل عناصر النظام س ٢، أى العناصر المقترضة. ورغم ذلك فإن النمط س ٢ من كل الأنظمة الفرعية يمكن أن يحتوى فى الأمثلة الفعلية على عناصر أكثر مما يحتويه النمط س ١ من النظام الأساسى. وهذا لا يمنع أى نظام فرعى من النمط س ٢ من أن يحتوى على عناصر أقل من الوحدات المعجمية ومشتقاتها التى يحتوى عليها النمط الأساسى س ١. وتعكس مجموعات الوحدات المعجمية فى النمط س ٢ من النظام الفرعى الاقتراض من لغات مختلفة أو من لغة واحدة فى فترات مختلفة (٤).

من الممكن إذن أن نعزل من أية لغة مجموعات معجمية من هذا النمط لنؤكد التطابق الفونولوجى بينها وبين لغات أخرى مصنفين بذلك مفرداتها إلى أنظمة فرعية. وستحتوى بعض هذه الأنظمة الفرعية على ما يسمى بالكلمات الأساسية التى تظهر التطابق الفونولوجى مع بعض اللغات الأخرى. ويشير هذا التطابق عندئذ إلى وجود أصل مشترك لهذه اللغات.

---

٤ - يمكن أيضا التفريق بين النظم الفرعية للاقتراض من لغات مشتركة والاقتراض من لغات غير مشتركة . وتظهر فى الحالة الأولى بعض النظم الفرعية لعلاقات متبادلة بين اللغة المقرضة على فرض وجود نظام فرعى أولى للعلاقة س ١ بين لغتين ، هذا النظام الفرعى يعكس الأصل المشترك بينهما . وفى الحالة الثانية لن يكون هناك نظام فرعى للعلاقة المتبادلة من النمط س ١ بين اللغتين .

وسيحتوى الجزء الأكبر من المفردات – الجزء المتبقى بعد عزل المجموعة الأساسية – على الكلمات التى ظهرت فى اللغة فى وقت لاحق بعد أن انفصلت اللغة عن أصلها واحتكت بلغات أخهرى على مر التاريخ.

وقد تسبب الاتصال المستمر والمكثف بين اللغات فى عديد من الحالات فى انتقال المفردات من لغة إلى أخرى خلال فترات طويلة من ثنائية اللغة. ومن الممكن أيضا أن يكون قد تم اقتراض أنماط من العلاقات بين الكلمات والعبارات أو بين الوحدات الصرفية والكلمات. وكل هذا يؤدى بطبيعة الحال إلى أن تتشابه تراكيب اللغات المتواصلة. وهذا التشابه التركيبى يمكن أن يعرف بأنه « علاقة ثانوية مكتسبة » (انظر علاقات التغير التاريخى بين اللغات تبعا للمفهوم الذى يعطيه تسير يتلى لهذا المصطلح allogenetic ١٩٦٨).

وعلاقات التغير التاريخى allongenetic يمكن وجودها بوضوح بين حين يوجد تشابه بين قواعد توليد النظم اللغوية المتصلة وحين يظهر نمط مشترك لتوليد الأنظمة تتجلى فيه الأنظمة الأولية لهذه الأنظمة المتصلة. وهذا النوع من الاتحاد فى توليد الأنماط يسهم فى خلق تشابه فى الطراز اللغوى بين الأنظمة المتصلة أكبر من التشابه الفردى مع النظام الأول الذى انحدرت منه.

وليس هاما فحسب أن نأخذ فى اعتبارنا علاقات التغير التاريخى هذه بل أيضا من المهم أن نأخذ فى اعتبارنا مجموعات اللغات الجغرافية التى اجتمعت فى « وحدة لغوية » تضم لغات ذات أصل مشترك ولغات أخرى ذات أصول شتى.

فاللغات ذات الأصل المشترك يمكن أن تكون قد جاءت كلها من أصل واحد، وبذلك تكون قد تجمعت من جديد بعد فترة طويلة الانفصال، والفضل فى ذلك يعود إلى عوامل التوحيد الجغرافية (مثل لغات اتحاد البلقان أو لغات الحدود فى المنطقة المكونة من لتوانيا وبولندا وروسيا البيضاء الخ. انظر ياكوبسون ١٩٧١). ويمكن التفريق بين ثلاثة أنواع من اتحاد اللغات جغرافيا : اتحاد اللغات ذات الأصل المشترك (مثل الاتصال بين اللغة الاسكندنيافية والانجليزية القديمة)، واتحاد اللغات التى ليس لها أصل مشترك (أوزبك وتاچيكى : انظر بوليبانوف ١٩٦٨)، واتحاد اللغات ذات الأصل المشترك مع غيرها من اللغات المتعددة

الأصول، وهى تمثل معا اتحاديا لغويا فريداجدا (مثل العلاقة بين اللغات الأرمينية والأوسيتيكوالكارتيبالية).

٣ - مشكلة النظام اللغوى المشترك وطرق إعادة الصياغة. وتحقيق طرز النماذج المعاد صياغتها.

حين يفسر تطابق الفونيمات بوجود نظام لغوى أولى يمثل أصلا مشتركا للغات فإن هذا التفسير يفترض أن ذلك النظام قد أعيدت صياغته. ولتحقيق هذا الهدف لابد من دراسة نشأة ومسار التغيرات التى طرأت على هذه اللغات التى ثبت تاريخيا أنها ذات أصل مشترك.

ومقارنة اللغات التى تركز على التطابق بعد الفونولوچى المطرد تتضمن منطقيا "أعادة صياغة نموذج للغة". ولقد خلقت لنا التعديلات التى طرأت على هذا النظام أنظمة لغوية ثبت اتصالها تاريخيا. ومع ذلك فإن مقارنة اللغات ذات الأصل المشترك التى لا تركز على إعادة صياغة النظام الأولى لا يمكن اعتبارها مرحلة محددة فى تاريخ هذه اللغات (انظر ساسور ١٩١٥ ص ٢٩٩).

يمكن إعادة كتابة تاريخ اللغات ذات الأصل المشترك تحت عدة ضوابط. بداية كل الختلافات فى التراكيب اللغوية ذات الأصل المشترك ينبغى أن ترد إلى النماذج الأولية العامة. ثم بعد ذلك يكون من الضرورى إعادة كتابة المسارات التى سلكتها هذه اللغات منذ نشأتها وعبر تطورها من مراحلها الأولية وحتى مراحلها الحالية.

ويثير هذه الاتجاه فى مقارنة اللغات وإعادة ترتيب علاقاتها مشكلة إعادة صياغة النظام اللغوى الأولى والطرق التى ينتهجها علم اللغة (أنظر بيرنبوم ١٩٧٧).

يمكننا أن نفترض أن النظام اللغوى الأولى الذى أعيدت صياغته صياغة لغوية ينتج تقريبا نظاما لغويا سبق وجوده زمانا ومكانا وتحلل فيما بعد إلى لهجات ذات أصل تاريخى واحد.

وتيسر مقارنة هذه اللهجات استنتاج نماذج تركيبية تعيد إنتاج النظام اللغوى المفترض وجوده نظريا.

وخلال عمليات إعادة الصياغة يبرز مغزى فريد تتسم به طريقة إعادة الصياغة الداخلية، فهذه الطريقة تفترض أن عناصر النظام اللغوى مترابطة وترجع إلى التراكيب الأولية عندما تتسم بأنها يمكن إحلال واحد منها محل الآخر.

وكل مستوى من مستويات اللغة يمكن اعتباره باقة من النظم الفرعية المرتبطة بعضها ببعض. فعلى المستوى المعجمى - طبقا للملامح الدلالية المشار إليها أنفا - يمكن استخلاص كل مجموعات الكلمات الأساسية التى تعبر عن الأفكار الأولية المشتركة بين كل الثقافات. أما من حيث الشكل فإن طبيعة هذه الكلمات تتحدد بالعلاقة بين اللغات ذات الأصل المشترك التى تمثل هذه الكلمات جزءا منها. وداخل النظام يمكن تمييز هذه الكلمات التى استخصلت لمواقف معينة بملامحها الفونولوجية والصرفية التى تفرق بينها وبين غيرها من مجموعات الكلمات الأساسية. وهذه الملامح الواضح أنها مماثة - تصلح أساسا لإعادة الصياغة الداخلية ؛ فهى تجعل من الممكن إعادة تشكيل هذه الفترة من التاريخ اللغوى التى كانت فيها جزءا من القاعدة وليست من الشذوذ، القاعدة التى انتجت خطوات منتجة. وتبدو هذه الخطوات من وجهة نظر علم اللغة التاريخى وكأنها محدثة.

واستخلاص مثل هذه الأنظمة الفرعية المماثة يمثل أحد أعمدة مقارنة اللغات.

وتبرز مشكلة المنهج عند إعادة صياغة النماذج اللغوية الأولية. ما مدى واقعية النماذج المعاد صياغتها ؟ إلى أى مدى تتطابق مع النظام اللغوى الأولى الذى تفرعت عنه لهجات وجدت فى وقت ما ومكان ما ؟

إذا قبلنا افتراض كون إعادة الصياغة هذه حقيقية واقعة فإنه يمكن أيضا أن نقبل بعض المبادئ المنهجية المعينة التى تؤدى دورا فاصلا فى الأبحاث المقارنة والتاريخية. وهذه المبادئ وثيقة الصلة بمناهج دراسة الطرز اللغوية (Linguistic typology) وبمناهج اكتشاف الكوينات اللغوية (linguistic universals) (وهى أيضا تسمى "ferquentals," كما سماها سيريبر ينيكوف ١٩٧٤). بعد ذلك يمكننا أن نعتبر أن اللغويات التاريخية والمقارنة التى أرست روابط الصلات بين مجموعات من اللغات والتى تفترض أن نماذجها الأولية قد أعيدت صياغتها تتحد مع المنهج الذى يسعى لاكتشاف أنماط اللغات والكونيات اللغوية.

ونماذج النظام اللغوى الأولى - فى كونها قد أعيدت صياغتها وفى كونها قد أفرزت لغة سادت فى وقت ما ومكان ما - ينبغى أن تتطابق مع القواعد الكونية التى أرسيت مبادئها

على أسس طرازية. وليس مهما على الإطلاق أن تكون هذه القواعد قد أرسيت بطرق استقرائية أو استنباطية من عدد معين من تراكيب لغوية مختلفة تمت مقارنتها.

وإعادة الصياغة التى تتعارض مع الكونيات اللغوية لا يمكن بالطبع أن تؤخذ على أنها نتاج نظام لغوى وجد فى فترة من فترات التاريخ (٥). ومع ذلك فإنه إذا تطابقت النماذج المعاد صياغتها مع الكونيات اللغوية الثابتة في الدراسات الحالية لن يكون هذا كافيا للجزم بوقوع إعادة الصياغة هذه، ولا لإثبات وجود نظام لغوى ملموس يؤخذ على أنه النظام الأولى لمجموعة من اللغات ذات الأصل المشترك. وهناك شرط آخر على قدر هذا الشرط من الأهمية. ويجب أن تتطابق النماذج المعاد صياغتها مع المادة الطرازية الوصفية أى مع أنماط التغيير العامة في التراكيب اللغوية فى وقت معين أثبتته دراسة الحقائق الملموسة فى تاريخ كل لغة على حدة (٦).

ويمكن أن نعتبر أن النماذج اللغوية المعاد صياغتها "حقيقة"، بشرط أن يتوفر فيها معياران طرازيان، أحدهما أن تتطابق مع الكليات الطرازية الوصفية، والثانى أن تنسجم مع الكليات الطرازية التاريخية، أى مع أنماط التغير والتعديل العامة فى اللغات. وهذان المعياران – فى غالب الظن – ضروريان وكافيان للجزم "بحقيقة" النماذج المعاد صياغتها بمعنى التراكيب التى تعيد إنتاج نظام سبق أن وجد فى الزمان والمكان.

يصبح التحقيق الطرازى بذلك أحد الأسس فى استنباط التراكيب اللغوية الأولية، وهو ضرورى لإثبات احتمال وقوعها.

ويمكننا أن نعتبر أن "قواعد الحساب" التدريجية التى تستخدم للتوصل إلى اللهجات الثابت تاريخيا تفرعها من نظام لغوى أولى هى فى الحقيقة مصوغة كوصف لطريقة نشأة

---

٥ – لا يمثل علم اللغة الطرازى وسيلة لإثبات احتمال إعادة صياغة النماذج اللغوية، ولكنه يمثل غالبا الأساس لاستنباط حلقات الربط المفقودة بين التراكيب اللغوية . على سبيل المثال ليس من الممكن أن نعيد صياغة بعض الملامح المميزة فى كثير من الحالات (يحدد ملمح المتقطعية للفونيمات الحلقية فقط) . وإنه لمن المستحيل أن تعاد صياغة سلسلة الملامح المميزة كاملة دون الرجوع إلى مجالات علم اللغة التاريخى والمقارن أو بدون استخدام بيانات طرازية لملء فراغات بعض السمات التى لا يمكن إعادة صياغتها .

ويوضح المثال الذى يضرب بقبول سوسير للحروف الحلقية من وجهة نظر العلاقات الصرفية الصوتية المتبادلة الطبيعة المحدودة لإعادة صياغة الملامح الفونولوجية المتباعدة دون الاستعانة بالدراسة الطرازية . ومن الزيف أن نظن أن سوسير أعاد صياغة أوثق ملامح الحروف الحلقية التى هى متقطعية أو غير متقطعية (أى قيمها الصوتية) بالإضافة إلى عوامل تأثيرها فى الصوائت

المجاورة . والدراسات التى أجريت على الحروف الحلقية فيما بعد لا تعدو أن تكون محاولات لإتمام هذه السلسلة

وتغيير هذه اللجهات ابتداء من مرحلة اللغة المشتركة وحتى الفترة التاريخية.

وهكذا تتم إعادة صياغة النظم الأولية بمقارنة الأنظمة المترابطة تاريخيا وبالتحرك صوب الوراء من إحدى مراحل اللغة إلى مرحلة أخرى أسبق منها بشرط أن تثبت هذه المراحل طرازيا.

ويستمر هذا التحرك الخلفى حتى نصل إلى مرحلة يمكن تصور هيكلها ويمكن أن يستنبط منها كل النظم اللغوية التى ثبت ترابطها.

ويصاحب هذا التحرك الخلفى افتراض أن عددا معينا من التحويلات المحتملة قد حدثت على المستوى الطرازى. وهذه التغيرات هى التى تحدد « الحساب التاريخى » للنظام. وهى التى تجعل من الممكن الانتقال من النظام الأولى إلى المراحل اللغوية التالية. وهذه المراحل التالية تعد بمثابة نقطة الذروة بالنسبة للتحويلات التركيبية للنظام الأولى.

ويمكن – باستخدام هذه التحويلات التاريخية – أن نصف طريقة احتساب النظم اللغوية المترابطة من نماذج تركيبية أولية.

وهذه التحويلات التاريخية تجعل من الممكن أن نفترض أشكالا للغة من تركيبات نظرية (تعتبر الأصل الأول لهذه الأشكال حيث إنها تسبقها تاريخيا)، ولهذه التحويلات مثل تحويلات النحو التوليدى قوة تفسيرية حيث إن التحويلات المختلفة تسمح بالتوصل إلى البنية السطحية الناتجة من التركيبات الأساسية المفترضة نظريا، وتحدد هذه التركيبات الأساسية بنية اللغة المعقدة.

من الملامح وليست تقدم اية تعديلات جوهرية . ويمكن تفسير قيمة ما توصل إليه سوسير بأن طبيعة سلسلة الملامح المميزة للفونيمات المعادة صياغتها ناقصة . وهو أمر لا يمكن تفاديه فى إعادة الصياغة الداخلية دون أخذ البيانات الطرازية فى الحسبان .

وقد أمكن الحصول على تفاصيل تتعلق بطبيعة وحالة الحروف الحلقية منذ طبق المقارنات الطرازية على اللغات .

٦ – ينبغى أن تقوم الدراسات الطرازية التاريخية للتحويلات على المستويات المختلفة على بيانات تاريخية محققة. فعلم "النحو التاريخى" يأخذ فى حسبانه فقط التحويلات الثابتة تاريخيا . ولذلك فمن المستحيل أن تتم دراسات تاريخية أو مقارنة دون أخذ الحقائق التى اكتشفها علم النحو التاريخى فى الحسبان . فقد قام علم النحو التاريخى أساسا على متن المواد اللغوية الموثقة . وهذا يحدد البيانات من أقدم مراحل تطور اللغة . ولذلك فمن الضرورى أن نستبدل البيانات باستخدام الكتابة الصوتية التى تثير مشكلة العلاقة بين الكتابة والبنية الفونولوجية للغة ومشكلة مدى إنعكاس الفونيمات وتراكيبها فى نظم الكتابة . ودراسة العلاقة بين الكتابة واللغة هى بالتالى مرحلة إجبارية لوضع نظرية علم اللغة التاريخى .

ووصف التغيرات التاريخية عن طريق «قواعد التحويل» هو فى الحقيقة عد المراحل المتعاقبة لتطور اللغة مرحلة مرحلة. وكلما ضاقت الفجوة الزمنية بين تلك المراحل كان وصف تطور وارتقاء اللغة أدق وأشمل.

وبهذه الطريقة يمكن أن تتشعب القاعدة التى تمكننا من استخلاص مرحلة محققة من أخرى مفترضة من مراحل اللغة إلى سلسلة من القواعد المتتالية. وتساعد هذه القواعد على التوصل إلى النتيجة النهائية لهذه التحويلات، وهى النتيجة التى تمثل نهاية سلسلة الخطوات المتتالية من النظام الأولى إلى النظام المحقق.

ومن أمثلة ذلك أن تحويل الفونيم x إلى الفونيم y (x يمثل مرحلة مفترضة ولا يمثل مرحلة محققة لفونيم واحد) يمكن أن يعرض فى سلسلة من التحويلات :

$x \longrightarrow x^1$

$x^1 \longrightarrow x^2$

....

$X^{n-1} \longrightarrow X^n$

$n^n \longrightarrow X^y$

وبالمثل فإن التواليات التى توضح كيف اختفى الفونيم P يمكن أن تفسر بسلسلة من التحويلات طرأت على مجموعة من الملامح المميزة فتغير منها أحد الملامح :

$P \longrightarrow P^h$

$P^h \longrightarrow F$

$F \longrightarrow h$

$h \longrightarrow \Phi$

وقد أوضح ياكوبسون (١٩٥٧ وأيضا همسليف ١٩٢٨) ضرورة أخذ الطراز الحالى للغة فى الاعتبار كى نصل أى إعادة صياغة لغوية. وتفرض علينا هذه الضرورة أن نراجع بعناية المناهج التقليدية لنحو اللغات الهندو - أوربية المقارن القديم، كما أنها تشجعنا على تقديم تفسيرات جديدة للعلاقات بين اللغات يؤصل فيها النظام بناء على معايير تركيبية وطرازية وبناء على مبدأ الإحصاء التاريخى.

ودراسة اللغات من وجهة نظر تركيبية وطرازية ومن منظور الكليات اللغوية تمثل أحد الاتجاهات الحيوية فى المرحلة الحالية من علم اللغة.

وينبغى بالتالى أن يمكن إعادة النظر فى كثير من الدراسات اللغوية التقليدية للغات الهندو - أوربية التى تعتمد على إعادة الصياغة المقارنة (الخارجية) وإعادة الصياغة الداخلية للغات الهندو - أوربية نفسها. وينبغى أن نطرح أفكارا متقدمة لموضوع أصل اللغات الهندو - أوربية بما يتيحه لنا علم اللغة الطرازى typological linguistic.

ويمكن أن يؤدى تحليل تراكيب اللغات الهندو - أوربية المعاد صياغتها تقليديا ومدى انسجامها مع النظم المحتملة طرازيا إلى إعادة فحص عميق لهذه التراكيب.

ودراسات اللغات الهندو - أوربية المقارنة القديمة جوانبها بسيطة ومحدودة. ولم يكن النموذج الذى افترضته للغات الهندو - أوربية إلا نتيجة مقارنات ظاهرية لعدة نظم مترابطة. وبالطبع فقد ملئ هذا النموذج - فى نظريات معينة - بإعادة الصياغات الداخلية باستخدام نمط محدد من العلاقات داخل إطار نظام واحد. ولكن احتمال وجود هذا النموذج من الناحية اللغوية لم يدرس بطريقة واضحة عن طريق مقارنته بالتراكيب اللغوية المحتملة طرازيا. وقد أدى ذلك - فى دراسة اللغات الهندو أوربية - إلى افتراض نظام لغوى أولى لا يمكن أن يكون نظاما لغويا حقيقيا لأنه يناقض عددا من الحقائق اللغوية المعاصرة.

٤ - مبادئ إعادة الصياغة الدلالية.

لا تفترض إعادة صياغة لغة ما إعادة تكوين الفونيمات وعلاقاتها التصريفية فحسب ولكنها أيضا تدعو إلى إعادة تكوين ترتيب الفونيمات ومركباتها مما يعد أساسا لتكوين الوحدات الصرفية والكلمات ولتركيب الكلمات بحيث تعبر عن معنى نحوى أو معجمى. وحينئذ لا يكون قد تم إعادة صياغة مستوى الشكل فحسب بل المضمون أيضا أى معنى الشكل النحوى والتراكيب.

تتمثل نقطة البدء فى إعادة صياغة الشكل فى نظام التوافق الفونولوجى، حيث يمكن أن نستخلص منه أشكالا ونماذج أصلية يمكن تحقيقها طرازيا.

أما بالنسبة لإعادة الصياغة الدلالية فإن إعادة تكوين النماذج الأصلية يصبح أمرا معقدا، إذ ليس لدينا معايير لاستنباط الجمل الأولية، أو بتعبير آخر ليس لدينا معايير

خاصة بمستوى المضمون لوحدات اللغة الأولية أى الكلمات وتراكيبها.

وأبسط الحالات التى تسير فى خط متواز مع إعادة صياغة الشكل هى إعادة صياغة مضمون الكلمات التى تتطابق فى الشكل. وهى دلالة مشتركة بين مجموعة من الكلمات وتمثل الخلاصة النظرية لكل الدلالات. دعنا ندرس قضية الدلالة عند وجود علاقة تعارض دلالى. وهذه العلاقة توضحها الكلمات مثل "يعطى" ومقابلها "يأخذ" أو "يبيع" ومقابلها "يشترى". وإعادة صياغة هذه العلاقة تفترض وجود لفظة دالة أصلية مستنبطة تسرى على الكلمات المتطابقة فى الشكل. وتتوسم الملامح الدلالية لهذه اللفظة الدالة معنى بعينه حين ترد فى شكل معين آخر - أى المقابل للأول - حين ترد فى شكل آخر. وبهذا تكون الملامح عنصر محايدا. ويمكن أن تعزى علاقة التعارض مثل "يعطى / يأخذ" إلى لفظة تدل على نوع من التبادل يحتوى على حدثى العطاء والأخذ (راجع فكرة الحياد فى علم وظائف الأصوات "فونولوجى" وعلم الصرف).

٥ - النظام اللغوى المعاد صياغته من حيث المكان والزمان.

يفرض النموذج اللغوى الذى يعكس نظاما لغويا أصليا سبق وجوده أن نحدد عند إعادة صياغته إطارا تاريخيا لوجوده وتحويلاته وتكاثره.

ويفرض تحليل اللغة الأولى بوصفها نظاما سبق وجوده زمانا ومكانا أن ندرس ديناميكية تطورها وارتقائها. كما تفرض أن نذأخذ فى حسباننا المراحل التاريخية الثابتة علميا وحتى أحدث مراحل ما قبل تفرقها إلى لهجات وتكوين هذه اللهجات فى شكل وحدات لغوية مستقلة.

ويمكن أن نقسم المراحل التاريخية للعديد من الملامح الخاصة بأصل اللغات الهندوأوربية التى أعيدت صياغتها عن طريق دراسة اللغات الهندوأوربية القديمة فى شكل جامد لا يتسم بالمرونة.

ولا تنطبق بعض الملامح المعينة لأصل اللغات الهندو أوربية التى أعيدت صياغتها بوصفها نظاما أوليا على آخر مراحل تطورها وارتقائها، أى المرحلة التى سبقت تفرقها إلى لهجات. بل إنها تعكس بعض السمات التركيبية لمرحلة سابقة على تلك المرحلة. وهذا ما يفسر بعض نقاط الاختلاف بين المختصين فى النحو المقارن فيما يتعلق ببعض تراكيب اللغة التى قد تبدو متناقضة (انظر على سبيل المثال مناقشة عدد الأصوات الحلقية فى

اللغات الهندو أوربية حيث يستطيع أصحاب كل رأى أن يقدموا دلائل ثابتة على صحة ما ذهبوا إليه).

ورغم أنه يمكن إرجاع اختلاف الآراء فى طبيعة مثل هذه التراكيب إلى اختلاف مراحل تطور وارتقاء اللغات نفسها، فإنه يمكن تفسير كثير من هذه التراكيب المثارة على أنها تكمل بعضها بعضا من الناحية التاريخية وتعزى فى الوقت نفسه إلى مراحل مختلفة من تطور وارتقاء هذه اللغات.

ينبغى أن يستبدل العرض الجامد الثابت للغات الهندو أوربية بنظام لغوى ديناميكى تاريخى يتسم مثلما يتسم تاريخ كل اللغات المحققة بالديناميكية التى تلائم تطورها وارتقاءها.

ويستلزم تاريخ النظام اللغوى الأولى هذا أن يحدث تطور داخلى للنظام نفسه وأن يتصل جغرافيا بأنظمة أخرى اتصالا ناتجا عن الاحتكاك والتداخل. وفى هذا المقام سنقوم بتوصيف ظاهرة الاقتراض التى قامت بين اللغات الهندو أوربية وغيرها من اللغات حيث اقترضت اللغات التى احتكت باللغة الهندو أوربية منها واقترضت اللغات الهندو أوربية منها.

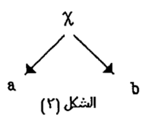
وينبغى أن ننظر إلى النظام اللغوى المعاد صياغته مثله فى ذلك مثل أية لغة حقيقية بوصفه نظاما تواجد فى شكل عدد من اللهجات المرتبط بعضها بالآخر. ويمكن أن يفسر تفرق اللغة الأصل إلى لهجات مترابطة تاريخيا بوصفه تفرقا تطوريا واندثارا للهجات المماتة التى كانت تفرعت عن النظام اللغوى الأولى المشترك. وبذلك نرى فى لب النموذج الأولى المعاد صياغته لهذا النظام أنظمة فرعية ملموسة يتعارض بعضها مع بعض فى ملامح فونولوجية وصرفية معينة تعكس التفرق اللهجى للغة المعاد صياغتها.

ويفسر هذا التفرق داخل النموذج الذى أعيدت صياغته ليلائم فترة تاريخية بعينها عن طريق الثنائيات الوصفية التى تعكس التقابل بين المناطق اللغوية وبين اللهجات داخل نظام اللغة المشتركة فى الفترة الحالية. ويمكن تفسير هذه التقابلات اللهجية بدورها من وجهة نظر تاريخية أى من مسار تاريخ هذه اللغة (ستبانوف ١٩٧٩).

وفى ضوء هذا التفسير لتفريق وتشعب النظام اللغوى الأولى إلى لغات مترابطة وغير

مترابطة فإن هذا التفريق والتشعب ينبغى أن يؤخذ على أنه نسخ مكررة للتراكيب الأولية تطور كل منها فى اتجاهات مختلفة.

فكل عنصر x فى النظام اللغوى الأولى صار ا، ب فى لغتين مختلفتين ولكنهما من أصل واحد. يمكن تصوير ذلك بيانيا فى الشكل ٢.



الشكل (٢)

ويأتى هذا التغير لعنصر من عناصر اللغة الأولى إلى عناصر أخرى فى اللغات التى تفرعت عنها كما أوضحناه فى الشكل ٢ أعلاه عن طريق تكرار العنصر الأولى فى اللهجات المتفرعة عن اللغة الأصلية. وتتحول بالتالى تلك العناصر المكررة إلى وحدات ثابتة تاريخيا.

$$\chi \Rightarrow \chi \mid \chi$$

$$\downarrow \quad \downarrow$$

$$a \quad b$$

الشكل (٣)

يوضح هذا الشكل تطور التراكيب تاريخيا من التركيب الأصلى المستنبط. وهو لا يسرى على العناصر المستخلصة من النظام فقط بل يسرى على النظام بأكمله.

والشكل الذى يوضح شجرة النسب التى فسرت بها الدراسات اللغوية المقارنة التقليدية نشأة اللغات الفردية من لغة أم، هو فى الحقيقة نموذج يقدم الحلقات النهائية للتحولات التى طرأت على النظام الأولى. وهو يعكس بالتحديد العلاقات بين الوحدات التى سبق تكوينها ويبين الاتجاهات التى تطور فيها النظام الأولى فقط.

ونموذج شجرة النسب لا يتعارض مع "نظرية الموجة" التى تعكس ظهور وانتشار المبتكرات فى اللغة ولكنها لا توضح النتائج النهائية لتشعب اللغة إلى لهجات منفصلة.

وبالتالى لا يوجد مبرر لمعارضة هذه الأشكال البيانية لتطور التراكيب اللغوية إذا ما أردنا أن نتعرف على ميزات ومثالب كل منها. لأن كلا من هذين الشكلين البيانيين يشوبه

بعض النقص. فهما يعكسان جوانب متعارضة لأصل وتطور التراكيب من تركيب مشترك. ولذا فإنه من الضرورى أن ندمجهما معا وأن نعتبرهما متكاملين كى نفسر التحويلات التاريخية للغة.

ويستخدم علم اللغة التاريخى المقارن فكرة النظام اللغوى الأولى على أنه مجموعة من اللهجات المختلفة التى تواجدت زمانا ومكانا. ويمكن بذلك أن نقيم علاقات بين هذا النوع من علم اللغة ونظرية العلائق الشكلية بين اللغة (دراسة الطرز التركيبية ومشاكل الكليات اللغوية) بالإضافة إلى التوازى بين النظرية ومناهجها وبين نظرية علاقات اللغة من حيث المكان (الجغرافية اللغوية، وعلم اللغة المكانى ونظرية احتكاك واتصال اللغات)[٧].

٦- البحث فى الموطن الأول للغة الأصل وطرق هجرة أهل اللهجات: مشكلة امتزاج الثقافات ذات الأصل المشترك المعاد صياغتها طبقا للبيانات اللغوية ودراسات الآثار.

---

٧ - فى هذا المقام تمثل الروابط بين علم اللغة التاريخى والدراسة البنيوية للهجات عند فينريتش أهمية كبرى (انظر فينريتش ١٩٥٤) . فالنظم التاريخية عند فينريتش هى نتيجة إعادة صياغة النظام الذى تفرعت عنه اللهجات . وعلم اللهجات المقارن - فى ضوء هذا التفسير - يمس مشكلة إعادة الصياغة التاريخية بالطريقة التى يتعامل بها معها علم اللغة التاريخى والمقارن . وتنبع "النظم التاريخية" فى دراسة علم اللهجات التركيبى من دراسة التاريخ أكثر مما تنبع من الدراسة المرحلية للغة . ولذلك لا يمكن أن تكون نظاما تواصليا لأشخاص يتكلمون هذه اللهجات . والذى يسمح لمتكلمى اللهجات المختلفة أن يفهموا بعضهم بعضا ليس تمكنهم من النظام التاريخى بقدر ما هو معرفتهم بقواعد التحول من لهجة إلى أخرى، وهى قواعد تستلزم فهم العلاقات بين اللهجات على مختلف المستويات . ومع ذلك فالأشخاص الذين يتكلمون لهجة أخرى قد يقومون هذه العلاقات ، إذ أنهم يعتبرونها تحريفا للهجتهم . ومعرفة قواعد التحول من لهجة إلى أخرى تساعد فى وضع معيار للتفريق بين اللهجات واللغات . فالأشخاص الذين يستخدمون لغات منحدرة من أصل واحد لا شك أنهم لا يعرفون العلاقات بين هذه اللغات وبالتالى لا يعرفون قواعد التحول من لغة إلى أخرى . فهذه اللغات بالنسبة لهم أنظمة مستقلة وقائمة بذاتها .

تتكون اللغات ذات الأصل المشترك نتيجة تفرق النظام اللغوى الأولى الذى هو نتاج العزلة التى حدثت بين متكلمى لهجات هذه اللغة. وانتشرت هذه اللغات بعدئذ فى حدود تاريخية معينة نتيجة لهجرة متكلمى هذه اللهجات. وذلك يستلزم افتراض أن النظام اللغوى الأولى انتشر داخل منطقة ذات حدود ثابتة وهى أقل حجما من المنطقة التى انتشرت فيها اللغات التى انبثقت عنها. ومن هذه المنطقة الأولى بدأت الهجرات فى اتجاهات شتى. ويعتمد انتشار وتوسع هذه المنطقة الأولى والتفكك التدريجى للمجتمع اللغوى أيضا على طبيعة الثقافة والأحوال الجغرافية والبيئية التى عاش فيها أهل اللغة الأم. وتحديد المنطقة الأولى للغة الاولية المعادة صياغتها وتحديد طرق الهجرة وتحركات القبائل التى تستخدم اللهجات المنبثقة عن تلك اللغة الأولى يشكلان الجوانب التاريخية والجغرافية لمشكلة تفكك المجتمع اللغوى

واستنتاج كون المنطقة الأولية التى قطنها مستخدمو النظام اللغوى الأولى محددة ومعينة قائم على بيانات طرازية خاصة إذا قورنت تلك المنطقة بالمناطق التاريخية الأخرى التى انتشرت فيها اللغات ذات الأصل المشترك. وتتمثل هذه البيانات فى الخطوات التاريخية المحققة. وهى انتشار اللغات ذات الأصل المشترك عن طريق هجرة الذين يتكلمونها إلى مناطق أكبر حجما. ويمكننا أن نحدد داخل هذه المنطقة الكبرى التى انتشرت بها اللغات ذات الأصل المشترك منطقة أقل اتساعا سكنها أفراد كانوا يستخدمون لهجات قديمة أقرب ما تكون إلى النظام اللغوى الأولى (انظر بارتولى ١٩٢٥، سابير ١٩٥٨، إيفانوف ١٩٥٨، شليرات١٩٨١).

ويبدو أنه كانت هناك منطقة محدودة نشأت فيها اللغات الهندو – أوربية التى انتشرت فى مناطق شاسعة من أوراسيا فى تلك الفترة التاريخية.

وسوف يسمح تحديد تلك المنطقة – وهولب مشكلة الموطن الأصلى للغات الهندوأوربية – بإعادة تصور هجرة الهندوأوربيين القدامى أى هجرة القبائل التى كانت تتحدث الهندوأوربية إلى تلك المناطق التاريخية التى احتلوها. وسييسر هذا أيضا تحديد ديناميكية العلاقات

المكانية بين اللهجات الهندوأوربية التاريخية.

وهذا يستلزم بادئ ذى بدء أن نضع تاريخا (ولو تقريبيا) للهجرات، ويمكن إنجاز ذلك بمقارنة الثقافات المعاد صياغتها طبقا لمعلومات لغوية وتلك التى أعيدت صياغتها طبقا لمعلومات الآثار، وهذه وهذه كلها ثقافات الذين كانوا يستخدمون النظام اللغوى الأصلى أو الذين كانوا يكونون مجموعات لهجية.

وبهذا تثار مشكلة مقارنة المعلومات اللغوية بالمعولمات التاريخية الحضرية (الآثار). ويثور التساؤل بشكل خاص حول إمكان مقارنة مجتمع لغوى بمجتمع آثارى.

ربما نظن أنه يمكن مقارنة نظام لغوى بثقافة آثارية إذا انتجت الثقافة الآثارية نفس الحقائق التى يمكن تحديدها واحدة واحدة والتى تفيد من العلاقات المتبادلة.

وكى نفى هذا الغرض حقه كاملا ينبغى أن نحدد مقياسا طرازيا للثقافات الآثارية، وأن تعين جوانب الارتباط العديدة بين وحدات الثقافة المادية[8].

إذا كانت قواعد الارتباط التى تسرى على الثقافة الآثارية تتوافق طبقا للبيانات اللغوية مع القواعد التى تسرى على ثقافة حقيقية معادة الصياغة فإنه يصبح من المحتمل أن تكون هذه الثقافات قد تلاقت من قبل.

ومن المحتمل أن لا تتطابق بعض العناصر والملامح التى تحددت بهذه الطريقة ولكن الضرورى فى الأمر هو تطابق مجموعات كاملة فى حالة غياب الملامح المتعارضة.

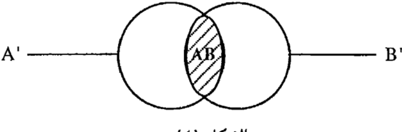
---

٨ - وكى نحدد نمطا طرازيا للثقافات الحضرية من الضرورى أن نوافق على الدراسات الوصفية الموحدة ودلالة بقايا الثقافة المادية (انظر على سبيل المثال ، جاردين ١٩٦٥ ، ١٩٨٣ ، كامنتبزكى مارتشاك تشير ١٩٧٥) . والدلالة الموحدة هى التى يمكن أن تكون شرطا مسبقا للقيام بدراسة طرازية مقارنة للثقافات الحفرية .

وحيث إن إعادة الصياغات اللغوية والتاريخية هذه ناقصة بالتأكيد فإن عدم التقاء عديد من مكوناتها لا يحول دون كونها كانت على اتصال من وجهة النظر التاريخية.

ولكونها ناقصة ومحدودة فإن مجموع العناصر فى النظام أ (الذى أعيدت صياغته طبقا لبيانات لغوية) قد يكون أكبر أو أقل من مجموع العناصر فى النظام ب (الذى توصل إليه بوسائل حضرية) . ومن الممكن أن تتداخل هذه العناصر (بالرغم من كون العناصر فى أ، ب لغوية وحضرية. انظر الشكل ٤).

ولذلك فإنه من المهم عدم احتواء المجموعتين أ، ب على عناصر متعارضة بعضها مع البعض بفضل الارتباطات الداخلية المناسبة لكل نظام. وفى هذه الحالة يستلزم العنصر س فى النظام أ أن يحتوى النظام أ على ملمح لا يتعارض مع العنصر ص فى النظام ب، أى يحتوى على ملمح معاد صياغته أو متضمن فى عنصر آخر.



الشكل (٤)

إن هدف علم اللغة من التعرض لمشكلة الموطن الأصلى الذى نشأت فيه اللغة المشتركة، ولمشكلة مقارنة إعادة الصياغة اللغوية التى تعكس ثقافة هؤلاء الذين كانوا يستخدمون تلك اللغة المشتركة، هو التحليل الدلالى لكل الكلمات والتراكيب فى هذه اللغة ؛ الكلمات والتراكيب التى تيسر تقويم السمات الفردية للثقافة الروحية والمادية لأهل اللغة المشتركة، وهى السمات التى تحدد طراز هذه الثقافة عند مقارنتها طرازيا بالثقافات الأخرى.

ويستلزم هذا التحليل الدلالى للكلمات والتراكيب المعادة صياغتها أن تكون

مرتبطة بعناصرها الدلالية وأن الملامح الثقافية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية لهذه الدلالات محددة.

ت. ف. جامكريلدز و ف. ف. إيفانوف
أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي

BIBLIOGRAPHY

BARTOLI, M., *Introduzione alla neolinguistica. Principi-Scopi-Metodi*, Geneva, Olschki, 1925.

BENVENISTE, E., *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 1966.

BIRNBAUM, H., "Linguistic reconstruction: its potentials and limitations in a new perspective," *Journal of Indo-European Studies*, Monograph No. 2, 1977.

* GAMKRELIDZE, T. V., "The Problem of "l'arbitraire du signe," *Language*, Vol. 50, No. 1, p. 102-110, 1974.

GARDIN, J. C., "On a possible interpretation of componential analysis in archaeology," *American Anthropologist*, Vol. 67, No. 5, pt. 2, p. 9-22, 1965.

— *Theoretitcheskaja arxeologija*, Moscow, Progress, 1983.

HJELMSLEV, L., "Principes de grammaire générale," *Det kgl. Danske Videnskabernes Selskab, Hist.-fil Maddelelser*, XVI, 1, Copenhagen, 1928.

HOENIGSWALD, H. M., *Language Change and Linguistic Reconstruction*, Chicago, The University of Chicago Press, 1960.

HOCKETT, CH. F., *A Course in Modern Linguistics*, New York, Macmillan, 1958.

IVANOV, V. V., "Problèmes des langues centum et sat am," *Questions de linguistique*, No. 4, p. 12-23, 1958.

JAKOBSON, R., "Typological studies and their contribution to historical comparative linguistics," *Reports for the VIIth International Congress of Linguists*, Oslo, 1957.

— *Selected Writings*, I, 2nd enlarged edition, The Hague-Paris, Mouton, 1971.

* KAMENETZKY, I. S., MARCHAK, B. I., CHER JA. A., *Analysis of Archæological Sources*, Moscow, Nauka (Science), 1975.

* POLIVANOV, JE. D., *Toward a Marxist Linguistics*, Moscow. Federatsia, 1931.

SAPIR, E., "Central and North American Languages," *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality* (D. Mandelbaum, ed.), Berkeley and Los Angeles, University of California Press, 1958.

SAUSSURE, F. DE, *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1915.

SCHLERATH, B., "Ist ein Raum/Zeit-Modell für eine rekonstruierte Sprache möglich?", *Zeitschrift für vergleichende Sprachforschung*, Bd. 95, H. 2, p. 175-202, 1981.

* SEREBRENNIKOV, B. A., *Probabilist Arguments in Comparativism*, Moscow, Nauka (Science), 1974.
* STEPANOV, G. V., *On the Problem of Linguistic Variability*, Moscow, Nauka (Science), 1974.
* TSERETELI, G. V., "Linguistic Relationship and Linguistic Unions," *Questions de linguistique*, 1968. No. 3, p. 3-18.
WEINREICH, U., "Is a Structural Dialectology Possible?", *Linguistics Today* (A. Martinet and U. Weinreich, eds.), New York, 1954. p. 268-280.

* Titles of Russian works have been translated to facilitate understanding for the reader.

كلود هاكيج

الترجمة، وعالم اللغة ولقاء الثقافات

تناقش الترجمة، غالبا، فى الحلقات الدراسية. ويتحدث الكتاب عنها كما يفعل، بالطبع، المترجمون المتخصصون أيضا. وحتى اللغويون عندهم ما يدلون به حول هذا النشاط القديم قدم الحضارات. ونود أن نقدم هنا بعض الأفكار حول موضوع تكرر تدبره كثيرا. وبالرغم أن هذه الأفكار ليست جديدة تماما، فهى نتائج انبثقت من تأصل مسهب ومن تجارب المترجمين التى لا تقل إسهابا، إلا أننا نأمل أن نشير إلى بعض الإرشادات التى يمكن أن تكون مثمرة لاستمرارية المناقشة.

بداية نود، ببساطة تامة، النظر إلى قضية الترجمة نفسها، فعلى ما يبدو لم يسبق تناول هذه القضية، ونود أن ننظر إليها بالطريقة التى ينظر بها أى لغوى محترف، أى أن نفحص بدقة الشكل أو الأشكال التى تتقدم من خلالها هذه الفكرة، فأى دراسة دقيقة يمكنها أن تلقى ضوءا كبيرا هنا، وتضيف جديدا إلى ملف المصطلحات التى توضح فاعلية الترجمة فى اللغات المدروسة جيدا.

المترجم : أحمد عمر شاهين

وحيث إن الرومان لديهم عدد من هذه المصطلحات فإن دراسة لمعنى ومبنى هذه المصطلحات يوفر لنا الكثير لمعنى "أن تترجم".

فالاصطلاح atraduce (أن يترجم) [جاء من الكلمة الإيطالية trudure التى انبثقت من traduce المستخدمة فى العلوم الإنسانية الإيطالية، وقد حلت هذه الكلمة، محل كلمة translare التى جاءت من كلمة translatus التصريف الثالث لـ transferre والتى كانت فى العصور القديمة مطابقة للكمة اليونانية metafero] لم يظهر قبل بداية القرن التاسع عشر.

ففى القرن السادس عشر استخدم الرومان كلمة ascoáte التى تعنى حرفيا يغادر، وأيضا كلمة á in tearce بمعنى "يرجع" [(١)]. وفى القرن السابع عشر استخدمت الكلمة السلافية القديمة aizvodi بمعنى ينتزع أو يستخلص لتعبر عن فكرة الترجمة، مثلها فى ذلك مثل كلمة atâlmâci السلافية أيضا التى تعنى "يفسر". فى القرن ١٨ - ١٩ ظهرت كلمة apreface التى تعنى : ينقل أو يعيد صياغة، وأيضا الكلمة الترانسلفانية aromâni التى تعنى رومنة أو التكيف مع اللغة الرومانية (اللاتينية).

من خلال هذه المصطلحات المختلفه يمكننا أن نقرأ تاريخا للتصورات المتتابعة لفعل الترجمة، من الاستخلاص الى النقل من منطلق التفسير، وصولا الى المفهوم الحديث للترجمة، الذى هو اعادة صياغة ما هو مكتوب فى لغة أصلية الى لغة أخرى، بالتغلب بقدر الامكان على المشاكل التى تطرحها عملية الترجمة، والتى قد تفضى بتكرارها الى افساد الترجمة باعطائها معانى خداعة، وذلك على ضوء الدلائل الناجمة عن الممارسة التى هى قديمة قدم العالم، والدراسات المتعددة والثمرات التى ترتكز عليها فيما يعرف بلقاء الثقافات.

---

1 - See A. Niculescu, "La notion "traduire" dans la langue roumaine," in Festschrift für Johannes Hubschmed zum 65. Geburtstag hrsg. von O. Winkelman und M. Braisch, Bern, Francke, 1982, pp. 359-366, from which are taken these data on Romanian.

الترجمة كتجربة : الاقسام الصعبة فى اللغة

علم الأصوات الكلامية، وعلم الصرف (حينما يوجد حسب طبيعة اللغة) وعلم النحو المتزامن أو المتعاقب، هذه هى الأجزاء الصعبة فى اللغة. وتمدنا الترجمة بتجربة بسيطة جداً لهذه الخاصية فى اللغة التى يوجد بها أقسام صعبة كهذه.

ولنبدأ بعلم الأصوات الكلامية، بالطبع أن النص كمنتج هو الذى يترجم لا اللغة بوصفها نظاما أتاحت له الظهور. وأكثر من ذلك فاتنا حتى الآن حينما نفكر بالترجمة نفكر فى النصوص المكتوبة، علما بأن هناك يوميا مناسبات عديدة لترجمة الكثير من الحوارات الشفاهية (كمفسرين، أو ببساطة متناهية كوسيط ضرورى يعمل كمترجم - كالترجمان عند العرب والذى يعنى مفسر) بين اثنين أو اكثر لا يستطيعان التواصل بسبب عقبة اللغة. وهناك ظاهرة عالمية بدأ يلتفت اليها اللغويون الآن، فى النصوص المكتوبة، وبدرجة اكبر فى الحالات التى يتم فيها الحوار شفهيا، وقد أغفلها النحويون، فى حين أنها ظاهرة لغوية مباشرة، وهى : التنغيم.

والتنغيم، الذى لا يلاحظ بدرجة كافية فى النصوص المكتوبة من خلال علامات الترقيم التى استخدمتها اللغات منذ فترات طويلة، ولكنه واضح ومسموع فى أى حوار متبادل، هو شئ له معنى وبالتالى يمكن ترجمته. لكن الصعوبة تبدأ من هنا. بعض نماذج التنغيم عالمية، لها المعنى نفسه الذى ينقل بترتيب الانغام، بمعنى انه بنقله من لغة الى أخرى يؤدى المعنى نفسه أو قريبا منه. هكذا هى الحال فى تغمات التدرج فى تتابع الموضوع (العنصر الاقل افادة)، أو العكس بالعكس. وهذه هى الحال أيضا فى الحالة الصورية لمتكلم فى الجملة، يعنى بناء الجملة الذى يعبر عن موقف المتكلم مما يقوله، فنموذج التنغيم فى هذه الحالة والحالة السابقة يتشابهان عالميا، بكلمات أخرى، فإن جملة من اللغة الفرنسية المنطوقة : Il n'est pas la, papa (حيث كلمة il و Papa اساسيتان)، بمقارنتها بجملة أخرى : ce n'est pas, ca a mon avis، تبدآن بأهم الاجزاء افادة، فكل من كلمة Papa المتحدث عنه a mon avis (موقف المتكلم مما قاله وهو الرسالة الرئيسية في الجملة) أقل إفادة مما يتبعها : فهما الجزآن الموضوعيان للجملتين اللتين يتشكل خبرهما من Il n'est pas la و ce n'est pas ca.

ونحن نرى الآن، فى اللغات التى درست فيها مثل هذه الموضوعات، أن هناك اختلافا فى الكتابة بين الخبر (الذى يقال بلهجة اكثر حدة) والفكرة الرئيسية.

ان معظم النماذج التنغيمية لها معان محددة تختلف من لغة الى أخرى، ولابد لذلك من أن تترجم حرفيا.

وأفضل النصوص اللغوية هى التى تعطى ارشادات للنماذج التنغيمية تتمشى مع المعانى المختلفة، ويجب على الطالب تعلمها.

وهكذا لابد فى علم الأصوات (والعروض جزء منه يتعامل مع ظاهرة التناغم) من اختبار لطبيعة اللغة منظورا اليها عبر أحد عناصرها، وهو الأصوات. ويقدم هذا الاختبار أو التجربة الى اللغوى من خلال انعكاسه على فاعلية الترجمة.

فى علم الصرف تقدم دراسة الترجمة تجارب أكثر حسما نحو الاجزاء الصعبة فى اللغة، ولكن ما هو علم الصرف أولا ؟ ولماذا نتحدث عن طبيعة ترتيب الكلمات فى جمل، اذا عرفنا علم الصرف حسب المدرسة الوظيفية الفرنسية التى تأسست فى باريس على يد أ. مارتينيت، بأنه ميدان دراسة اختلافات علم الدلالة، حيث الاختلاف يدل بطريقة آلية ويحدد التغير النصى، فمن الواضح إذن أن علم الصرف مكوّن تفتقده لغات كثيرة. ففى اللغات الوحيدة المقطع فى الشرق الأقصى مثلا، المعروفة بوحداتها الثابتة التى تتكون من مقطع واحد، كيف يمكننا أن نتكلم عن علم الصرف فى حالة كهذه. ولكن اذا كنا نعنى بعلم الصرف جميع مقولات الوحدات التى نميز من خلالها لغة عن أخرى فمن الواضح آنذاك أن علم الصرف مكوّن يظهر بوضوح ليعرف فكرة اللغة، وهكذا يكون عالميا. وحينئذ تمدنا الترجمة بتجربة. لأن المقولات الموجودة فى حالة ما تكون غائبة فى أخرى، وما نحن مضطرون أن نقوله هنا تستحيل ترجمته تماما هناك.

ولنضرب مثلا يوضح ذلك، طريقة تضيف الأسماء، فكما نعرف فى كثير من اللغات الأفريقية - خاصة لغة البانتو Bantu - ليس ضروريا أن نلحق بالاسم ما يصنفه ويميزه من المورفيمات (وهى اصغر وحدة من وحدات الكلام تلحق بالكلمة او تسبقها تؤدى الى فرق فى المعنى)، وهذا حقيقى أيضا فى جنوب شرق آسيا

(الصينية، الفيتنامية، البورمية، الشاوية الخ) وكذلك بالنسبة للفعل (لغات الاثاباسكا في أمريكا الشمالية، ولغة غينيا الجديدة).

ففي اللغة الصينية يستحيل أن نقول أن Yi xin تعني a letter، فلابد من مميز يأتي بين أداة التنكير a والاسم حتى يتضح المعنى في الصينية، فنقول Yi feng xin حيث feng هي المميز وتعني "مفعول مصدق عليه" وهو مخصص كمورفيم ضروري لصحبة الكلمة xin، ومن الواضح أنه ليس هناك طريقة لترجمة كلمة feng إلى الفرنسية، فأي شخص فرنسي لا يحلم أن يقول a شئ مصدق عليه letter. ومن ناحية أخرى من المستحيل تماما أن تستخدم فعل "etre" (أن يكون) كترجمة. للفعل المساعد الصيني "أن يكون" في الجملة Il est venu hier دون أن تنتهي إلى وضع تمركز غير موجود في الجملة الفرنسية الأصلية لتصبح : C'est hier qu'il est venu. فالفعل المساعد être لا يستخدم في اللغة الصينية للتعبير عن الماضي القريب كما هو بالفرنسية.

مثل آخر[٢] من منطقة الشرق الأقصى، وهو صيغ التهذيب التي تناسب نساء كيوتو Kyoto، والتي جاء بعضها على لسان بطلات المؤلف Y. Kawabata في روايته Kyoto. إنه من المستحيل تقريبا ترجمة صيغ التهذيب من اليابانية دون الالتجاء إلى إعادة صياغة. ولكن كيف يمكن للمتلقي أن يعرف من الترجمة حقيقة أن هذه الصيغ خاصة بالنساء، ولنساء من أقليم معين من اليابان ؟ هل يمكن للمرء أن يفعل أكثر من أن يقدم ملاحظة تفسيرية للمعنى، ذلك الإدخال على النص الذي يتجنبه المترجم بكل قوته ؟

في اللغة اليابانية الآن ليست العلامات الأساسية للسؤال مجرد زخارف، إنها جزء متمم من علم الأصوات، لمنطقة صعبة في اللغة. بكلمات أخرى قد تكون الإشارة خاصة بجنس معين أو تعبير عن حالة اجتماعية معينة، وتوجد في اصطلاح نحوي، معبر عنها بشكل مكتوب لصيغة صوتية لجزء معين ومشتقة في رموز وثيقة، نجدها جاءت في اصطلاح آخر، يشير المتحاورون إلى ما تعنيه دون أن توجد علامة لغوية

---

2 - For more details, seee C. Hagège, La structure dews langues, Paris, 1986, pp. 78-79 and id, L'homme de paroles. Contribution linguistique aux sciences humaines, Paris, Fayard, 1985, pp. 46-50.

صحيحة تتوافق معها.

تتضح لنا كل المعلومات التى يمكن استنتاجها من هذه الظاهرة. فبعض اللغات فيها إشارات دقيقة فى قواعدها للعلاقات الاجتماعية والجنسية، وفى لغات أخرى لا توجد مثل هذه الإشارات الخاصة. وفاعلية الترجمة التى تخدم النص هى فى بيانها للحد الأدنى من علم الأصوات، مع تباين الحدود الدلالية التى يشملها فى الوقت نفسه.

ويمدنا هذا بمعلومة أخرى هنا، وهى ذات أهمية كبيرة، لما تكشفه عن طبيعة اللغات. فعلى العكس مما يتخيل أعداء الترجمة نحن سعداء جدا أن يقوم جدل فى موقف معضلى، حيث يتعرض المترجم كثيرا للخطأ، بالقول أن كل شئ يمكن ترجمته. فمنذ وجدت المجتمعات الإنسانية، وتغرب عن بعضها عن بعض بسبب اللغة، ثم اتصلت وواجه بعضها بعضا بالحد الأدنى الذى لديها، فإن كل شئ كان دائما قابلا للترجمة. وإذا كانت اللغات يختلف بعضها عن البعض فذلك ليس فيما يمكن أن تعبر عنه هذه اللغة أو ما لا يمكن التعبير عنه، حيث أن كل لغة، مستخدمة وسائل مختلفة، بنجاح قل أو كثر، يمكنها التعبير عن كل شئ بغض النظر عن أى شئ. وإنما اختلاف اللغات يأتى من خلال ما تضطر لغة إلى قوله ولا تستطيع قوله لغة أخرى بتبادل مشترك. وحدود علم الأصوات يعمل فى تعميق ذلك، وعملية الترجمة هى التى تكشف وتجسد هذه الأنماط من اللغات.

وما يصدق على علم الأصوات يصدق على النحو. وهنا تبرز مكونات اللغات فيما يخص العلاقات بين وحدات الجملة، كما توجد بطرق مميزة مختلفة، مثل نظام ترتيب الكلمات. ولكن ما يبدو أكثر طرافة بالنسبة لهدفنا هو مشكلة تقسيم الوظائف بين النحو والمفردات.

وهذا الموضوع، كسابقه، خاص بعلم الأصوات، ونعالجه هنا لأنه أكثر عمومية من دراسة مصنفات الكلمات. ونضرب مثلين، أحدهما نستعيره من اللغة البلغارية والآخر من المجرية.

نحن نعلم أن أحد خصوصيات اللغة البلغارية أنها طورت وسائل للتعبير عما

يسمى بالدليل الصادق أو عكس ذلك، حيث هذه الصيغ ترجع إلى أحداث شهدها المتكلم أو أحداث حدثت دون أن يكون شاهدا عليها. ويبدو من الأنسب أن نتحدث عن السرد غير المباشر. على أى حال فالفرق بين البلغارية أو أى لغة سلافية أخرى واللغة الفرنسية هو وجود صيغ صوتية أصلية فى اللغة البلغارية، مجموعة مترابطة من الصيغ النحوية، فى حين أن اللغات الأخرى التى أشرنا إليها تستخدم وسائل معجمية للتعبير عن المضمون نفسه، وبالنسبة للمترجم فتعود إليه مسألة اختيار إحدى هذه الوسائل حينما يتعامل مع نص بلغارى، وحيث إنه لا يجد تصريفات عادية فى اللغة التى يترجم إليها هذه المعانى (إلا إذا كانت تركية أو كوثونية أو كواكيوتلية، غير محتمل أن تكون من نص بلغارى، واللغات التى تتساوى فيما تحتويه من مجموعات صوتية للسرد غير المباشر)، وهكذا فهو يترجم بإقحام صيغة لفظية بسيطة أو باستخدام تركيب تابع بعد فعل موضح للمعنى مما يعتبر مزعجا أكثر من صيغة الفعل الواحد. فى حين نرى فى اللغات السلافية أنه ليس من الضرورى التعبير عن فكرة السرد غير المباشر بإدخال فعل موضح، حيث تحتوى هذه اللغات على "مورفيمات" (أو أصوات لغوية) تملك تلك القيم. ففى الروسية mol, وفى الأوكرانية de, deskaf وفى التشيكية pry، mov, movljav وفى السلوفاكية vraj، وفى البولندية pono, podobno، وفى الصربوكرواتية bajagi tobze، ولكن فى هذه اللغات لا توجد مجموعة صوتية لفظية للسرد المباشر، وهكذا لا بد من اللجوء إلى العمليات المعجمية التى تنسبها اللغة البغارية إلى الترتيب اللفظى حسب الإعراب.

وتعطينا اللغة المجرية تصورا طريفا آخر، فكما نعرف هناك مقابلة بين الصيغة الموضوعية (الفاعل) والصيغة الذاتية (المفعول) فى التصريف، فهذه اللغة تفرق بين المتعدى المستعمل لقابل محدد من ناحية وبين المتعدى أو غير المتعدى المستخدم لقابل غير محدد. فالمفترض تبعا لذلك أن أسماء الأعلام فى حالة النصب تغطى بفعل متعد وتتطلب التصريف الموضوعى حيث إنه منطقيا لا يوجد اسم أكثر تحديدا من اسم العلم، فهو بالضرورة عائد إلى فرد متميز ومحدد، لكن هنا من الممكن أن يكون لدنيا اسم علم فى حالة النصب مسبوقا بفعل فى صيغة ذاتية حيث يعامل الاسم كما لو أن الفعل غير متعد وليس له مفعول به. فمثلا [٣] olvassunk Balzacet (لنقرأ

3 - See G. kassai, contribution on the theme, "Grammaire textuelle et grammaire fonctionnelle," in Actes du XIe Colloque Intl. De Linguistique fonctionnelle, Bologna, 1984; Padova, CLESP, 1985, PP. 51 - 52 (49-54).

بلزاك)، حيث نقرأ بتصريف ذاتى وبلزاك مفعول به، يعبر عن ذلك فى المجرية بتصريف موضوعى olvassuk Balzac-cet فلمتكلم المجرية الاختلاف فى المعنيين واضح جدا فهو معبر عنه بصيغة صوتية فى تركيب الجملة، وهو ليس الشئ نفسه حين يترجم إلى الفرنسية، فكيف يمكننا أن نؤدى هذا الاختلاف عند الترجمة، دون أن تستخدم شروحا معجمية معقدة لا تخفف رغم دقتها من الصعوبة. المؤلف الذى استعرت منه هذه الأمثلة يقترح ترجمة لهذا التواجه بما يمكن أن نقدمه هنا وإن كان غير دقيق تماما.

let us read Balzac
let us read some Balzac

(نلاحظ أن أداة التبعيض some تعمل كتكملة محددة تستخدم مع التصريف الموضوعى، لأنها الطريقة الفرنسية للإشارة إلى إنها مسألة بلزاك نفسه لا غيره).

وهناك ترجمة أكثر تعقدا لكنها تعكس ما تعنيه الجملة هنا باستخدام هذين النوعين من التصاريف.

let us read the books Balzac had written

دعنا نقرأ الكتب التى كتبها بلزاك للتصريف الأول الذاتى.

let us read what this man has put into his books of his personality, his character, his intimate nature.

دعنا نقرأ ما وصفه هذا الرجل فى كتبه عن شخصيته وأخلاقه وطبعيته الحميمة. للتصريف الثانى الموضوعى.

هذا الاختلاف بين اللغات بالنسبة لتركيب الجمل لا يسبب نتائج خطيرة لمصير الأقطار حين تكون القضية ترجمة نصوص أدبية بدقة قدر الإمكان، ولكن قد تنشأ مشاكل خطيرة حين يكون النص سياسيا. مثل شهير على ذلك هو القرار المشهور لمجلس الأمن ٢٤٢، وكما نعرف فإن إسرائيل اعتبرت النص الإنجليزى لهذا القرار هو الصيغة الرسمية التى تعتمدها، فى حين أن العرب اعتبروا النص الفرنسى هو الصيغة الرسمية.

كيف نوضح هذا الموقف ؟ ببساطة تامة جزء من قواعد اللغة هو الذى استدعى هذا

الاختيار السياسي ذا الأهمية الحاسمة للسلام في الشرق الأوسط.

جاء في اللغة الإنجليزية في البند الأول لهذا القرار كما تضمنه ميثاق الأمم المتحدة : إنسحاب القوات الإسرائيلية من أراض احتلت في الصراع المعاصر from territories، والنص الفرنسي يقول : الانسحاب من الأراضي Des territoires.

في اليوم الذي صدر فيه القرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ كانت القوات الإسرائيلية تحتل مساحات معينة من أراض كانت قبل العدوان تابعة لثلاث دول مجاورة لإسرائيل هي مصر والأردن وسوريا، وهكذا كان من الضروري معرفة هل القرار يطالب بالانسحاب من كل هذه الأراضي أو من جزء منها فقط. في اللغة الفرنسية لا بد من تحديد أي الخيارين هو المقصود، لأنه من الضروري التمييز بين استخدامين لأداة التعريف الجمع مع de لتكوين des أو أداة تجزيئ الجمع، وفي اللغة الإنجليزية في هذه الحالة يجيز سقوط أداة التعريف the أل تجيز التعادل في المعنى الانسحاب من أراض أو من الأراضي التي احتلت.

يمكننا ببساطة أن نرى المسؤولية التي يأخذها المترجم على عاتقه في مواجهة ما يمكن فهمه خلال دقائق القواعد البيزنطية.

وفي كل الحالات التي ذكرناها تدل ممارسة الترجمة على التقييد في الأنظمة اللغوية.

ولكن إذا نظرنا للأمر حسب محور التعاقب في فحص المعطيات فإننا نرى الترجمة تشكل سمات مميزة للغات ساعدت في خلقها لأنها قدمتها من لغات أخرى. وتاريخ اللغة يقدم أمثلة كثيرة نطور فيها تركيب الكلمات في الجمل في لغة مفيدة تحت تأثير لغة أجنبية، كان الناس معها على اتصال منتظم، وأنتجوا منها تركيبات بلغتهم الخاصة لأنهم ببساطة ترجموها بوعي أو دون وعي. فالتعبير بكلمة أو أكثر كفاعل تكميلي لتتمة جملة دخل إلى العربية بهذه الطريقة عن الإنجليزية والفرنسية، ثم إلى التركية من العربية، ويمكن قول الشئ نفسه في الاستخدام المتكرر للضمير الفاعل في الصينية واليابانية الذي جاء من الإنجليزية، أو تطوير "أداة" في الفنلندية المنطوقة على مثال السويدية، وأخيرا هذه الكميات من انبثاق تعبيرات وتركيبات من

فعل avoir لتحل بالتدريج محل etre فى لغات كثيرة مثل العبرية التى تأثرت من الترجمات الإنجليزية والفرنسية[٤].

الترجمة والأقسام الأقل صعوبة : المفردات

المفردات طوبولوجية topological[٥]، مفتوحة للاستعارة، وفاعلية الترجمة، التى تخدمنا هنا ثانية كتجربة، تبين بوضوح أن نقل محتويات معجمية من لغة ما إلى أخرى أقل صعوبة بدرجة كبيرة من أن تقدم فى لغة ما ما فى لغة أخرى من نظام نحوى.

وحيث إن المحتويات المعجمية ليست بالضرورة مرتبطة بمصنفات اللغة فإنها حين تكون فنية أو دلالية تكون أكثر عملية فى الترجمة، حيث يمكننا أن نترجم صيغة ما بنظام أو تتابع الكلمات، الفعل بصفة، الاسم بتعبير لفظى، والمصطلح بإعادة صياغته، وهكذا. وحيث إن المفردات حقل مفتوح، كما تبين الترجمة ذلك بوضوح، فهى أيضا الجزء من اللغة الذى تكون للترجمة سيطرة أكبر عليه. وما رأيناه منذ قليل بالنظر إلى التركيب المتعاقب ونقل التركيبات مثل التحول من etre إلى avoir تظهر حقيقته بوضوح أكثر فى المفردات. وقواعد اللغة تطرح مشكلات أكثر، حيث إننا لا نترجم كلمة بكلمة إلا حينما يمكننا ذلك، فالمورفيمات الضرورية فى حالة ما (اللغات التى يتصرف فيها الفعل حسب الفاعل) التى لا توجد فى لغات أخرى (التى لا يتصرف فيها الفعل حسب الفاعل) تهرب حتما من الترجمة كلمة بكلمة، وهكذا تظل الترجمة مرة ثانية كاختيار ملئ بالمعلومات لعلم اللغة.

فى هذه الحالة، حيث تظل المعلومة محدودة تماما، لم نعد فى حقل الاضطرار كما كنا فى القواعد اللغوية، إلا أنه ما يزال هناك صعوبات. يظهر هذا بوضوح من تاريخ المشروع الكبير فى الترجمة فى كل العصور، مشروع أثر بعمق على مصير كثير من اللغات، وهو ترجمة الإنجيل من اللغة الأرمنية إلى اللغة البلغارية مرور بالجرمانية واليهودية الأسبانية، المفردات وأساليب الصياغة فى هذه اللغات تلقت طابعا حاسما عند الترجمة من العبرية أو اليونانية أو اللاتينية. وبالنسبة للغات التى ليست قريبة إلى اللغات الأصلية، مثل الصينية، لم يكن هذا المشروع ناجحا تماما.

---

4 - See C. Hagège, L'homme de paroles, op.cit., p. 249.
5 - For more details on this point, see Ch. II of Hagège, Le français et les siècles, soon to appear in Editions Odile Jacob, 1987.

ولقد اتضح[٦] أن الآباء الجزويت، الذين كان بينهم المشهور "ماتيو ريكى"، لم ينجحوا حقيقة - بالنسبة للترجمة إلى الصينية - بالرغم من جهودهم فى إقرار التعبيرات المترجمة لأفكار "الله" و "الجوهر" و "الاستحالة" (التغيير من حال إلى حال)، فقد جاءت الترجمة حسب الترتيب " سيد السما "tiandis الذى أقام نفسه بنفسه zilizhe، ما يعتمد على شئ آخر Yilaizhe، ففى وجهة النظر الصينية التمييز هنا مصطنع تماما وبلا مبرر، لسبب بسيط هو أن اللغة لا تمدنا بشئ مشابه.

يبدو إذن أن إمكانية المعجم فى أن يستعير من خلال الترجمة محدودة بآليات الترابط داخل اللغة التى تغذى العادات الثقافية لمتكلميها، لذلك نجد أنه قد يوجد بين لغتين مسافة بعيدة فى المكان والزمان، حيث كنا نعتقد أن المعاجم تحفظ التركيبات لنقلها فى الصيغ النحوية.

هنا خاصية مؤكدة وكبيرة للغات الإنسانية، إنها مرتبطة بالثقافات التى تقدمها بوئام تعاقبى تبادلى مشترك، مؤثر بمعنى أن ثقافة جماعة إنسانية ما تغذى لغتها باعطائها بعد فترة من الوقت مميزات تنعكس من خلالها هذه الثقافة. لكن لو سرنا فى اتجاه معاكس لرأينا أن اللغات تخلق أساليب وصيغا للتعبير تغذى صيغ الفكر، والناتج فى الحالات المتطرفة يكون عقبة عند الترجمة، فليست اللغات هى التى تترجم فقط ولكن العمليات الثقافية أيضا.

قيل إن الترجمة كانت دائما ممكنة، حتى لو كانت غالبا صعبة ومركبة، والتعبيرات التى تبدو للوهلة الأولى غير عادية، أولا تقدم ما اعتدنا أن نتوقعه فى النهاية، تصبح مع بعض الاستثناءات مقبولة. المثال الصينى الذى عرضناه واحد من هذه الاستثناءات، ولا بد من أن نضعه مقابل الحالات الكثيرة من الترجمات الناجحة أو تلك الترجمات التى بدأت تكون مقبولة فى مشروع آخر لا يخص الإنجيل، ولكن تكييف المفردات للأفكار الجديدة والتكنولوجيا الحديثة.

فالدول الصغيرة النامية، التى حققت استقلالها حديثا، كان لها الخيار بين استعارة المفردات العالمية الغامضة، أو الشروح المعجمية الوطنية الواضحة، عن طريق

6 - See J. Gernet, Chine et christianisme, action et réaction, Paris, Gallimard, 1987.

حل وسط، مثل المحاكاة فى اللوازم المحلية بكلمات أخرى. فكثير من اللغات الإفريقية أو البولونيزية ترمز إلى الطائرة airplane بالكلمة التالية erplen باستعارة واضحة بسيطة من الكلمة الإنجليزية، من ناحية أخرى يمكنهم ترجمتها بمعادل موضوعى بالتعبير عنها بعبارة "زورق طائر" الذى توجد جزوره اللغوية عندهم ومن خلال عملية التكون واستغلال المعنى بقول، شيئ ما لمتكلميه على الأقل، لا يكون غامضا كالمصطلح الإنجليزى الشائع دوليا.

هذا هو الحل الوطنى الذى تبنته - غالبا اللغة السواحلية، فمثلا عند ترجمتهم كلمة نباتى botonical استخدموا تركيبة من لغتهم هى : elimu + mimea علم النبات، بالإضافة إلى ذلك فاللغة التركية والعبرية يمكن أن تعطيا مثلا للشعوب الصغيرة فى إثراء مفرداتها الفنية، حيث استغلت كلتا اللغتين جذورا محلية بقدر الإمكان، وكان هذا أحيانا على حساب التقريب الذى يشبه اللعب على الكلمات، ولكن ينجح، خاصة حين تكون هناك فرصة للتشابه فى الصيغة والدلالة بين الكلمة الأجنبية المرفوضة والكلمة المحلية التى اختيرت، ولحسن الحظ دخلت اللغة كلفظ مستحدث. وهكذا ترى فى التركية أن école هى okul من الجذر التركى oku يقرأ، وأن social أصبحت soysal من soy ، وفى العبرية elite أصبحت ilit من ili بمعنى متفوق، وتمدنا المجرية بمثال آخر : element أصبحت elm من elo.

ترى، إذن، أنه مهما كانت الطرق التى اختيرت، حتى لو كانت النتائج ليست دائما مناسبة، فإنه من الممكن دائما أن نترجم فيما يختص بالكلمات، كل ما يلزمنا إرادة قوية. ويعطينا التاريخ بعض حالات الترجمات المخاتلة، أملتها مؤسسات سياسية معينة. مثلا المعاهدة التى وقعت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٥ بين المندوبين الفرنسيين وممثلى ملكة مدغشقر، لوضع نهاية لسنة ونصف من العداء، هذه المعاهدة، كاستهلال للوصايا الفرنسية على الجزيرة، احتوت على فقرة كانت مصدرا لمختلف التفسيرات، أدت إلى صراعات، مع أن الأمر ببساطة هو معرفة هل سيكون البلد مستقلا أو غير مستقل.

فالنص المترجم عن أصل فرنسى لدى أهل مدغشقر يقول "إن فرنسا تسهر على العلاقات بين مدغشقر و ny fanjakana any ivelany، وهذا يعنى حرفيا الحكومات الأجنبية أو الخارجية، ولكن الفرنسيين مستخدمين المعنى الثانى فهموا من

النص أن للمقيم الفرنسى فقط الحق فى تفويض القناصل الأجانب، فى حين أن وزراء مدغشقر مستخدمين المعنى الأول اعتبروا أن ملكتهم فقط هى المخولة من هذه الناحية، ففرنسا تمثل فقط مصالح مدغشقر فى الخارج[٧]. ولم تكن المسألة سهلة، فالمفسرون الرسميون لفرنسا وقفوا بجانب الوصى الفرنسى فى مدغشقر.

يمكننا أن نضاعف الأمثلة، ونضيف جدلا آخر، ففاعلية الترجمة ليست فى الممارسة اليومية للغوى المحترف فقط، إنها غنية بالمفاجآت فى الطبيعة العميقة للغات. لم تعر انتباها كافيا هنا لكل ما علمتنا إياه الترجمات العظيمة عن تاريخ المهنة والطريقة التى كيفت بها ممارساتها، إلى استعداد الجمهور لتقبل ما قدمته من ترجمات عن نصوص أجنبية.

فترجمة "ألف ليلة وليلة" على يد أ. جالاند سنة ١٧٠٤ تزودنا بصورة طريفة حول هذا الموضوع، فحينما ندرس هذه الترجمة دراسة دقيقة نجد أن الاختلافات التى يمكن أخذها فى الاعتبار وتكررت كثيرا لا تعنى، بالنسبة إلى النص الأصلى العربى، أن "جالاند" لم يكن متمكنا من اللغة العربية، بل على العكس، فإن ملاحظاته فى الهوامش على المخطوطة فى المكتبة الوطنية تبين اهتمامه بالدقة ومعرفة بالعربية بدرجة ملحوظة. ومع ذلك فإنه فى ذلك العصر المتشكك تعطينا الترجمة تصورا محكوما بالحاجة إلى خدمة الجماهير بما يتفق وذوقها لا إلى صدقها بقسوة لا تستطيع هضمها[٨]. لكن الوضع مختلف تماما اليوم بل هو على عكس ما مضى.

ولكن إذا كان بثمن بعض عدم الولاء للغة، يمكننا أن نترجم بهذه الدرجة فى أى لغة إلى أخرى، مهما كانت طبيعة النص، فإنه بسبب ارتباط اللغات جميعا بأسس عامة.

وأخيرا نفهم طبيعة الاهتمام الكبير للغوى بالترجمة، فامكانياتها تعتبر مدخل كبير فى الملف الباحث عما يربطنا جميعا.

---

7 I thank M.J. Fauble̒e, professor of Malagasy for having helped me to identify the Malagasy version.

8 For more details on this point, see Hagège, "Traitement du sens et fidélité dand l'adaptation classique: sur le texte arabe des Mille et une nuits et al traduction de Galland," Arabica, Vol XXVII, 2, pp. 114-139.

س . أ . ودم

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

لو أنك أنعمت النظر فى اللغات السائدة فى عدد من المناطق الجغرافية - وبخاصة فى منطقة المحيط الهادى - لما فاتك أن تلاحظ أن التراكيب المعقدة فى بعض هذه اللغات جنحت إلى التبسيط ، بل انقرضت تماما من هذه اللغات بانقراض الثقافة التقليدية للمتكلمين ، أو اضمحلالها بالتدريج . وجدير بالذكر أن ظاهرة التبسيط وزوال التعقيدات النحوية أوضح ما تكون فى اللغات البابوانية (نسبة لجزيرة بابوا) فى منطقة غينيا الجديدة ، وفى لغات السكان الأصليين بقارة أستراليا . وكلا هذين النوعين من اللغات حافل بالتراكيب اللغوية . ولكن هذه التراكيب أكثر شيوعا فى اللغات البابوانية منها فى اللغات الأسترالية . وتجنح هذه اللغات إلى التبسيط أكثر مما تجنح اللغات الأخرى فى منطقة المحيط الهادى ، كاللغات الأسترونيزية التى تسمى أحيانا "اللغات الملايو - بولينيزية" وإن لم تخلُ هذه اللغات من هذه الظاهرة النحوية تماما .

ومن التعقيدات النحوية التى طرأ عليها التبسيط تقسيم الأسماء إلى عدد

المترجم: أمين محمود الشريف

من الأقسام المختلفة . وهذه الظاهرة تشبه نظام تقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث فى اللغات الهندية الأوربية مثل : الفرنسية ، والألمانية ، والروسية ، والويلزية، والهندية ، وغيرها كثير . ولكن هذه الظاهرة أكثر تعقدا فى اللغات البابوانية منها فى اللغات الهندية الأوربية ، مع ملاحظة أن عدة لغات بابوانية حافلة بعدد كبير من أقسام الأسماء المختلفة . وقد لوحظ بوضوح فى عدد من اللغات البابوانية أن نظام تقسيم الأسماء يستند إلى عدد من المفاهيم فى الثقافة التقليدية للمتكلمين ، كما يعكس تقسيم العالم المحيط ، لمتكلمين إلى عدد من الوحدات المتميزة والمستمدة من العالم الخارجى المشاهد مثل الأشجار والحيوانات والنباتات ، ذات الأهمية فى الحياة المحلية التقليدية ، كالعمل فى البساتين والحدائق ، واستخدام الماء ، ومثل الأشياء المرتبطة بوقت الليل حيث تنتشر الأرواح المخيفة ، أو الأشياء المرتبطة بأحد الجنسين من الذكور والإناث ، سواء فى سن الطفولة أو سن المراهقة قبل تعليمهم الطقوس السرية للقبيلة ، أو فى سن الرشد والرجولة. وواضح أن الأساس الذى يقوم عليه تقسيم الأشياء ، والظواهر المرئية ، سواء أكانت تتعلق بالطبيعة أم الكائنات البشرية ، يعكس سمات الثقافة الأصلية أو التقليدية عند الشعب الذى ينسب سمات أو قيما معينة إلى هذه الأشياء ، مع تخصيص أقسام مستقلة للأسماء والكلمات الدالة على هذه السمات والقيم .

ومن السمات الأخرى للتراكيب اللغوية التى طرأ عليها التبسيط والانقراض التدريجى بانقراض الثقافة التقليدية عند المتكلمين بهذه اللغات : بعض خصائص الأفعال المعبرة عن العلاقات الزمنية التى تهم أهل الثقافة الوطنية ، أو، بعض الإشارات الدقيقة فى تركيب الأفعال إلى العدد الدقيق للفاعل ، والمفعول به ، الذى يقع عليه فعل الفاعل .

وقد لوحظ أن اختزال التراكيب النحوية المعقدة أو تبسيطها أو انقراضها ، على نحو ما سلف ذكره ، يزداد وضوحا مع صغر سن المتكلمين . وذلك أنه كلما قلت سن المتكلمين وهنت الصلات التى تربطهم بثقافتهم التقليدية ، وغاض معين

معرفتهم بالأهمية الثقافية للمفاهيم التى تركتز عليها بعض التراكيب النحوية المعقدة، مثل تقسيم الأسماء وتراكيب الأفعال . وإلى جانب جهلهم وعدم تقديرهم لسمات ثقافتهم التقليدية ، يميل الشباب فى كثير من أنحاء غينيا الجديدة إلى معارضة خصائص ثقافتهم التقليدية ، بل قد تمتد هذه المعارضة إلى رفض استعمال لغاتهم التقليدية ، أو بعض الخصائص المعقدة فى هذه اللغات .

ولنذكر على سبيل المثال بعض الأسئلة العامة لعملية تبسيط وانقراض بعض الخصائص النحوية المعقدة فى لغات منطقة غينيا الجديدة ، وأستراليا . من ذلك انقراض تقسيم الأسماء المعقد الذى لاحظه "ليكوك" (١٩٧٥) لأول مرة فى أثناء أبحاثه بالجزء الشمالى من منطقة بابوا / غينيا الجديدة فى (١٩٧٠ - ١٩٧١) حيث درس لغة "بونا" ، إحدى اللغات البابوانية فى المنطقة . وكان "كِرْشْبوم" (١٩٣٦) قد ذكر وجود نظام للأسماء شديد التعقد فى هذه اللغة يضم ١٢ قسما ، ولكن لم يبق فى (١٩٧٠ / ١٩٧١) أى أثر لهذا التقسيم ، بل إن الشيوخ ، الذين ظلوا على قيد الحياة حين أجرى كرشباوم أبحاثه ، لم يعودوا يتذكرون شيئا عن هذا التقسيم ، ولاحظ ليكوك (١٩٧٣) أمرا مماثلا ولكنه أكثر غرابة بشأن لغة (موريك) وهى لغة بابوانية أخرى من لغات المنطقة فى إقليم بابوا / غينيا الجديدة وخلاصته أن شميدت (١٩٥٣) كان قد ذكر وجود نظام معين لتقسيم الأسماء ، ولكن ليكوك اكتشف بعد عشرين عاما أن هذا النظام انقرض من اللغة . ومن اللغات البابوانية الأخرى فى المنطقة لغة "ماونتين أرابيش" التى ذكر المراقبون السابقون أنهم وجدوا فيها نظاما معقدا للأسماء ، ولكن ليكوك اكتشف أن هذا النظام فى طريقه إلى الزوال .

ومن الأمثلة الأخرى لنظام أقسام الأسماء الشديد التعقد والآخذ فى الانحلال والزوال ذلك المثال المستمد من لغة "أيبوو" الشائعة فى جزر رِيف بأرخبيل سانتا كروز الواقع عند أقصى الطرف الشرقى من سلسلة جزر سليمان (سولومون) ، مع ملاحظة أن إنحلال هذا النظام وزواله يتناسبان طرديا مع تناقص أعمار المتكلمين بهذه اللغة ، وهى لغة أبوانية تتأثر بشدة باللغات الأسترونيزية (الملايو بولينيزية)

وبخاصة فى مفرادتها ، وتمتاز بنظام لتقسيم الأسماء مبنى على دلالة الألفاظ ، واستخدام سابقة (أو بادئة ، وهى أداة تضاف إلى أول الكلمة لتكسبها معنى جديدا) فى صدر كل اسم للدلالة على قسم هذا الاسم . ويلاحظ فى ١٦ قسما من أقسام الأسماء ولا سيما المصدَّرة بسابقةٍ أن الصفات والأعداد والمجرورات والضمائر الشخصية كلها توافق الأسماء المصاحبة لها فى التذكير والتأنيث . وهذه الموافقة تشبه – إلى حد ما – ما هو معروف فى اللغة الفرنسية أو الألمانية . ويلاحظ أن مدى هذه الموافقات التى تسمى فى علم اللغويات باسم "الموافقات النحوية" يختلف باختلاف أقسام الأسماء . مثال ذلك أن خمسة فقط من أقسام الأسماء تظهر فيها الموافقة التامة بين الصفات والأعداد والمجرورات وبين أقسام الأسماء المصاحبة لها . ولكن فى أربعة أقسام أخرى من أقسام الأسماء لا تظهر الموافقة إلا مع الصفات والمجرورات دون الأعداد. وفى خمسة أقسام أخرى لا تظهر الموافقة إلا مع الصفات، وقلما تظهر مع الأعداد . وفى قسمين آخرين لا توجد الموافقة إلا مع الأعداد .

وإلى جانب هذه الأقسام الستة عشر يوجد أكثر من ٣٠ قسما فى اللغة تمتاز أيضا بسابقة مضافة إلى الاسم . ولكن الصفات والمجرورات تكون مسبوقة ببادئة (سابقة) تدل على أنها تصاحب – بصورة مباشرة – اسما معينا دون أن يكون لهذه البادئة أشكال متفرقة تدل على الأقسام المختلفة التابعة لها .

وجدير بالذكر أنه كلما تقاصرت أعمار المتكلمين باللغة تجاهلوا نظام الموافقات النحوية المشار إليه آنفا . فمنذ عشرين عاما مضت كان المتكلمون من كبار السن يتبعون نظام الموافقات النحوية عندما يتكلمون اللغة ، أما اليوم فهم تارة يتبعونه وتارة يخالفونه .

ومن الواضح أن النظام الذى يتجاهل الموافقات النحوية أصبح هو المحصلة النهائية لاطراد التبسيط فى اللغة ، وزوال التراكيب النحوية المعقدة . وأغلب الظن أن

نظام الموافقات النحوية كان منذ أجيال قليلة أكثر تعقدا مما سبق ذكره .

ومن أمثلة التبسيط الذى حدث في اللغة ، وانقراض التراكيب النحوية المعقدة ، ما طرأ من تغيير على تراكيب الأفعال فى لغة "أيْلاند كيواى" الشائعة فى دلتا نهر فلاى بالجنوب الغربى من إقليم "بابو – غينيا الجديدة" . وبيان ذلك أن هذه اللغة تشتمل على أربعة أنواع من الأفعال متعددة العدد هى الفعل المفرد ، والفعل المثنى ، والفعل الثلاثى ، والفعل المتعدد . وتتميز هذه الأفعال الأربعة بسابقة أو لاحقة . وهذا التقسيم العددى فى الأفعال ينطبق أيضا على بيان الفاعل والمفعول فى صيغ الأ فعال . وفي هذه اللغة ست صيغ زمنية؛ أثنان منها للماضى ، وواحدة للحاضر ، وثلاث للمستقبل . وتتميز هذه الصيغ الزمنية بنظام معقد من السوابق واللواحق ، وصيغ زمنية خاصة للسوابق واللواحق التى تبين عدد الفاعل ، وصيغ زمنية خاصة لسوابق الفاعل مع الإشارة إلى الزمن مراتٍ عديدةً فى كثير من صيغ الأفعال . وفى هذه اللغة أيضا طرق معقدة لنظام الحدَث تبين وقوعَ الحدَث في لحظة معينة أو تكراره أو استمراره أو عدم وقوعه بصورة كاملة إلخ ، وكذلك تتبين تلقائية الحدَث (حدوثه بطريقة تلقائية ذاتية) ، واستخدام الحدث لغرض معين إلخ ، كما يوجد فى اللغة نظام معقد للصيغ الاعتيادية (الدالة على العادة) ، وعدد مختلف من صيغ الأمر ، وغير ذلك من الصيغ المعقدة للأفعال .

وجدير بالذكر أنه كلما تقاصرت أعمار المتكلمين تقدمت عملية التبسيط فى تركيب اللغة. وهذا يعنى أن التبسيط يتناسب تناسبا طرديا مع زيادة الإلمام باللغة الإنجليزية ، وارتفاع مستوى الثقافة الحديثة عند المتكلمين . ويتجلى كثير من التبسيط فى تحويل الصيغ النحوية من مجال الوجوب إلى مجال الجواز ، بمعنى أن المتكلمين قد يلتزمون أحيانا بالأعداد والأزمنة المعقدة إلخ ، ولكن كلما تقاصرت أعمارهم اختزلوا الأعداد إلى مفرد وجمع فقط واستخدموا ثلاث صيغ زمنية فقط : " صيغة للماضى ، وأخرى للحاضر ، وثالثة للمستقبل ، دون أن يبينوا كثيرا مما سبق ذكره فى صيغ الأفعال وإن فعلوا ذلك أحيانا .

ولنظرب لك مثلا يوضح ذلك من إحدى لغات السكان الأصليين فى أستراليا ، ألا وهى لغة "كاميلا روى" التى شاع استعمالها سابقا فى شمال مقاطعة "نيو ساوث ويلز الوسطى" فنقول " وصف هذه اللغة عدد من اللغويين منذ قرن مضى ، فقالوا إن من أبرز خصائص هذه اللغة وجود نظام للأزمنة فى غاية التعقيد ، حيث توجد صيغ خاصة من الأفعال تبين أوقاتا معينة من أوقات النهار كشروق الشمس وغروبها . وقد دار حوار مسجل مع آخر الفصحاء فى هذه اللغة ممن يتكلمونها بطلاقة ، وتبين من حديثهم أن كثيرا من هذه الأزمنة المعقدة قد انقرض من اللغة بعد أن كان فى العصور السابقة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للدورات السلوكية عند حيوانات الصيد . وكان هؤلاء المتكلمون الفصحاء من كبار المسنين الذين كفوا عن الصيد منذ عشرات السنين . ولذلك لم يعد هذا النظام المعقد من الأزمنة المتعلقة بسلوك حيوانات الصيد يهمهم فى شئ ، ومن هنا انقرض من لغتهم .

ومما تقدم ذكره يتبين أن تبسيط الصيغ النحوية وانقراضها فى عدد من لغات غينيا الجديدة وأستراليا يرجع إلى ما طرأ من تغيير على ثقافة الناطقين بهذه اللغات . ويبدو واضحا أن ضغط الثقافة الأوربية الدخيلة أدى بالتدريج إلى القضاء على الثقافة التقليدية للمتكلمين بهذه اللغات ، فحلت محلها صورة من الثقافة الأوربية لم تستوعبها أفهام هؤلاء القوم فى أغلب الأحيان ، وكانت النتيجة أن أصبحت المفاهيم القومية التقليدية المعقدة أمرا لا ضرورة له ، بعض انقراض الثقافة التقليدية بكل مفاهيمها .

غير أن بعض اللغويين يحتجون عادة بأن تغير التراكيب اللغوية ينشأ عن التأثير المباشر الذى تمارسه إحدى اللغات على لغة أخرى فى أثناء اتصال اللغات بعضها ببعض . ولكن يعترض على هذا الرأى بأن كثيرا من شباب المتعلمين الذين يجنحون فى كلامهم إلى تبسيط التراكيب النحوية على النحو الذى سلف ذكره لا يعرفون اللغة الإنجليزية التى هى لغة الثقافة الأوربية الدخيلة فى ذلك الجزء من العالم . وهنا يبدو شئ من التناقض بين ما ذكرناه فيما سبق وبين رأى اللغويين السالف الذكر . وللتوفيق بين هذين الرأيين نقول إن اللغة الإنجليزية الركيكة المعروفة باسم Pildgin

تؤدى دورا حيويا فى هذا المجال . ذلك أن معظم أفراد الجيل الناشئ فى منطقة غينيا الجديدة يعرفون هذه اللغة الإنجليزية الركيكة التى تعكس فى تراكيبها تفكير الوطنيين ، ولكن بصورة مخففة . مثال ذلك أن نظام أقسام الأسماء غير معروف فيها وأن نظام الأزمنة لا يبدو فيها إلا بصورة أولية ، وإن كانت هذه اللغة لا تخلو من بعض التراكيب المعقدة . ويبدو واضحا أن تغيير المفاعيم الوطنية يرجع فى الواقع إلى تدخل أساليب التفكير الأجنبية بواسطة أداة لغوية خاصة ، هى اللغة الإنجليزية الركيكة التى تمثل مرحلة انتقال بين المفاهيم الأوربية والمفاهيم الوطنية ، ولكن هذه اللغة تمتاز بأنها مبسطة فى تراكيبها بحيث لا تصف بالدقة الزائدة المعروفة فى تراكيب اللغة الوطنية الأصلية . ولذلك يوجد فى غينيا الجديدة اتصال لغوى عن طريق هذه الإنجليزية الركيكة التى تساعد على إقحام مفاهيم غربية أجنبية فى مفاهيم الثقافة الوطنية، وفى الوقت نفسه تشكل وسيلة مبسطة للتعبير ، وبذلك تمارس ضغطا يفضى إلى اختزال التعقيدات النحوية فى اللغات القومية التى تجنح إلى اختيار مفاهيم من الثقافة الدخيلة ، وإقحامها فى مفاهيمها التقليدية . ويعزز هذه العملية أن شباب الناطقين باللغات الوطنية هم أنفسهم الذين يزدادون إلماما بهذه المفاهيم الأجنبية .

ونواصل الكلام فى هذا الموضوع فنقول : إنه يجدر بنا أن ننظر إلى ظاهرة أخرى شائعة فى كثير من اللغات البابوانية ، هى ما يسمى "بالأفعال المتوسطة" ، وهى الأفعال التى تقع فى وسط الجملة وقبل الفعل الأخير (الذى هو الفعل الأساسى) . فبينما تجد الفعل الأخير فى الجملة مُعْرباً أى يتغير بتغير الأشخاص والأعداد والأزمنة ، وغير ذلك من السمات النحوية ، نجد الفعل المتوسط يكون مبنيا (غير معرب) ، ولكن على القارئ أن يستنبط مما يدل عليه الفعل الأخير بعض السمات النحوية ، مثل شخصية الفاعل (هل هو المتكلم أم المخاطب أم الغائب) وعدده إلخ . وفى كثير من اللغات علامات خاصة فى صيغ الأفعال المتوسطة تبين: هل فاعل الفعل المتوسط وفاعل الفعل الأخير هما شخص واحد أم شخصان مختلفان، وإذا كانا مختلفين فما وجه الاختلاف بينهما ، مثال ذلك : هل فاعل الفعل الأخير هو المتكلم ، وهل فاعل الفعل المتوسط هو النائب . وهناك طرق خاصة فى صيغ

الفعل المتوسط تبين وجه الارتباط بين هذين الحدثين : الحدث الذى تدل عليه صيغة الفعل المتوسط ، والحدث الذى تدل عليه صيغة الفعل الأخير ، كأن تبين – مثلا – هل الحدثان متتابعان فى الحدوث أى يحدثان على التتابع ، أم يحدثان فى وقت واحد ، أم أن الحدث الثانى هو نتيجة الحدث الأول ، وهكذا. وجدير بالذكر أن استقصاء أوجه الارتباط بين الحدثين شديد التعقد لأن المفاهيم المختلفة التى تكمن وراء ذلك تختلف أحيانا كل الاختلاف عنها فى اللغات الأوربية ، وترجع المفاهيم فى اللغات البابوانية إلى الثقافة التقليدية ، كما تعكس أساس التفكير فى هذه الثقافة .

وقد لوحظ أن شباب الناطقين باللغات المشتملة على مثل هذه الأفعال المتوسطة المعقدة يميلون إلى تبسيطها بصورة ملحوظة ، ويجنحون بصفة خاصة إلى نبذ الصيغ المشتملة على ملامح التفكير فى الثقافة التقليدية ، كما يجنحون فى الوقت نفسه إلى استعمال بعض طرق الدلالة على المفاهيم الخاصة بالارتباط بين الأحداث الموجودة فى اللغات الأوربية وبخاصة اللغة الإنجليزية الركيكية . وعلى الرغم من أن هذه اللغة أو اللهجة الركيكة (وبخاصة اللهجة التى تداولتها الألسنة منذ أكثر من ربع قرن مضى فى مرتفعات بابوا – غينيا الجديدة حيث توجد فى معظم اللغات البابوانية المحلية نظم معقدة من الأفعال المتوسطة) تتضمن بعض التراكيب المشتملة على صيغ الأفعال المتوسطة بطريقة أولية (ويرم ، ١٩٦٦) فإنها فى تراكيبها الأساسية تشبه اللغات الأوربية فى هذه الناحية ، وتشغل مركزا متوسطا بين طريقة التعبير فى اللغات الغربية ، واللغات البابوانية فى منطقة غينيا الجديدة . وهناك نوعان من صيغ الأفعال المتوسطة تحول فيها الشباب بصورة واضحة عن طرق التعبير التقليدية ، وهما الصيغ المميزة بين معرفة شخصية الفاعل فى كلا الفعلين وعدم معرفتها ، والصيغ الدالة على سبب الحدث . وفى اللغات البابوانية يختلف مفهوم السبب اختلافا جذريا عنه فى اللغات الأوربية ، ولكننا نلاحظ هنا بوضوح موقفا تراجعت فيه الثقافة التقليدية كليا أو جزئيا بتأثير الثقافة الأوربية الدخيلة مما أدى إلى انتحال مفاهيم هذه الثقافة وأساليب التفكير فيها مع ازدياد هذا التأثير بتقاصر أعمار المتكلمين الوطنيين باللغات المحلية . وكانت أداة هذا التطور هى الإنجليزية الركيكة التى قامت بدور الوسيط فى انتقال المفاهيم بين الثقافتين .

وجدير بالذكر أن ما ذكرناه آنفا تؤيده المشاهدات المستمدة من منطقة ولغة أخرى مختلفة تماما ، ألا وهى اللغة الركيكية الحديثة . وبيان ذلك أن اللغة التركية تشتمل أيضا على أفعال متوسطة تتسم ببعض التعقيد ، وإن كانت هذه الأفعال أبسط تركيبا من نظائرها فى اللغات البابوانية . فمنذ نصف قرن كانت هذه الأفعال المتوسطة تستخدم فى العقد الرابع من هذا القرن بكثرة فى اللغة التركية ، وكانت الصلة بين صيغ الأفعال الشبيهة بما هو موجود فى اللغات الأوربية الغربية ضعيفة للغاية باستثناء حالات قليلة جدا ، مستمدة من اللغة الإيرانية التى هى أيضا لغة هندية أوربية ، تتعاقب فيها الأحداث التى تستعمل صيغا فعلية وتراكيب صرفية شبيهة بما هو موجود فى اللغات الأوروبية ، بيد أن الجيل الناشئ من الأتراك يميل ميلا واضحا إلى أن يستخدم فى الجمل التى تشتمل على فعلين أو أكثر أفعالا معربة إعرابا كاملا فى كل المواضع مع استخدام "واو" العطف وغيرها من أدوات العطف بين هذه الأفعال . وظلوا يستخدمون الصيغ المتوسطة أيضا ، ولكن بقدر قليل . ويبدو أن هذه الصيغ أخذت تنقرض من لغة الشبان الأتراك شيئا فشيئا . وتشاهد هذه الظاهرة فى المدن الكبرى بصفة خاصة مثل استانبول . ويبدو أن السبب فى هذا التطور يرجع إلى اتصال عدد كبير جدا من الأتراك بالثقافة الغربية وبخاصة الألمانية خلال العقود الأخيرة التى نزح فيها عدة آلاف من الأتراك إلى بلدان أوربا الغربية ، وبخاصة ألمانيا ، كما نزحوا إلى بلاد أخرى كعمال مهاجرين . وأقام الكثير منهم فى تلك البلدان عشرات السنين ، ونشأ أطفالهم فى تلك البقاع واصطبغوا بالصبغة الغربية فى تفكيرهم وميولهم واتجاهاتهم . وفى الوقت نفسه نشأت لهجات لغوية ركيكة من اللغات المحلية وبخاصة اللهجة الألمانية الركيكية ، وصارت هذه اللهجات أداة اتصال بين الأتراك والسكان المحليين . وكانت هذه هى الأداة اللغوية التى عرف الأتراك عن طريقها مفاهيم السكان المحليين بطريقة أولية ، كما عرفوا أيضا التراكيب الموحدة فى اللغات المحلية . ولما كان التفكير والتعبير يختلفان فى اللغة التركية عنهما فى اللغة الألمانية – مثلا – اختلافا جذريا، ولما كانت الإشارة إلى الحدث فى الجملة الألمانية تتم باستعمال عدد من الأفعال المتعاقبة مع عطف كل فعل على الآخر ، فى حين أن الفعل الأخير فى اللغة التركية هو الفعل الرئيسى وبقية الأفعال المتوسطة الأخرى تابعة له ، فقد كان للمحاولات الأولية من جانب المتكلمين الأتراك للتعبير عن أفكارهم بالألمانية أو بأى لغة محلية أخرى فى أوربا تأثير عميق

على أفكارهم التى يعبرون عنها فى لغة الكلام . وكانت ممارستهم لهذا الأمر خلال عشرات السنين وتعلم كثير من أفراد الجيل الناشئ اللغة الألمانية كاملة أثر عميق على تفكير وتعبير الأتراك الذين أقاموا فى أوربا ردحا طويلا من الزمن.

وعند عودة عدة آلاف منهم إلى تركيا فى السنوات الأخيرة ، مع استمرار هذا الاتجاه لديهم بكل قوة ، جلبوا معهم أسلوبا جديدا من التعبير اللغوى . ولما كان هؤلاء الأتراك العائدون يحظون بقدر كبير من الاحترام لدى الشعب بفضل ما جلبوه معهم من مال وخبرة، فضلا عن تحرر أفكارهم ، فإن الناس احترموا أسلوب حديثهم وقلدوهم فيه ، وبخاصة الجيل الناشئ ، مما أدى إلى الموقف السالف الذكر بشأن الطريقة التى يستخدم بها اللغة كثير من شباب الأتراك اليوم .

وهنا أيضا نرى موقفا تمارس فيه ثقافة مسيطرة تأثيرا قويا على ثقافة أخرى تختلف عنها تمام الاختلاف عنها سواء فى أسلوب التعبير اللغوى أو فى استخدام صور مغايرة من التراكيب فى لغة الكلام . ويؤدى هذا التأثير القوى إلى التقريب بين اللغة المؤثرة والمتأثرة من حيث التراكيب اللغوية . وتتم ممارسة هذا التأثير بواسطة أداة لغوية مفهومة للمتكلمين باللغة المؤثرة واللغة المتأثرة . وتقوم هذه الأداة بدور الوسيط بين الثقافتين وأساليب التفكير فى كل منهما .

ولذلك يبدو أن السبب فى تبسيط صور التراكيب اللغوية المعقدة وانقراضها نهائيا من اللغة هو فى أساسه نتيجة تغير وزوال الثقافة التقليدية عند المتكلمين بهذه اللغة ، بتأثير قوى من ثقافة مسيطرة ، تختلف أساليب التفكير فيها اختلافا تاما عما هو سائد فى اللغة الواقعة تحت هذا التأثير . وبالمثل فإن التراكيب المعبرة عن الأفكار فى اللغة التابعة للثقافة المسيطرة تختلف تماما عن التراكيب المعبرة عن الأفكار فى لغة الثقافة التقليدية المتأثرة بالثقافة المسيطرة ، ومن الضرورى وجود أداة لغوية تقوم بدور الوسيط بين الثقافتين حتى يحدث هذا التأثير . وعادة ما تكون هذه الأداة عبارة عن "لهجة ركيكة" تكون بمثابة "همزة الوصل" بين الثقافتين . ولذلك يبدو أنه

ليس ثمة وجه للتناقض بين الرأى الذى عبرنا عنه هنا (أى الرأى القائل بأن تغير التراكيب اللغوية ليس نتيجة الاتصال بين اللغات فى حد ذاته ، بقدر ما هو نتيجة لإقحام أفكار أجنبية فى ثقافة الناطقين باللغة التى تغيرت تراكيبها) وبين الرأى الذى يذهب إليه عامة اللغوين ، ومؤداه أن التغيرات التى تطرأ على التراكيب اللغوية هى نتيجة مباشرة للاتصال بين اللغات . وعلى الرغم من أن إقحام الأفكار الأجنبية فى الثقافة الوطنية هو السبب الأساسى فى تغير التراكيب اللغوية نتيجة تغير المفاهيم فى اللغة المتأثرة ، فإن الانتقال الآلى المباشر لمفاهيم الثقافية الجديدة إلى الثقافة المتأثرة ، وانتقال التراكيب اللغوية التى تقوم بوظيفة التعبير عن هذه المفاهيم ، إنما يحدثان عن طريق لهجات خاصة تقوم بوظيفة الاتصال بين الثقافات .

ستيفن أ . ورم

الجامعة الوطنية الأسترالية

BIBLIOGRAPHY

KIRSCHBAUM, FRANZ J., 1926. "Miscellanea aus Neuguinea," *Anthropos* 21: 274-277.

LAYCOCK, DONALD C., 1973. *Sepik Languages – Checklist and preliminary classification. Pacific Linguistics*, Series B, No. 25.

—, 1975. "The Torricelli Phylum," in Wurm, ed. 1975, 767-780.

SCHMIDT, JOSEPH, 1953. *Vokabular und Grammatik der Murik-Sprache in Nordost-Neuguinea. Microbibliotheca Anthropos* No. 3.

WURM, STEPHEN A., 1966. *New Guinea Highlands Pidgin: Course Materials. Pacific Linguistics*, Series D, No. 3.

WURM, STEPHEN A., ed., 1975. *New Guinea Area Languages and Language Study*, vol. 1: *Papuan Languages and the New Guinea Linguistic Scene. Pacific Linguistics*, Series C, No. 38.

بقلم / پيتر موهلهاوسلر

تطور لغات
البدچان فى المحيط الهادى

اللغات البدچانية نظم اتصال مبسطة وسهلة بشكل خاص لتستجيب لحاجات التواصل بين متحدثين من ذوى اللغات المختلفة والمتعددة. لقد تولدت من هذه الاحتياجات، وتغيرت تبعا للظروف، واختفت عندما أصبحت عديمة الجدوى، لأن اللغات البدچانية حسب تعريفها هى لغات ثانوية يستخدمها البالغون والمهنيون، وهى غير متناقلة (إلا فى حالة التحول إلى الكريول) إلى جيل جديد من الأطفال.

ونجد أنواعا من البدچان، فى كل أنحاء العالم، حيث تتصل الجاليات اللغوية المختلفة، لا يتعدى أمل بعضها فى الحياة فصل الصيف، بينما بعضها الآخر مثل البدچانية الإنجليزية المهجنة مع الصينية عاشت أكثر من قرن. لقد اعتبرت هذه اللغات هامشية لوقت طويل ولذلك همشها الباحثون، ونالت دراستهم منذ وقت قليل اهتماما وأصبحت مساهمة محترمة لدى علم اللغة الحديث.

إن خليطا من الشعور بالحب والكره لدى بعض اللغويين والمعلمين والمؤرخين أدى إلى اعتبار هذا المجال دائما متصلا بما سنحاول تلخيص الخط التالى : التعددية. تعتبر اللغات

المترجم : الدكتور محمود العزب

البدچانية كحرباءة بين اللغات، فهى بين اندفاع وتقوقع حسب الطلب، وهى تغير تكوينها المعجمى حسب قوة الصلة بين المتكلمين، وكذلك حسب المستعمين زمانا ومكانا وتواجدا جغرفيا، وهى تميز أو تحدد بصعوبة اللغة الأم لكل متكلميها.

إن فكرة تكيف لغة ما مع الظروف الخارجية، والتغير الشديد فى وقت قليل تسجل بشكل مباشر خطا معارضا لما درس "فرديناند دو سوسير" وتابعوه تحت عنوان "علم اللغة الحديث" فيما يتعلق بطبيعة اللغة، والدراسات اللغوية بشكل عام. وتحمل نقاط الأزمة خصوصا - فيما يتعلق بالمذهب المكرس - على ما يلى :

أ - أن اللغات تكون أنظمة مغلقة.
ب - أن اللغات تتشخص حسب مفاتيح ثانية لا تتغير، شائعة بين المتكلم والسامع.
جـ - أن أحسن طريقة لتعلم لغة ما هى الطريقة التزامنية، التى تعتمد النظام اللغوى فى لحظة ما، دون اعتبار لكل مظاهرها البيئية والمتغيرة.

قبل البنيوية كانت اللغات البدچانية تطرح مشكلات، لأن صلة القرابة كانت تستعرض فى شكل شجرة التوالد مجئ التحويلية، كانت ما زالت تطرح أمثلة صعبة الشرح لحركة تحويلية توليدية قادرة على تغيير قواعد اللعبة بشكل جزئى، بينما علم اللغة بمبدئة يرتبط باعتبار اللغة نموذجا لإبداعية خاضعة لقواعد ثابتة.

وتبقى بديهيا طريقة أخرى لاعتبار اللغات البدچانية - طريقة مطلوبة - منذ أكثر من قرن عملها ماكس موللر "Max Mueller" من جامعة أكسفورد، لدراسة اللغة بشكل عام و"البحث عن القوانين التى تحكم أصل اللغات وتيسر نموها، وتبطئ بالضرورة اضمحلالها".

وسأضطر فى الصفحات التالية إلى تطبيق هذا المنهج على اللغات البدچانية فى المحيط الهادى. وهى منطقة غنية جدا فى المادة، غنية جدا إلى درجة أنها تشكل الآن موضوع مشروع عالمى عظيم للبحث، وهو أطلس لغات التواصل بين الثقافات فى منطقة

المحيط الهادى*. موجة إلى تعريف وتحديد موضع على الخريطة لمجال كل منها، وكذلك لتعريف وتحديد موضع اللغات الأخرى التى تقوم بدور كبير فى التواصل وهى ليست من البدچانية[1]. والاستنتاجات المتطورة فى دراستنا هذه تتبع المشروع الذى أشرت إليه والذى وجدت نفسى مشاركا فيه.

اللغات البدچانية واللغات الأخرى بين الثقافات فى المحيط الهادى

ملاحظات عامة : تقدم منطقة المحيط الهادى تنوعا كبيرا فى اللغات ، وهذا التنوع لا يوجد أكبر منه إلا فى ميلانيزيا، وغينيا الجديدة، وجزر سليمان، وكاليدونيا الجديدة، والهيبريد الجديدة، حيث يمكن أن نعد حوالى ألف وخمسمائة لهجة مختلفة لعديد من السكان يقرب من أربعة ملايين نسمة. وهو تنوع لم يرد أبدا أن يسمى منفصلا أو منعزلا على الخريطة اللغوية على الأقل.

إن ممارسة الاتصال عبر الموانع اللغوية كانت قد توطنت بحزم فى المحيط الهادى قبل وصول الأوربين بزمن طويل، وهى ضرورة استدعتها كثرة الزيجات الأجنبية، والتبادلات التجارية وتيارات الهجرة. وعلى المستوى النظرى فأن مسألة معرفة كيفية الاتصال مع إنسان لا يشاركك اللغة يمكن أن تحل بطرق مختلفة منها :

أ – لغة الإشارة.

ب – اللجوء إلى مترجم.

---

* هذا المشروع قدم كمبادرة من الأستاذ فورم Vurme بالاشتراك معى ، وقد وصل إلى نتائج جديدة عن طريق باحثين من جامعة أكسفورد وجامعة استراليا الوطنية تحت رعاية الاتحاد الأكاديمى العالمى ، وهنا أذكر اعترافى بالفضل لجامعة أكسفورد وللأكادمية البرطيانية لمعونتهما الكريمة جدا التى أوليت لهذا المشروع

١ – Lingua franca هو المصطلح العام الذى يغطى مجموع اللغات من بدچانية وغيرها ، المستخدمة فى التواصل فيما بين اللغات ، وكقاعدة عامة فإن استخدام لغة ما كلغة رئيسية يتضمن درجة ما من التبسيط أو البدچانية (التحول إلى البدچانية) .

ملحوظة : يذكر القاموس اللغوى "لاروس" أن هذا المصطلح يطلق على لغة مزيج كانت حية حتى القرن التاسع عشر فى موانى البحر المتوسط ، وهى ذات أساس إيطالى وبها عناصر لغوية رومانية ، وتطلق على كل لغة مشابهة لما ذكر" المترجم .

جـ ـ الأزدواجية اللغوية أو التعدد اللغوى بمعنى أحادى أو مضاعف.
د - استخدام لغة فاصلة ذات تواصل كبير ومألوف للمتحدث والمخاطب.
وأخيرا - وعلى وجه الخصوص - فى الموضوع الذى يهمنا، وهو :
هـ - تطور اللهجة البدجانية.

وعلى مستوى تاريخى فأن كل الحلول المذكورة آنفا كانت مستخدمة ومؤكدة فى عموم منطقة المحيط الهادى. واختيار الحل المناسب المتبنى يعرف باعتبارات كثيرة خارجية (أى دون أية علامة بعوامل التراكيب اللغوية البحتة) منها :
أ - المدة، وإنشاء الاتصالات.
ب - عدد المجموعات المعنية .
جـ - درجة التآلف بين المجموعات.
د - علاقات القوى داخل المجموعات.
هـ - أهمية الكمية الخاصة بالمجموعات المعنية.
و - توجيه التبادل.

وهكذا، فبخصوص التبادل الاتفاقى المحمول على نسق إنتاج منتشر قليلا، فأن المقايضة الصامتة تكفى. وبخصوص الزواج الذى يتم عادة بين عشائر مختلفة - وهو معتاد بين طوائف مختلفة اللغات (Exogamique) - فإن إزدواج اللغة يقدم حلا أكثر قابلية للبقاء من اللجوء إلى خدمات المترجم الذى يدعى فى حالة الاتصال الدبلوماسى الذى يتم على أعلى مستوى.

وقد سهل تكوين اللغات البدجانية عن طريق حضور عدد كبير من المجموعات غير المتجانسة، وعبر الرغبة فى المحافظة على مسافات بين هذه المجموعات غالبا فأن سيطرة إحدى هذه المجموعات التى تمارس الاتصال تلعب دورا ما وأن كان ليس دائما فيما يخص الشروط التركيبية المطلوبة، فاننا نؤكد أن التكوين النموذجى للغة بدجانية مسهل بواسطة مسافة وراثية بين التواصلات اللغوية الحاضرة. إن البدجانية الألمانية والبدجانية الهولندية لا تخطر ببال المتكلم الألمانى تلقائيا رغم أن البابوا وغرب إفريقيا دلت على ضرورتها. وكذلك فأن تعدد البدجانية الإنجليزية يرد على شفاه الصينيين والميلانيزيين واليابانيين، بينما لا تعرف مثالا لبدجانية إنجليزية دانماركية أو هولاندية فى إطار مؤسسى (كمؤسسة لغوية)

البدچانية – وهو جزء من تعريفهم – فهم إذن أكثر من نتيجة لجهود حديثى التنصر، لتحطيم موانع التواصل بين الثقافات. إنهم يمثلون حلولا جماعية شاملة لمعايير اجتماعية مقبوله من طرف القواعد والمعجمات.

وفى استخلاصنا للغات البدچانية في المحيط الهادى سيكون أمرا حسنا أن نفرق بين عدة مراحل فى تاريخ وفى تطور هذه المنطقة :

أ – قبل الاتصالات الأولى مع الغرب (بشكل عام قبل عام ١٨٠٠، ولكن بخصوص عدة زوايا منعزلة فى غينيا الجديدة فليس قبل عام ١٩٦٠).
ب – فترة ما قبل الاستعمار. وهى مستمرة حتى حوالى سنة ١٨٨٠.
جـ – فترة الاستعمار (حتى حوالى ١٩٧٥).
د – فترة ما بعد الاستعمار.

وكل واحدة منها، كما سنرى فيما يلى، متمثلة فى نموذج مختلف للتواصل بين الجامعات، من حيث الأنماط المختلفة للحلول اللغوية.

قبل الاتصالات الأولى مع الغرب

على كل حال فإن عملية أو نظرية ما قبل الاستعمار تنتمى إلى ما قبل التاريخ لأنها لا تحمل لنا أية وثائق مكتوبة عن عدد حركات الهجرة، ولا عن تبادل المعلومات التى كان من الممكن وجودها بين شعوب الحضر . وقد عطلت إعادة التركيب اللغوى العوامل الآتية :

أ – التسلسل الزمنى القصير الذى يمكن الصعود معه بدرجة من الثقة، ٥٠٠ عام على أكثر تقدير ب – والأخطر من ذلك غياب أى نموذج يمكن أن يعرض التنوع اللغوى، فيما عدا ما يخص الجيل العفوى (التلقائى)، عن طريق انفصال اللغات التى كانت بادئ ذى بدء متحدة.

ونسجل هنا على وجه الخصوص غياب أية منهجية ضعيفة لإعادة تركيب ظواهر تهجين اللغة، والتبدجن (التحول إلى البدچانية). والتكريول (التحول إلى الكريول)، والتدخل الإنسانى المتعمد فى التركيبات اللغوية. وكذلك النظريات اللغوية التاريخية. هل هى في حالة

تلمس للإسناد على أنماط أخرى مثل ما قبل التاريخ. والتزايد السكانى، والجغرافيا. واللغة البدچانية تضعنا أيضا فى مواجهة إعادة التركيب التى تأتى بالمصادفة، جاذبة انتباهنا إلى إمكانية التغيرات فى النحو والمفردات فى هذه اللغات، فى إطار عملية التحول إلى البدچانية أو إلى الكريول الناتجة عنها.

ولا مجال هنا للإحاطة بالمشروع الطموح لإعادة تكوين الصورة اللغوية لمنطقة المحيط الهادى على بعد المسافات الشاسعة. ويكفينى أن أحاول الإجابة على سؤال بسيط : فى أى ظروف أختار سكان المحيط الهادى فيما قبل التاريخ حل التحول إلى اللغة البدچانية وفضلوه على لغة أخرى، كوسيلة للتواصل بين المجموعات ؟

كان الباحثون يميلون خلال وقت طويل إلى تقبل فرضية أن استخدام البدچانية كان استثنائيا، وفى بعض المناطق، مثل القارة الأسترالية يتجاهل أنها لم توجد أبدا. لقد استعارت الاتصال بين الجامعات طريق التعددية اللغوية المتطورة إلى أقصى درجة، بالإضافة إلى بعض الوسائل الأخرى المشار إليها سلفا. ولا تقدم قائمة مراجع رينكة وزملائه "(Reinke et al.) و عن اللغات البدچانية (حوالى ١٩٧٥ كمثال وحيد للهيرى موتو hiri motu كصيغة للتبدچين، للغة الموتو المتحدثة فى ميناء بلورموريسبى Port Moresby فى غينيا الجديد پاپو، فى الأصل وجدت لهجة تجارية أهلية مستعملة خلال البعثات التجارية السنوية هيرى (hiri) فى الخليج الپاپوازى.

وثمة بحوث أحدث من ذلك تدعو إلى التفكير فى أن هذه اللغات التجارية كانت أكثر انتشارا، خصوصا فى الأرخبيل الميلانيزى، وهكذا استطاع باحثو الجامعة الوطنية الأسترالية، أن يحددوا أثر لغتين تجارتين على الأقل، مستخدمين لدى "الموتو" فى اتصالاتهم مع الألى Elemes والكوريكيين Dutton Korikis (١٩٨٣). وهناك نوعان من البدچانية التجارية مشتقان من الميكيو mékéo وآخران مشتقان من لغة البابو لدى شعب ييماس Yimas... وغيرها أيضا.

وتوحى أعمال فولى Foley (١٩٨٥)، أنه فى المنطقة الوحيدة للسابيك Seeik وجد حوالى ١٢ لهجة بدچانية، تستخدم كل واحدة منها بين أعداد من سكان قريتين فقط، وبعض القرى ذات اتصالات عديدة وتستخدم كل منها عدة لهجات بدچانية بالتالى. فى تلك اللهجات المختلفة فى غينيا الجديدة من المناسب أن تضاف بدچانية مشتقة من "الفيدجى"

ومتحدثة فيما بين الفيدچيين وقرب سواحل "التونجا"، وكذلك بعض اللهجات البدچانية التجارية.

يبدو أن أكثرية هذه اللهجات أو كلها يبدو أنها ولدت قبل الاستعمارية نتيجة لتوزيع غير عادل للسلع الأساسية، خالقة بذلك الحاجة إلى التبادلات التجارية العادية. وثمة خطوط مميزة أخرى هى أن اللغات البدچانية كانت تظهر خصوصا حيث الاتصالات الدورية أو المتفرقة بين الطوائف. ويقوم التواصل الفعلى بين الطوائف المتجاورة على الازدواجية اللغوية. والتبسيط الغامض (تسجيل غير محدد للرسالة التى يقدمها المتحدث الأجنبى) والمقايضة الصامتة.

كانت العلاقات بين الشركاء التجاريين تهدف إلى حماية العلاقات الاجتماعية الأكثر توثقا. وقد اقتصرت معرفة البدچانية على الذكور البالغين، وكان هدفها استبعاد الزائرين عن أى أتصال بالنساء، فى الأماكن التى يرتادونها، وكانت المفردات مقصورة على التبادل التجارى وعلى الأمور البسيطة اليومية. كانت الوظيفة المزدوجة لتحاشى الأزمات وتبادل المعلومات الأساسية تؤدى كاملة عن طريق هذه اللغات البدچانية. ولغات أخرى مماثلة لم يبق منها أى أثر مكتوب، ولا يشكل استخدامها أى تهديد للقيم اللغوية والثقافية المختلفة للجماعات الكثيرة فى غياب تام للسيطرة التركيبية القادرة على استعلاء التنوع اللغوى.

كان حتما ان وصول القادمين الجدد من أوربا إلى المسرح الباسيفكى فى القرن الثامن عشر لا بد وأن يغير هذا الوضع تماما.

فترة الاتصالات الأولى قبل الاستعمار

رغم أن الفترة الممتدة من ١٨٠٠ إلى ١٨٨٠ مشمولة بشكل واسع "فى الأزمنة التاريخية" ألا أنها لم تترك كائنا ناقص التوثيق (أى غير مزود بوثائق) فيما يتعلق بالطبيعة اللغوية للبدچانيين. ولكننا نعلم عنها أكثر من ذلك عن السياق الاجتماعى والتاريخى الذى أزدهرت فيه.

وللحصول على معلومات تفصيلية أكثر نخيل القارئ محب الاستطلاع إلى كتاب كلارك (١٩٨٣).

ويكمن الفرق الأساس بين الفترة الأولى للتعرف وفترة الاتصالات الأولى مع الأوربيين فيما يلى :

أ - الهدف النهائى للاختراق الأوربى هو الاستغلال، وفرض السيطرة الاجتماعية السياسية على جزر الأرخبيل، والوظيفة الأساسية للغات البدچانية إذ ذاك هى تسهيل السيطرة أكثر من تبادل متكافئ للثروات والخدمات أو المعلومات.

ب - توسيع منطقة خط الاتصال الذى وجد، تتخطى بشكل واسع أى نظام آخر عرف قبل ذلك.

جـ - يعتبر الغازى نفسه متميزا (أعلى) فى كل المجالات تقريبا، بالقدر الذى تعتبر معه اللغة كذلك أداة للحصول على المعلومات، مما يفرض على المحلى تعلم لغة أجنبية.

ولقد مر الاختراق الأوربى والأمريكى الشمالى للمحيط الهادى فى عدة خطوات، ترتبط كل واحدة منها بنشاط اقتصادى محدد، ويعد تكثيفا للاتصالات اللغوية بالقياس إلى المرحلة السابقة. وتتحد الأنشطة الاقتصادية المسيطرة فيما يلى :

أ - صيد الحيتان وهى عملية تصل إلى ذروتها حوالى ١٨٣٠.
ب - تجارة خشب الصنل، التى أزدهرت فى سنوات ١٨٥٠.
جـ - تهريب الأيدى العاملة فى مجال الزراعة والصناعات المشتقة، ابتداء من ١٨٦٠ (وهى مرحلة أساسية فى تطور البدچانية).

كل واحدة من الفترات السابقة ولدت بؤرة كانت فى صالح خلق شكل بدچانى للغة المسيطرة بالاتفاق مع الإنجليزية فى أغلب الأحوال. وأول أمثلتها الچارجون[٢] البدائى الفظ المشتق من الإنجليزية فى المحيط الهادى هو لهجات البالين ba leinniers التى كانت تمخر عباب المحيط، وكانت تتوقف اعتياديا فى الجزر للتزود بالماء والطعام. وقد استدعى استغلال خشب الصندل إقامة أطول، هو وقت قطع الشجر وتجهيز تقطيعه وإعداده

٢ - نفهم من الچارجون - على عكس البدچان - حلولا فردية أكثر منها جماعية لمشاكل التواصل اللغوى، وهو يميز التلاقى بين الأفراد ، وفقدان التفاهم المسبق بين المشتركين فى التبادل الفعلى . الحصول على تفاصيل أكثر . انظر المؤلف (١٩٨٦) .

للشحن تحت إشراف المغتربين، وكان إعداد هذا المنتج فى البحر وتجفيفه يتطلب عناية دقيقة تحتاج إلى وقت طويل.

إن التأثير المتزايد للعناصر الخارجية ينعكس تماما فى التغييرات المعجمية خلال كل هذه الفترة. وفى وقت سابق نجد عددا من الكلمات المستعارة من لغات الأهالى مع تنوع مثل الهاپا هاولى Hapa hoolé فى جزر الهادى، ذات المفردات المركبة، ونصف الكلمات الأهلية (الشعبية) مستورد. وشيئا فشيئا نجد سيطرة العملاء الأجانب مؤكدة، كما نجد سيطرة المفردات الأجنبية ملحوظة بدرجة أكثر. وقرب نهاية هذه الفترة نجد التركيبة المعجمية الغالبة للچارجون فى المحيط الهادى أجنبية بنسبة ٩٠٪ أو زيادة على ذلك مع رجحان خالص للإنجليزية. فى الوقت نفسه يتدخل عامل آخر يسهم فى رفع قيمة البدچانية الخارجية النمو – أريد هنا أن أتكلم عن مدارس الإرساليات حيث الأشكال المطبوعة لهذه اللغات يمارس تعليمها. حتى ذلك الوقت، فأن وظيفة البدچانية الأساسية رأسية، بمعنى آخر فأنها تخدم التواصل بين المهاجرين الحضريين. ولا تظهر البدچانية كلغة للتواصل إلا فى حالات استثنائية كما فى بعض جزر الأرخبيل الميكرونيزى.

حتى فى هذه الحالات فأن المهاجرين الناطقين بالإنجليزية – البحارة القادمين من كل أنحاء أوربا ومن الصين ومن أفريقيا – هم الذين يشكلون سبب الوجود الأساسى لابتداع چارجون أكثر استقرارا. لدينا مثال من الكوزى Kusaie فى جزر الكارولين Karoline حيث كان أول مبعوث دينى "بنيامين سنو" يعظ بلغة أنجلو – كوزية فى السنوات الأولى من بعثته.

وأدت تجارة الأيدى العاملة black - birding إلى تغييرات نوعية وكمية فى وقت واحد، فى مجالات العلاقات بين أصول وطرق الاتصال التى نتجت عنها. كان آلاف شباب الكاناك Canaques ينقلون من جزرهم مهبط رؤوسهم ليستوطنوا الكوينز لاند -Queens land" وجزر الفيدچى، والساموا، وكاليدونيا الجديدة، بل أن أكثر من ٦٠ ألف من ذوى أعمار أقل من أربعين سنة استوعبتهم الكوينز لاند وحدها. كان الأجل المعتاد للتعاقد ثلاث سنوات قابلة للتجديد، إلا أن الموت كان يتدخل غالبا خلال فترة العقد الأولى، لقد أفرغت جزر كاملة، وانقلبت التركيبات التقليدية، وأصبحت اللغات الأهلية مهددة. جاء أناس من مختلف الأوساط اللغوية القوية للاستيطان، ووجد أنفسهم ممتزجين ومجبرين على الاتصال بمستويات أساسية، بما أن لغتهم الأم كانت غير معروفة لأكثر رفاقهم فى العمل، وبما أن

الطريق إلى لغة المستعمرين الغرباء كانت محدودة، فأن لغات البدچان استقرت بداهة فى ردح من الزمن قصير جدا. أن المعطيات اللغوية التى بين أيدينا عن المراحل الأولى للاقتصاد الزراعى وما يليها تشهد باستقرار كبير للغات البدچان كما تشهد بغنى كبير فى مجال التعبيرات اللغوية. وتشهد كذلك باستقلال أكبر بالقياس إلى الاستخدامات اللغوية للمتكلمين بلغتهم الأولى، كذلك بدرجة أكبر من كل الحالات السابقة، والحلول التى نتجت عن مشاكل الاتصال الكبرى ذات طبيعة اجتماعية، وفى غياب أنظمة مقنعة بدرجة كافية مستوحاة من لغة سائدة، أنها الخواص العامة للغة تحملها أوجه التشابه المكتشفة بين بيدچان الساموا والكوينزلا معزوة بدرجة كبيرة إلى أسس تطور اللغة الثانية التى لا علاقة لها بأسس علم اللغة العام، استطردت فى انتشار وانقسام اللغات التى كانت تشكل السند.

وهكذا فإن علاقة جمع الاسماء فى حالة أو أخرى (كما لدى بدچان المحيط الهادى وغيره) يبدو أنها بدأت بأضافة سابقة ليست إلا جمع ضمير الغائب – ظاهرة لا يمكن أن تكون متأخرة – لأنه كان يلزمها سنوات حتى يمكن أن ينفصل ضمير الغائب، رغم ظهوره فى الإنجليزية، وفى كثير من لغات الأهالى فى المحيط الهادى.

الوظيفة الأساسية لأكثر بدچان المزارع، كانت السماح بالاتصال الأفقى بين أناس متساوين، أى بين عمال يتقاسمون نفس الظروف الاقتصادية والاجتماعية. أما الاتصال الرأسى مع البيض فقد انخفض عن طريق المحرمات الاجتماعية وعن طريق الطبقات الممتازة من الاختلاط بالطبقة العاملة، وفى الواقع للبيض[٣] سيكون من الجيد ربما – أن نذكر فى هذه النقطة بأن بدچان الزراعة لم يكونوا واعين بأنهم امتداد لغوى مطابق للچارجون الذين سبقوهم فى الوجود. ولم يتناقل الچارجون اللغة من جيل لجيل وإنما كانت لغتهم يعاد تكوينها تبعا لاحتياجات الزمان والمكان. ولو كانت قد وجدت دائما بعض الصيغ المعجمية والقاعدية المقبولة مثل كاناكا أهلية ويولماكو لدى الرعاة، أو البيكامنين عند الأطفال والصغار، لوجد تنوع كبير فى الكلمات والتراكيب حتى فى نفس الفترة أو فى نفس المنطقة.

بعض العمال المجندين فى مختلف المزارع كان دون أدنى شك على صلة بالچارجون ولكن أغلب المجندين الجدد "الزرق" لم يكونوا على معرفة سابقة بأية لغة أجنبية أثناء نزولهم

---

٣ – ثمة عامل نشير إليه هنا : أكثر هؤلاء العمال كانوا يتكلمون البيدچانية الإنجليزية ، بينما كان مستخدموهم البيض يتكلمون الفرنسية فى كاليدونيا الجديدة ، أو الألمانية فى غينيا الجديدة ، وفى جزر الساموا . والهوية المميزة للغة بدچانية هى أنها متهمة بأنها أقل اتصالا معجميا باللغة المسيطرة .

(هناك). أما الوضع فى حالات المزارع فقد كان مختلفا جدا، فأن تنوعات اليدچان التى تكونت خلال الجيل الأول انتقلت إلى الجيل الذى يليه، ثم إلى الأجيال التالية. تكاتف رؤساء العمال والمحاربون القدماء ليكونوا نواة المبادرة اللغوية للزرق هذا التناول مع الاستقرار النسبى للبدچان الزراعيين هما دليل على أن العمال المزارعون كانوا يشكلون فريقا اجتماعيا مركبا ومتحدا عن طريق الطموح العام. وكانوا ذوى وضع محدد فى الطبقية الاستعمارية. ولم يقتصر التناقل على اليدچان الزراعيين، أن بدچان الزراعة الذين جلبوا إلى البلاد عن طريق العمال المحررين من الالتزامات بل عادوا إلى الظهور مع جشع شباب لم يكونوا يطلبون إلا عقدا محدود الأجل خصوصا منذ بدأ نظام التجنيد الأجبارى يضمحل.

فترة الاستعمار

إن تطور فترة الاستعمار فى المحيط الهادى متصل اتصالا وثيقا بخلق الزراعة، لقد أجبرت كل قوة استعمارية على إنشاء امبراطوريتها فوق منطقة تجنيد لتكون صيدها المحروس للحصول على الأيدى العاملة الرخيصة وهكذا فعندما تضع ألمانيا قدمها فى شمال شرق غينيا الجديدة، فإن التجنيد تنسحب إلى الكوينزلاند، والألمان الذين زرعوا جزر ساموا أمنوا لأنفسهم عملية التزود المعتاد بالعمال بسعر مجز نتيجة لخطأ التنافس.

والنتائج اللغوية للانفراس الاستعمارى مهمة :

أ – قبل كل شئ فإن تعبئة العمال انخفضت بشكل ملحوظ، وانتهت بنشر التحديدات اللغوية من منطقة زراعية إلى أخرى، بدءًا من سنة ١٨٨٠.

ب – تجارة الأيدى العاملة، من هنا فصاعدا أصبحت محكومة، وأقل وحشية كما أن فرض الضرائب الحكومية فى المناطق المجندة التقليدية يفرض على الأهالى عمليا الرجوع إلى النظام الاقتصادى النقدى، والعمل فى مزارع البيض عدة سنوات، حيث يزيد عدد الناطقين باليدچانية تزايدا حساسا منذ ١٨٨٠، وخصوصا فى المناطق التقليدية للتعبئة المتزايدة فى غينيا الجديدة وجزر سليمان والهيبريد الجديدة.

جـ – استقرت مزارع جديدة قرب أراضى تجنيد جزر سليمان، وغينيا الجديدة وغيرها. وفى الوقت نفسه فى المزارع الجديدة لجزر ساموا وفيدچى وفى الكوينزلاند، تابعا أقل

فأقل الايدى العاملة الملانيزية ابتداء من ١٩١٠، بسبب استدعاءات الايدى العاملة الصينية والهندية الشرقية والأوربية.

وتعنى المصادرة الاستعمارية على أراضى التجنيد أيضا سيطرة سلام نسبى مفروض من الحكومات والأرساليات على منطقة تحددت حتى ذلك الوقت عن طريق الحروب بين القبائل. وفى هذا الجو الجديد للسلام النسبى فإن اتصال قبيلة بأخرى لم يصبح فقط ممكنا وإنما أصبح مرغوبا فيه. ومع مرور الوقت فأن أهل الجزر كانوا ينكبون على دراسة لغات البدچان واستخدامها فيما بينهم، ولم يعد ذلك واردا عن طريق المستعمرين الأجانب.

منذ سنة ١٩٢٠ تقريبا فإن التوك پيزان Tok pisin اللغة المسيطرة فى غينيا الجديدة، والبيسلاما، فى الهيبريد الجديده والبيدجان فى جزر سليمان كانت قد صادرت لغات الأهالى، وأخذت تنتقل من قرية إلى قرية أكثر من انتقالها بين المستعمرات. وهذا التغير فى الوظيفة الاجتماعية ترجم فى تغير الاسم . بينما عرف البدچان الإنجليزى باسم "التوك فيتمان" فى غينيا الجديدة قبل ١٩٠٠، ففى ١٩٢٠، ١٩٣٠ كان يدعى "التوك بوا" (لغة الأهالى الذكور).

ويعكس هذا الاسم الجديد أيضا تشخصيا للغات البدچان، فى هذه الفترة : حيث لم يكن يتكلمها إلا الرجال وكانت النساء منصرفات عن استخدامها، ويعتبر هذا المظهر البدچانى موضوعا لدراسة المهتمين بالفروق بين الجنسين فى أنماط الاتصال الإنسانية والعودة إلى أصول اللغة الأهلية وهى فى كثير من الحالات ليست تماما مزلقا خاضعا للصدفة. هى إنزلاق بالمقارنة مع القوانين التى فرضها الأجانب، ولكنها يمكن أن تأخذ شكل رفض متعمد لهذه القوانين. إذن لو كانت قواعد البدچانية المتكونة فى هذه المنطقة، فى الماضى، تعكس تبنيا غير واع للعموميات ، وتقليدا واعيا أو غير واع للغة السادة البيض فأننا نجد أنفسنا فى الوقت الحاضر فى مواجهة إرادة متعمدة لتقييم المظاهر غير الأوربية فى النمو والمفردات. إن تأثير لهجة سابقة - كما يعتقد عدد من اللغويين خطأ أنه يمكن أن يرى كدرجة من الأهمية فى تكوين البدچانية - لم يظهر إلا فى عدد من مظاهر قواعد البدچانية ومعجمها وتوقف بطريقة وظيفية.

من الحكمة أن توضح توضيحا مجردا عن طريق دراسة تطورية diachronique (أخشى أن تكون مقولبة قليلا)، فى إحدى مجالات القواعد : الضمائر واستخدامها خلال

فترة الچارجون فإن جدولة الضمائر تقتصر على ثلاثة صيغ :

المتكلم والمخاطب أو المتلقى ثم موضوع الحديث (الآخر أو الباقى) حسب الشخص المتكلم. تتبادل ثلاث صيغ لتحدد المتكلم : me, i بالتبادل مع my كصيغة للمتكلم فى الچارجون الإنجليزى، و hime بالتغاير مع im و "he ونجد أيضا we متفرقة، و she أو they للمتكلم الجمع والمؤنث المفرد والغائب الجمع، ولكن هذه الصيغ نادرة على وجه العموم[٤]. وشيئا فشيئا استغرقت تغيرات الچارجون، كما فى جزر الساموا مثلا حيث نجد تحديدات جديدة، أولا ثلاثة " mi, yu - em ثم خمسة مع إضافة - "we") mi , ol (yo ol me oll?) (جمع "you"" you oll" أنتم كلكم ؟)، بل em, ol التى تظهر فى بعض النصوص ابتداء من سنة ١٩١٥، للدلالة على الكائنات الحية (الآخرون) فى مقابلة الأشياء أو الأفكار المجردة، وتميز بدچانية جزر الفيدچى بين ست صيغ ضميرية – تخفيض جائز بالقياس إلى مائسة وخمسين ويضع من الصيغ التى نلقاها فى الفيدچى المحلى وفى التوك پيزين الذى يحل محل الساموان بيدچان الإنجليزى، ويحافظ هو أيضا على ست تحديدات. وكانت الصيغة المعقدة "لنحن" mous وهى (toi, moi) غائبة وقتا طويلا عن هذا التحديد. والازدواجية (هو أو هى وأنا) التى تختلط أيضا فى الإنجليزية كما فى الفرنسية.

(فتصور أن tu أنتَ، أنتِ، nous نحن نفكر مثلك toi) هذا التحديد الحيوى الموجود فى اللغات الأهلية التى يتكلمها أكثر العمال الزراعيين، فيما عدا الفيدچى لم يكف ظهورها فى البدچانى الفيچى. كان يجب الانتظار حتى سنة ١٩٢٠ حتى تظهر فى اللغة تحديدات من هذا النوع، حيث ينتشر الفرق بين المثنى والجمع ما بين الذين تبدجنوا من غينيا الجديدة، ومن جزر سليمان ومن الهبريد الجديدة.

قبل البحث عن شرح لهذه الظاهرة لنفحص مظهرا للوظيفة الضميرية. كثير من لغات المحيط الهادى به نمطان ضميريان أحدهما كامل والآخر ناقص من ضمائر الالحاق التى تختلف فى الفاعل عنها فى الفعل. وفى بعض أنماط اللغات الأوربية التى تتبع هذه النماذج نجد ظواهر قياسية، كما فى الفرنسية moi ji veux bien (أنا، أنا أريد حقا) وفى

---

٤ – ملاحظاتى قائمة على أساس من التحليل الاحصائى الطولانى لاستخدام الضمائر، ويدخل فى هذا الإطار موضوع الأطلس الذى أشير إليه سابقا .

الإنجليزية the man , he came "الرجل، هو جاء". فى تحليلى الطولانى للوظيفة الضميرية يتضح أن الآخر اجتماع – ثقافى، أما بخصوص الأول، فإن تطور نظام الضمائر والعلاقات الضميرية فى أى نظام متطور (اكتساب اللغة لدى الطفل، وتطور لغة بدچانية) يبدو تابعا لنظام طبقى غير ثابت نسبيا : صيغ النائب الجمع مثلا لا تظهر قبل صيغة المتكلم والمخاطب شاملة فى الوقت نفسه المتكلم والسامع : we = mous = نحن ؛ التخالف التالى (التابع) يسمح بالتمييز بين المثنى والجمع كظهور المتكلم الجمع مؤخرا متميزا عن المخاطب (أنتم you = / = نحن we) لا يأتى إلا فى الصف الثانى أو الثالث. ومن المفهوم أن كل اللغات لا تؤدى إلى عموم الطبقات مع لواحقها المميزة الكثيرة : النوع والعدد، والحالات والزمن والقرب.. إلخ.. فكون بعض اللغات مثل البدچان وجزر سليمان اختارت النظام الأكثر تعقيدا وتشعبا فى نظام تدليلها على الأشخاص والأشياء الموجودة أو غير الموجودة القريبة أو البعيدة... إلخ.. يبدو أنها تحدد اختيارا متعمدا للشكل اللغوى الأقل تأثرا بالأوربية شاهدا على وجود رغبة فى التميز اجتماعيا، وفى رفض الجماعة الأخرى[٥]. والأمر هنا يتعلق بحالة هامة إلى أية درجة تستطيع الوظائف الاجتماعية (عبر تبادل اللغة كمؤسسة للتآلف والتضامن الاجتماعى) أن تؤثر على المظاهر الأساسية للقواعد [٦]. مناقشة فترة الاستعمار حملت حتى الآن مصير بدچانية مشتقة من لغات المستعمر وخصوصا من الإنجليزية، إلا أن أثر الإرساليات الدينية والإدارات المحلية على الجو الاجتماعى واللغوى كانت حساسة الأثر جدا على ما يمكن أن يسمى بالبدچانية الأهلية أو الـ linga franca الأهلية (لغة التواصل المصنوعة) وبوجه عام فإن تقنين الحدود السياسية والطرق السهلة للتجارة الأوربية قد وضعت حدا لأكثر لغات التواصل التقليدية السابقة على فترة الاستعمار. اضيفت أغلب هذه اللغات دون أن تترك أثرا، أو تركت تقريبا فراغا تاريخيا للغات المحيط الهادى فى زمان ما قبل التاريخ. فبقيت منها أسماء مثل "التيرى موتو" التى سنراها عن قريب، كلها ما عدا الموروثات على خط مباشر.

بقوة البحوث الجادة استطاع دونون (تحت الطبع) أن يستنتج الإشارة إلى أن البدچان

---

٥ – إطالة مقارنة بتطور التنوعات فى الكريول الموجود فى چامايكا ، التى ما زالت تتضمن بعدا أقصى بالقياس إلى التنوعات الإنجليزية ، ومع جزء كبير من استخدام متعمد من قبل سلطات القوى العامة .

٦ – هذه النظم الضميرية تعتبر بشكل واسع جدا جزءا كاملا من النواة الحقيقية للغة ، يمكن أن يتغير تحت تأثير الظروف الاجتماعية ، كما يشهد التاريخ الحديث للكثير من اللغات الأوربية ، أشياء مثل أزدواجية ضمير المخاطب فى الفرنسية والألمانية استبدال nous نحن بـ on (المحايد المجهول) فى الفرنسية المنطوقة . وحياد التميز الطبقى حيث thou - thee (ye) تركت مكانها لـ you

المتحدث بها وقت اكتشاقات الهيرى تراد كانت مختلفة تماما عن تلك التى يتكلم بها الموتو بوليس أو الهيرى موتو المستخدمة لدى قوات الشرطة، أو لدى الإدارة الاستعمارية الپاپوازى بعد ذلك بعدة سنوات، وفى الواقع فإن عدم التشابه فى التركيب وفى المفردات كما فى حالة موتو الشرطة يمكن أن يعتبر انتقالا جديدا متأثر - ربما - أو معادة صياغة مفرداته عن طريق الإنجليزى الپاپوان پيدچان.

ويمكننا أن نقول كذلك إن الپدچان الفيدچى فى صيغته الزراعية كان يمكن بصعوبة أن يعرض كتكملة مباشرة للچارجون التجارى الذى كان مسيطرا فيما سبق فى جزر الفيدچى ولدى زوار تونجا، وتختفى تغيرات جذرية غالبا خلف المحاكاة الفاضحة المدونة التى تصف البدچان فيدچى "أية لغة بدچانية مزودة بمعجمية فيدچية".

نفس الملاحظة أيضا واردة فيما يخص عددا من اللغات الأخرى الـ franca أو الپدچانية التى نمت فى ظل الإرساليات الدينية. فلقد كان المبعوثون الدينيون - الذين دخلوا إلى ميلانيزيا انطلاقا من أسس لغوية أكثر تجانساً كجزر الساموا - يجدون أنفسهم أمام مشكلة اتصال يبدو أنها لا تحل وفيما يخص الميلانيزيين الذين كان ازدواجهم اللغوى مؤسسا، أو الذين كانوا يستفيدون من أشكال أمامهم أخرى للاتصال لم يكن لديهم مشاكل، ولم يكن يطرح أى أشكال الا عندما كان الامر يتعلق بوجود لغة تسمح بتحويل أكبر عدد ممكن إلى المسيحية ممن يرغبون فى التنصر.

كانت الاستراتيجيتان الأكثر تبنيا لدى مختلف الارساليات فى ميلانيزى هما اللجوء إلى لغة تجارية موجودة، أو استخدام احدى اللغات المنطوقة محليا فيما يحيط بالبعثه الدينية، ثم نشر هذه اللغة على نطاق واسع. استخدمت الاستراتيجية الأولى على السواحل الشرقية لغينيا الجديدة، وفى بعض جزر شرق الأرخبيل، حيث كان يتحدث بلغتين تجاريتين هامتين هما السَواو والدبو. ومع ذلك ففى الحالتين أدي تدخل الارساليات الى تغييرات تركيبية ومعجمية أساسية تعكس الجهل التام لمبعوثى الارساليات الأوروبية ومترجميهم المتطوعين من الساموا والفيدچى بهذه المعاملة، وتلك الوظائف الجديدة (الاجتماعية أو الدينية أو غيرها) التى كانوا يجدون أنفسهم خاضعين لها. فى نفس الوقت كانت الارساليات تستخدم قلب الهرم الاجتماعى للبدچية عندما كانت تبحث عن اعادة غنى التركيبات المعجمية للغات السَواو والدبو الأصلية.

أما الاستراتيچية الثانية فقد طبقت فى حالة «الكات» المشهوردة حيث توجد نفس

اللهجة، لغة پاپووية أصبحت الـ lingua france اللغة السائدة للمبعوثين إلي أكثر من خمسين قبيلة مختلفة. وقد نشأت فيها عملية تحول للبدچية فوق أراض بعيدة جداً فى بعض الأحيان عن منطقة انتشار « الكات» (انظر M.C. El hanon ١٩٧٩) رغم أن عمليات تحول أخرى الى البدچانية تشهد بالأحرى انتشاراً للتأثير اللغوى للأرساليات كلفة تنصير.

أخذت لغات الفرنكا (لغة التخاطب العامة) للارساليات، تنتشر فى بداية هذا القرن، وتدخل فى مرحلة من التراجع فى نهاية الحرب العالمية الثانية، إلى حد ما، بسبب أجراءات سياسية تتجه إلى تفضيل تعليم الانجليزية القديمة فى المدارس، لأن مستخدميها كانوا يعون أنها تشكل عقبات أمام تقدمهم الاقتصادى والاجتماعى فيما وراء الحدود الصارمة التى رسمتها الارساليات. ويبدو أن هذا السلوك تغير تغيرا طفيفا منذ نهاية عصر الاستعمار. وسنعود إلى الجديث عنه.

ومن وجهة نظر اجتماعية أو لغوية فأن لغات البدچان الأهلية التى ابتدعتها الارساليات أو شجعتها لا يمكن أن تعتبر كخطوات ممثلة للتطور قبل التاريخى لعملية التحول الى البدچانية.

ونعد بين الفروق ما يلى :

أ - اللغات الخليط للأرساليات تميل إى اتهام التفاوت فى خلافات القوى.

ب - اللغات الخليط للأرساليات تعدت على مهمات الاتصال لعديد من اللغات الاهلية المكونة قبل ذلك. الوظيفة التقليدية للبدچان التجاريين التى أبقت على تنوع اللغات دون اضرار بالاتصال أزاحها سيناريو أو لغات أكثر بساطة أو أكثر قوة تبادلت مع اللغات الناشئة أو ازاحتها.

وهكذا خلال انتشار لغة الكات Kâte وجدت بها تحديدات لهجوية ممهدة، بينما حتى ذلك الوقت كانت توجد لغات مستقلة مصحوبة بلهجات تابعة للكات (انظر ١٩٨٦ Mühlh läuser).

جـ - لغات الفرنكا للارساليات كانت تتميز برغبة متعمدة فى التقنين، وخصوصاً فى مجال المصطلحات المذهبية ومعانى علاقات القوى.

فيما يخص تميزها التركيبى :

د - التسهيلات التلقائية الناتجه من عملية التحول الطبيعي إلى البدجانية تقوى غالباً من خلال التعقيدات المتعمدة، والركام اللغوى، والتجديد الوارد من لغات أجنبية إلى العرف الأهلى.

هـ - تسربت تركيبات مستعارة من لغات المستخدمين الأوروبيين أو من القواعد اللاتينية، أو من الاغريقية إلى لغات الارساليات.

وما زالت الدراسة اللغوية - الاجتماعية لهذه اللغات فى بداياتها (انظر wurm ١٩٧٧ ed). ومع ذلك يجب فهم طبيعتها لتحاشى أى خلط، سواء مع اللغات الأهلية التقليدية[٧] أو مع البدچانية، واللغات الفرنكا التقليدية.

من الصعب أن تلخص فى سطور الآثار اللغوية والاجتماعية لفترة الأستعمار، وفى لغات البدچان فى المحيط الهادى، تبدو القضايا العامة التالية ذات طبيعة فضفاضة جداً فى رأينا :

١ - كان يبدو أن هدف السياسة اللغوية الاستعمارية يكمن بشكل عام فى :

أ - التأمين الذاتى : عن طريق سيطرة فعالة على السكان الأهليين عبر اللغة .

١ - انه من الغريب ان تكون لغات الميلانيز المدروسة جيدا هى أيضا تلك التى تعرضت لتغيرات أكثر جذرية تحت تأثير الأرساليات الأجنبية. يمكن أن يكون ذلك اتجاه عرقى لا ينتمى أبداً إلى الطبيعة العميقة للغات هذه المنطقة.

ب - جعل اللغة الرئيسية هى اللغة المسيطرة بدرجة ما.

٢ - لم يكن تحقيق هذاالهدف ممكنا الا فى مناطق متجانسة نسبيا، تتكلم البوليزى والميكرونيزى، حيث تحول البدچان شيئا فشيئا إلى اللغات الرئيسية. وفى منطقة متعددة اللغات مثل الميلانيز، حيث استمرت لغات البدچان تلعب دوراً أساسيا فى الاتصالات المحلية، أكثر من الحفاظ على عرف التبادل والتعامل الشفوى، فى هذه المنطقة شجع ظهور الارساليات والادارات الأجنبية تطور اللغات البدچانية الجديدة، واللغة الفرنكا، مع اتصال كل واحدة منها بمفردات اللغة السائدة. (البدچانية الفرنسية فى كاليدونيا الجديدة،

٧ - إنه من الغريب أن تكون لغات الميلانيز المدروسة جيدا هى أيضا تلك التى تعرضت لتغيرات أكثر جذرية تحت تأثير الأرساليات الأجنبية. يمكن أن يكون ذلك اتجاه عرقى لا ينتمى أبدا إلى الطبيعة العميقة للغات هذه المنطقة.

اتصال كل واحدة منها بمفردات اللغة السائدة. (البدچانية الفرنسية فى كاليدونيا الجديدة، والبدچانية الأنجليزية فى غينيا الجديدة مثلا)، ومع ضرورة الأبقاء على عدم العدالة، وعدم التناسق السياسى، مما لا يعطل القول بأن البدچانية أخذت كدلالات على الاعتراف من قبل السكان الأهليين. فى صبغتهم الطبيعية تركيبا، لدرجة أن أصبحوا مركبات لعتقهم السياسى والأجتماعى.

فترة الاستعمار

ان استقلال العديد من الأمم فى المحيط الهادى مرتبط بوقوع الحرب العالمية الثانية فى هذه المنطقة، في فترة استجلبت انقطاعاً كبيراً للتقاليد الغوية وغيرها كما استجلبت تحولا كبيراً للسكان، وتحطيما عضويا، واكتشاف عدد من سكان الجزر أن الفاتحين لم يكونوا غير قابلين للهزيمة ولا معصومين من الخطأ، وكانت أشباح الحرب متوازية عن طريق اتفاق جديد للوصاية، ابرم لأغلبية أهل الجزر شاملاً تسهيلات تعليمية كبرى، ودرجة ما من الاستقلال، ومساعدة أقتصادية محدودة، أدى هذا إلى رحيل سريع للتقريب (التحول إلى الغرب)، حيث اللغات البدچانية التى كانت ما تزال مستخدمة فى ميلانيزى لعبت دوراً هاماً ما يزال غامضا.

وخلال الحرب العالمية الثانية فأن لغات البدچان فى ميلانيزى (خصوصاً السليمانية والبيچانية والتوك بيزين والهيرى موتو بدرجة أقل) استخدمتها أوساط اليابانيين والحلفاء فى البحر، والمظليون، والطائرات لنقل السكان الأهليين. رغم أن هذا النوع من الاتصال الرأسى أصبح أكثر اصطناعاً وتكلفا منه فى أيام الاستعمار الأولى. واستمر استخدام البدچانية بعد الحرب فى غينيا الجديدة، ويطبع به العديد من الصحف، وتذاع برامج بلغة التوك بيزين فى البحار. وتسير التوجيهات السياسية بالتوازى مع النقمة اللغوية.

وهكذا كان يؤمل التوصل تدريجيا عبر الصحافة والأذاعة الى تحول التوك بيزين إلى الإنجليزيه وأن يؤدى ذلك إلى انصهار تدريجى مع اللغة السائدة وقد أوشكت هذه الخطة على النجاح، بفضل انتشار المدارس. ويمكن أن يعود تراجع الخطة إلى أسباب متعددة منها : المبدأ اللغوى الذى يعنى أن الخليط من نظامين لغويين (بالتبادل الانجليزية والبدچانية الانجليزية) يمكن أن تعود إلى نظام ثالث ليس له بالضرورة شبه خاص بأى

من النـظامين (٨).

وكون اللغات لها وظائف اجتماعية هامة يطفى بشكل كبير على نظمها المرجعين اللغوية، ولم يعر أحد اهتماماً لهذا المعطى.

البدچانية الانجليزية للميلانيزى تكمل تطورا محددا لهوية ميلانيزية أصلية، تتعارض مع التميز اللغوى للغة السائدة، ولكن عاملاً ثالثا بدأ يظهر على استحياء فى المواضع الردارية، وفى مدن المنطقة. ولكنه فى أصله جزء من حركة هامة بدأت منذ عدة سنوات تحت تأثير التعمير، وهو عملية تحول البدچانية إلى الكريول، بمعنى آخر هو عملية تبنى عدد متزايد من السكان الأهليين له كلغة أولى، وهى تميل إلى أن تصبح اللغة الأم لعدد من السكان.

وعملية التحول إلى الكريول مرتبطة بالتعقيدات اللغوية السريعة فى البدچان. وتدخل هذه اللغة تدريجيا تركيبات مستعارة من مصدر الكليات أكثر من كونها من اللغات التحتية، أو الفوقية، ويتميز المعمرون الكريول الجدد لغويا عن لغات البدچان التى كانت تستبقهم زمنيا. (ما زالت هيبتهم وشجاعتهم مستمرة فى التأثير). وتتشابه مع الإنجليزية بشكل أقل من هذه الفروق اللغوية من ثلاث عوامل ذكرت سابقا. عند خروج الغرباء ١٩٧٠ حدث أن الاتصال الجماعى الأفقى صار وظيفة أساسية للبسلاما والفانواتو والتوك بيزين فى غينيا الجديدة والبيچان فى جزر سليمان.

والواقع أن الجدول أكثر تعقيدا لأننا نواجه ثلاثة ثوابت تلعب دورها فى آن واحد، وعلى هذه الثوابت الثلاثة نجد مبدأ هاما لعلم اللغة هو الميل إلى التوحد. وحسب هذا المبدأ فإن الظواهر اللغوية واللغوية - الاجتماعية التى نتجت منذ عدة أعوام فى مناطق انتشار لغة البدچان في وقت مبكر ، انتشرت اليوم فى مناطق أكثر انسجاما إلى داخل الجزر. باختصار :

١ - لغات البدچان فى طريقها إلى أن تصبح لغات الاتصال الأفقية حتى المقاطعات الأكثر بعدا من ميلانيزيا، مثل الهضاب العليا الجنوبية من غينيا الجديدة، وهى تحافظ على مركزها كاملا لدى القرويين، وبدأت أيضا تطرد اللهجات المحلية التقليدية التى أصبحت مهددة باختفاء سريع.

---

٨ - خليط ينتج من تجربة مركب كيماوى أكثر من كونه آلة ميكانيكية بسيطة .

٢ – فى مدن مثل بورت مورسبى وهونارا أو فليلا، أصبحت البِدچانية الإنجليزية لغة أساسية، بل هى فى الغالب النموذج الوحيد لاتصال الأهالى الواقعين فى أدنى السلم الاجتماعى.

اللغة ذات الاحترام هى الإنجليزية الحقة التى فى مقدروها أن تغير الكود الإدارى بين البِدچانى والإنجليزى القديم – أو على الأقل أن تنتج صبغة إنجليزية للبدجان – وهى أحسن وسيلة لتأكيد موضعها الاجتماعى. أن رفض الإنجليزية المنتشرة جيدا فى بعض أنحاء منطقة التوسع الاستعمارى ترك المكان بسرعة للتأثير الإعلامى للفيلم والفيديو.

٣ – خارج لغات الوحدة الوطنية التى تميز الفترة التالية التى تسبق الاستقلال مباشرة يجب أن نلاحظ ميلا إلى تقسيم محلى للبدجانية ولغة الفرنكا (الخليط) اللتين كانتا تبدوان مهددتين فى سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠. وهذه اليقظة للهجات الأهلية واضحة خصوصا فى البابوازى. ويعتقد بعض الخبراء أن الخريطة اللغوية لغينيا الجديدة فى المستقبل ستشهد أزدواجا لغويا جديدا، بين اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية ينتشر أكثر من التوك بيزين. وعلى كل حال فإن الشخصية اللغوية لكل بيدچان هذه المنطقة يجب أن تقترب شيئا فشيئا من تنوع الإنجليزية الذى انفصل محليا كلغة لصفوة البلد.

في كل هذا نلاحظ تغيرا سريعا فى الطبيعة والوظيفة الاجتماعية لبعض لغات البِدچان التى ظلت مستخدمة فى هذه المناطق، وكذلك وجود بعض اللغات البِدچانية التابعة لعدة عوامل غير متوقعة. ولا يمكن إلا أن نضيع فى متاهة التخمين فيما يخص هذه اللغات. إن فرضها فى المقاومة فى الميلانيز يبدو أنها واجبة القوة. بشرط أن تستمر كرمز للشخصية الوطنية والمحلية. وأن تمحو آخر آثار الماضى الاستعمارى الذى ما زال مرتبطا بها كما حدث فى استراليا لدى الشعوب ذات الأصل الوطن التى أصبحت كريول، بلهجة كريول أصلها إنجليزى. وهنا يعتبر الأقدمون هذه اللغة اختراعا من البيض، بينما ينظر الشباب إلى اعتبار الكريول نموذجهم الخاص للتعبير الوطنى الأصيل، أن وضع هذه العوامل الايجابية فى الاعتبار، حتى الأدواج اللغوى الممتد، لا يمكن أن يؤثر على الاستقلال اللغوى للبِدچان.

ولكن هذا الاستقرار يمكن أن يكون مهددا بعاملين آخرين منهما تبنى إنجليزية محرفة بقدر ما كنموذج للتعبير عن الهوية الوطنية. حيث تنبثق لغة فرنكا (خليط) محلية ناتجة عن

تفتتت السلطة المركزية. هذان العاملان معا أو منفصلان، لم يفقدا توزيع البدچان على درجات الانحراف حتى يصل إلى الاختفاء الاحتمالى المتصور عن طريق اللايكوك (١٩٨٣). فى غينيا الجديدة.

مهما حدث فإن النتيجة لا يمكن إلا أن تكون مختلفة جدا عن الوضع اللغوى فى المحيط الهادى فى عهد الاستعمار أو فيما قبله، إن اللهجات الأهلية، لهذه المنطقة، بل بعض اللغات ذات الانتشار الواسع مثل لغة الهاواى أو الماوورى تعيش الآن معركة خاسرة سلفا مع اللغات ذات الطابع العالمى مثل الإنجليزية أو الفرنسية. بينما غبار اللغات الأهلية التى امتصتها حملات محو الأمية، والمعلوماتية informatique لا يترك أية فرصة حتى للغة واسعة الأنتشار، وشيئا فشيئا مع دخول العقل الأليكترونى إلى قاعات الدرس، والمكاتب ستقل أهمية البدچانية. أن التعدد اللغوى التقليدى لعهد ما قبل الاستعمار كان ظاهرة مستقرة جدا. والازدواج اللغوى الذى يتضمن لغات ذات مستويات غير متكافئة يتعرض لفترة أكثر اهتزازا. وهكذا فإن كثيرا من اللهجات القروية للپاپوازى، في غينيا الجديدة تجد نفسها الآن مخلوعة عن العرش لصالح التوك پيزين، كما أن التوك پيزين، يخسر أرضا فى المدن لصالح الإنجليزية.

استنتاجات

وفى نظر العلماء الذين يدرسون اللغات الشعبية التقليدية فإن الوقت ضيق، وفى القريب العاجل لن يكون من الممكن متابعة هذه الدراسات فى إطار تقليدى. وبالنسبة لمن يهتم بنماذج اللغات، وبموتها، وبفروع أخرى لعلم اللغة الاجتماعى ما زال الوقت مواتيا بالرغم من أن هذه الحماسة تختلط بدرجة من الندم مع فكرة ضياع عدة لغات غير أوربية مع قدرة (الباحثين) على استدعاء رؤى مختلفة وصور للتغيير لمساعدتها على الحياة.

إن دراسة التنوع على الخريطة اللغوية للمحيط الهادى التى لخصتها فى هذه المحاولة تحمل أيضا رسالة أخرى : التبدل أو التغير اللغوى لا يتبع سيرا هادئا مستمرا كما يرى النحويون التاريخيون القدماء. أننا نكتشف فيه بالأحرى أنواعا من المصائب التى تقطع استمرار مسيرة التاريخ بتغير الاتجاه بشدة. ونتائج سريعة للثبات وعدم الثبات، ودورانا دون مخرج.

إن التغييرات اللغوية التى تصاحب تغيرا سريعا على المستوى الاجتماعى والصناعى، تلحظ خصوصا في المحيط الهادى، وعلى الأخص فى الميلانين، حيث الفترة التاريخية للاتصال بالغرب لم تتعد أبدا القرن. إن دراسة تكوين لغة ما وعملية التحول للبداجانية الناتجة عن التطور، وكذلك عملية التحول إلى الكريول وموت لهجة الأهليين فى هذه المنطقة من العالم يمكن أن تحمل لنا رؤى عميقة لطبيعة اللغات الإنسانية بشكل عام، والشخصية السائدة للغة يمكن أن تكون قدرتها على التكييف مع التغير أكثر من خضوعها لنظام قواعد.

بيتر موهلهاوسلر
كلية ليناكر – اكسفورد.

BIBLIOGRAPHY

ABEL, CECIL, "Missionary lingue franche: Suau" in Wurm (ed), p. 971-988, 1977.

CLARK, ROSS, "Social context of Early South Pacific Pidgins" in Woolford, E., Washabaugh, W. (eds.) *The Social Context of Creolization*, Ann Arbor, Michigan, Karoma, p. 10-27, 1983.

DUTTON, THOMAS E., "Birds of a Feather: A Pair of Rare Pidgins from the Gulf of Papua" in Woolford, E. & Washabaugh, W. (eds) *The Social Context of Creolization* Ann Arbor, Karoma, pp. 77-105, 1983.

— *Foreigner Talk to National Language: The Origin and Development of Hiri (or Police) Motu, Papua*, Port Moresby, University of Papua New Guinea Press, forthcoming.

FOLEY, WILLIAM A., "Language Birth: the process of Pidginization and Creolization, MS, Australian National University, 1985.

LAYCOCK, DONALD C., "Melanesian Linguistic Diversity: A Melanesian Choice?" paper presented at Research School of Pacific Studies Seminar on Melanesia – Beyond Diversity, to appear in proceedings, Canberra, 1981.

MCELHANON, KENNETH A., "Some Mission Lingue Franche and Their Sociolinguistic Role" in Wurm, S. A. (ed), p. 277-289, 1979.

MÜHLHÄUSLER, PETER, *Pidgin and Creole Linguistics*, Oxford, Blackwell, 1986a.

— "The Politics of Small Languages in Australia and the Pacific," paper presented at First Canberra Conference on International Communication, to appear in *Language & Communication*, 1986b.

MULLER, MAX, *Science of Language*, London, Longmans, 1875.

REINECKE, JOHN E. *et al.*, *A Bibliography of Pidgin and Creole Languages*, Oceanic Linguistics Special Publication No. 14, Honolulu University Press of Hawaii, 1975.

WURM, STEPHEN A (ed), *New Guinea Area Languages and Language Study, Vol. 3*, Canberra, Pacific Linguistics C – 40, 1977.

-- *New Guinea & Neighboring Areas: A Sociolinguistic Laboratory*. The Hague, Mouton, 1979.

ألين بنتوليلا

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

تعتبر اللغة المحلية فى هايتى، مثل كل اللغات المحلية، لغة كاملة جزئيا ولما كانت اللغة الأم لما يقرب من ستة ملايين نسمة - دون أن تحسب أبناءها المهاجرين - فهى تمتلك وسائلها الخاصة في التعبير بالكلمات والجمل والمحادثة. ومع ذلك فقد استبعدت خلال أكثر من قرنين من الزمان - من عدد كبير من مجالات الاتصالات. كما منعتها الحدود التى فرضت عليها من أن تطور سواء على المستوى اللفظى أو مستوى المحادثة - ابتكارا يسمح بضمان أداة اتصال متعددة وشفوية ومكتوبة. كما أن الاستخدام الحالى لهذه اللغة - التى ظلت تهاجم لفترة طويلة - فى مواقف جديدة فى الاتصال وخاصة في النظام التعليمى قد خلق عددا كبيرا من المشاكل اللغوية والتربوية والثقافية والسياسية.

أولا - المواقف المخصصة للغة المحلية فى مجتمع هايتى

تعتبر اللغة المحلية هى اللغة التى يتحدث بها غالبية الشعب فى هايتى. وتعتبر الفرنسية

المترجمة دكتورة فاطمة خليل الدسوقى
كلية التربية - جامعة حلوان

هى اللغة الرسمية كما نص على ذلك دستور ١٩٢٦ الذى صيغ فى زمن الاحتلال الأمريكى. ومع ذلك، فإن المادة ٣٥ من دستور ١٩٦٤ تنص على "أن القانون يحدد الحالات والشروط التى يسمح - أو بالأحرى - يوصى فيها باستخدام اللغة المحلية من أجل حماية المصالح المادية والمعنوية للمواطنين الذين لا يجيدون اللغة الفرنسية بدرجة كافية". وفى الواقع، فإن هذا الجواز محدود باستخدام هذه اللغة المحلية الشفوية في المحاكم وجهات العمل الإدارية، أما اللغة المكتوبة فتبقى قاصرة على اللغة الفرنسية، كما أن التعليم لا يتم مطلقا إلا باللغة الفرنسية.

ويمثل الناطقون باللغة المحلية وحدها حاليا نسبة ٨٠٪ من مجموع سكان هايتى. وهم جميعا - إلا فى بعض الحالات النذرة - (فى المناطق التى يتم فيها محو الأمية باللغة المحلية) أميون. وتتشكل هذه النسبة من السكان من الفلاحين بصفة أساسية، إلا أنها تضم أيضا جزءا كبيرا من البروليتاريا ومن هم دون طبقة البروليتاريا الذين يعيشون فى الحضر.

وهناك نسبة أخرى من السكان (١٥ إلى ٢٠٪) تتحدث اللغتين. وفى الواقع فإننا يمكن أن نتقدر - وفقا لبيانات اجتماعية بشأن مشاكل اللغات - أن حوالى ٣٪ تقريبا من أبناء هايتى الذين ينتمون إلى طبقة البرجوازية يمكنهم مواجهة أى موقف فيتحدثون سواء باللغة المحلية أو بالفرنسية. لهذا فإن هذه الأقلية تستخدم إحدى اللغتين فى الحديث تبعا لما يتطلبه الموقف الاجتماعى.

أما باقى المواطنين من هؤلاء "اللذين يتحدثون اللغتين" فلديهم كفاءة لغوية غير متساوية بين اللغتين تتضح فى أحاديثهم في المواقف المختلفة. وإذا قورنت عدديا فسنجد أن المتحدثين باللغة المحلية يفوقون بدرجة كبيرة المتحدثين بالفرنسية. وتواجه هذه المجموعة - التى تتألف فى غالبيتها من صغار الموظفين والحرفيين والسائقين وموظفى الخدمات - موقفا واضحا من عدم التوازن اللغوى.

وهذا الموقف الاجتماعى - اللغوى يحدد المواقف والتصرفات التى تعبر عنها كل مجموعة بطريقة خاصة.

١ - السكان الذين يتحدثون اللغة المحلية فقط

يشكل المتحدثون باللغة المحلية فقط جزءا من حضارة يتم الحديث فيها بهذه اللغة المحلية

فى معظم المواقف فى داخل نفس المجتمع. وغالبيته هؤلاء السكان مستبعدون من عالم اللغة المكتوبة ويعيشون ثقافة شفوية تقوم على تقاليد راسخة. وهذه الثقافة يدخلها ابتكار وديناميكية معينان يتجاوزان مجال الحكاية والمثل أو الفزورة، وتتضح - على سبيل المثال - فى اجتماعات مجالس الفلاحين حيث تثار مشاكل تتعلق بالزراعة والصحة والمبادلات الاقتصادية... ومحو الأمية. وخلال هذه الاجتماعات وغيرها من الأنشطة الجماعية الأخرى، يتم استخدام اللغة المحلية فى الحديث فى الأمور الفنية أو فى الأمور التنظيمية. ومع ذلك فإن استخدام هذه اللغة يتميز بوسائل تحليل الحقيقة بواسطة استراتيجيات خاصة بحضارة شفوية مع تحديداتها بشأن الإسقاط وقدرات التجريد والتأليف وحفظ المعطيات. وهذه التحديدات واضحة فيما يتعلق باتساع شبكات الاتصال التى تؤدى إلى العزلة النسبية لهذه الجماعات ومشاركتها المقتضبة فى الحياة الوطنية

وإذا كان هؤلاء السكان لا يتحدثون الفرنسية، فهم لا يجهلون وجودها كما أنهم لا يجهلون الوضع الاجتماعى الذى يميزها. وتعتبر الفرنسية بلا شك - بالنسبة للمتحدثين باللغة المحلية فقط - وسيلة للرقى الاجتماعى ليس لهم إلا حظ قليل جدا لكى ينتموا إليها. ومن هنا كان الشعور بالنقص الذى يحسون به تجاه متحدث يستخدم اللغة الفرنسية، أو يستخدم - فى حديثه معهم باللغة المحلية - بعض العلامات النحوية أو التعبيرات التى تأخذ القالب الفرنسى والتى تميزه كمتحدث بلغتين.

وفى المقابل، فإن الفلاح المتحدث باللغة المحلية وحدها، يميل إلى إدخال بعض الألفاظ الدخيلة على اللغة المحلية - أثناء حديثه مع شخص يجيد اللغتين أو بالأحرى مع شخص أبيض - حتى يظن محدثه أنه لا يجهل الفرنسية. على سبيل المثال، فإ المتحدث باللغة المحلية - التى يفتقد نظامها الصوتى إلى الحروف المتحركة الرئيسية (ى، ومشددة، أو) - يعرف تماما أن المتحدث باللغتين يستخدمها حيث يستخدم هو حرفى / ى / و / إى/. وفى حديثه معنا قال لنا فلاح التعبير التالى : (إن فلاحى فيرت يأكلون الأرز).

والمتحدث الذى يتكلم اللغتين - وحتى الذى يتحدث اللغة المحلية المفرنسة - لا ينطق بأى حال / الأرز / بنفس هذه الطريقة.

وتبرز هذه الألفاظ النحوية الاجتماعية بوضوح ما يعرفه المتحدثون فى هايتى عن وضع كل من اللغتين بالنسبة للتقسيم الاجتماعى للسكان

وتفرض اللغة المكتوبة نفسها – وهى امتياز اللغة الفرنسية – على أوساط السكان المتحدثين بلغة واحدة فى مواقف معينة خاصة فى التعامل مع الجهات الإدارية وفى المدرسة. وفى جميع هذه الحالات، يجد المتحدث باللغة المحلية وحدها نفسه فى مواقف ليست فى صالحه فعندما يضطر للتعامل كتابة مع أى جهة إدارية فإنه يلجأ إلى وسيط يتحدث اللغتين ولا يتوانى عن استغلاله. وفى المدرسة يكتسب معلومات بلغة لا يعرفها ولا يستخدمها مما يؤدى به إلى فشل دراسى شبه أكيد

وفى مواقف أخرى تتسم بالعلانية التقليدية (مثل طلب الزواج على سبيل المثال) يضطر الفرد إلى استخدام لغة مكتوبة مقولبة تختلط فيها تركيبات لغوية من اللغة المحلية واللغة الفرنسية. وهذا الخليط اللغوى المسمى "الفرنسية الشاردة" يعتبر وفقا على هؤلاء – فى داخل المجتمعات – القادرين على الكتابة

٢ – مجموعة المتحدثين بلغتين :

تستخدم اللغة المحلية فى الحديث بين أفراد هذه المجموعة بشكل واسع مهما كان الوضع الاجتماعى للمتحدث، وذلك فى جميع المواقف التى لا تتسم بالعلانية وكذلك عندما لا يريد المتحدث إبراز علامة تدريجية معينة بشكل صريح. وإذا كان من الأمور المسلم بها فى هايتى أن المحادثات الجارية وحتى التى تدور بين كبار الموظفين، تتم باللغة المحلية، فإن اللغة الفرنسية تستخدم بشكل آلى فى حالة الرغبة فى تحديد فارق معين أو علاقة سلطة علنية أو الصفة الرسمية لموقف ما

وعند صغار الموظفين، فإن استخدام الفرنسية محدود ببعض المطالب المهنية (وخاصة استخدام الفرنسية المكتوبة). كما يلجأون إليها لإبراز تفوقهم على متحدث يتكلم اللغة المحلية وحدها أو لإظهار عدم اهتمامهم تجاه شخص ذى مركز عندما تفرض الظروف ذلك.

ومن الواضح أن الفرنسية – بين أفراد الشعب الذى يتحدثها بدرجات مختلفة – لها دور رمزى يحدد المواقف الخاصة بالمتحدثين أو علنية موقف ما، أكثر من دورها الفعلى كوسيلة للاتصال. فالواقع أن الضمير الشخصى "أنت" لا يستخدم على الرطلاق فى هايتى، كما أن جميع ظواهر المبالغة فى التصحيح تدل على أن الفرنسية التى يتحدثون بها فى هايتى لا تسير على نسق تسجيلات مختلفة للغة. وفى الغالب، فإنه يمكننا القول إن الفرنسية تلعب دورا كلغة تمييز اجتماعى ليس لها أى ديناميكية، أكثر من كونها وسيلة اتصال تلبى حاجات

مختلفة. ويفرض عليها دور الرمزى أشكالا مقولبة تدعم هذا الدور وذلك بأضعاف قوتها الإخبارية وفى هذا الصدد، فإن قراءة صحافة هايتى المكتوبة باللغة الفرنسية تبرز إلى أى مدى تخلو الفرنسية من المعنى وتصبح أحيانا سلسلة من الصيغ المتكلفة والمزخرفة مع قدرة ضعيفة على الإعلام والتفسير.

وتعيش اللغة المحلية واللغة الفرنسية - الموزعتان بشكل غير متساو بين الطبقات الاجتماعية فى هايتى - وتعكس كل منهما التاريخ الاستعمارى والروابط المعقودة بين الطبقات فى مجتمع هايتى، وذلك منذ استقالها فى عام ١٨٠٤ وتشكل كل مكن اللغتين - تاريخيا سواء أردنا أم لا - جزءا من التراث الوطنى لهايتى. وعلى الرغم من وضعها كلغة أقلية، فإن اللغة المحلية تعتبر واحدا من الخطوط المميزة لأمة هايتى التى يحتاجها كل مواطن هناك كجزء مكون لهويته. ولما كانت اللغة المحلية نابعة من فترة الاستعباد، فإنه لا يشوبها نزعة الاستعباد لأن الكفاح من أجل الاستقلال قد أعطاها دلالة قوية بوصفها لغة شعب تحرر وسلاحه فى يده ولغة المحلية على لسانه.

ثانيا : ما انبثق حديثا عن الحديث باللغة المحلية

لوحظ خلال السنوات الأخيرة فى هايتى أن اللغة المحلية - سواء المسموعة أو المكتوبة - قد توغلت فى مجالات الاتصالات التى كانت مستبعدة منها من قبل. ولم يتم هذا الإدخال بشكل مستتر : فقد تم بشكل مفتوح (مما لا يعنى "بكل حرية") أنه بدأ بمبادرات رسمية وخاصة

اللغة المحلية المسموعة : لغة الإعلام العام : كان استخدام اللغة المحلية فى الإذاعة والتليفزيون قاصرا حتى عهد قريب على الجمل الشائعة والأغانى. أما الآن فإنها تستخدم فى جزء من الأخبار المحلية والدولية وكذلك فى بعض المناقشات حول موضوعات ذات أهمية قومية تتعلق بالتعليم والصحة... إلخ. كما يلاحظ أيضا تأكيد على استخدام اللغة المحلية فى الخطب الرسمية فى بعض المجالات. وأخيرا فقد تعددت أيضا الرسائل الإعلانية باللغة المحلية على الموجات الإذاعية وخاصة الإعلانات فى الأماكن العامة مثل مطار "بور - أو - برنس" التى تذاع غالبيتها باللغة المحلية

والصحافة باللغة المحلية، وإن كانت لا تزال حتى الآن محدودة فى بلد تصل نسبة الأميين فيه إلى ٨٠٪ من مجموع أفراد شعبه، إلا أنها منتشرة إلى حد ما : فهناك صحيفتان أسبوعيتان دينيتان : "بون نوڤيل" التى يوزع منها ٢٠٠٠٠ نسخة و "بوكان" ويوزع منها ٧٠٠٠ نسخة.

وأخيرا تجد الإشارة إلى أن هناك عددا متزايدا من اللوحات الإعلانية تضم نصوصا مكتوبة باللغة المحلية، كما أن حملات الوقاية الصحية والاجتماعية - وهذا أمر هام - تعتمد على اللغة المحلية المسموعة والمكتوبة. ونذكر هنا على سبيل المثال حملات تشجيع تحديد النسل أو حملات تشجيع الرضاعة الطبيعية.

اللغة المحلية : لغة التقنية : لما كانت اللغة المحلية هى اللغة الوحيدة التى يتحدث بها الفلاحون والحرفيون، فقد وجد فيها هؤلاء المصطلحات التى تتطلبها أنشطتهم ونقل المعارف التقنية لهم. وفى الفترة الأخيرة، استوجب تطور التعمير والمهن المتعلقة بالبناء والكهرباء وغيرها - سواء على مستوى مفردات اللغة أو أشكال الحديث - إيجاد مصطلحات جديدة تشهد على قدرة اللغة المحلية على تلبية حاجة الاتصالات [٢]. وقد أدى هذا التطور إلى عدة مشاكل خاصة بوضع واستخدام النصوص الفنية المكتوبة باللغة المحلية والتى سنعود لذكرها فيما بعد.

ومن الواضح أنه من الأمور العسيرة تحديد الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة، وذلك لعدم وجود الأبحاث الاجتماعية واللغوية الت تسمح بتحليل هذه الانبثاقات الحديثة الناجمة عن اللغة المحلية وتطور هذه الانبثاقات ونهاياتها. ومع ذلك يمكننا أن نورد بعض الفروض التى تحتاج إلى تحقيق.

وقد ساعد التضاعف الهائل فى أعداد أجهزة الراديو الترانزستور فى جميع أنحاء البلاد، وزيادة قدرة البث من محطة الإذاعة الوطنية، وإنشاء محطات محلية للإذاعة (جراند أنس، بوردى بيه، كاى، إلخ..) على أن يستمع عدد كبير من أبناء البلد المتحدثين باللهجة

---

* ساعدنا فى إعداد هذا الفصل ليون جانى ونحن نشكره على ذلك .

١ - فرانتز لوفيسيال . "المحلية ، الفرنسية . خلاف باطل ؟ استخدام اللغتين وإصلاح التعليم فى هايتى". كويبك ١٩٧٩ - ص ١٦٩ .

٢ - هنرى تورنو . "ألفاظ الكهرباء فى هايتى" مذكرات لاستيو ١٩٨٦ .

المحلية فقط إلى برامج إذاعية. ومن المنطقى أن نفترض أنه كان لا بد من تطويع البرامج لتناسب الفئة الجديدة من المستمعين من بين أفراد الشعب مع إعطاء مكانة لها دلالتها للعبارة باللغة المحلية.

وعلى الرغم من أن أهمية التليفزيون تقل كثيرا عن أهمية الإذاعة. إلا أن عدد مشاهدى التليفزيون قد زاد زيادة واضحة فى منطقة بور - أو - برنس. وبالنسبة لهذه الوسيلة الإعلامية فإن البرامج المذاعة باللغة المحلية محدودة للغاية أما الحلقات الأمريكية فقد تم تخصيص فترة مختارة لها.

وهناك افتراض آخر يمكن أن يفسر لنا تغلغل اللغة المحلية فى مجالات جديدة من مجالات الاتصالات : وهو الهجرة من الريف التى جعلت من المراكز الحضرية وخاصة فى بور - أو - برنس مدنا تتحدث فى غالبيتها اللغة المحلية. فى عام ١٩٥٠ كان تعداد سكان مدينة بور - أو - برنس ١٤٤٠٠٠ نسمة، ارتفع هذا العدد فى عام ١٩٧١ ليبلغ ٤٩٤٠٠٠ نسمة، وهو اليوم قد يتجاوز المليون نسمة. وقد أدت هجرة الفلاحين الذين يتحدثون اللغة المحلية فقط إلى أن تغير من العمق الواقع الاجتماعى - اللغوى للمدنية التى لم تعد تصلح لتأكيد أسطورة دولة هايتى التى تتحدث الفرنسية. بالإضافة إلى ذلك فقد زادت الهجرة من الريف والهجرة الداخلية، بلا شك، من ضرورة إيجاد وسيلة اتصال على البعد باللغة المحلية. وفى هذا الصدد فإن عدد الرسائل الشخصية التى تنقلها الإذاعات المحلية وخاصة إذاعة "راديو - لوميير" التى تقدم برامجها على نطاق واسع (وهى التى يقوم عليها وزراء بروتستانت) لهى أكبر دليل على ذلك.

وقد أظهرت بعض الدراسات الجزئية التى أجريت على الرسائل المكتوبة التى يتم تبادلها بواسطة البريد من المدن إلى القرى. استخدام اللغة المحلية فى الكتابة - بشكل فوضوى بدون شك - إلا أنها تلعب دورا كوسيلة اتصال.

وأخيرا، فإننا نعتقد أن أبناء هايتى المقيمين فى الولايات المتحدة وكندا يهتمون بشكل جماعى بالحفاظ على شخصيتهم الوطنية. وذلك باستخدام لغة بلدهم وثقافتها وهناك إنتاج لا بأس به من المؤلفات باللغة المحلية فى مناطق الهجرة هذه، نجد أنه من الصعب تقدير تأثيرها على الشعب فى هايتى.

كل هذه العوامل – التى تبرر ضرورة الفهم على نطاق واسع – قد دعت اللغة المحلية لأن تتغلغل فى مجالات للاتصال الاجتماعى كانت مستبعدة منها، وبعبارة أخرى فإن اللغة المحلية، لغة الشعب، اتجهت لأن تصبح لغة المجموع. ومن هذا المضمون الجديد بدأ إصلاح التعليم الابتدائى فى محاولة لايجاد حل لأزمة النظام التعليمى فى هايتى

ثالثا : إدخال اللغة المحلية فى التعليم

كان التعليم الابتدائى فى هايتى يتم باللغة الفرنسية فقط حتى بدأ الاصلاح المدرسى فى عام ١٩٧٩، حيث كان ٨٠٪ على الأقل من بين الأطفال الذين يلتحقون بالمدارس لا يتكلمون سوى اللغة المحلية.

وكانت المدارس دائما واحدة من الأماكن التى تظهر فيها بوضوح مواقف كل من اللغة المحلية واللغة الفرنسية. وكان الطفل يجد من المستحيل عليه (إلا إذا كان من الطبقة المميزة من الشعب) أن يستخدم اللغة الفرنسية كوسيلة للفهم وكتابة رسائل. حتى المعلم، الذى كان من جانبه (وخاصة فى البيئة الريفية) لا يستخدم اللغة الفرنسية فى المدرسة إلا فى أضيق الحدود، كان يجد صعوبات جمة فى تطويع هذه اللغة لإجراء حوار تربوى حقيقى مع تلاميذه. فكان التلاميذ والمعلمون يقدمون ما يشبه عرضا للمدرسة "باللغة الفرنسية" ولكن لعدم قدرتهم على استخدام هذه اللغة لسير الاتصال التربوى، كانوا يستخدمون لغة معملية وسيطة تأخذ القوالب والكلمات الفرنسية فيها دورا رمزيا. وكانوا يشعرون بعدم الأمان اللغوى حيث أنهم كانوا منقسمين بين الإحساس المشترك بعدم قدرتهم على الاتصال والالتزام باستخدام لغة التعليم الرسمية عندما تطأ أقدامهم باب المدرسة. وهكذا بدت الصفة الرسمية للتعليم والوظيفة التربوية فى نزاع دائم، أدى إلى إفساد العلاقة التعليمية : فالعلاقة بين المعلم والتلميذ كانت شديدة وذات اتجاه واحد. أما التلاميذ الذين كانوا يميلون إلى الحفظ رأسا فقد كانوا فى موقف المسالمة التامة بعد أن تحولوا إلى آنية تصب فيها الموضوعات – الخالية من المعانى – فى نظرهم.

ولما كانت المدرسة يعوزها الأمن اللغوى، نتيجة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة للغاية والتى يعيشها سكان المناطق الريفية وضواحى المدن، فإن هناك بيانات تدعو للقلق . فنسبة الذهاب للمدرسة فى المرحلة الابتدائية منخفضة جدا (٣٨,٦ ٪)، كما أن إنتاجية النظام المدرسى ضعيفة جدا فإذا أخذنا فى الاعتبار عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدارس

فى عام ١٩٧٠ وهو ١١٢٣٣٨، نجد أن ٣١ ٪ فقط من بينهم أىُ (٣٤٨٦٦) هم الذين أكملوا تعليمهم حتى الصف السادس، و١٣ ٪ أى (١٤١٧٨) أكملوا حتى الصف الأول الاعدادى. وأخيرا ٣ ٪ من هؤلاء التلاميذ هم الذين واصلوا تعليمهم حتى السنة النهائية. أما بالنسبة للأطفال الذين بلغوا سن الالتحاق بالمدرسة. فإن ٦.٢٪ منْ بينهم تواصل دراستها حتى نهاية المرحلة الابتدائية، و٠.٧٪ منهم حتى المرحلة الثانوية، هذا دون الأخذ فى الاعتبار لحصولهم أو عدم حصولهم على شهادة نهاية المرحلة [٣].

أضف إلى ذلك أن أقلية ضعيفة جدا هى التى لا تستطيع - بعد نهاية المرحلة الابتدائية وحصولها على الشهادة الدراسية - أن تجد فى القرى ومدن المحافظات إمكانية الاستفادة من معارفها بشكل مفيد. وهنا تصبح هذه الشهادة - التى تم الحصول عليها بشق الأنفس - مجرد "جواز مرور إلى المدينة" حيث يتجه هؤلاء الخريجون ليزيدوا عدد العاطلين المتكدسين فى بيوت من الصفيح.

منذ عام ١٩٧٩ قررت وزارة التربية فى هايتى إجراء إصلاح جذرى عميق في التعليم الابتدائى، وكان هذا الإصلاح يستهدف إيجاد حلول لبعض مشاكل المدرسة الابتدائية فى هايتى وخاصة مشاكل اللغة المستخدمة فى التعليم. ويذكر من هذا المجال أن تعليم الكبار (عن تجربة فى منطقة كوت دى فير من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٨) هو الذى أدى فى الواقع إلى إدخال اللغة المحلية كلغة للتعليم. وثمة مرسوم رئاسى تم التصويت عليه فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ فى الغرفة التشريعية ينص فى مادته الأولى على أنه "يسمح باستخدام اللغة المحلية كلغة مشتركة يتحدث بها ٩٠ ٪ من مجموع سكان هايتى وذلك فى المدارس باعتبارها لغة - وسيلة وأداة للتعليم"، وذلك - بمقتضى حيثياته - من أجل "حماية الوحدة الثقافية للدولة" و "جعل التعليم فى متناول الجميع". وهكذا تم - بقرار - إدخال اللغة المحلية فى التعليم .

ولم يتم نشر المرسوم الذى ينظم النظام التعليمى فى مجموعة إلا فى ٣٠ مارس ١٩٨٢. ويحدد هذا المرسوم - مشيرا إلى المرسوم السابق صدوره فى سبتمبر ١٩٧٨ - بيانات أكثر تحديدا بشأن استخدام اللغتين فى المدارس :

المادة ٢٩ : تعتبر اللغة المحلية هى لغة التعليم واللغة التى يتم تدريسها طوال السنوات

---

٣ - المصادر : المركز الهاييتى للاحصائيات . إدارة الاحصائيات فى وزارة التربية .

الدراسية فى المرحلة الأساسية [4]. واللغة الفرنسية هى اللغة التى يتم تدريسها طوال سنوات الدراسة فى المرحلة الأساسية، وهى لغة التعليم ابتداء من الصف السادس الابتدائى.

المادة ٣٠ : يبدأ العمل على تدعيم اللغة الفرنسية ابتداء من الصف الخامس من مرحلة التعليم الأساسى وذلك من أجل استخدامها كلغة للتعليم فى الصف السادس.

المادة ٣١ : فى جميع الحالات – وابتداء من الصف السادس – ينبغى ألا يقل حجم الوقت المخصص سواء للغة الفرنسية أو للغة المحلية عن ٢٥ ٪ من ساعات الدراسة الأسبوعية.

رابعا : تأملات حول التناقضات وصعوبات الإصلاح

أصيب بخيبة أمل فاحشة كل الذين كانوا من السذاجة بحيث اعتقدوا أن المرسوم وحده يكفى لإعطاء اللغة المحلية هيكلها كلغة للتعليم الشفوى والمكتوب، حتى يتم وبشكل سريع إصلاح النظام التعليمى فى هايتى. فقد كشفت بعض التقييمات التى أجريت فى عام ١٩٨٣ وعام ١٩٨٤ أنه على مستوى الاختبارات اللغوية – كانت النتائج سواء باللغة المحلية أو باللغة الفرنسية ضعيفة للغاية. لذلك فنحن نرى أنه بدلا من الهجوم على إدخال اللغة المحلية فى التعليم، من الأفضل محاولة فهم أسباب الصعوبات فى هذه الطريقة الجديدة فى التعليم.

وقد أثار استخدام هذه السياسة اللغوية الجديدة فى المدارس تناقضات فى الطبقات الشعبية والطبقات الميسورة. فالطبقات الشعبية كانت تخشى من أن تبقى حبيسة اللغة المحلية التى – من وجهة نظرهم – قد تقتل كل أمل، حتى ولو ضعيف، فى الرقى الاجتماعى الذى تهيئه اللغة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك ترفض الطبقات الأخرى عموما "التدريس باللغة المحلية" وهو النظام الذى يقلل من الامتيازات الهائلة التى تقدمها – فى النظام القديم – معرفة اللغة الفرنسية ، حتى ولو كانت معرفة سطحية. وكان على النظام الجديد فى التعليم أن يسلك طريقا اجتماعيا وعرا. والإصلاحات التربوية فى هذا المجال ليست وحدها

٤ – مرحلة التعليم الأساسى تغطى السنوات العشر الأولى من مراحل الدراسة .

كافية للاقناع، فإن إثبات الضرورة الاجتماعية لاستخدام اللغة المحلية فى الكتابة ينبغى أن يتضح فى حالات الاتصالات خارج نطاق المدرسة. ودقة التعلم ينبغى أن تتحول - بإمكانات ملموسة فى إعادة استخدامها - إلى أنشطة فردية وجماعية. وبعبارة أخرى فقد أوكلنا إلى اللغة المحلية ما لم نطلبه من قبل من اللغة الفرنسية.

والنظام التعليمى لا يستطيع - وحده - أن يفرض اللغة المحلية كلغة للاتصال الاجتماعى المكتوب على شعب ٨٠ ٪ منه أمى. ولا يستطيع وحده أن يخلق "حجما ثقافيا" باللغة المحلية يعاد فيه استخدام المعارف الأكاديمية التى تم اكتسابها في المدرسة خوفا من أن تفقد دورها الاجتماعى. ومن المؤكد أن اللغة المحلية المكتوبة تبرز - كما سبق أن رأينا - ولكن ببطء وبمعدل المبادرات المعزولة. والتفاوت بين تعليم الكتابة باللغة المحلية فى المدارس بشكل عمومى وضعف إمكانية فرضها اجتماعيا مما يمكن أن يفسر بعض الخلل فى النظام الجديد.

فى عام ١٩٨٤ تم إجراء تقييم على المهارات اللغوية لدى المدرسين فى مدارس هايتى، وقد كشف هذا التقييم الصعوبات الواضحة التى تعترضهم عند تدريس الكتابة باللغة المحلية. وينبغى إدراك أن كتابة اللغة المحلية - بالنسبة لكثير من المعلمين - كانت تعد عملا غير لائق - مما يناقض التوجيهات والقيم التى استقوها فى إعدادهم الأول. وارتكبنا خطأ فاحشا عندما اعتقدنا أنه من السهل تلقائيا على المدرس أن يقوم بتدريس اللغة المحلية المكتوبة وذلك عن طريق أشكال خطية بسيطة ما دامت اللغة المحلية هى لغته الأم التى يتحدث بها. وكان من الضرورى السماح له بأن يكتسب - أثناء فترة إعداده - متعة شخصية فى القراءة والكتابة باللغة المحلية وتدريبه على أن يجوب بقراءته وكتابته فى مستواه كواحد من الكبار بما يتناسب مع اهتماماته الحقيقة فى الحياة. وعندما أردنا أن نقلل التقدم الفردي للمعلم مؤدين بذلك إلى اتقانه كتابة لغته الأم. خلقنا منه منفذا حرفيا لقوانين طريق التدريس ومناهج البحث بدلا من أن نحاول أن نخلق من المعلم باحثا حقيقيا للغة المحلية المكتوبة. وقد أدى ارتباط المعلم باللغة المحلية المكتوبة إلى تقليل الوظيفة التربوية لهذه اللغة المكتوبة، بشكل كبير. وهكذا فقد أدى التعليم باللغة المحلية - وخاصة فى السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية - إلى انسياق واضح نحو المراجعة الشفهية مبطلين بذلك جزئيا الجهود المبذولة من أجل تنفيذ عملية محو الأمية فى نطاق اللغة الأم. وهنا يمكننا إذن القول أنه بدلا من أن نرى المدرسة تعمل تدريجيا حتى يتم - شيئا فشيئا - تعديل هذا النظام الشفوي، وهذا ما يتطلبه الاستخدام فى المدرسة للغة المحلية المكتوبة، فقد شهدنا إدخال هذا التقليد الشفوى

بالقوة إلى الطريقة التربوية نفسها.

أثناء تنفيذ السياسة التربوية اللغوية الجديدة، انصب اهتمام عدد كبير على الاختبارات الإملائية التى أجريت من أجل إعطاء شكل طبيعى للأشكال الخطية للغة المحلية. إن التجربة التى تمت من أجل تعليم الكبار باللغة المحلية والتى قام بها فريق من المعهد التربوى الوطنى، كما أن أعمال مركز اللغويات التطبيقية في بور – أو – برنس [٥] قد سمحت بوضع نظام للكتابة سهل وفعال. وكان مفهوم هذه الكتابة يهدف إلي شقين أساسيين وهما : السماح للقارئ الأمى باستيعاب اللفظ المكتوب بشكل سريع ؛ الأخذ فى الاعتبار عند اختيار الأشكال اللفظية لرؤية تعلم الفرنسية. وكانت النتيجة أن هذه الكتابة أرادت تجنب الصعوبة التى تجئ من دمج حروف كثيرة أو مجموعات حروف ممكنة لنفس الصوت. فالعلاقة إذن بين الصوت والحرف علاقة ترابطية، والازدواج تم تجنبه إلى أقصى حد. ولما استندنا إلى نظام الأصوات فى اللغة المحلية سمحت الاختبارات التى تمت بحماية خصوصية اللغة المحلية المكتوبة وكذلك اللغة الفرنسية المكتوبة. وكان النقل من لغة إلى أخرى يتم بشكل غاية في السهولة بحيث لم يكن هناك أى إمكانية للخلط بين النظامين. ومن أجل هذا، فإنه عندما كانت ترد نفس أصوات الحروف فى كل من اللغة الفرنسية واللغة المحلية، كان الاختيار يقع على الأشكال الخطية فى اللغة الفرنسية بالقدر الذى تشكل فيه دلالة دائمة (مثل أو، ر، س على سبيل المثال).

وفى المقابل، عندما تقدم اللغة الفرنسية تغييرات كبيرة غير متوقعة، كان الاختيار يدور حول شكل خطئ مؤكد بشكل بسيط أو غير مؤكد فى اللغة الفرنسية (مثل ك، و، ى).

وقد أدى هذا النظام فى الكتابة إلى إحداث معارضة من قبل أولئك الذين كانوا يدعون أن مثل هذه الاختيارات سينتهى بها الحال إلى القطع نهائيا بين اللغة المحلية واللغة الفرنسية (... لترتمي – كما يقولون – فى براثن اللغة الإنجليزية). وكان هؤلاء فى غالبيتهم من أشد أنصار الكتابة الاشتقاقية زعما. كما أن رغبتهم فى تجميل اللغة المحلية بعناصر الكتابة الفرنسية يكشف فى الواقع عن رغبتهم فى سلب اللغة المحلية من هيكلها كلغة مستقلة لدفعها لأن تكون واحدة من اللهجات الفرنسية، وعلى النطاق العلمى، لم تكن حجج أنصار الكتابة الاشتقاقية مقبولة. أما على النطاق التربوى فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن

٥ – ب ، فيرنيه : تقنيات الكتابة باللغة المحلية فى هايتى – بور – أو – برنس ١٩٨٠ – لوناتال .

من شأنه سوى خلق صعوبات جمة فى تعلم اللغة المحلية المكتوبة، وازدواجية هائلة عند تعلم اللغة الفرنسية المكتوبة. وفي الواقع، فإن من ركزوا النقاش طواعية حول مظاهر الأشكال الخيطة [٦] إنما كانوا يريدون أن يجهلوا أن المشكلة الرئيسية أوجدها إدخال لغة حضارية منطوقة ومسموعة إلى عالم الكتابة وبشكل عام بضرورة تكييفها للمحادثة العصرية.

إن إدخال لغة حضارية شفوية إلى مجالات الاتصالات التى كانت مستبعدة منها دائما، إنما يخلق مشكلات لغوية واجتماعية لم يتم بشكل جيد حساب أبعادها وتعقيداتها. وفى مجال الحضارة ذات التراث الشفوى التى ينتمى إليها أبناء هايتى الذين يتحدثون لغة واحدة، تقوم الاتصالات اللغوية بالضرورة على علاقات القرابة والتجمعات التى تنسجها التقاليد والحياة الجماعية وخاصة فى المناطق الريفية. ويخضع نمو وصرف الحديث لأشكال خاصة تلعب فيها الإشارات الحركية ونطق الكلمات وخاصة الكلمات "المعروفة" بين الأفراد المتحدثين دورا أساسيا. وتحدد هذه العوامل على نطاق واسع كيفية إدارة الحديث الشفوى. وقد اقتضى استخدام اللغة المحلية فى التعليم وفى الكتابة ضرورة إبعاد المواقف الاجتماعية التقليدية التى شكلت فيها أشكال ومواقف الاتصالات فى حياة الشخص الذى يتحدث لغة واحدة. ولما كانت اللغة المحلية مستبعدة من قبل من أى حديث فى مجال التعليم، فقد وجدت نفسها وقد أخذت على عاتقها تحمل مجال اتصال يتطلب أدوات لغوية ونحوية لم تكن تتوفر لديها من قبل.

وقد ظهر خطأ كبير عند هذا الانتقال زاده قرب الآجال التى فرضها الإصلاح، وهو الاعتقاد فى أنه من الممكن – بشكل اصطلاحى وسبقا للمواقف الفعلية للاستخدام – التنبؤ بالاجابات الخاصة بمفردات وبلاغة اللغة بينما نحن نجهل قدرة المتحدث فى مواجهة احتياجات جديدة. وقد أعطى التحليل اللغوى النظرى فكرة وهمية مجملها أن المصطلحات اللغوية يمكن فحصها بعيدا عن مجال الحركة الخلاقة التى يوحى لها بها وضعها فى موقف تعليمى. وهذا الفصل بالنسبة للمارسة الاجتماعية – اللغوية قد خلق اتجاهين متضادين : أحدهما باسم "نقاء" اللغة المحلية، ينادى ويمجد الاتجاه بالتحول المطلق وإلى أقصى حد عن اللغة الفرنسية، إلى حد افتراض تعبيرات جديدة يعتبر استخدامها من المتحدث من الأمور

---

٦ – نجد فى الأكوادور ، ولكن فى ظروف أخرى وفى حالات مشابهة هذا التركيز فى المناقشات على بعض النقاط حول الكتابة المقترحة لمحو الأمية باللغة الكيتشوا . وهنا أيضا كان استخدام "ك" بدلا من حرف "ق" فى اللغة الإسبانية مما أثار اعتراضات شديدة وتفسيرات مضحكة . وكانت الرغبة الواضحة فى هذا الشأن هى تقسيم – بأى وسيلة كانت – الجماعات الهندية عن طريق مسألة صرفية بحتة .

غير المسلم بها. أما الاتجاه الآخر فإنه يدافع عن فكرة الاستعارة الآلية من اللغات الأخرى (الفرنسية أو الإنجليزية) باعتبارها الوسيلة الأكثر سهولة فى حالة الحاجة إلى مصطلحات جديدة فى مجال الاتصالات. وينسى أنصار الاتجاه الأول - فى رغبتهم فى إزالة كل تأثير استعمارى عن اللغة المحلية - أن اللغة لا تتبع خطا نظريا مهما كان الأساس الذى تقوم عليه. أما الآخرون الذين يطالبون بالاستعارة الشاملة من اللغات الأخرى فينكرون حقيقة أن اللغة التى تبقى تحت السيطرة لمدة طويلة لا تصمد تماما أمام هذا النوع من الاستعارة وتعرض شخصيتها للخطر. وفى خضم اهتمامهم بسد الفجوات اللفظية والبلاغة فى اللغة المحلية ينحى أولئك وهؤلاء المشكلة الأساسية جانبا : أن اللغة المحلية - وهى حقيقة ثقافية واجتماعية - ينبغى أن تكون لها القدرة على اقتحام عالم التدريس، وأن تواجهه فى جميع مظاهره وأن تترك فيه من آثار خاصيتها الدلالية، وتدير بذلك نظاما تعليما أصليا.

يبدو لنا من الأمور الأساسية أن نؤكد أن على الرغم من الصعوبات التى تواجهها والأخطاء التى تقع فيها، وبعيدا عن الشعور بخيبة أمل بسبب النتائج الجزئية للتقييمات الأولى، فإن استخدام اللغة المحلية فى التعليم فى هايتى يفرض نفسه كضرورة مطلقة.

واستفسارنا اليوم عن المزايا أو العيوب لهذا الاتجاه لن يكون مجديا : إذ ليست هناك وسيلة أخرى غيرها للمدارس فى هايتى. أما ما يجب أن ندركه فهو أن هذا التغيير يحتاج إلى وقت، وأننا لا يمكن أن نقيس تأثيراته ولا أن نبدى رأينا حول نتائجه فى نهاية عقد للتعاون أو قرار وزارى. إن إدخال اللغة المحلية فى التعليم بجميع نتائجه اللغوية والاجتماعية والثقافية يعتبر حدثا يسجل فى التطور التاريخى للدولة. وهذا يحتاج إلى وقت وصبر ويقظة تتعدى المحيط المدرسى.

واليوم وبعد سقوط نظام دوفالييه، ينبغى ألا نرفض مبدأ استخدام اللغة المحلية فى التعليم بحجة أن هذا القرار قد أعلن رسميا فى عهد الدكتاتور السابق. ومن الأمور الهامة أن نضع إدخال اللغة المحلية فى التعليم فى بعدها التاريخى حتى نتفهم دلالتها. فالتاريخ الطويل للشعب فى هايتى يتميز برغبة فى الاستقلال الوطنى يدعمها تأكيد الهوية الهايتية فى مواجهة الضغوط الخارجية المستمرة. ومن المحقق أنه بالنسبة لجميع التيارات الأيديولوجية التى زعمت الخاصية الهايتية، فإن الضمان فى ذلك هو "إنسان الجبل" وليس البرجوازى المغامر الذى يرتبط بالتجارة الاستعمارية، وهذه الخاصية ظهرت بطبيعة الحال فى حالة الغموض التى استغلها نظام دوفالييه لغرض ديكتاتوريته. ومع ذلك وباسم هذه

القيم وفى مواجهة ممارسات النظام، كافح الرجال بكل عزيمة حتى يجعلوا من مجرد مرسوم رئاسى بسيط حقيقة تعليمية. ونعتقد اليوم أن المسئولين عن التعليم فى هايتى - بعد أن يتخلصوا من الضغوط والعوائق التى فرضها النظام القديم - سيعطون لهذا الإصلاح بعدا يتجاوز مجرد تغير الأداة اللغوية حتى يتم إجراء تغييرات عميقة فى النظام التعليمى بمحتوياته وأهدافه.

وختاما، نقول أخيرا إن أى سياسة للتعاون - سواء كانت ثنائية أو متعددة الأطراف، لا تشتمل فى فكرها ومنهجها على حقيقة اللغة المحلية ستئول إلى الفشل. وإذا أخذنا بضرورة استخدام اللغة الأم فى اكتساب المعلومات والمعارف الأساسية، وإذا وضعنا نظاما تكميليا للتعليم الحقيقى للغة الفرنسية بدءا من الصف الأول من المرحلة الابتدائية، فإن الإصلاح فى هايتى يطرح للمناقشة مفهوما للنطق بالفرنسية التقليدية الخاصة بالصفوة، مفهوما للتعاون محبا لذاته وقصير المدى.

الين بنتوليلا

BIBLIOGRAPHY

ALEXANDRE, BENTOLILA, FAUCHOIS, "Recherches actuelles pour les aires créolophones", *Espace créole*, no. 5, pp. 125-202.
VALDMAN, A., *Le créole: structure, statut et origine*, Paris, Klincksieck. 403 pp.
VERNET, P., *Langues, Education, Société en Haïti*, Doctor's Thesis, Paris V, 1984.

لوك بوكيو

المسائل النظرية
فى وصف اللغات الإفريقية

١ - أين نحن من هذه المسائل

فى كتاب صدر فى عام ١٩٦٧ (١) ، ولكنه لم يفقد بعد شيئا من أهميته، قدم «ب. الكسندر» قائمة بإحدى وخمسين لغة فى إفريقية السوداء (أو مجموعة من اللهجات واللغات المتجانسة) التى يتكلمها ما يزيد على مليون من البشر، وعدّد بالنسبة لكل منها الوثائق المتاحة، وجعل لها ترقيما يتدرج من ١ إلى ٦. فرقم ١ يمثل اللغات التى كانت الوثائق الخاصة بها رديئة (قواعد لغوية، وقواميس بالية أو ناقصة، أو غير معقولة، ونظم للنسخ والتدوين غير علمية). أما رقم ٦ فيرمز الى اللغات التى يوجد لها كتب موافقة للمقتضيات الحديثة (أصوات تعبر عنها علامات صحيحة، وصف فونولوچى - خاص بعلم الأصوات الكلامية - ونصوص مشروحة، وقواميس، ودراسات فى الأساليب واللهجات، وأجهزة صوتية). وثمة ثلاث لغات فقط هى التى استحقت الرقم ٦، وأربع الرقم ٥. معنى هذا أن سبع لغات فقط، من بين قرابة ألف ومئتين، أمكن اعتبار انها موصوفة وصفا صحيحا، أى تزود الإخصائى بكل الضمانات اللازمة.

ترجمه إلى الإنجليزية : جينى فيرجسون
المترجم : أحمد رضا محمد رضا

وإذا شئنا قياس الطريق الذى تم اجتيازه فيما يقرب من عشرين سنة فإنه مما يثير الاهتمام المقابلة بين الأرقام التى قدمها پ. ألكسندر وبين وجهة النظر التى عبر عنها «مركز الدراسات الإفريقية» بجامعة ميتشجان فى تحقيق أجراه فى شهر يوليه عام ١٩٨٥. فقد قدر هذا المركز المواد الموجودة الآن لأغراض التعلم والتعليم، فأحصى ثلاثا وثمانين لغة وصفها بأن «لها الأولوية الكبرى»، وذلك فى ختام مداولة اشترك فيها لغويون إفريقيون بالجامعة نفسها. ومن المسلم به أن هذه اللغات الثلاث والثمانين تعتبر من جهة أهم اللغات من حيث عدد المتكلمين بها، ومن جهة أخرى أن الوثائق الخاصة بها غنية بدرجة كافيه تبرر مثل هذا القرار. وإنى لأشك، دون أن اسبق بتقدير نتائج هذا التحقيق، فى أنه يوجد فى الوقت الراهن أكثر من خمسين لغة تحظى بالمعامل ٥ أو ٦ من معاملات پ. ألكسندر، أى تلك التى تكون موادها الموجودة مرضية تماما. يبقى إذن الشئ الكثير الذى يجب إنجازه، ولم يزل أمامنا صعوبات جمة.

٢ - ما هو المقصود بالوصف ؟

يمكن تحديد هذا السؤال بصياغته بكيفية أخرى : ما الذى يتطلبه الإنسان حتى يقول إن لغة ما قد وصفت وصفا جيدا ؟ يلزمه أولا «فونولوچيا» (علم الأصوات الكلامية) مفصلة ونقدية، أى تعريف الوحدات المميزة الصغرى تعريفا لا يكتفى بقائمة إجمالية بسيطة لفونيمات phonémes (وحدات الأصوات الكلامية) اللغة مع بعض ملاحظات تكميلية. ويجب تعريف كل «فونيمة» وإثبات صلتها بعد تحليل بعض المعلومات. هذا العمل يضع فى متناول القارئ إمكانية مراجعة الشرح، ويسمح، فى نطاق لا مناص فيه من الاعتباط، بالحكم على الأجزاء، فى حين أن اللغوى الذى لا يقدم سوى قائمة بالفونيمات يضيف إليها تفسيراته الاعتباطية التى لا يخضعها للنقد. يلى ذلك تقديم قواعد اللغة نفسها، من علم الصرف (التشكل) Morphologie - مورفولوچيا - الى تركيب الجملة (أو النحو) syn-taxe ولا يتسنى تكوين فكرة كاملة عن اللغة اذا لم نشرع أيضا فى نشر نصوص مشروحة بلغتين، وتأليف معجم بلغتين مصحوب بتصنيف للمواد.

٣ - لماذا الوصف ، ولمن ؟

لا يوجد فى مفهوم اللغويين «لغات كبرى»، و «لغات صغرى»، ولا أهمية لعدد المتكلمين باللغة، ولكل لغة أهمية كبيرة لأنها تعكس تجزئة خاصة للواقع. وعلى هذا فمن المؤكد أن هناك ضرورات عملية تتحكم فى اختيار اللغات من أجل وصفها. وإذا كان من الممكن الإسراع فى تسجيل اللغات الصغرى التى يتناقص عدد الناطقين بها الى أن تختفى تماما،

وهذا ما يحدث فى إفريقية كل سنة، فإن هذه اللغات هى بنوع ما تحف معرضة الخطر، ولها أهمية خاصة، ويحل علم اللغات بنوع ما فى الثقافات ذات التلقيد الشفهى محل علم الأثريات، وعلم التاريخ المبنى على الوثائق المكتوبة. على أن النص الحالى يتطلب بالأحرى الاهتمام باللغات الواسعة الانتشار. ومن الطبيعى أن استقلال البلاد النامية لا يعمل على تأكيد ذاته على المستويين السياسى والاقتصادى فحسب، ولكنه يحرص أيضا على أن يتجلى على المستوى الثقافى. وفى وعى هذه البلاد وهى تبحث عن ذاتها أن اللغة تحتل مكانة رئيسية. وعلى ذلك وضعت حكومات كثيرة برامج لتعليم الأميين القراءة والكتابة باللغات القومية. وعلى هذا المستوى وعلى مستويات كثيرة أخرى يسود تباين شديد. وبين البلاد الصغرى حيث يستخدم الكافة بالفعل لغة واحدة (رواند، وبوروندى) والبلاد التى فيها تنوع كبير (الكاميرون) نصادف أوضاعا أخرى : فمنها بلاد تنتشر فيها لغة واحدة ذات مكانة كبيرة بين الأهالى الذين يتكلمون لغتين على الأقل (تنزانيا، وجمهورية إفريقية الوسطى)، والبلاد التى تعرف عدة لغات ذات خطوة تتنافس إلى حد ما فيما بينها (نيجيريا، ومالى)، والبلاد التى فيها لغة واحدة لها الأغلبية، وعدد كبير من لغات صغيرة (السنغال)، وذلك بالإضافة إلى الأوضاع اللغوية الخاصة بكل بلد، إذا أخذنا الطبقات الاجتماعية فى الاعتبار. ولقد حلل السيد "هوى" M. Houis هذا الأمر تحليلا رائعا فى كتاب له [٢]. ومن الطبيعى أن مهمة الواصف تختلف حين يعكف فى كثير من الأحيان، بناء على طلب رسمى من بلد ما، على دراسة لغة تستخدم كأداة للتعليم. وحتى إذا كانت الطريقة المستخدمة، فى خطوطها العريضة متماثلة، فإنه ينبغى له فى هذه الحالة أن يعرف أن عليه أن يأخذ فى اعتباره – وفى الكثير من الأحيان بالتعاون مع بعض علماء القرية – النتائج العملية المترتبة على دراساته : كإعداد كتب دراسية عملية ومتدرجة لتعليم اللغة، وتأهيل المدرسين المكلفين بتدريس لغتهم، أو اللغة المخصصة لتعليم الأميين، فى حين أنهم لم يتدربوا على أداء هذه المهمة، فالتعليم يجرى غالبا باللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو البرتغالية.

٤ – مناهج، ونظريات

ينبغى أن نؤكد، رضينا أم لم نرض، أن الاختبارات النظرية، وبالتالى أساليب الوصف، ترتبط بأحداث تاريخية، واختيارات جرت فى عهد الاستعمار. وفى ضوء هذه الأمور نحاول فهم ما يجرى فى الوقت الحاضر.

١ - المدرسة الألمانية

كان الألمان هم غالبية الرواد الأوائل فى دراسة اللغات الإفريقية. ففى أواخر القرن الماضى كان مركز الدراسات اللغوية دون فى ألمانيا. ولا جدال فى أن القواعد المقارنة للغات الهندية الأوربية، والقواعد التاريخية للغات الجرمانية، أو حتى الرومانية، قد نشأت فى ألمانيا، وقد أثر العنصر التاريخى القوى المكون لهذه الفروع من المعرفة منذ البداية فى الأوصاف الأولى للغات الإفريقية. وحتى إذا كانت الدقة الصوتية المراعاة فى التدوينات، والسمة الشاملة نسبيا للتحليلات، تثير الإعجاب الفور، فإننا لندهش حين يتبين لنا أن هذه الأبحاث لم تهتم بوصف خواص لغة معينة بقدر اهتمامها بوضع شواخص تسمح بإعادة بناء اللغة الأصلية المشتركة، حتى إن الأسماء العظيمة التى ظهرت كانت أولا أسماء علماء مختصين فى الأدب المقارن، مثل ك. منيهوف K. Meinhof [٣] فى البنتو العام، و د. فسترمان D. Westermann [٤] فى لغات السودان. وتنوعت الدراسات الإفريقية فى الوقت الحاضر تنوعا كبيرا إلا أن هذا الاتجاه بقى واضحا فى الاهتمام بدراسة اللهجات واللغات العامية [٥]، وفى إعادة بناء اللغة التشادية الأولى [٦]، أو الخويزان Khoisan [٧].

٢ - المدرسة الأنجلوسكسونية.

إن إلزام المديرين الاستعماريين، فى إطار "الحكم غير المباشر"، بأن يعرفوا لغة إفريقية واحدة على الأقل قبل أن يلتحقوا بمراكزهم، هذا الإلزام لعب دوره فى التوجه العملى والبراجماتى للمدرسة الإنجليزية، سليلة المدرسة الألمانية فى بدايتها. ولم يزل السيد جوثرى M. Guthrie - دون أن يهمل الدراسات المقارنة، وبخاصة فى مجال البانتو - لم يزل لزمن طويل مرجعا لا بديل له، فى كتابه الضخم "البنتو المقارن" Comparative Bantu [٨] وشهد النصف الأول من القرن العشرين ازدهارا فى قواعد اللغات ، والمعاجم الممتازة، نذكر منها معاجم ج. ب. بارجرى G. P. Bargery و ر.س. إبراهام R.C. Abraham فى الهوسا، وف. جونسون F. Johnson فى السواحلية [٩]. وإذا كانت قواعد اللغات الأولى لا تتميز عن نماذجها التقليدية فإن التأثير المشترك للأمريكيين ل. بلومفيلد L. Bloomfield، أ. سابير E. Sapir وأتباعها [١٠] ما لبث أن ظهر بوضوح، وساعد على ذلك وحدة اللغة، وطرافة نظارياتهم التى تحاول أن تتميز عن النموذج الهندى الأوربى المستقر فى الأوصاف الأولى. هذا الاهتمام ليس بغريب على ثقافة أصحاب

هذه المدرسة، وهى ثقافة من لغات معقدة بنوع خاص، وبعيدة كل البعد عن النموذج الهندى الأوربى فقد اضطرهم عدم وجود وثائق مكتوبة إلى اقتراح منهاج غير تاريخى، وشرح اللغات التى كانوا يدرسونها لذاتها وفى ذاتها.

تلك هى بالتأكيد التجاوزات فى التركيبية (البنيوية) "البلومفيلدية" (نسبة إلى بلومفيلد) الجديدة التى تتجلى بنوع خاص فى مؤلفات زهاريس Z. Harris (١١) والتى دفعت ن. شوسكى N. Chomsky إلى البحث عن طرق أخرى. واليوم تستوحى أغلب الشروح الأنجلوسكسونية إما نموذج شوسكى أو ك. پايك K. Pike(١٢) تلميذ أ. سابير. ولسوء الحظ فإن التجاوزات التى أبلغ عنها ن، شوسكى حين راح يهاجم أنصار البلومفيليدية الجديدة لم يسلم منها أنصار "قواعد العبارة اللغوية" (وصف منظم لتكون العبارة فى لغة ما – المترجم) إذ يبدو أن هؤلاء يميلون بالأكثر إلى اختيار نظرياتهم بلغة معينة بدلا من وصفها من الداخل. ففضلا عن أن مناهجهم القائمة على أساس مصادرات (مسلمات) مشكوك فى صحتها، فإنهم غير قادرين على تقديم شروح شاملة، وأرى أنهم أخفقوا فى تقديم أصوات كلامية يمكن استخدامها لأغراض عملية. إن التكوينات العميقة المستخلصة بعناء شديد، تبعا لقواعد منظمة لها دون شك أهمية فى إعادة البناء، ولكنها فى الواقع العملى لا فائدة منها حين يراد استخلاص تسجيلات يمكن استخدامها للفور لتدوين لغة ما. ومنها ج. ك. پايك الذى ضم إليه نظرية معدة من قبل أكثر وفاء بالغرض، وينتشر بفضل تدريبات منظمة على نطاق عالمى فى إطار معهد لعلم اللغات Summer Institute of Linguistics وكانت آخر قائمة لمطبوعاته رائعة (١٣).

٣ – المدرسة البلجيكية

إن وضع اللغة فى زئير، المستعمرة البلجيكية السابقة، حيث تشكل لغات البانتو تسعة أعشار اللغات المستخدمة فى الكلام، هذا الوضع يبرر اهتمام اللغويين البلجيكيين بهذه الطائفة من اللغات. مؤسس هذه المدرسة هو ا. ا. ميسين A. E. Meeussen الذى كان فى البداية تلميذا لجوئرى، ثم صار من أنصار البلومفيلدية الجديدة، ومن المعجبين بشومسكى فى أواخر حياته العلمية. وتتجلى دلالة هذا التأثير المزدوج فى دراساته الأحادية الوافية التى كرسها للعديد من لغات البانتو (١٤). وفى أعماله المقارنة التى ثبتت أصلتها بنوع خاص (١٥). وواصل أتباعه أعماله مستلهمين الإطار النظرى الذى وضعه باتقان، بحيث يلائم بنوع خاص البانتو (١٦)؛ وإذا كان أغلبهم قد ظل يدرس لغات البانتو فإنهم

شرعوا يهتمون بطوائف أخرى.

٤ – المدرسة الفرنسية

تأثرت المدرسة الفرنسية فى بدايتها بعالم اللغات المقارنة ا. ميه A. Meillet, الذى أشرف على رسالة ل هوبيرجر L. Homburger بخصوص الدراسة التاريخية للأصوات الكلامية للبانتو، الذى صدر فى عام ١٩١٤ (١٧)، ثم صارت بعد ذلك المدافعة عن القرابة الوراثية لمجموعة اللغات الرفريقية، بل إنها حاولت أيضا أن تقربها من اللغات الدرافيدية ـمجموعة لغات تتكلمها شعوب تقطن جنوبى الهند، وشمالى سيلان – المترجم). وإذا كانت لزاما علينا أن نذكر بالتقدير أعمال السيد ديلافلاوس M. Delafosse بشأن لغات غرب إفريقية فإننا نبين أنه حتى العقد السابع كانت بعض الأعمال الواسعة النطاق بنوع ما من تأليف بعض المبشرين والمدبرين. ولم تتطور الإفريقانية (صياغة خاصة بالكتاب الإفريقيـين عندما يعبرون عن أفكارهـم باللغات الأوربية – المترجم) الجامعية الا أخيرا، وبخاصة لأسباب سياسية استعمارية. ففيما عدا بعض المحاولات التى سرعان ما أهملت لتعليم اللغتين الفرنسية والولوف معا، الذى ارتبط باسم ج. دارد J. Dard فى مستهل القرن التاسع عشر (١٨)، كانت اللغة الفرنسية هى الوحيدة التى تدرس فى المدارس، ويسمح بها فى المحاكم، وتستخدم فى الإدارة. ووجد هذا المبدأ تعبيره النهائى فى مراسيم العقد الرابع التى حظرت استخدام أية لغة فى التعليم، حتى التعليم الخاص، خلاف الفرنسية. ونتج عن ذلك بصورة متناقضة أنه كان لم يكن بد من انتظار التحرر من الاستعمار فى العقد السابع لكى تستيقظ الأهمية العلمية للغات الإفريقية، وتتجسم بإنشاء كراس أستاذية جامعية، حتى إنه بقى الآن تفاوت لم يلبث أن طرح مشكلات بشأن وضع أطر للطلبة وتأهيلهم من بين العدد المرتفع نسبيا من الباحثين، مع ندرة المدرسين.

وبخصوص المناهج يمكن القول بأن اللغويين الفرنسيين المشتغلين باللغات الإفريقية. أو العاملين فى النطاق الفرنسى، قد تأثروا كثيرا بالسيد ا. مارتينيه A . Martinet، وثمة جمهور كبير من المستمعين له بفضل موهبته الشخصية ووضوح تعليمه أتاح له أن يعمم لدى تلاميذه النظرية التركيبية (البنيوية) النابعة من الأصوات الكلامية البراجية (نسبة إلى براج) التى امتدحها فى مؤلفاته (١٩). وانطلاقا من ذلك استطاع تلاميذه أن يضعوا بدقة مناهج تبين بنوع خاص أنها ملائمة تماما لوصف اللغات "الغريبة" لأنها واقعية بدرجة كافية، فلا تشوه المعلومات وتجعلها غير صالحة للاستعمال إذا أريد تفسيرها عن طريق منها ج آخر؛

وهذه هى حالة الأوصاف المدونة تبعا لقواعد تكوين العبارة، وبنوع أساسى لدى أنصار ن. شومسكى.

هذه القائمة لا تكتمل إلا بذكر أسماء ا بنپنيست E.Benveniste، و ا. هودريكور A.Haudricourt وإذا لم يكن هذان الاثنان قد عالجا لغات إفريقية، ولو بطريقة عريضة، فإن فكرهما كائن فى أساس العديد من الأعمال. أما فكر ا. بنپنيست فإنه أثار تأملات خصبة فى الجوانب الدقيقة بنوع خاص من قواعد اللغة ؛ وكان ا هودريكور وأساليب عمله قد أثرت فى معظمنا تأثرا عميقا. وإذا كان إسهامه محسوسا فى كل ما يتعلق بعلم الأصوات الكلامية، فإن رؤيته للغة على أنها ظاهرة اجتماعية كلية – وهى وجهة نظر تعكس تأثير السيد موس M. Mauss قد أقنعتنا بأنه ليس فى الإمكان البقاء بمنأى عن المضمون الإنسانى كله فى الدراسة اللغوية، وأن ثمة بحوثا متلاحقة في المجالات المقترنة بعلم النبات العنصرى، وعلم الحيوان العنصرى، والتقنيات التقليدية، يجب أن تكون ضمن المنهاج اللغوى فى المجال الشفهى.

٥ – مدارس أخرى

هذه اللمحة السريعة، وهى حتما مبسطة وغير كالة لأنشط المدارس فى علم اللغات الرفريقية واتجاهاتها، لا يجوز أن تنسينا أن هناك، فى أنحاء العالم لغويين آخرين يهتمون باللغات الإفريقية. فثمة مدرسة بجنوب إفريقية، سليلة المدرسة الألمانية، كانت بداية لدراسة لغات البانتو، وأول من جذب الأنظار إلى خصائص لغات الخويزان، فى أعقاب و. بليك W. Bleek. وقدمت هولندا حديثا بعض اللغويين الأكفاء المتأثرين بدرجة كبيرة بالمدرستين الأمريكية والبلجيكية، ولكنهم لم يهتموا كثيرا بالأعمال الوصفية البحتة.

وفى الاتحاد السوفيتى لا ترجع الدراسات الإفريقية إلى ما قبل العقد الثالث. وقد اهتم د. ا اولديروج D. A. Olderogge [٢٠] موجه المدرسة الإفريقية (التى تدرس الثقافات واللغات الإفريقية – المترجم)، وهو أيضا سليل المدرسة الألمانية، اهتم هو والتلاميذ الذين قام بتأهيلهم باللغات الإفريقية الكبرى، ولكنهم كانوا يميلون إلى التركيبات الكبرى ووسائل التصنيف وإعادة البناء أكثر من اهتمامهم بالدراسات الأحادية الوافية للغات معينة.

وفى أكادمية العلوم ومعهد الدراسات الشرقية بموسكو لدراسة اللغات الإفريقية؛ وتدرس اللغات الإفريقية فى جامعات موسكو ولينجراد، وفى معهد العلاقات الخارجية، ويتركز

الاهتمام بها أساسا بلغات البانتو المنتشرة على نطاق واسع (السواحلية، ولنجالا)، والهوسا، والبامبارا، والأمهرية، كما تجد بها الدراسات المقارنة كل تقدير، وهى أساسا فى مجال اللغات الحامية السامية. ونذكر بين المطبوعات المبرزة "خريطة عامة للغات الإفريقية" صدرت فى عام ١٩٦٠ وصدر بعد ذلك فى عام ١٩٨٠ قاموس "لنجالا - روسية"، وقاموس مقارن للهجات البول peuls (مع ترجمة المفردات باللغتين الروسية والفرنسية). وهناك تحت الطبع كتاب ضخم فى تاريخ اللغات الإفريقية، يباشر طبعه ف. پورخوموڤسكى V. Porkhomovsky, ويتضمن دراسات فى "الفونولوجيا" (علم الأصوات الكلامية) ومفردات اللغات التشادية للمجموعة الغربية، ومن إعادة بناء نظم الحروف الساكنة فى لغات "ماندية" mandé والغرب الأطلسى، وتطور نظام الأصوات الكلامية الأفريقية الآسيوية المشتركة ؛ وإعادة البناء النغمى للغات الصحراوية فى مجموعة كانورى - تبدا Kanuri-teda.

وبدأت اليابان أيضا تهتم (بدراسة اللغات الإفريقية) وترسل باحثين يتأهلون فى هذا المجال فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وجمهورية ألمانيا الاتحادية [٢١].

ونشير للتذكرة فقط إلى أعمال اللغويين الإسبان والبرتغاليين. وعلى الرغم من اتساع أملاكهم القديمة فى إفريقية، وبخاصة أملاك البرتغال، فإن الأعمال التى تحققت قام بها أساسا بعض المبشرين الذين اهتموا بهذا الموضوع، ولكنها فى الواقع قليلة بالنسبة لمتطلبات المنهاج العلمى. كذلك فإن أنجولا وموزمبيق تشكلان اليوم بقاعا مجهولة بالنسبة للمعرفة الدقيقة للغاتهما.

٥ - البنيان اللغوى، والوصف

إن تصنيف اللغات الإفريقية إلى أربع مجموعات كبرى قد يبعث على الاعتقاد بأنها تمثل فيما بينها سمات كبيرة مشتركة فى البنيان والمفردات، وأن نظمها الصوتية الكلامية متشابهة إجمالا ؛ ومن ثم فمن السهل فى شأنها اقتراح شبكة وصفية مشتركة. وإذا كان فى المستطاع فعلا إجراء مقابلات تصنيفية فإن بينها مع ذلك تباينات عديدة. وإذا كان نظامها الصوتى فى الغالب بسيطا نسبيا (من ٥ إلى ٧ حروف علة) فإن لبعضها، وبخاصة لغات الغرب الأطلسى، قائمة كبيرة من حروف العلة. والأمر كذلك بالنسبة لنظام الصوامت (الحروف الساكنة) حيث توجد منها حروف بسيطة وحروف ثنائية فى داخل المجموعة الواحدة (فى لغات البانتو على سبيل المثال). وإذا كان الصرف (التشكيل) فى

اللغات "الأوبانجية" oubanguiennes، بسيطا نسبيا فإنه معقد تعقدا شديدا فى لغات "البلاتو" Plateau (الهضبة ؟)، واللغات التشادية، والبانتو. وإذا أمكن إثبات الوظيفة الصحيحة للنبرات - وهى من الخصائص الهامة لعدد كبير من هذه اللغات - فإنها لم تزل خفية عنا فى جزء من لغة الباميليك banileke (شعب الكاميرون) ولغات جراسفيلد Grassfileds (المراعى). وفى مجال الموضوعية (اشتقاق، وإنشاء) نجد جنبا إلى جنب لغات تبدو على درجة كبيرة من الثراء، وأخرى تكاد تنعدم فيها هذه الظواهر. ومن جهة أخرى، توجد ظواهر تبدو متفوقة فى المجموعات اللغوية. من ذلك أن البنية التى تتميز بها اللغات ذات الطبقات، سواء تنتمى إلى مجموعة الغرب الأطلسى، أو البلاتو، أو البنتو ، هذه البنية تستحث نموذجا من الوصف لا يلائم حتما لغات ليس لها طبقات. يترتب على ذلك أنماط من التقديم ملائمة نسبيا ما دامت فى داخل إطار تصنيفى واحد، ولكنها صعبة الاستخدام فى أطر أخرى توجد فيها ضغوط تشكلية (صرفية) أو نحوية مختلفة تؤدى إلى عرض آخر. وإذا استقرت العادات، بسبب التراخى أو السهولة العارضة، فمن الصعب تغييرها، وخاصة أن بعض هذه العادات عملية، حين نعتبر أن الدراسة اللغوية الأحادية يمكن استخدامها لأغراض المقارنة. من ذلك أن ترقيم طبقات البانتو الذى اقترحه لأول مرة و. بليك W. Bleek فى رسالته التى ظهرت عام ١٩٨٥١ (٢٢) ما زال يستخدمها مع بعض الترتيبات الاخصائيون فى المقارنة، فى حين أن التدرج الذى تتضمنه لا يتلاءم مع كل لغات البانتو. يترتب على ذلك أن العالم باللغات والثقافات الرفريقية، الذى يريد أن يلم بأصول لغات تنتمى إلى مجموعات مختلفة، لأغراض مقارنة أو تصنيفية، يتعين عليه أولا أن يتدرب على أساليب الوصف الخاصة بكل مجموعة، وهو أمر ليس بالسهل، ويجعل المهمة دقيقة بنوع خاص لمن يريد أن يسيطر على المجال كله. وليس من السهل تأهيل البحاث، فلا بد من مراعاة اتصالهم فى أثناء دراساتهم بمختلف نماذج الوصف ومدارسه. هذه المشكلات لم تفت على ذهن أولئك الذين اكتسبوا خبرة واسعة فى موضوع الوصف، وأدركوا التنوع اللغوى الشديد فى القارة السوداء. فأرادوا اقتراح شئ جديد يسمح بتوحيد الأوصاف وتنسيقها. من ذلك أن السيد "هوى" M. Houis قدم مرتين فى عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٧، اقتراحات لخطة وصف منهاجى للغات الزنجية الإفريقية (٢٣).

٦ - نحو طريقة مثالية

١ - الافتراضات (المسلمات)

إن الطريقة المثالية للوصف تبدو هدفا من العسير بلوغه، وحقيقة تخفق جهودنا دواما في تعريفها، فلا بد أن تستجيب لمتطلبات عديدة ومتعارضة بعض الشئ. هذا هو السبب الذي من أجله توجد طرق مختلفة للوصف تكمن في أساسها نظريات مختلفة : وكل طريقة تجلب تنويرا مرضيا ومتنوعا على وجه التقريب، ولكنها لا تغير الموضوع بإجماله. وكل طريقة جديدة تظهر بعض العيوب في الطرق السابقة، وتثير أسئلة لم يواجهها أحد من قبل، وتنتهي باقناعنا بأن اللغة هي واقع يفوتنا دائما وجه أو آخر من وجوهه. ومع ذلك ففي الإمكان أن نحاول تعداد الصفات التي نتوقعها من وصف جيد، حيثما تكون بغيتنا أن تزودنا الطريقة بأكبر قدر من المعلومات الواضحة التي يمكن استخدامها لأغراض عديدة.

أولا : إجراء تحليل يجب بالضرورة أن يستند إلى نظرية راسخة. يقتضي هذا أن يتم بنظام ومنهاج جمع المواد الكفيلة بأن تستخدم في الوصف. وإنا لنطرح بمثابة مسلمة أن وصف لغة هو دائما عملية فريدة في ذاتها، هدفها الإحاطة بالنوعية من أجل استخلاص المعنى الكلي الشامل. " لا يترتب على التصرف العكسي، بإهمال النوعية والاكتفاء بملاحقة الكليات المفترضة سوى أن يثبت الواصف براعته، ويخطئ مع ذلك الهدف المقصود [٢٤]. المطلوب إذن البحث أولا عن النوعيات ثم اكتشاف الكليات، ولكن مع ضمان صحتها باستبعاد كل رأي مسبق. وفي هذه الرؤية تصاغ مجموعة من الفروض التي تختبر على لغات طبيعية، وتنتظم هذه الفروض أولا بأول تبعا لتجارب تجرى على لغة معينة. وكل دراسة للمسائل التي تطرحها كل عينة جديدة توجب مراجعة النظرية باستمرار، الأمر الذي يجعلها في مأمن من كل نزعة دجاطيقية، ويتطلب ذلك إنشاء جدول بين جمع الوثائق، وتحليلها، ووصفها.

في هذه الرؤية يجب أن تكون معالجتها محايدة وموضوعية بقدر الإمكان، مع مراعاة ألا نفرض قالبا لفكر أجنبي يعكس مثلا النموذج الهندي الأوربي الذي كثيرا ما استخدم في وضع النظريات. وإن ما يبدو لنا أقدر على الاستجابة لهذه المتطلبات هو وصف على مستويات متدرجة عديدة، تبعا لنموذج معروف في علوم الطبيعة باسم halisne : ويفترض هذا النموذج أن كل حقيقة طبيعية تتضمن - تبعا لمستوى التحليل الذي يجرى عنده - عددا من العناصر التي تشكل الوحدات الخاصة بهذا المستوى، ويتكون من ترتيبها نمط آخر من

العناصر التى تشكل وحدة المستوى الأعلى. هذا الوضع لا يتضمن حكما على البنية الخاصة باللغة، ولكنه يتيح بحث خصائص هذه اللغة ووصفها، بل واستخلاص الكليات مع أكبر قدر من الموضوعية.

وانطلاقا من هذا المبدأ، يصير لدينا وحدات معرفة على أبسط مستوى، تتحد فيما بينها لتصل إلى مستوى أعلى، أكثر تعقدا، لوحداته صفاتها وتركيبها الخاص. هذه الخصائص متميزة فى كل الأحوال عن خصائص وحدات المستوى الأسفل الذى تكونها، وتركيبها. وهذه السلسلة من التركيب والتعقيد المتزايد، والتى تتعاقب من مستوى إلى آخر، تعطى تدرجا فى الوحدات والمستويات، تدرج يمضى من تعريف السمات الخاصة بأصوات الكلام إلى الخطاب (المقال). ووجهة نظرنا، وهى قطعا تركيبية (لغوية) تعتبر فى الواقع أن مبادئ النموذج :الفونولوجى" (الخاص بالأصوات الكلامية) يمكن مدها إلى مجموع الحقائق اللغوية. وحتى إذا كان هناك مستويات أخرى يمكن الوصول إليها فى معالجة قواعد لغة ما، فإننا نقنع بالمستويات التى تتيح الإحاطة بقدر كاف بما يكفل أداء وظيفتها، وظيفة الاتصال، أى دورها الاجتماعى. هذا الرأى، ولو بدا محددا بعض الشئ، إلا أنه ليس مقيدا بالمرة، لأنه يستتبع أن الموضوع المنعزل، ألا وهو اللغة فى هذه الحالة، حتى ولو كان محدودا بشئ من الدقة، فهو نفسه تضمه دائما مجموعة أكثر اتساعا، مرتبط بها بما لا نهاية له من المراسلات، والتداخلات، والتأثيرات المتبادلة حيث يتسنى له أن يمثل بدوره وحدة. وإذا كانت دراسة لغات حضارات معروفة جيدا يمكن اعتبارها دراسة لغوية بالمعنى الصحيح، فإن دراسة اللغات التى ليس لها تقليد مكتوب لا يمكن إجراؤها دون القيام بدراسة موازية لثقافتها. إن تحليل الأبنية النحوية للغة ما، دون أن يكون لدى المرء فكرة عن الحقائق الصالحة للتعبير عنها، يبدو لنا بلا جدوى على الإطلاق ؛ ومهما أجريت العملية بذكاء، فإنها مشروع مصيره الفشل، بدرجة جزئية على الأقل، ذلك لأنه ليس ثمة انفصام بين مجتمع وبين اللغة التى يستخدمها كوسيلة للاتصال. ثم إن الوجه المقابل يبدو أيضا صحيحا : فدراسة أبنية مجتمع ما، بغض النظر عن أبنية لغته لا يمكن أن يكون لها سوى قيمة محدودة.

هذه الاعتبارات تؤدى بنا إلى عدم الوصف اللغوى عن علوم مرتبط بها، كعلم اللغة الاجتماعى (دراسة التفاعلات الاجتماعية والثقافية، والاتصالات اللغوية)، وعلم اللغة الاتنولوجى (التفاعل المتبادل بين اللغة والعالم الخارجى بشأن طائفة اجتماعية)، ذلك لأنها تقدم أدوات وصفية لعلم تأليف المعاجم والقواميس، وللأنثروبولوجيا الإدراكية (دراسة الفئات العملية والمثالية الخاصة بثقافة معينة)، ولعلم اللغة النفسى، ولدراسات العلوم السلالية، والأدب الشفهى.

٢ – أدوات ملائمة

هذه المسلمات هي التي دفعتني إلى اقتراح كتاب وجيز يحقق الأماني التي عبر عنها كثيرا المجتمع العلمي : ومضمونها القدرة على تأليف مجموعة من المعطيات السريعة والمنظمة، والمتدرجة، والحصول على أدوات ميسورة تستجيب للمتطلبات المشتركة من جانب علماء اللغة وعلماء السلالات البشرية. وقد صدر في عام ١٩٧١، في خمس ملازم كتاب بعنوان "بحث في اللغات ذات التقليد الشفهي، ووصفها" [٢٥]، يحاول الاستجابة إلى هذه المطالب.

وصدرت له في عام ١٩٧٦ طبعة ثانية (في ثلاثة أجزاء) مراجعة ومكبرة ؛ وجاري إعداد طبعة ثالثة، بالإضافة إلى ترجمات إنجليزية، وإسبانية، وبرتغالية. والكتاب في صورته الحالية واضح البنيان. فالجزء الأول مكرس لبحث الوضع الميداني، وتحليل قواعد اللغة، وهو غير مستقل عن الجزئين الآخرين، ويبحث أولهما المعالجة اللغوية، والثاني المعالجة الموضوعية.

وقد بدا من الضروري تخصيص نصف الجزء الأول للبحث الميداني، فهذا البحث يحدد في الواقع نوعية الوصف. وخصص حيز فسيح للجوانب المادية في البحث، ويضم فيما يضمه تقنيات التسجيل الصوتي والخطي. ولم يهمل الكتاب اختيار الرواة فخصص لهم عشرين صفحة. وهناك آراء بشأن استخدام أدلة البحث (وتشكل الجزئين الثاني والثالث) تستهل فصلا عن استخدام المعلومات، لا يهمل المسائل العملية والبسيطة، مثل فحص الوثائق، وتدوين المواد المجموعة في بطاقات.

ويشمل الجزء المخصص للمعالجة اللغوية أولا مسائل خاصة بقواعد اللغة. فثمة مجموعة أولى منها، تسمى "إحصائية لغوية" وضعت اعتبارا من قائمة تضم مائتي كلمة جمعها السيد سواديش M. Swadesh المقصود بها أساسا إجراء بحث مكثف في العديد من اللغات المجاورة، بهدف تحديد درجة قربها، وبنوع خاص لايضاح التصنيفات الموجودة، ووضع خرائط أكثر دقة وتمحيصا من الخرائط الموجودة حاليا. وثمة مجموعة من الأسئلة تسمى "بحث مستفيض" أو "بداية بحث "تتألف من قوائم لكلمات مشروحة بأمثلة، الغرض منها تجميع معلومات عن أوجه مختلفة للغة المدروسة. يعقب ذلك مجموعة أخرى من أسئلة الكثير منها يستحق أن يوصف بأنه إرشادات تخص على التوالي الأصوات الكلامية، وعلم التشكل (الصرف)، وظواهر الاشتقاق والإنشاء، والتركيب الفعلي، والتركيب الإسمي، وأنماط البيان.

هذه المجموعات من الأسئلة، إذا استوفيت بعناية ، فإنها تتيح تجميع مواد تتألف قواعد اللغة اعتبارا منها، تتبعها مجموعة من ٦٣٧١ جملة تتيح زيادة لمفردات اللغة المدروسة اعتبارا من اللغة الفرنسية.

أما الجزء الثالث فإنه يوضح وجهة نظرنا التى بمقتضاها لا يتسنى دراسة لغة ذات تقليد شفهى إلا بالاستعانة بمعرفة ثقافتها، ومجالها الاجتماعى، ويشمل دليلا للبحث فى التقنيات، وأدلة موضوعية بشأن علم النبات السلالى، وعلم الحيوان السلالى، والتشريح، والفسيولوجيا الحيوانية والنباتية، والظواهر الاجتماعية (التنظيم الأسرى، والسياسى، والاجتماعى)، والظواهر النفسية، والتسمية (أسماء الأشخاص، وأسماء الأنساب أو العشائر، وأسماء الحيوانات الأليفة)، والقياس والتعبير عن الزمن.

أما الجزء الأخير فإنه يعالج بالأخص التقليد الشفهى بمعناه الواسع : مجموعة النصوص، وعلم الموسيقى السلالية، وبحث فى الأسلوب الشفهى عند الرواة التقليدين. وهناك أخيرا شبكتان من البحث بشأن اتصالات اللغات بعضها ببعض، وعلم اللغة الاجتماعى، تستلزمان نقل بضع مئات من النماذج، يختم بها هذا الجزء.

والمعالجة الموضوعية، بعكس الجزء المخصص للمعالجة اللغوية، لا يتطلب استنفاد مختلف أدلة البحث المقترحة على الباحث : فيمكن عدم تخصيص دراسة متعمقة فى البنية النباتية، وإهمال علم الصيدلة السلالية، وعدم معالجة التعبير الزمنى بتعمق. هذا الجزء تابع أكثر من سابقه لنمط المجتمع الذى تدرس لغته : فمجتمع الرعاة لايزودنا بمفردات وفيرة عن تقنيات صيد الأسماك، ومجتمع الزراع ليس عنده تقنيات جيدة للقنص. ومع ذلك فقد أردنا أن نقدم مجموعة كبيرة من الإمكانيات التى يمكن الاختيار من بينها تبعا لنمط المجتمع الذى يشغل مجهود الباحث، أو أيضا – ولم لا ؟ تبعا لذوقه الشخصى.

ومن البديهى أنه يجب دائما اتخاذ موقف نقدى إزاء هذه الاستفهامات، موقف مفتوح، غير مقيد : فلا يجوز أبدا انتزاع المعلومة، بل يتعين استخدامها بمثابة مقدمة لمجالات تبقى بدون ذلك غير مستغلة. لذلك قد اقتنعنا خبرة طويلة أن مدة الإقامة، وهى بالضرورة محدودة، تجعل البحث بواسطة الأسئلة المعدة أسرع وأكثر غزارة لأنه يتيح جمع أكبر قدر من المعلومات فى أقصر وقت.

٣ - التحليل اللغوى

خصص القسم الثانى من الجزء الأول للتحليل اللغوى، ويزودنا هذا القسم بالإيضاحات الضرورية للأسس النظرية والمنهاجية التى دفعت مؤلفيها إلى اقتراح منهج معين بدلا من منهج آخر، وتفضيل نظام فى التحليل على نظام آخر، واختيار تفسير معين. وفيه نجد على التوالى التقسيمات الكلاسية الكبرى للوصف اللغوى، أى الأصوات الكلامية، والنحو. ويتضمن النحو بالترتيب علم التشكل (الصرف)، وتركيب العبارات، وتكوين الجمل. ويشكل هذا العرض بذاته برنامجا، فهو يقدم نظاما فى التحليل لا يقابل حتما النظام الذى يتبعه لغويون آخرون. ذلك على أية حال هو النظام الذى يبدو لنا أقدر على أخذ الحقائق فى اعتباره.

ويشكل علم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) فى نظرنا فصلا خاصا، مستقلا عن النحو، ويأخذ فى اعتباره العادات فى النطق لدى المجتمع اللغوى المقصود، ويثبت أن هذه العادات تنتهى إلى إنتاج أصوات ملائمة، فى قائمة دقيقة، لتحقيق وحدات من أول نطق تملك وجها دالا، ووجها مدلولا، تلك هى "المونيمات" manémes (البادئات). وكما قيل من قبل (انظر ثانيا: ما هو المقصود بالوصف ؟) فإن قائمة "الفونيمات" (الوحدات الصوتية) يجب وضعها بكيفية منهاجية وتفصيلية، ويجب أن يصحب تعريف كل فونيمة وصف لأدائها الصوتى، مما يتيح إمكانية مراجعتها. وعلم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) لا يقتصر على وصف الفونيمات (وحدات الكلام الصغرى) وتقديمها فى قائمة يبرز منها النظام. وتؤدى بنا وجهة نظرنا إلى أن نواجه أيضا مسائل أخرى ، كمسائل التوزيع، والتركيبات، والترددات، ووضع الفواصل، والعروض (نظم الشعر). والمقصود بالتوزيع سلوك الفونيمات فى السلسلة، أى تنفيذها الصوتى، وظواهر التحييد، والتوزيع التكميلى. وعند دراسة التكوينات نستعرض مجموعات الحروف السكانة التى نميزها بعناية من الفونيمات الوحيدة ذات النطق المركب ومجموعات الحروف المتحركة (حروف العلة)، وتوافق (هارمونية) حروف العلة والحروف الساكنة، والمتواليات الصوتية، والمتواليات الساكنة - المتحركة، والمتحركة - الساكنة، وهذا فى مختلف الأوضاع الممكنة (الأولى، والوسطى، والختامية للوحدة الصوتية، وفى السلسلة)، ونواجه فى هذا الباب التجزئة إلى مقاطع، وتدرس الدورات فى المعجم، وفى السلسلة، وفى مختلف الأوضاع. أما ظواهر وضع الفواصل، فإنها تجمع كل السمات اللفظية والصوتية الخاصة بالكلام، التى تتيح تعريف حدود وحدة معجمية أو نحوية. وأخيرا، فى علم العروض، نواجه النغم كظاهرة "قطعية عليا" suprasegmental - حين لا يكون وضعه بمثابة سمة صوتية ملائمة - ظاهرة النبرة، والتوكيد، صوتية كانت أو لفظية.

إن دراسة كل هذه الظواهر التى كثيرا ما أهملت، أو لم يعلق عليها أهمية كافية، تبدو لنا مع ذلك ضرورية، لا غنى عنها، اعتبارا بمالها من صدى بعيد فى الدراسة اللاحقة للظواهر التشكيلية (المورفولوجية) والنحوية، ورغم أن هذه الظواهر تواجه فى نطاق متزامن، فإننا ندرك من جهة أخرى أنها تزودنا برؤى جديدة، وأحيانا غير متوقعة لدراسة خصائص اللغة مدروسة حسب تطورها الزمنى، والانتسابات اللغوية.

الواجهة الثانية للتحليل اللغوى، حيثما يتمشى المرء مع الطريقة التى واجهناها هنا، والتى تبدأ بتبيان "الفونيمات" لتنتهى إلى تركيب الجمل، هذه الواجهة تشمل النحو بمعناه الصحيح.ويتضمن النحو أول كل شئ دراسة "المورفولوجيا" (التشكل، الصرف) التى نعرفها بأنها دراسة التغيرات فى الشكل فى إطار نموذج يؤثر إما فى النموذج الفعلى فى التصريف، أو النموذج الإسمى. والمشكلة الأساسية التى تتبدى للواصف هى أن يعرف بدقة النصيب الخاص لعلم التشكيل (الصرف). فالظواهر التشكيلية تجب أن تتميز تماما عن الظواهر الخاصة بعلم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا)، ولا يجوز أن يتعدى وصفها المجال المخصص للنحو. ويجب أن تتيح "المورفولوجيا" استخلاص قواعد تطبيقية. فعندما يتحقق هذا نلحظ أنه لم يزل هناك فى كل لغة عدد كبير من الاستثناءات والمخالفات للقواعد تشكل نوعا من الرواسب التى لا يمكن استيعابها، تقاوم كل محاولة للتفسير. هنا تتدخل تقنية، أعدت بنوع خاص للتعرف على هذه التنوعات الشكلية دون الالتجاء لشرح تاريخى : تلك هى "المورفونولوجية" morphophanalogie (علم التشكل والصوت فى الكلام)، وتتصدى لحالات من قبيل الحذف، والإدغام، والترخيم، وتعاقب الحروف الساكنة، فى الأوصاف التقليدية، فى إطار الوصف المتزامن بدقة. وعلى ذلك فهى تشكل نقطة اتصال بين الفونولوجيا، والمورفولوجيا بحصر المعنى. "المورفونولوجية" تفرض تمييز مستوى ثالث، بالإضافة إلى المستويات الفونولوجية، واللفظية، ذلك هو المستوى البنيوى، النحوى الذى يجرى فيه تحليل "البادئات" ,monémes إلى ,morphonémes (بادئة تشكلية - صرفية)، وهى وحدات عملية مختارة بغرض استخراج خصائص كل بادئة، وبخاصة تلك المستقلة عن المجال المحيط بها. وثمة قواعد توضح التوافقات بين "المورفوفونيمات"، و"الفونيمات" تأخذ فى اعتبارها الخصائص المرتبطة بالوسط المحيط بها : فكما أن الصوت (الأداء الصوتى) هو أداء "الفونيم". كذلك إذا رؤى الفونيم من هذه الناحية، أمكن اعتباره ممثلا لتشكل (صرف) الكلمة. عندنا إذن ثلاثة المستويات الآتية التى يميزها المرء بعناية فى بياناته، مع ما يقابلها :

- phonétique (صوتى، لفظى) صوت نغمة [ ]
- phonologie (علم الأصوات الكلامية) الفونيمphonéme التونيم taneme //
العنصر الصوتى فى اللغة) (العنصر النغمى) | |

- morphophonologic morphophonéme morphototonéme
(علم الأصوات التشكيلية الكلامية (العنصر الصوتى التشكلى) (العنصر النغمى التشكلى)
الذى يسبق الشكل البنيوى).

ودراسة النوعيات الشكلية للدال (ما يدل على معنى) وهى من اختصاص علم التشكيل (علم الصرف) يحدد بالدقة محيط وحدات النطق الأول، ألا وهى المونيمات Monémes وقبل الشروع فى تحقيق ذاتية هذه الوحدات يحسن الإقدام على دراسة نمط آخر من الوحدات، ألا وهى المشتقات والمركبات، ويسميها ا. مارتينيه Synthémes. ولما لم يكن من الميسور رسم حد فاصل جلى بين الاشتقاق والتركيب، فإن المرء يضطر بطبيعة الحال لدراسة مجموع هذه الظواهر.

وبعد الانتهاء من دراسة التركيب نكون على وشك الشروع فى دراسة النحو. ويتكون أول مستوى فى دراسته من تعريف الوحدات النحوية المسماة تقليديا "فئات نحوية"، وهى أجزاء من الخطاب (المقال)، أو فئات من الكلمات. هذه الفئات النحوية، ولو أنها بادئ ذى بدء تتميز من لغة إلى أخرى، فإنا نعتقد بالعكس أنها، وهى تشكل محور كل وصف نحوى، يجب أن يعاد تعريفها فى إطار معلوم بالنسبة لكل لغة، تبعا للمناهج المتبعة للفئات النحوية المستخدمة لتعريف الفونيمات. وحتى عام ١٩٦٠ لم تزل أوصاف اللغات "الدخيلة" أوصافا تقليدية. وكانت فئات الخطاب تستجيب لتعريفات "سيمية" (نسبة إلى دلالات الألفاظ – المترجم) من قبيل "يستعمل الاسم فى تعيين الكائنات، والأشياء التى تنتمى إلى فئة منطقية واحدة...) ويعبر الفعل عن عمل، أو حالة، أو صورة...". وإزاء لغة غير معروفة، يجرى العمل بطريق القياس، بإظهار أن فئة أو أخرى تقابل ما يسمى باللغة الفرنسية (أو الهندية الأوربية بوجه عام بالنسبة للوصف) إسما، وفعلا، إلخ. هذا المنهاج هو منهاج "عرقى" لا مبرر له فى وصف يراد به أن يكون موضوعيا بقدر الإمكان. "والمونيم" monéme وهو وحدة مناسبة على المستوى السيمى (مستوى دلالة الألفاظ) لا يتوافق حتما مع الوحدة

التركيبية الكلامية. ويجب علينا، على المستوى التركيبى النحوى أن نواجه وحدات أخرى. وتقوم المسألة على مستويين : فينبغى أولا أن نعد بطاقة تبين الوحدات الفعالة المؤثرة، وقد أطلق على هذه الوحدات اسم terme (عبارة) أو elements (عناصر) لإزالة غموض المونيمات ذات الدلالة غير المترابطة أو التي ليست لها دلالة. وثانيا : أطلق بعد ذلك على الواحدات المعرفة اسم syntaxémes وهى وحدات على المستوى التركيبى. هذه المصطلحات تستهدف تجنب حدوث ارتباكات وخلافات كثيرة يثيرها استخدام المصطلح القوى الدلالة، مصطلح "الفئات catégories" أو الطبقات.

ولما كانت الفونولوجيا (علم الأصوات الكلامية) هى النموذج المأخوذ به، فإن المطلوب هو العثور على أساليب كشفية، مقنعة، وموضوعية لتحديد كل من الفئات والفونيمات. ولما كان "المونيم" يشكل إطارا مناسبا لتعريف "الفونيم" قد بدا أن نمط البيان يمكن أن يشكل إطارا لتعريف ال symtaxéme (العنصر التركيبى فى الجملة) بشرط أن تعين بكيفية دقيقة عدد "العبارات" أو "العناصر" بحيث يمكن أن يؤخذ فى الاعتبار المعايير الموضعية، والمعارضة، والتركيبية. وقد تبين حتى الآن، دون إدعاء العمومية، أنها فعالة لكل اللغات التى استعملت فى اختبارها. إنها ذات طبيعة شكلية، ومتدرجة بالكيفية الاتية :

١ – نمط البيان (معين أو غير معين).
٢ – الوضع أو الأوضاع فى نمط البيان.
٣ – إمكانيات الإبدال، والتعديل، والتواجد المشترك، والاستبعاد المشترك فى نمط البيان.
٤ – إمكانيات التنسيق.

ونضيف إلى معايير التشخيص هذه، بمثابة سمات يمكن أن تميز وحدة تركيبية من وحدة أخرى خاصيتين أخريين :

١ – الانتماء إلى نمط من القوائم (محدود أو مفتوح ؛ نحوى، أو معجمى ؛ وفى الإمكان التنسيق بينهما).
٢ – الخصائص الشكلية : الإمكانيات الإعرابية (إمكانيات التعديلات الشكلية لنمط من التركيب النحوى).

والاستعمال التدرجى للمعايير يعطى لبعض التراكيب النحوية إمكانية تحديدها بعدد أقل من المعايير اللازمة لتحديد عناصر نحوية أخرى، مع أنه فى الإمكان استعمالها بكيفية منهاجية لتحديد كل تركيب نحوى، إلا أن الطريقة تستلتزم قطعا، لكى تكون فعالة الاستخدام التدرجى للمعايير. ومن الضرورى، لدقة التحليل تعريف الإطار الذى يجرى فيه ؛

وكذا استغلال كل معيار بالكامل قبل الانتقال إلى المعيار الذي يليه، ولذلك فإن كل نمط من البيان يجب استنفاده قبل الانتقال إلى النمط الذي يحاويه، والذي يشتمل على عبارة أخرى، واستغلاله.

ولسنا هنا، كما في "الفونولوجيا" في صدد ما هو تقريبي ؛ والعناصر التركيبية، أل symtaxémes مثلها مثل الفونيمات (العناصر الصوتية) هي وحدات رصينة. والموضوع، شأنه شأن الفونيمات ليس موضوع فئات عامة يمكن اعتبارها بمثابة معيطات مسلم بها، فهذه أو تلك نوعية مختصة بكل لغة، وتشكل جزءا من نظام خاص، وقابلة للإحصاء، نظام فيه وحدات تتعارض، ويتميز بعضها بالنسبة البعض الآخر.

ومع ذلك، إذا كانت كل وحدة تركيبية تعرَّف بتعارضها مع سائر الوحدات في النظام، فليس من الضروري - وكذا بالنسبة للفونيمات - مواجهة وحدة تركيبية بسائر الوحدات، ذلك لأنه في الإمكان، على مستوى التركيب اللغوي - كما في علم الأصوات الكلامية - استخلاص مجموعات من التعارض (مثل المسلسلات والنظم بالنسبة الفونيمات) ؛ وهنا نمط البيان، أو الوضع، والسمات النوعية هي وحدها التي يتعين تمييزها.

فإذا ما تم تحديد الفئات، يفحص تنسيقها على مستوى التحديد الثانوي في إطار دراسة التركيب التعبيري الإسمي، والتركيب التعبيري الفعلي، أي يجرى استعراض العلاقات التي يوثقها التركيب الإسمي والتركيب الفعلي مع محدداتهما. يبقى عندئذ فحص الوظائف، أي الدور الذي تؤديه هذه الوحدات التي هي على مرتبة جديدة في آلية إنتاج البيان (دراسة التحديد الأولي).

ويمكن تخطيط مجموع هذه الإجراءات في الجدول الآتي يظهر بوضوح مختلف مستويات الوصف :

فونولوجيا (علم الأصوات الكلامية)	phoneme الفونيمة	الوحدة المميزة
monème atique	فونيمة = أو لا تساوى مونيمة monème	وحدة معبرة بسيطة
synthème atique	(وحدة تركيبية) synthème	وحدة معبرة مركبة
syntaxème atique	مونيمة = أو لا تساوى syntaxème	وحدة تركيبية بسيطة
syntagmème atique	وحدة تعبيرية syntagmème	وحدة تركيبية مركبة
fonctionème atique	أو لا تساوى syntaxème fonctionème	وحدة وظيفية بسيطة
énoncème atique	monème	وحدة وظيفية مركبة
	énoncé أو لا يساوى = monème	الناتج النهائى

تعليقات

المصطلحات بعاليه ليس فيها أية صعوبة إذا ما علمنا أن :

– اللاحقة éme – تفيد الوحدة البسيطة أو المركبة التى تعمل على منسوب معين مثال ذلك : syntaxéme وحدة تركيبية بسيطة.

syntagméme وحدة تركيبية تعبيرية مركبة.

– اللاحقة matique – تعبير عن مستوى التحليل.

مثال ذلك : symtagmatique : تكوين التركيبات التعبيرية (تحديد ثانوى)، والوحدات المكونة هى الوحدات التركيبية التعبيرية البسيطة، والوحدات الناتجة هى الوحدات التركيبية التعبيرية المركبة.

فإذا عولج كل مستوى يعتبر كنظام خاص معالجة صحيحة، يكون الهيكل الكلى للبنيان متماسكا. فإن كان ثمة خطأ أو تفسير ردئ للمعلومات تتبدى التنافرات للحال : فالوحدات المعرفة تعريفا سيئا تمثل مشكلة للمستوى التالى. وفى الإمكان الكشف سريعا عن العيوب ومعالجتها. مثال ذلك : إن فئة نحوية عرّفت تعريفا رديئا أو كانت مجهولة سوف تحصر التحليل فى مستوى الوظائف ؛ والأمر كذلك بالنسبة لكل مستوى من مستويات البناء.

وثمة الكثير من المؤلفات والرسائل التى لم تنشر أو الجارى نشرها توضح طريقة الوصف هذه [٢٦].

٤ - علم (صناعة) تأليف المعاجم lexicographie

لا يشكل التحليل النحوى سوى خطوة فى دراسة اللغة. فإن كان هناك نسبيا القليل من الأوصاف الجيدة للغات الإفريقية، فإن عدد المعاجم الجيدة محدود. وتتيح أدلتنا فى البحث جمع معلومات مفيدة، وبخاصة فى مجالات معينة كثيرا ما أهملت : كالأدوات، والأساليب التقنية، والمنتجات الحرفية، والتعريف العلمى للنباتات والحيوانات.

وحين تكون درجة التجريد أكبر، يكون من العسير وضع تعاريف دقيقة، أو ما يعادلها. وفى كل الأحوال يبقى من الصعب الإحاطة بالمجال "السيمى" للمصطلحات. ويستهدف العديد من المقارنات التى نجدها فى قوائم الأسئلة هذا البحث. وأخيرا فإن المشكلة لا حل لها على وجه التقريب حين نتصدى للسمات الخاصة بالحضارة إذا لم يكن لدينا أدلة للبحث تسمح باستخلاص الأبنية الخاصة بالمجتمع المطلوب دراسته. وبنيان المفردات، والعرف فى الخطاب يشكلان معالجات أخرى تكمل جانب "قائمة الجرد" المتمثل فى المعجم، نكررها هنا القول بأنه ليس المقصود إجراء دراسة خاصة بعلم الاجتماع، إنما المقصود معرفة كيف يعبر المجتمع باللغة عن إدراكه لتنظيمه، وكذا تصوره للعالم المادى والروحى الذى يتحرك فيه الإنسان، وبالنسبة لما عدا ذلك، فإن منهجنا ليس بنوع خاص بالمبتكر، اللهم إلا إذا كان يميل، كالأوصاف إلى نوع من الشمول. فتنظيم القاموس يستهدف أيضا التصنيفات الأهلية التى يمكن استخلاصها فى بعض المجالات، وإظهارها فى تصنيف للمواد، يتخذ مكانه إلى جانب قاموس "اللغة الفرنسية" langue francais الذى لا بد أن يزود بالشروح والأمثلة على نطاق واسع – ومعجم francais - langue.

ولم يزل هذا التصنيف بالمواد بمثابة مشروع فى المعاجم الصادرة [٢٧] ؛ إلا أنه سوف يتحقق حين يظهر مجموع الملازم المختلفة التى تشكل "موسوعة الأقزام أكا" l'Encyclopédie des pyamées Aka [٢٨] الذى أنجزه فريق من العلماء فى مختلف فروع المعرفة، منهم لغويون، وعلماء السلالات، وباحثون فى الموسيقى، وأطباء وأخصائيون فى العلوم الطبيعية. ويتعين أيضا، على المدى الطويل التصدى لنشر قواميس تفسيرية محررة بأكملها باللغة نفسها، على نمط "لاروس الصغير" Lorousse Petit.

٥ – النصوص

ليس فى الوسع تكوين فكرة كاملة عن لغة ما إن لم يكن لدينا عينات توضح مختلف

الفنون الأدبية المجموعة محليا. إننا بتسجيلنا التقليد الشفهى المجتمعات التى ندرسها فى مظاهرها المختلفة إنما ننقذ من العدم ثروة ثقافية موروثة من التجربة الفريدة لكل مجتمع عبر قرون تاريخه الخاص. فإن لم توجد آثارا مكتوبة، أو مواقع أثرية، فإن الحضارات الإفريقية تورثنا، بتقاليدها الشفهية، نظرة على حياتها الخاصة، ونورا يضئ ماضيها. هذه الشواهد الأدبية فى رؤية مثالية يجب، لكى يتسنى إداركها فى مجموعها، أن تنشر بنفس الاهتمام بالدقة، ونفس الغلو فى الترف الذى يبذل للنصوص الكلاسية الكبيرة : فهناك إنشاء النص، وتعليقات عليه، وإيضاحات للمسائل اللغوية الأصلية، ومذكرات متنوعة تيسر معرفة المجتمع، تلك المعرفة التى تتيح وحدها المعنى إلى ما وراء المعنى الواضح، والتغلغل فى خبايا النص، وإداراك كل ما فيه من جمال.

وثمة مجموعات قليلة تستجيب لهذه المطالب [٢٩]. وأمكن بالمصادفة إرفاق النصوص المجموعة فى اسطوانات أو "كاسيتات" يمكن بفضلها إدراك الجو فى جلسات التلاوة [٣٠]. ولسوء الحظ بقيت هذه المحاولة نادرة الغاية.

٧ - تأهيل الأخصائيين

فى ضوء ما سبق ذكره، أمكن فهم المتطلبات - وهى متطلباتنا - وإدراك سعة المهمة. وليس فى الميسور تأهيل عالم باللغات والثقافات الإفريقية تأهيلا سريعا. ولا يكفى اكتساب خبرة متخصصة، أو حتى الاستناد إلى درجة دكتوراه إذا لم يصبحهما تجربة ميدانية وطيدة، وبالأفضل فى نطاق فريق يتشكل جزء منه على الأقل من بحاث محنكين. وإنى إذ لم أشر إلى مدرسة افريقية، فى سياق استعراضى لمختلف المدارس، فذلك لأن افريقيا لم تشرع بعد فى القيام بهذه المهمة. حقا إن فيها مراكز متخصصة للتعليم، إلا أن البحث لم يزل فى بدايته، ويعتمد اعتمادا كبيرا على المعونات الأجنبية. والحاجة الملحة إلى سرعة أداء المهام كثيرا ما دفعت بعض البلاد إلى أن تؤهل على عجل بعض جامعى المعلومات، بل بعض من يضطلعون بالوصف ؛ كما كان متوقعا، لم تكن النتائج فى مستوى الآمال. ذلك أن مجرد كون الإنسان متكلما وطنيا لا يستتبع أن له قدرة خاصة على الوصف اللغوى. فمعرفة لغة، والألفة بثقافة ما لا يتضمننان حتما تملك الوسائل التقنية لوصف اللغة والثقافة، خاصة وأن درجة العلمانية فى الوقت الحاضر تستلزم إعداد طويلا للتمكن منها.

[1] P. Alexandre, *Langues et langage en Afrique Noire*, Paris, Bibliothèque Scientifique Payot, 1967, 170 p..

[2] M. Houis, *Anthropologie linguistique de l'Afrique Noire*, Coll. SUP "Le Linguiste," Paris, P.U.F., 1971, 232 pp.

[3] K. Meinhof, *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantusprachen*, Hamburg, 3rd ed., 1948.

[4] D. Westermann, *Die Sudansprachen. Eine Sprachvergleichende Studie*, Hamburg, 1911.

[5] For example, B. Heine and W. Möhlig, *Language and Dialect Atlas of Kenya*, Vol. I: *Geographical and Historical Introduction*, Berlin, D. Reimer, 1980, 120 pp.

[6] H. Jungraithmayr, K. Shimizu, *Chadic Lexical Roots (A First Evaluation of the Marburg Chadic Word Catalogue)*, 2 vols., *Tentative Reconstruction, Grading and Distribution*, Berlin, 1981.

[7] O. Koehler, *Les langues khoisan*, in *Les Langues dans le monde ancien et moderne*, first part: *Les langues de l'Afrique subsaharienne*, Paris, Editions du CNRS, 1981, pp. 455-615.

[8] M. Guthrie, *Comparative Bantu. An Introduction to the Comparative Linguistics and Prehistory of the Bantu Languages*, 4 vols., Farnborough, 1967-1971.

[9] G. P. Bargery, *A Hausa-English Dictionary and English-Hausa Vocabulary*, London, Oxford University Press, 1934, 1226 pp.; R. C. Abraham, *Dictionary of the Hausa Language*, London, University of London Press, 2nd ed., 1962, 992 pp.; F. Johnson, *A Standard Swahili-English Dictionary*, London, Oxford University Press, 1939, *x* + 548 pp.

[10] Especially C. F. Hockett, G. L. Trager and B. Bloch, who published in collaboration the *Outline of Linguistic Analysis*, in 1942, the first complete manual of Bloomfieldian descriptive analysis. As followers of E. Sapir, we note the names of B. L. Whorf, H. Hoijer and K. Pike.

[11] Z. Harris, *Methods in structural Linguistics*, Chicago, The University of Chicago Press, 1951.

[12] K. L. and E. G. Pike, *Grammatical Analysis*, Summer Institute of Linguistics and University of Texas at Arlington, 1977, 505 pp.

[13] S. I. L. Publications Catalog, 1985-1986, 207 pp.

[14] "Esquisse de la langue ombo (Maniema-Congo Belge)," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 4*, Tervuren, 1952, 45 pp.; "Linguistische Schets van het Bangubangu," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 5*, Tervuren, 1954, 53 pp.; "Essai de grammaire rundi," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 24*, Tervuren, 1959, 236 pp.

[15] Especially "Bantu Grammatical Reconstruction," in *Africana Linguistica*, 3, pp. 79-135, 1967, and "Bantu Lexical Reconstructions," in *Archives d'Anthropologie 27*, Musée Royal de l'Afrique Centrale, Tervuren, 1980, 55 pp.

[16] For example, A. Coupez, *Abrégé de grammaire rwanda*, 2 vols. Butare, 1980, 590 pp.

[17] *Etudes sur la phonétique historique du bantou*, Paris, H. Champion, 1914.

[18] Cf. J. P. Makouta-Mboukou, *Le Français en Afrique Noire*, Bordas Etudes 299, Paris, Bordas, 1973, especially the chapters entitled: Les tâtonnements précoloniaux: Jean Dard à la recherche d'une méthode; La portée de la méthode de Jean Dard; Mise en cause de la méthode de Jean Dard, pp. 17 to 32.

[19] Especially *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin, 1960 (edition of 1980); *Grammaire fonctionnelle du français*, Paris, Didier, 1979; *Syntaxe générale*, Paris, Armand Colin, 1985.

[20] *Yazik hausa*, 1954; *Hausa-russkiy slovar*, 1963; *Russko-hausa-slovar*, 1967, Moscow.

[21] K. Shimizu, *Comparative Jukunoid*, 2 vols.; *A Jukun Grammar*, Vienna, 1980.

[22] *De nominum generibus linguarum Africae Australis, Copticae, Semiticarum aliarumque sexualium*, Bonn.

[23] M. Houis, "La description des langues négro-africaines" in *Afrique et Langage*, 1974, no. 1, pp. 11-20; no. 2, pp. 5-40; and "Plan de description systématique des langues négro-africaines" in *Afrique et Langage*, 1977, no. 7, pp. 5-65.

[24] J. M. C. Thomas, *Préface à l'ouvrage de Tersis-Surugue, Economie d'un système, Unités et relations syntaxiques en zarma (Niger)*, Bibliothèque de la SELAF, 87-88, Paris, SELAF, 1981, p. 13.

[25] L. Bouquiaux and J. M. C. Thomas, editors, *Enquête et description des langues à tradition orale*, Numéro Spécial 1, Paris, SELAF, 3 vols., 1976, 2nd ed., 950 pp.

[26] J. M. C. Thomas, *Le parler ngbaka de Bokanga. Phonologie, morphologie, syntaxe*, Le Monde d'Outre-Mer passé et présent, première série, études XXII, Paris-La Haye, Mouton, 1963; L. Bouquiaux, *La langue birom (Nigeria septentrional). Phonologie, morphologie, syntaxe*, Paris, Les Belles Lettres, 1970; C. Hagège, *La langue mbum de Nganha (Cameroun). Phonologie, grammaire*, Bibliothèque de la SELAF, 18-19, Paris, SELAF, 1970; G. Guarisma, *Le nom en bafia. Étude du syntagme nominal d'une langue bantoue du Cameroun*, Bibliothèque de la SELAF, 35-36-37, Paris, SELAF, 1972; P. Roulon, *Le verbe en gbaya. Étude syntaxique et sémantique* (RCA), Bibliothèque de la SELAF, 51-52, Paris, SELAF, 1975; G. Canu, *La langue moré, dialecte de Ouagadougou (Haute-Volta). Description synchronique: Langues et civilisations à tradition orale*, 16, Paris, SELAF, 1975; J. P. Makouta-Mboukou, *Étude descriptive du Fumu, dialecte teke de Ngamaba*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat d'État non publié), 1977; J.

Mba-Nkoghe, *Phonologie et classes nominales du fang, langue bantoue de la zone A (Gabon)*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3' cycle non publié), 1979; le A. B. Akoha, *Grammaire du fongbè d'Abomey*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3' cycle non publié), 1980; A Gasana, *La dérivation verbale en kinyarwanda*, Paris, Univ. de Paris III (*doctorat de 3' cycle non publié*), 1981; J. Boyi, *Phonologie, syntagme nominal, dérivation et composition en monzombo, langue oubanguienne de RCA*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3' cycle non publié), 1982. F. Cloarec-Heiss, *Dynamique et équilibre d'une syntaxe; le bànda-linda de Centrafrique*, Paris, Univ. de Paris V (doctorat d'Etat non publié), 1983.

[27] For example, L. Bouquiaux, in collaboration with J. M. Kobozo and M. Diki-Kidiri, *Dictionnaire sango-français et Lexique français-sango*, Langues et Civilisation à tradition orale, 29, Paris, SELAF, 1978, 667 pp.
[28] J. M. C. Thomas and S. Bahuchet, editors, *Encyclopédie des pygmées Aka. Techniques, language et société des chasseurs-cueilleurs de la forêt centrafricaine (Sud-Centrafrique et Nord-Congo)*, Langues et Civilisations à tradition orale, 50, Études Pygmées IV, 1981, 1, 140 pp.; 2, 143 pp.

[29] Thus *Classiques Africains*, Paris, Julliard, comprised twenty volumes; fifteen volumes of the collection *Langues et Civilisation à tradition orale*; several volumes in the collection *Annales-Sciences Humaines* of the Musée Royal de l'Afrique Central.
[30] Thus M. J. and J. Derive and J. M. C. Thomas, *La crotte tenace et autres contes ngbaka-ma'bo (RCA)*, Langues et civilisations à tradition orale, 13, Paris, SELAF, 1975, 228 pp. plus two records; N. Tersis, *La mare de la vérité. Contes et musique zarma* (Niger), Langues et Civilisations à tradition orale, 19, Paris, SELAF, 1976, 129 pp. plus two records; N. Akam and A Richard, *Mister Tameklor, suivi de Francis-le-Parisien. Deux comédies musicales ewe* by the Happy Star Concert Band, Langues et Civilisations à tradition orale, 42, 1981, 300 pp. and two tapes.

بقلم ويليهلم موهليج

تصنيف اللغات الإفريقية :
قضايا عامة

لا توجد من حيث المبدأ، تصنيفات لغوية جيدة وأخرى سيئة، وإنما توجد تصنيفات مفيدة وأخرى غير مفيدة، بقدر قد يكثر أو يقل. ولا يهدف تقرير هذا الأمر، فى بداية الحديث إلا إلى تحديد المنظور الغائى الذى أريد أن أتناول من خلاله القضايا الأشمل التى يتضمنها تصنيف اللغات الإفريقية. ولسوف أناقش هذا فى الإطار الناتج عن المكونات الرئيسية الأربعة لأى تصنيفه لغوى، ألا وهى :

١ - أهداف التصنيف اللغوى وغايته.
٢ - الوحدات الأساسية المراد تصنيفها.
٣ - معايير التصنيف.
٤ - نماذج التصنيف اللغوى.

المترجمة : الدكتورة سامية أحمد أسعد

والتصنيفات اللغوية أبنية يشيدها المتخصصون، وتحددها أساسا الأهداف التى وضعت من أجلها. وترجع مشاكل كثيرة فى أغلب الأحيان إلى تناقض الأهداف من ناحية، ومع المناهج التى تطبق عند وضع التصنيفات من ناحية أخرى. وينتج هذا التناقض، فى رأيى، عن مصادر ثلاثة مختلفة : (١) يطبق واضعوا التصنيفات مناهج سيئة سعيا إلى أهداف سيئة (٢) يسعى مستخدمو تصنيف لغوى ما إلى أهداف تختلف عن تلك التى حددها من وضعوه ؛ (٣) يستخدم المصنفون والمستخدمون هذه التصنيفات سعيا إلى غايات متباينة ومتناقضة. ولسوف نتعرض لكل هذه المشاكل فى الجزء الثانى من هذا البحث.

يستند أى تصنيف إلى إجراءات تربط بين بعض الأشياء وبعض العناصر، مع أخذها بعض المعايير بعين الاعتبار. وتتمثل العناصر المراد تصنيفها، فى أى تصنيف لغوى، فى النظم اللغوية الفردية، على مستوى المجموعات البشرية التى تحددها بعض السمات الاجتماعية و / أو الجغرافية. ومن الواضح أن الذين كانوا يصنفون اللغات فى افريقية كانوا، إلى عهد قريب جدا، لا يولون إلا قليلا من الاهتمام لمعرفة كيفية تحديد هذه العناصر. ونظرا لزيادة معرفتنا للحقائق اللغوية الحالية فى إفريقية أصبح اتخاذ مثل هذا الموقف الساذج من هذا الموضوع أمرا غير وارد، إذ يأخذ المصنفون بعين الاعتبار تعريف "اللغات" و "اللهجات"، وظاهرة مجموعات اللهجات المتصلة، واختيار الوحدات المراد تصنيفها، باعتبارها مسائل يجب أن تعالج. ولسوف أتطرق إلى هذا الجانب من الموضوع فى الجزء الثالث من هذا البحث.

طالما جرى النقاش لمعرفة المعايير التى يجب الاعتماد عليها فى تصنيف اللغات : هل نعتمد على المعايير اللغوية فقط، أم نأخذ بعين الاعتبار أيضا معايير غير لغوية ؟ وفى رأيى أن طبيعة المعايير لا تؤدى إلا دورا ثانويا. وإذا دققنا النظر فى الطريقة التى كان يتم بها التصنيف اللغوى فيما مضى اتضح لنا أن الأهم هو أن نتساءل عما إذا كانت المعايير التى نختارها لتصنيف ما موجودة فعلا فى الوحدات المراد تصنيفها، وعما إذا كانت المعايير الموجودة الآن ملائمة حقا للأهداف التى سعى إليها المصنفون. ولا تستطيع طبيعة المعايير أن تؤدى دورا إلا إذا ألقى الضوء على هذه الموضوعات الأساسية، ولسوف نناقشها فى

الجزء الرابع من البحث.

وتفسر أغلب التصنيفات اللغوية وفقا لنماذج خاصة. وفى هذا الصدد تمثل النماذج، بطريقة ما أجزاء سابقة التجهيز من الفكر التأويلى. فهى تجمع بين بعض المقدمات والمعايير البنيوية الخاصة بطريقة مسبقة. فمجرد اختيار النموذج يفضى بالمصنف آليا إلى إدراج كل الفرضيات الصريحة والضمنية، والعناصر البنيوية، إلخ... التى تناسب النموذج المختار. وقد لا تضر هذه المسيرة ما دام المصنف يعى، لا هذا فقط بطريقة مجردة، وإنما يعرف أيضا بالتفصيل المقدمات والعناصر البنيوية التى يدرجها بهذه الطريقة. بعبارة أخرى توجد علاقة وثيقة بين أهداف تصنيف لغوى ما واختيار نموذج هذا التصنيف. وعلى عكس ما يرى أغلب الخبراء أعتقد أن هدف التصنيف اللغوى هو الذى يجب أن يحدد اختيار نموذج التصنيف. وإذا كنا على استعداد للتسليم بضرورة إعطاء الأولوية للأهداف بدلا من اختيار النماذج يجب أن نتساءل عن أكثر نماذج التصنيف ملاءمة لأهداف التصنيف ووظائفه. ولسوف نعالج هذا الموضوع الذى يثير الجدل فى الجزء الخامس من البحث.

١ - أهداف التصنيف اللغوى فى إفريقية وغاياته

١ - اعتبارات عامة :

كانت التصنيفات اللغوية فى إفريقية توضع حتى الآن لغايات أربعة :

١ - استخدامها كنظم مرجعية.
٢ - اكتشاف العلاقات التاريخية والثقافية الملازمة للغة وإعادة بنائها.
٣ - اكتشاف علاقات نموذجية، لغوية وغير لغوية.
٤ - استخدامها كأساس للسياسة اللغوية، والإعداد اللغوى، وأهداف أخرى مشابهة، تنتمى إلى مجال اللغويات التطبيقية.

واعتقد، أساسا، أن كل الأهداف متساوية، وأن قائمة الأهداف التصنيفية هذه يمكن أن

تطول، تبعا لرغبات أخرى قد تتضح مستقبلا. وفى هذا السياق لا أريد أن أؤكد أولا على مضمون أهداف التصنيفات اللغوية، وإنما أريد أن أؤكد، بالأحرى، على المشاكل المرتبطة بذلك المضمون، والتى يمكن إدراجها تحت العناوين الثلاثة الآتية :

١ - إعداد تصنيفات تحت مسميات خاطئة.
٢ - استخدام التصنيفات سعيا إلى أهداف لم توضع من أجلها.
٣ - جمع الأهداف المتعارضة فى تصنيف واحد.

٢ - مشكلة استخدام المسميات الخاطئة :

يوجد فى تصنيف اللغات الإفريقية عدد كبير من المسميات الخاطئة. مثلا، اعتقد أن أغلب التصنيفات الوراثية مجرد نظم مرجعية قائمة على معطيات متزامنة، وأنها ليست، كما تدعى، تصنيفات يمكن أن تكشف عن وقائع تاريخية حقيقية. فالتصريح الخاطئ لا يضر إذا كان كل من يستخدمونه يعرفون أنه كذلك ويتصرفون على هذا الأساس. على سبيل المثال لن استخدم أبدا تصنيف جرينبرج الشامل (١٩٥٥، ١٩٦٣) إلا لتنظيم مكتبة أو وضع كتالوج لغوى. مع أن ممثلى بعض التخصصات القريبة من هذا التخصص، لا سيما المتخصصون فى علم الأجناس وتاريخها، والأنثروبولوجيا، الذين يجدون مشقة فى تقويم الوسائل التى استخدمها جرينبرج فى تدبير تصنيفه، يميلون أحيانا إلى استخلاص بعض النتائج التاريخية الهامة بدءا منه. ومن ثم يبدو أن المشكلة الحقيقية التى تثيرها المسميات الخاطئة تكمن فى استخدام التصنيفات اللغوية فى تخصصات متعددة. والحيلولة دون استخدام الآخرين لها بطريقة خاطئة يستطيع أصحاب التصنيفات أن يقدموا عونا قيما إذا حددوا بأنفسهم صراحة الأهداف، والمقدمات، والأسس المادية، وربما حدود تصنيفاتهم أيضا، بدلا من التعبير عن طموحاتهم المبالغ فيها بشأن هذه التصنيفات.

٣ - مشكلة التغيير اللاحق للأهداف الأصلية

إن تطبيق التصنيفات اللغوية على أهداف لم توضع من أجلها أصلا ليس بالأمر الضار فى حد ذاته. على سبيل المثال يمكن استخدام أى تصنيف لعدد كبير من اللغات الإفريقية

كنظام مرجعى ناجح. وعلى عكس ذلك يثير استخدام التصنيف المرجعى لأهداف تيمية أخرى مشاكل خطيرة. فعندما فسر جوترى (١٩٦٧ : ٨٤) مثلا، فرضيته الخاصة بلغة البانتو الأولى استخلص نتائج ذات أثر تاريخى هام من تصنيفه المرجعى السابق (جوترى، ١٩٤٨ : ٢٧) الذى كان قائما، وفقا لتصريحاته الخاصة، على مقدمات اختارها اعتباطا. وثبت فيما بعد أن أغلب نتائجه كانت خاطئة (موهلج ١٩٧٦ ؛ ١٩٧٩). وفى أغلب الأحيان لن تكون التغييرات اللاحقة التى تطرأ على أهداف تصنيف لغوى معين، خارج نطاق وظيفته العامة، وهى استخدامه كنظام مرجعى، أمرا ممكنا، لأن اختيار معاييره وخواصه البنيوية يتأثر كثيرا بأهدافه الأصلية، مثلا إذا وجدت صلة نسب وثيقة بين لغتين، على المستوى الوراثى، فأيهما يمكن استخدامها فى المدارس ؟ لا يمكن أن نرد على هذا السؤال استنادا إلى قرابتهما الوراثية، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار معيار التجاور اللغوى، أيا ما كانت العمليات التاريخية التى أدت إليه.

وفيما عدا التناقض الموجود، من حيث المبدأ ، التصنيفات التى تتباين اتجاهاتها التيمية توجد أمامنا دائما إمكانية مقارنة نتائجها، واستخلاص نتائجها، واستخلاص نتائج تيمية جديدة من هذه النتائج. على سبيل المثال إذا أدت بعض المعايير النموذجية إلى التصنيف الذى تؤدى إليه المعايير الوراثية، أوحى ذلك بأن بين النتائج صلة قرابة، بطريقة ما. ومع ذلك اعتقد أن استكشاف صلة قرابة كهذه يجب أن يتبع منهجا خاصا به، لأن حدوده لا تزال غير واضحة حتى الآن، شأنها فى ذلك شأن حدود المنهج الذى يعتمد على تعدد التخصصات أو يمر بها.

٤ - الجمع بين أهداف متعددة

إن مسألة جمع عدة أهداف فى تصنيف لغوى واحد تشبه تلك التى عالجناها آنفا، لكنها تختلف عنها، لأن المصنف نفسه يفكر، فى هذه الحالة، فى تجميع من هذا النوع قبل أن يضع تصنيفه. لكن ما هى الحدود التى يمكن أن يتم فيها مثل هذا التجميع ؟

لقد انصب جلّ الاهتمام دائما، فيما يتعلق بتصنيف اللغات الإفريقية، الدراسة المقارنة

اللغات الإفريقية عامة، على الأهداف التاريخية، ولا سيما العلاقة الوراثية. بل إن بعض المصنفين، مثل جونستون (١٩٢٢)، وجوثرى (١٩٦٧ - ١٩١٨)، وهينى (١٩٧٧) وغيرهم، تجاوزوا الأهداف المحددة لتاريخ اللغة، وحاولوا أن يربطوا بتصنيفاتهم أيضا أهدافا خاصة بتاريخ الجماعات البشرية. ويمكن أن نتساءل عما إذا كان هذان المركّبان التيميّان متفقين حقا. وأقول عن خبرة إن المعايير اللغوية التى تقدم الأدلة على الحقائق التاريخية الخاصة بالجماعات البشرية أو الثقافات ليست، بكل بساطة، هى المعايير التى تشهد على وجود علاقات وراثية بين اللغات.

وفيما عدا الحالة التى قد تتعارض فيها الأهداف اللغوية وغير اللغوية كثيرا ما يوجد تناقض بين الأهداف اللغوية المختلفة. على سبيل المثال كثيرا ما أهمل فى الماضى الفرق بين التصنيف الوراثى والتصنيف التاريخى. فالعلاقات الوراثية ليست سوى جانب ضمن جوانب أخرى قد تكون أهم، من تاريخ اللغة، وعرف ماينهوف وفان فارميلو (١٩٣٢ : ١٧٦) على النحو الآتى ما يجب أن تعنيه عبارة "التصنيف التاريخى" : "يجب أن يكون التصنيف اللغوى تصنيفا تاريخيا. فهو تصنيف يشمل، إلى أبعد مدى ممكن، التاريخ الحقيقى للغات موضع البحث. وينبغى أن نبين فيه كيف انقسم الشكل الأول للأسرة إلى فروعه المختلفة وتقسيماته الفرعية، وكيف أثرت اللغات وتأثرت بعضها ببعض، وأين استطاع التأثير الأجنبى أن يؤدى دورا". ومن الواضح أن هذه الصياغة تجمع بين عدة أهداف فى مجال اللغويات التاريخية. فهى تتطلب، لا انتقادا معقدا للمعاير التصنيفية فقط، وإنما تتطلب أيضا نموذجا للتصنيف يتجاوز بكثير متطلبات التصنيف الوراثى. ومن المؤكد أن الجانب العام مدرج فى النظرة العامة إلى تاريخ اللغة. وبالتالى فهو يتعارض مع الجوانب الأخرى لذلك التاريخ، باعتباره هدفا تصنيفيا. وعلى عكس ذلك لا تتلاءم ولا تتفق النماذج التى تستخدم عادة فى التصنيفات الوراثية مع الأهداف الأوسع نطاقا التى يسعى إليها التصنيف التاريخى الحقيقى، بسبب وجهات النظر الملازمة لها وخواصها البنيوية.

٢ - تعريف وحدات التصنيف الأساسية

١ - مبدأ استخدام الوحدات المختارة

تقوم التصنيفات القديمة للغات الإفريقية على مبدأ اختيار وحدات تصنيفية خاصة. ويفترض هذا ضمنا أننا لا نحتفظ إلا ببعض النظم اللغوية الفردية المراد تصنيفها، ونرفض أغلبها. ولم يكن أمام أول من حاولوا تصنيف اللغات الإفريقية خيار آخر، نظرا لنقص المراجع اللغوية التى كانت فى متناول أيديهم. وبما أن معرفة اللغات الإفريقية ازدادت زيادة مفرطة فى العقود الثلاثة الأخيرة فقد تغيرت تماما مبررات تطبيق مبدأ استخدام الوحدات المختارة. واليوم يبرر تطبيق المدأ كَم المعلومات المتاحة. وفى كتابه "التصنيف الوراثى الشامل للغات الإفريقية" (١٩٦٣ : ١)، لم يعالج جوينبرج صراحة مشكلة انتقاء الوحدات المراد تصنيفها، وإنما استخدم فى الواقع اختياره لحوالى سبعمئة لغة، من بين ألفى لغة، ولا شك فى أن جوترى (١٩٦٢ ؛ ١٩٦٧ - ١٩٧١) الذى واجه أيضا مشكلة الكَم فى تصنيفه الوراثى للغة البانتو، لم يعالج أيضا صراحة موضوع اختيار الوحدات المراد تصنيفها. ولكى يتغلب على مشكلة الكَم هذه طبق مبدأ "لغات الاختبار" (١٩٦٧ : ٩٧). فاختار ثمانى وعشرين لغة اختبار من بين أكثر من خمسمئة لغة، وعددا مجهولا من اللهجات. وعلى هذا الأساس اقترح تصنيفا يصلح للغات البنتو فى مجموعها.

ومن وجهة نظر المناهج التصنيفية لا توجد اعتراضات على انتقاء وحدات التصنيف، ما دامت الوحدات المختارة تمثل الوحدات المستبعدة إيضا. وحاول جوترى أن يحل مشكلة التمثيل باختياره لغة على الأقل فى كل منطقة من مناطق تصنيفه المرجعى السابق، وعددها خمس عشرة. واختار مجموعة تضم ثلاث عشرة لغة "لكى يضمنها درجات للتفرقة، على مستوى التجاوز الجغرافى والتشابه اللغوى فى آن واحد". (١٩٦٧ : ٩٧). ورغم هذا الأجراء الحذر على مستوى المقارنة لم يتمكن من تجنب الجمع بين بعض الوحدات المراد تصنيفها والتى يجب اعتبارها غير ممثلة، بالنظر إلى أهداف هذا التصنيف. وتنتج أسباب هذا الحكم عن التوزيع الجغرافى غير المتوازن للغات الاختبار والدرجات المتفاوتة للأنظمة الجمعية التى تتسم بها لغات الاختبار هذه. ونقول عن الحجة الأولى : إذا بدأنا من عمليات المسح

الجغرافى للغات البانتو التى أجراها جوترى نفسه فى تصنيفه العملى (١٩٤٨)، أو تحليلاته النموذجية (١٩٦٧ : ٨١ والتالية) اتضح لنا أن توزيع لغات الاختبار الثمانية والعشرين غير متوزان. كذلك إذا اعتمدنا أساسا على حصر المجموعات اللغوية الخاصة بالبانتو التى وضعها بريان (١٩٥٩)، وعددها ثلاث وثمانون مجموعة، اتضح لنا أن إحدى وعشرين مجموعة فقط، من هذه المجموعات قد ذكرت ضمن لغات الاختبار التى حددها جوترى، وأن أربع مجموعات من الإحدى والعشرين مجموعة تمثلها أكثر من لغة اختبار واحدة. ونقول عن الحجة الثانية : تُحسب بعض لغات الاختبار، كالسواحلية التى تشتمل على عدد كبير من اللهجات، ويوضع بالتالى فى مستوى عال نسبيا فى درجات تجميع اللغات، تحسب كلغة اختبار واحدة، فى حالة لغات مثل "الروندى" و "النيورو" التى تعد وحدات توضع فى أدنى مستويات اللهجات.

هذا ولم تحل بعد مشكلة معيار التمثيل فى سياق التصنيف اللغوى. ولا شك أن مناقشتها كما يجب أصبحت ضرورة ملحة.

٢ - المبدأ اللهجى

يتطلب المبدأ اللهجى تغطية اللغات المراد تصنيفها لمجال التصنيف كاملا. بعبارة أخرى لا ينبغى أن توجد بينها مناطق محايدة "mo man's land" وتطبيق هذ المبدأ يناسب بصفة خاصة التصنيفات اللغوية التى توضع من منظوور تطبيقى، كتلك التى توضع من أجل الإعداد اللغوى أو تحديد سياسية لغوية معينة، ويفيد كذلك مجال التصنيفات التاريخية الحقة. وإذا طبقنا المبدأ اللهجى واجهنا بسرعة مشكلة كمية، بقدر قد يكثر أو يقل، تتوقف أساسا على حجم المنطقة التى تجرى فيها التصنيف. وفيما عدا هذا نتعرض لمجموعتين أخريين من المشاكل. وترتبط المجموعة الأولى بظاهرة "مجموعات اللهجات المتصلة"، فى حين ترجع الثانية إلى ظهور درجات متنوعة من التجاوز اللغوى، بطريقة منتظمة، فى النظم اللغوية الفردية فى أى منطقة متماسكة ستكون مادة للتصنيف. ويحدث هذا بدرجة يستحيل معها عادة التعبير عن الاختلاقات بمعايير "اللغة" و "اللهجة" التقليدية.

وتحكم مشكلة الكم المعادلة ن (ن – ١) : ٢، حيث تشير ن إلى عدد اللغات التى يجب أن تقارن زوجا زوجا. على سبيل المثال إذا أردنا تصنيف عشر لغات ارتفع عدد أزواج المقارنة إلى خمسة وأربعين. وبالنسبة لعشرين لغة نصل إلى مئة وتسعين زوجا.. وبالنسبة لثلاثين لغة نصل إلى أربعمئة وخمسة وثلاثين زوجا. ولكى نعطى فكرة محسوسة عن هذه الكميات نقول إن العد الأخير يتفق تقريبا مع حجم لهجات الشاجا عند سفوح جبال كيليمانجارو وجبل ميرو، شمالى تنزانيا. وتدل هذه الأرقام على أن هذا النوع من المشاكل الكمية لا يمكن التحكم فيه إلا بالحد من المناطق المراد تصنيفها. وإذا تجاوزت المنطقة قدرة المصنف أو طاقة حاسباته الالكترونية – ربما –، وجب الإلتجاء إلى تكنيك يعتمد على جمع تصنيفات مصغرة ليكون منها تصنيف مكبر داخل منطقة أوسع من تلك التى استهدفها التصنيف (موهلج، ١٩٨٠، ٣٩ والتالية).

وتتميز مجموعات اللهجات المتصلة بوجود المناطق الانتقالية بين النظم اللغوية المجاورة التى لا تكشف عن حدود لغوية معينة جيدا. كحزم اللغات المتساوية. وفيما عدا هذا تقل أهمية الحدود التى يحتمل وجودها بين اللغات أو مناطق الانتقال فى منطقة ما، بالنسبة لبعض الموضوعات الخاصة بالإعداد اللغوى. وفيما يتعلق بغالبية أهداف التصنيف يمكن تجنب مشكلة تعيين الحدود اللغوية، إذا تركز العمل على مراكز اللهجات، وإذا اعتبرت معاييرها اللغوية ممثلة أيضا لمحيطها الخارجى. ومن الواضح أن مثل هذه الطريقة تتضمن قدرا من التجريد بالقياس إلى الواقع. وقد لا تترتب عليها آثار خطيرة بالنسبة للأهداف المرجعية، والتاريخية، والنموذجية. لكن إذا تحتم استخدام التصنيفات اللغوية من أجل الإعداد اللغوى أو أهداف مشابهة لا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار المناطق الانتقالية، ما دامت تمكننا من استخلاص بعض النتائج الخاصة بالتواصل بين اللهجات، وتحسب حساب اللهجات المجاورة. وقد يكون هذا النوع من المعلومات أساسيا إذا تعلق الأمر باختيار لغات المدرسة أو الإعلام فى برامج محو أمية الكبار.

والمشكلة الخاصة بوجود فئتين فقط، "اللغة" و "اللهجة" للدلالة على وضع متدرج، تكاد تكون قديمة قدم التصنيف اللغوى فى إفريقية. وكان كول (١٨٥٤) قد حاول بأمانة تسجيل

الأنواع المحلية لبعض اللغات في عملية التجميع التى قام بها، ولم يتعمد إدخالها قسرا فى نظام الفئات التقليدى. وسرعان ما يدرك عالم اللغويات الذى يتعرض لواقع اللهجات فى منطقة بعينها أن بنية العلاقات المعقدة التى تربط بين اللهجات لا يمكن إلا أن توصف بصعوبة بواسطة عبارتى "اللغة" و "اللهجة" فقط. وإذا استخدمت كلمة "اللغة" استخداما مستقلا دلت كلمة "اللهجة" على مفهوم علائقى لا يعنى شيئا إلا بالرجوع - فى نفسه إلى نظم لغوية أخرى. ويمكن عامة استخدام كلمة اللهجة بطريقتين : تؤكد مثل "أ لهجة من لهجات ب" أو "توجد صلة نسب بين أ و ب". وقد تدل كلمة اللهجة فى هذه التوكيدات على علاقة وثيقة بين اللهجات وتفاهمها، لكنها قد تعنى أيضا أن الوحدات المسماة "لهجات" ليست، بالأحرى، أفرادا تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة، ولا تربطها بهذه الأسرة إلا صلة بعيدة. وبما أن التصنيفات الخاصة بالإعداد اللغوى والتصنيفات ذات الهدف التاريخى أيضا تتوقف على التصوير الدقيق للأوضاع اللغوية الحالية فى منطقة ما فلا بد من مزيد من المعايير لإدارك هذا التعقد على مستوى اللهجات. وتمكن المناهج الجديدة لقياس اللهجات (سيجى، ١٩٧٣، موهلج، ١٩٧٤، ١٩٨٠، جويل، ١٩٨٢) من قياس مسافات اللهجات بين النظم اللغوية المختلفة، فى منطقة ما، على أسس لغوية. وبفضل هذا القياس، تصبح البنية المتدرجة لمستويات العلاقات اللهجية المختلفة مرئية بصفة عامة، مما يمكننا، فى حالات محدودة، من التفرقة بين لهجات من المستوى العلائقى الأول، والثانى والثالث... بل لقد حاول ونتر (١٩٨٠) أن يقيس مستوى العلاقات المختلفة، كما وكيفا، باستخدامه معايير مثل "يمكن أن نتفاهم حتى الآن فيما بيننا". "تتطلب ممارسة بعينها"، إلخ... وقد أعد مشروع دولى لتطوير قياس اللهجات فى إفريقية، تحت رعاية المركز القومى للبحوث فى فرنسا، فى الفترة من ١٩٨١، إلى ١٩٨٣، وتم إجراء بعض التقنيات والأجهزة الإضافية لرصد الدرجات المختلفة للعلاقة اللهجية، وما زالت هذه التقنيات والأجهزة تحت الطبع (جارسيما و موهلج، تحت الطبع).

إمكانية مقارنة وحدات التصنيف الأساسية

وسواء اعتمدنا على استخدام بعض الوحدات المختارة أو اعتمدنا على المبدأ اللهجى فإنه يتحتم علينا، فى كلتا الحالتين تحديد الوحدات المراد تصنيفها فى سياق وحدات أخرى

مماثلة، واتضح أن تحديدها بالاسم فقط لا يكفى. فإمكانية المقارنة تعنى أن وحدات التصنيف الأساسية يجب أن تحدد بقدر الإمكان فى مستوى التدرج العلائقى نفسه. وإذا وضعت النظم اللغوية الفردية مع مجموعات اللهجات أو حتى مع الأسر اللغوية المفترض وجودها، على نحو ما كان يحدث فى التصنيفات القديمة، ترتبت على ذلك تناقصات داخلية، بغض النظر عن نظام التصنيف المختار.

وفيما يتعلق بمعرفة المعايير التى يجب الالتزام بها لضمان امكانية مقارنة الوحدات المراد تصنيفها، علينا أن نحسب حساب الآتى : تتوقف تماما درجات العلاقات التى تقدم الإطار اللازم لتحديد موقع وحدات التصنيف على الخواص المحددة لشبكة العلاقات اللغوية المعقدة التى تربط بين اللغات المراد تصنيفها. بعبارة أخري تعتبر هذه الدرجات تجريدات وضعت بدءا من شبكات العلاقات الحالية. لذا لا يمكن فرضها من الخارج باعتبارها معايير ثابتة. ويترتب على ذلك أن أى درجات من العلاقات أو التصنيفات تختلف عمليا عن أى درجات أخرى من النوع نفسه، من حيث المستويات، والمسافة بينها، وإعداد الوحدات التى يجب أن توضع فى المستوى نفسه. ومن هذا المنظور يتضح أنه من الصعوبة بمكان، بل من المستحيل، تحديد النظم اللغوية الفردية فى مستويات تدريجية أعلى. وما دامت قاعدة الدرجات هى الشئ الوحيد الذى يمكن الوصول إليه بالمناهج التجريبية اقترح اتخاذ اللغات الجماعية فى المستوى الأعلى مباشرة من اللغات الفردية، كوحدات أساسية لأى تصنيف لغوى. وعبارة "اللغات الجماعية" تتضمن اللغات الاجتماعية واللهجات. وأيا ما كان الأمر فيمكن اختبار هذه الوحدات بالمناهج التجريبية، فى حين تكون وحدات المستويات العلائقية الأعلى مادة للإيمان والإيديولوجيا فى أغلب الأحيان.

٣ - معايير التصنيف

١ - سمات عامة

قد يبدو، لأول وهلة، أن استناد التصنيفات اللغوية إلى المعايير اللغوية فقط أمر واضح فى حد ذاته. لكن اللغات ليست ظواهر منعزلة. فالبشر يستخدمونها لأغراض متعددة

كالاتصال، وتحديد الذات، والتعبير الفنى، إلخ... كذلك يتضمن التجاوز اللغوى، وهو المعيار الأساسى لأغلب التصنيفات اللغوية، ضمنا أو صراحة، عوامل عديدة بعضها غير لغوى. وتؤثر بعض العوامل كالسن، والجنس، والثقافة، والمكان، تأثيرا مباشرا على عادات الاتصال بين الناس، ومن خلالها، على الاتصال فيما بين اللهجات. ونظرا لوجهة النظر الغائية التى اتخذناها فى هذا البحث يتوقف اختيار معايير التصنيف على الأهداف التى وضعت من أجلها التصنيفات. وبما أن كثيرا من تصنيفات اللغة لها أيضا أهداف غير لغوية أرى أنه من حقى تماما أن آخذ بعين الاعتبار أيضا بعض الحقائق غير اللغوية. وأيا ما كانت طبيعة المعايير لا بد من اختبار صلاحيتها للرد على هذين السؤالين : هذه المعاير حقيقية أم لا ؟ وهل تناسب أهداف التصنيف أم لا ؟

٢ – سمة الحقيقة

تعتبر معرفة هل المعايير التصنيفية حقيقة أم لا مسألة تحقيق تجريبى، أولا وقبل كل شئ. ولا بد من أن يقال ذلك، لأنه كثيرا ما يحدث، فى تخصص ما زال فى بدايته نسبيا كالدراسات الإفريقية، أن يقال إن بعض المعايير موجودة، فى حين أنها غائبة فى الواقع. وبما أن معلوماتنا عن مجال اللغات الإفريقية فى زيادة مستمرة يمكن أن تزول مثل هذه الأخطار أوتوماتيكيا، اللهم إلا إذا كانت وجهة النظر هذه مفرطة فى التفاؤل.

وإذا ربطنا موضوع الوجود الفعلى للمعايير بمشكلة اختيار وحدات التصنيف رأينا بعدا آخر للنوعية التجريبية. فيمكن أن يقرر الجواب وجود حقيقة جزئية، بدلا من أن يكون نفيا أو إثباتا. إذا قلنا مثلا إن فكرة "التمساح" يمثلها شكل "جوينا" بالسواحلية (تبعا لجوترى، ١٩٧٠ : ٢٣٠) لا يصح هذا التوكيد إلا بالنسبة للهجات السواحلية الشمالية، لأن الشكل الصحيح يصبح "ماميا" فى لهجات الجنوب والوسط. ويمكن أن تكون مثل هذه الإيضاحات هامة إذا حسبنا حساب الأهداف التصنيفية.

وتمثل الأشكال الأولى التى يعاد بناؤها تاريخيا، والتى كثيرا ما تستخدم كمعايير أساسية فى التصنيفات اللغوية، مجالا آخر تعتبر سمة الحقيقة فيه مشكلة. ولا أستطيع أن

أنكر أن عمليات إعادة البناء التاريخية يمكن أن تعكس حقيقة تاريخية بعينها، لكنى أدرك من الناحية العملية أنها كثيرا ما تنتج عن الخيال العلمى والخيال الفردى.

٣ – سمة المطابقة

يطرح موضوع المطابقة عند الربط بين معايير التصنيف وأهداف التصنيف اللغوى.. مثلا هل يعتبر إعداد التصنيفات الوراثية اعتمادا على بعض المعايير التصنيفية عملية صحيحة أم لا ؟ وأسمح لنفسى بأن أذكر، فى هذا السياق، النتائج المشكوك فيها الناتجة عن مفاهيم الاحصائيات اللغوية. وأميل إلى اعتبار هذه الحالة حالة تقليدية لعدم المطابقة بين المعايير المختارة والأهداف التصنيفية التى نسعى إليها. وفى رأيى أن اختيار المعايير المناسبة أدق نقطة فى عملية التصنيف كلها. لذلك لابد من اليقظة، خاصة عند اقتراح تصنيفات جديدة. هذا ولا يناقش المتخصصون هذا الموضوع بما فيه الكفاية. ولا يسعنا الآن إلا أن نلفت النظر إلى هذه المشكلة، ونوجه نداء إلى علماء التصنيف لكى يعينوا بأنفسهم الحدود الخاصة بالقدرات الوظيفية لتصنيفاتهم، لكى يمنعوا مستخدميها، لا سيما أولئك الذين ينتمون إلى تخصصات أخرى، من استخلاص نتائج خاطئة منها.

٤ – معايير لغوية

وإذا كنت أتوقف عند المعايير اللغوية فلأنه يخيل إلى أن المشكلة الرئيسية فى هذا السياق هى مشكلة الكم. فكلما زاد عدد اللغات التى ندخلها فى التنصيف قلت قدرتنا على أخذ بعض المعايير بعين الاعتبار، نظرا لطاقتها المحدودة. ومع أن الحاسبات الالكترونية وسعت نطاق الإمكانيات فقد ظلت المشكلة كما هى. وحاول جرينبرج (١٩٦٣ : أو التالية) أن يجعل منها سمة خاصة عندما اقترح مبدأ "المقارنة الكمية" المنهجى. واعترض فودور (١٩٦٦ ؛ ١٩٨٢) على هذا المبدأ، وذكر فى هذا الصدد أسبابا لم يناقشها الآخرون ولم ينكروها.

ويجب أن نرد على السؤال الخاص بنوع السمات اللغوية وكميتها ردا خاصا بكل تصنيف على حدة، بطريقة برجماتية، مع أخذ الأهداف التصنيفية بعين الاعتبار، وكانت

الألفاظ والأشكال حتى الآن هى المعايير التى يفضلها أصحاب التصنيفات. وأدى تطبيق مجموعة من المعايير المختلطة إلى مشكلة "اللغات المختلطة". وما زالت حالة "المبوجو" فى تنزانيا (توكر وبريان ١٩٧٤) التى يعرفها الجميع أبرز مثال لذلك. ولقد أدت المعايير الصوتية دورا أيضا فى التصنيفات اللغوية، ولكن بطريقة انتقائية فقط، عن طريق مبدأ المطابقات الصوتية المنظمة التى تستخدم لإعادة بناء الألفاظ الأولى. إذا أخذنا بعين الاعتبار كل السمات الصوتية للغات المراد تصنيفها، فى سياقاتها البنوية المنتظمة (موهلج، ١٩٨٠، ب : ٣٦ والتالية)، استطعنا أن نجد حلا لمشكلة اللغات المختلطة (بالنسبة للمبوجو، انظر موهلج ١٩٨٣، ١٥٨ والتالية).

٥ – معايير غير لغوية

العامل الجغرافى أهم العوامل غير اللغوية. فاللغات، فى حد ذاتها، لا وطن لها. ولا يمكن إلا تحديد موقع من يتكلمونها فى المكان. ومن ثم تعتبر المعايير الجغرافية مجرد تحديد، لكن القالب الجغرافى له قيمه الكشفية الخاصة التى اعترف بها اللغويون منذ أكثر من قرن.

وعامل الوقت سمة أخرى غير لغوية للتصنيفات. فالحدود التى تفصل بين تزامن اللغة وتطورها تعد مشكلة، من الناحية العملية على الأقل. وكما سبق أن قلنا كانت الإهمية الرئيسية للدراسة المقارنة للغات الإفريقية أهمية تاريخية دائما، رغم افتقارنا إلى المصادر التاريخية الحقيقية للغالبية منها. لذا كانت المعايير المستخدمة فى التصنيفات التاريخية أيضا معايير متزامنة حتما، فى أغلب الأحيان. وقد يقال، اعتراضا على وجهة النظر هذه، إن الحقائق اللغوية المتزامنة تنتج عن العمليات التاريخية. فمن المشروع إذن أن ننظر إلى هذه الحقائق على أنها عينات من الأدلة التاريخية. والمناقشات المنهجية حول طريقة استخدام عينات الأدلة هذه لم تبدأ إلا مؤخرا، مع الاعتراف المتزايد بأن المناهج الآلية القديمة التى كانت تستخدم فى المقارنة اللغوية التاريخية لا تكفى، إذا ما واجهناها بمقياس الواقع أو الحقيقة التاريخية.

ولا يمكن أن نستبعد منذ البداية من التصنيف اللغوى معايير أخري غير لغوية أثبتت فيما مضى عدم فاعليتها وقدرتها الضئيلة على التكيف. ويمكن أن نقول عامة إن التصنيفات اللغوية التى تبتعد عن الحقائق اللغوية البحتة تنتقل بالتدريج إلى مجال تعدد التخصصات الذى تفتقر فيه إلى المناهج الملائمة فى أغلب الأحيان.

٤ - اختيار نموذج التصنيف

١ - العلاقة بين نماذج التصنيف وأهدافه :

توجد صلة وثيقة بين نماذج التصنيف وأهدافه. فنموذج التصنيف أداة تمثيلية، أولا وقبل كل شئ. وهو يسعى إلى التأكيد على بعض العلاقات التى تربط بين اللغات المصنفة والتى يرى المصنف أنها هامة، وعلى احتمال حذف البعض الآخر، الذى يرى المصنف أنه أقل أهمية من سابقه. ونظرا لهذه الخاصية، لا تقدم نماذج التصنيف اللغوى مطلقا صورة صادقة للواقع – وهذا ما يعتقده الكثيرون للأسف – وإنما تقدم إطارا لتفسير بعض الحقائق.

وعلى غرار التقسيم الثنائى للغويات عامة يمكن التمييز بين النماذج المتزامنة والنماذج المتطورة، فى التصنيفات اللغوية. وقد يظن أن النماذج المتطورة تستخدم فى كل التصنيفات ذات الأهداف التاريخية، بحكم طبيعتها، فى حين تعتبر النماذج المتزامنة وسائل تمثيل مناسبة لكل الأهداف الأخرى. ومع ذلك كثيرا ما تستخدم النماذج المتطورة لبلوغ أهداف متزامنة، والعكس أيضا صحيح. والخلط الشائع بين الجوانب الخاصة بالزمن مشكلة خطيرة لا يمكن أن تحل، فيما أرى، إلا إذا أصبحت صريحة.

٢ - نماذج التصنيف المتزامنة

تقوم التصنيفات اللغوية بانتظام على بعض العوامل الأساسية كالتجاوز اللغوى والتوزيع حسب المساحات. ويمكن أن نضيف إليها العوامل اللغوية الكيفية، وهى على صلة بالأهداف التصنيفية المحددة.

واستنادا إلى هذه العوامل تصبح العلاقات المتعددة الأبعاد بين اللغات المراد تصنيفها واضحة مرئية فى نهاية المطاف. ورغم ما يوحى به، فيما يبدو، التمثيل التقليدى الذى يأخذ شكل الشجرة لاتبنى هذه العلاقات المتعددة الأبعاد وفقا للمنطق، فى أغلب الأحيان : فإذا كانت (أ) تساوى (باء) و (ج) يجب أن تساوى (باء) (ج) أيضا. وكثيرا ما تكون (أ) طرفا فى مجموعتين فرعيتين مختلفتين. ويتعارض هذا بوضوح مع مفهوم الشجرة. وعلى النموذج المتزامن للتصنيف اللغوى أن يتمكن من تمثيل هذه السمة المعقدة.

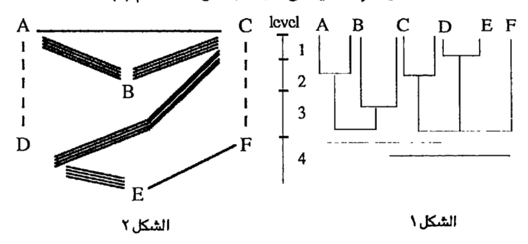
والسمة الأخرى التى يجب أن يمثلها التصنيف المتزامن هى البنية المتدرجة للعلاقة اللغوية. ولقد حاول "دليل اللغات الإفريقية"، وهو مؤلف قديم عن تصنيف اللغات الإفريقية، - وأهداف مرجعيةأساسا - أن يعبر عن البنية المتدرجة باستخدام مفاهيم مثل "اللغة"، و"اللهجة" و "مجموعات اللهجات"، و "مجموعة اللغات" و "الوحدة الأوسع". ومن المؤكد أن هذا الإطار الخاص بالمفاهيم قد ساهم فى الحد من خليط الوحدات الإساسية المراد تصنيفها، لكن المجموع يظل غامضا لدرجة أنه يستحيل معرفة اللغات المجهولة إلا بمساعدة الكشاف الأبجدى. وطور جوترى (١٩٤٨) نظام التمثيل المتدرج، بالنسبة لمجال البانتو على الأقل، عندما اختار الوضع الجغرافى فى أعلى مستويات السلم. وإذا كانت لدينا فكرة تقريبية عن بنية المناطق حسب مساحاتها استطعنا أن نكشف بسهولة، وفقا لهذا "الكود" المرجعى، المكان الذى يتكلم فيه الناس لغة ما، والسياق اللهجى الذى تقع فيه.

ولقد حاول دالبى (١٩٧٧) أن يجمع، فى تصنيفه العام للغات الإفريقية، بين سمة التعقد العلائقى وسمة البنية المتدرجة، وذلك بإدخال ثلاث وحدات جغرافية فى أعلى مستوى تصنيفى: "حزام التجزئة"، فى المنطقة المركزية، و "منطقتان نواتا صلة أوثق"، واحدة فى الشمال، والأخرى فى الجنوب، وبفضل "كود" مشترك من الرموز العددية والأبجدية تربط كل لغة بإحدى المنطقتين ذواتى الصلة الأوثق، بالإضافة إلى ربطها بحزام التجزئة، سلبا أو إيجابا. وفى رأيى أن تصنيف دالبى لم يحظ باعتراف واسع النطاق كذلك الذى حظى به جوترى بالنسبة للبانتو، وذلك لأسباب عدة : أولا : نظام "الكود" المرجعى غير واضح بالنسبة للغات الفردية، ثانيا : نطاق المناطق ذات الصلة الأوثق غير محدد، لأن الوحدات المرجعية

تحددت على أساس التجمعات التاريخية القديمة "السامية - الحامية"، و "النيجيرية - الكونغولية". وربما كان أبرز عيب، فى نهاية المطاف، هو خفض عدد المناطق المرجعية.

وأدخل كل من فيفاز وسكوت (١٩٧٧)، بالاشتراك مع جوترى، "كودا" مرجعيا بالحروف والأعداد العشرية، مستقلا بقدر قد يكثر أو يقل، لتعيين أى أسرة من اللغات الإفريقية ذات الحجم الأدنى، والتى عرفت منذ عهد وسترمان (١٩٢٧)، ووسترمان وبريان (١٩٥٢). ويستخدم اسم مميز "للكود"، بالنسبة للتجمعات الخارجية للأسر اللغوية. ويبين المجموع، فى خطوطه الرئيسية، وفقا للتقسيمات الوراثية الفرعية الكبرى التى وضعها جرنير جرينبرج. ولقد ساهم هذا النظام المرجعى المزدوج، إلى حد كبير، فى إيضاح التصنيف. ومع ذلك لا يبلغ درجة البلوغ التى بلغها جوترى، لأن التصنيف حسب الحروف داخل الأسر يتبع نظاما وراثيا كثيرا ما يتعارض مع العلاقات الوثيقة التى تربط بين المناطق المتجاورة.

وعن المناطق الأصغر، التى يبلغ حجمها حجم بلدا إفريقى حديث، وضعت بنفسى نظاما تصنيفيا متزامنا، من منظور تطبيقى (موهلج، ١٩٨٠ أ)، يأخذ بعين الاعتبار تعقد العلاقات اللغوية بأبعاده المتعددة من ناحية، والبنية المتدرجة لهذه العلاقات من ناحية أخرى. وتحدد كل المستويات طبقا للمعايير الحالية، الملازمة للمسافة، أو التجاوز اللغوى للغات المراد تصنيفها. ولكى أصورها استخدمت رسما بيانيا متعدد الأبعاد، على نحو ما جاء فى الشكل رقم (١) الذى يبرز تعقد العلاقات اللغوية. وإذا أردت التأكيد على الجانب المساحى لهذه العلاقات استخدمت خرائط إحصائية على نحو ما جاء فى الشكل رقم (٢).



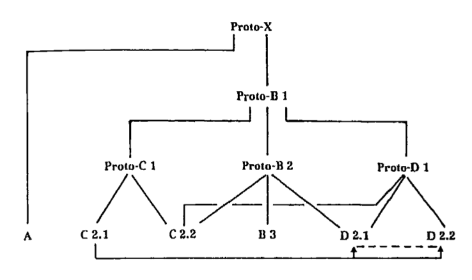
الشكل ٢

الشكل ١

٣ - نماذج التصنيف المتطورة

نموذج التصنيف الذى استخدم فى أغلب الأحيان فى مجال اللغات الإفريقية هو ذلك "النموذج الأحادى الخط، والأحادى الأصل"، الذى يأخذ عادة شكل الشجرة. ولهذا النموذج ميزة لا تنكر، وهى الوضوح. ويتمثل عيبه فى انخفاض درجة واقعيته كلما زاد عدد اللغات التى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. وإذا عقدنا صلة بين هذا النموذج وعامل الزمن المأخوذ عن تاريخ اللغات التى توجد بشأنها أدلة فى أجزاء أخرى من العالم، وإذا عرضنا النتائج التاريخية لذلك النموذج على شاشة الماضى، توصلنا إلى أن عدد اللغات كان يقل عن تسعة، من خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف عام، فى المنطقة الإفريقية الواقعة جنوبى الصحراء، ومن الواضح أن هذه الصورة المبسطة تتعارض مع الصور المعقدة المميزة التى يقدمها لنا علم الآثار عن الفترة نفسها.

وأعطتنى دراستى للهجات صورة مختلفة. ففى العالم المصغر الخاص بوضع لهجة ما يمكن أن نلمح، جنبا إلى جنب، عددا من الأشكال والنماذج اللغوية المختلفة إلى حد ما، أى التى توجد فى المستوى الزمنى نفسه، ويرجع هذا، بطبيعة الحال، إلى أن التطور التاريخى يسير بسرعة مختلفة، فى اللهجات المختلفة. وبالتالى يمكن إعادة تشكيل هذه الأشكال اللهجية، بطريقة أفضل، فى شكل متتاليات، وأن تفسر بأنها مراحل متعاقبة لسلسلة واحدة من التطور التاريخى. ويمكن استخلاص بعض العمليات التاريخية المحددة، بدءا من هذه السلسلة. ويتضح، بالرجوع إلى أى نظام لغوى، أن مجموع العمليات التاريخية غالبا يكون متناقضا، فى حد ذاته، بمعنى أن اتجاه سلسلة معينة من التطورات اللغوية يمكن أن يكون عكسيا. على سبيل المثال يمكن أن نثبت أن مجموعة معينة من الأصوات اختفت لفترة فى الماضى، ثم عادت إلى الظهور. وبالإضافة إلى هذه الملحوظات تدل العمليات، عندما تنقل إلى الخرائط، على توزيع مساحى غير متطابق. وينتج هذا التوزيع، وتنتج ظواهر أخرى مماثلة، عن عمليات مطابقة، كالتحول اللغوى، وخلط اللغات، آثار اللغة، إلخ... وتتطلب هذه العمليات التاريخية إلى جانب عملية التطور الوراثى، نموذج تصنيف أكثر تعقدا (موهلج، ١٩٨٠، ٤٨ والتالية). وأقدم فى الشكل رقم (٣) نموذجا لطبقات للتصنيف اللغوى.. ولقد بنيت نتائجه، خاصة ما يتعلق بتصنيف لغة البانتو، (موهلج، ١٩٨١)، فى بحث منفصل.



تأثيرات مساحية متزامنة

الشكل ٣

٥ - ختام

تميزت مناقشة المناهج الخاصة بطريقة تصنيف اللغات الإفريقية، لفترة طويلة من تاريخ الدراسات الإفريقية، بحالة ركود، مرجعها سيادة النموذج الأحادى الخط والأصل. وعندما إزدادت معرفتنا للغات الإفريقية، لدرجة تمكننا معها من أن نضيف إلى أدواتنا مناهج اللهجات التى استخدمت فى أوربا قبل ذلك بقرن، استطعنا أن نلقى ضوءا جديدا على البنية الملازمة للعلاقات اللغوية. ونتجت عن ذلك دفعة تهدف، لا إلى إعادة النظر فى الموضوع كله، فى مجال التصنيف اللغوى فحسب، وإنما أيضا إلى الاعتراف بوجود مشاكل صعبة لم نقابلها من قبل.

وحاولت فى هذا البحث أن أناقش بعض المشاكل الرئيسية فى إطار كشفى، بنى طبقا للمكونات الأساسية للتصنيف اللغوى، ألا وهى الغايات والأهداف، والوحدات المراد تصنيفها، ومعايير التصنيف، والنماذج التصنيفية. ويعبر تجميع هذه المكونات، بطريقة ما، عن أهميتها بالنسبة لعمليات التصنيف فى مجموعها. ومع ذلك فهى لا تفضى إلى نتائج مباشرة، فيما يتعلق بالحجج التى تستخدم عند مناقشة المشاكل المتعلقة بها. وربما كان موقفى الغائى من كافة الموضوعات الخاصة بالتصنيف اللغوى هو الأهم. ولقد حرصت على

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

إيضاح ذلك منذ البداية وها أنا ذا أذكره فى النهاية، لكى لا يخدع أحد.

ويليهلم موهلج (جامعة كولونى)

REFERENCES

BRYAN, M., *The Bantu Languages of Africa*, London - New York - Cape Town, Oxford University Press, 1959 (Handbook of African Languages).

DALBY, D., *Language Map of Africa and the Adjacent Islands*, London, International African Institute, 1977.

FIVAZ, D.; SCOTT, P. E., *African Languages. A Genetic and Decimalised Classification for Bibliographic and General Reference*, Boston, Mass., G. K. Hall, 1977.

FODOR, I., *The Problems in the Classification of the African Languages*, Budapest, Center for Afro-Asian Research of the Hungarian Academy of Science, 1966.

— *A Fallacy of Contemporary Linguistics*, Hamburg, Helmut Buske, 1982.

GOEBL, H., *Dialektometrie. Prinzipien und Methoden des Einsatzes der Numerischen Taxonomie im Bereich der Dialektgeographie*, Vienna, Verlag der Oesterreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982.

GREENBERG, J. H., *Studies in African Linguistic Classification*, Branford, Conn., Compass, 1955.

— *The Languages of Africa*, The Hague, Mouton, 1963.

GUARISMA, G.; MÖHLIG, W. J. G., (eds.), *La méthode dialectométrique appliquée aux langues africaines*. (Forthcoming).

GUTHRIE, M., *The Classification of the Bantu Languages*, London-New York-Toronto, Oxford University Press, 1948.

–"A two-staged method of comparative Bantu study," *African Laguage Studies* (London), Vol. III, 1962, p. 1-24.

–*Comparative Bantu. An Introduction to the Comparative Linguistics and Prehistory of the Bantu Languages*, Farnborough, Gregg Press. Part I, Vol. I, 1967. Vol. III, 1971. Part II, Vols. III-IV, 1970.

HEINE, B.; HOFF, H.; VOSSEN, R., "Neuere Ergebnisse zur Territorialgeschichte des Bantu." In Möhlig, W. J. G.; Rottland, F.; Heine, B. (eds.) *Zur Sprachgeschichte und Ethnohistorie in Afrika. Neue Beiträge afrikanistischer Forschungen*, Berlin, Dietrich Reimer, 1977, p. 57-72.

JOHNSTON, H. H., *A Comparative Study of the Bantu and Semi-Bantu Languages*, Vol. II, London, Oxford University Press, 1922.

KOELLE, S. W., *Polyglotta Africana; or A Comparative Vocabulary of Nearly Three Hundred Words and Phrases, in More Than One Hundred Distinct African Languages*. London, Church Missionary House, 1854.

MEINHOF, C.; VAN WARMELO, N. J., *Introduction to the Phonology of the Bantu Languages*, Berlin, Dietrich Reimer, 1932.

MÖHLIG, W. J. G., *Die Stellung der Bergdialekte im Osten des Mt. Kenya. Ein Beitrag zur Sprachgliederung im Bantu*, Berlin, Dietrich Reimer, 1974.

–"Guthries Beitrag zur Bantuistik aus heutiger Sicht." *Anthropos. Zeitschrift für Völker- und Sprachenkunde* (St. Augustin), vol. 71, 1976, p. 673-715.

–"The Bantu nucleus: its conditional nature and its prehistorical significance." *Sugia. Sprache und Geschichte in Afrika* (Hamburg), vol. I, 1979, p. 109-141.

–"La dialectométrie: une méthode de classification synchronique en Afrique." In Guarisma, G.; Platiel, S. (eds), *Dialectologie et comparatisme en Afrique Noire*, Paris, Selaf, 1980, p. 27-44.

–Bantu Languages. In Heine, B.; Möhlig, W. J. G. (eds.). *Language and Dialect Atlas of Kenya*, Vol. I, Berlin, Dietrich Reimer, 1980, p. 11-53.

–"Stratification in the history of the Bantu languages." *Sugia. Sprache und Geschichte in Afrika* (Hamburg), vol. III, 1981, p. 251-316.

–"Mbugu." In Jungraithmayr, H; Möhlig, W. J. G. (eds.). *Lexikon der afrikanischen Sprachen und ihre Erforschung*, Berlin, Dietrich Reimer, 1983, p. 158 f.

SEGUY, J., "La dialectométrie dans l'atlas linguistique de la Gascogne." *Revue de linguistique romane*, vol. 37, 1973, p. 1-24.

TUCKER, A. N.; BRYAN, M. A. "The 'Mbugu' anomaly." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (London), vol. 37, 1974, p. 188-207.

WESTERMANN, D., *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Berlin, de Gruyter, 1927.

WESTERMANN, D., BRYAN, M. A., *Languages of West Africa*, London, Oxford University Press, 1952 (Handbook of African Languages, Part II).

WINTER, J. C. "Inter(natio)nal classifications of Kilimanjaro Bantu compared: towards an East African dialectometry." In Guarisma, G.; Platiel S. (eds). *Dialectologie et comparatisme en Afrique Noire*, Paris, Selaf, 1980, p. 101-132.

بقلم : جيردا منصور

إسهامات نظرية
علم الاجتماع اللغوى
وتطبيقاتها فى دراسة التعدد اللغوى

(مع اشارة خاصه عن غرب افريقية)

نظرا لسيادة التعدد اللغوى فى كثير من الأقطار أصبح الأمر فى حاجة الى مدخل جديد تشترك فيه التخصصات العلمية المختلفة لدراسة مشاكله. ويوفر علم الاجتماع اللغوى مثل هذا المدخل كما يمكنه أن يساعد فى إلقاء أضواء جديدة على الظاهرة التى كانت تناقش فى أغلب الأحيان بمفهوم يميل الى خلق مزيد من المشاكل أكثر من الاتجاه الى حلها. ولكى نبين كيف يمكن لنظرية الاجتماع اللغوى وتطبيقها أن تسهم فى دراسة التعدد اللغوى وسنحاول فى هذه المقالة أن نحدد باختصار بعض المعطيات الأساسية لنظرية الاجتماع اللغوى والتى يبدو أنها وثيقة الصلة بتفهم ظاهرة التعدد اللغوى، ونحدد أيضا التعدد اللغوى كسلوك اجتماعى مستجيب لأوضاع الاحتكاك.

أولا - بعض المعطيات الأساسية لنظرية الاجتماع اللغوى :

تكون دراسة اللغة واللغويات دائما جزءا هاما من العلوم الانسانية، لا فى مضمون

المترجم : محمد جلال عباس

الحضارة الغربية فقط بل أيضا فى جميع الحضارات العظمى فى العصور القديمة. بيد أن الطرق التى كانت تدرك بها اللغات وتدرس اختلفت وتعددت كثيرا. ويكفى هنا أن نلخص الطريقة التى حدد بها اللغويون الغربيون فى القرن العشرين مجال دراستهم. فرغم اختلاف مناهج البحث بين المدارس الفكرية المتعددة فان الاتجاه الرئيسى للغويات يتسم بالتركيز على الوصف العلمى للغة معينة من حيث نسقها الصوتى والصرفى والاعرابى. ويتخذون من اللغة كما يتكلم بها أهلها الآن نموذجا لدراستهم. وهو نموذج ثابت ذو وضع مثالى متحرر من المضمون. ولا نحتاج هنا لأن نذكر أن لعملهم هذا أهمية أساسية في حالة اللغات غير المكتوبة وغير المدروسة. ويرجع الفضل الى هذه الجهود العلمية فى أن تلك اللغات قد أصبحت مكتوبة ومدروسة تمهيدا لكى تصبح أداة أكثر فاعلية فى الاتصالات بالمفهوم الحديث كما كانت كذلك في المضمون التقليدى.

ويرتبط عمل اللغوى الوصفى بعمل اللغوى المقارن الذى يحلل الظواهر المختلفة التى تميز لغتين أو اكثر، لكى يضع نسقا معينا من العلاقات، سواء كانت علاقات رمزيه أو اشتقاقية من أصول واحدة مما يستفاد به كاساس لتصنيف اللغات. ولقد كان تاريخ اللغات خلال القرن التاسع عشر أحد فروع اللغويات المهمة وما زال حتى اليوم يمثل جانبا من الدراسة اللغوية. ولقد طبقت قواعد التغير فى اللغات المكتوبة على اللغات غير المكتوبة فى ذلك الوقت مما جعل لتلك اللغات ماضيا ولو أنه ماض افتراضى. والعامل المهم في هذا النوع من العمل هو أنه يفرض نموذجا مختلفا من اللغات، هو النموذج الحركى الديناميكى بدلا من النموذج الثابت أو الأستاتيكى الذى يستخدمه اللغوى الوصفى، ولكنه لا يحاول أن يحلل أو يبحث عن أسباب التغير اللغوى من داخل النسق اللغوى نفسه. اذ غالبا ما يتخذ ذلك التغير شكل تدخل لغوى من جانب نسق لغوى آخر.

وللعلوم التى تتناول دراسة اللغة تصور مختلف، وتدرس عناصر أخرى مختلفة من عناصر اللغة. وكان من بين المؤثرات القوية على العلم الجديد الذى يدرس الاجتماع اللغوى الدراسات التى قام بها علماء الأنثروبولوچيا والاجتماع والنفس. فالدراسات الانثروبولوچية فى الميدان الذى يحمل عنوان «اللغة والثقافة» تهتم باللغة علي اعتبار أنها شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى وكوسيلة للتعبير عن البنيان الخاص بالمجتمع. وتهتم فروع عديدة من علم النفس بدور اللغة فى التنشئة الاجتماعية للطفل، والعلاقة بين اللغة ومفهوم التكوين، وفى القوالب الاجتماعية التى يظهر التعبير عنها فى شكل اتجاهات نحو اللغة. أما علماء الاجتماعيات الآخرون فيدرسون الطبقات الاجتماعية ودور اللغة فى تكوين الأمة. وواضح أن

العوامل المختلفة للدراسات اللغوية تتضمن مفاهيم علمية مختلفة ومناهج بحث متنوعة. ولقد تأثرت أهم الادوات المنهجية التى يستخدمها اللغويون باللغويين والاجتماعيين والأنثروبولوچين (أو الأنثرچرافيين).

ويمكننا أن نجمل تصور علماء الاجتماع اللغوى للغة على النحو التالى : اللغات ليست مستقلة بعضها عن بعض، وليست نظما نوات استقلال ذاتى ولكنها مرتبطة بمضمون، وتتحدد المعالم اللغوية بمجموعة شديدة التنوع من العوامل الخارجة عن اللغة، تتراوح بين المواقف المعينة والمباشرة لعملية حديث فرد واحد الى المضمون العام : الاجتماعى التاريخى والثقافى والدينى أو حتى البيئى لحديث مجتمع بأكمله. واللغات ليست جميعها موحدة التركيب نظرا لأن الفحص الدقيق يكشف لنا عن أن كل لغة تحتوى على أطياف واسعة من التنوعات الاقليمية والاجتماعية وكذلك سجلات للمواقف المعينة أو أساليب الكلام. وفى حين يتقبل الكثير من اللغويين تعريف كومسكى لكفاءة اللغة على أنها قدرة المتحدث البدائى على القاء التعبيرات الصحيحة فى قواعدها (كومسكى Chomsky، ١٩٦٥) فإن علماء الاجتماع اللغوى يوجهون المزيد من التركيز على « القدرة على الاتصال» (هايمز Hymes، ١٩٧٤). أو بمعنى أدق فأن الطفل الذى يكتسب اللغة الأم أو لغة وطنه يحتاج الى أن يتعلم ما هو أكثر من مجرد مجموعة الألفاظ المعجمية والقواعد النحوية، بل هو يحتاج الى القدرة على أن يختار من بين المترادفات المتعددة ما هو أنسب لكل موقف من المواقف. هل يقول آبا، أو أبى أو بابا ؟ أم يقول : «مطر غزير استمر طول الليل» أو «أمطرت الدنيا طول الليل كالسيل المتدفق» ؟. وبتعبير آخر عليه أن يكون قادرا على توصيل المعنى الاجتماعى الذى يريده اذا ما أراد أن يكون عضوا مندمجا فى مجتمعه. والمهم فى هذا المضمون هو مفهوم علماء الاجتماع اللغوى لما يسمى «المناسبة الصحيحة» التى ينشأ عنها الاتجاه الذى يحتم الاختيار المتوافق فكريا مع «السلوك الذى تحكمه القاعدة ».

كان اكتشاف التنوع اللغوى من بين العوامل التى جعلت علماء اللغة ينظرون الى ظاهرة التعدد اللغوى في ضوء مختلف تماما. وكذلك تغيرت نظرة العامة له، إذ أصبحت النظرة الى التعدد اللغوى على الأقل هى النظرة إلى شئ بغيض، وانه انحراف عن جادة الطريق الى الأسوأ، ولكل نظرة أسبابها. أما اللغويون الذين يشغلهم تكوين قواعد محددة فيزعجهم ما يسمونه «تداخل» لغة آخرى فى اللغة التى يدرسونها. وأما رجال علم النفس التعليمى فيركزون اهتمامهم على الآثار السلبية للثنائية اللغوية على مفهوم تكوين الفرد

ونموه. ويقلق السياسيون والممارسون أمر الوحدة الوطنية فى حين أن التربويين وصناع القرار تصيبهم الكوابيس حين يتأملون الوضع للوصول الى نتائج تتضمن بدائل معينة بالنسبة للدول المتعددة اللغات ويحسبون مقدار تكاليف التعليم فى هذه الدول.

من جهة أخرى قد يزعم علماء الاجتماع اللغوى أن الوحدة اللغوية غير موجودة سواء على المستوى الفردى أو المستوى الجماعى، وأن السلوك اللغوى الطبيعى متعدد اللغة ومتغير. فكقاعدة نجد أن الأفراد يجيدون وسائل متعددة للتعبير – لغة خطاب رسمية أخرى وغير رسمية وأحيانا توجد ثالثة تكون وسيلة محايدة، فمعظمهم يتكلمون لهجة محلية ولهجة اجتماعية ورطانة خاصة بالعمل وذلك الى جانب لغة معترف بها من الجميع. ويعتبر مصطلح «لغة» من وجهة نظر الاجتماع اللغوى مصطلحا غامضا وغير مناسب، وقد تتفق الغالبية على أنه أساسا مفهوم سياسى، فمثلا نجد أن الذى يميز كلام سكان جزر فريزيان الغربية عن كلام سكان جزرفريزيان الشرقية هو أن اسكان فريزيان الغربية يتكلمون فى اطار سياسى هولندى، ولذلك يعتبر كلامهم لهجة من اللهجات الهولندية فى حين يعتبر كلام الآخرين لهجة ألمانية. ولقد عمل علماء اللهجات بمفهوم استمرارية اللهجات دون الاعتماد على اللغة النمطية، وقرروا أن مقدار الاختلافات اللغوية ينمو فى اطراد مع المسافة الجغرافية، وعلى ذلك فإن الوضوح المتبادل الذى يتواجد عبر الحدود الجغرافية قد يكون اعظم من الوضوح المتبادل بين لهجة وأخرى فى داخل الدولة الواحدة (وفى أوروبا يظهر البعد الكبير على محور شمالى جنوبى).

بيد أن الحقيقة أمام علم الاجتماع أصبحت فى وقتنا الحاضر أكثر تعقدا من ذلك، فالتعليم العام الاجبارى ووسائل الاعلام وزيادة تحرك السكان كلها أدت الى التماثل اللغوى في داخل الدولة القومية في أوربا أكثر من أى وقت مضى. وفى الوقت نفسه أصبحت الأقليات اللغوية أكثر حاجة الى الاستقلال الذاتى فى وقت زادت فيه الهجرات العمالية، مما أدى الى تكوين أقليات لغوية جديدة أصبح ادماجها فى اللغة الموحدة للدولة أصعب بكثير مما مضى. ولقد أعيد تحديد اصطلاح الدول «أحادية اللغة» فى مفهوم الاجتماع اللغوى بأن الأمم الاحادية اللغة هى الأمم التى تطورت فيها، كاستجابة لما حتمته الأوضاع السياسية فى الماضى، وكنتيجة للتوافق، لغة نمطية فرضتها بنية السلطة وانتشرت عن طريق التعليم ووسائل الاتصال الجماهيرية. بذلك تصبح الفرضية اذن أن يعالج موضوع التعدد اللغوى باعتباره حالة عادية وأن يكون التركيز كله فى دراسة التعدد اللغوى على تحديد مختلف أنواع الاستخدامات اللغوية، وعلى وصف القواعد والتنظيمات المكشوفة والمستورة، وعلى

تحليل أسبابها وتصانيفها الاجتماعية، واكتشاف اتجاهات التغير الاجتماعي اللغوى. وللعنصر الأخير أهميته، وهو لسوء الحظ يلقى أقل عناية في الوقت الحاضر بسبب كمية الأفكار التى تعوق نسبة كبيرة من التحقيقات الاجتماعية وخاصة أن معالجته تتم على أساس مدخل تاريخي. ومن الأمثلة الممتعة لهذه النقطة عالم الاجتماع الأمريكي ليبرسون (١٩٨٠)، فقد اتبع فى دراسته مدخلا تجريبيا صرفا واستمر على ذلك مدة طويلة، فاكتشف أن الأوضاع تتغير وأن النتائج التى تنبنى على بيانات مرتبطة بالزمن تصبح غير ذات موضوع، وعلى ذلك فهو يصف العلاج لذلك بأنه عملية جمع المعلومات من وقت لآخر واجراء المقارنات.

هذا، وترتبط اتجاهات التغير الاجتماعى اللغوى مع استخدام لغة ثانية أو لغة تخاطب عامة، ونقصد باللغة العامة فى مضمون هذه الدراسة أى لغة محلية يتخذها المتحدثون بلغات أخرى وسيلة للتخاطب مع المجموعات الثقافية الأخرى. وحيثما تحل هذه اللغة العامة محل لغة جيل من الاجيال تصبح اللغة الأم بالنسبة للجيل التالى. فاننا اذن نتحدث عما يسمى «التحول اللغوى» وهو عكس «التمسك باللغة» الذى يغلب على حالات الثنائية اللغوية حيث تكون اللغة العامة فى خدمة مجموعة من الوظائف الاجتماعية فى حين تسود اللغة الأم فى مجال الأسرة وغيرها من مجالات الاتصال الحميمة. وتكمن أهمية دراسة التحول اللغوى فى اظهار الصفة الديناميكية للاستخدام اللغوى بعكس الاتجاه الجامد فى مثل ذلك السلوك.

ثانيا : التعدد اللغوى : سلوك اجتماعى لغوى يستجيب لمواقف احتكاك معينة

ومن المداخل المفيدة لتحليل التعدد اللغوى وبحث مختلف أنواع مواقف الاحتكاك التى تتحدد من أصولها وما بعد ذلك بالعوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية والبيئية وكل نوع من انواع مواقف الاحتكاك، كما سنرى، مرتبط باستراتيجيات اجتماعية ولغوية معينة. ويمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من مواقف الاحتكاك :

أ - التعايش مع وجود حد أدنى من الاحتكاك.

ب - التعايش مع وجود احتكار محدد اجتماعيا.

جـ - التعايش مع وجود الامتزاج الثقافى.

أ - التعايش مع وجود حد ادنى من الاحتكاك :

يتميز هذا النوع من المواقف بظواهره الأفقية بمعنى وجود مجتمعات لغوية لها استقلالها الذاتي تعيش جنبا الى جنب وتكون نوعا من الامتداد المتجاور المتداخل فى منطقة جغرافية معينة. ويندر وجود احتكاك مباشر بين المجموعات العرقية ويتم الاتصال بينها عادة من خلال أفراد متخصصين مثل التجار، والمبعوثين والمترجمين، والمعتقد أن هذه هى الحالة العادية التى كانت سائدة فى مرحلة ما قبل التاريخ فى كل الحضارات، ولكن نظرا لوجود أحوال خاصة فان الكثير من المجتمعات الصغيرة استمرت تعيش هكذا حتى وقتنا الحاضر. وترجع العزلة السائدة فى مثل هذه الحالات وتستمر بسبب وجود بعض الظواهر البيئية السائدة مثل الجبال والأنهار والمستنقعات والجزر والصحارى، وكذلك الغابات التى لا يمكن اختراقها. ولما سيطر الانسان على البيئة انخفض تأثير هذه العوامل العازلة الى الحد الأدنى، ولكن ذلك حدث بعد أن أقيمت عوامل عزل أخرى وبخاصة التميز الطبيعى والثقافى والشعور القوى بالترابط الاجتماعى والهوية المنفصلة، وهى العوامل التى تكونت خلال التاريخ الطويل للتطور الاجتماعى للجماعات. ففى أوربا استمرت الكثير من الأقليات اللغوية البيئية والاجتماعية والثقافية، على سبيل المثال لا الحصر الباسك الذين يعيشون فى البرانس على جانبى الحدود الفرنسية الاسبانية، والمتحدثون لغة الرايتورومانس فى الألب السويسرية، والمتحدثون بالألمانية القديمة جنوب التيرول والبريتون فى فرنسا وأهل ويلز فى انجلترا.

المنعزلات اللغوية فى غرب إفريقية :

يتكون ساحل جنوب افريقية واجزاء من خلفيته فى المنطقة الممتدة من غامبيا الى ساحل العاج ثم فى نيجيريا، من أراض منخفضة تغطيها المستنقعات وبرك المنجروف، تشقها أنهار كثيرة الانحناءات ومصبات خليجية كبيرة تقطع امتداد خط الساحل وتتجه الى ما يشبه الجزر والجزر الحقيقية التى تقع تجاه الساحل. وتتصل المستنقعات فتتصل إلى الغابات الكثيفة التى رغم احتوائها على كثافة أعلى نسبيا من السكان ما زالت تمثل عقبة فى المواصلات ومن ثم فهى تناسب مجتمعات القرى الصغيرة المستقلة بذاتها. اذا نظرنا الى الخريطة اللغوية لإفريقية التى رسمها والبى (١٩٧٨) نتبين أن هذه المنطقة تكون «جزءا منقسما غير متصل من النطاق شبه الصحراوى» وهو أكثر مناطق إفريقية اختلافا فى لغاته. وتتعارض النتائج التى توصل اليها المؤرخون مع النتائج التى توصل اليها اللغويون

عن هذه المنطقة بالذات. فطبقا لمصادر برتغالية أخذ عنها كوين (١٩٧٢) كان جانبا المصب الخليجى لنهر غامبيا موطنا لملكة جوك فى القرن الخامس عشر، ونتيجة لغارات تجار الرقيق اضطر أهل جولا الى الانتقال جنوبا الى منطقة مستنقعات كازامانس وكاشيو حيث ما زالوا يعيشون حتى الآن. ورغم أنهم كانوا يخضعون لتنظيم اجتماعى هيكلى متدرج فإنهم الآن مفتتون فى مجموعات عرقية لغوية يزيد عددها على اثنتى عشرة مجموعة يتكلم بعضهم لهجات متقاربة، وكون بعضها الآخر تنوعات من اللهجات يبدو أنها أقل تقاربا ووضوحا (دونكس ١٩٧٨). ولقد أكد أيضا كل من رودنى (١٩٧٥) وهير (١٩٦٧) من فحصهما للمصادر البرتغالية التى تتناول ساحل غينيا (من غامبيا الى ليبريا)، وجود الامتداد المتصل وبخاصة فى ثقافة سكان هذا الساحل والى حد ما فى لغتهم، حتى غزاهم الناطقون بلغة الماندى مما أدى الى نشأة جيوب لغوية تفصل بين مجموعات معينة من سكان غرب الأطلسى عن غيرهم.

لذلك يبدو معقولا أن نخمن أن وضع المنعزلات اللغوية الحالية قد تكون نتيجة لعوامل العزلة التى سبق أن أشرنا إليها، وهى أن البيئة الطبيعية ما زالت قائمة كسبب للعزلة، وقوتها التقسيمات الضعيفة التى حدثت من قبل. وبالإضافة الى ذلك علينا أن نأخذ فى اعتبارنا الخلفية التاريخية لغارات تجار الرقيق التى اعقبها الغزو الاستعمارى، وهى تمثل أربعة قرون من العنف وابادة السكان والجمود الاقتصادي والثقافى. فى هذا المضمون الاجتماعى ومعه، تصبح العزلة اللغوية رصيدا قيما للصراع من أجل البقاء. فعلى مجتمع كل قرية مستقلة بذاتها أن يدافع عن نفسه ويتحدى الغازى بصورة متجددة، وهى استراتيجية أثبتت فاعليتها العظيمه ضد قوات الغزو الاستعمارى كما يتبين من حقيقة أن القوات الفرنسية استغرقت خمسة وسبعين عاما لاخضاع شعب كازامانس لسيطرتها (راوش١٩٧٦).

وقد توصف الاستراتيجيات اللغوية من هذا النوع على النحو التالى : تخدم اللهجات الثانوية المختلفة كهوية تميز بين قرية وأخرى، وفى حالة نشأة العداوات قد تكون بمثابة عنصر مميز للعدو من الصديق. لذلك فهى تلقى التشجيع والمبالغة فى التمسك بها، ومع مضى زمن قصير تنشأ الحواجز ويقل التفاهم المتبادل. وهذه هى بعينها الحالة القائمة فى الوضع الاجتماعى الذى تنسب فيه المبادرات الى الجماعة وممثليها لا للفرد، وهناك أمثلة عديدة للمجتمعات فى قرى متجاورة يتخاطبون عن طريق المترجمين رغم أنهم يبدون أمام الخارجيين متشابهين للغاية.

ومع ذلك فإن كل الجماعات التى تتحدث لغات عرقية تعيش متجاورة من المجتمعات الصغيرة الحجم. فسواء كانت الجماعات اللغوية العرقية منعزلة أو غير منعزلة فان لمعظمها «وطنا» أو منطقة مركزية يتحدث غالبية سكانها لغتهم، وتظل نسبه كبيرة من هؤلاء السكان طوال حياتهم يتحدثون لغة واحدة. حينما كانت تلك المجتمعات مستقلة ولديها اكتفاء ذاتى لم تكن لديها أى مشكلة، ولم تظهر المشاكل الا مع مجئ الادارة الاستعمارية التى حاولت تجميع وحدات لغوية عرقية صغيرة وكبيرة بعضها مع البعض. ونظرا لأن الدول الإفريقية الحديثة ورثت مناطق الاستعمار السابقة فإن المشاكل التى نشأت من «التعدد اللغوى الأفقى» واحدة وتجعل هذه الدول تركز فى اهتمامها على تخطيط بنية تحتيه تنبى على نموذج مركزى لتناول مسألة الاختلافات الثقافية اللغوية. ولما كانت الأولوية بعد الاستقلال للتنمية الاقتصادية المرتبطة بنقل التكنولوجيا والعلم من الغرب، فقد بدا لهم أن البديل واضح فى أول الأمر، وهو اللغة الاوروبية لأن محو الأمية فى اللغة الأوربية قد يخدم تلك الأهداف. ورغم أن الأولويات الآن ما زالت هى هى، فإن الحاجة الى أصالة أعظم تطرح أمامنا تساؤلات جديدة، وتضطر صناع القرار الى البحث عن بدائل جديدة. فهل تختار واحدة من اللغات الوطنية فقط أم عددا منها؟ وماذا عن المجتمعات اللغوية الصغيرة ؟ هل سيصيبهم الضرر نتيجة تقوية لغات افريقية أخرى أم أن الاحتفاظ باللغة الأوربية سوف يضمن توفير فرص متكافئة للجميع ؟

التعدد اللغوى الأفقى فى المضمون الجديد :

نناقش هذه الأسئلة وغيرها غالبا من فراغ، وخاصة أن الوضع بالنسبة للقرى الصغيرة خاصة قد تغير تغيرا صارخا. لم تعد العزله قيمة من قيم الحياة والبقاء. بل على العكس أصبحت عقبة تعوق التقدم الاجتماعى والاقتصادى، وفى الوقت نفسه أمكن التغلب جزئيا على العزلة الطبيعية باقامة الكبارى وانشاء الطرق والممرات العلوية وبالراديو والتليفون. ويرسل التلاميذ للدراسة فى مدارس القرى المجاورة والمدن الريفية، فى حين يترك الشباب المتعطل قراهم الى المراكز الحضرية لكسب العيش. ولم يصبح المجتمع الريفى فى صورة وحدة متماسكة مستقلة بل أصبح جزءا متكاملا من المركز أو المحافظة أو الوطن، وأخذ الاقتصاد النقدي يحل تدريجا محل مرحلة الاقتصاد المعتمد على الكفاية الغذائية، وأصبح مرتبطا بالعالم الخارجى. وضعف التمايز الثقافى الاجتماعى للريف نتيجة لتدفق المعايير الجديدة وانتشار القيم الحديثة. ولئن قيل ان اللغة هى أكثر أشكال السلوك الاجتماعى محافظة ؛ فما هى فرص بقاء لغات يقتصر استخدامها كلغة خطاب على قرى

قليلة ويقتصر استخدامها على المسنين، فى حين يلغى ابناؤهم واحفادهم عادات القرية ولغتها من اجل البقاء فى تيه المناطق الحضرية، ويختلطون غالبا بالتزاوج فى تلك المناطق الحضرية، ويكتسبون أسلوبا جديدا للحياة ؟ اذا اعتبرنا أن أى حضارة من الحضارات العظمى لا ترجع الى أصل واحد متجانس، وأنها قد اكتسبت الثراء من القيم الثقافية لحضارات أخرى، فإن المجتمعات التى بادت واللغات التى اختفت تعتبر بذلك خسارة كبيرة نأسف عليها. فقد يرى التحول اللغوى كشئ أشبه ما يكون بالانتحار الاجتماعى الثقافى، لكنه فى الحقيقة أنسب استراتيجية للبقاء يمكن أن تتبعها مجموعة من الأقليات فى العالم المتغير، لأن البديل الأخر وهو التمسك باللغة معناه مقاومة التغير الاجتماعى والجمود أو نوعية من البقاء أشبه ما يكون بالبقاء فى المتحف.

يبدو الوضع مختلفا تماما فى حالة المجموعات اللغوية العرقية الأخرى، فانها تمثل نسبا كبيرة من السكان فى الوطن وتحتل قطاعات كبيرة نسبيا من الأراضى، وخاصة اذا كانت هذه القطاعات من مناطق ذات أهمية من الناحية الاقتصادية، فيصبح لدينا وضع انفصالى سرعان ما يلفت علماء السياسة الأنظار اليه. فمع أن صراع بيافرا الذى قام خلال العقد السابع فى نيجيريا – وكان نتيجة لأسباب متعددة – ربما يكون مثالا صارخا فقد كان الحل الوحيد الذى انتهى اليه هذا الصراع هو إقامة نظام اتحادى يتكون من ١٢ ولاية عام ١٩٦٨ (أصبحت الآن ١٩ ولاية)، وكان اساس تقسيم الأقاليم تقسيما عرقيا لغويا. كان هذا بمثابة طريقة من طرق حل المشكلة. وفى دول أخرى من غرب إفريقية نجد أن الوحدات أصغر من ذلك بكثير، ولكن أفضل بديل هو ايجاد شكل من أشكال اللامركزية دون تعويق لتطور الوحدة الوطنية. فلابد أن يضع صناع القرار اللغوى فى أذهانهم أن هناك ملاحظة عامة هى أن السلوك البشرى لتحديد هوية الفرد لكى يسير فى طريق التقدم مع المجتمع كان دائما فى اطار دوائر متوسعة بدءا من أصغر وحدة اجتماعية وهى الأسرة ثم الى العشيرة، فالقرية فالمدينة فالمقاطعة أو المجموعة العرقية اللغوية، ثم أخيرا الأمة، وقد نأمل أن تتجاوز ذلك.

فبالنسبة للبعض يعتبر الانتماء للأمة أمرا بعيدا المنال أو مفهوما غائما، ولا يقتصر الأمر على إفريقية وحدها أن يعتبر الفرد نفسه أولا منتميا الى قبيلة السيرير أو الى جماعة الكازامانس أولا ثم الى السنغال ثانيا، بل هناك الكثير من الألمان يعتبرون أنفسهم أولا باڤاريين أو بروسيين ثم ثانيا ألمانا. فان تواجد مجموعات لغوية متميزة فى اطار سياسى أوسع ليس بالشئ الجديد، ويشعر الناس عادة فى مثل تلك الوحدات السياسية أن اللغة

القومية السائدة نوع من الفرض الصناعى من جانب قطاع من قطاعات السكان فى فترة معينة من الزمن.

ب - التعايش مع وجود احتكاك محدد اجتماعيا :

يتميز هذا النوع من الاحتكاك بارتباطه بظاهرات التواجد الرأسى بمعنى أن كل جماعة من الجماعات العرقية المتميزه بلغتها لا تعيش فى منطقة جغرافية منفصلة، بل تشترك جماعتان أو أكثر من تلك الجماعات فى المنطقة الجغرافية الواحدة ويحدث بينها تفاعل بطريقة محددة اجتماعيا تحديدا دقيقا. وبتحليل هذه النوعية من الأوضاع الاجتماعية اللغوية نستطيع أيضا أن نميز وجود عوامل بيئية وعوامل اجتماعية ثقافية. فالبيئة الطبيعية التى تيسر الاحتكاك والتى سبق أن أشرنا الى أنها من عوامل العزلة تختفى فى هذه الحالة حيث لا توجد حواجز طبيعية تحول دون روح المغامرة فى الانسان. وكلما كانت أحوال البيئة أنسب كان التنافس بين الجماعات المختلفة أقوى لدرجة أن يصبح على المستوطنين الأليين أن يدافعوا عن اقليمهم ضد الغزاة. وبصرف النظر عن تغلغل الغزاة أو تراجع السكان الأصليين، فإن الحل هو غالبا أن تقيم الجماعتان نمطا قويا أو ضعيفا من التعايش السلمى. ومن بين أشكال التعايش ما يؤدى الى اندماج نهائى سوف تناقشة فى النوع الثالث من التعايش. وأما الشكل الآخر فانه ينتج عن قيام نمط من أنماط تقسيم العمل. فهذا النمط يسمح بتعايش مجموعتين لغويتين مختلفتين (ربما يكون هذا الاختلاف ايضا اختلافا فى السلالة) احداهما مع الأخرى فى انسجام مع احتفاظ كل منهما بهويتها ومميزاتها الخاصة. على ذلك يمكن أن تتعايش جماعة زراعية مع جماعة من البدو المتنقلين أو التجار أو الحرفيين أو المحاربين. وفى كل حالة من هذه الحالات تكون أنشطة احدى الجماعات مكملة للأخرى وليست منافسه لها . وتكون الاستراتيجية اللغوية المرتبطة بالتقسيم الاجتماعى للعمل هى القيام بأدوار متوازية مع التوزيع اللغوى، مثال ذلك سيادة اللغة س فى القطاع الزراعى فى حين تكون اللغة ص هى لغة التجارة ؛ ونظرا لأن الجماعتان تتفاعلان احداهما مع الأخرى فى أداء اعمالهما اليومية يصبح على الأفراد أن يكونوا ثنائيو اللغة أو يتعلمون اللغتين، وتصبح ثنائية اللغة أو التعدد اللغوى هى الصفة المميزة للسلوك اللغوى اليومى لجماعة صغيرة أو كبيرة من مجموع السكان كلهم.

التعدد اللغوى الرأسى فى غرب إفريقية :

يقدم لنا تاريخ مجتمعات غرب افريقية التى تعيش فى الداخل فى نطاقى الساحل

(أى ساحل الصحراء) والسفانا أمثلة عديدة لهذا النوع من الاحتكاك. ذلك أن صفة عدم انتظام المطر السنوى التى تميز هذه المنطقة، فضلا عن النمو السكانى قد اضطر السكان فى كثير من الأحيان الى البحث عن ظروف معيشية أفضل. ولقد أصبحت الأنهار الثلاثة الرئيسية وهى النيجر وغامبيا والسنغال هى محط أنظار الموجات الجديدة من الغزاة، وتؤكد المخلفات الأثرية ما جاء فى الآثار المروية أحيانا عن التعدد العرقى لسكان هذه المناطق. وبذلك استنتج كل من المؤرخين وعلماء الآثار المروية منذ زمن بعيد أن أصل سكان الدلتا الداخلية لنهر النيجر كانوا من الصيادين البوزو (ديلافوس ١٩١٢) الذين أصبحوا فيما بعد ملاحى قوارب استخدمهم السونتكى فى تجارتهم بنهر النيجر ثم استخدمهم بعد ذلك التجار الماندنج والحكام الصنغاى. ويؤكد ذلك اكتشاف موقع أثرى قديم عام ١٩٧٧ أطلق عليه اسم زوبورو أو جينى جينو (أى مدينة جنى القديمة)، يرجع تاريخه الى عام ٩٠٠ ميلادية، ويدل على وجود سبع طرق تجارية قديمة (ماك اينتوش، ١٩٨١). المثل يقال عن سكان وادى غامبيا الذين ما زالوا يعكسون وجود موجات متعددة وأنواع من الغزات حيث يعيش الزراع الأصليون من جماعات تيندا فى اتصال وثيق و جنبا الى جنب مع الفولانى الرعاة والماندنج التجار والمستوطنين فى المنطقة. أما وادى السنغال الأدنى الذى كان أصلا موطنا لعدد من العشائر المتقاربة الأصل (من الوولوف والسيرير والتوكولور) فقد تعرض سنة ١٠٠٠ ميلادية لغزاة من البربر، ونتيجة لقلة الأرض والتغير الاجتماعى الذى أصبح تغيرا سريعا بسبب اعتناق الاسلام أتت سلسلة من الهجرات مؤكدة التمايز اللغوى العرقى بين بقايا التوكولور والسيرير والوولوف والفولانى، وقوى هذا بالتالى بتأثير الظروف البيئية الجديدة فى المناطق التى اختارت كل جماعة احتلالها، وبتأثير مواقف الاحتكاك المختلفة التى واجهتها كل جماعة. وبعد قرون من تغير السكان وتنقلاتهم، وتجديد الاحتكاك بين تلك الجماعات اللغوية المذكورة أصبح تمايزهم يعتمد على كل من الأساس اللغوى والتخصص المهنى السابق. فأصبح التوكولور الذين يتفاخرون بماضيهم الاسلامى دعاة الاسلام فى مناطق السنغمبيا، وتخصص الوولوف لمدى قرون عديدة فى شؤون الحرب والتجارة، الأمر الذى جعلهم متلائمين مع الظروف الجديدة التى ترتبت على الاستعمار والاستقلال، أما نسل البدو والفولانى فما زالوا يمارسون حياتهم الرعوية ويتعايشون غالبا فى القرى مع السيرير والوولوف أو الجولا الزراع (أشير الى ذلك فى كتاب منصور، ١٩٨٠).

انتشار لغات التخاطب العامة

يؤدى التعدد اللغوى الرأسى أو دور توزيع اللغات الذى يحدده التقسيم الاجتماعى

الي تفضيل انتشار لغة تسود كلغة تخاطب عامة. وكلمة تسود في هذا المضمون قد تعنى أن مجموعة لغوية غازية تفرض لغتها على السكان المهزومين أو أن نوعا معينا من النشاط الاقتصادي أدخلته جماعة لغوية متميزة قد أصبح مفضلا بتأثير الظروف السائدة. ولقد قامت في غرب إفريقية أنماط من السيادة من خلال الممالك والامبراطوريات والتجارة التى أقامها شعب الماندنج فى العصور الوسطى، حيث امتد نفوذهم من الصحراء الى اطراف الغابات فى ساحل العاج وغينيا ومن ساحل المحيط الأطلسى الى منحنى النيجر. وانتهى الأمر بهؤلاء الغزاة العسكريين الى الاستقرار كطبقة حاكمة وفرضوا فى كثير من الحالات الماندنكا كلغة للإدارة فى المناطق التى ضموها لنفوذهم، فى حين أقام التجار الذين اتجهوا الى بعيد مستوطنات على طول امتداد طرقهم التجارية فأدخلوا بذلك تنظيمات الماندنج الاجتماعية وعاداتهم ولغتهم. ونتيجة لذلك فبالاضافة الى البلاد التى تعتبر فيها لغة بامبارا الماندنج هى لغة الأغلبية (وهى مالى وغامبيا) فان لهجات الماندنج (المالينكا والماندنجو والديولا) ما زالت تسود فى مجال التجارة الداخلية وبخاصة فى ساحل العاج وأعالى الفولتا (بوركينافاسو الآن) وغينيا وبعض أجزاء سيراليون والسنغال، وهى تؤدى فى بعض الظروف وظيفة لغة التخاطب العامة الاقليمية أو القومية.

حتى في حالات حلول أنماط جديدة محل الأنماط السائدة قديما فان الأمر يتطلب مراعاة الحاجة الى بقائها خاصة فى مضمون يكون فيه الصراع بين الحداثة والمحافظة قد تفاقم بسبب فشل المحدثين فى التغلب على المشكلات الاقتصادية الاجتماعية. مثال ذلك الوولوف فى السنغال، فقد كانت لغتهم تنتشر خلال فترة الاستعمار كلغة تخاطب عامة كنتيجة مباشرة للدور الذى كان يقوم به الوولوف كوسطاء فى التجارة الاستعمارية، وجهودهم الطليعية فى زراعة وتسويق الفول السودانى، وهو غلة التصدير الجديدة. رغم ارتباط الوولوف الوثيق مع حركة التوطن الحضرى والتحديث، فان انتشار هذه اللغة أو بالأحرى تقويتها رسميا، قد لقى مقاومة من جانب الناطقين بلغة الفولانى وهى ثانية المجموعات السكانية حجما فى السنغال. وواحدة من الجماعات التي تزعم لنفسها مجدا أقدم وأعظم في البلاد. ومن جهة أخرى يكون الوولوف والناطقون بلغة الفولانى فى موريتانيا أقلية ذات توجيه حديث يقاوم الأنماط القديمة ذات السيطرة القوية المفروضة من جانب المور وما يقومون به حديثا من برنامج للتعريب.

علمنا فى تاريخ أوربا اللغوى أن الأقليات اللغوية التى قد تختفى لمدى قرون عديدة ربما تظهر على السطح من جديد كاستجابة لتغير اقتصادى اجتماعى، وعادة يكون ذلك

نتيجة لاجراءات مشددة من جانب حكومة مركزية صارمة. فقد عاد الباسك الى الظهور غالبا فى ظل معاناتهم من نظام فرانكو، وهم يطالبون الآن بحكم ذاتى كامل، فى حين أن الاستغلال الاقتصادى لكل من ويلز واسكتلندا ما زال يغذى الحركات الانفصالية. لهذه الأسباب فان على صناع القرار الافريقيين أن يجدوا مدخلا الى التحليل المادى للأحداث الاجتماعية التاريخية المتعددة التى شكلت أوضاع الاحتكاك الاجتماعى اللغوى الحالية فى أقطارهم.

ولقد أغفلنا حتى الآن نوعا من أنواع التعدد اللغوى فى الأقطار الافريقية ينتمى كذلك الى هذه الفئة، وبخاصة تعايش اللغة الأجنبية مع اللغات الافريقية. يرجع جذور الاحتكاك القائم فى هذا الموقف الى الغزو الاستعمارى و وهو غزو يختلف تماما عن أى موجة غزو إفريقية داخلية سبقت الاشارة اليها. فالسيطرة الاستعمارية كانت كاملة شملت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية، وانتهت غالبا الى تهتك كامل فى التركيب الاقتصادى الاجتماعى للمجتمعات الافريقية. إذ أن التعبير عن النتائج الاجتماعية واللغوية لمثل هذا الوضع يظهر أولا فى صورة لغوية مثل الحط من قيمة اللغات والثقافات الافريقية، وتحول التوجيه الاجتماعى النفسى بعيدا عن الأصل الجماعى نحو الجماعة ذات المكانة. ونظرا لأن الهضم الكامل غير ممكن نتيجة لعدة أسباب فان النتيجة تكون ادراكا تغلب فيه الفردية فى تحديد الذات، وتطور طبقة الصفوة المنعزلة عن كل من صفوفها الخاصة والجماعة التى تود أن تقلدها. والنتيجة الاجتماعية اللغوية الأخرى هى تركيب اللغات الانجليزية والفرنسية والبرتغالية فوق نمط قائم بالفعل من التعددية اللغوية المستخدمة، حيث يكون للغة الاجنبية وظائف معينة، تسود فى كل مجالات السلوك الاجتماعى المتصلة بالحكومة والادارة والقطاع الاقتصادى الحديث والتعليم ووسائل الاتصال.

الطبقية اللغوية Diglossia

يشبه الوضع اللغوى الذى وصفناه أخيرا بوضع الطبقية اللغوية التى يصفها فرجيسون (١٩٦٤) بأنه بالتحديد تعايش شكل من أشكال الكلام (الرفيع المستوى) مع شكل أدنى مرتبة من الكلام، مثل العربية الفصحى (الرفيعة المستوى) مع العامية (المنخفضة المستوى)، واللغة الالمانية الأصلية (الرفيعة المستوى) مع الألمانية السويسرية (المنخفضة المستوى). بيد أن غالبية السكان فى أمثلة الطبقية اللغوية أو التعددية اللغوية، كما وصفه فرجيسون وغيره، يستخدمون كلا الشكلين من لغة الكلام اعتمادا على مناسبة كل منهما

لموضوع الحديث أو نوعية الاحتكاك الاجتماعي ويقتصر استخدام الشكل الرفيع المستوى من اللغة في المضمون الافريقي على الذين يتمتعون بنصيب متناسب من التعليم بهذه اللغة، وهو ما لا يزيد عن ١٠٪ من السكان في بعض الأقطار، اذن فنمط الاستخدام اللغوي بالنسبة لهذه الأقلية ينتمي الى هذه الطبقية اللغوية أو التعددية اللغوية، ففي المواقف الرسمية أو عند مناقشة موضوعات يبدو فيها افتقار اللغات المحلية الى المصطلحات أو التعبيرات المناسبة يسود استخدام اللغة الأجنبية، أما في المواقف الحميمية مع أفراد الجماعة (مثل مجال الأسرة، وبين الاصدقاء، والأمور الدينية ومجتمعات القرية، وغيرها) فان اللغة الأم تصبح لغة الخطاب، وغالبا ما تستخدم لغة ثالثة أو لغة محايدة هي لغة خطاب إفريقية سائدة مع أفراد المجموعات الاجتماعية اللغوية الأخرى، وبخاصة حينما يريد المتحدثون تأكيد روح التضامن الافريقي. وغالبا يوجد زعم بأن اللغات الأوروبية ذات أهمية أيضا كوسيلة للاتصال بين الجماعات المختلفة ولكن الحقائق الحديثة لا تؤيد هذا الزعم.

على ذلك يظهر الاستعمال اللغوي في المجتمعات المتعددة اللغات كقاعدة تحكم السلوك، ويظهر التعدد اللغوي على خلاف التوقعات أمرا لا يعوق الاتصالات، بيد أن لوضع التعدد اللغوي كما وصفناه سابقا نتائج خطيرة بالنسبة للغات التي تدخل في هذا الترتيب الطبقي. وما دامت اللغة الأجنبية تسود في قطاع الطبقات الرفيعة، فان اللغات الافريقية الأخرى بصرف النظر عن مدى انتشار استخدامها، لا تستطيع أن تطور أشكالا رفيعة من الخطاب أو الحديث. وعلى العكس فان الهيكل الطبقي للغات يميل الى الجمود والحفاظ على الوضع القائم. ويعتبر استخدام اللغات الافريقية في التعليم مجرد خطوة أولى في التقدم نحو استعادة الكيان والتطوير اللغوي.

جـ - التعايش مع الامتزاج الثقافي

حينما يحدث اتصال وثيق بين مجموعتين لغويتين ويستمر هذا الاتصال لمدى زمني طويل قد ينشأ نوع من الامتزاج الثقافي، أو بمعنى أخر سوف تؤثر فئتان من القيم الثقافية الاجتماعية كل منهما في الأخرى، وربما تنشأ في النهاية فئة مشتركة من القيم. ويتضمن الامتزاج الثقافي الكامل أمورا قبل ازالة الفوارق اللغوية، وإن كانت هناك طرق متعددة يتحقق بها ذلك. وبالطبع يعتمد المضمون الحقيقي لعملية الامتزاج الثقافي وتأثيره على مجتمعات معينة على الطريقة التي يتحقق بها ذلك :

التحول اللغوى

فى حالة وجود اتصال وثيق بين مجموعتين أو اكثر من الجماعات اللغوية، ويكون لها ماض مشترك والعديد من المعالم الاجتماعية الثقافية المتشابهة، ولو توافر فى هذه الحالة الجو السياسى الصحيح فقد ينشأ التحول اللغوى. وفى مثل هذا الوضع تميل العوامل الموحدة اقتصاديا وسياسيا الى أن تزيل الاختلافات التى يستبقيها السلوك اللغوى والعادات المحلية، وسوف يكون هناك استعدادا لقبول لغة قومية موحدة. ولعل وجود لغة لها كيانها وحيادها الجغرافى يؤدى بالتالى الى تحول فعلي فى اللهجات مع تقليل الاختلافات اللغوية. فمن عبارة مختصرة كهذه يبدو أن الأمر يسير و مباشر، بيد أن هذه العملية قد استغرقت خمسمائة عام فى بعض الدول القومية فى أوربا، ففى فرنسا بدأت الخطوة الأولى نحو التوحيد اللغوى فى عام ١٥٣٩ بمرسوم ملكى ينص على استخدام الفرنسية كلغة المحاكمات القانونية ومنع استخدام اللغات الأخرى، وفى انجلترا استخدم البرلمان انجليزيه لندن منذ عام ١٣٦٢، واستخدمتها المحكمة ابتداء من عام ١٤١٣. وأدى استخدام كتابة براغ الألمانية فى ترجمة لوثر للكتاب المقدس عام ١٥٢١ الى تطوير اللغة الموحدة (وولف، ١٩٧١) ومع ذلك فقد استمرت الاختلافات اللغوية قائمة فى تلك البلاد.

الامتزاج الثقافى وتحول اللغة :

اتخذ مضمون الامتزاج الثقافى فى غرب إفريقية شكل التحول اللغوى، وقد سبق أن ذكرنا فى النوع الثانى من مواقف الاحتكاك موقف الاحتكاك الناتج عن الغزو والاتجار على مسافات بعيدة فى العصور الوسطى. ففى مثل تلك الحالات ينتج موقف من السيادة يؤدى الى ثبات وضع الثنائية اللغوية، وفى أحيان أخرى كانت الثنائية اللغوية مرحلة انتقالية أدت الى الهضم والتحول اللغوى عند الجماعات الخاضعة للغزو. وتقدم لنا السجلات التاريخية والآثار المروية ودراسة الأعلام الجغرافية وأسماء القبائل والعشائر دليلا على المجموعات اللغوية الثقافية التى اختفت تماما أو تعتبر من الأقليات الحالية المتضائلة. فمعظم الأقليات التى تعيش في المناطق الخلفية من غامبيا وكازامانس وكاتشو حتى فوتاجالون فى غينيا (وبخاصة جماعات تيندا ويونان) قد تم امتصاصها أو اندماجها الكامل فى واحد من المجتمعين السائدين الأكثر والأرقى تنظيما وهما الماندنج والفولانى، أو أنها دخلت ضمن مجتمعات البوزو الافريقية فى منطقة زيجوينشور فى بيساو وكاتشيو. هذا وتعلم بعض المجموعات الثقافية اللغوية الأخرى مثل الوولوف فى السنغال أنها تتكون من

أصول مختلطة وأن نظام الزواج الداخلى فيها ربما كان من بقايا قسم من أقسام الجماعات الثقافية اللغوية السابقة (١).

بيد أن الأهم من هذه الأمثلة للتحول اللغوى فيما قبل الاستعمار ما يتصل بتطور المراكز الحضرية فى غرب إفريقية. يوجد فى كل المدن الساحلية وكذلك فى عواصم الجزر والمدن التى نشأت فى الريف تركيب سكانى شديدالتنوع. ونشأت فى كل من تلك المراكز لغة تخاطب عامة استجابة لوضع الاحتكاك. وفى معظم الحالات كان اختيار لغة التخاطب الحضرية العامة يتم بمعرفة السكان الاصليين أوسكان المناطق المجاورة مباشرة. وعلى ذلك أصبحت الوولوف هى لغة التخاطب العامة فى داكار في حين كانت السوسو هى لغة التخاطب فى كوناكرى ولغة جا فى اكرا، ولغة البامبارا فى باماكو. لكن الى أى مدى يصل تأثير لغة التخاطب الحضرية العامة والى أى حد يؤدى الى التحول اللغوى ؟ فان هذا أمر يخضع لعوامل أخرى. قام ونيولاند (١٩٦٥) ببحث قوة هضم الوولوف فى داكار وعدد من مدن السنغال الأخرى فوجد أن الإقامة الدائمة فى المدينة هى التى تؤدى فى العادة الى التحول اللغوى لدى الجيل التالى، وهى عملية ساعد على سرعة وقوعها الاختلاط بالتزاوج بين السلالات. ولم يقتصر أمر سيادة لغة الوولوف على البيوت التى تضم زوجين أحدهما من الوولوف والآخر من غير الوولوف، بل شمل أيضا البيوت التى تضم زوجين من غير الوولوف رغم اختلاف الأصل العرقى. وهناك دراسات مماثلة تجرى فى مدن أخرى فى غرب افريقية، الا أن الوضع ليس دوما من السهولة بمكان، ففى أكرا ترجع سيادة لغة جا الى أسباب جغرافية بحتة، ويؤدى تدفق المهاجرين من مدن غانية أخرى تسودها لغة توى كلغة تخاطب عامة رئيسية الى خلق حالة من التضاد، والمثل يقال عن فريتاون فان لغة التخاطب العامة فيها وهى الكريول بدأت تتضاءل تدريجيا مع زيادة عدد المتحدثين بلغة التيمنى ولغة الماندى الذين أصبحوا الآن يكونون نحو ٦٠٪ من سكان المدينة (تابوريت كيللر، ١٩٧١).

يحتاج الامتزاج الثقافى بالتحول اللغوى الى أحوال اقتصادية وسياسية اجتماعية معينة. ومن أهم دوافع التحول اللغوى الفوائد الاجتماعية الاقتصادية، ولكن اتجاهات الاصرار والقابلية لدى المجموعات الثقافية اللغوية الهاضمة تزيد من احتمالات التحول اللغوى حين تؤدى الاتجاهات التعصبية والتباعد عن الأجانب الى طرد الراغبين. وبالاضافة

---

(١) راجع بارى Barry (١٩٧٢) حول القواعد الخاصة بنظام القرابة عند الوالى حيث كان الملك ينتخب من بين الورثة الذكور من أفراد الأسرة الحاكمة الوولوف، على أن تكون أمة بالضرورة من نسب احدى الأسر الحاكمة من السيرير أو الفولانى أو البربر .

الى ذلك فان العلاقات اللغوية الوثيقة والتقارب الاجتماعى الثقافى وعلاقات الصداقة التقليدية بين الجماعات كلها أمور تسهل الامتزاج الثقافى والتحول اللغوى، في حين تؤدى العداوات القديمة والاختلافات الدينية الثقافية الى مزيد من الصعوبات. فالمعروف فى السنغال مثلا أن المسلمين من السيرير كانوا أكثر استعدادا للتحول الى لغة الوولوف فى حين كانت مقاومة الهضم كما قيل أكثرظهورا فى أوساط السيرير المسيحيين والجولا. وطبقا لما ذكره لوبن (١٩٦٨) هناك عوامل أخرى تؤثر فى التحول اللغوى هى «الحيوية الثقافية فى مقابل الكمون الثقافى» ومسألة «التوجيه الجماعى فى مقابل التوجيه الفردى فى تحديد الذات».

ففى كلتا الحالتين نجد أن الوضع الاخير هو الذى ينتهى الى التحول اللغوى فى حين يرتبط الوضع الأول بالتمسك باللغة. ومن الأمثلة الطريفة لوضع التقابل الأول الوضع الاجتماعى اللغوى فى المناطق الساحلية من غينيا حيث نجد أن السوسو الاكثر حيوية وأكثر قدرة على التلاؤم من الناحية الثقافية الاجتماعية، يهضمون الآن جماعات بيجا وتالوو ولاندومان (هويس، ١٩٦٣). وليس من شك فى أن مسألة التوجيه الجماعى فى مقابل التوجيه الفردى تمثل ظاهرة عامة فى الأزمنة الحديثة حيث يتضافر التوطن الحضرى مع التعليم وازدياد التحركات السكانية على التقليل من مقدار تأثير الأسرة والعشيرة، أما بالنسبة لكون الانتماء اللغوى نابعا من مجموعة أولية فان مثل هذه المزاعم يميل الى أن يلغى لاعتبارات تتعلق بالفوائد الاقتصادية الاجتماعية والآمال الفردية.

نشأة لغات الكريول :

من الأشكال الأخرى للامتزاج الثقافى ما ينجم عن اندماج لغتين مختلفتين اختلافا كبيرا فتنشأ أولا لغة الرطانة أو البيدچين ثم الكريول. وعلى حسب تعريف بيناسولا (١٩٨١) «تعتبر البيدچين لغة احتكاك محلية يرجع أصلها الى احتكاك بين لغتين لا تنتمى إحداهما للأخرى، وتكونان عادة لغة اوربية واخرى غير أوربية، والاحتكاك وهذه /.../ صيغة من الصيغ المبسطة لاحدى اللغات الأوربية فى العادة والتى تعدلت فى اتجاه الأخرى» (ص ١٠٠). نشأت هذه اللغات ذات الوظائف المحددة (استخدامها أساسا فى البيع والشراء) بجوار المراكز أو المحطات التجاريه التى نشأت على سواحل المحيط الأطلسى والهادى والهندى وعلى الجزر، وعنصرها الأوربى الرئيسي هو أحد اللغات البرتغالية أو الانجليزية أو الفرنسية، وفى بعض الأحيان كانت تأخذ من الثلاثة. أما لغات الكريول فقد نشأت فيما بعد

حينما التقى أبناء شعوب متعددة من غير الأوربيين ممن ينتمون الى خلفيات ثقافية لغوية متعددة، وعاشوا كمستوطنين معا، وتكون منهم الوسطاء فى المراكز أو المحطات التجارية وأصبح لهم معاملات مع التجار الأوربين وأخرى فيما بينهم، فأدى الاختلاط بالتزاوج بين السلالات والمجموعات الثقافية المختلفة الى تكوين مجتمع يتحدث الرطانة أو البيدجين، ونشأت أجيال جديدة تتكلم اللغة المهجنة كما لو كانت لغة الأم، وبذلك توسعت وظائفها وتطورت مفرداتها ومعالمها اللغوية الجديدة لكى تنقل ألفاظا تعطى المعانى اللازمة لكل جوانب حياة المجتمع.

ولقد كان لساحل غرب إفريقية دور هام فى نشأة وتطور الكريول فى كل أنحاء العالم. وصل اول تجار أوربيين الى ساحل غرب افريقية عام ١٤٤٤ وكانوا من البرتغاليين و واحتكروا التجارة الساحلية نحو مئة عام (بروكس ١٩٨٠، رودنى ١٩٦٥). وضمت جزر الرأسى الأخضر الى البرتغال واستوطنها تجار برتغاليون تلقوا فى عام ١٤٦٦ صكا بمنحهم الحقوق الكاملة للاتجار في ساحل غرب إفريقية من رأس مونت سينى سالوم. ثم أصبحت جزر الرأسى الأخضر المحطة الرئيسية وسط طريق تجارة الرقيق الاسبانية الى أمريكا الوسطى. بيد أن سكان جزر الرأسى الأخضر أخذوا يتصارعون مع البرتغاليين اللانكادوس، وهم البرتغاليون الذين تصالحوا واتفقوا مع الافريقيين، أو بمعنى آخر أعلن هؤلاء البرتغاليون خروجهم عن سلطة التاج لسبب مالى، هو عدم استعدادهم لدفع الضرائب، وعاشوا هناك مع الافريقيين مثل حياتهم وفى حماية الملوك المحليين. وكانت مستوطناتهم الرئيسية فى سيراليون وغينيا بيساو (كاتشيو وبيساو) ومنطقة كازامانس بالسنغال الحديثة (زيجوينشور)، وفى احتكاكهم هذا حدث الامتزاج الثقافى واندماج السلالتين والثقافتين واللغتين حتى إننا أصبحنا نبحث الآن عن أصل كلمة كريولو. وما زالت الكريولو (التى تسمى أيضا الكريول البرتغالية) هى لغة التخاطب فى جزر الرأسى الأخضر فى غينيا بيساو والسنغال (زيجوينشور وداكار)، وكشفت لنا دراسات أخرى عن لغات الكريول أن هناك بعض الخواص النحوية المعينة المشتركة فى مجموعة لغات غرب الأطلسى تظهر فى لغات كريول أخرى بعيدة، كما توجد بها بقايا من ألفاظ برتغالية معينة.

يشير هذا الى وجود أصل برتغالى مشترك مع لغات غرب الأطلسى، فى حين نجد ان مجموعة المفردات الرئيسية قد استبدلت فيما بعد بكلمات انجليزية وفرنسية.

ولغة الكريول الأخرى الهامة التى بقيت على ساحل غرب إفريقية هى الكريو وهى

كريول تعتمد على اللغة الانجليزية ويتكلم بها سكان فريتاون فى سيراليون. كانت فريتاون قد أنشئت عام ١٧٩١ كمستوطنة للعبيد المحررين الذين يؤخذون من التجار فى البحر ويحررون بمعرفة دعاة تحرير الرقيق الانجليز. لم تكن لهم لغة مشتركة، ولكن نظرا لأن سيراليون كانت فى الأصل أرضا للتجارة البرتغالية فقد كان بها بلا شك مجتمعات تتكلم لغة الكريو. وكانت هذه اللغة مع قليل من الألفاظ الانجليزيه التى تعلمها الناس هناك هى فى الغالب أصل لغة الكريو. ويكون الناطقون بلغة الكريو اليوم نحو ٩ر١٪ من سكان سيراليون، ولكن هناك نحو ٨٥٪ من السكان يتكلمونها كلغة تخاطب عامة.

الخلاصة :

هناك زعم بأن مختلف أنواع الدراسات المسحية للغويات الاجتماعية أو للاجتماع اللغوى لابد أن تقدم لنا أساسا علميا للسياسات اللغوية والتخطيط اللغوى. ويفترض بذلك أن التدخل الحكومى فى نمط السلوك الاجتماعى اللغوى للسكان أمر محتم أو مرغوب فيه. واذا ما صح هذا فانه لا يعنى مباشرة أن تقوم الحكومات فى الدول المتعددة اللغات باختيار لغة قومية واحدة حتى تحقق الشعور بالوحدة الوطنية. فان مفهوم القومية اللغوية يرتبط ارتباطا وثيقا بالمذاهب الفكرية فى مرحلة معينة (القرن التاسع عشر) من مراحل الرأسمالية الأوربية، وهى المرحلة التى حركت الموجات المتتابعة من حركات الانفصال وتكونت فيها الكثير من الدول القومية الجديدة مع عدم القضاء حتى على المعاملة غير العادلة للأقليات اللغوية. من الواضح أن الدور الذى تؤديه اللغة فى بناء القومية لابد أن يعاد تقويمة فى مضمون حياة الدول النامية المتعددة اللغات، وفى كثير من الحالات لابد من ايجاد حل تعددى جديد. ولابد أن يساعد التحليل الموضوعى العلمى للاوضاع الاجتماعية اللغوية فى نشر المسائل المتعلقة بكل أمور اللغة ونقل مسئولية الصراع كلها الى الميدان الذى يوجد به السياسيون. وكما أن التنظيمات الاجتماعية قد تلاءمت فى الماضى مع أوضاع التعدد اللغوى باقامة تقسيم العمل بين أهل اللغات المتعايشة بعضها مع بعض كذلك تكون اقامة نظام قابل للتطبيق من الاتصالات الشفاهية، ولابد للحكومات الحديثة من أن تكون قادرة على عمل اختيارات عقلانية رشيدة لا تؤدى الى نشأة حالات تمييز جديدة.

وكثيرا ما يزعم أن محاولات استبدال اللغات (الأجنبية) الرسمية المستخدمة الآن بلغة ما (س) يعتبر احلالا للمجموعة الثقافية التى تتكلم هذه اللغة (س) وان المجموعات الثقافية الأخرى سوف يضارون ويمنعون من الدخول الى السلطة. على صناع السياسة فى

مثل هذه المواقف أن يكونوا قادرين على أن يرجعوا الى دراسات الاجتماع اللغوى الوفيره مقدمين أدلتهم من الأنماط الفعلية للاستخدام اللغوى. فاذا ما حدث أن تحولت اللغة المعنية (س) الى لغة تخاطب عامة لها استخدام شفاهى واسع النطاق، فيجب أن يكون واضحا أن ادخالها فى التعليم ثم يعد ذلك كلغة رسمية سوف يضيف لها وظيفة الكتابة الرسمية، فى حين يترك تطورها الطبيعى نمط استخدامها الشفهى فى الاتصال دون مساس. هذا مع العلم بأن التمايز الاجتماعي او عدم المساواة في العصر الحاضر يرتبط بالفرص التعليمية من حيث نوع التعليم المتاح لكل فئة، مما يشير الى أن التمايز الاجتماعى ليس له أساس لغوى. وليس من شك فى أن سكان المدن من هذه الناحية مميزون بسبب وجود فرص تعليمية أفضل فى المدينة، ويبدو أن هذا الوضع لن يتغير نتيجة لمختلف السياسات اللغوية.

(جيردا منصور)
أستاذه زائرة بجامعة القاهرة

BIBLIOGRAPHY

BARRY, B., *Le royaume du Waalo*. Paris, Maspero, 1972.

BROOKS, G. E., *Kola Trade and State-Building: Upper Guinea Coast and Senegambia 15th - 17th centuries*. African Studies Center, Working Papers 38, Boston, Boston University Press, 1980.

CHOMSKY, N., *Aspects of the Theory of Syntax*, Cambridge, Mass., MIT Press, 1965.

DALBY, D., *Language Map of Africa*, London, International African Institute, 1978.

DELAFOSSE, M., *Haut-Sénégal–Niger*, Paris. Maisonneuve et Larose, 1972 (reprint of 1912 edition).

DONEUX, J. L., "Les liens historiques entre les langues du Sénégal," in *Réalités Africaines et Langue Française*, Dakar, CLAD, 1978.

FERGUSON, C., "Diglossia", in D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society*, New York, Harper & Row, 1964.

HAIR, P.E.H., "Ethnolinguistic Continuity on the Guinea Coast," in *Journal of African History*, London, Cambridge University Press, VIII, 2 1967.

HOUIS, M., *Étude Descriptive de la langue Susu*, Dakar, IFAN, Mén. 67, 1963.

HYMES, D., *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1974.

LIEBERSON, S., "Procedures for Improving Sociolinguistic Surveys of Language Maintenance and Language Shift," in *International Journal of the Sociology of Language*, The Hague, Mouton, No. 25, 1980.

LOEWEN, J. A., "Why Minority Languages Persist or Die," in *Practical Anthropology*, Vol. 5, 2, 1968.

MANSOUR, G., "The Dynamics of Multilingualism: The Case of Senegal," in *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, Bristol, Tieto, vol. I, 4, 1980.

McINTOSH, R. J., AND McINTOSH S. KEECH, "The Inland Niger Delta before the Empire of Mali: Evidence from Jenne-Jeno," in *Journal of African History*, XXII, 1, 1981.

PEÑALOSA, F., *Introduction to the Sociology of Language*, Rowley, Mass., Newburg House, 1981.
QUINN, C., *Mandingo Kingdoms of the Senegambia*, London, Longman, 1972.
ROCHE, C., *Conquête et résistance des peuples de Casamance*, Dakar, Nouvelles Editions Africaines, 1976.
RODNEY, W., "The Guinea Coast," in R. Gray (ed.) *The Cambridge History of Africa*, Vol. 4 (1600-1790) London, Cambridge University Press 1975.
—, "Portuguese Attempts at Monopoly on the Upper Guinea Coast, 1580-1650," in *Journal of African History*, VI, 3, 1965.
SCOTTON, C. M., "Learning Lingua Francas and Socioeconomic Integration: Evidence from Africa," in R. L. Cooper (ed.) *Language Spread*, Bloomington, Indiana University Press, 1982.
TABOURET-KELLER, A., "Language Use in Relation to the Growth of Towns in West Africa," in *International Migration Review*, Vol. 5, 2, 1971.
WOLFF, P., *Western Languages AD 1000-1500*, New York, McGraw Hill, 1971 (translated from French).

التعريف بالكتاب

توماس ف جامكر يلدز **Thomas V. Gamkrelidze**

أستاذ اللغويات فى جامعة تبليس بالاتحاد السوفيتى. وعضو شرف بأكادمية العلوم والعديد من الأكاديميات والجمعيات التعليمية، ومؤلف عدد من الكتب والمقالات عن صوتيات اللغات الهندية الأوربية والقوقازية وعن الأغراض اللغوية ونظرية اللغة.

ڤياتشيسلاف ف. ايڤانوف **Viatcheslav V. Ivanov**

أستاذ اللغويات العامة والرموز اللغوية، ورئيس قسم بناء المضمون فى اللغات السلافية بمعهد اللغات السلافية والبقائية بالأكاديمية السوفيتية للعلوم. وعضو مراسل فى الأكاديمية البريطانية، وعضو شرف بالجمعية الأمريكية للغويات، ومؤلف العديد من الكتب والمقالات عن اللغويات النظرية والأمور اللغوية وتاريخ اللغات الهندية الأوروبية والسامية.

كلود هاكيج **Claude Hagége**

ولد فى تونس عام ١٩٣٦، كان طالبا بكلية المعلمين العليا، وحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه فى الأدب. وهو لغوى درس عدة لغات فى بعثات دراسية فى كل أنحاء العالم. ومؤلف اثنى عشر كتاب عن اللغات. ويتركز عمله وتدريسه على العلاقة بين الميادين الرئيسية فى اللغة : الصوتيات والتركيب، والشكل، والمفردات. ومن أحدث مؤلفاته بناء اللغة (باريس ١٩٨٦) والإنسان المتكلم (باريس ١٩٨٧).

ستيفان أدولف ورم **Stephen Adolphe wurm**

أستاذ ورئيس قسم اللغويات فى معهد الدراسات العليا فى جامعة استراليا القومية، ومدير المشروع بالأكاديمية الأسترالية للعلوم الإنسانية، له نحو مئتى بحث منشور عن لغة البابوان والاسترونيزيا واللغات الأسترالية وكثير من الرطانات المحلية المختلفة فى هذه المناطق، وفى تصنيف وتوزيع اللغات المستخدمة فى المحيط الهادى والصين ووسط وجنوب شرق آسيا.

بيتر موهلهاوسلر **Peter Mühlhäusler**

ولد فى ترابيرج فى بريسجاو عام ١٩٤٧. تلقى دراسته الجامعية فى ستلينبوخ، وعمل مدرسا فى جامعة أستراليا القومية. يعمل الآن محاضرا فى جامعة أكسفورد وزميلا فى كلية ليناكر. تخصص فى الاحتكاك اللغوى فى منطقة المحيط الهادى، وله اهتمامات بعديد من عناصر اللغويات النظرية. مؤلف كتاب الرطانة وتبسيط اللغة (١٩٧٤) وبناء ونمو معاجم

رطانات غينيا الجديدة (١٩٧٩)، ولغويات الرطانة والكريول (١٩٨٦).

آلين بنتوليلا **Alain Bentolila**

دكتوراه فى الأدب، ورئيس قسم دراسات الكريول فى مركز الآثار المروية للغات والحضارات. ورئيس الاجتماع الخامس لجامعة باريس، بحثه الرئيسى هو تحليل التركيب والمشكل اللغوى وبخاصة بالنسبة من حيث دراسة تحول اللغات من التقليد الشفاهى إلى الكتابة وأغراض ومضامين التعليم فى العالم الثالث. وأحدث مؤلفاته قاموس كريول هاييتى (١٩٧٦) وتحليل كفاءة وصورة المدرسة (تحت الطبع).

لوك بوكيو **Luc Bouquiaux**

لغوى ورئيس قسم البحوث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية، ومدير مركز الآثار المروية للتاريخ والحضارة. ولتكوينه الدراسى الكلاسيكى والمشرقى يركز اهتمامه على لغات هضبة آسيا الوسطى، ولغات أوبانجوين ولغات البانتو، ويميل كثيرا إلى علم الاجتماع اللغوى الذى يدرس وضع الإنسان من خلال تعبيره اللغوى. وله أيضا مؤلفات عن اللغويات الوصفية منها (القواعد النحوية للغة البيروم، ١٩٧٠، وبحوث وصفية فى اللغات الشفاهية ١٩٧٦، وقاموس لغة سانجو، ١٩٧٨)، وخصص عددا من أعماله للآثار المروية فى التعبير الأدبى (نصوص من لغة البيروم، ١٩٧٠، قصص من جامعات التولى ١٩٧٦، وألف مثل ومثل من Betrequillis رواها ت. تسالات، ١٩٨٥).

ويلهلم ج. م. موهليج **Wilhelm J. G. Möhlig**

ولد فى أيسيسن بألمانيا الغربية عام ١٩٣٤، ودرس فى كولون وجنيف. عمل أستاذا فى جامعة كولون، وتخصص فى لغات البانتو. ويركز فى بحوثه على اللهجات وعلى الدراسات التاريخية المقارنة والآثار الأدبية المروية.

جيردا منصور **Gerda Mansour**

ولدت عام ١٩٣٧، درست فى جامعة ماكويرى فى سيدنى بأستراليا وفى جامعة داكار، وهى الآن أستاذة زائرة بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، مجال بحوثها هو علم الاجتماع اللغوى وبخاصة التعدد اللغوى فى غرب إفريقية. نشرت عدة مقالات منها : "لغات السنغال ودورها فى التنمية فى مجلة Réalités africaines et langue française, العدد ١٣ سنة ١٩٨٠ من منشورات مركز اللغات الإفريقية بداكار، وكذلك ديناميكية التعدد اللغوى : الوضع فى السنغال فى Journal of Multilingual and Multicultural Development, الجزء الأول، العدد الرابع، ١٩٨٠.

رولاند فيشر

انبثاق العقل من المخ
الجذور الاحيائية للدائرة التأويلية

تمثل وظائف المخ عمليات اتفاقية تتم دون قصدية مسبقة، فى حين ينشأ النشاط العقلى عن وظائف المخ بوصفه «تحولا من الكم على الطريقة الهيجلية»، الكم هنا فى حدود $١٠^{١٢}$ من الخلايا العصبية المترابطة بغزارة، «إلى كيف جديد» : أى إلى تلك الظاهرة الجمعية للخبرة الذاتية للمخ، وهذه الخاصية المتعلقة برجوع العقل إلى خبرته وملاحظته لذاته تتيح له امكانية أن يلاحظ (بصورة استرجاعية) ملاحظاته لذاته؛ أى أن يفسر كل تغير له معنى فيما يتعلق بذاته. ويشمل مفهوم التفسير الذاتى فكرة «الدائرة التأويلية»، أى (تبعا لنظرية التفسير) فكرة معالجة الكل فى علاقته بأجزائه.

والعمليات المخية لا تصير مفهومة إلا فى سياق الوظيفة الفعلية، فى حين أن السياق العقلى فى مجموعه لا يصير مفهوما إلا عن طريق العمليات المخية الفردية (التى فى عقلنا). هذه الأفكار تعكس تماثلا: تلك هى «عقدة» التغذية المرتدة feedback فى نظام التحكم الأتوماتى (السيبرناتى) الذى ينظم، ومن ثم يعيد فى عقلنا إيضاح المعانى الكلية بالنسبة لأجزائها.

ترجمة : أحمد رضا

إن لبس النظارات بعدسات منشورية يولد صورا محرفة على شبكة العين. ومع ذلك تختفى هذه الصور بالتدريج حين يكون الشخص حرا فى تنقلاته. هذا التصحيح البصرى القشرى (المتعلق بقشرة الدماغ) للصور المحرفة على الشبكية «تحت القشرية» أو التعديل المضاد - يمثل «الدائرة التأويلية»، أى عملية التحكم الأوتوماتى (السيبرناتى) الذى يعيد - عن طريق التغذية المرتدة من الرأس وحركات الأطراف - التعريف بالإدراك الحسى فى مجموعه اعتبارا من أجزائه المختلفة، كما تتمثل فى الخبرة الماضية. والذخيرة (الربوتوار) التفسيرية للخبرات الماضية هى شرط لابد منه للفهم المسبق التفسيرى (من الألمانية Vor - Verstandnis) الذى يرجع إلى القدرة على إعادة البناء التى تتضمنها مهمة التفسير.

ومن المعروف أنه لا يتيسر قراءة نص (مكتوب) إلا بالرجوع إلى نصوص أخرى سبق قراءتها فيما مضى (القراءة بين النصوص!). وبالمثل يمكن القول بأن الإدراكات الحسية تفسر فى ضوء الإدركات السابقة، وأن الإثارات الحسية يجب مضاهاتها بالتوقعات المبنية على إثارات سابقة، وأن الأحاسيس نفسها لا تغدو مدارك حسية إلا إذا أتاحت الخبرة المكتسبة السلوك المناسب لإغلاق الدائرة الحسية الحركية. هذه الجوانب من الوظيفة العقلية التى لا يمكن تحديد موقع لها إما هى محاولات لوصف العمل الذى يخلق عملية تصور المعانى المجردة conceptualisation (من اللاتينية concapia, capio, أى فكرة أو مفهوم؛ بعبارة أخرى، العمل البنيوى الموحد، والتركيب، وإعادة البناء بالاستقراء الذى يضفى معنى على كل الأشياء، أو على الأقل الأشياء ذات الأهمية.

على عتبة المخ والعقل

«هناك شخص ما فى رأسى، ولكنه ليس أنا»

(بينك فلويد: الجانب المظلم من القمر - pink Floyd: Dark Side of the Moon).

كلما حاولنا أن ندرك أو نفهم العمل التصورى الإدراكى الذى يؤديه جهازنا العصبى، بعبارة أخرى، كلما ألقى المخ أو العقل نظرة في المرآة التى تمثل أيا منهما، حدث تحول - فالرائى يغدو راويا ومفسرا. إننا قادرون على أن نلاحظ، ونصف

بوضوح الكيفية التى يطلق بها منبه (آت من الخارج) سلسلة من الأحداث المتوقعة، وفى وسعنا أن نعيد بناء سياقها بعبارات فسيولوجسة عصبية، ولكن لسوء الحظ فيما لا يتعدى نقطة الاشتباك العصبى الخامسة أو السادسة (هابر Haber ، ١٩٧٩، ص ٢٦٣). ويبدو لنا عند هذا أننا وصلنا إلى عتبة المخ والعقل حيث تنطوى المرآة على نفسها، فتنعكس الصورة إلى ما لا نهاية، مما يجبرنا على أن نتحول من لغة تصف بموضوعية وظيفة المخ إلى لغة أخرى تصف وظيفة مخ تنعكس على نفسها، ومن ثم نلجأ إلى عبارات من قبيل «التعرف»، و «التمييز»، و«التجربة»؛ بعبارة أخرى: هى كلمات تتوافق ولغة مفسر داخلى فى وسعه أن يتعرف، ويميز ويفسر، وما إلى ذلك، ويمكنه أن يلاحظ ويسجل الأشياء، وهو مدرك لعملية الملاحظة والتسجيل. هذا الراوى المفسر هو فى الحقيقة شخص وموضوع.

ولنا أن نعالج موضوع التحول من الملاحظ إلى الراوى بالتأكيد على وجود خصيصة شائعة فى الأنسجة العصبية، إلا وهى خاصية الدوائر المغلقة ذات الفعل الانعكاسى، المزودة بآليات ذاتية التنظيم، ومعايير اشتغال كامل تنطوى على نزعة قصدية. مثال ذلك، أن بعض نتاج المنطقة القشرية (بالدماغ) الجسدية الحسية هى ألياف عصبية تعدل نشاط مصادر تزويدها بالتنبيه (تاو Towe ١٩٧٣؛ جوردون Gordon ١٩٧٨) إلا يحتمل إذن أن ينبثق العقل من ذبذبات المخ الحادثة بسبب زيادة فى تفاعلات أجهزة التغذية المرتدة ذاتية المرجع التى تتفرع إلى شعبتين بعد نقطة تشابك الخلايا العصبية الخامسة أو السادسة؟ مثل هذا الافتراض يساعد فى تفسير لغز محير مماثل آخر. فقد استخدم Penfield (١٩٦٨) إثارة كهربية فى بعض مناطق المخ، تسبب عنها تحرك يد المريض؛ غير أن المريض لم يشعر بأنه يريد الحركة («أنت الذى حركتها»). ويعلق جلاسمان Glassman على ذلك (١٩٨٣) قائلا إنه ليس من المستغرب أن نعلم أن فى مقدور المريض أن يتعرف على المصدر الخارجى لحركة سببتها إثارة كهربية للخلايا الهرمية لقشرة المخ الحركية التى ليست سوى شبكتين عصبيتين خارج الخلايا العصبية العضلية. غير أن هناك مناطق فى المخ بعيدة عن القدرات الحركية، أو الدخلات الحسية حيث تأتى الإثارة الكهربية بنتائج تبدو أنها تعيق عمل الإدارة المنعكسة (الإستبطان) يبدو إذن أن زيادة عدد الدوائر الشبكية العصبية المثيرة، ونظم التغذية المرتدة الثانوية - فى جهاز عصبى مركزى منظم تنظيما تدريجيا - هذه الزيادة تتيح تغيير الكم إلى كيف، أى أن الفعل المنعكس يغدو انعكاسا ذاتيا؛ وبذلك ينبثق العقل من وظيفة المخ (فيشر،

١٩٨٦ب).

ترى هل لنا أن نذكر فى هذا الصدد التجربة الموسيقية التى تقترن بقيادة اوركسترا (قيادة عصبية) (أبواتيز Aboitiz ١٩٨٥)؟ وهل من المعقول أن نقيم علاقة بين تركيب عمليات الجهاز العصبى (الأوركسترا) وبين دلالات السلوك التى تولدها هذه العمليات (التجربة الموسيقية)؟ إن المجال الظاهرى الذى يجرى فيه التنسيق بين الموسيقى (الوظيفية المخية) ليس هو المجال نفسه الذى توجد فيه السيمفونية باعتبارها تجربة موسيقية (وظيفة العقل). هذان المجالان لا يتداخلان (ماتورانا Matmana ١٩٨٥)؛ ومن ثم فإن خريطة توضح المواقع المركزة فيها وظائف المخ، على أساس رسم موجات المخ الكهربائية (EEG) electroencepha-lography لا تطابق الوظائف نفسها الموضحة على أساس الاصابات المخية المعنية.

ومن المحتمل أن تعيق الإصابات قيادة الأوركسترا؛ بعبارة أخرى، هذه الإصابات تشوش قراءة أقسام القطعة الموسيقية على مستوى رسومات موجات المخ الكهربائية، مع أن أدواتنا الخاصة بالتقصى تكشف عن تشعبات وانقطاعات شديدة فى النشاط العادى للمخ. وقد تمثل النظم الأحيائية الذبذبية، أو الإيقاعات الزمنية للمخ التى هى فى توازن دينامى مع ظواهر العالم، تمثل حالات من المعرفة الذاتية فى العقل. وعلى ذلك فإن حل المشاكل بالإدراك والمعرفة، أو العمليات التفسيرية (وكذا الخبرات الجمالية) قد تكون حالات واضحة من التوازن، ومصدرا للارتياح: النهاية لعمليات ذروتها حالة ثابتة مستقرة تتجه إليها المظاهر التذبذبية للخلايا العصبية. مثل هذه الأخيرة المتذبذبة لها نقاط جذب يمكن أن تتفرغ إلى شعبتين. ورغم أننا لا نستطيع أن نقيس نقاط الجذب هذه، ففى مقدورنا أحيانا أن ندرك تشعباتها بواسطة أجهزة مصطنعة؛ ورسم موجات المخ الكهربائية هو من قبيل هذه الأجهزة. ورغم أن الأجهزة التى يصنعها الإنسان ليست الا ظلا باهتا للديناميات الداخلية إلا أن نتائجها قد تزودنا بفكرة عن أحداث ذات مغزى (زيمان Zeeman، ١٩٧٥). وفى هذا الصدد، قد يزودنا الجهاز المستخدم بنموذج هام لوظيفة العقل.

العقل ليس هنا... ولا هناك... إنه ليس فى أى مكان، وهو فى كل مكان.

الكلام عن العقل بضمير الغائب على أنه شىء موجود (أو غير موجود) فى

الرأس، يعكس تفكيرا شكليا قائما على أساس من تسلسل فضائى أو محلى للأشكال. إلا أن ثمة مفاهيم، من قبيل روح النظام، والتعقيد، والمعلومات، والمعنى، والعشوائية، والحياة، وما إلى ذلك، تشترك جميعها من الوجهة الشكلية الخارجية (المورفولوجية) فى سمة لامكانية (عبر الفضاء أو الحيِّز). ومن ثم فإن سلوكا كالعقل لا يمكن أن يتحدد له مكان، لا يجوز أن يخاطب بضمير الغائب، أى بأسلوب تحوى وظيفته أن يستبعد كل فكرة عن شخص ما (بنفنست Ben vencste ١٩٧١، ص ٢٢٨)؛ شكل يستبعد على الفور كل فكرة تنعكس على الذات. عبارة «العقل» mind هى إذن مجاز عام شامل، مجرد من أية قوة تفسيرية(١).

إن السلوك اللاخطى، التراكمى للنظم لا يمكن تحديد وضعه فى نطاق جزء من أجزائه، لأن هذا السلوك متضمن فى التكامل المعقد للنظام الإجمالى الذى يشكل إحدى خواصه. ويمكن إيضاح هذه الملحوظة بالإشارة إلى ما ذكره «وودجر» Wood-ger عن «الإكيمو» equimo (روتشتاين Rothstein، ١٩٦٨)، وهى فكرة تعبر عن نظام ولد من تركيبة من الحصان equus والإنسان Homo. وفى وسع «الإكيمو» أن يقدم سلوكيات لاخطية متراكمة، مثل صيد الثعالب، ولكن لا يتسنى حصرها فى نشاط أو آخر لأنها تشكل جزءا لا يتجزأ من مجموعة، هى خاصية من خواص النظام كله. إن كل محاولة لإقامة علاقة بين انبساط حدقة العين، وبين سرعة المطاردة، وسلوك «الاكيمو» فى أثناء الصيد (ويعبر عنه بعدد الثعالب التى قتلت فى فصل الصيد) تشكل مثالا تقليديا لترابط كاذب، نفسى وبدنى؛ وبعبارة أخرى محاولة لا مبرر لها لإقامة رابطة بين الوظيفة الخطية التى تعبر عن أسلوب تشغيل «جزء» من بنية المجموع، والسلوك اللاخطى الخاص بالتكامل المعقد للنظام فى مجموعة. إن عقلية صيد الثعالب ليست فى الحصان، ولا فى راكبه، ولكنها هى سلوك «الاكيمو» أثناء عمله.

الخلاصة هى أن العقل هو السلوك، إنه « فى كل دقة قلب، فى كل انقباضة عضلة، فى كل حركة، ووضعة.... إنه جزء لا يتجزأ من السلوك الكلى الذى يتطور، ويتقدم كوحدة فى الزمن» (ياكوفليف Yakovlev، ١٩٤٨، ص ٣١٥).

---

(١) لا يمكن تحديد مكان للعقل، ولا يمكن - إذا عين بالضمير «أنا - أن «يعنى»، و «يكون» فى وقت واحد. لاحظ جرأة لاكان Lacan حين أعاد كتابة عبارة ديكارت «أنا أفكر، إذن فأنا موجود»، فجعلها «أنا لست حيثما أفكر» إذن «أنا أفكر حيثما لا أكون «وجودا».

إن تعريفنا العقل على أنه سلوك يقر بالمعنى الثنائى للكلمة الألمانية Haltung التى تعنى فى وقت واحد الإتجاه الخارجى (السلوك الموضوعى)، والوضع الداخلى (السلوك الشخصى)، والمعنيان Haltung (الحركة والإحساس) متضمنان فى كلمة Verhalten ، أى السلوك.

فيم إذن تختلف وظائف المخ عن وظيفة العقل؟ وظائف المخ هى عمليات غير مرتبطة بالتجربة الشعورية. أما وظيفة العقل فإنها تعمل على مستوى التفسير، وضبط النفس؛ هى كما يشرح دونالد مكاى Donald Mekay (١٩٨٥) مندمجة فى عمليات المخ العرضية حيث لا تنطلق معايير التفسير الذاتى إلا حين تصل عملية مادية بدنية سابقة إلى حد حرج. عند هذا الحد الحرج ليتحول الكم الهيجلى (نسبة إلى هيجل) والذى يقدر ب ١٠[١٢] من الخلايا العصبية المترابطة بغزارة – إلى نوعية جديدة: هى الوعى بالذات.

إن فكرة عدم إمكان تحديد الموقع ليست حديثة، ولو أن ديكارت فى خطاب له لميسونييه Meyssonier بتاريخ ٢٩ يناير ١٦٤٠ (ديكارت ١٩٧٦، ص ٦٢) يقابل «الإنطباعات المخزونة فى الذاكرة «بطيات» تبقى فى الورقة بعد أن تطوى»، وهذه الطيات تبدو حديثة كما لو كانت آثارا متخلفة من الأسس فقط. وفى رأى ديكارت أن الآثار قد تتخذ أوضاعها فى كل أنحاء المخ، وحتى فى أجزاء أخرى من الجسم: «مثال ذلك أن براعة عازف العود ليست فقط فى رأسه، ولكنها موجودة بصفة جزئية فى عضلات يده، وهكذا دواليك»؛ أى أن عقل عازف العود هو سلوك العزف على العود.

وديكارت (١٩٨٥) فى كتابه «التأمل الثانى» Second Mediation الذى نشرعام ١٦٤١ – وبعد أن لاحظ وفكر مليا فى التغيرات المحسوسة التى طرأت على قطعة الشمع وضعت على مقربة من النار، أبدى رأيه قائلا: «الآن، أعرف نفسى، مادامت كل الأسباب التى تساعدنى على إدراك ومعرفة طبيعة الشمع، أو أى حجم آخر مهما كان، تساعد بالأكثر على إظهار طبيعة عقلى».

وما أراد أن يقوله فى الحقيقة هو أن منطق الوصف (وصف ذوبان الشمع) يماثل منطق العقل الذى يصفه، أو بوجه أعم: أن ما نسميه قانون الطبيعة هو بالأحرى قانون طبيعتنا نحن (لأن طبيعتنا هى التى تصفه وتقضى به).

وكان «بيرس» Peirce (١٩٨٤، ص ٢٤١١) - حوالى منتصف القرن التاسع عشر - أكثر صراحة حين قرر تماثل الإنسان والكلمة أو العلامة التى يستخدمها: إنهما متماثلان، تماثل كلمتى Homo وman (الإنسان)، أو «إعرف نفسك!» Nosce te ipsum. إن التفاعلات (أو الإنفلاقات) الحسية الحركية هى «أشياء مدركة بالحواس»، أى تصورات موجودة فى ذواتنا، ومن ثم فالكون نظام من التصورات أو العلامات له صفة ذاتية. هذه التصورات تغدو ذات معنى حين تحول نظم الإنتباه والإثارة فى الجهاز العصبى المركزى نظام العلامات الكونية إلى نظام علامات للتجربة المعاشة.

والعقاقير المنشطة من نمط LSD ، والسيلوسيبين psilocybin ، إذ تزيد من إثارة الجهاز العصبى المركزى، فإنها تقوى معنى كل علامة أو تصور. ومع ذلك، ويغير تأثير العقاقير، فإن نظام الإثارة السمبتاوية فى الجهاز العصبى المركزى يقوى معنى العلامات التى ترمز فقط إلى القيم التى اكتسبت خلال تجارب سابقة للفرد وللجنس البشرى. هذا النظام للقيم المكتسبة خلال نشأة الأفراد وتطورهم هو الذى يتولى استثارة الجهاز المركزى السمبتاوى لأن «يترجم» شكلا معينا من العلاقات إلى نظام آخر من العلامات، إلا وهو سياق المعنى القائم على التجربة. ولنا أن نصنف التجربة ذات المعنى على أنها من فئة الشعور مثلها مثل الضوء والصوت أو الذوق(٢)، والألم، والسرور، والتباين - فتجربة الضوء مثلا، هى إحساس مستحث من الخارج. فإن كان المعنى إحساسا، وجب أن يتبع قانون «فشنر» Fechner : فإن كانت قوة المؤثر تنمو بنسبة هندسية، فإن تجربة المعنى يجب أن تقوى بنسبة حسابية. وبعد أن ناقشنا نظام الرموز فى الإعلام، وترجمتها باستقراء مؤثر ما إلى لغة المعانى (أو الأحاسيس؟) فلعلنا نتساءل عن علاقة العلامات بعلم البيولوجيا العصبية Neurobiology.

---

(٢) الجهاز العصبى المركزى CNS لا يفرق بين الأحاسيس المستحثة من الخارج ومن الداخل، ومن ثم فإن الإثارة (النشاط الشبكى أو الإثارة الانحرافية)، لا تقوى الإحساس بالمعنى فحسب، ولكنها تقوى أيضا سائر أشكال الأحاسيس. هذه هى القضية فى الواقع. مثال ذلك: وجدنا، باستخدام طريقة مصغرة يمكن استنساخها، أنه عند ذروة الإثارة المستحثة بعقار اليسيلوسيبين، ينقص الفرق فى طعم الـ Jnd نقصا ملحوظا، بمعنى أن جزئيات أقل من الكينين، والسكروز، إلخ. لازمة لتذوق مزيد من الطعم - فى حين أن التهدئة (بالعقاقير) تؤدى إلى زيادة فى حجم الـ Jnd ، أى نقص فى حدة الذوق (فيشر وآخرون ١٩٦٥؛ فيشر وكيلبلنج ١٩٦٧؛ فيشر وآخرون ١٩٦٩، فيشر ١٩٧١ ب).

إنشاء المعنى، والدائرة التأويلية

كيف ترتبط العلامات وإمكانيات العمل الناشئة من الأعصاب بعضها ببعض؟ هذه الإمكانيات المنطلقة بمؤثرات هى إشارات كهربية تتلقاها الكترودات (أقطاب). إن نموا «لوغاريتميا» فى شدة المؤثر يعادله بعامة زيادة فى تردد إمكانيات العمل. ومع أن نسب المنبهات المتساوية تنتج نسبا حسّية متساوية، فإن كيفية نسبة الإحساس إلى تردد إمكانيات العمل العصبى تشكل مسألة تجريبية، حتى ولو كان الإحساس، بطريقة ما نتيجة لهذا النشاط (جريجورى Gregory ١٩٨١، ص ٢.٨).

إن تسجيلات إمكانيات العمل فى الأعصاب تبدو كلها متشابهة، سواء كان التنبيه المؤثر فى العصب ناشئا من الضوء، أو درجة الحرارة، أو اللمس، أو الوخز، أو مواد كيمائية.... ولكى نعرف نوع الإحساس الذى يبرزه العصب يتعين علينا أن نعرف السياق، أى موضع العصب فى الجهاز العصبى، و (أو) طبيعة المنبه الذى أطلق الفعل الإنعكاسى. المخ، أى الجهاز العصبى المركزى بوجه عام يصدر إشارات (تسجل على أنها إمكانيات عمل) تصبح ذات معنى بأن «تترجم إلى نظام آخر من العلامات» (بيرس، ١٩٨٤، ٤، ٥٣٦). هذه الترجمة، أى مولد المعنى بإضفاء مفهوم فى شكل مذبذبات تنطلق بفعل الإثارة، إنما هى تفسير تأويلى يعمل فى سياق التفاعل الذى ولده. ولعلنا وصلنا هنا إلى جذور الدائرة التأويلية: فالجهاز العصبى المركزى يُسوِّغ الواقع، أى تفسير تفاعلاته، فى الوقت الذى يُسوِّغ فيه الجهاز العصبى المركزى ذاته من خلال التفسير. فالمخ هو فى فى الواقع العضو الوحيد الذى يتعلم تفسير تفاعلاته على أنها حقيقة، وذلك باختباره إياها.

هذه الخاصية الدائرية ذاتية المرجع هى جوهر «الدائرة التأويلية»، أى أنها انعكاس البرمجة الذاتية، من المخ إلى العقل. إن فهمك نصا ما يعنى أن تنسخه فى أسلوب حياتك (كوربن Corbin ١٩٥٧، ص ٥٨).

لقد ظهرت فكرة الدائرة التأويلية فى القرن الثالث الميلادى عندما نجح أووريجين Origéne فى تفسير «العهد الجديد» على أنه التجسيد الروحى للوجوس Logas (كلمة الله): أى على أنه استمرار وتحقق «للعهد القديم» (لوباك Lubac ١٩٥٩، ص ٣.٥). هذه الطريقة فى تصور علاقة الكل بالجزء فى نظرية التفسير متضمنة فى «الدائرة التأويلية»؛ فالسمات الفردية واضحة ومفهومة تبعا للسياق الإجمالى،

ويغدو السياق الإجمالى مفهوما من خلال السمات الفردية تبعا لإسهامها فى إيضاح معنى الكل (جادامير Gadamer ، ١٩٦٠؛ وايجلتون Eagleton ١٩٨٣ ص ٧٤). وثمة تبرير مسيحى لاهوتى نشأ من هذه المعالجة: فكان فى وسع الكنيسة أن تقرر الطريقة الصحيحة لتفسير الكتاب المقدس - والطريقة الصحيحة أنشأها العرف - إلا أن العرف نفسه قد تمثل فى مجموعة التفسيرات الصحيحة التى أجريت للكتاب المقدس (ايكو Eco ١٩٨٤، ص ١٥٠). وقد نعود إلى ماقبل ذلك بكثير فى بحثنا عن المصادر الأصلية للدائرة التأويلية فنجدها عند: هرقليطس، بارمنيدس، سقراط، أفلاطون، أرسطو، شيشرون، كونتليانس، سلسوس (القانونى)، وفيما بعد عند هيجل، وفيشته، وشلنج. وتبلورت الدائرة التأويلية عند فردريك أست Farderick Ast ، ونمت عند شلايرماخر Sehleiermacher وديلتى Dilthey . واستخلص فرويد معنى من سياق (تفاصيل) الملاحظات على المرضى تحت العلاج، ومد هيدجر Heidegger الطريقة التأويلية إلى المعرفة كلها. فقط يبدو صحيحا أن الدائرة التأويلية، وقد نبعت من علم البيان، وتأثرت بنظرية التفسير، تعود الآن إلى «أرض الميعاد»، الأ وهى علم البيولوجيا العصبية الذى هو مصدرها الأصلى.

حول تكاملية (تتامية) الإثارة والتوقع

الجهاز العصبى المركزى، بمعناه الواسع (الجهاز العصبى المخى الشوكى)، أى المخ، هو شبكة مغلقة تعمل عملا تزامنيا تبعا لاسلوب سلوكى مستقل eigen behaviour ، أى أنه نموذج مترابط من نشاط نسبى يمارس ديناميكيا ممارسة متوافرة لاحد لها(٣). كذلك يلعب التواتر غير المحدود دورا مركزيا فى نظرية الكمبيوتر. مثال ذلك حين يتدخل هذا النوع من الحلقات (فى نقاط محددة) فى دلالات برامج الكمبيوتر (فاريلا Varela ١٩٧٧).

وثمة سمة أساسية للمخ - وكذا العقل الذى يتولد عنه - هى ترابط متغيراته ترابطا متواترا ومتزامنا. هذا الترابط هو الذى يتيح لمجموعة المخ والعقل أن تقاوم

---

(٣) نقصد بكلمة recursion (تواتر) أنه عند نقطة معينة من المعالجة يصير الوسيط هو الرسالة، كما فى المثال الآتى: «فى هذه الجملة ثلاثة وثلاثون حرفا». فكلمة «ثلاثة وثلاثون» تمثل إحدى القيم ذات الدلالتين، التى تعبر عن هوية الجملة، وعما ترمى إليه (فون فورستر ١٩٨١، ص ٢٧٤، ٢٧٨).

الإضطرابات البيئية وتعوض عنها. وفى رأى فون فورستر von Forster (١٩٨١) أن الإدراك الحسى للأشياء ينتج من التكرار المستمر للوظائف المستقلة على مستويات عديدة من النشاط القشرى المركزى، والأشياء ليست سوى شواهد لهذا السلوك الإدراكى المستقل. هذه الشواهد تكمن (ولا تتركز) فى خبرة الشخص الحسية الحركية للتناسق. وحالة النشاط العصبى التى تميز الحدث الحركى، كما فى ظاهرة «التكيف»، تفيد فى تحديد الفعالية الإدراكية للعملية الحسية التى تنتهى إلى ثبات حجم الأشياء المدركة (فاريل، ١٩٧٩). الواقع أن النظام «المخى العقلى» يضطلع بالحفاظ على حالة مستقرة بين الجسم والاضطرابات البيئة. فالثوابت (معدلات إعلامية بلا أبعاد) هى «علامات» لهذه الحالة المستقرة.

والمخ منظم تنظيما تدرجيا، ويمثل ثوابت حسية بكيفية متوازنة. إلا أن هناك فرقا بين القشرة المخية، المعنية بالثوابت، والمخيخ الذى يعالج المتغيرات. مثل هذا التمييز الحاد يتطلب استراتيجيات مختلفة أساسا (بالارد Ballard ١٩٨٦). وأزمنة معالجة الرسائل بواسطة الخلايا العصبية تبلغ سرعتها فقط مائة ضعف أسرع من أزمنة الإستجابة على مستوى العلامات الحسية الحركية المعقدة، وهذا فى ذاته يتضمن أن تؤدى قشرة المخ كمية هائلة من العمليات الموازية والمتزامنة. مثل هذا التوازى الضخم مطلوب للجسم حتى يتسنى له أن يستجيب لإشارات كامنة فى مئات من «الميللى ثانية» (جزء من ألف من الثانية) من عناصر فعالة (نيورونات - خلايا عصبية) تشتغل من مائة هرتز (الهرتز وحدة الذبذبة: ذبذبة واحدة فى الثانية - المترجم) إلى ألف هرتز (لاندى Landy ١٩٨٦).

إلا أن وظيفة قشرة المخ لا تقتصر على معالجة الثوابت، فإنها تمثل أيضا قيما خاصة من البارامترات الثابتة. والتدرجات هى أسلوب فى التنظيم لا غنى عنه فى بنيان مترابط من هذا النوع لكى تعالج على التوالى أكبر عدد ممكن من البارامترات الثابتة. (بالارد ١٩٨٦).

ولنضع الآن فى نطاق السياق المذكور بعالية حجة باورز Powers القوية الواضحة (١٩٧٣): فنحن لا نعرف شيئا عن سلوكنا الشخصى خلاف النتائج ذات الأثر الرجعى لمبادراتنا الشخصية: «السلوك هو التحكم - فيما نشعر - أنه إدراك حسى، أو دخل» «آت من الخارج. ولكن ما هو «الدخل»؟ إن ما يجعل عضلاتنا تقاوم، على سبيل المثال، ليس هو المنبه (الحافز)، ولكنه الفرق بين الأثر الارتجاعى المباشر لمنبه،

وبين المنبه نفسه، فى حين أن السلوك ينزع إلى خفض هذا الفرق إلى لاشىء (باورز ١٩٧٣). وفى مثال جلى (دون Don ١٩٧٦) تستثار الأطراف العصبية بانقباض العضلات أو تأثيرها المباشر على النسيج أو الوتر. وفى الحبل الشوكى، تفرز هذه الإشارات المثيرة وتميز عن إشارات «التوقع» القائمة على أساس الخبرة السابقة، والتى تصدر عن المراكز العليا للجهاز العصبى. وعندئذ فإن الفرق، أى الإشارة الخاطئة تنقل إلى العضلة. ومن ثم فإن انعدام الخطأ يقتضى أن الإثارة التى يحدثها اضطراب بيئى، أى المرور الواقعى لحركة عضلية بتوافق مع المرور «المتوقع»، ومن ثم المفضل.

ولنترجم كل هذا إلى لغة علم النفس، فثمة عمليات تجرى فى العقل الباطن، ترتب الأولوية للدوافع الحسية، وتدفع إلى العمليات الواعية، ولا تعاين من المعطيات المحسوسة إلا تلك التى تنتمى إلى سلوك مفهوم ومتوقع. أما المعرفة (أو التعرف) فإنها تشكل عملية فحص هذه المجموعة المحدودة من المعطيات الحسية، وتجربة نتائجها السلوكية (وول Wall ١٩٧٤). وعلى ذلك فإن كل المعطيات غير المتاحة للفحص الشعورى سوف «تكبت»، أو تنكر، أو لا تدرك بالحس. والمدركات الحسية التى تصير مقبولة هى فقط التى يكون بشأنها «عمل متوقع» فى ذخيرة الجسم التفسيرية المناسبة التى تستوفى شروط الاختبار. ومع ذلك فإن انغلاق الدائرة الحسية الحركية لا يعتبر بمثابة شرط مسبق لإدراك الأشياء، فالإدراك يتضمنه هذا الإنغلاق.

ترى ماذا يحدث للمدركات الحسية التى لا يوجد بشأنها أى «توقع» فى الذخيرة التفسيرية؟ هناك «انفصال» مؤقت لوظيفة العقل (الإدراك والسلوك) من وظيفة المخ التى تقاس «بالاستعداد الكامن» - أو بعبارة ليبيت Libet (١٩٨١): «هناك تأخر واقعى مقداره ٥٠٠ مللى ثانية قبل أن تستنبط الأنشطة المخية التى يستسهلها منبه حسى أية تجربة شعورية ناتجة». والتوقيت الشخصى للتجربة يردها إلى زمن سابق، بلا تأخير. ولم يزل القصد الواعى يسبق العمل الحركى السلوكى بحوالى ٢٠٠ مللى ثانية (ليبيت ١٩٨٥)، ومن ثم فهناك وقت كاف للردع المضلل (ونسون Win-son ١٩٨٤، ص ٢٣٤).

يبدو خداع الذات بمثابة جزء لا يتجزأ من تحكمنا السلوكى فى الإدراك، أى ما نبذله من جهد لكى يتوافق العالم مع قدراتنا. وبهذا المعنى أثبت صراع الذات أنه

يفيد فى إطالة فرص حياتنا(٤). إننا باختيارنا «منغلقون فى وجه الإعلام»، أى أننا متفتحون للطاقة، ولكننا منغلقون حيال بعض الإسهامات الإعلامية الخارجية (أشبى Ashby ، ١٩٥٦)، (وكلمة «الاختيار» من عندى). ترى ما هو المعنى العلمى لعبارة «مغلق بالاختيار»؟ إنها تشير إلى عمليات الاختيار (الإنتقاء) القائمة على مبادىء الجهاز العصبى المركزى الوظيفية الخاصة بتطور الفرد، ومشاعره، وتساعد على إجراء تحديد مناسب لما يعتبر بمثابة «دخل المعلومات». وعلى وجه التخصيص فإن دخل أجهزة الإستقبال الحسية السطحية ينخفض من ٩١٠ لقم (جمع لقمة Bits إلى ١ - ٥. لقمة فى الثانية فى عملية الوعى المركزى (كوجلر Kugler ، ١٩٨١). هل هذا الكبت السيبرنى (نسبة إلى السيبرنتيكا - «علم التحكم الاوتوماتى» - المترجم) منفصل (ولكنه مساو) عن الكبت الفرويدى (نسبة إلى فرويد)، أو أنه ليس إلا جزءا من الدفع إلى اللاشعور ؟

إن كلمة unconscious (لا واع) كانت فى البداية صفة، ولكنها استقلت فيما بعد فصارت اسما (اللاوعى، اللاشعور). اللاواعى، عند فرويد، بدائى، ومتوحش، وصبيانى (ارتدادى)، ومتهلف، وهو أيضا متعدد الصفات من الناحية الجنسية. يذكر تايلور Taylor (١٩٦٦) أيضا أنه كلما كان العقل بالأكثر سويا، كان أى من «ما تحت الشعور» (العقل الباطن)، أو الوعى (الشعور) وحدة أقل انفصالا؛ وكلما كان «العقل الباطن» قريب المنال من الوعى كان العقل كله متكاملا، ومكملا، فهو قادر على الإبداع. وقد أجرى ليفى شتراوس Levi-Strauss (١٩٥٨، ص ٢٢٤-٥) تفرقة بين «اللاشعور» unconscious، و«ما تحت الشعور» (العقل الباطن) subconscious ، وهى تفرقة لم يكن لها وجود قبل الأربعينات. فالعقل الباطن يعزى إلى الذكريات التى تحتجز، وهى ليست متاحة دائما. أما «اللاوعى» (اللاشعور) فإنه غريب عن الصور التى تمر أمامه غرابة المعدة بالنسبة للطعام الذى يمر

---

(٤) خداع الذات لا يقتصر على «الذوات» و «المعطيات» التى تشكل «النسيج الادراكى الحسى، والمعرفة فى الحياة اليومية» (شراج Schrag ،١٩٨). إن كتابة قصة خيالية تتطلب أيضا من كاتبها جهدا فى الكبت قبل أن تظهر القصة إلى الوجود. إن كلا من النص الخاص بالحياة اليومية الجارية، ونص القصص الخيالى يعكس العلاقة التماثلية بين تكوين عقل القاص، وبين روح القصة. وإبداع كل من نوعى النصوص يتطلب ممارسة خداع الذات بالكبت، وانكار الذات، والإدراك الخاطىء. وما يقوله كلا النوعين من النصوص يستند إلى ما يتعين على المؤلف أن يتكتمه، حتى يبدى ما يقوله (أو يراه).

بها. يمكن القول إذن بأن «العقل الباطن» هو بمثابة قاموس شخصى بمفردات لغوية متراكمة، إلا أن هذه المفردات لا تكتسب معناها إلا حينما يخضعها اللاشعور لقوانينه، فيصنع منها كلاما (ولدن Wilden ، ١٩٦٨). ومن ثم فاللاشعور فى رأى «لاكان» Lacan (١٩٧٧) له بنية اللغة.

ويبدو أنه من المسلم به أن النشاط العصبى اللاشعورى يعمل دواما أثناء الحركة (إنك لا تنظر إلى خطواتك وأنت تنزل السلم راكضا!). أما الشئ غير المعروف تماما فهو أن غالبية التفاعلات العصبية هى عمليات لا شعورية (دوتى Doty ١٩٦٩)، كنشاط المخيخ، والتفريغ العصبى أثناء القسم الأكبر من النوم ليلا، والإفراز الهرمونى، وكذا شكل خادع من التحكم البصرى الحركى، إلا وهو التكيف المضاد للتشوهات البصرية المستحثة.

الإدراكات على أنها أحاسيس مفسرة.

الدائرة التأويلية للتفسير الذاتى

> .... ليس هناك ما هو «أكثر إمتاعا، أو أكثر تثقيفا من أن نقارن الخبرة بالتوقعات، أو نسجل من وقت لآخر الفرق بين الفكرة والواقع. وبهذا النوع من الملاحظة نصير يوما بعد يوم أقل تعرضا لخيبة الأمل» (دكتور جونسون Dr. (Johnson

الآن نكرس بعض الوقت والحيز لظاهرة «التكيف المضاد» counteradaptation لأنها تمهد السبيل لشرح واضح للفرق بين وظيفة مخية (تفضى إلى صورة بصرية مشوهة على مستوى الشبكية تحت القشرية) وبين وظيفة عقلية على مستوى القشرة المخية البصرية، تتضمن أثرا رجعيا لحركات الرأس والأطراف، وبذلك تصحح تشوهات الشبكية تبعا للتوقعات (أو النوايا!) المبنية على الخبرة السابقة. والتكيف المضاد يوضح أيضا التعادل التكاملى بين الإثارة والتوقع فى أسلوب هام من الإدراك الحسى، ألا وهى الرؤية، التى تعتمد على شبكة عصبية أوسع مما تعتمد عليها الحواس الأخرى. وأخيرا فإن التكيف المضاد يثبت نظريتنا بأن العقل هو السلوك، وهو فى هذا الخصوص السلوك المصحح ويعزز تعريف الإدراك الحسى الذى قدمه «فريمان» Freeman (١٩٨١، ص ٥٧٨) على أنه: «تكامل الانطباعات الحسية... تبعا للتوقع.. وللعمل المرتقب».

إن التحكم السلوكي في الإدراك الحسى، أى تكاملية دور «الإثارة» (معنى ذلك حدوث اضطراب فى البيئة)، و«التوقع» (الفهم المسبق التأويلى) يمكن إيضاحهما بسهولة مع أشخاص معرضين لصور للعالم مشوهة بصريا (انظر مثلا دولزال Dole-sal، ١٩٨٢). كيف يتسنى لإنسان أن يقاوم التشوهات البيئية ويعوض عنها ؟ بعبارة أخرى هل يهبط الفرق بين الإثارة والتوقع إلى الصفر ؟

من المعروف أن ارتداء نظارة بعدسات مشوهة يترتب عليه تشوهات بصرية تختفى بالتدريج - أى أن التشوهات تكبت ويعاد التفكير فيها (على مستوى القشرة المخية البصرية) وبعد وقت قليل يرى الشخص العالم «كما ينبغى أن يكون» تبعا لتوقعاته التى توجهها أهدافه (القائمة على أساس التجربة السابقة)، وعلى الرغم من صورة العالم المشوهة الثابتة على الشبكية (تحت القشرية)، (ستراتون Stratton ١٨٩٧؛ كوهلر Kohler ١٩٦٤؛ فيشر Fischer ١٩٦٩، هيل Hell وفيشر ١٩٧٠؛ فيشر وهيل ١٩٧١).

وقد تصور «إعادة التفكير» أو «التكييف المضاد» تبعا لتوقعات المرء على أنها تنسيق جديد لحركات الرأس والأطراف تبعا لهدف معين. أن تكون المعلومات المتواترة بشأن الإيماءة المنفذة مترابطة منهاجيا مع «الحركة» (ميكائيلس Mikaelis؛ ومالاتستا Malatesta ١٩٧٤). والتكييف المضاد فضلا عن ذلك لا يحدث إلا إذا كان الشخص ينقل بالفعل وهو مرتد العدسات المشوهة (هيلد Held ١٩٦٥). أما الأشخاص السلبيون فإنهم لا يكيفون تكييفا مضادا. ولكى يثبت «هيلد» هذه النقطة، خطط تجربة لشخصين، أحدهما يتنقل فى مخبر كيفما يشاء، بينما يتنقل الأخر جالسا على كرسى بعجل. وفى تعديل لاحق للخطة، كان على الشخص الإيجابى أن يدفع الكرسى الذى يجلس عليه الشخص السلبى. وعلى هذا النحو؛ كان الشخص الإيجابى هو القادر على القيام بتكييف مضاد، فيرى المخبر رؤية غير مشوهة (جانرود Jennerod ١٩٨٥؛ ص ١٣٧). وبالطبع لا يمكن حصر ظاهرة التكيف المضاد فى أى من النظم الحسية أو الحركية المقابلة، فهى ملازمة للحلقة الحسية الحركية.

والصورة المسجلة على الشكبية تحت القشرية تعتبر عادة بمثابة نسخة تصويرية مطبوعة بفعل تشويشات الوسط البيئى، فالصورة على الشبكية محددة بتقوس العدسات، وقوانين إنكسار الأشعة، عندئذ تتولى القشرة البصرية مهمتها، وتندمج

«التوقعات» المبنية على الخبرة السابقة مع المعلومات المنقولة من حركات الرأس والأطراف، وينتج التكيف المضاد بمثابة عملية تحويلية تنسيقية. والآن قد يهبط الفرق بين الإثارة والتوقع إلى درجة الصفر.

والتحولات المتناسقة فى رأى بليونيز Pellionisz (١٩٨٦) تماثل التحولات الحسية الحركية التى تنتشر خلال الشبكات العصبية فى مساحة موجهة متعددة الأبعاد. وتعتبر شبكة الخلايا العصبية، من حلقات وانعكاسات بمثابة «موتّرات» ten-sors؛ والمعلومات الحسية تتحلل إلى متغيرات متماثلة الاتجاه covariant، فى حين أن التنفيذ الحركى يتكون من متغيرات فى اتجاهات مضادة contravariant. والتنسيق هو تحول هندسى فى الاتجاه الحركى من تعبير متماثل الاتجاه إلى تعبير مضاد الاتجاه. فالأول يصور العزم. والثانى يتيح التنفيذ. والخطة هى توحيد فكرة التوقع الوقتى لتايلور، وفكرة وظيفة المخيخ باعتبارها موترا متريا metric ten-sor.

فالمتغيرات المتماثلة الموزعة في الزمان والمكان تعمم أولا بنوع من التوقع، ثم تحول بواسطة «الموتر المترى» فى الزمان والمكان (بليونيز، وليناس ١٩٧٩، ١٩٨٠.). هذى عملية قشرية جديدة، إنها إعادة بناء هندسى يؤديها الفكر الذى يصل من يلاحظ بساحة تخلقها.

وإعادة التفكير هذه – وهى عملية تعلم لا شعورى، كما يقول كوهلر (١٩٦٤) – يمكن اعتبارها بمثابة محاولة إخضاع العالم المرئى («كما كان دائما، ومن ثم كما يجب أن يكون») لأن يتكف مع متطلبات جسم تواجهه مهمة ربط طرفى السلسلة الحسية الحركية فى عالم مضطرب. وبتحويل مجموعة الإثارات إلى مجموعة توقعات، ينخفض الفرق بين المجموعتين إلى الصفر، وتستقر حالة ثابتة بين الجسم وبين الاضطراب البيئى. كوهلر، على سبيل المثال استطاع أن يستعمل بلطة وفأس فى ارتقائه جبل فى منطقة انسبروك Innsbruck، وهو يلبس عوينات بعدسات محرفة. ودولزال Dolezal (١٩٨٢، ص ٢٩٧) كان عليه أن يرتدى خوذة لاعب كرة قدم أمريكى وزنها ثمانية أرطال لكى تثبت عويناته التى تتيح له (بصفة مستمرة لمدة ١٥ يوما) أوسع مجال للرؤية فى مدينة جبلية شاطئية يونانية. وبعد انقضاء ١٥ يوما خلع عويناته المحرفة، ففوجئ إذ رأى العالم متغير الشكل، بالصورة التى كانت العوينات تسلطها على الشبكية (البصيرة !). هذه المجموعة الأخيرة من التعويض

بإفراط، والتى تحتوى على عالم زالت صورته، راحت تتراخى. وبعد بضع ساعات قضاها (دولزال) يتجول، عادت الحالة الثابتة المألوفة بينه وبين عالمه إلى الاستقرار، واستمر يرى العالم كما كان، وكما هو الآن فى الواقع.

إن عادة تشكيل العالم عدلت العدسة صورته، على القشرة البصرية، والتى تستمر على الشبكية تحت القشرية، هى مثال للاكتساب الحسى الحركى السريع المستمر، وبخاصة «اللاواعى»، وناتجة عن خبرة حركية، أو بالأحرى خبرة تحرك، وهى ذكرى تعلم الطفل الحسى الحركى الأكثر بطئا.

والخط الفاصل بين ما هو متاح للإدراك وما هو غير متاح له، قريب الشبه بالفرق بين معرفة أن شيئا ما يحدث ومعرفة كيف يمكن عمل هذا الشئ (رايل Ryle ١٩٤٩). ويعتمد كل تعلم على عمليات لا شعورية، إلا أن هذه التبعية أكثر وضوحا فى تعلم كيفية عمل الأشياء. فتسلق الجبال مع ليس عوينات بعدسات محرفة مهارة تشبه التدرب على ارتجال ألحان متتابعات هارمونية. وثمة أوجه ارتجال تنتمى إلى المعرفة الواعية. إلا أن معظم المهارة تكتسب من خلال التدرب على الارتجال بلاوعى وليس هناك وقت كاف لصنع قرارات واعية لكل نغمة. ويلاحظ جونسون - ليرد Johnson-Laird أن سحر الارتجال هو فى دهشة الموسيقيين مما يعرفونه. والواضح أن ما يجرى هو عملية سريعة جدا لا يتاح للمؤدى أن يدركها بوضوح. وتبعا لحسابات جونسون - ليرد الفرضية، فإن أية محاولة لاستخدام الاستبطان لإدراك شئ يجرى عادة فى مجال اللاشعور مصيرها الفشل. والمعلومة لا تبقى فحسب صعبة المنال، ولكن عملية متوازية فى جوهرها يتعين إدراكها بسلسلة من المداولات يجربها الشخص المعنى؛ والنتيجة تشوه الطبيعة الجوهرية للعملية. إننا نتصور الحديث على أنه متتابعة من الأصوات المنطوية معا كالخرزات المنظومة فى خيط، إلا أنه لا توجد خيوط متصلة ببعضها بعضا. ونحن نعتبر المقولات والمعانى بمثابة عبارات ثابتة لا تتغير، معرَّفة بشروط ضرورية وكافية، ونعتبر الاستدلالات خاضعة لقواعد المنطق العقلية. إلا أن بنية الأفكار التى تعتمد عليها المعرفة ليست مجالا متفتحا للمدارك.

التكييف المضاد، والإدراك الحسى

أثناء الإثارة العصبية السمبتاوية

علينا أن نؤكد أن التنسيق الحسى الحركى (إغلاقا، أو تكاملا) شرط ضرورى

لخلق موضوعات إدراكية سواء كانت «شواهد» واقعية، أو موضوعات «تخيلية» قائمة على سلوك مرتقب. على أنه من التعسف فصل «التفهم» عن «الإدراك الحسى». فعوامل التفهم (المعرفة) لها على الأقل أهمية فى الحفاظ على استقرار العالم، كما تشهد بذلك المعلومات التى جمعها فيترايخ Wittreich والتى تثبت أن تشوها لصورة إنسان بفعل عدسات نظارة، يقاومه الرائى إلى حد ما تبعا لدرجة ألفته بصورة الشخص المرئى - أو بعباراتنا، بالفهم المسبق التأويلى (فيترايخ، ورادكليف، ١٩٥٥، فيترايخ ١٩٦١). وبنوع أخص فإن تحريفا أقل، ومزيدا من السلوك التكيفى المضاد كان يثبت وجوده دائما عند زوجين أكثر منه عند أشخاص غرباء، وأقل فى صورة مبتورة، عنه فى صورة سوية. وثبت عند المجندين فى البحرية وجود انحراف أقل عند الأشخاص ذوى الرتب منها عند من لا رتب لهم. ويصف الأولاد قدرا أقل من الانحراف عند أحد الوالدين منه عند شخص غريب، وبخاصة كلما كان الطفل أصغر سنا كانت قدرته على التكيف المضاد للانحراف أضعف؛ وهذى ملاحظة تؤكد الصفة التدرجية فى طبيعة اكتساب الثوابت المعرفة عن طريق الإدراك الحسى. وحتى الأحاسيس الوهمية، وهى ظواهر من نوع التكيف المضاد (فيشر ١٩٦) فإنها لا تتجلى إذا أجرى البتر قبل أن يبلغ الطفل سنته الرابعة (سيميل Simmel ١٩٦٢).

والسلوك التكيفى المضاد هو من قبيل المهارة التى يكتسبها الطفل أثناء نموه من خلال انغلاق الحلقات الحسية الحركية، بلمس الأشياء والاتجاه نحوها، أو الابتعاد عنها، أو الاصطدام بها. وتبلغ المهارة التكيفية المضادة أقصى نمو لها حين يغدو المراهق أخيرا قادرا على التمييز بين الأشياء فى العالم الخارجى وبين ذاته. وقبل أن يبلغ الطفل هذه المرحلة يعيش فى حالة نكوص تتميز بما وصفه فرويد بأنه عملية تفكير أولية، وحالة مادية ملموسة، وتداعى المعانى بحرية، ونبضات بدائية.

وحينما ترتفع مستويات اليقظة السوية (مقترنة بروتين الحياة اليومية، وتتميز بالفكر العقلانى بالدرجة الثانية) ترتفع إلى أفق الإدراك الهذيانى المستمر، أو حين تنخفض إلى أفق الإدراك التأملى المستمر (فيشر ١٩٧١)، تصبح عملية الفكر الأولى هي السائدة. والنكوص فى هذه الحالات، حالات الشعور غير العادية، ذات الإثارة المفرطة، والهابطة يمكن قياسه بتحديد العملية الأولى الخاصة بمحتوى الفكر، والقدرة على التكييف المضاد. ولقد قسنا «البارمترين» بإحداث إثارة مركزية عند متطوعين باستخدام عقاقير تبعث على الهلوسة، من نوع الـ LSD ، والبسيلوسيبين psilocybin .

وباستخدام «قاموس المجازات الارتدادية» Regressive Imagery Dictionary ، ومع خطة تصنيف وتحليل المضمون، مزودة ببرنامج كمبيوتر باسم COUNT (مارتيندال Martindale ١٩٧٣) تسنى لنا، أنا ومارتيندال (١٩٧٧) أن نثبت أن انتباها مستحثا بجرعة قدرها ٨. - ٢.. N8/kg من البسيلوسيبين تزيد زيادة محسوسة من «العملية الأولى للتفكير والقولبية» (القولبية تكرير آلي لحركة معينة أو لكلام معين - المترجم) فى نصوص كتبت فى ذروة التجربة الهذيانية (الباعثة على الهذيان، أو الهلوسة - المترجم). تبين كذلك أن نمط الزيادة فى مضمون العملية الأولية متماثل فى الشكل مع نظيره فى القصص الأدبية (مارتيندال ١٩٧٥) التى تصف الرحلة إلى الجحيم والعودة منها، أو إلى غابات خرافية مماثلة (الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية»، والكتاب السادس من «الانيادة»: كتاب الموتى «التيبتى»). هذا التماثل فى الشكل قد يحمل على الظن بأن مثل هذه الأقاصيص ربما تكون أوصافا رمزية لحالات شعورية غير عادية مستثارة بعقاقير هلوسة مثل البسيلوسيبين.

فى الوسع أيضا إثبات الزيادة التدريجية فى «القولبية» المستحثة بقياس بارامتر آخر فى نصوص كتبها بعض الأشخاص المتطوعين، ألا وهو النسبة بين التناسق والخضوع؛ وارتفاع هذه النسبة دليل على زيادة التبسيط فى التركيب النحوى (فيشر، ولاندون ١٩٧٢) بل إنا لنجد أيضا علاقة بين درجة التبسيط فى بناء الجملة، وهى خاصية فى النصوص المكتوبة فى فترات متزايدة من الإثارة. فضلا عن ذلك فإن التوجيه «السيمى» (نسبة إلى «السيمية» وهى دلالات الألفاظ - المترجم) يصير أكثر واقعية، ويتعدل التكوين البيانى، ويصير الانحراف القياسى فى القيم العددية للبارامترات أصغر.

يمكن تفسير «القولبية» المتزايدة بأنها نقص تدريجى فى حرية التثبت - خلال أفعال حركية إرادية - من الأحاسيس القوية لحالة الهلوسة الارتدادية (نسبة حسية حركية مرتفعة!). كذلك فإن «القولبية» الزائدة تشير إلى نقص تدريجى فى القدرة على التفسير القشرى (تبعا للتوقعات المبنية على خبرة سابقة) للإثارة تحت القشرية. وهناك بنوع خاص مستويات للإثارة المركزية السبمتاوية يمكن تفسيرها بأنها خلاقة (فنية، أو عملية، أو دينية)، أو ذهانية، أو خبرات وجدانية (فيشر ١٩٧١ ا). ولا أهمية فى هذا الشأن لكون هذه الحالات مستحثة بفعل العقار المخدر، أو ليست كذلك.

والواقع أنه حين أخضع التحليل اللغوى مقاطع نموذجية من كتاب «أوراق العشب» Leaves of Grass لوالت هويتمان Walt Whitman فى غضون ما نسميه فى الوقت الحاضر «ذروة الخبرات» - وهى نصوص كتبت تحت تأثير عقار البسيلوسيبين، وقورنت النصوص بعضها ببعض، لم يمكن العثور على أى فرق جوهرى بين لغة الأداء الخلاق، ولغة الخبرة الخلاقة (لاندون، وفيشر، ١٩٧٠).

ولقد قيست القدرة على التكيف المضاد أثناد التنبيه المستحث بفعل العقار، وذلك بإنتاج مؤثر بصرى انحرافى بمعدل ثابت قدره خمسة ديوبترات diopters فى الثانية (الديوبتر؛ وحدة قياس قوة العدسة، المترجم). وتيسر أداء هذا العمل باستخدام جهاز مزود بزوج متزامن من منشورات منشطة بحركة دوران مضادة (فيشر، وهل ١٩٧١). ومن خلال هذه المنشورات كان أشخاص يواجهون (وهم ثابتون) خطا أفقيا أسود على خلفية بيضاء شديدة التباين. واختبر خمسة عشر طالبا متطوعا تحت تأثير ١٦٠ N8/kg بسيلوسيبين (u°8= ميكروجرام : جزء من مليون من الجرام؛ k°8 = كيلو جرام، المترجم) فى فترات من ٦٠ دقيقة بعد إعطاء العقار. وقدر متوسط قيمة الديوبترات فى الأزمنة من ستة T^4, T^3, T^2, T^1, تقديرات. وأبانت التجارب هبوطا كبيرا مستحثا بالتنبيه عند عتبة الانحراف الفضائى، إى أن الإثارة المستحثة بالعقار تتدخل مع التكيف المضاد للانحرافات البصرية المستحثة. وتطلب الأمر أربعة ديوبترات خلال الحالة الطبيعية لروتين الحياة اليومى حتى ينثنى الخط الأسود الأفقى؛ أما عند ذروة مفعول العقار T^5, فيكفى ديوبتران لإحداث الأثر نفسه، أى خفض «عتبة الانحراف الفضائى» وبعبارة أخرى، فإنه فى النقطة التى يبلغ فيها العقار تأثيره الأقصى، يسجل ديوبتران التوقعات المنقوصة. وفى هذه النقطة يهبط الفرق بين التفسير القشرى البصرى، والإثارة تحت القشرية (الشبكية) إلى درجة الصفر، ويبدو الخط مثنيا «كما هو» (الواقع أقوى من الخيال!). ومع ذلك ففى الحالة الطبيعية الروتين اليومى، فإن توقع استمرار استقامة الخط (التكيف المضاد) قوى جدا (الخيال أقوى من الواقع) لدرجة أنه يلزم أربعة ديوبترات من الإنحراف لإيقاف الوظيفة القشرية البصرية المتوقعة، أى إيقاف الاستقامة الهذيانية (غير الموجودة) لدى الشخص.

وملاحظة أن التكيف المضاد للانحرافات البصرية بفعل العقار المثير للهلوسة ليس مثالا منفردا، فالأحاسيس الوهمية بعد البتر - أى تشوهات صورة جسم الإنسان -

تقل أيضا وتخف (أى أن العضو المبتور يرى ويحس به كما هو) تحت تأثير عقار هلوسة آخر LSD (كوروموارو Kuromoru ١٩٦٢).

وفى الحالة المرتدة للإثارة الهذيانية بفعل العقار (حالة حلم اليقظة الذى يقابل درجة مرتفعة من الحساسية الحركية) تختبر الحقيقة المشوهة «كما هى»: فالخط يرى كأنه منحن، والعضو المبتور، «مفقود». ومع ذلك فالحالة الطبيعية لروتين الحياة اليومية يتضح أنها ليست إلا حالة من الهلوسة ترضى ما نتوقعه: فالخطوط تستقيم (ولو أنها فى الواقع منحنية، والأطراف المبتورة تبدو فى الشعور كما لو كانت سليمة (ولو أنها أحاسيس وهمية).

عن أنواع من الخبرات التكيفية المضادة :

الصلاة، العلاج البديل، الطب النفسى

تتوقف الحالة الطبيعية للتوقعات الكبيرة، والغايات المقصودة، والروتين اليومى لما هو «مدرك، ومعترف به» على التفسيرات الصحيحة لما «هو موجود». ومع ذلك فإن اكتساب ذخيرة تفسيرية لها معنى ليس شيئا موهوبا، ولكنه عملية متطورة تستغرق سنوات من التجربة.

وحينما تجرى تجربة عملية لأشخاص ولدوا عميانا فيبصرون، فإنهم لا يتعرفون على أشياء ألفوها باللمس. وظهرت أول ملحوظة من هذا القبيل فى عام ١٧٢٨ فى كتاب «عملية فلسفية» لوليم ر. شيسلدن William R. Chesseden (ديفيز Davis، ١٩٦٠)، وهو جراح مشهور أجرى عملية لولد عمره ١٣ - ١٤ سنة. وفى هذا التقرير، أخفق الولد فى التعرف بالنظر على قطته التى كان يعرفها باللمس قبل أن تجرى له العملية. وعندما أمسكها بيديه قال «وهكذا أيتها القطة، سوف أتعرف عليك مرة أخرى». أما «سندن» Senden (١٩٦٠) الذى جمع عددا كبيرا من الملاحظات من هذا النوع، فإنه استنتج أن الإدراك البصرى للأشياء فى الفضاء عملية بطيئة تكتسب بالتدريج، وتتم فى فترة زمنية طويلة. وبعد أن تنقضى أسابيع وأشهر

كثيرة منذ أن يبدأ الشخص الإبصار يستطيع بجهد كبير أن يميز بين الأشكال البسيطة، كالمثلث، والمربع (يونج Young ١٩٥١)؛ وقد تمضى سنة أو أكثر قبل أن يستطيع التفرقة بين إنسان وشجرة.

ومن البديهى أن القدرة على الإدارك بالرؤية هى نتيجة تعلم بطئ ينتهى بالمعرفة الإدراكية الحسية: ذخيرة تفسيرية من التوقعات - تفهم تأويلى - ذات أهمية جوهرية لتفسير الأحاسيس البصرية، والتكييف المضاد للتشوهات البصرية. والسمة الظاهرية التناقض فى الإدارك الحسى هى خاصيته التأويلية والدائرية، فلا بد أن يكون للمرء توقعات محددة (قائمة على خبرة سابقة) حتى يتأتى له أن يدرك بالحس اضطرابا مثيرا؛ ولكن عليه فى الوقت نفسه أن يدرك فعلا بحواسه حتى يجمع ذخيرة من التوقعات (الضرورية للإدراك).

وكما يقول كريش Krech (١٩٣٢): «الأرانب تختبر الفروض»، «الأرانب تشم ما تتوقعه، لا ما تتنشقه»، «لابد أن تتعلم الأرانب أن تتوقع قبل أن تستطيع أن تدرك» إلخ (عن فريمان Freeman ١٩٨١). إن الفجوة بين الأحاسيس غير المفسرة، وبين الإدراكات الحسية ملأى بالشك والتوقعات.

من المفارقات أنه ينبغى للمرء أن يشك فى وجود ظاهرة ما قبل أن يسعه أن يدركها... وفى الوقت نفسه يجب أن يدركها بحسه قبل أن يشك فى وجودها" هذا ما يبديه نورويتش Norwich (١٩٨٣) وهو يعمم مبدأ اللاتحدد عند هايزنبرج Hei-senberg، ويمده من مستوى الجسيمات البالغة الصغر إلى كل مستويات الخبرة الإدراكية الحسية. والوعى، فى رأى نورويتش غير ممكن من غير الإلتباس، ومن ثم لا يستطيع المرء أن يدرك حدثا نتيجته مؤكدة (وهذى هى ظاهرة التكيف).

إن مبدأ عدم اليقين (اللاتحدد) فى الإدراك الحسى، أو العلاقة التكاملية بين التوقع والإثارة (التقديم) هو أيضا فى أصل خبراتنا المفاهمية (فيشر ١٩٨٥). فمعنى «أجزاء» من نص ما، على سبيل المثال، أى معنى الكلمات والجمل، لا يمكن تفسيره إلا إذا عرفنا معنى النص كله عن طريق فهم أجزائه. إن ما تحصل عليه من جملة، أو من فكرة، أو من نص يعتمد بقدر كبير على ما تدخله فيها أولا من ذخيرتك التفسيرية. هذه الذخيرة تسمى عادة «التوقعات» expectations ، وتشير إلى الفهم السابق القائم على خبرة سابقة.

ويكشف الوضع الضمنى المتناقض فى أسلوبنا الإدراكى الحسى والمفاهيمى للمعرفة عن نظام تحكمى بيولوجى عصبى، أى دائرة تأويلية: فالسمات الفردية للعالم تصبح مفهومة بعبارات السياق كله، فى حين أن السياق بأجمعه يصبح مفهوما من خلال السمات الفردية. هذه العلاقة الدائرية والتكاملية نفسها تضىء طبيعة العلاقة المتبادلة بين المخ والعقل: فالسمات الفردية لوظائف المخ تصير مفهومة من خلال العقل... فى حين أن العقل يصير مفهوما من خلال الوظائف الفردية للمخ. وبنوع خاص فإن تداخلا متبادلا (بين وظائف المخ ووظائف العقل) يجعل التكاملية متزامنة ومتعاقبة بتواتر فى آن واحد. وقد اقتبس المفهوم السيبرناتى، وعبارة «التكاملية المتواترة» من كاليى، وسيوادا Caley and Sewada (١٩٨٦) لتدل على انبثاق عمليات المخ والعقل واندماجها معا ورسوخها. وباستخدامنا عبارات كاليى وسبوادا، وتطبيقنا فكرتهما تقرر أن تزامن مظاهر التكاملية المتواترة وتعاقبها ينبثقان فى المخ والعقل من التفاعلات الجارية بين عمليات التغذية الإرتجاعية feed back السلبية، وعمليات التقنية الإرتجاعية الإيجابية بظواهر زمانية ومكانية متداخلة فى بعضها بعضا، حيث يختص المخ بالبعد المكانى والعقل بالبعد الزمانى.

وقد يحمل مثل هذا التأويل، أو التفسير الدائرى فى ذاته مشروعيته، وقد يخلق فى الواقع «التفسير المشترك» الذى يرمى إلى شرحه، حتى ليصعب أحيانا التفرقة بين التفسير وبين الشىء المطلوب تفسيره. ومن ثم فإن العلاقة الدائرية بين الأجزاء وبين الكل، والحلقة المرتدة من «الاستجابة للمؤثر» (فى نظام تحكمى سيبرناتى)، والعلاقة التكاملية بين «الإثارة» و «التوقع» قد لاتكون سوى محاولات تشير بالتناوب - فى نطاق كل زوج منهما - إلى تفسيرات، وإلى تعريف الظواهر المطلوب تفسيرها. ومع ذلك فالواقع أن كل زوج يحيل إلى سلوك عملى. فالعلاقة التكاملية بين الإثارة والتوقع، على سبيل المثال، هى علاقة عملية، لا على المستوى الإدراكى الحسى العصبى فحسب، كما فى التكييف المضاد، ولكن يمكن أيضا بسهولة اختبارها فى المجال السلوكى بقوة الصلاة. فالإيمان الدينى القوى، والمواظبة على الصلاة بنوع خاص قد يغيران من حدة موقف خطير. و «التوقعات» القائمة على إيمان دينى قوى يمكن أن تخفف من، أو حتى تكبح آثار التوتر البالغ، أى الشدة، عملية التنشيط الكظرى القشرى والنخاعى، وتضعف الإثارة، أى الاستجابات السطحية للعصارة «النورادينالية» (بنسون Benson ١٩٨٣).

ترى هل قوة الصلاة وحدها، وفضلا عن ولكن أيضا الطب النفسى، والعقاقير

المهدئة، ليست إلا أنواعا من التكييف المضاد؟ بالتأكيد. ولماذا يكون الطب النفسى مؤثرا كتأثير العلاج بالعقاقير المهدئة؟ لجيروم فرانك Jerome Frank (١٩٨٣) إجابة واضحة ودقيقة: «والعقار المهدىء بالنسبة لكثير من المرضى، يجمع تقريبا كل المقومات الضرورية، وربما الكافية لكثير من التأثيرات النافعة لكل أشكال الطب النفسى».

والمقومات الفردية، وربما الكافية، كالايمان، والأمل، والثقة، والاحترام، وما إلى ذلك... تنتمى إلى فئة «السلوك المتوقع» (القائم على تجربة سابقة)، أى أنها شكل من «المعرفة الموجودة من قبل» كما فى «مينون» Menon لأفلاطون. وباختصار الفهم المسبق التأويلى الضرورى للتفسير الذاتى. السلوك المتوقع هو وظيفة عقلية يمكن أن تعيد توجيه بعض وظائف المخ. وفى مقدور العقل، من خلال أنواع السلوك التكييفى المضاد أن يهيمن على المخ، أى أن القشرة الجديدة neo cortex - كما فى نموذج بول ماكلين Paul Mclean المعروف «المخ الثلاثى» Triune Brain - تهيمن على «جهاز الأطراف» limbic system، والجهاز المخى، أى «الحصان»، و «التمساح» فينا. هذه المجموعة من «الحصان» و «الفارس» (المذكورة فى القسم الأول من هذا المقال) فى وسعها أن تؤدى ما هو أكثر وأحسن من أى جزء فردى من أجزائها. والعقل الذى يهيمن على المخ، يعرف أهدافه. والمادة الحية (المخ) يحكمها دواما الشىء الذى تسيطر هى عليه (أى العقل).

ومع ذلك يجب أن نجعل نصب أعيننا أن العقل ليس من انتاج المخ، حتى يمكن تعيين مكانه به (كالبول الذى هو نتاج الكلى): العقل نشاط منتج، وسلوك عمدى، يتمثل شخصيا بالثنائى: الإدراك الحسى والمعرفة، وموضوعيا بالحلقة الحسية.

REFERENCES

ABOITIZ, F., 1985, *J. Soc. & Biol. Struct. 8*, 311-312.
ASHBY, W. R., 1956. *An Introduction to Cybernetics*, London, Chapman & Hall.
ASHBY, W. R., 1960. *Design for a Brain*. London, Chapman & Hall.
BALLARD, D. H., 1986. *Behavioral & Brain Sciences 9*. pp. 67-98, 107-120.
BEER, S., 1966. *Decision and Control*. London, John Wiley.
BENSON, H., 1983. *Trends in Neusosci 6*, pp. 281-284.
BENVENISTE, E., 1971. *Problems in General Linguistics*, M. E. Meek. Translation Coral Gables, University of Miami Press.
BOSSOM, J., 1965. *Psychonom. Sci. 2*, 45-46.
CALEY, M. T. & SAWADA, D., 1986. *Cybernetica 29*, pp. 263-275.
CORBIN, H., 1957. *Eranos Jahrbuch 26*, Zürich, Rhein Verlag.
DAVIS, J. M., 1960. *Journal History of Ideas 21*, pp. 68-72.
DESCARTES, R., 1976. *Descartes' Conversations with Beerman*. Oxford, Clarendon.
DESCARTES, R., 1951 *Meditations*. Lafleur, L. J. Translation, Indianapolis, Bobbs-Merrill

DOLEZAL, H., 1982. *Living in a World Transformed: Perceptual and Performatory Adaptations to Visual Distortions*. New York, Academic Press.
DON, N. S., 1976. A book review of Power's, W. 1973 in *Biofeedback & Self Regulation*, pp. 140-44.
DOTY, R. W., 1969. *Annal Review of Psychology 20*, pp. 289-320.
EAGLETON, T., 1983. *Literary Theory*. Oxford, Blackwell.
ECO, U., 1984. *Semiotics and the Philosophy of Language*. London, Macmillan.
FISCHER, R., 1969. *Perspectives in Biology & Medicine 12*, pp. 259-273.
FISCHER. R., 1971a. *Science 174*, pp. 897-904.
FISCHER, R., 1971b. in *International Symposium on Gustation & Olfaction*, Ohloff, S. & Thomas, A. F. Eds., New York: London, Academic Press, pp. 187-237.
FISCHER, R., 1985. *Diogenes*, Spring No. *129*.
FISCHER, R., 1986a. *Journal Soc. & Biol. Struct.* (in press).
FISCHER, R., 1986b. in *Handbook of States of Consciousness*, Wolman B. & Ullman M. Eds., New York, Van Nostrand, pp. 3-30.
FISCHER, R., GRIFFIN, F., *et al.* 1965. *Nature 207*, pp. 1049-1053.
FISCHER, R. & KAELBLING, R., 1967. *Recent Advances in Biological Psychiatry*, J. Wortis, Ed., pp. 183-195.
FISCHER, R., RISTINE, L. & WISECUP, P., 1969. *Biological Psychiatry 1*, pp. 209-218.
FISCHER, R. & HILL, R. M., 1971. *International Pharmacopsychiatry 6*, pp. 28-37.
FISCHER, R. & LANDON, G. M., 1972. *British Journal of Psychiatry 120*.
FOERSTER, H. VON, 1981. *Observing Systems*. Seaside, California, Intersystems Publ.
FRANK, J., 1983. *Behavioral and Brain Sciences 6*, pp. 291-2.
FREEMAN, W. J., 1981. *Perspect. Biol. Med. 16*, pp. 561-592.
FREUD, S., 1938. *The Interpretation of Dreams*. New York, Random House.
GADAMER, H. G., 1960. *Wahrheit und Methode*. Tübingen, W. Glyn-Doepel (translation *Truth and Method*. London, Sheed & Ward, 1975).
GLASSMAN, R. B., 1983. *Zygon 18*, pp. 67-82.
GORDON, G., Ed. 1978. *Active Touch*. New York, Pergamon.
GREGORY, R., 1981. *Mind in Science*. Cambridge, Cambridge University Press.
GWYNNE, P. H., FISCHER, R. & HILL, R. M., 1969. *Pharmakopsychiat. Neurop-Psychopharmakol. 2*, pp. 223-234.
HABER, R. N., 1979. *Behav. & Brain Sci. 2*, 263.
HELD, R. M., 1965. *Science 213*, pp. 84-92.
HILL, R. M. & FISCHER, J., 1970. *Pharmakopsychiat. Neuro-Psychopharmakol. 3*, pp. 256-267.
JEANNEROD, M., 1985. *The Brain Machine*. D. Urion (translation) Cambridge, Massachusetts and London, Harvard University Press.
JOHNSON,-LAIRD, P. N., 1983. *Mental Models*. Cambridge, Cambridge University Press.
KOHLER, I., 1964. *Psychological Issues 3*, 'No. 4/ Monograph 12. New York, International University Press.
KUGLER, J., 1981. *Sandorama IV*, pp. 21-25.
KUROMARU, S., *et al.* 1962. *Psychiat. Neurol. Japan 64*, pp. 604-13; 1987. *Journal Lancet 87*, pp. 22-7.
LACAN, J., 1977. *Ecrits: A Selection*. A. Sheridan (translation) New York, Norton.
LANDON, G. M. & FISCHER, R., 1970. in *Origin and Mechanism of Hallucinations*, W. Keup (Ed.), New York, Plenum.
LANDY, M. S., 1986. *Behavioral & Brain Sciences 9*, pp. 101-2
LEVI-STRAUSS, C., 1958. *Anthropologie Structurale*, Paris, Plon.
LIBET, B., 1981. *Philosophy of Science 48*, pp. 182-197.

LIBET, B., 1985. *Symposium.* Cerebral processes and conscious functions, Abstracts II. Part I. No. 3, *15th Annual Meeting Society for Neuroscience*, Dallas, Texas.
LUBAC, H., de 1959-1964. *Exégèse Médiéval. Les-quatre sens de l'Ecriture.* Paris, Aubier-Montaigne, Part 1, Vol. 1.
MARTINDALE, C., 1973. *Behavioral Science 18*, p. 148.
MARTINDALE, C., 1975. *Romantic Progression. The Psychology of Literary History*. Washington, D.C., Hemisphere.
MARTINDALE, C. & FISCHER, R., 1977. *Confinia Psychiatrica*. Basel. Karger, 20, pp. 195-202.
MATURANA, H. R., 1985. *J. Soc. & Biol. Struct. 8*, pp. 308-311.
MC,GONIGLE, B. O. & FLOOK, J., 1978. *Nature 272*, pp. 364-366
MAC,KAY, D. M., 1985. *Behavioral and Brain Sciences 8*, p. 546.
MIKAELIAN, H. H. & MALATESTA, V., 1974. *Perception 3*, pp. 135-139.
NELSEN, J. M. & GOLDSTEIN, L., 1972. *Psychopharmacology 26*, pp. 347-360.
NORWICH, K. E., 1983. *Journal of Theoretic Biology 102*, pp. 175-190.
PEIRCE, CH,. S., 1984. *Writings of Charles S. Peirce 2.* Bloomington, Indiana University Press.
PELLIONISZ, A. & LLINAS, R., 1979. *Neuroscience 4*, pp. 323-348.
PELLIONISZ, A. & LLINAS, R., 1980. *Abstracts, Society of Neuro-science.* 10th Annual Meeting. p. 510.
PELLIONISZ, A. J., 1986. *Behavioral & Brain Sciences 9*, p. 101.
PENFIELD, W., 1968. *Proc. Roy. Soc. Med. (Canada) 61*, pp. 831-841: *Trans. Amer. Neurol. Assoc. 85*, pp. 80-84.
POWERS, W., 1973. *Behavior: The Control of Perception.* Chicago. Aldine.
ROTHSTEIN, J., 1968. Lecture Notes, The Ohio State University, Columbus, Ohio.
ROUTTENBERG, A., 1968. *Psychol. Rev. 75*, pp. 51-80.
RYLE, G., 1949. *The Concept of Mind*, New York, Barnes & Noble.
SENDEN, V. M., 1960. *Space and Sight. The Perception of Space and Shape in the Congenitally Blind before and after Operation.* P. Heath (translation), London, Methuen.
SIMMEL, M., 1962. *Journ. Neurol. Neurosurg. & Psychiatry 25*, pp. 69-78.
STAPLEDON, O., 1983. *A Man Divided.* London, Oxford University Press.
STRATTON, G. M., 1897. *Psychological Review 4*, pp. 341-360; 463
TAYLOR, W. S., 1966. *American Journal of Hypnosis 8*, pp. 153-160.
TOWE, A. L., 1973. *Handbook of Sensory Physiology.* Iggo, A., Ed., New York, Springer.
VARELA, F. J., 1979. *Principles of Biological Autonomy.* New York, North Holland (Elsevier).
WALL, P. D., 1974. in *Essays on the Nervous System.* A Festschrift for J. Z. Young, Ballairs, R. & E. G. Gray (Eds.), Oxford, Clarendon Press.
WILDEN, A., 1968. *The Language of the Self.* Baltimore, The Johns Hopkins University Press, pp. 250-1.
WHEELER, J. A., 1974. *Amer. Scientist. 62.* pp. 683-691.
WINSON, J., 1985. *Brain and Psyche, The Biology of the Unconscious*, Doubleday Garden City, New York, Anchor.
WITTREICH, W. & RADCLIFFE, K., 1955. *Journal of Abnormal Psychology 51*, pp. 493-5.
WITTREICH, W., 1961. in F. Kilpatrick (ed.) *Explorations in Transactional Psychology*, New York, New York University Press, pp. 188-221.
YAKOVLEV, P. I., 1948. *Journal of Nervous & Mental Diseases 107*, pp. 313-35.
YOUNG, J. Z., 1951. *Doubt and Certainty in Science PS.* Oxford, Clarendon Press.
ZEEMAN, E. C., 1975. *Symposium in Catastrophe Theory.* Seattle. Springer Lecture Notes.

جان هامبورجر

الاستدلال العقلى فى مجال البيولوجيا والطب

كرس عالم النفس السويسرى جان بياجيه حياته ليتابع خطوة بخطوة، وعن طيب خاطر، نشوء وتطور ملكية التفكير (اعمال العقل) عند الأطفال. ففى مجرى المراحل المتتالية لهذا التطور تتغير طبيعة نظرة الطفل إلى العالم الخارجى.

وبالمثل أخذ الطب منذ نشأته الأولى ينظر إلى الأشياء الحية بطرائق مختلفة على نحو متعاقب. وفى الحقيقة أن الطب تتداخل مراحله، حيث ربما لا تزال مرحلة تتبع مفهوما قديما وتكون مرحلة أخرى قد تحررت بشجاعة من ذلك المفهوم. ومع هذا فمن أجل وضوح الرؤية سوف يحاول الكاتب تعريف المواقف الابستمولوجية المتعاقبة، كما لو أنها قد مثلت تقدما منتظما فى الفكر الطبى.

الذين فكروا دون ملاحظة والذين لاحظوا دون تفكر

تعود بداية الجهود التجريبية لفهم الإنسان والأمراض التى تصيبه إلى عهد بعيد جدا. وتعتبر لوحة نيبور السومرية هى أقدم كتابة طبية معروفة*، وربما يرجع

* نيبور مدينة قديمة فى أرض سومر أدنى حوض ما بين نهرى دجلة والفرات سكنها البابليون. واشتهرت هذه الأرض بأنها منفى بنى إسرائيل، بعد أن دمر نبوخذ نصر ملك بابل معبدهم فى أورشليم (القدس) خلال القرن السادس قبل الميلاد) (م).

ترجمة : زكريا أحمد البرادعى

تاريخها إلى سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد. ومنذ البدء اتخذت النظرة إلى الحدث الطبى خطين فكريين، لكل منهما أسلوب مختلف عن الآخر.

وهناك مخطوطات مصرية قديمة على ورق البردى، يرجع تاريخ اثنتين منها إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، اشتهرت احداهما باسم بردية أدوين سميث والأخرى باسم بردية ايبرس. ولكن البردية الأولى تتسم بطابع التطبيب بالتجريب. إنها تصف ما تراه، فهى من وضع شخص من أهل الصنعة. وعلى النقيض منها البردية الثانية فإنها توحى بالأسطورة والخيال دون أن تكون الموضوعية كل همها، فهى تضع أحكاما قاطعة. وتحدد البردية الأولى لنفسها مجال وصف الكسور فى عظام الجمجمة أو الأنف أو الذراع، كما لاحظها المؤلف المجهول من واقع ممارساته العملية. وتنادى البردية الثانية بمقولة «إن الروح ضعيفة من داخل البطن»، أو القول بان «نسمة الحياة تدخل من الأذن اليمنى، ونسمة الموت من الأذن اليسرى».

وجاء مولد الطب اليونانى فى ظل وجهتى النظر هاتين واضحا ولكنه متشابك يتأرجح كثيرا بين عجرفة خيالية وتواضع تجريبى، حتى نرى المؤلف يتحرك دون ضبط ولا ربط من وجهة لأخرى.

ويمكن تصنيف أبو قراط المعروف بأبى الطب على أنه من بين المطببين بالتجريب، فهو الذى قرر فى باب الطب القديم من السداسيات: «لا حاجة للطب إلى ظن فارغ مثل الأشياء الغامضة وغير المؤكدة».

وعلى الجانب الآخر، فإن أفلاطون يعطى ثقلا أكبر للخيال عنه للأشياء حين يكتب عن الحياة الطبيعية قوله «من أين تجىء الأمراض؟ أظن أى واحد يمكنه رؤية الاجابة. فهى مجرد وجود أربعة عناصر تتألف منها الأجسام (تراب ونار وماء وهواء)، فانها حين تزيد أو تنقص عما هى عليه فى الطبيعة أو حين تنتقل من موضعها الصحيح إلى موضع آخر غريب تظهر الاضطرابات والأمراض»*.

ولكن أين يكون تصنيفنا لأرسطو؟

لم يكن أحد فى تلك الأزمنة الغابرة أكثر من أرسطو مشاهدا مدققا. كان أرسطو يتأمل فى الطبيعة قبل الحديث عنها. ويعتبر كتاب أرسطو عن تاريخ الحيوان أول نموذج مؤلف فى علم الحيوان، تولد عن الفحص النظامى لأنواع عديدة من الكائنات

---

* ليس المقصود هنا بالعناصر الأربعة عند الاغريق تلك التى تتكون منها الأرض، وإنما الأخلاط الأربعة التى فى جسم الانسان، وهى الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء وهى تتميز شأن العناصر الأربعة بمقدار ما فيها من الرطوبة أو اليبس ومن البرودة أو السخونة) (م).

الحية، ويجىء ما أورده من أوصاف تشريحية لجسم الانسان صحيحا مع القليل من الأخطاء. ومع ذلك فلم يكن بريئا من تهويمات الخيال التفسيرى. فقد كان مكبلا بشياطين ممارسته الفكرية الجامحة، فلا يمكنه غير الشرود عن الحقيقة ليخرج أشياء جميلة وليدة خياله. فهو يكتب عن الانسان قائلا:

«ان له ذراعين ويدين بدلا من الساقين الأماميتين والكفين ذواتى المخالب عند الحيوان. وهو الوحيد بين الحيوانات الذى يمسك بنفسه منتصب القامة لأن جوهر عنصره إلهى مقدس. وعلى أية حال فان وظيفة الكائن اللاهوتى هى التفكير والحكمة. ولكن هذه الوظيفة لم تكن لتتحقق بسهولة لو أن نصف الجسم العلوى ثقيل الوزن. ويرجع ذلك إلى أن الثقل يبطل كل ليونة فى الادراك والتمييز. وحين يسود ثقل الوزن فلابد للجسم أن ينحنى صوب الأرض. وبناء على ذلك فان الطبيعة بدلا من أن تعطى التى تمشى على أربع أيديا وأقداما جعلت لها سيقانا أمامية أسفل أجسامها لتستند عليها. وهذه هى الكيفية التى عليها الحيوانات ذوات الأربع، لأن أرواحها لم تكن تقدر على حمل أجسامها».

هناك تأرجح منذ الأزل بين كبرياء العقل دون المبالاة بالتحقق الموضوعى وبين اذعان العقل مع الاستعداد للانحناء أمام حقائق المشاهدة. وسوف نجد هذه الحركة التأرجحية على مر القرون التى تلت ذلك. ويريد المؤلف أن يستشهد فى ذلك بأمير التدقيق الفيلسوف رينيه ديكارت الذى نادى بصفحة بيضاء للعقل نظيفة وخالية من كل الأفكار المستوحاة، وهو بهذا يضم صوته مع الذين كانوا يناضلون فى القرن السابع عشر من أجل التخلص من نير العبودية للفلسفة اللاهوتية الكلامية التى استهدفت تطبيق الدين على العقل، ولا يزال ديكارت فى كتابه عن الانسان يقيم صرحا تكدست فيه أشد الاثباتات يقينا، استمدها بالكامل من خياله الخصيب. ومن هناك نقرأ قوله «الجسد لا شىء سوى تمثال أو نظام آلى أرضى من صنع الخالق عن قصد».

ومرة أخرى يقول: «يتم هضم اللحوم فى المعدة بفعل سوائل معينة، ونظرا لأن هذه السوائل تأتى من القلب فورا عن طريق الشرايين فلابد أن تكون ساخنة. وكما هى العادة فى اللحوم فانها تفسد وتسخن تلقائيا كما يفسد الدريس الجديد فى الجرن اذا ما تم تخزينه قبل جفافه».

ويستمر قائلا: «وتكون أكثر قطع اللحم رقة ونحافة غير متساوية، بل لا يكتمل خلطها معا، فهى تشكل سائلا قد يظل معتما ومائلا للبياض اذا لم تختلط احدى القطع بالدم».

كما يقول: «ويحتوى لحم القلب فى مسامه نوعا من تلك النيران بدون ضياء تجعله ساخنا وحارقا بحيث انه عند دخول الدم إليه يتمدد على الفور ويتسع. ولا تصلح نيران القلب لشيء سوى العمل على اتساع وتدفئة وتقليل كثافة الدم الذى يتساقط باستمرار قطرة قطرة خلال أنبوب الوريد الأجوف».

ويقرر ديكارت أن أجزاء الدم الأكثر نشاطا وقوة ورقة تذهب إلى المخ «فتحدث نوعا من نسمات الريح الرقيقة أو بالأصح لهيبا نقيا فى غاية النشاط هو ما نسميه مزاجا حيوانيا». وأما الأعصاب فان قشرتها الخارجية تشبه «أنبوبا كبيرا يحتوى على قليل من أنابيب صغيرة أخرى. ويوجد ضمن هذه الأنابيب نخاع يصل من مادة المخ. ولا يفيد هذا النخاع بالمرة فى تحريك الأعضاء، فهو لا يملأ الأنابيب الصغيرة التى تحتويه الا بالقدر الذى لا يستطيع به المزاج الحيوانى أن يجد فراغا ليتدفق بسهولة من المخ إلى العضلات. ويترتب على كمية المزاج الحيوانى الداخلة والخارجة، أن يتمدد ويقصر جسم العضلة أو ينقبض ويستطيل. واذا ما حدث للشبكات الصغيرة التى يتكون منها نخاع الأعصاب جذب شديد يكفى لتحطيمها فان الحركة التى تسببها فى المخ تجعل الروح تشعر بالألم، فمن المهم للروح أن يكون بيتها مصونا. واذا حدث الجذب بقوة مثل سابقتها، ولكن بدون حدوث تحطم، فان الحركة تجعل الروح تشعر بنوع من الشهوة الجسدية التى نسميها دغدغة اللذة».

«وحين يكون الدم الذى يصب فى القلب أكثر نقاء ورقة، وحين تكون مكوناته ممتزجة على نحو أكثر سهولة من المعتاد، يصبح العصب الموجود هناك فى الحالة المطلوبة التى تسبب الشعور بالسرور، وحين تكون صفات الدم عكس ذلك يحدث الشعور بالاكتئاب».

ويشرح ديكارت فى معرض الحديث عن تكوين الجنين السبب فى لون الدم الأحمر، ويجيء الشرح غاية فى فخامة التصور. ويستعيد ديكارت ما سبق له بيانه واثباته من أن رؤية الضوء هى نتيجة ما أسماه «كريات صغيرة من الجوهر الثانى: «وعلى أية حال فانه فى «مسام الدم» تمر جانبيا وبسرعة فائقة مادة من «جوهرتين» تجعل الكريات الصغيرة المشار اليها تدور بسرعة فنراها حمراء، وإذا دارت بنحو أقل سرعة تبدو زرقاء».

والحقيقة أن الصبغة الحمراء التى تلون الدم حقا لم تكن قد اكتشفت الا بعد موت الفيلسوف الشهير بمئتى سنة.

وعلى هذا النحو فان فراشة الروح العلمية الجديدة وجدت صعوبة كبيرة فى مغادرة شرنقتها. ولم يكن ممكنا أن يولد تصاغر العقل تجاه الحقيقة، قبل الكثير من

المحاولات الخاطئة. واستمر فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الملاذ لمن يعلنون عن نظريات وليدة الخيال أكثر مما هى ناتج التجريب، كما كان حال أصحاب نظريات النشاط الحيوى، سواء فان هلمونت أو بواسبيه دو سوفاج أو بارتيز، ممن أكدوا فى ثقة أن المذهب الحيوى الذى اخترعوه بأكمله، وأن كان ابن الأخ العظيم لمقولة المزاج الحيوانى مما سبق ان نادى به ديكارت، هو المسئول الفعلى عن الوظائف العضوية.

وحتى اليوم لم يتأكد للكاتب الاختفاء التام للاتجاهين المتطرفين السابق شرحهما. فهناك اتجاه عند الأشخاص الخياليين يندر معه الاهتمام بالحقيقة، وهناك النقيض عند المهتمين بالمشاهدة من المدققين، ولكنهم المتهيبون، فهم يحشدون بيانات علمية موضوعية، ولكنهم ينزعجون من البحث عن أى نوع من التفسير لمشاهداتهم.

عصر الأسلوب التجريبى

ومع ذلك فقد تبلورت، بالتدريج وبصعوبة كبيرة، نظرة علمية جديدة فيما بين النقيضين السابقين، برهنت بسرعة على قيمتها بما حققته من نتائج مدهشة.

وقد حاولت أن أوضح فى كتاب نشر لأول مرة سنة ١٩٨٣ بعنوان «يوميات هارفى»، أن مولد هذه الروح العلمية الجديدة يرجع للقرن السابع عشر عند رجال مثل وليام هارفى الذى اعتبر مكتشف الدورة الدموية، وأن حقيقة وظيفة القلب هى فى كونه مجرد مضخة*.

ولكن بالنسبة للمشتغلين بالنشاط الحيوى والطب كان أول مرجع يقرر دون غموض القواعد الجديدة للعبة، هو الذى صدر سنة ١٨٦٥ يحمل اسم كلود برنار بعنوان «مقدمة فى دراسة الطب التجريبى». وفى المبارزة بين الفاعل (الباحث) وبين الموضوع (جسم الانسان)، وصفت مراوغات واندفاعات بالأذرع فى الكتاب بوضوح وفى ثقة لم يبلغها أحد من قبل. فاللغز الذى أبداه الموضوع يثير فعلا انعكاسيا عند الباحث دافعا إياه إلى أن يبتكر واحدا أو أكثر من الافتراضات التفسيرية. وعلى

---

* وليام هارفى ١٥٧٨ - ١٦٥٧، هو طبيب انجليزى ولد فى مدينة فولكستون عند مضيق دوفر، ونشر فى سنة ١٦٢٨ كتابا هاما يعتبر أول سجل فى علم وظائف الأعضاء الحديث بعنوان: «دراسة فى حركة القلب والدم عند الحيوانات» متأثرا فيه بما سبقه اليه الطبيب العربى ابن النفيس عن دورة الدم عند الانسان) (م).

الباحث أن يتصور بخياله التجربة التى سوف تبرهن على صحة الفرض أو بالعكس فقد تدحض الفرض بالحقائق وحدها. وتعمل التجربة بدورها على احداث نوع من الاثارة للموضوع مما يرغمه على أن يظهر الاستجابة لتلك الاثارة. وهلم جرا، فمن مبادلة تجربة بأخرى سوف يظهر حل اللغز. وهكذا لا يكون الحل الناتج وليد المشاهدة فقط كما قد يفعل التجريبيون، وليس فقط من وحى الخيال وحده كما اشتد جدل المثاليين الذين يعتبرون الأشياء صورا عقلية لا أجساما مادية، ولكن يأتى الحل من وفاق بين الاتجاهين يجلب انسجام الرأى فى النهاية بين ذاتية الباحث وصلابة الحقائق الموضوعية.

طرق جديدة للنظر إلى الحقيقة

على أن هذا «الطرح» لا يوصلنا مع ذلك إلى منهج محدد. وفضلا عن ذلك فإنه يمثل نوعا من الإيمان بحتمية كونية. فليس هناك شئ بدون سبب، وبمعرفة هذه الأسباب يصبح فى إمكاننا التنبؤ بكل شئ بصورة يقينية. لقد علمنا الفلاسفة من أية أعماق فى الإنسان تنبعث جذور الشعور بالسببية ومفهوم الحتمية. فقد عملت الحتمية منذ وقت طويل (هو أطول من وقت ظهور كلمة حتمية) على تخصيب التطور العلمى، فى حين سدد العلم هذا الدين باقتراح من خلال نجاحاته، ينص على أنه ليس هناك من خلاص خارج التصميم الحتمى. ويتضح صدق هذه المقولة حيث إن القوانين الطبيعية لا يمكن ادراك تعليلها بدون افتراض وجودها لكى يمكن الربط بين العلة والمعلول. وفى كل الأحوال فانه بدون المقدمة المنطقية المبنية على الحتمية لم يكن يتيسر للنشاط الحيوى والطب خبرة مواجهة التقدم الهائل الذى يصعب تصديقه منذ هارقى وكلود برنار وما بعدهما، حيث أدى إلى تطوير معرفتنا بالانسان وبالحياة. ويمكن وصف هذا الانفجار الزائد فى المعرفة العلمية بأنه يشبه التعبير عن اقتناع بالحتمية جازم.

والحقيقة أن ذلك الاقتناع لا يزال حتى اليوم نافعا وضروريا لنا. ان دوام اشتغال الباحث شأنه دون شك شأن النشاط اليومى لكل شخص، يتطلب منا تخمين مقدار ما وراءه من ايمان متين بالحتمية. ولكن منذ مطلع القرن الحالى أخذ يحدث شىء غريب. فالحتمية لم تأخذ فى فقدان شىء من قدرتها، ولكنها أخذت تسمع بظهور نهايات لحدودها. وأصبحت تلك الحدود واضحة منذ ولد مجال جديد، فسيح بغير حدود وغير

متوقع على الإطلاق، هو مجال «اللاتحدد». وكانت تلك هى الاشارة لما قدر له أن يصبح، فى تصورى، نوعا من الثورة. انها الثورة الحديثة فى تاريخ الفكر العلمى، وهى التى أود تحليلها الآن.

مولد «اللاتحدد»

كان علماء الطبيعة (الفيزياء) هم أول المقتربين من حدود الجبرية. وكان ذلك فى القرن الماضى حين قام الأمريكى يوشع ويلارد جيبس بفتح باب الميكانيكا الاحصائية، وقدم النمساوى لود فيج بولزمان نظرية الاحتمالات فى الديناميكا الحرارية. وقد أوجدا بذلك ممرا أوليا حرجا بين النظرة الجبرية الصارمة الى العالم والنظرة الجديدة القائمة على الاحتمالات، مع التخلى فى سير العمل المنهجى عن الالتزام بنمط حتمى معين مباشر.

وبعدئذ جاء الاقتحام العظيم للذرة، حيث تسود اللاحتمية. وجاءت عبارة «هو ذلك الحدث المتفرد الطبيعى الدقيق غير المحدود» فى كتاب «هذه المادة الغريبة» الذى وضعه ألفريد كاستلر الحائز على جائزة نوبل والمتوفى حديثا. وظهر أشهر دليل على ذلك فى العمل المنشور سنة ١٩٢٧ للعالم وارنر هايزنبرج حيث أوضح أنه يستحيل معرفة وضع وسرعة أى من الدقائق الذرية فى وقت واحد باحكام يتعدى حد «اللاتحدد». وتم ربط هذه الاستحالة بالطبيعة الذاتية للأشياء، واستبعدت تماما فكرة ارتباطها بعيب فنى من جانب القائم بالتجربة.

وقد حاولت، فى كتاب «العقل والعاطفة» الصادر عام ١٩٨٤، أن أدلل على أن قدرا مماثلا من اللاحتمية أخذ الآن فى غزو مجال البيولوجيا والطب. وقد بنيت تدليلى بوجه خاص على تحليل ظاهرتين مألوفتين لدى، وهما الحساسية الطارئة، ورفض الجسم لكلية مزروعة. وبدون الدخول فى التفاصيل الفنية للبرهان يكفى هنا القول بأنه تحت شروط معينة لا يمكن التنبؤ بهاتين الظاهرتين بأكثر من شروط الاحتمالات ولكن ليس باليقين. ومن المؤكد أن عدم اليقين هذا فى التشخيص الذى يجرى أثناء عيادة المريض يكون بصفة عامة مؤديا إلى استخدامات واسعة جدا. وبالرغم من التقدم العظيم فى دراسة النشاط الحيوى الجزيئى فأن الأمل فى تحقيق قدرة كاملة وتامة على التنبؤ بما يمكن أن يقع من أحداث اكلينيكية للمريض يتقهقر ويخبو أكثر من أن يرقى ويتقدم، وذلك لأن الحركة من مقياس متناهى الصغر الى مقياس ضخم تجلب درجة معينة من عدم اليقين. إن هناك بلايين كثيرة من الجزئيات

المختلفة فى جسم الانسان تتكامل معا حتى الوصول الى مقياس الجسم بأكمله على النحو الذى نعرفه بالمقياس الجزيئى، ولكن التيقن من هذا يتطلب مستوى كامل المثالية من المعرفة والحسابات التقديرية لم يتوفر لأى بحث أو أى جهاز حاسب.

ويود الكاتب ابداء ملاحظة عابرة بأن عدم اليقين هذا لا يمنع مطلقا أى اقتراب علمى من حقائق طبيعة الأمراض، ويعود الفضل فى هذا الى ذيوع استخدام الأساليب الاحصائية فى مجال البيولوجيا والطب وقد كتب كلود برنار يقول: «إن استخدام المتوسطات أو الاحصاء فى الطب وعلم وظائف الأعضاء أدى بالضرورة – إن جاز التعبير – إلى الخطأ، وانى أعترف بعدم فهم السبب فى تسمية النتائج المتحصلة من احصائيات بأنها قوانين، فالقانون العلمى بالنسبة لى لا يمكن تأسيسه الا على اليقين وعلى الحتمية المطلقة. اما الاحصائيات فلا تعطى حقيقة علمية».

وكان على برنار بعد انقضاء مئة سنة، أن يعتذر عن اصداره مثل ذلك الحكم. فقد أخذ الأسلوب الاحصائى يغزو بأعظم نجاح مجال البحث الحيوى، مما أمكن معه تحقيق التقدم المذهل الملموس فى السنين الحديثة.

ويعتبر هذا التطور ذا أهمية مباشرة فى تاريخ الادراك البشرى، لأن الاحصاء ليس مجموعة من الأساليب الرياضية الفنية وحسب. ان الاحصاء بدلا من هذا القول هو «منهج لإعمال الفكر، يجعل من الممكن تفسير البيانات وبالأخص تلك التى فى علوم الحياة».

وسوف يكفى مثال واحد ليوضح كيف أن الاحصاء يساعد على تقدم المعرفة فى المجالات الطبية والحيوية. ولنأخذ هنا النموذج الذى تعرضه دراسة رفض زراعة أعضاء الجسم. فهناك عدد كبير من العوامل الأولية تتضافر فى تفسير هذا الرفض، وهذا العدد المتضافر بذاته هو الذى يدخل عنصر عدم اليقين داخل النتيجة النهائية (ومازلنا مستمرين فى تسمية عدم اليقين بأنه الأمر الذى يستحيل التنبؤ به يقينا على النحو الذى يبدو صحيحا). وتعتبر الشخصية الكيميائية المميزة لكل من واهب العضو المزروع والمتلقى له عاملا هاما من بين عوامل الرفض الكثيرة. فاذا تماثلت هذه الشخصية كما هو الحال عند التوائم لا يحدث الرفض. وفى غير حالة التوائم يكون من المفيد الكشف عن هذه الشخصية بأسلوب تحليل كريات الدم البيضاء، الذى يوضح الرتبة المعينة للجزئيات الكيميائية الموجودة على سطح الخلايا. وهى جزئيات يشار لها بالحروف هـ. ل.ا. ترمز لأولى كلمات عبارة خلية دم بيضاء بشرية مضادة فى الانجليزية، ثم تحدد مجموعتها فى الرتبة من ا حتى د. وكانت المشكلة هى فى معرفة نتيجة المقارنة بين «هـ . ل . أ» واهب العضو المزروع و «هـ . ل . أ» المستفيد، وهل

تكون ذات قيمة معينة يسهل معها التنبؤ بنتائج عملية زرع العضو (وهى قيمة معينة وليست قيمة مطلقة حيث إنه من غير المؤكد معرفة أثر تداخل عوامل أخرى على النتيجة). وفى بداية تجربتنا حددنا مجموعتين فرعيتين من هـ. ل. أ.، حيث تبين من مجموع ٦٤ حالة كان فيها الواهبون والمستقبلون هم من الإخوة والأخوات وليسوا توائم أن هاتين المجموعتين الفرعيتين متماثلتان تماما فى عدد ٣٣ حالة ومتماثلتان جزئيا فى ٣١ حالة الأخرى. وعلى أية حال فقد لاحظنا بعد أربع سنين من زرع الأعضاء أن نسبة النجاح كانت ٩٦٪ فى الحالات الباقية المتماثلة جزئيا. وربما يكون هذا الاختلاف فى النسبة نتيجة الصدفة أو من باب الحظ. ان الشخص الذى يقامر فى لعبة الروليت يعلم جيدا أن فرصة استقرار بلية الحظ على أحد اللونين الأحمر أكثر من الأسود أو العكس واحدة حتى ولو فى سلسلة من ٦٤ رمية للبلية، وبالرغم من هذا فان التساوى بالصدفة هو أمر نظرى. ولكن الحساب الاحصائى فى سلسلة من عمليات زرع الأعضاء يدل على أنه من الممكن أن تقل نسبة احتمال ظهور الفرق بالصدفة عن واحد فى المئة، أى تكاد تكون معدومة. وبهذا استطعنا اعتبار أن تماثل هاتين المجموعتين من هـ. ل. ا. يؤثر تأثيرا حقيقيا فى نجاح عمليات زرع الأعضاء المشار اليها، أو اذا شئنا القول بأن عدم تماثل المجموعتين قد يكون المسئول جزئيا عن رفض الأعضاء المزروعة. لقد مثل التاريخ الخصب لاكتشاف واستخدام هذه الجزئيات من هـ . ل . أ نتيجة أخرى من نتائج الدراسات الاحصائية. ويمكن التدليل على قيمة مثل هذه الدراسات فى كل مجالات النشاط الحيوى والطب.

مفهوم «الانقطاع»

هناك عامل ابستمولوجى جديد رصدت له جانبا من بحثى على مدار السنين الأخيرة، اقترحت تسميته مفهوم «الانقطاع». وأقصد بالانقطاع تشريح تقطيع الواقع إلى مناطق متميزة. إن الدنو العلمى من معرفة الحقيقة لا يسمح بأن تكون النظرة وحيدة ومتجانسة لرؤية الكون المحيط بنا. فهناك فجوات اجبارية فى معرفتنا للعالم الخارجى. وهذه الفكرة بدون ريب ليست أصلية فى مجموعها، فالكثير من المراجع الفلسفية القديمة قد أوردت هذا الرأى. ولكن قوة هذا المفهوم آخذة فى التزايد الملحوظ فى ضوء الأحداث العلمية الأخيرة.

ولكي أكون واضحا تماما أحب أولا وقبل كل شىء أن أستخدم مثالين صريحين صراحة مطلقة. ويمكن أن يحمل المثال الأول عنوان حكمة الذرة والجبل. فان الجبل

يتكون من ذرات. وأخذت دراسة الجبال تحقق تقدما ملحوظا فى كل ما يتعلق بظواهر التآكل والانهيارات والثورانات البركانية. وبالرغم من ذلك فإنه يستحيل التنبؤ بالثورانات البركانية أو التآكل فى جسم الجبال بواسطة ما نعرفه عن ذرات الجبال. ويحتمل عدم التوصل إلى هذا أبدا، وليس الأمر بسبب استحالة فنية، ولكنه بسبب فجوة أو «انقطاع» يمنع المرور السهل من القوانين التى تحكم الذرات الى تلك التى تحكم الجبال. ولا يمكن الاستدلال على تكوين الجبال ووصفها من مجرد النظرية الذرية، بالرغم من تيقننا بأن الجبال مكونة من ذرات.

وليس مفهوم «الانقطاع» مقصورا على مقياس الحجم. ان هذا المفهوم يمكنه أيضا الظهور من خلال المقياس نفسه، بمجرد تغيير أسلوبنا فى الدراسة. فان طريقين مختلفين للنظر الى الطبيعة يمكن أن يعطيا الشىء الواحد صورتين منفصلتين على قدر معين من استقلال إحداهما عن الأخرى. ففى مدينة البندقية يوجد على واجهة كنيسة سان مارك وهى من طراز البناء الرومانى مستطيل الشكل بازليك، وهو منحوت نحتا بارزا، و يشار اليه عامة بأنه هرقل الجبار وذكر الوعل الأحمر. وهناك طريقان لدراسة هذا النحت. ويقودنا الطريق الأول الى القول بأن النحت هو على لوحة رخامية ارتفاعها ١٦٤ سنتيمترا وعرضها ٨٦ سنتيمترا، وان الرخام يدخل فى تركيبه عنصران هما الكالسيوم والكربون على شكل كربونات الكالسيوم المتبلورة، وان عروق البلورات الملونة ممتزجة مع بلورات بيضاء، وأن كل ذرة كالسيوم ترتبط بذرة كربون وثلاث ذرات أكسجين. وقد يبقى هذا التحليل التكوينى ساريا زمنا طويلا.

ولكن هناك أيضا التحليل الآخر، ويقصد به بحث التعبير الارادى الحتمى الشرس تقريبا والبادى على الوجه ذى اللحية، وذلك الاختلاط الذى صوره النحات المجهول، حين أظهر هرقل يهاجم ذكر الوعل، مع ان الأسطورة تتحدث عن أنثى الوعل، وظهور نوع من عدم الاتقان العجيب فى التناسق بين الكتل المنحوتة. وليس هناك تضارب بين التحليل الطبيعى والكيميائى فى جانب وتحليل المهارة الفنية فى جانب آخر، وانما هناك مدرك الانقطاع بين التحليلين فقط. وتكون الحقيقة المستكشفة مختلفة لأن الأسلوب مختلف. فالرخام البندقى له حقيقتان متميزتان لأن هناك طريقين مختلفين للنظر اليه.

وأتعشم أن يسامحنى القارىء فى ذكر تلك الأمثلة المبسطة. وقد اخترتها لسبب واحد هو تقديم فكرة أن أساليبنا البحثية تشبه المرايا الكثيرة وكل منها يمكن أن يعطى انعكاسا معينا للحقيقة. ومن الطبيعى أن تختلف هذه الانعكاسات متى تغيرت المرآة. وحينئذ نعود إلى موضوعنا لنبين أن مثل هذه الانقطاعات تقسم

المعرفة العلمية مثل وجود فواصل كثيرة فى الحجرة الواحدة.

وسوف أتناول على سبيل المثال الفرق فى الرأى بين المشتغلين بعلم بيولوجيا الخلايا العصبية وبين المشتغلين بعلم النفس.

يقرر الأولون بأن التفكير خاضع لوظائف النشاط العقلى، وفى كل سنة يشرحون بتأكيد أكبر ما هية الوسائط الكيميائية التى ترتب سلوكنا.

ويرى الآخرون أنها لفضيحة اذا أخذنا بفكرة ان حياتنا العقلية هى أمر بسيط من أمور الكيمياء، وأن حريتنا السلوكية هى مجرد وهم كاذب.

ويحلم الأولون بتكامل كل ما فى الطب النفسى والعقلى مع ما هو داخل دراسة حيوية المخ، فى حين يرفضه الآخرون.

وعلى أية حال فهذا دليل على وجود انقطاع يفصل اتجاه أطباء الأعصاب عن علماء النفس. وهذان أسلوبان متميزان وصورتان مختلفتان. وبصرف النظر عن الصدمة التى ربما تلحق بعاداتنا التقليدية فيما يتعلق بعملية التفكير (الاستدلال العقلى)، الا أنه يبدو لى أن الروح العلمية ينبغى أن تكون هى السائدة.

وهنا أيضا يدلنا علماء الطبيعة على الطريق. انهم أيضا كانوا مرغمين على قبول انتهاك حرمة رغبتهم فى التفرد بدون تظير. وحين ولدت فروع الهندسة غير الاقليدية مستحدثة المفهوم المتعلق بنمط معين جديد هو الفراغات مما ساعد مثلا على ظهور نظرية النسبية لا ينشتين، أصبح من الممكن الاعتقاد بموت الميكانيكا التقلدية لاسحق نيوتن.

ولم يكن هذا هو كل ما فى الأمر. فان الهندسة غير الاقليدية لم تعد صحيحة بأكثر من الهندسة الاقليدية. وتكون واحدة منهما ذات فاعلية تحت ظل شروط معينة والأخرى تحت شروط غيرها.

وبالمثل لم يعد صحيحا القول بأن «الضوء عبارة عن موجات»، أكثر من القول بأنه مكون من دقائق. فاذا اعتبرنا الضوء من حيث انتشاره فانه يكون موجات، واذا نظرنا لكيفية تداخله مع المادة فانه يكون دقائق. وحينئذ يصبح مفهوم دقائق الفوتونات أمرا ضروريا. وتصبح كل ميكانيكا الموجات التى وضعها لويس دو بروجليه، شأنها شأن الاله الخرافى جانوس حارس البوابات فى الاسطورة الرومانية القديمة وهو يتمثل بوجهين أمامى وخلفى فى رأس واحد، أى أن الحقيقة فيها مزدوجة الصورة.

وجاء علماء بعد نيلز بوهر أصبحوا معتادين على هذه التكاملية بين الموجة والدقيقة. وتتساءل هل حان الوقت الذى سوف يتقبل فيه المشتغلون بالبيولوجيا نفس المفهوم المتعلق بالتكاملية حتى ولو أدى الى انقلاب منطق التفرد بلا نظير المتأصل فى نفوسهم؟

إن المشتغلين ببيولوجيا الخلايا العصبية، هم حقيقة على صواب حين يؤكدون أن المواد التى تتخلق داخل الجسم بفعل هورمون الأدرينالين الذى تفرزه الغدة فوق الكلوية مثل مجموعة اندو مورفين المهدئة للانفعالات ومجموعة انكى فالين المثيرة للانفعالات وغيرها من الوسائط الكيميائية هى التى تكيف أمزجتنا وتسيطر على سلوكنا. وعلماء النفس لايجانبهم الصواب حين يؤكدون حرية التفكير.

إن الصورة الواضحة عن مفهوم الانقطاع الذى يجزىء ادراكنا للحقيقة، يقينى من أن أصدم بقول بعض الناس بأن قراراتى ليست حرة فى حين يخبرنى البعض الآخر بأنها حرة تماما. فالأولون يقولون وهم على صواب بأن حياتى العقلية هى التعبير عن وظائف يؤديها المخ عندى. ويرى الآخرون الرأى السديد بأن هروبى من فعل الخلايا العصبية العديدة فى مثل هروب منظومة شعر لم يسبق التكهن بها إلى أوراق الكتابة التى هى وسيط المعرفة، مما يجعل تفكيرى [illegible] عن قدر كبير من تصميمه الجبرى. ولا يكون فى هذا تناقض، ولكنه ببساطة تغيير فى التحليل أو تغيير فى المرآة العاكسة. انى لست حرا ولست مقيدا. فاذا رجعت إلى أساليب النشاط الحيوى للأعصاب فلابد أن أعرف حقيقة ان أحداثا طبيعية وكيميائية معينة تحد من حريتى. واذا نظرت الى نفسى طبقا لأساليب تحليل ظواهر الفكر بعيدا عن النشاط الحيوى للخلايا العصبية فأنا حر وكامل الحرية.

الثنائى غير المنفصل.. أو الرائى والمرئى

لقد تلقى التفكير العلمى انذارا آخر للتخلى عن مكانته، فدراسة الدنيا من حولنا تفترض حتى الآن اعتبار الشىء المرئى مستقلا عن الرائى. وينبغى بالضرورة أن تتجمع كل مناهج الدراسة فى وصف واحد متجانس للشىء المرئى وأعنى بهذه الكلمة كل شىء يتعرض له استقصاؤنا سواء كان جسم الانسان أو مادة حية أو مادة غير حية أو الكون عند الفلكيين، أو ظاهرة طبيعية نوعية تثير ميكانيكتها فضولنا.

لقد أكدت افينومينولوجيا «ظاهراتية» هوسرل، هذا الحدث البالغ الأهمية فيما يتعلق بمفهومنا للمعرفة، معرفة عدم تغير الشىء المرئى وثبوته. وكان هوسرل رافضا الدخول فى النقاش الأزلى عن وجود الشئ بذاته، واعترف بأننا ندرك الشىء مختلفا حسبما تكون زاوية الرؤية. ولكنه وضع قاعدة بأن الشىء فى ذاته لا يتغير مهما تكن كيفية اقترابنا منه.

وعلى أية حال فان هذا بالضبط أصبح اليوم موضع التساؤل. فليس من المؤكد وجود شيء ثابت غير متغير ولا يختلف بمشاهدتنا له. وربما يكون هذا على الأقل عن أشياء بمثل مقياس الدقائق الذرية، حيث قد يؤدى تدخل الرائى الى تغير الشيء المرئى. ان كل شيء يحدث كما لو لم يكن للشيء وجود دائم، وتتوقف طبيعة الشيء على أسلوب استقصائه. وسبق أن أوردت مثال الضوء وهل هو موجات أم دقائق، فلابد أن يتوقف ذلك على الشروط التجريبية. وفى البيولوجيا لا يؤدى اختبار مقطع من نسيج حى تحت المجهر الضوئى أو الالكترونى إلى صورة مستقلة عن أسلوب الاختبار نظرا لأنه يلزم أولا قتل المادة الحيوية بغمسها فى سوائل التثبيت. وبهذا فان انعكاس الحقيقة التى يمكن الحصول عليها يختلف تبعا للأسلوب الفنى المستخدم. ان الأمر هو مجرد ترجمة - ولا نقول خيانة - للمكونات الحية التى نحاول معرفتها. ويمكن أن أورد عن ذلك كثيرا من الأمثلة. أنه أمل باطل فى أن تتحقق الموضوعية العلمية مستقلة عن الرائى وعن أساليب البحث. إن العالم الواقعى ليس هو الذى يصف البحث العلمى، بل هو الد..جة التى تتحقق بالحوار بين الرائى والحقيقة، ذلك الحوار الذى يكون فيه الرائي ومناهجه على قدر من الأهمية مثل الواقع نفسه. وفى مجال البحث العلمى يعتبر اهمال تدخل الرائى نوعا من الخطأ الفادح فى حق فن التفكير.

وعلى هذا النحو يبدع الباحث الواقع بقدر ما يكتشفه، أى يمكن القول أنه معرض دائما للوقوع فى الفخ النهائى الذى يبدو اليوم واضحا جليا أنه : خطيئة نزعة التشبيه.

خطيئة توصيف هيئة السلالات البشرية

جاء فى كتاب أندريه ليلاند طبعه سنة ١٩٧٦ بعنوان «معجم الفلسفة»، بشأن تعريف ذلك النوع من التفكير الذى يطبق، من أجل شرح ما هو غير بشرى، معلومات مستوحاة من سلوك الانسان. واليوم بلا ريب يميل الباحث العلمى الى اعطاء هذا المصطلح مجال فكر أوسع. إن عملية التفكير والاستدلال العقلى عند الانسان تعد صحيحة وسائغة بالنسبة لما يلحظه من خلال حواسه على مستوى حياته اليومية. وعلى ان استكشاف أشياء متناهية الصغر يوحى له بعدم التمكن من إعمال الفكر فيما يتعلق بالدقائق المجهرية بنفس الكيفية التى نعمل بها فكرنا فى حالة كرات البلياردو. وبالمقارنة مع صورنا المعتادة يبدو عالم الطبيعة المجهرية مثل عالم

الصور السريالية أى ما فوق الواقع، حيث تعانى مدركات الهوية والاستمرارية والسببية تحولات غريبة. وبنفس الكيفية وفى مجال الضخامة اللانهائية يقدم لنا المشتغلون بالطبيعة الفلكية عالما محدودا ولكنه بدون آخر، وهى صورة غير مقبولة بقياسنا حيث لا توجد حدود بدون أن يكون هناك شىء ما موجودا بعد هذه الحدود. ولذلك يصبح من قبيل «التشبيه» استخدام منطقنا المعتاد بمقاييس مختلفة إلى ما لا نهاية عما يحيط بنا مباشرة.

وهناك شىء آخر مشوق عن نزعة «التشبيه» هو نسيان فروض القياس المنطقى الأصلية. فالباحث يكتشف قانونا علميا ويحققه بعناية تحت شروط نوعية من الملاحظة. ويكون قد اخترقها تماما. وبدون أن يتحقق منها فانه يمتد بمجال الاستخدام الى ما بعد التخوم المحددة للموقف الذى يقام البرهان على قانونه. انه يستكمل من الخارج. ونأخذ أقدم مثال لهذا وهو الهندسة الاقليدية التى عدت لأكثر من عشرين قرنا حقيقة ثابتة حيث وضع اقليدس أساسها منذ القرن الثالث قبل الميلاد على مسلمات لا تخضع للبرهان، فنجد هؤلاء الذين كانت لديهم الجرأة على تغيير هذه المسلمات قد أمكنهم فى الوقت نفسه تغيير صورة العالم. فالحقيقة العلمية ليست أبدا حقيقة مطلقة، انها حقيقة نسبية وأسيرة الشروط سواء الصريحة منها أو الضمنية التى تأسست الحقيقة تحت ظلها.

ولقد أصبح الباحث فى نهاية القرن الحالى متيقظا لسلسلة المصايد والفخاخ التى أشرت لها من قريب. فالعلم لم يأخذ فى التقدم من خلال المشاهدات والأدوات الجديدة فقط، وانما أيضا من خلال فن إعمال الفكر.

ومن أجل الوصول إلى «لب» ما أفكر فيه أتساءل مع نفسى عما كان يحدث لو أن كل شخص يتعقل الأمور دون أن ينتبه للفخاخ المنطقية التى أخذت تكشف عنها التجارب الحديثة. وأتساءل أيضا عما كان يحدث لو لم تجعلنا مخاطرة التشبيه حريصين على الاستكمال من الخارج بدءا من المنطق والقياس المعتاد إلى مقاييس الفضاء والزمن، المختلفة تماما عن دنيانا الصغيرة العادية.

اننا نجد حقا فى أعمال كثير من الفلاسفة مثل نيتشه وستيوارت ميل وآخرين، التشاؤم والتحذير من الخطر الكامن فى التطبيق الخاطىء لعاداتنا المنطقية على مجالات لا تصلح لها . اننا منذ الطفولة وما بعدها لا نستطيع كبح جماح أنفسنا من التساؤل عن مسببات الأشياء. ويحق هذا فى الأحوال التى يكون لها دائما سبب أو أكثر. ولكن هل يحق لنا هذا السؤال مع المقاييس الكونية؟ وهل يحق لنا أن نسأل أنفسنا عن مسببات ودلالة العالم تحت زعم أن كل شىء فى حياتنا اليومية يبدو له

مسبب ومعنى؟ إذ أن افتراض أن العالم له دلالة أو مغزى يعنى فى حد ذاته افتراض أن مفهوم الدلالة هذا ليس مقيدا بالمنطق البشرى، فهو ينطبق على العالم ولابد أن يستمر له معنى ولو اختفى الناس.

اننا فى هذا الطريق نلعب مع اللانهاية المكانية، ولا نستطيع تخيل أن السؤال عن حدود العالم سؤال باطل بالصورة التى يدعونا اليها المشتغلون بالطبيعة الفلكية. فمن الواضح أننا نلعب مع اللانهاية الدنيوية ولا نستطيع تخيل أن العالم له تكن له بداية بالرغم من أن مسألة بداية العالم ربما تكون سخيفة وغير معقولة مثلها مثل التساؤل عن حدود العالم.

وعلى أية حال فان يكن تطبيق كلمة بداية على العالم هو لا شيء أكثر من كونه استكمالا من الخارج ومحظورا شرعا وهو وليد الحقيقة القائلة بأن كل شيء حسب مقياسنا البشرى له بداية، وليس هناك من شيء على ما يبدو الا أن يكون مخلوقا، فهل أكون فى حاجة إلى التساؤل عما قد يمثله هذا من ثورة فى عاداتنا الفكرية؟

إن هذه الأفكار المقلقة وهذا الادراك لجوانب الضعف المحتملة فى تفكيرنا العقلانى قد لا تكون جديدة حيث استطاع كثير من الفلاسفة رؤيتها. ولكنها المرة الأولى فى تاريخ الفكر الانسانى التى تظهر فيها هذه الحدود للمعرفة بالدليل القاطع، مما يعود مرجعه الى التقدم العلمى الحديث. ان العلم بتجاربه الثمينة يسمح لنفسه أن يعلن أنه لن يترك المفتاح فى قفل القفص.

والى من قد يشعرون بالاحباط يمكن أن نجيبهم بأن المعرفة العلمية للعالم ليست وحدها قطعا هى المسلك الوحيد لتفكيرنا. انه توجد أشياء أخرى للفكر، مثل الشعور بالحاجة إلى الجمال والعاطفة والايمان ومبادئ الأخلاق والتعطش للعدالة، مما يعتبر مملكة الباطن التى لم تعد تصلح فيها لزوميات وحدود المعرفة العلمية.

خُوان لِسْكانو

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

(١)

إذا سلمنا بأن أدب أمريكا اللاتينية جزء مما يسمى بالثقافة الغربية جاز لنا أن نسأل: لماذا عجز هذا الأدب عن التأثير فى أى أدب من الآداب الكبرى فى الغرب، فيما عدا الأدب الإسبانى؟ وأقول بعبارة أدق إننى عندما أتحدث عن التأثير لا أشير إلى تأثير ثقافة أمريكا اللاتينية وتاريخها فى الغرب، وانما أشير إلى تأثير الأدب على وجه التحديد، أعنى تأثير الكتابة والكتاب واللغة ومحتواهما وتأثير الابداع والرموز. ولقد ظل أدب أمريكا اللاتينية - كالأدب اليوغوسلافى أو البلغارى أو الأيسلندى - ظاهرة هامشية، على الرغم من فوز إيفو أندرتيش بجائزة نوبل. والدليل على ذلك أن إنتاج هذا الأدب يدور فى دائرة مغلقة، وليس له أى صدى حقيقى إلا فى إسبانيا. هذا إلى جانب أنه يعانى من الشعور بالذنب لسببين: أحدهما عجزه عن مجاراة التيارات الأدبية المعاصرة، والآخر عجزه عن التعبير عن الواقع الاجتماعى. وبسبب هذا الشعور بالذنب يتظاهر هذا الأدب بالتجديد، واتباع النماذج الأجنبية، أو بتمجيد هوية قومية لم تنتج أى شكل من الأشكال الأدبية

المترجم : أمين محمود الشريف

الجديدة، وكل ما أنتجته لا يعْدو أن يكون فنا ضئيل القيمة من فنون الدعاية. وتجنح هذه القومية إلى المحاكاة والاقتباس، أو ترتد إلى الوراء. وهى إما تحاول مجاراة التيارات الأدبية الحدثية، وإما تبتدع نوعا من القومية الأمريكية العنيدة بطريقة حمقاء تدل على الغباء، وإما تقبل الأشكال الشعبية التقليدية التى تتيح لها إنتاج أعمال أدبية مثل العمل الأدبى المسمى Martin Fierro الذى لا تنكر قيمتهُ بالنسبة لأهل أمريكا اللاتينية، وإن كان محدود المجال.

وجدير بالذكر أن الرغبة الواضحة فى تحويل طرق التعبير فى أمريكا اللاتينية إلى لغة عالمية تظهر على المسرح الدولى لم تتحقق إلا قليلا. ذلك أن الابداع الأدبى فيها لم يشجع على إيجاد حركات أدبية جديدة قوية، كالرومانسية، والرمزية، والحركة الجمالية، فى نهاية القرن التاسع عشر، والدادية، والسريالية، والبِنْيوية. بل يلاحظ أن كل جديد يأتى من أوربا، كما يأتى من الولايات المتحدة، وهو الأمر الذى يجرح كبرياء أمريكا اللاتينية. ويلاحظ أيضا أن إنتاج أنْدرية بيلو، لا يحظى بالانتشار الواسع على الصعيد الدولى، وإن كان ذلك لا يعنى أنه إنتاج لا قيمة له، ولا غناء فيه. والواقع أن تأثير أديب لايتنى إنسانى مثل خُوسيه إنريك دودو، محدود فى أدبنا، وكذلك تأثير الحركة العصرية المسماة Modernismo ، وهى حركة إن كانت قد أثرت فى الأدب الاسبانى فلا صدى لها فى البرازيل، وقلما يعرفها أساتذة الجامعات فى أوربا وأمريكا، أو رجال التعليم. مثال ذلك أن روُبن داريو، يُجِّل قدر الشاعر الفرنسى فيولين الذى يعاصره، ولكن هذا الأخير لا يعرف شيئا عن داريو، بل لا يدرى أموجود هو أم غير موجود!

كما أن دَاريو، الذى لعب دورا حاسما فى أدب أمريكا اللاتينية لا يزال مجهولا فى أوربا و الولايات المتحدة، عدا أقسام اللغة الاسبانية فى الجامعات، وذلك خلافا للشاعر الأمريكى بُو، (إدجار ألان بو ١٨٠٩ - ١٨٤٩) الذى أثرت أعماله فى الشاعر والكاتب الفرنسى بُودِيلير (١٨٢١ - ٦٧). وجدير بالذكر أن كلا من داريو وبو أمريكى، ولكن بينما الأول لا يهم سوى أمريكا اللاتينية وإسبانيا، إذا بالثانى يتمتع بشهرة عالمية تتجاوز نطاق الأدب الغربى. وإذا قصرنا النظر على الدائرة الأمريكية وحدها وجدنا أن بعض الشخصيات مثل فرانكلين، وأيْرفَنج، وهوفمان، وثُودو، وإيمِرْسون، ولُونج فيلو، وهوفمان، وتوين، تمتعوا بشهرة دولية أكبر مما تمتع به بَيلُو، و مُونتالفو، وسارمِنْتُو، ومارمول، وبومبو، وايزاك، وهُسْستوس، وترِفُو. هذا فيما يتعلق بالقرن التاسع عشر.

أما فيما يتعلق بالقرن العشرين فإنى لا أرى أن اتجاه الرياح قد تحول لصالح أدب أمريكا اللاتينية وفكرها. على الرغم من ازدهار فن الرواية فيها، ومنح جوائز نوبل لكل من جبريلا مسترال، وميجويل أنْجِل أستورياس، وبابلو نيرودا، وجبرييل جارثيا ماركيز. صحيح أن انتاج هؤلاء الكتاب قد تُرجم إلى عدد من اللغات كما تُرجم إنتاج جاليجوس، وكورتازار، وغيرهما، ولكن يجب التسليم بأن هؤلاء الكتاب يحتلون مكانا ثانويا، ولم يثيروا من الاهتمام لدى النقاد، وفى السوق، إلا أقل بكثير مما أثاره هيمنجواى، وفنرجيرالد، وميلر، ودوس باسوس (فى عصره)، وشتاينْبك، وفوكنر، وباوند، وأونيل، وتنيسي ولبامز، وساروبان. ولا أذكر هنا ملفيل صاحب خرافة، «مُوبى ديك»، وهو كاتب جدير بالتقدير تم اكتشافه حديثا، علَى الرغم من أنه ولد فى ١٨١٩ وتوفى فى ١٨٩١، أعنى أنه ينتمى للقرن التاسع عشر، ويعاصر الروائيين من أهل أمريكا اللاتينية الذين طواهم النسيان، مثل الأديب الشيلى ألبرتو بلست جانا، الذى تأثر بالأديب الفرنسى بلزاك، ومثل أديب أرجواي المسمى اليخاندرو مَجارينوس سرفانتس مؤلف رواية «كرامورو»، وهى رواية من روايات رعاة البقر، نُشرت على حلقات، ومثل الأديب المكسيكى فيسانت ريفا بلاثيو، والأديب الأرجنتينى لوفيو فكتور يانو مانسيلا. وفى فنزويلا ولد الكاتب خوسيه هيريبرتو جراثيادى كريفيدو، فى سنة ١٨١٩ وهي السنة نفسها التى ولد فيها هيرمان ملْفيل. وعاش خوسيه فى فرنسا عدة سنين وشهد الانفجار التاريخى الذى أصاب «كوميون» باريس (حكومة باريس الاشتراكية من ١٨ مارس إلى ٢٧ مايو عام ١٨٧١ ثم قضى عليها جنود الجمعية الوطنية التى ادعت أنها الحكومة الشرعية). ولم يؤلف خوسيه كتابا مثل موبى ديك، وإنما ألف قصصا صغيرة كقصة «أمور دى إينا يننا» إلخ.

ولم يكن ملفيل معروفا فى عصره حين نشر رواية «موبى ديك» فى ١٨٥١. ولم يدرك النقاد فى عصره القيمة الكبرى لهذا الكتاب الذى حول الحقيقة إلى خرافة بإدخال سلسلة من التغيير والتبديل ولكن النقاد المحدثين اكتشفوا مكانة المؤلف، ورأوا فى «الحوت الأبيض» رمزا للفوضى والاضطراب فى هذا العالم العقيم، ورمزا للشعور بالرعب إزاء الحقيقة المطلقة، ورأوا فى الكابتن «أهاب» رمزا للارادة الصلبة التى تهزم كل الكائنات الوحشية المخيفة، وتقاوم الهواجس النفسية التى تؤرق فؤاد الإنسان. بيد أن هذه الرمزية النموذجية ترتكز على لغة تمزج بين أسلوب الكتاب المقدس والعاطفة المتأججة، كما ترتكز على شخوص غريبة وجذابة. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يتسم بالرومانسية الواضحة فإنه عمل أدبى يتسم بروح العصر بسبب ما يشو به من الغموض، وما يحفل به من الرموز والتراكيب المعقدة، وما يحتويه من

الأوهام والخيالات: فالبحر فى هذا الكتاب هو «مملكة» كل ما هو مجهول ومهول، والإنسان يواجه ما يزخر به هذا البحر من الغار وأسرار. وبالإضافة إلى العناوين السابق ذكرها نستطيع أن نذكر هاتين الروايتين المعاصرتين لرواية ملفيل، وهما رواية «ماديا» بقلم جورج ايزاك التى نشرت فى ١٨٦٧، ومن الأفضل أن نضرب عن ذكرها صفحا، ورواية «أماليا» بقلم خوسيه مارمول، التى بدأ نشرها على حلقات فى السنة نفسها التى ظهرت فيها رواية موبى ديك. ولكن أحدا لا يهتم سواء براوية ماديا أو أماليا اللهم الا الطلبة الذين شاء لهم سوء الحظ أن تكون مقررة عليهم فى برامج الدراسة!

وعندما نشر خوسيه إنريك رودو كتابه «أدْيل» فى ١٩٠٠ - وهو يتضمن نقدا مُقَنَّعا للعالم المادى الذى تعيش فيه أمريكا الشمالية، وديمقراطيتها الضئيلة القدر، وإن كانت ضخمة الحجم، والمفتقرة إلى رقة أمريكا اللاتيينية وبراعتها فى معالجة المواقف الصعبة، والمجردة من المثل العليا، والبعيدة كل البعد عن روح أمرسون أو تشانينج - كان فيما يبدو لا يعرف شيئا عن أدباء أمريكا الشمالية فيما عدا الشاعر بُو الذى يبدو أنه قرأ فيما ترجمه الشاعر الفرنسى بوديلير. ويبدو أن خوسيه كان يعرف بعض الكتاب مثل نثانيل هُوثورن، وإميلى دكنسون، ومارك تُوين، وهنرى جيمس، والأديب الشعبى جيمس فنيمور كوُبر، والشاعر الفحل والت ويتمان. ولكن يبدو أن النزعة الديمقراطية الفاضحة التى تعبر عنها قصيدته «أوراق العُشب» البعيدة عن الأسلوب الرقيق فى كتابه «أديل» لم تعجب رودو، ولذلك لم يعرها اهتماما على عكس ما فعل رُوبن دايو الذى نظم رسالة «أديل» شعرا وتغنى بأمجاد «السلالات اللاحقة والغزيرة الإنتاج التي انحدرت من اسبانيا الخصبة»، وقارن بأسلوب بليغ وقومى بين أديل الأمريكى اللاتينى، وبين كاليبان الأنجلو سكسونى (أديل شخصية «طيبة» فى حين أن كاليبان شخصية شريرة ورد ذكرهما فى مسرحية «العاصفة» لشكسبير)؛ وبعبارة أخرى قارن بين مثالية الهنود الحمر والأمريكيين اللاتين، وبين النفعية الامبريالية الخسيسة عند اليانكيين (اسم لأهل أمريكا الشمالية) ويهدد داريو بتودور روزفلت (رئيس أمريكا الشمالية) ويصفه بأنه «صياد مفترس» مذكرا إياه أن «أمريكا - أمريكتنا - قد أنجبت شعراء فطاحل منذ عصر الشاعر الهندى الأحمر القديم نتراهوكو يُوتل، وأنها - أى أمريكا اللاتينية - قد اقتفت أثر باخوس العظيم (إله الخمر عند الرومان)، وتعلمت أبجدية الإله بان (إله الغابات والمراعى والأنعام عند الاغريق).

إن هذا الشاعر الغنائى، السخى الكريم، سليل الهنود الحمر، وسليل الأغارقة والرومان فى الوقت نفسه - وهؤلاء الشعراء الألف شبل من أشبال الأسد الاسبانى. سوف يقذفون الرعب - بعون الله - فى قلب روز فلت "الكاليبان" (الشرير) حتى ترتعد فرائضه وترجُفَ بوادره !

وهكذا رفع داريو شعارا ناجحا استلهمه من صورة «المتوحش الطيب» (رمز للهندى القديم) - صورة العصر الذهبى والماضى الفردوسى الذى يعوض أهل امريكا اللاتينية عن العديد من مظاهر الاحباط الاجتماعى والتاريخى والاقتصادى والثقافى. وانك لتجد الكتاب الواقعيين - سواء منهم من يتظاهر بتقليد غيره والنقل عنه، أو من يحاول تفسير الواقع الاجتماعى - كلهم يبحث دائما عن الهندى الأحمر القديم محاولا بعثه إلى الحياة من جديد، سواء فى الذاكرة أو فى قصة خيالية. ويتخذ هؤلاء الكتاب من الهندى القديم مبررا للثورة على الأوضاع الحاضرة التى تجثم علي أنفاس الناس. ولهذا الهندى القديم دور كبير فى البحث المحموم عن هُوَيَة أمريكا التى يقدح الأمريكيون اللاتين زناد أفكارهم لمعرفتها والوقوف على حقيقتها. وقد عالج الكتاب موضوع الهندى القديم بأكثر الأساليب الأدبية تنوعا سواء بتصويره بصورة المثل الأعلى بأسلوب رومانسى رمزى أو باستخدام الملصقات واللافتات أو بالصور الجدارية والتماثيل. ومن ذلك أيضا أنك تجد أنطونيو أريز يهدى كتابه الهام «أسْبرو» إلى «الموتى العظام» والذرارى الأمجاد من نسل النسر «ستنج بُل» والأمير مُكتوزوما، والشاعر «ننزاهو كويوتك»، والنمر «كواهتومكتزين»، إلخ. ومن العبارات الرنانة التى يمجد فيها أريز أسلافه الهنود ما افتتح به كتابه حيث قال: «إننى أتغنى بأمجاد أمريكا العذراء. أتغنى بأمريكتى الهندية الخالية من الأسبان والمسيحية». وظهرت هذه العبارات فى الوقت الذى اكتشفَت فيه أمريكا عندما أعلن كولمبوس، وفسبوتشى، وكَبْرال، براءة الهنود الحمر وطيبَ سريرتهم. وهذه هى الروح التى ألهمت مونتنْى، وغذّت روسو، وألهبت مشاعر شاتوبريان. ولكن تُوماس مور سبقهم جميعا حين جعل سفر (يوتوبيا) «المدينة الفاضلة» فى أمريكا، وبارك الأب لأس كاساس، هذا الاعتقاد فى براءة «المتوحش الطيب» (الهندى القديم). وكان من سوء حظ أمريكا اللاتينية أن أصبحت منذ اكتشافها هدفا لمختلف الأفكار والأسماء التى طافت فى أذهان الأوربيين فوصفوها بالعالم الجديد، وقالوا إنها موطن «المتوحش الطيب» وإنها جنة الله فى أرضه، وإنها الموطن الاسطورى للثراء والرخاء، وإنها ينبوع الشباب، وأرض التوابل، والمنجم الخرافى للذهب والفضة. ثم جاءت الطامة الكبرى فى النهاية حين فقدت امريكا اوربا، وتقطعت أواصر الاتصال الروحى بينهما. وكان

الاضطراب الناشئ عن هذا الغموض واللّبس هو مصدر الأقوال والأسئلة، التى لا أساس لها، ولا جواب عنها، والتى تدور حول أصل العالم الجديد، وهوية أمريكا ثم اختلفت الأجناس البشرية فى أمريكا بصورة كثيفة، وازداد هذا الاختلاط فى مناطق شاسعة بتدفق الزنوج على أمريكا، وزاد ذلك كله من أسباب الاضطراب واللبس بشأن هوية أمريكا. وكان فقدان البراهين العقلية الدالة على هذه الهوية، والراجعة إلى هذا الاضطراب واللبس من جهة، وآلى التراث الاسبانى من جهة أخرى، من الأمور التى دفعت المثقفين الأوربين ليقولوا لنا: «من نحن» بعبارات صريحة دون موارية، ودون أن يلوذوا بالصمت.

إن فقدانا لأوربا وانفصالنا عنها، والاضطراب الناجم عن الشتات الداخلى فى أمريكا، والنكسات التاريخية والاجتماعية، والدمار الشامل الذى حل بها مما يذكرنا بالتصريح الرهيب الذى أدلى به بوليفار حيث قال: «إن الاستقلال هو الثمرة الوحيدة التى جنيناها من وراء التضحيات التى بذلها الآخرون»، كل ذلك يوضح لنا التفسيرات المعقدة والقابلة للمناقشة - وان كانت تتسم بكثير من بعد النظر - كتلك التى أشار إليها هكتور مورينا فى مقال له بعنوان «الخطيئة الأصلية لأمريكا». وإنى لأذكر مما قرأته فى هذا المقال الجرىء إصراره على الإشارة إلى أن الأمريكى اللاتينى يكرر - بطريقة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ - تجربة الحياة فى عالم يخيم عليه شبح «الوحدة والموت»، ويحاول تحقيق ذاته (استخدام طاقاتته وامكاناته وقدراته الكامنة إلى أقصى حد) فى بيئة استحكم فيها التخلف، بعد أن فقدت مقومات الحياة.

ويتضح من هذا القول أن «خطيئتنا الأصلية» (تعبير مستعار من الكتاب المقدس وهو يطلق على خطيئة آدم الأصلية حين أكل من الشجرة المحرمة) نحن معشر الأمريكيين اللاتين هى أننا طردنا من أوربا (يريد أنهم طردوا كما طرد آدم من الجنة) - التى هى فى نظر مورينا مركز القيم الروحية، وبعبارة أخرى مركز التنمية العضوية - لنصل إلى بيئة موحشة مقفرة محرومة من القيم الروحية الأصلية، واضطررنا إلي الاعتماد على أنفسنا بلا معين ولا نصير. وهكذا بث مورينا فى البيئة الأمريكية روح الشك والتشاؤم ونشر فكرة التشرد وعدم الاستقرار، والوجود فى مكان ليس لنا أى اختيار للإقامة فيه - وهى حالة نفسية أجاد سيزر فاليجو فى وصفها حين قال: إن أغلبية شعبنا تعيش فى آلام «لا نهاية لها» لأنه كُتب علينا أن نولد هكذا بلا سبب ولا مبرر.

(٢)

نستطيع أن نفهم مما تقدم أنه إذا كان هناك اتصال روحى بين البريطانيين المستعمرين الذين عمروا الساحل الأطلنطى من أمريكا الشمالية من ولاية فرجينيا إلى ولاية مين، وبين الوطن الأم (بريطانيا)، فلأنهم لم يكونوا متشبعين بالخرافات الوثنية القديمة كتلك التى سرت فى أفئدة الغزاة الأسبانين للمكسيك وبيرو، والذين كانوا فى الأغلب يتألفون من الجنود المرتزقة العاطلين بعد سقوط غرناطة. ولذلك عانت أمريكا الإسبانية الأمرّين من أمرين متناقضين: أولهما المذهب العقلى الذى تأثرت به النهضة الأوربية الحديثة والذى لا يُقر إلا ما يتفق مع أحكام العقل؛ وثانيهما المذهب اللاعقلى السائد في العصور الوسطى، والملئ بالرؤى والرموز، والشخوص الملكية والشيطانية، ورواسب الخرافات ومظاهر الرعب الغامضة. وخلال الأجيال المتعاقبة أدى اختلاط الأجناس البشرية إلى زيادة حدة ظواهر المتناقضات، كما أدى إلى ظهور متناقضات أخرى. ووهنت الروابط مع أوربا، وحتى إذا لم نسلم بما ذكره «مورينا» من فقدان أوربا فمن المؤكد أن الغزاة الأسبان بدأوا حياة جديدة إذْ وجدوا أنفسهم منفيين فى بلاد يراد فتحها. ولا شك أن «لوب دمى أجويرى» هو خير مثال لهذا الشعور «بالوحدة والموت» في البيئة المقفرة التى تحدث عنها مورينا فى القسم السابق.

وجدير بالذكر أن المستعمرين البيوريتان (المتطهرين، وهم طائفة دينية متزمتة فى انجلترا) لم يكونوا - فيما يبدو - يهيمون فى بيداء الخيالات والأوهام، لأنهم هاجروا إلى العالم الجديد (أمريكا) مع أسرهم لهدف محدد، ألا وهو العثور على الثروة فى إطار مجتمع تسوده روح الإخاء والمحبة. ونحن نعرف أنه كان من بين المهاجرين الذين غادروا انجلترا على ظهر السفينة «ماي فلاوَرْ» ٣٤ رجلا، و٢٩ امرأة، و ٢٠ ولدا ، و ٨ بنات. وكان من بين الـ ٣٤ رجلا راشدا ١٨ من أرباب الأسر، وفى صحبتهم ٣ خادمات، و٥ خدم فى سن الشباب، و ١٩ رجلا من الحرفيين والبحارة والخدم الخصوصين. ويؤخذ مما رواه جون سميث أنهم استمعوا لما نصحهم به وهو استغلال مصايد الاسماك وتجارة الفراء. ولذلك لم يكونوا يتطلعون إلى جبال من البلور أو الفضة أو إلى مدن ذهبية، أو إلى رؤية ملوك يلبسون الذهب، أو إلى ينابيع الشباب، وغابات التوابل. ولم يخشوا مواجهة الهُولالت (الكائنات المهولة) أو رؤية رجال من نوع آخر. ولم يكن هؤلاء المتطهرون وكذلك ألمهتزون، (جماعة دينية أسسها

واعظ دينى اسمه جورج فوكس كان يأمرهم أن يهتزوا عند ذكر اسم الرب) يشبهون الغزاة الاسبان المتوحشين الذين لم يكونوا من أرباب الأسر، ولذلك كانوا يغتصبون النساء الهنديات، وينهبون القرى، ويؤمنون بخرافات القرون الوسطى، ويحرصون على جمع المال، ويعتقدون بوجود كنوز خفية. ولكن لقد كان رجلُ انجليزى اسمه «سير والترالى» من رجال عصر النهضة هو الذى نشر حكايات غريبة عن حيوانات وكائنات بشرية غير معروفة، وذلك فى أثناء حديثه عن رحلته بين قبائل نهر «الأورينوكو» واسمهم «المونوسيلوس»، وقال إن أقدامهم كبيرة جدا، وقبائل «المانتكوراس» الذين قال عنهم إن رؤسهم تشبه رؤوس البشر ولكن كل فك فى أفواههم به ثلاثة صفوف من الأسنان، وأن جسمهم يشبه جسم الدُّب، وأن لهم أنياب الأسد، وذيل العقرب. وقبائل «إيوايْبا توماس، الذين توجد وجوهم فى وسط صدورهم ناهيك عن «الأمزونيات» (جيل من النساء المحاربات المتشبهات بالرجال) اللاتى خيل اليه أنهن يوجدن في كل مكان. ولكن كل هذه الخيالات لم تمنع «والترالى» من رؤية إمكانيات الثروة الزراعية فى هذه الأقاليم.

وكان البريطانيون الذين استعمروا الساحل الأطلنطى لأمريكا الشمالية من رجال الاصلاح الدينى، أما غيرهم فكانوا أشياع الحركة المضادة للإصلاح الدينى. ويقول بروكز أدمز: «لقد كانت حركة الاصلاح الدينى حركة اقتصادية فى المقام الأول. ويتجلى ذلك بأجلى مظاهرة فى انجلترا التى أرادت أن تصبح سوقا مالية للعالم بأسره» وكانت حركة الاصلاح الدينى تطالب بإعادة توزيع الثروة، ووضع انجلترا على الطريق المؤدى إلى التوسع الرأسمالى، والثورة الصناعية.

لذلك انفتحت انجلترا على العالم والطرق البحرية والمؤسسات التجارية فى كل البحار. وأدى هذا التوسع إلى انتاج لون عالمى من الأدب، لا أدب شكسبير ومارلو فحسب، بل أيضا أدب بِنْ جونسون، وملتون، ودُون. وأصبحت انجلترا ومستعمراتها عالما واسع النطاق يبشر بالنمو والازدهار فى المستقبل. وشهدت فترة هذا الازدهار تألق أعمال الشاعر وليم بليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) والشاعر بوب الذى برع فى النقد الأدبى، ودانيل ديفُو الذى ذاع كتابه «روبن صَنْ كروزو» فى أنحاء العالم، و«سويفت» صاحب الأدب الخيالي الذى تجلى فى كتابه «أسفار جلفَر». وهكذا ذاع الأدب الانجليزى فى أنحاء العالم، ولم يقتصر على جزيرته وحدها لأنه أبى أن يكون أدبا انجليزيا محضا.

وعلى نقيض ذلك أدت الحركة المضادة للإصلاح الدينى التى أيدتها محاكم

التفتيش والحكم الإمبريالى (الاستعمارى) المطلق إلى انغلاق إسبانيا على نفسها وكانت بمثابة الوطن الأم لامبراطورية لا تغرب عنها الشمس. وكان آل هابسبرُج على رأس الحركة المضادة للانطلاق الاقتصادى والفكرى الذى تزعمه الأنجلو سكسونيون، فرفضت اسبانيا العلم التجريبى والنقد الفلسفى، والاجتماعى، والنقد الذاتى، والنهضة الصناعية والتجارية، وحافظت مستعمراتها على الأوضاع السياسية السارية فى الوطن الأم. وما إن انجلت غياهب عهد الأوهام الخرافية حتى أصبحت الثروة قائمة على نظام الاقطاعات الكبيرة المعتمدة على أعمال الأرقاء والأقنان (جمع قِنّ بكسر القاف، عبد الأرض يعمل على أرض سيد اقطاعى ثم تنتقل ملكيته إلى وراث الأرض).

عاش فيليب الثانى متحصنا فى صومعة ديره كالراهب، وعكف فى إصرار جنونى على إصدار كل القرارات الخاصة بامبراطوريته الضخمة، وتولى بنفسه حل المشكلات كبيرها وصغيرها. وكانت قراراته تستغرق عدة سنوات، ولكن الزمن لم يكن يهم ذلك الرجل الذى انتابته هواجس الاكتئاب النفسى ونوبات الاضطراب العصبى واستحوذت عليه عقدة نفسية من الحب والكراهية معا نحو أبيه حسبما قرر الطبيب النفسانى يوهان كريمويوس الذى فحص حالته، تلك العقدة التى دفعته إلى تنفيذ خطط أبيه إلى حد التطرف الذى قضى على هذه الخطط نفسها. ذلك أن أفكار أبيه ومشروعاته ورغباته السياسية التى شارك فيليب فى تنفيذها لم تتجاوز مدة حكمه الذى استمر ٤٢ عاما، فما إن توفى حتى تقرر إلغاؤها بعد أن تبين أنها غير عملية، وانقلبت إلى نقيضها تماما.

وعكف هذا الملك على ملفاته، وسن قوانين ولوائح وتنظيمات ومراسيم، وأشرف على وظائف الدولة الرسمية بل على الملابس الرسمية، حتى أصيبت أسبانيا بالشلل. ولما لم يكن بدمن استمرار اسبانيا برغم كل شىء تكونت اسبانيا أخرى تموج بالأوغاد والمتشردين والمحتالين والمتسولين والقَوّادين (جمع قَوّاد وهو الذى يجلب النساء وييسر الحصول عليهن لاغراض الدعارة) والعاهرات الفاجرات والموظفين الجشعين والسوق السوداء والفساد الادارى والبطالة والكسل وسوء استعمال السلطة. ودب دبيب الفساد فى الحكم المطلق العقيم من الداخل، وتفاقم الإفلاس فى عهد الملوك الذين جاءوا بعد ذلك.

ويلخص كريمويوس ما أصاب اسبانيا من تدهور وانحطاط فى فترة طويلة لا نستطيع نقلها هنا بحذافيرها وإنما ننقلها هنا بايجاز مع توخى الدقة، قال:

«ما إن تولى العرش شارل السادس آخر ملوك أسرة هابسبورج حتى بدأ على

وجه السرعة آخر فصل من قصة تدهور اسبانيا ليُسدل عليه الستار نهائيا. لقد تردت اسبانيا فى مهواة الوهن والعجز وضآلة الشأن. وظلت تغط فى سُباتها العميق مئة عام حتى عجزت عن ملاحقة التطور العظيم الذى ظهر فى كل ما أحاط بها من بلدان أوربا، فلم تقم أى صناعة على ترابها، وانتقلت تجارتها إلى الدول البروتستانتية الواقعة فى الشمال. وفقدت العلوم فى اسبانيا صلتها بالمشكلات والقضايا الموجودة خارج اسبانيا، ولذلك فقدت هذه العلومُ أهميتها. ولم تجد مبادىء النهضة الأوربية الحديثة ولا الفلسفة الانسانية (التى تؤيد العقل) أىَّ تربة صالحة لها فى اسبانيا، وتوقف تيار التاريخ عند أبواب بلد تحولت إلى قلعة محصنة. وبدأ فى اسبانيا عهد من الآراء البالية المتحجرة القائمة على التأمل فى الماضى والتمسك بالتقاليد العتيقة، وجثمت على أنفاس البلاد أوضاع دينية وسياسية متطرفة أصابت البلاد بالعقم تحت وطأة المواعظ والعقائد المتشددة. صحيح أن الدين المسيحى قام بمجهود أخير تعوزه الحركة والحياة لاصلاح الحال (تريزا دي أفيلا)، ولكن إذا كان الفجر قد أحيط بهالة من الأمل فى بعث اسبانيا فان هذا الأمل لم يلبث أن خبت جذوته أمام الصيغ والشعارات الفارغة من المضمون، فقد اتسعت مسافة الخُلف بين الدين والأخلاق. وكان من الأعراض الهامة للمرض الخطير الذى أصاب البلاد اختفاء كل لون من ألوان الفنون نتيجة الإخفاق فى ابتكار أساليب جديدة ومضامين جديدة، وآية ذلك أنك ترى «كالدرون» يتجه بكليته إلى الماضى، ويتغنى بأمجاد زمن مضى وانقضى» ا هـ .

وليس هذا مقام الإفاضة فى أسباب تخلفنا السياسى والاقتصادى، ولكننا بصدد الكلام عن أسباب تخلفنا فى مجال الأدب، صحيح أن بعض آراء كريميوس تحتاج إلى تقويم، ولكن ذلك لا يقدح فى صواب أحكامه الأساسية. ذلك أن الأدب الاسبانى قد توقف عن الانتشار وعدم التوسع، ليهبط فى أرض التقاليد أو ليصعد إلى مستوى يتلاشى فيه ويهيم فى فراغ يعشى الأبصار أو تتردد فيه الأصوات. فقد افتقر نشاط هذا الأدب على رواية المغامرات، ثم خاض فى تصوير حياة المتشردين والأفاقين. وكذلك جنح هذا الأدب إلى الانغلاق على نفسه، وعلى لغته، وعلى الواقع الاسبانى متمسكا دائما باللغة الاسبانية الاقليمية (القشتالية)، على الرغم من تأسيس الامبراطورية الأسبانية، وبهذا انحصر فى دائرته المحلية الاقليمية، على عكس الأدب الانجليزى الذى لم ينحصر قط فى دائرة الجزيرة البريطانية، بل سار مع جلفر وديفو، كما سار مع شكسبير ومارلو، ولم يتقيد بالسمات العرقية واللغوية. أما الأدب الاسبانى فانه جنح إلى الواقعية أى تصوير الواقع الاجتماعى الشعبى. وعلى الرغم من أن اسبانيا بسطت سلطاتها السياسى على العالم فإنها لم تفعل ذلك فى الأدب.

وهذا هو السبب فى أن هذا الأدب اختنق بالتدريج بعد القرن السادس عشر، فقُضى نهائيا على عالمية سِرفانتس فى سجن الباروك (أسلوب شاذ فى الأدب وفن العمارة). ويقول مريانو بيكون سلاس فى دراسته الرائعة بعنوان «من الغزو إلى الاستقلال» التى نشرها بالمكسيك فى ١٩٤٤: «ان الباروك من الأسلحة الدفاعية الهائلة التى تذرعت بها اسبانيا فى القرن السابع عشر لمحاربة النزعة العصرية الحديثة». والحق أن الباروك ليس مزيجا من الآراء من الأشكال الثقافية المتنوعة كما يفهم من بعض الآراء الأدبية فى الوقت الحاضر، ولكنه فن يتسم بالافراط فى التأنق والتكلف، دون أى مضمون، كما يتسم بالزخارف السطحية التى تحجب العيون عن رؤية ما خفى من العيوب. إنه لغو فارغ، وعمل أدبى شكلى محض، وهو غلو فاحش واسراف زائف لا يرى الانسان فى نهايته سوى الوهم والموت كما قال بيكون سلاس، حيث ان الباروك ينكر الحياة فى النهاية.

وفى عهد شارل الثانى الذى حكم من ١٦٦٥ إلى ١٧٠٠ استنفد الأدب الاسبانى أغراضه. ومر القرن الثامن عشر دون نجاح باهر، فى حين بدأ على الجانب الآخر من جبال البرانس تطور فكرى هائل فى فرنسا وألمانيا وانجلترا بالاضافة إلى «فلسفة التنوير» (حركة فلسفية ظهرت فى القرن الثامن عشر تقول إن العقل والعلم - لا الدين - يساعدان على تقديم الجنس البشرى) التى عملت على صبغ المسيحية بالصبغة العقلانية والعلْمانية (الدنيوية وفصل الدين عن الدولة) لتعيد إليها قوتها. ونحن نتحدث عن حدوث «نهضة حديثة» فى الأدب الاسبانى خلال القرن التاسع عشر، ولكن يكفى أن نفكر فى الحال التى كانت عليها رومانسيةُ هذا الأدب لكى نرفض هذا القول. وكانت أمريكا اللاتينية تغط أيضا فى سبات عميق، وتسير فى طريق التدهور والانحطاط. فلم تنجب أديبا مثل سرفانتس أو «لوب دى فيجا» وإنما أنجبت بعض الأدباء الذين استلهموا الروايات الاسبانية المعالجة لموضوع المتشردين والأفاقين، من أمثال الأديب كُنكو لونكُرْڤُو، وفرنانديز دى ليزاردى، وذلك باستثناء كاتب واحد اسمه «سور جوانا إنيس دى لا كروز».

وواصل الأدب الانجليزى مسيرته وتقدمه فى المستعمرات الأمريكية على ساحل الأطلنطى. ولم يَحُلْ استقلالُ هذه المستعمرات دون استمرار هذه العلاقة الروحية والثقافية. مثال ذلك أنه ظهر فى هذه المستعمرات من يضارع سويفت، وملفيل. أما الولايات الاسبانية فانها ظلت تغط فى السبات الفكرى الذى عاش فيه الوطن الأم، ولم تستطع الأسرة المالكة الجديدة من آل بوربون أن توقظها منه برغم ما بذلته من

مجهود نسبى. ولقد أصاب «مورينا» المحزَّ عندما أكد أننا معشر الأمريكيين اللاتين كنا نسكن أرضا تسمى أوروبا مهد القيم الروحية ولكننا طردنا منها فجأة، وهبطنا أرضا أخرى مقفرة من الروح أطلق عليها اسم أمريكا بالصدفة. وفى رأى مورينا أن الهجرة من أوروبا إلى أمريكا كانت بمثابة خروج آدم من الجنة!

على أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه. ذلك أن امريكا كان فيها ثقافات محلية ذات حظ كبير من القيم الروحية، ولكن المسيحية الامبريالية حطمت هذه القيم. وتفسير ذلك أن العزلة الثقافية والأدبية فى جزر الهند الغربية الاسبانية نجمت عن العزلة التى تردت فيها اسبانيا بعد أن أدارت ظهرها لأوربا وللنهضة الأوروبية الحديثة وللحركة النقدية الكبرى المتولدة عن حركة الاصلاح الدينى، والمتغيرات العميقة المترتبة على اكتشاف أمريكا. حقا لقد أثرت أمريكا فى أوروبا، ولكن تأثيرها كان ضعيفا فى اسبانيا. ذلك أن مدة الحكم المطلق فى عهد آل هابسبورج، والأربعين عاما التى عاشتها حكومة فيليب الثانى الامبريالية، هى التى قضت على الطابع الروحى لهذه الثقافة كما قضت على تراثها الفكرى. وكانت الصحوة الروحية التى حدثت فى اسبانيا ابان العصر الذهبى (فى القرن ١٥) قوية ولكنها كانت منعزلة. وكانت شعلتها قوية ولكنها لم تلبث أن انطفأت، وساعدت العزلة التى تردت فيها اسبانيا ابان حكم فيليب الثانى على انطفائها. أما أمريكا اللاتينية فقد عانت الأمرين من أحقاد المغامرين، ووحشية الجنود العاطلين، والرغبة المادية فى جنى الثروة بلا عمل، بالإضافة إلى مظالم محاكم التفتيش. وفيما يتعلق بالأدب فقد اقتصر دوره على تدوين الأخبار. ولما استيقظت الولايات الاسبانية من سباتها، وسعت للحصول على استقلالها، تطلعت إلى الولايات المتحدة، وانجلترا وفرنسا، وتأثر الأدب فيها بالأدب الفرنسى لما كان لفرنسا من نفوذ عظيم فى القرن التاسع عشر. أما الأدباء الذين عجزوا عن محاكاة النماذج الأدبية الرفيعة، فقد لجأوا إلى محاكاة الرومانسية الاسبانية القديمة. وصفوة القول أن الأدب فى أمريكا اللاتينية كان قد بدأ، أو كان على وشك أن يبدأ، إذ لم تكن الحياة قد دبت فيه بعد. وهذا هو السبب فى أن النجاح الذى أحرزه لم يكن له سوى صدى ضعيف فى الخارج، كما كان السبب فى أن هذا الأدب عمل فى نطاق دائرة مغلقة هى الدائرة التى دار فيها الأدب الاسبانى إبان تدهوره. وحاول أدباء أمريكا اللاتينية توثيق صلتهم بالأدب الفرنسى، وأحيانا بالادب الانجلو سكسونى أو الألمانى، وأن يسيروا على نهج هذه الآداب وينتحلوا أساليبها وطرقها وخططها. ولكن اذا كان الإنتاج الأدبى قد تغير من حيث الشكل فإن محتواه لم يتغير كثيرا، إذ لم يحدث أى تجديد فى الأساليب والتراكيب واللغة والرموز، بل

لم ينشأ أدب صحيح بمعنى الكلمة.

(٣)

لقد أدى التمسك باللغة القشتالية (لغة مقاطعة قشتالة القديمة التى هى أساس اللغة الاسبانية) إلى إضعاف الأدب الاسبانى الذى أخذ الآن ينتحل الصبغة الأوروبية. ولا ريب أن هذا الارتباط العاطفى بالأرض والتمسك باللغة الوطنية المحلية التى بنيت فى إقليم قشتالة، والحرص الشديد على نُقاء اللغة والأدب من الدخيل، كل ذلك عاد على الأدب الاسبانى بأبلغ الأضرار. وبينما تخلت الآداب الأوروبية عن ألوانها المحلية، وتخلصت من العادات الشعبية والتقاليد المحلية والاقليمية، بغيةً الاتصال بالعالم الخارجى، والانفتاح عليه، والانتشار فيه، إذا بالأدب الاسبانى يدعم أسوار عزلته، ويغلق عليه حدود دولته ويعكف باستمرار على البحث فى موضوع الهوية. ومن هنا تأخرت الحركات الأدبية الأوروبية، الرومانسية، الرمزية، والسريالية، وأدب الطليعة[١]، فى الوصول إلى أسبانيا، وتأخرت أكثر من ذلك فى الوصول إلى أمريكا اللاتينية. وقاومت اسبانيا انتحال الصبغة الأوروبية، وواصلت باستمرار العودة إلى جذورها. وتأثرت امريكا اللاتينية، أو على الأصح أدب امريكا اللاتينية، بهذه الأفكار التى تسلطت على الأذهان وبخاصة فكرة الهوية، إذْ كان أهل أمريكا اللاتينية يرون واجبا عليهم أن يبحثوا عن هويتهم التى كانوا يتوقون إلى معرفة سرها وأصلها: من نحن؟ ولماذا نحن؟ متى كنا؟ ممن نتألف نحن؟ هل نحن أصلاء؟ ويرفعون عقيرتهم صائحين: فلنحارب التبعية، فما من أدب يعتمد على النماذج الأدبية فى أوربا وأمريكا الشمالية أكثر من أدبنا نحن؟ ولنحارب التبادل الثقافى، فما ثقافة أمريكا اللاتينية سوى ثمرة التبادل الثقافى؟ وواضح أن شك المرء فى هويته هو من الظواهر المرضية.

وقال «أرتُورو أسلَر بيترى» فى إحدى الندوات: «ربما كنا نحن العالم الجديدَ، وإذا لم نكن فقد أسهمنا - علَى الأقل - فى ميلاد عصر جديد. ولا شك أن الميزة التى نتمتع بها الآن لجعلنا فى عداد بناة العالم الجديد الذى يأتى به الغد». وهذا القول هو

---

(١) أدب الطليعة أو الرواد الذين يبتكرون نماذج وأفكارا أدبية جديدة (المترجم).

- بلاشك - أهم مما ذكره ذلك الرجل الخيالى الذى يدعى «سيمُون رُدْ رجويز» القائل: «إن امريكا الاسبانية أصيلة. ويترتب على ذلك أن تكون حكومتها ومؤسساتها أصيلة، وأن تكون وسائل إقامة هذه الموسسات والحكومة أصيلة»!

ولكنا نقول إن أمريكا اللاتينية ليست أصيلة. وبذلك تنهدم النتيجة التى رتبها سيمون على مقولته، ذلك أن ماضينا الحافل بالأفكار الخيالية والوهمية ومظاهر الانحطاط والتدهور، والفشل وخيبة الأمل، من شأنها أن تؤثر فى مصيرنا. وإذا قيل ان الدليل على أصالة امريكا اللاتينية هو اختلاط السلالات البشرية فيها فإننا نقول إن هذا ليس دليلا على الأصالة، لأن أمريكا اللاتينية ليست فريدة فى هذا الباب. ولو أنك قلبت صفحات التاريخ لوجدتها حافلة باختلاط السلالات البشرية وتآلفها وتنافرها. ومن الواضح أن ثقافتنا معشر الأمريكيين اللاتين امتداد للثقافة الاسبانية التى امتزجت بثقافة السكان الأصليين، وامتداد ثقافة الزنوج الإفريقيين فى بعض المناطق. وجدير بالذكر أن موضوع أصالة أمريكا اللاتينية شائع بين المثقفين. فمنذ الاستقلال إلى اليوم يتساءل المثقفون عن ماضيهم، ويدرسون بلا ملل العوامل الثقافية التى أثرت فيه، ويبحثون عن خصائصه وأحواله، ويناقشون التاريخ. ويقف المثقفون حيارى أمام صورتهم، وهم يترددون بين الانكار والتصديق ويتابعون التعريفات التاريخية والاقتصادية والسيكولوجية التى تسمح لهم بمعرفة أنفسهم وحقيقة هويتهم. والحق أنهم يفتقدون اليقين، ولهذا يفتقدون هويتهم.

إن مسألة الهوية القومية والثقافية لها أهميتها فى الميدان السياسى، وهى تعود بفائدة على الدارس المتخصص، ولكنها لا تعود بفائدة على من يستعين بها فى توجيه وتحديد الإبداع الفلسفى أو الفنى الذى نعبر عن قيمه بلغة لا صلة لها بالمسائل الخارجية مثل مسألة الهوية القومية. ذلك أن الابداع مسألة داخلية تتعلق بذات المرء وملكاته الباطنية وأحواله النفسية ولا صلة لها بالمظاهر الخارجية.

إن رجال أمريكا الشمالية حين يكتبون ويفكرون لايتساءلون عن هويتهم: انهم أنجلو سكسونيون مع بعض الفروق التافهة. أما نحن فإننا - على العكس - ننكر ذاتنا الاسبانية، بل أقول، بعبارة أدق، إننا لم نعد اسبانيين بسبب عزلتنا التى تردينا فيها عندما أفل نجم آل هابسبورج. وكانت حرب الاستقلال التى خضناها حربا ضارية بين الابن وأبيه. لقد دمرت هذه الحرب طرق الاتصال بيننا وبين اسبانيا، وفقدت اللغة نفسها طابعها الاسبانى، واصطبغت اللغة السياسية فى عهد الاستقلال بالطابع الفرنسى إلى أقصى حد كما نرى فى بوليفار، وسار الأدب فى هذا الطريق أى سار

فى طريق التحول والتجديد، وهذا ما حرص عليه الأديب «بيلو».

كانت مهمة «بيلو» هى إضفاء مظهر من مظاهر الجدة على الأدب فى «المساحات الشاسعة» التى يمكن أن تكون مصدر إلهام لأدب جديد أصيل كما قال «سارمنْتو». ولكن الأدب لم يكتسب طابع الأصالة والابتكار، كما لم يستطع الاستمرار فى طريق الأدب القديم، لأن هذا الاستمرار معناه امتداد التدهور أو الفقر الأدبى حين انغلق الأدب على نفسه بقوة وحماسة، تماما كما يقول المثل الاسبانى السائر: «عندما تَمنح المرأة الاسبانية قُبلة فإنها تمنح هذه القبلة بحرارة وحماسة». ثم جنح الأدب إلى تقليد فرنسا خاصة، فرنسا التى لا تعرف شيئا عن أمريكا، فأصبحت باريس هى قبلة الطبقة المثقفة خلافا لكل التوقعات. ولا تزال هى قبلة الكثيرين منذ قرن مضى.

ثم جاءت الرومانسية، والواقعية، والطبيعية، والوضعية، وأدب الطليعة أو الرواد، وحركة «الأدب فى خدمة المجتمع»، فغمرت كلها أدبنا فى موجات متلاحقة. ولكن قلما تجلى الابداع الا فى تصوير الوقائع التاريخية، وتصوير الواقع الاجتماعى، مع البحث دائما عن الهوية، هوية أمريكا اللاتينية، البعيدة المنال، والعزيزة المرتجى، والصعبة المبتغى. وسرى هذا البحث عن الهوية، وتصوير الواقع التاريخى والاجتماعى فى كل أساليب التفكير والتعبير. والخلاصة أن الأدب جنح إلى التصوير لا الابداع، تصوير أمريكا الكريولية (الخلاسية: المكونة من مزيج من الهنود الحمر، والاسبان)، وتصوير المناظر الطبيعية الشاسعة، وتصوير اختلاط السلالات البشرية، وتصوير الوقائع التاريخية والصراعات الاجتماعية. وهذا الاصرار من جانب أدباء أمريكا اللاتينية على التصوير لا الابداع – وهو امتداد لعمل المؤرخين الاخباريين أيام الغزو الاسبانى – يدل على افتقارنا إلى القدرة على الخلق والإبداع، واعتمادنا على خرافة القومية ورغبتنا فى أن تكون «أمة» واحدة. وهذا هو السبب فى أن الأدباء والكتاب، بدلا من تأليف الروايات، يدونون الأخبار ويؤلفون سير الأبطال وقطاع الطرق فى منظور سياسى وتاريخى. هل فى وسعك أن تتصور أن مالروُ أو مالكوم لورى، أو فوكنر، أو دوريل، أو هكسلى، يكتب سيرة والتر رالى، أو الملكة أليزابيث الأولى أو وشنطن؟

(٤)

لقد آن لنا أن نفهم – مرة واحدة وإلى الأبد- أن الإبداع الأدبى لا يمكن أن يُتَصور إلا لذاته، لا لفائدة ترجى منه، أو لأى غرض من الأغراض السياسية أو

الاجتماعية أو التاريخية. ولا يمنع هذا أن نستفيد منه بعض الدروس التاريخية. أو الاجتماعية، ولكن بشرط أن يكون هذا نتيجة لا أمرا واجبا. ولو أنك أنعمت النظر فى أدبنا نحن لوجدت أنه كان يهدف ولا يزال إلى أن يكون تاريخيا أو اجتماعيا أو مفيدا أو أن يصور هويتنا القومية والأمريكية قبل أن يكون أدبا محضا. وهذا الهدف المحدود لوظيفة الأدب التى لا يتفاداها سوى قليل من الأدباء، مثل بورجيس، وراموس سُوكر، وماسيدُنيو فرنانديز، والكاتب المغمور خوان إيمار، لا يمنع الأدب من القوة الروحية فحسب، بل يحول دون رواجه فى السوق العالمية، أى سوق الكتب العالمية الكبرى. فترى الكاتب منا - نحن الأماركة اللاتين - يعلن منذ البداية عن نفسه: «أنا أمريكى لاتينى»!. والنتيجة المباشرة لهذا الاعلان هى ضعف تأثيره، لأن الأثر الذى يحدثه مثل هذا الاعلان لا يتجاوز الأثر الذى يحدثه عصفور نادر فى قفص تربية الطيور، كأن يسلى الجمهور لحظة من الزمن، أو يساعد على دراسة الطيور. والكاتب الذى يفعل ذلك يضع نفسه على هامش الأدباء، حين يجعل من نفسه متحدثا باسم أمريكا اللاتينية. ونحن لم نسمع قط أن سويفت، أو ملفيل، أو بُو، أو إليْوت، أو إبْسن، أو فلوبير، علّق لافتة على جبينه تعلن أنه إنجليزى أو أمريكى، أو إسْكند نافى، أو فَرَنْسى!

إن القومية تلازم المرء طول حياته. هذا أمر مفهوم، ولكنها تصبغ الأدب بالصبغة المحلية لا بالصبغة العالمية، فمثلها كمثل المناخ المحلى لا كمثل جواز السفر الدولى. ولا يستطيع المرء أن يكتب، وعينُه مسلطة على هويته القومية. إن للكتابة مقتضياتها وخصائصها، وتزداد قيمة محتواها متى اتسع نطاق انتشارها. وكلما ابتعدت عن القومية اقتربت من العالمية. هذه حقيقة معروفة. ولا يمكن أن يصل الكاتب إلى العالمية متى استحوذت عليه فكرة القومية.

إن الحوّاتين (جمع حَوَّات، وهو صائد الحيتان) فى رواية ملْفيل ينتمون إلى مختلف بلاد العالم، وإنك لتجد الخرافات المعروفة فى زماننا شائعة فى بعض الروايات مثل رواية وذرنج هايتس (المرتفعات العاصفة)؛ ورواية دكتور جيكل ومستر هايد، تلك الرواية الرائعة بقَلم الكاتب الانجليزى المشهور سْتيفنون التى عرضتها السينما بصورة مشوهة؛ ورواية «أليس فى بلد العجائب» التى أدهشت رمزيتها الفنانين والعلماء النفسانيين، ومثل رواية فرانكنشتاين وهُولته (الهُوله مخلوق مخيف غريب الشكل)، ورواية «الرومانى الأسود» للكاتبة الانجليزية مارى جُدْوين زوجة الشاعر شْيلى. ناهيك عن روايات الخيال العلمى بقلم فْيرن، والأدب من عهد «أوفيد» إلى

عهد «بوودجس» بما فى ذلك سيرانودي بيرجواك (كاتب مسرحي فرنسي)، وألف ليلة وليلة. وربما كانت قصة دكتور «فاوست» (موضوع قصة أسطورية لرجل باع نفسه للشيطان فى نظير معاونة الشيطان له على أن يعيش ٢٤ سنة) خير مثل يجسد الرغبة فى القوة وخلود الحضارة. وقد قدم لنا الأدب الاسبانى نموذجين عالميين هما دون كيخوته، وسلستينا. كل ما سبق ذكره نماذج عالمية. أما أبطال أمريكا اللاتينية فهم على وجه العموم شخصيات اجتماعية لا نماذج عالمية. ويحاول مؤلفوها دائما أن يعلنوا عن هويتهم القومية وظروفهم الإقليمية. والآن نسأل: هل يخطر ببال أحد أن يبحث عن نموذج الرجل الأمريكى فى أشباح الشاعر الأمريكى يُو؟ إن الكاتب الأمريكى (وهو من أهل الجنوب فى أمريكا الشمالية) لم يكتب بوصفه من أهل الجنوب الأمريكى لسكان الجنوب الأمريكى، ولم يكتب بقصد تصوير جنوب الولايات المتحدة. والحق أن الابداع يجب أن يتجاوز الأفق القومى، وإن كان هذا لا يعنى إنكارَ الجانب القومى أو إخفاءه. ذلك أن الشعور القومى جزء من التجربة الحية، ولذلك فإنه لا حاجة إلى اعلانه.

إن الاصرار علي تصوير القومية يحد من آفاق العمل الأدبى. ولقد وقعت أحداث قصة «تحت البركان» فى المكسيك ووقعت أحداث «الانشودة الرباعية» للكاتب دوريل فى الاسكندرية. ولم يذكر هكسلى المكان الذى وقعت فيه أحداث قصته «العالم الجديد الجرىء». ويكرر لورنس رسائله فى انجلترا، وأستراليا، والمكسيك، وإيطاليا. وينقل «مالرو» تحقيقاته إلى الأحوال الانسانية فى الصين. وليس معنى ذلك بالطبع أن تفهم «العالمية» على أنها بمثابة «دليل سياحى». وإنك لتجد كثيرا من الروائيين يستخدمون أماكن غريبة فى رواياتهم.

إن الذى أريد أن أنبه الأذهان إليه هو ضرورة تخلص الأمريكى اللاتينى من بعض المفاهيم الثابتة التى تحد من قدرته على الإبداع كرغبته فى تصوير أمريكا اللاتينية واصراره على أن يعكس هويته، وخضوعه للمادة التاريخية، واعتقاده أنه من أهل عالم سحرى أصيل. ناهيك عن تضحيته بالخيال على مذبح الحقيقة. ولا يرى أحد ماكنُه هذه الحقيقة، لأنها قد تكون حقيقة جغرافية أو اجتماعية أو سيكولوجية أو تاريخية أو سحرية أو باروكية أو شعبية أو ثورية أو سياسية أو فولكلورية. والحق أن الواقعية فى الأدب لا تعنى أى شىء، وكانت هذه الواقعية ولا تزال هى المدرسة الرئيسية والسبيل الوحيد لمفهوم الأدب فى بلدان أمريكا اللاتينية. وكان هذا التعلق بأهداب الواقعية هو ضريبة أخرى دفعناها للبحث عن هويتنا.

وعندما يريد أي جيل من الأجيال أن يؤكد ذاته فإنه يسعى إلى تعميم لغته وجعلها لغة عالمية لكى يكون معاصرا لبقية العالم. ولذلك يؤكد الروائيون فى عهد ازدهار الرواية اكثر مما كونته الأجيال السابقة أنهم استطاعوا بفضل قرائهم العالميين أن يتجاوزوا الحدود المعتادة لأدب أمريكا اللاتينية، وبخاصة المذهب الواقعى فى الأدب، لكى ينتقلوا إلى حقيقة أخرى هى حقيقة «الأدب في ذاته»، وحقيقة الأسلوب والكتابة. على أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه، لأنهم يكررون الخطط القديمة، أى يتبعون طرقا جديدة للبحث الأبدى عن هوية أمريكا الجنوبية. وهذا هو السبب فى أن «سفرو ساردوى» تمادى فى الباروك الكُوبى إلى غايته، ومال لرأى مغاير لآراء «كاربنْتير» الذى هو أقل الكتاب الكُوبين الكبار تمسكا بأهداب الباروك. واقترح أدبا جديداً خلاصته التكلف المفرط، ورفض الساجا Saga (وهى القصة الزاخرة بأعمال البطولة)، والفن الجصّى الأمريكانستى (نسبة إلى سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر)، والتجارب الأمريكانستيةَ، والبحوث الكونية، والواقعية السحرية (التصوير الدقيق والواقعى للصور الخيالية) التى يفسرها بأنها اختبار زائف بين الساجا وتجسيد التجربة الداخلية، ويصبو إلى سيادة الكلمة المكتوبة، وتحررها من القيود معتمدة على الرموز المحضة الخالصة.

وأنا لا أشارك «ساردوي» فى رأيه هذا، وأعتقد كما يعتقد «بلانشوت» أن مثل هذا الأدب مآله إلى الزوال، لأنه إذا وجب أن يقوم على الكتابة وعلى طبيعته وحقيقته الخاصة فاننا نجد أن ساردوى يغذى هذا الأدب بما هو خارج عن هذه الطبيعة والحقيقة. والحق أن ساردوى نموذج صارخ للاتجاه الشائع فى وقتنا هذا، وهو «الكتابة البعيدة عن الأدب لا عن الحياة». ويبلغ الباروكُ الشائع فى الكتابة الكُوبية ذروتَه فى شخص «سفرو/ سار دوى»، وهو «الباروك» الذى فسره هو نفسه بأنه ليس عودة إلى الطبيعة اليانعة، إلى الغابة «الأمزونية» (نسبة لنهر الأمزون فى أمريكا اللاتينية) - كما قال «كاربنتير»، وانما العودة إلى التهكم على الطبيعة والسخرية منها. إن ساردوى يضع نفسه فى الطرف الأقصى من حركة «أدب الطليعة» الشائع الآن لكى يهرب من الأحابيل التقليدية التى تاهت فيها - كما قال - حركة ازدهار الرواية. ويبقى بعد ذلك أن ننظر: هل ينجح ساردوى فى الخروج من الفلك الأمريكانستى، ويصل إلى جمهور دولى من القراء، كما وصل «بورجيس» الذى تناول كل هذه الموضوعات بذكاء فائق وتهكم لاذع.

والواقع أن فكرة «ساردوى» عن الباروك صحيحة، والذى يميز الأدب الكُوبى الراهن

ليس هو الباروك «والأمزونى» عند كاربتير، ولكن الذى يميزه هو تكلف ساردوى وصنعته، انه الباروك الذى عرفه ماريانو بيكون سلاس فيما سبق. ولقد فكرت كثيرا فى سبب هذا الاتجاه الباروكى الذى اتضح بكل جلاء منذ ظهور مجلة «أفانس» (١٩٢٧ - ١٩٣.) التى دافعت عن «النقاء» الأدبى بوصفه أدبا رائدا من أدب الطليعة، وعرفته على النحو التالى: «ممارسة الجمال والتأمل بعيدا عن الحقيقة الانسانية المباشرة». وكان شعر «ماريانو برول» فى ذاته بداية لممارسة الباروك.

وكانت كوبا حتى نهاية القرن التاسع عشر مستعمرة اسبانيا وفضلا عن ذلك كانت مستعمرة جزَرية (نسبة لجزيرة). وكان الأدب فى اسبانيا إذ ذاك مغمورا غير مشهور. فاختنقت المستعمرة الكوبية الصغيرة وانكفأت على نفسها، وظلت تغط فى سباتها العميق على صوت الموسيقى الكوبية الراقصة المعروفة باسم «سونز ودانزونز»، فى حين انصرف السكان الأفروكوبيون إلى ابتداع الأساطير والخرافات الغريبة. وكان الأدب الناشىء خانقا أيضا يستمد وحيه من ثقافة قوامها النباتات الاستوائية الرَّخصة، وحقول قصب السكر، والروم (شراب سكر)، والسكر. وكانت السواتر (البرافانات) المطرزة بالخرز تعلوها نوافذ ملونة صغيرة. وهذا يذكرنى بالزخارف العربية (الأرابسك) فى الصور الزيتية الداخلية من عمل «أماليا بيليز» و «بورتو كاريرو»، والزخارف الباروكية من عمل «ليزاما ليما» التى تزدادن بها أركان الحجرات، كما يذكرنى بالكاتب «سفرو ساردوى» وأبرز ما فى هذا المشهد الشامل (البانوراما) هو الكاتب «أليجو كاربنتير».

(٥)

وفى ختام هذا المقال أرى من المناسب أن نعترف بالعلاقة الوثيقة بين التقدم الأدبى والتقدم فى حد ذاته، فليست مشكلة الأدب هى مشكلة السوق والقراء فحسب، بل هى مشكلة الإبداع الذى تتهيأ أسبابه وتتفتح آفاقه أمام الكاتب الذى يعيش فى أمة قوية متقدمة قادرة على ابتكار الأساليب التقنية المتطورة، وذلك خلافا للكاتب الذى يعيش فى بلاد متخلفة كأمريكا اللاتينية التى يساعد تخلفها على إضعاف ملكة الابداع. ولأضرب لك مثلا يوضح ذلك، فأقول: إن شعرا متوسطَ الجودة مثل شعر الشاعر الروسى «إفتوشنكو» ما كان ليجد له قارئا لو كان هذا الشاعر يعيش فى هندوراس بدلا من روسيا. وفى وسعى أن أضرب أمثلة أخرى عديدة. يضاف إلى ذلك أن آليات الصناعة الثقافية الكبرى لها شأن كبير فى هذا المجال، ولكن مراكز هذه الصناعة لا توجد فى أمريكا اللاتينية، بل توجد فى أوربا، واليابان، والاتحاد

السوفيتى، والولايات المتحدة.

وهذا النقد الذى ذكرته هو نقد ذاتى فى الوقت نفسه، لأن الحاسة النقدية القوية هى وحدها التى تؤدى إلى التغلب على المشكلات. ومن هنا أقول إن أدبنا اليوم فى موقف يكتنفه الغموض. فمن جهة أدرك أدباؤنا العيوب ومواطن القصور الناجمة عن التمسك الأعمى ببعض المفاهيم الضارة مثل الواقعية النفعية، وتمجيد القومية، وتشجيع النزعة الشعبية، والتفسيرات الساذجة التى تحملّ الامبريالية الأمريكية المسئولية عن كل عيوبنا، حتى عيوبنا الروحية. يضاف إلى ذلك ابتذال فن الدعاية عندنا. ومن جهة أخرى فإن ارتقاء فن الرواية عندنا، والفوز بجوائز نوبل، وازدهار عهد الفن الروائى (الذى انقضى الآن) ورواج سوق الأدب بفضل الطبعات الاسبانية، كل ذلك قد يغرينا بالرضا عن أنفسنا، ويوهمنا أن مثل هذا الارتقاء يرجع إلى ارتقاء ملكاتنا، ونظن أننا قد اكتشفنا هويتنا فى النهاية. وكل هذه الاتجاهات شديدة الخطر، لأننا اذا اعتقدنا ذلك انصب اهتمامنا عندئذ على الأدب الوظيفى، وأسطورة الأصالة فى أمريكا اللاتينية. ولذلك لا يسعنا إلاّ أن ندعوَ الكاتب الأمريكى اللاتينى أن يمارس النقد والنقد الذاتى، وأن يبنىَ الأدبَ على جودة الأسلوب، والكتابة، ومراعاة مقتضياتها وأن ينمى ملكة الخيال التى يفتقر إليها الأدب المكتوب باللغة الاسبانية، وأن يدرك أن هويته الفردية والقومية انما هى ثمرة تجارب – ربما تكون عشوائية وفوضوية – تظهر بالتدريج واحدة بعد أخرى خلال الحياة، تجارب تدور داخل نفسه ولا حاجة إلى تحديدها، ثم ندعوه إلى أن يكتسب رؤية وروحا تسمو على الحدود القومية، والتاريخ القومى.

خوان لسكانو

(كراكاس)

جيــان أودوز

هل الكون فى تغير ؟

أولا: مقدمة

سيكون موضوع هذا المقال ما أصبحنا نعلمه من أن الكون فى تطور بل فى ثورة مستمرة وهى ملاحظة لم تكن لتتأتى الا فى الآونة الأخيرة.

فقد كان لزاما علينا أن ننتظر الأرصاد التى أتتنا من المجرات البعيدة فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٥٠ على يد أدوين هابل ذلك الفلكى الذى كان أول من كشف لنا عن أن الكون ككل فى حالة تمدد مستمر. وأصبحنا نعلم الآن أيضا أن شكل الأبراج أو التجمعات النجمية الأقرب الينا مثل الدب الأكبر قد تعدل خلال الألف سنة الأخيرة. فلقد تصور الفلكيون القدامى ومعهم بقية البشر فى ذلك الوقت أن الكون أزلى غير متغير. ثم اقتنع علماء الطبيعات الفلكية اليوم أن الكون قد مر منذ عشرين بليون سنة بمرحلة متفردة كان خلالها شديد الحرارة عظيم الكثافة، وأطلقوا على هذه الظاهرة اسم التنفجر الأصلى أو المبدئى[1]. واعتقد البعض كما سنرى بعد

---

(١) نجد فى الكتابات العلمية باللغة الإنجليزية إشارة إلى عبارة "big bang" أى الفرقعة العظيمة، ويرى زميلى ميشيل كاسى أن هذه العبارة تعبير تصويرى ليس لها معنى، لأن الظاهرة لم تكن انفجارا حدث بالفعل بل تمددا سريعا.

المترجم : محمد جلال عباس

أن الكون سوف يمر مرة أخرى بمثل هذه الحرارة العظمى التى ستتولد من متناقضات مستقبلية، ويتوقع آخرون مزيدا من التجمد ومستقبلا فارغا للكون.

وفيما بين ذلك الماضى العظيم والمستقبل الذى لا يعرف عنه شيء مؤكد يكشف لنا الكون فى كل يوم المزيد من عظمته بفضل التوصل إلى تقنيات حديثة فى الرصد وبداية غزو الفضاء. والغرض من هذا المقال هو أن نقدم صورة موجزة عن الطريقة التى ينظر بها الفلكيون إلى الكون اليوم، وبدءا من دراسة وضع الإنسان فى الكون وعلاقته به التى بدأنا نفهمها بصورة أفضل.

مر العلم والتكنولوجيا بعامة وعلم الفلك بصفة خاصة بتطورات واضحة خلال الفترة الأخيرة من هذا القرن. وتعدلت نظرتنا للسماوات وما تحتويه بشكل واضح بفضل ذكاء الإنسان الذى اخترع مستقبلات ضوئية أكثر حساسية أو تحسن أجهزة الاستشعار الذاتية للفضاء. هكذا كانت هذه الثورة التى حدثت فى تقنيات الأرصاد الحديثة نتيجة للأجهزة الأرضية الهامة سواء البصرية منها أو الفلكية اللاسلكية ثم نتيجة لبلوغ عصر الفضاء. ويستفيد علم الفلك الذى يعد من أقدم العلوم التى عرفها الإنسان من التقدم الحالى فى الطبيعيات وبخاصة التناهى فى الصغر. والكون كما سنعرف فيما بعد هو أعظم معمل أو مختبر يمكن أن نجده، إذ يوفر لنا الأحوال الطبيعية التي لا يمكن لنا أن نحققها فى الأرض من المواد العظيمة الكثافة مثل النجوم النيوترونية التى تعرف باسم «الخفافة»، والمواد الشديدة الحرارة التى مازالت فى المرحلة الأصلية، والمواد المتفجرة مثل تلك التى تتكون فيها النجوم اللامعة مثل العماليق.

ومع استخدام نظرية بلانك الكمية، ثم نظرية بوهر الذرية، وأخيرا نظرية اينشتاين فى النسبية، استطاع الإنسان منذ بداية القرن العشرين أن يتعرف على طبيعيات الأشياء المتناهية فى الكبر التى تتحكم فيها الجاذبية. ومن جهة أخرى بدأنا نتفهم، بفضل الطبيعيات الذرية، بنية الذرة التى تتكون من نواة والكترونات تدور حولها، وبفضل الطبيعيات النووية عرفنا بنية نواة الذرات وامكانية تعديلها، والآن تضع طبيعيات الجزئيات الأولية أمامنا حقيقة أن العالم مليء بالجزئيات التى تتكون منها المادة التى نتكون نحن منها بل والجزئيات المتعددة التى تملأ الكون. بهذا الفهم الجديد الامتناهي فى الصغر أصبح بامكاننا أن نتعرف على ملامح الكون ككل من حيث تاريخه وبنيته.

أمكننا بواسطة منظورنا للكون الذى استخدمت فيه تقنيات جديدة فى رصده وادراكنا لأدق مكوناته أن نتابع تطوره، وأصبحنا الآن بفضل ثلاثة تقنيات مختلفة هى امتداد الكون وعمر أقدم النجوم وقدم العناصر الكيماوية الطويلة العمر مثل اليورانيوم أن نتعرف على عمر الكون، وأصبحنا قادرين على أن نصف تاريخ كل جزء من مكونات الكون مثل تجمعات المجرات (مثل سكة التبانة أو الطريق اللبنى الذى تقع فيه أرضنا) والنجوم، وتجمعاتها والنظام أو النظم الشمسية.

ويبلغ عمر الكون نحو عشرين بليون عام، وتكونت المجرات بعد بليون سنة من مولد الكون، ويبلغ عمر الشمس نحو ٤,٦ بليون سنة، ونحن نعلم ان الشمس سوف تتمدد بعد خمسة بلايين من السنين وسوف تحتوى الإرض فى تمددها هذا لتصبح واحدا من النجوم العماليق الحمر. وفى هذه الحالة تصبح الأرض كلا واحدا مع الشمس، ثم بعد ذلك ببليون عام سوف تفقد الشمس طبقاتها العليا وتصبح سديما كوكبيا ثم تتحول إلى نجم قزم وتصبح بعد ذلك شديدة الكثافة نظرا لأن قطرها سيصبح مساويا لقطر الأرض ولن تزيد حرارة سطحها عن ٥٠٠٠٠ درجة كلفنية. وبينما هى تبرد أثناء تحول الشمس من قزم أبيض إلى قزم أسود سوف تتحفر أو تتصلد تماما، وبذلك لا تظهر الا من خلال تأثيرات الجاذبية التى تستطيع أن تؤثر بها على المواد المحيطة بها.

ونستطيع أيضا فى الوقت الحاضر أن تتنبأ بمستقبل كوننا، فاما أن يمر الكون بمرحلة جديدة شديدة الحرارة وهى مرحلة التقلص التى قد تحدث خلال مئة بليون عام أو أنه سيمر بمرحلة جليدية. وفى أى من الحالتين ستكون قادرين على تكوين أفكار تكون غالبا واضحة، عما ستكون عليه الأوقات المقبلة سواء شديدة الحرارة أو شديدة البرودة. لذا يمكننا أن نتبنى آراء المؤرخين أو علماء الطبيعة التى تجيب عن الأسئلة المتعلقة بالكون، وسوف نتناول بالدراسة هذه الآراء المختلفة فى كل جزء من أجزاء هذا المقال، وننتهى بأن نتذكر أن الكون ما هو الا معمل كبير، وأننا مجرد تراب من أتربة النجوم. فالإنسانية لا تنفصل عن الكون كله، وسيصبح بإمكاننا أن نتفهم الكون إذا ما عرفنا أنفسنا.

ثانيا: رصد الكون

منذ قديم الزمان أخذ الإنسان يرصد السماوات ففى كتابات البابليين وغيرهم من أهل الحضارات القديمة نجد آثارا تدل على ذلك العمل الفتان، وتعرف أهل الحضارتين

الاغريقية والرومانية على الطبيعة المميزة للكواكب، وكذا المصريون والفينيقيون. بيد أنه لم يكن لدى الإنسان حتى بداية القرن السابع عشر سوى جهاز واحد يستخدمه هو عينيه والحقيقة أن زميلى ألفريد فيرال مادجار قد لاحظ فى الأطلس الفلكى الكبير (١٩٨٣) أن الجهاز الحقيقى الذى استخدمه الإنسان فى الرصد هو عقله، ذلك أن جميع تقنيات الرصد فى الأرض أو السماء، مما سنشير إليه فى هذا المقال، ما هى الا مجرد توصيلات تضاف إلى عين الإنسان وعقله.

تخضع عملية الرصد من الأرض لأحوال جونا التى تتميز بامتصاصها للأشعة فوق البنفسجية (مما ساعد لحسن الحظ على تطور الحياة)، وذلك بفضل طبقة الأوزون (وهى الأوكسوجين الثلاثى الجزيئات الذرية) التى توجد فى طبقة الهواء العليا (الطخرورية stratosphere). ولا تسمح طبقة الهواء الأرضى إلا بمرور موجات الاشعاع الضوئى [التى يترواح طولها بين ٤,. و ٨,. ميكرون (جزء من الالف من المليمتر)] وموجات الراديو [التى يتراوح طولها بين ١ مم و ١٠٠ م] والتى تصل إلى الأرض من الخارج. وترى فى الأرض أيضا بعض من الاشعاعات تحت الحمراء. وللتوصل إلى الأشعة فوق البنفسجية وغيرها من الاشعاعات الأكثر طاقة (وهى الاشعاعات السينية كالتى تستخدم فى أجهزة الاشعة) واشعاعات جاما، ولكى تختبر الأشعة تحت الحمراء لابد من استخدام تقنيات فضائية للتغلب على تأثيرات امتصاص الهواء الجوى.

لم يبدأ الرصد الفلكى حقيقة الا فى القرن السابع عشر مع اختراع جاليليو لأول منظار فلكى (تلسكوب) وهو المنظار الذى يحمل اسمه. وبدأت المناظير الفلكية تتطور على يد كل من كاسيجرين ونيوتن، وبفضل هذه المناظير استطاع أحد فلكيى القرن الثامن عشر من اكتشاف أجرام سماوية مثل كوكب أورانوس. وظهرت خلال القرن التاسع عشر آلتان رئيسيتان، أولاهما: اللوحة الفوتوغرافية التى تميزت بشيئين: الاحتفاظ بالصورة الفلكية، والقدرة على تغطية مساحة كبيرة من السماء بلقطة واحدة. وارتبط الاختراع الثانى بتطور الطبيعيات النووية التى أدت إلى اختراع المطياف الذى أمكن به تحليل الضوء إلى اشعاعات بسيطة بملاحظة حزم الأشعة إما الأشعة التى تتخلل العناصر الكيماوية المختلفة أو تمتص فيها. ولقد أمكن من خلال الأعمال التى قام بها كل من فراونهوفر وكير شكوف تحديد مكونات سطح الشمس، وكانت هذه التحليلات ذات أهمية كبيرة لانها أدت إلى اكتشاف الهليوم الذى يكاد يكون معدوما على سطح الأرض رغم أنه أكثر العناصر انتشارا بعد

الهيدروجين. ويعتبر هذا بمثابة ادراك للظواهر الرئيسية لكل التركيب الكيماوى للكون.

كان للتقدم العلمى والتقنى فى القرن العشرين فائدة كبرى للفلكين ولعلماء الطبيعة الفلكية، إذ أقيمت مناظير ضوئية كبيرة خلال العقد الثالث. وظهر الفلك الاشعاعى بعد الجهود الرائدة التى بدأها جانسكى منذ عام ١٩٣٥، وبخاصة ما تم بعد الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى تطوير الرادار وما تبع ذلك من المناظير الاشعاعية الكبيرة. ويرجع تاريخ النفوذ إلى الفضاء إلى بداية القرن حينما قام تيس V.Ness النمساوى بالصعود بالبالون عام ١٩١٣ ومعه منظارا كهربى، واكتشف طبيعة الاشعاع الكونى خارج نطاق الأرض. وبعد البالون طورت الصواريخ التى تحمل أجهزة حساسة للاشعاع فوق البنفسجى، ولكن كان الذى فتح الباب نحو عصر جديد من اكتشافات السماوات هو اطلاق القمر الصناعى سبوتنيك فى اكتوبر سنة ١٩٥٧ الذى تبعه اطلاق أقمار أخرى أمريكية وسوفيتية وأوربية ويابانية وصينية وهندية. وأصبح باستطاعتنا اليوم أن نرقب باعجاب شديد نجاح رحلات أبولّو التى مكنت الإنسان من أن يمشى فوق القمر، ورحلتى قوايجر الأولى والثانية التى مكنتنا من أن نرى كوكب المشترى بكويكباته ودوائره، وزحل بآلاف الحلقات المحيطة به، وأصبح أورانوس الآن يرى غائما من خلال المنظار. وسوف يوضع فى خلال عامين من الآن، تلسكوب ضوئى فى مدار حول الأرض على ارتفاع نحو خمسمئة كيلو متر، سوف يسمح بالتغلب على الصعوبات التى تتسبب عن جو الأرض مما يجعل القدرة على الرؤية من خلاله تصل إلى نجوم أقل فى لمعانها مئة مرة مما تصل اليه حدود الرصد الحالية بأكبر المناظير فى العالم. وبلغت براعة العلماء والمهندسين والفنيين درجة أصبحت معها المناظير الاشعاعية، التى ركب بعضها فى أوربا والبعض الآخر فى أمريكا، قادرة على أن ترصد فى وقت واحد جسما سماويا واحدا بدقة تصل إلى درجة بالغة (تتراوح بين مئة مرة وألف مرة أكثر مما يمكن تحقيقه بالرصد الفلكى). ويطلق على هذه التقنية اسم قياس التداخل الضوئى ذى القاعدة الشديدة البعد (Inferometry).

اما فيما يتعلق بالكاشفات فان الفلكيين لم يصبحوا محددين فى اطار الطرق القديمة بالتصوير الفوتوغرافى أو تحليل الطيف بالمنشور أو الشبكة، بل إن الأجهزة التى اشتقت من المصورات التلفازية قد مكنت من اجراء حصر عددى لجزئيات الضوء أو وحدات الكم الضوئى (photons) أو غيرها من الوسائل. وفضلا عن ذلك فان

حاجتهم إلى جمع الصور وتحليل نتائجها انتهت إلى حقيقة هامة هى أن علم الفلك قد أصبح له فى الغالب تطبيقات عملية. فالمعطيات المستخدمة فى الأشعة الطبية ما هى الا جهاز مشتق من الفلك الاشعاعى، وأجهزة الاستقبال التلفازى المستقبلية توجد الآن فى شكل نماذج أمكن عملها فى المختبرات والمراصد.

باختصار يمكن لعلماء الطبيعيات الفلكية الآن أن يلتقطوا أى اشعاع كهرومغناطيسى خارج الأرض من أى ترددات (أو أطوال موجات) مهما صغرت أو كبرت باستخدام أجهزة استقبال كبيرة للغاية وتتزايد دقتها وحساسيتها.

ان كل تردد وكل طول لموجة يعطينا معلومات عن الكون. ويمكن فى عالم المرئيات أن نرى الكواكب والنجوم والسدم والمجرات وأن نحدد تركيبها الكيميائى حيث انه من الممكن أن يكتشف امتصاص الاشعاع، أو تخلله عن طريق تلك المركبات الكيميائية المختلفة فى مجال طول الموجة. أما بالنسبة للنجوم فالمعروف أنه من المستحيل أن نحقق درجة عالية من الدقة من الأرض، وقد ابتكر الفلكى الفرنسى أنطوان لابيرى طريقة فذة هى قياس التداخل الضوئى للبقع فكانت الخطوة الأولى المباشرة نحو تحديد قطر النجوم.

ينبعث الاشعاع ذو الموجات القصيرة (فوق البنفسجى، والأشعة السينية وأشعة جاما) من أجسام حارة مفعمة بالطاقة. فتتميز النجوم الشديدة الحرارة والبيئات النجمية بالأشعاعات فوق البنفسجية. وتنبعث الاشعاعات السينية من الغازات الشديدة الحرارة التى تملأ التجماعات السديمية ومن النجوم المتفجرة (العماليق والعماليق الكبرى) ومن المادة قبل أن تجتذبها النجوم التى يصل حجمها إلى حجم البقع أو الثقوب السوداء. أما أشعة جاما فانها تأتى من التفاعل الكونى والبيئات بين النجمية وكذلك من العماليق الكبرى.

ومن الواضح أن اشعاع الموجات الطويلة (تحت الحمراء والمليمترية واشعاعات الراديو) تنبعث من الأجسام الباردة أو الأجسام ذات الطاقة الضعيفة. فالأشعة تحت الحمراء تميز النجوم الباردة والغبار الواقع بين النجوم. وتسود فى فلك المناظير الاشعاعية أو الفلك الاشعاعى بخط الهيدروجين النووى البالغ ٢١سم مما يمكن معه رسم خرائط للمناطق الواقعة بين النجوم. ولقد اكتشفت معظم النويات بين النجمية فى عالم من موجات ذات أطوال تقاس بالمليمترات والسنتيمترات وتعتبر السدم والنجوم

الثوابت أيضا مصادر اشعاع قوية مثلها مثل النجوم الخفاقة التى لا تخرج عن كونها نجوما شديدة الكثافة يطلق عليها أيضا النجوم النيوترونية.

ولا يعتبر الشعاع الضوئى أو الشعاع الكهرومغناطيسى هو المصدر الوحيد للمعلومات التى تتوافر لعلماء الطبيعيات الفلكية. ولقد أشرنا فعلا إلى الاشعاع الكونى الذى يتكون من نويات الذرات ذات الطاقة العالية، فبعض الجزيئات من هذا النوع تكون ذات طاقة قوية بدرجة تجعلها تولد رخّات من الجزيئات الثانوية تنبعث إلى الهواء الجوى. ولقياس تركيب هذه الاشعاعات الكونية أقام علماء الطبيعيات الفلكية مختبرات تماثل تماما تلك المستخدمة فى الطبيعيات النووية، ووضعوها بعد ذلك فى أقمار صناعية. ويحاول الفيزيائيون أيضا أن يتتبعوا المظاهر الأخرى لوجود الجزيئات أو الطاقة فى الكون، مثل فيض النيوترنيوات من الشمس أو موجات الجاذبية المنبعثة من النجوم البالغة الكثافة والنيوترينوات عبارة عن جزيئات عديمة الكتلة أو ذات كتلة ضئيلة تنتمى إلى عائلة الألكترونات التى تنبعث أثناء تحول البروتونات إلى نيوترونات (والعكس لتكوين مضادات النيوترينات). وفى أثناء اندماج الهيدروجين لتكوين الهليوم وهى العملية التى تعتبر المصدر الرئيسى للطاقة المنبعثة من الشمس، تنبعث الطاقة، لا فى شكل نيوترينوات أو وحدات ضوئية فقط بل أيضا فى شكل نيوترنيوات والمشكلة هنا هى أن هذه النيوترينوات تكون صعبة ونادرة التفاعل مع المادة العادية، وهذا هو السبب الذى جعل الزملاء الأمريكين ينشئون خزانا يحتوى على أربعمئة ألف لتر من نترا كلوريد الكربون فى أحد مناجم الذهب الكبيرة فى داكوتا الشمالية. وجعل الاتحاد الأوربى يخطط لتخزين ثلاثين طنا من الجاليوم (وهى كمية تساوى ثلث انتاج العالم) فى نفق جراند ساسو للكشف عن هذه الجزئيات. ويعتبر الكشف عن النيوترونيات الشمسية من الأهمية بمكان لأنه سوف يكشف لنا عن البنية الداخلية للشمس التى لا يمكن الوصول اليها عن طريق الرصد المباشر. وسوف ينقى أيضا معلوماتنا عن النيوترونيات نفسها. والجزئيات التى تنتشر فى الكون مثل انتشار الوحدات الضوئية. وبالمثل هناك جماعات متعددة فى أنحاء العالم تهدف إلى اقامة أجهزة حساسة لانبعاث موجات الجاذبية التى ثبت وجودها الآن منذ بدأ رصد النظام المزدوج للنجوم النيوترونية.

وهناك تجارب أخرى مثل البحث فى الفترة العمرية للبروتون التى ربما كانت أهم نتائج توحيد قوى الطبيعة أو اكتشاف بوسونات W and Z فى تجربة C.E.R.N، وكان لهذه التجارب مضامين رئيسية فيما يتعلق ببنية وتطور الكون. ويمكن القول

بدون مبالغة إنه من خلال المختبرات المدفونة فى المناجم أو تحت الجبال للكشف عن الجزئيات الخفية التى لا ندركها سوف نستطيع فى النهاية أن نفهم الكون بصورة صحيحة.

ثالثا: الكون فى نظر علماء الطبيعة: العلاقة بين العالم والمتناهى فى الكبر والمتناهى فى الصغر.

يعتبر الدور الرئيسى الذى تؤديه الجسيمات الأولية فى تطور الكون ككل نتيجة لسلطان قوى الطبيعة على الكون. وتجد كل التطورات الحديثة فى الطبيعيات - سواء طبيعيات المتناهى فى الصغر أو بمعنى آخر الطبيعيات الذرية والطبيعيات النووية وطبيعيات الجسيمات، وثلاثتها مشتقة من ميكانيكا الكم، أو طبيعيات المتناهى فى الكبر والنسبية العامة تجد كل هذه التطورات تطبيقات مباشرة لها فى بنية الكون ككل.

هناك أربعة تفاعلات رئيسية تمثل الأصول الظاهرة لتأثير الطبيعيات على الكون. اثنان منها هما: الجاذبية، التى جاء وصفها أول الأمر فى قانون نيوتن ثم أصبحت توصف فى ضوء العلاقات التى جاءت فى نظرية اينشتان فى الحالات التى تزداد فيها السرعات وتصبح الأجسام بالغة الضخامة.

والثانية هى الكهرومغناطيسية التى جاء وصفها فى قانون كولمب، وهما تاثيران طويلا المدى. فقد يكون البعد بين الأجسام المتفاعلة كبيرا مثل الكواكب التى تدور حول الشمس. وتعتبر الجاذبية والكهرومغناطيسية هما المؤثران الطبيعيان اللذان اعتدناهما، واللذان يعدلان من حياتنا (كالانارة والاتصالات وغيرها). أما فيما يتعلق بالمتناهى فى الصغر (الذرة والنواة والبروتون والنيوترون أو حتى الجسيمات الأولية مثل الكوارك) فلا تخلو من التفاعل بعضها مع البعض الآخر. فللجسيمات الأولية شحنة كهربية وكتلة، ولكنها معرضة لقوتين أخريين ذواتى مدى قصير (١٠$^{-١٣}$ سم للقوة الأقوى و ١٠$^{-١٦}$ سم للقوة الضعيفة). يطلق على القوة القوية هذا الاسم لأنها أقوى المؤثرات الأربعة، فهى أقوى من القوة الضعيفة، وأقوى بمقدار ١٠^{٣٩} مرة من قوة الجاذبية. وتعمل هذه القوة البالغة فيما بين الجسيمات التى نسمى هادرون والتى هى نويات (بروتون ونيوترون) وميزونات. ويعتبر التفاعل النووى الحرارى مثالا لهذا النوع مثل: بروتون + كربون ١٢ ينتج نيتروجين ١٣، أو تفاعل

الامتصاص النيوتروني مثل: كربون ١٣ + نيوترون ينتج كربون ١٤. وتتضمن القوة الضعيفة جسيمات تسمى ليبتونات، وهى ألكترونات وميونونات ونيوترينوات. يعتبر تحلل النيوترون إلى بروتون + الكترون + انتينيوترون مثالا لهذا النوع، وهى عملية تتطلب زمنا يصل إلى نحو عشر دقائق. والقوة الضعيفة أكثر احتمالا الأمر الذى يفسر بصفة خاصة السبب فى أن النيوترينوات الشمسية يصعب الكشف عنها.

تبعث هذه القوى الأربعة موجات هى الموجات الكهربية أو موجات الاشعاع الكهرومغناطيسية (وهى بالذات خفيفة) للكهرباء المغناطيسية وموجات الجاذبية للجاذبية، واشعاعات جاما لنوعى القوى النووية الدقيقة. وتنتج هذه الموجات بواسطة التبادل بين جسيمات معينة قد توجد بأعداد متوسطة، ويسمى هذا تبادل البوسونات. وتتأتى كلمة بوسونات Bosons) من حقيقة أن هذه الجسيمات تسير وفق القوانين الاحصائية لبوس اينشتاين. ويمكن أن تتواجد الأعداد المتوسطة فى نفس المكان وبنفس حالة الطاقة. وبوسونات الكهرومغناطيسية هى فوتونات، وبوسونات الجاذبية هى الجرافيتونات أو الجاذبات التى لم يثبت حتى الآن وجودها بالتجربة. وتكون هذه تفاعلا ضعيفا مع جسيمات .W و Z التى اكتشفت عام ١٩٨٣ فى CER.N على يد روبيا وفان ديرميرش الفائزين بجائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٨٤، ومساعديهما. أما بالنسبة للتفاعل القوى فقد كان يظن حتى وقت قريب أنها كانت تتسبب عن تبادل ميزونات π والآن هناك افتراض بأن دور متجهات التفاعل القوى يرجع إلى الجليونات التى هى جسيمات تكشف عن الكواركات. (Quarks) والكواركات هى جسيمات شحنات $\pm$ ٣/١ أو $\pm$ ٣/٢ التى توجد فى نفس العدد من الليبونات المعروفة (الألكترون والميون والطاو ونيوترينواتها الثلاث) ومجموعها ستة. وبالامكان عمل بروتون أو نيوترون بثلاثة كواركات، بينما يحتاج الأمر إلى اثنين فقط لانتاج ميزون π . ولاتعتبر الكواركات نتاجا بسيطا لخيال علماء طبيعة مجانين إذ أنه قد أمكن الكشف عن خمس منها تجريبيا أولها المسارع الخطى فى جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة.

تكفى هذه القوى الأربعة لكى نتفهم كل التفاعلات الطبيعية، فى الكون. فالشمس تستمد طاقتها من التفاعلات النووية القوية (تمثل التفاعلات الضعيفة بالنيوترينات فقدان الطاقة من الشمس، والحياة ما هى الا تتابع فى التفاعلات الكيميائية والبيولوجية التى تخضع اساسيا لتحكم الكهرومغناطيسية وتخضع ثانويا للجاذبية.

يعتبر اكتشاف هذه القوى الأربعة من أهم اكتشافات الطبيعيات الحديثة. وإذ تبدو هذه القوى من أول وهلة غير متشابهة فإنها ظاهريا نتاج أو فروع لقوة واحدة هى نفسها التى تتحد فيها القوى الأربعة لو أن الطاقة المتوافرة كافية. بدأت مغامرة توحيد التفاعلات هذه بنظرية جلاشو - واينبرج - سلام الذين تصوروا أن القوة الكهرومغناطيسية والقوة الضعيفة كفيلتان بالتوحد إذا كان متوسط الطاقة فى كل جزيئ ١٠٠ Gev أو تصل إلى مئة مثل كتلة البروتون والا كانت مرتبطة بدرجة حرارة تبلغ ١٠[١٥] ك ولقد تم الكشف عن اتحاد هاتين القوتين بالتجربة باكتشاف الـ W و Z.

ويطلق علماء الفيزياء على نظرية طبيعيات الجسيمات القادرة على توحيد القوة القوية مع القوة الكهربية الضعيفة اسم نظرية الاتحاد الأكبر. والجسيمات القادرة على التبادل أثناء توحد هذه القوى الثلاث، فى هذه النظرية لابد أن يكون لها كتلة تبلغ على الأقل ١٠[١٥] Gev تساو ،مليون مرة كتلة االبروتون المرتبطة بحرارة تبلغ ١٠[٢٨]. ك تقريبا. ويسميها علماء طبيعيات الجسيمات باسم جسيمات X و W ويقتضى وجودها أن البروتون، الذى هو أحد القوالب التى يتكون منها الكون الظاهر (وأنفسنا على وجه الخصوص) لها عمر محدد ذو نهاية تبلغ نحو ١٠[٣١] سنة. ولكى يتمشى هذا بطريقة ما مع مقاييسنا، حيث متوسط وزن الإنسان ٧٠ كيلو جراما، تحدث ثلاث تغيرات فى كل عشر حالات قد تتحلل البروتونات أثناء عمر الإنسان المقدر بنحو ٧٥ عاما. ولقد قام نحو عشر مجموعات من العلماء ببحث هذه الظاهرة النادرة (بالنسبة لنا لحسن الحظ) بنشاط فى كل أنحاء العالم، واستخدموا فى بحثهم وسائل كشف هائلة هى مكعبات ضخمة مليئة بالمياه فى أعماق تصل إلى آلاف الأمتار تحت سطح الأرض. ولنتائج هذه التجارب أهميتها بالنسبة لعلماء طبيعيات الجسيمات، ولها كذلك أهميتها بالنسبة لعلماء الطبيعيات الفلكية كما سنرى بعد. ويبدو اليوم أن البروتون أكثر مقاومة للتحلل مما تزعمه نظريات الاتحاد.

وهذا هو السبب (إلى جانب أسباب أخرى عديدة خارجة عن نطاق هذا المقال) فى أن علماء الطبيعيات، دون أن ينقصهم الخيال، اخترعوا نظريات «التناسق العالى "supersymmetry" التى لا يقتصر أمرها على أنها كفيلة بتوحيد قوتين ميكروسكوبيتين مع قوة كهرومغناطيسية بل تستطيع أيضا توحيد قوة الجاذبية مع القوى الأخرى الثلاث.

كان لابد من دفع الثمن (لأنه فى علوم الطبيعات تماما كما هو الحال فى الحياة لابد أن يكون هناك ثمن للأشياء). يتمثل هذا الثمن فى أن المطلوب منا اليوم أن نفترض وجود عدد كبير من جسيمات أولية جديدة. وربما لم يكن لهذا الوضع خطورته لو أن التغيرات فى الكشف عن هذه الجسيمات كانت ذات أهمية. ولكن للأسف نجد أن الوضع مختلف فكل هذه التطورات غير ظاهرة وغير معروفة وبالتالى غير كاملة من وجهة النظر العلمية.

عند هذه النقطة سوف يسأل حتى القارىء الصبور: لماذا يهتم عالم الطبيعيات الفلكية (لأن الموضوع هنا يتناول الكون ككل) بكل هذه التطورات فى مجال الطبيعيات الميكروسكوبية التى يبدوأن بعضا منها متخصص للغاية. هناك سببان لذلك الاهتمام أولهما يأتى من حقيقة أن لكل تلك الجسيمات دورا رئيسيا فى العديد من أحوال الطبيعة الفلكية. فالنجم الشديد الكثافة يصبح نجما نيوترونيا (أى خفاقا) نظرا لأنه فى كثافة مثل الكثافة النووية، تتحد البروتونات مع الألكترونات لانتاج النيوترونات التى تصبح فيما بعد مستقرة ونيوترينونات. لابد لنا من تحديد بداية الكون، أو إذا فضلنا أن نسميها المرحلة الأزلية، لأننا بسبيلنا إلى أن نرى من التفكك المتكرر المتتابع للقوى الأساسية أن ديناميكيات السدم وتجمعات السدم تبدو وكأنها ترجع إلى أنه يوجد كثير من الجسيمات ذات كتلة متواضعة بصفة عامة. وتختلف بطبيعتها اختلافا كليا وفقا للمادة التى تكونت منها. بهذه القوى الأربعة والجسيمات التى جعلتها تلك القوى تعمل أصبح لدينا الوسائل والدوافع للعمل الذى كان من نتيجته تطور الكون وتاريخه.

رابعا: عالم الطبيعيات الفلكية مؤرخ وأثرى ومخبر

والآن سوف نتراجع مع الزمان فى خطوات عريضة من تاريخ الكون ككل، ونشير إلى اللحظات الحاسمة فى تاريخ سديم أو نجم، أو حتى فى تاريخ النظام الشمسى. وهنا نحن نضع أنفسنا فى اطار النظرية الكونية التى يأخذ بها معظم علماء الطبيعيات الفلكية وهى التى تسمى نظرية «الدوى الأعظم» التى اكتشفها أ بانزياس وس ويلسون عام ١٩٦٥ من الاشعاع المنتشر عند ٣ ك والذى يملأ الكون كله ويعطى للنظرية أداة توثيقها الكامل. لابد إن هذا الحدث الأزلى - كما قلنا - قد حدث منذ عشرين بليون سنة. وينقسم تاريخ الكون إلى ست فترات، الأولى فقط هى التى استمرت. ولكنها كانت غنية بالأحداث لأن درجات حرارة الكون التى كانت

مرتفعة فى تلك الفترة كانت تتراوح بين $١٠^{٣٢}$ ك و $١٠^{١٠}$ ك واستمرت الفترة الثانية نحو ثلاث دقائق فقط، وعنها أخذ س واينبرجر عنوان كتابه «الدقائق الثلاث الأولى»، وفى خلال تلك الفترة الثانية شهد الكون تكوين أكثر العناصر خفة مثل الديوتيريوم الذى يعتبر نظيرا ثقيلا للهيدروجين ونظيرين من الهليوم (بكتلة ذرية ٣ و ٤) والليثيوم (بكتلة ذرية ٧). وكانت درجة حرارة الكون آنذاك تتراوح بين $١٠^{١٠}$ ك و $١٠^{٨}$ ك أما المرحلة الثالثة فقد استمرت مليون سنة وانتهت حينما وصلت درجة حرارة الكون إلى ١٠٠٠٠ ك . فعند هذه الحرارة بدأت البروتونات تتحد مع الألكترونات لتولد ذرات الهيدروجين، ولم يعد الكون معتما[٢] وكانت الفوتونات التى تكونت فى لحظة تكوين الهيدروجين هى تلك التى يمكن أن تبرد بسبب تمدد الكون وتعطى الانتشار الاشعاعى ٣ ك. وهو الحد الأقصى الذى وجد فى مجال الموجات المليميترية. ويوجد فى كل سنتيمتر مكعب من الكون ٣٠٠ فيتون من الخلفية المنتشرة التى أتت من هذا التكوين الهيدروجينى، وعلى ذلك شهدت المليون سنة الأولى كذلك نهاية العصر الأشعاعى الذى كان الاشعاع فيه يسود المادة. وهو الذى سبق ما يسمى العصر النجمى الذى نعيش فيه الآن. ويمكن تقسيم العصر النجمى نفسه إلى ثلاث مراحل مثل ما قسمنا العصر الأزلى. البليون سنة الأولى التى شهدت مولد السدم والتجمعات السديمة، والعصر الذى نعيش فيه الآن ويتميز بمولد النجوم وحياتها وموتها، وأخيرا المستقبل البعيد للكون الذى يرتبط اما بموت البروتون أو بالثقوب السوداء التى ستكون فى النهاية هى الشكل الوحيد للمادة المتحفرة.

الثانية الأولى من حياة الكون

تميزت اللحظة الأولى للكون بالحرارة العالية والكثافة الشديدة التى ساعدت بلاشك على تولد الكثير من الجسيمات التى سبق أن أشرنا إليها وبخاصة تلك التى تنبأت بها نظريات الاتحاد، وأدت ببعضها إلى الاختفاء.

وبسبب استخدام مبدأ «اللاتحدد» الذى قال به هايزنبرج والذى اشتق مباشرة من ميكانيكا الكم، فإن مقدار اللاتحدد بالنسبة للزمن مضروبا فى الطاقة المحتواة فى الكون لا يمكن أن يقل عن «ثابت بلانك». وتبعا لذلك لا يمكننا تحديد الزمن عند أقل من

(٢) حينما ننظر بعيدا نرى النجوم خلال أوقات بعيدة للغاية. وتفترض نظرية الدوى الأعظم أنه لا يمكننا أن نرى لأبعد من الفترة التى كان الكون خلالها معتما، والتى تكون ما يسمى بالأفق الكونى.

$١٠^{-٤٣}$ من الثانية، وهى ما أطلقنا عليه اسم زمن بلانك للكون.

ولنذكر فى هذا الصدد بأن التساؤل حول ما الذى وجد قبل مولد الكون؟ يصبح تساؤلا غير ذى معنى. فلا يوجد ما يسمى «قبل» لأن الزمن يكون له تحديد حقيقي حينما تتواجد المادة.

على ذلك تكون اللحظات الحرجة فى هذه الثانية الأولى للكون عند $١٠^{-٣٥}$ من الثانية حيث تتوقف قوة الجاذبية والقوة القوية عن الاتحاد مع القوة الكهربية الضعيفة ويسود فى هذه اللحظة الجسيمات x و y التى تُمسك حينما تظهر الكواركات والليبتونات. وخلال الوقت $١٠^{-٢٣}$ و $١٠^{-١٠}$ من الثانية بقيت القوة الكهربية الضعيفة موحدة. ولم تعد الكواركات محددة فى اطار الجلوونات بل أصبحت حرة ومتعايشة مع جسيمات W و Z.

واللحظتان اللتان توقفت فيهما القوى عن أن تكون متحدة وهما $١٠^{-٣٩}$ من الثانية لكل القوى الأربعة أو الثلاثة (لان مسألة قوة الجاذبية مازالت غامضة) و $١٠^{-١٠}$ من الثانية بالنسبة لقوة الكهربية الضعيفة تتصلان بما يسميه علماء الطبيعيات مرحلة الانتقال كمقابل لمرحلة التحول فى الماء من حالة السيولة إلى حالة التجمد أو حالة التبخر. ويعتقد العديد من علماء الكونيات مثل أ. جوت و ب ستليفهاردت و م تيرنر و أ ليند أنه عند اللحظة $١٠^{-٣٥}$ من الثانية تعرض الكون لتسارع كبير فى تمدده بسبب مرحلة الانتقال هذه، ويسمون ظاهرة التسارع هذه باسم «تضخم الكون». ولفرضية التمدد الشنيع هذه فائدتها في ازالة الصعوبات المفهومية التى يتضمنها تخيل الكون بدون أى أشعة فى تلك الفترة بخاصة نظرا لأن التضخم قد أزال الماضى من الكون (ان كان له ماض).

كذلك جعلت الكون سببيا حيث إن النموذج الكلاسيكى لنظرية الدوى الأعظم لا يستطيع أن يفسر السبب فى أن يتماثل إقليمان مختلفان متباعدان فى الكون فى الخواص الطبيعية.

فى لحظة $١٠^{-١٠}$ من الثانية حدثت مرحلة تحول أخرى. وهى التى ينسب علماء الطبيعة إلى جسيمها الاسم الخفى «كروموديناً» ميكا الكم وهى اللحظة التى أتت بتحديد الكواركات وتوحدها فى π وفى النوكليونات والبروتونات والنيوترونات. وفى

هذا الوقت وحتى نهاية الثانية الأولى كان الذى ساد الطبيعة هو الليبتونات والألكترونات والبوزيترونات، الفوتونات (الوحدات الضوئية) التى كان عليها أن تنتظر حتى الثانية التالية.

ونحن ندين بالفضل لعالم الطبيعيات الروسى أندريا سخاروف المعروف فى كل أنحاء العالم لأسباب أخرى - ندين له باكتشاف أن الكون أصبح غير متناسق بسرعة منذ الثانية الأولى له، ولم يعد له كمية من مضادات المادة تساوى كمية المادة، ففى نهاية الثانية الأولى التى هى بداية لمرحلة الاشعاع كان الكون مكونا من وحدات ضوئية (فوتونات) أكثر بملايين المرات من النوكلونات (البروتونات والنيوترونات).

الثوانى الثلاث الأولى من حياة الكون

بينما انتهت الثانية الأولى. كان التوازن قد تم بين البروتونات والنيوترونات وتوقفت الألكترونات السلبية والموجبة نيوترينواتها وبدأت النيوترونات الأولية تتحلل. بيد أن الحرارة آنداك أصبحت مناسبة لتكوين العناصر الأخف وزنا، فقد كانت الحرارة عالية بدرجة كافية (أكثر من ١٫٠ $^{-8}$ ك) ولذا أمكن لجسيمات الديتوريوم أن تتكون بعد امتصاص البروتونات للنيوترونات، وتولدت من الديتوريوم هليوم ٣ وهليوم ٤ وليثيوم ٧ ولم تكن الحرارة المرتفعة بدرجة (أقل من ١٫٠ $^{-10}$ ك) تؤدى إلى أن تقضى الفوتونات على ما تخلفه تفاعلات الاندماج.

وبدون الدخول فى تفاصيل تقنية لا مكان لها هنا يمكننا إثبات ذلك لكى نشرح قيمة كل من الديوتيريوم والهليوم ٤ اللذين تكونا فى ذلك الوقت، لابد من أن كثافة الكون فى شكل مادة عادية كانت أقل من تلك المادة التى تقلص اليها الكون تحت تأثير جاذبيته الذاتية بعد أن اتسع[٣] . ومن جهة أخرى لاحظنا فى الوقت نفسه ثلاثة أنواع مختلفة من الليبتونات (هى الألكترون والميون والطاو) فى ارتباطهما مع النيوترينوات (التى تضعها نظرية الاتحاد فى موضع علاقة وثيقة مع الأنواع الستة من الكواركات ولا يوجد مكان للأسرة الجديدة من اللبتونات التي لو وجدت لأدت إلى تسارع فى تمدد الكون. وقد تؤدى إلى زيادة فى انتاج الهليوم٤.

---

(٣) يمكن للكون أن يتسع بصفة مستمرة إذا لم تكن جاذبيته الذاتية عالية جدا، أو يتقلص فى مرحلة تالية بالطريقة التى تستطيع بها الأقمار الصناعية أن تتغلب على الجاذبية الأرضية لدرجة كبيرة، وهى حالة تختلف عن حالة قذائف المدافع مثلا.

يمكننا من هذا أن نقيس القيمة الكلية لهذه العمليات التى تجرى فى التحلل النووى الأولى الذى يؤدى إلى نتائج غير موثوقة. ولو أننا وجدنا عائلات أخرى من الليبتونات فسوف يتعين احلال نظرية أخرى محل نظرية الدوى الأعظم، نظرية تأخذ فى اعتبارها وجود هذه الليبتونات الجديدة.

المليون سنة الأولى

هناك القليل مما يمكن أن يقال عن المليون سنة الأولى. إذا عرفنا أن الفوتونات كانت لها السيادة خلالها وأنه حدث فى خلال هذه الفترة بالتأكيد أن الذبذبات فى الكثافة التى تولد السدم وتجمعات السدم قد تكونت. وقد سبق أن أشرنا إلى التحول من العصر الاشعاعى إلى العصر النجمى من خلال اتحاد البروتونات والألكترونات وتحرر أو انبثاق الفوتونات الكونية.

البليون سنة الأولى

يبدو أن السدم كانت قد تكونت خلال هذه الفترة (بما فيها الطريق اللبنى وهو سديمنا) وهى التى كونت فيما بعد التجمعات السديمية من تلك الذبذبات الأولية. وبهذا الصدد هناك نظريتان مازالتا تتنافسان: النظرية السوفيتية التى تسمى نظرية «الفطيرة المسطحة» (أو ربما كانت تسمى نظرية بيلينى) وهى تفترض أن الخلق فى أول الأمر كان من أبنية ضخمة، أكبر بكثير من تجمعات السدم، ثم انقسم بعد ذلك إلى مجموعات من السدم ثم بعد ذلك إلى سدم. بينما يعتقد أصحاب النظرية الأنجلوسكسونية أن الذبذبات تزايدت مع مرور الزمن، وأننا انتقلنا من تجمعات نجمية إلى سدم ثم إلى مجموعات من السدم. ويبدو لنا اليوم أن النظرية الأنجلوسكسونية قد أخذت فى اعتبارها ملاحظات أفضل قليلا فى مجال ديناميكية البنيانات الكبيرة.

ويمكن أن نذكّر بأن تكوين العناصر الخفيفة للغاية تقيم حدا علويا لكثافة الكون فى شكل مادة عادية، وهذا الحد يساوى ما يتراوح بين ١ . فى المئة و (٢ . فى المئة من الكثافة الحرجة التى سيعيد الكون بناء نفسه فى المستقبل خارج نطاقها.

وبدراسة ديناميكية البنيانات الكبيرة (تجمعات السدم مثلا) يبدو واضحا أن الكتلة الكلية للكون قد تكون حوالى ٦ . فى المئة من حد الكثافة الحرجة. ولذلك فان التفكير فى أن الكون قد ينكمش مرة أخرى تفكير سابق لأوانه. ومن ناحية أخرى يبدو أن هناك مواد غير مرئية أو مدركة بالحس مكونة من جسيمات مختلفة

تماما عن النويات (البروتونات والنيوترونات) التى نتكون نحن منها، فربما كانت هذه الجسيمات بالأحرى ذات كتلة منخفضة ولكنها تتحرك أيضا بسرعات بطيئة (وهى حالة مخالفة لحالة النيوترينوات!). إن تخيلات علماء الطبيعة الجامحة عن الجسيم لا ينقصها، الافتراضات، فهناك الأحبال والأحبال العليا وهناك شذرات الكوارك، إلى غير ذلك.

يبدو أنه كانت هناك سدم معينة / نشيطة للغاية فى سطحها (وعقديتها)، ولذا كانت أكثر لمعانا بكثير فى هذه العقدة من لمعانها فى الأجزاء الخارجية ويبدو أنها أصبحت خفافة لا تخرج عن كونها سدما ذات مراكز شديدة النشاط والحركية واللمعان.

الحاضر

نحن نعيش الآن فى عصر تسود فيه المادة العادية فى فيزياء الكون ويتميز بحياة النجوم وتطورها وموتها. وعلى ذلك تتكون السدم، من عدة مئات من البلايين من النجوم، والشمس وهى واحدة منها لها دورها الهام بالنسبة لنا، لأن الأرض تدور حولها، ولأننا نستمد الطاقة التى نحتاج اليها من اشعاعها.

ومن خلال التأريخ بالنظائر فى المذنبات نعرف أن عمر الشمس بالتحديد يرجع إلى وقت يتجاوز الوقت الذى به تحدد العوامل الفلكية الأخرى. ولدت الشمس من سحابة فى فضاء بين النجوم منذ ٤,٥٥٥ بليون سنة. وبعد أن تقلصت بتأثير جاذبيتها الذاتية لمدة عشرة ملايين من السنين، كان لها فى خلالها توهج ضوئى ثابت نسبيا. ودرجة حرارة سطحية، وهذا ما يثبته ظهور الحياة المبكرة فى الأرض. وفى أثناء تقلصها تركت أجزاء صغيرة من كتلتها أدت إلى تكوين المجموعة الشمسية. وتدور الشمس ببطء شديد حول محورها فى دورة طولها ٢٨ يوما، ويتركز دوران المجموعة الشمسية على كوكب المشترى وكوكب زحل. وتستمد الشمس طاقتها من تحول الهيدروجين إلى هليوم فى وسطها حيث تصل الحرارة إلى عشرة ملايين درجة. وفى خلال خمسة بلايين سنة يصير الهيدروجين الموجود فى قلب الشمس غير كاف، وعندئذ يقع حادث درامى، فسوف يحدث تقلص فى المناطق المركزية حتى يتحول الهليوم إلى كربون، وتتمدد المناطق المركزية حتى يتحول الهليوم إلى كربون، وتتمدد المناطق الخارجية. وفى خلال خمسة بلايين سنة سوف تصبح الأرض مرة أخرى جزءا من الشمس. وينتهى تواجد الشمس كسحابة كوكبية ثم تصبح نجما قزما ذا أشعة ضعيفة

ثم تتحول إلى قزم معتم خلال بضعة ملايين من السنين(٤).

مستقبل الكون

هناك إمكانيتان يمكن التنبؤ بهما أولهما: إذا ما كانت الكثافة أكبر من الكثافة الحرجة التى لا يمكن أن تكون مستحيلة كما قد تجعلها تطورات الاجراءات، فإن الكون سوف يمر بمرحلة تقلص جديدة خلال خمسين بليون سنة تقريبا، وسوف يؤدى هذا إلى مرحلة أخرى شديدة الحرارة، وهكذا ومن ناحية أخرى لو أن البروتون تعرض للهلاك فى حوالى ١٠^٣٢ سنة فسوف تبقى فى الكون ألكترونات واشعاع فقط.

واذا ما كانت كثافة الكون أقل من الكثافة الحرجة واذا ما قاوم البروتون بصورة أفضل مما يصوره الفيزيائيون فسوف تستمر فى التمدد بمعنى أن الكون سيبرد. وسيصبح الاشعاع ٣ ك ثم ٢ ك ثم ١ ك (الصفر المطلق حد لا يمكن الوصول إليه كما هو الحال عند لحظة ١٠^-٤٣ من الثانية). ويرى عالمان طبيعيان هما فى ديسون وج.ن اسلام أن ما سيبقى بالكون هو البقع السوداء فقط وهى أشياء شديدة الكثافة لدرجة تحبس معها إشعاعها(٥). وهناك أسباب معقولة للاعتقاد بوجود بقع سوداء فى وسط معظم السدم (وبخاصة العماليق) وتجتذب هذه البقع سائر مادة السدم وتبتلعها أثناء التسخين، وتساعد على تنشيط عقدياتها.

وفى زمن بعيد للغاية لن يبقى سوى البقع السوداء فقط وسوف تتبخر بواسطة الاشعاع عن طريق التفاعل بين أزواج الجسيمات ومضاداتها التى توحدها الذبذبات الكمية للتفريغ. ويعتقد اسلام أن البقع السوداء تحتاج إلى ١٠^١٠^٧٦ سنة كى تختفى تماما من تأثير هذا التبخر البطىء، وهذا زمن غير مقنع لنا، بيدأنه ليس لا نهائيا.

وبالطريقة التى ولد بها الكون فى أحداث منفردة سوف يختفى عن طريق الاشعاع على مدى زمن طويل.

---

(٤) القزم الأبيض أشعة تساوى فى الواقع إشعاع الأرض (١/١٠٠٠ من أشعة الشمس) لأن هناك تناسبا فى الكتلة مع كتلة الشمس.

(٥) هذه النجوم التى تتكون خواصها الطبيعية كنتيجة للنسبية العامة قد داعبت خيال لابلاس منذ زمن بعيد، فهناك الكثير من الأجرام السماوية سوف تصبح بقعا سوداء نجمية وسديمية.

خامسا: رأى عن تطور الكون والإنسانية:

من الواضح أن كل ما قيل عن رصد الكون وقوانين الطبيعة التى تتحكم فى تطوره وتاريخه قد وردت فى شكل جزئى متفرق فى هذا المقال. بيد أننا نرى كيف أن نظرتنا للكون وتفهمنا له قد تطورا حديثا، فمعظم نظريات طبيعيات الأشياء الصغرى لا يزيد عمرها عن سنوات قليلة، وبالمثل لم نكن نعرف عن زحل الا ثلاثة أشياء حتى عام ١٩٨١ حينما كشفت لنا رحلة سفينة الفضاء فوايجر عن الجمال الذى يحتويه نظام الحلقات المتعددة التى تدور حول هذا الكوكب وسرعان ما تطورت نظرتنا للعالم وأصبحت ثرية للغاية سواء من خلال الأرصاد التى تزداد وضوحا ودقة، وكذلك من خلال المعارف الأفضل عن الامتناهى فى الصغر.

ولعل من الخلاصات الضرورية لهذا التحليل التخطيطى لتطور الكون أن اللامتناهى فى الصغر يتحكم فى تطور اللامتناهى فى الكبر.

واعتمادا على تواجد الجسيمات النسبية من عدمه لابد لنا أن نعدل فكرتنا عن بنية وديناميكية مجموعات السدم. وإن دراسة الثانية الأولى للكون فى حد ذاتها مشكلة خالصة من مشاكل طبيعيات الجسيمات (فيما عدا مسألة الجاذبية الكمية). ولقد أصبح واضحا الآن أن الكون هو أفضل معمل وأننا نتفهم الجاذبية المتنامية التى يمكن أن يجتذبها للزملاء المشتغلين فى الميدان ممن لا يقضون أوقاتهم ناظرين باعجاب إلى السماوات.

وهناك اعتبار آخر هو أن ما لم نستطع أن نوغل فيه فى هذا المقال هو الحقيقة بأننا أنفسنا جزء لا يتجزأ من الكون الذى لا يمكننا أن نعتبره مستقلا عن مصيرنا. فالمعروف جيدا أن العناصر الكيميائية التى نتكون منها تأتى من أجيال من النجوم سابقة لمولد الشمس. ولعل أحدث نوية فى ذراتنا ترجع إلى خمسة بلايين سنة مضت، وطبقا لصورة خيالية نحن نتكون من تراب نجمى، ووجودنا قد اعتمد على عدد كبير من الظروف الحسنة، ومعظمها يدخل مرة أخرى ضمن عالم طبيعيات الأشياء المتناهية فى الصغر. ولو أننا حددنا أنفسنا فى اطار أقدم الأمثلة فان ظهور الحياة على الأرض يرجع إلى حقيقة أن اندماج الهيدروجين فى الهليوم عملية بطيئة للغاية، ويرجع هذا البطء إلى حقيقة أن النويات ذات الكتلة الذرية ٥ و ٨ غير مستقرة. واندماج الهليوم فى الكربون ممكن فقط لأن نظام النويات الثلاث فى الهليوم ينتمى من ناحية الطاقة إلى مستوى مستثار من الكربون . وقد تضاعف أمثلة المصادفات النووية

المناسبة لنشأة النويات مثل الكربون والنتروجين والأوكسوجين الكفيلة بتخليق الخلايا الحيوية.

فلا يعتبر الكون شيئا منعزلا عنا، فهو سر غامض وسوف يظل دائما كذلك، ولكن كل يوم يمر يتأتى لنا فهمه بصورة أفضل ويزداد تقديرنا له.

بعض المراجع

1. AUDOUZE, JEAN, *Aujourd'hui l univers*. Belfond, Paris 1981
2. AUDOUZE, JEAN and ISRAEL, GUY, *Le Grand Atlas d'astronomie*. Encyclopedia Universalis, Paris 1983.
3. BARROW, JOHN and SILK, JOSEPH, *La Main gauche de la création*, Paris 1985.
4. ISLAM, JAMAL N., *Le Destin ultime de l'univers*, Belfond-Sciences, Paris 1984.
5. PECKER, JEAN-CLAUDE, *Astronomie*, Flammarion, Paris 1985.
6. REEVES, HUBERT, *Patience dans l'azur*, Le Seuil, Paris 1981.
7. WEINBERG, STEVEN, *Les Trois premières minutes de l'univers*, Le Seuil, Paris 1979.

لوى بايك

ارسطو : اقتصادى بحر أوسطى

أولا بسط الدعوى

١: منحى الفكر الأرسطى

كان النصف الثانى قبل الميلاد زمان أزمة بالنسبة لدولة المدينة الاغريقية(*)، وقد عاش أرسطو خلالها وبدأ يمعن الفكر فى التنظيم المثالى للمدينة، وفى تحليله للاخلاق (Nicomachean Ethics:NE) والسياسة (politics:P) يمكن تلمُّس الإطار المفاهيمى للتنظيم الاقتصادى - الاجتماعى للمدينة فى ضوء «أزمة التنمية» الخاصة بها، وفى هذه النصوص يبذ أرسطو ممارسى الاقتصاديات السياسية (مثل ايزوقراطيس وزينوفون على سبيل المثال) باعلان ما يمكن تسميته بالصيغة أو النموذج التحليلى للاقتصاد الاجتماعى الخاص بمنظِّر صاحب مدرسة فكرية.

لقد كان لابد لغزوات فيليب المقدونى ثم ابنه الإسكندر الأكبر أن تقلب هذا العالم

هذا المقال هو النص الذى قدم فى مؤتمر «الفرد والمجتمع: تأثير أرسطو فى عالم البحر المتوسط»، استانبول ٥ - ٩ يناير ١٩٨٦.

المترجم : محمد عزب

الصغير لدولة المدينة، وهذه البنية النمطية للستاجيرايت(*) The Stagirite رأسا على عقب، وأن تضع حدا لاستقلال دولة المدينة الاغريقية كنتيجة لاندماجها فى العالم الهيلينستى. وأدى هذا التغير التاريخى الهام إلى احتجاب فكر أرسطو فى الاقتصاد الاجتماعى مدة تربى على ألف عام. ان الامبراطورية الهيلينستية ثم الامبراطورية الرومانية من بعدها أيضا لم تعرفا ماذا تصنعان بالكلينستاترى -Klein staaterei (الاكتفاء الذاتى) الخاص بالمدينة الذى وضعه أرسطو كمثل أعلى. إن هذه الامبراطوريات التى تخطت حدود القومية قد استلهمت مدارس أخرى فى الأخلاق وفى الفكر الاقتصادى الاجتماعى، مثل الكلبيين، والأبيقوريين، وبخاصة الرواقيين الذين صنعوا المفاهيم الاساسية التى أدت إلى اضفاء الشرعية على مدن المواطنة العالمية (cosmopolis).

لقد حظى أرسطو بتجديد فكره للمرة الأولى فى الوقت الذى ازدهرت فيه مدارس الفلسفة الاسلامية، ففى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد انتقل مركز الاسلام على نحو متزايد فيما وراء موطنه فى جزيرة العرب، الأمر الذى أثار مشكلات جديدة بالنسبة للفاتحين. فقد اتصل مفكرو الاسلام بالتقاليد الثقافية البيزنطية فى سوريا (تحت حكم بنى أمية) والفارسية (تحت حكم العباسيين). وفى مستهل الأمر بدأ فلاسفتهم (الكندى والفارابى وابن سينا) فى محاورة الفكر الافلاطونى والأرسطى.

بعد ذلك بقرنين من الزمان مرر الفلاسفة فى جنوب اسبانيا (ابن رشد بصفة خاصة) المشعل إلى الإسكولائيين الأكاديميين (المدرسيين) الذين نظموا بدورهم الإحياء الثانى لفكر أرسطو Aristoteles Latinus . ومنذ القرن الثانى عشر حتى الخامس عشر كان العالم الاقطاعى فى الغرب يقاسى أزمة تنمية شبيهة بتلك التى مرت بها دولة المدينة الإغريقية، كانت فترة ازدهار التجارة وتأكيد نموذج «غُنم الثروات chrematistic" فى العالم الاقطاعى المسيحى، وكان على الفلاسفة المدرسيين انتاج مئات التعليقات والشروح على «الأخلاق NE,V.5» وعلى السياسة P,1,8-11».

إن عالم أرسطو عالم يشكل الاقتصاد فيه نسقا تابعا للسياسة، التى تشكل بدورها جزءا من النسق الأخلاقى، فالاقتصاد لا يعتبر نسقا محددا مستقلا. وتُقرر

(*) stagira: مدينة على الساحل الشرقى لشبه جزيرة تشاليسيدايس chalicidice ولد فيها أرسطو (ويشار إليها أحيانا The Stagirite) وقد هدمها فيليب المقدونى فى عام ٣٤٨ ق . م، ولكنه أعاد بناءها تكريما لأرسطو. (المترجم).

الصيغة التحليلية الأرسطية أن أداء الاقتصاد يخضع للأداء المتميز للمدينة. وهذا يعنى أن الاقتصاد خاضع للأخلاق السياسية. وهذا التسلسل للقيم قد توافق جيدا مع العالم الاسلامى والإسكولائى، واستطاع المفكرون الاسلاميون والفلاسفة اللاهوتيون أن يضيفوا إلى الاقتصاد أنه خاضع أيضا للقوانين السماوية.

٢- تغير السيطرة والصيغة التحليلية.

حتى القرن السابع عشر عاش العالم الغربى تحت السيطرة السياسية والمادية لحضارات البحر المتوسط، إسلامية ومسيحية. وفتحت أزمة الامبراطورية الأسبانية والانسحاب البطىء للاسلام من أوربا الباب لعصر جديد.

ومع القرن السابع عشر بدأت منطقة البحر المتوسط في التآكل. وأخذت الأمم الجديدة فى الشمال (فرنسا، انجلترا، والأراضى الواطئة) مكانها، وبدأ العالم الغربى فى التأطلس، وكان لابد أن تصطبغ صيغة الاقتصاد الاجتماعى فى هذه الدول الاطلسية الفتية «بالروح التجارية» أو (المركنتلية mercantilism) ، وفى هذا النسق يتميز الاقتصاد بكونه عنصرا هاما من عناصر السياسة، واعتبرت الدول الحديثة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمية التجارة والصناعة غاية رئيسية، كما أصبحت هدفا عاما للحاكم أو الأمير. وفى القرن التاسع عشر تدعم «تأطلس» العالم بظهور ألمانيا والولايات المتحدة على مسرح الأحداث.

وفى عالم الفكر غيرت المركانتللية (التى يدعوها أرسطو الروح الكريماتستيكية chrematistic spirit، من طبيعتها، فبدلا من أن تكون شغل الدولة والأمير وحدهما، صارت هما للفرد أيضا.

وكان مولد مذهب المنفعة تحت القوة الدافعة التى عززها الفلاسفة المهيمنون حينذاك امثال لوك، وهيوم، وسميث، وبنتام، وآخرين.

لقد مضت أطلسة العالم، وانتصار الروح الكريماتستيكية كلتاهما مع تغيير الصيغة التحليلية على المستوى النظرى، وتحررت العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من ربقة علم الأخلاق وأعلنت استقلالها، وكان هذا مولد علمى الاجتماع والاقتصاد الحديثين كما كانت نهاية النموذج الأرسطى (البحر أوسطى) وتنصيب الصيغة الأطلسية.

٣- انتصار الصيغة الأطلسية

فى قرننا الحالى تصدر توظيف الاقتصاد جميع مجالات الأنشطة الأخرى فى المجتمع. وفى مجتمعاتنا حيث صار تنظيم الحياة المادية شيئا مهما جدا، فان علم الاقتصاد قد خَبَّر التطور وحظى بالاحترام على غير سابقة فى التاريخ.

وينبغى أن نلاحظ تطورين هامين عبر الجيل الماضى

أ - ضَمْ علم الاقتصاد إلى العلوم الأكاديمية: أصبح الفكر الاقتصادى مهنة أساتذة الجامعات وحظى بذلك بالتقدير الاكاديمى.

ب - جعله عاما أو كليا: أصبحت معرفة مبادىء النظرية الاقتصادية فى مجتمعنا سمة من سمات الشخص المتعلم، وصار الإلمام بالمبادىء التى تحكم توظيف الاقتصاد الآن جزءا من التعليم العام للانسان الحديث.

جـ - وهناك أيضا اتجاه ثالث أكثر لفتا للنظر وهو اطراح البعد الأخلاقى من التفكير الاقتصادى، وهذا الاطراح قد ردّ علم الاقتصاد إلى شكلية منطقية ورياضية خالصة بالنسبة للبعض، وإلى وضعية ساذجة (تجريبية احصائية ساذجة بمساعدة الحاسبات الألية) بالنسبة للبعض الآخر، وقد أدى ذلك لا إلى الافتقار العقلى والأخلاقى فى علم الاقتصاد فحسب، بل إلى لا محدودية مقلقة فى الخيارات فى دنيا السياسة الأقتصادية أيضا.

إن الأزمة الأقتصادية فى الغرب التى نقاسيها منذ منتصف العقد الثامن قد أتت بأزمة الفكر الاقتصادى (الأطلسى) إلى دائرة الضوء، ولعل قراءة جديدة لأرسطو ولمدارس الفكر التى غذاها عبر عالم البحر المتوسط يمكن أن تساعدنا فى إعادة إحياء العلوم الأقتصادية فى هذا الوقت العصيب.

ثانيا: أرسطو اقتصادى إغريقى

١ : الأزمة فى المدينة

فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م كانت مدائن اتيكا تمر بأزمة تنمية نتيجة لعوامل عديدة، ومن بين هذه العوامل يمكن أن نلاحظ ما يلى:

- فقدان سيطرة المدائن الكبرى: اثينا، اسبرطة، وطيبة، على التوالى.

- ومع أفول الاقتصاد المنزلى Oikos التقليدى وظهور اقتصاد مدنى يقوم على الاستيراد والتصدير، ظهر نموذج نام جديد تعاظم فيه تراكم أعمال التجارة kremata وظهرت طبقات اجتماعية جديدة، شكّل اكتساب الثروة وتراكمها بالنسبة لها قيمة فى حد ذاتها. وكان هذا تأكيدا للروح الكرياتستكية chrmatistic spirit[1].

- التوترات الاجتماعية الاقتصادية فيما بين الجماعات التى تشكل المدينة: التناقض الاجتماعى وتآكل الانسجام فيما بين أعضاء المجتمع. وحظيت الشؤون الخاصة بالأسبقية على الانسجام العام. وبجانب المواطن وجد الانسان الذى له حرمته الشخصية.

وأصبح الرأى العام أكثر حساسية للمشكلات الاجتماعية الاقتصادية، ويمكن أن نلاحظ فى كتابات هذه الفترة بداية فكر اقتصادى حديد. وتحرك الرأى العام فبدأ المفكرون يناقشون الركود stasis كما بدأت الفرق المختلفة والخيارات الاستراتيجية تلوح فى الافق.

أ- العودة إلى نموذج الماضى (من العصر الذهبى) كما فى الـ patiros politeia.

ب- رأى البرجماتيون (النفعيون) الذين جابههم اخفاق المدن المختلفة فى السيطرة، أن الخلاص يكمن فى سياسة اجتماعية واقتصادية جديدة:

- فاوصى ايزوقراطيس بالهجرة، ووجد الحل فى هيلينية شاملة (انضواء اليونانيين فى وحدة) قد تيسر انشاء مستعمرات فى آسيا الصغرى.

- نشر زينوفون كراستين مؤثرتين، الأولى «الاقتصاد Economics» وهى كتيب وجيز يستهدف إدارة أكثر فاعلية للاقتصاد التقليدى oikos والثانية «الدخل Revenues» وتشتمل على برنامج اقتصادى مصغر[2]. لقد رفض زينوفون

---

(١) يأتى مصطلح Krematistike من Krema (الجمع kremata) ، ومع أن المصطلح يشكل واحدا من المفاهيم الأساسية فى كتابات الاغريق الاقتصادية فى هذه الفترة، إلا أنه ليس من السهل ترجمته للغة حديثة، فقد كانت Kremata تعنى الملكية، والعقارات، والأعمال، وكل ما يمكن استخدامه مباشرة فى الشراء أو مقابل خدمات مؤداة، أو تسوية دين، وهذا يعنى كل ماله قوة شرائية كالمال تماما، وتعنى الروح الكرياتستيكية طريقة إدارة حياة الإنسان وشؤونه المدفوعة بالرغبة فى اكتساب وتراكم الـ Krema .

(٢) تُرجم كتاب زينوفون «تمارين الإدارة» فيما بعد إلى اللاتينية بواسطة شيشرون، وصار هذا النص فيما بعد دليلا للمشرفين على الضياع فى الامبراطورية الرومانية.

الامبريالية كحل ونشر برنامجا لاصلاح الاقتصاد والمالية.

جـ - الفلاسفة وخاصة افلاطون وأرسطو هم المنظّرون الذين ادركوا بجلاء - وفى حنين إلى الماضى إلى حد ما - أن النسيج التقليدى للمدينة قد بدأ ينحل، ورأوا أن الحل فى إحياء القاعدة الأخلاقية والسياسية، وأوصوا بإعادة التسلح بالخلق بهدف انسجام أفضل فى العلاقات الاجتماعية، وخلق مؤسسات أكثر قدرة على صيانة هذا الانسجام.

٢ - فكر أرسطو «الاجتماعى والاقتصادى»

إن ما يطلق عليه بحق الكتابات «الاجتماعية والاقتصادية» إنما يمثل جزءاً يسيرا من مجمل كتابات أرسطو، وفضلا عن هذا فإن قراءة هذه النصوص ليست أمرا سهلا، إن «الأخلاق النيكوماخية "The Nicomachean Ethics" وخاصة النص (NE,V,5) تعتبر عملا جوهريا، ولكنه عمل جُمع بعد وفاته بواسطة ابنه نيكوماخوس ويفتقر إلى الدقة فى بعض الأحيان، وفى نص آخر وهو «السياسة» (P,1,8-11) فإن أرسطو يتبنى مرة أخرى أفكارا معينة سبق أن صيغت فى الأخلاق، كما أن تعريفات كثيرة قد استخدمت مرة أخرى ولكن بتأكيدات مختلفة، وهو ما لا يجعلها سهلة القراءة أو يفسرها.

وقبل الخوض فى التفاصيل من المفيد أن نجلو الصيغة التحليلية الأساسية وأن نحدد السمة الجوهرية الخاصة بها. لقد كان علاج أرسطو - إلى حد ما - عندما جوبه باجتياح القطاع الاقتصادى لشؤون المدينة وتدهور القيم التقليدية، ضربا من نشاط معاكس يمكن أن يسمى «مضاد الكريماتستيكية»[٣]. لأن اقتصاديات أرسطو لم تكن سوى وسائل لتأكيد الأسس الضرورية للتطور الأخلاقى الكامل للمواطنين، وعندما يتم احكام تخطيط الاقتصاد فأنه يصبح أيضا وسيلة للانسجام السياسى والتماسك الاجتماعى. إن السعى وراء الكريماتا kremata وتراكمها لم يكن فى سبيلها من أجل ذاتها بل لغاية أخرى خارجة عنها. لان الهدف النهائى هو الايوداimonيا eudai-monia (العيش جيدا)، التى تؤلف النهاية الأسمى، وينتسب الاقتصاد إلى تنظيم الوسائل، وهو ليس الا أداة لاشباع الوسائل الطبيعية (المادية). ولا يتعارض مع

---

(٣) لم ينفرد أرسطو بأن يكون مضادا للكريماتستيكية، فقد سبقه لهذا أفلاطون فى كتاباته الاجتماعية السياسية، وخاصة فى «الجمهورية» و «القوانين» عندما استبعد ديناميكيات الربح من مجتمعه المثالى.

أنظمة هذه الغايات. فالاقتصاد لدى أرسطو ليس الا فنا اضافيا.

إن التمييز الأرسطى بين «العيش» و «العيش جيدا» يتقرر بجلاء فى النص التالى من السياسة (P.1,9) : «من هنا فإن أناسا بعينهم يرون فى هذا التراكم البسيط للسلع هدفا للإدارة المنزلية، وهم يصرون على التفكير بأن المرء لابد ان يُبقى على حاله الاصلية أو أن يزيد ثروته من الأشياء بلا محدودية. إن سبب هذه النزعة هو الانشغال الشديد بالعيش لا بالعيش جيدا، ولما كانت هذه الرغبة لا حدود لها فإن المرء يرغب فى اشباعها بوسائل لا حدود لها هى الأخرى».

وهكذا فإن الفرق بين «العيش» و«العيش جيدا» يبدو واضحا تماما، ومن وجهة النظر الاقتصادية هناك بالضرورة جانبان:

– تراكم السلع والثروة اللازم لاشباع الحاجات الـ[illegible]ـية، وهى السلع التى لا غنى عنها للحياة الجيدة وتلك التى تنفع المجتمع.

– التراكم الذى يهدف إلى البحث غير المحدود عن الثروة كما هو الحال غالبا فى التجارة على سبيل المثال. وذلك هو «غنم الثروة».krematistike المرفوض.

٣ – تفسير السياسة politicsI,8-11

فى هذه النصوص يتبنى أرسطو أفكارا سبق أن صاغها أفلاطون، ولكنه أضاف إليها أفكاره، وقدم لنا تحليلا مترابطا لتطور المجتمعات، وتشمل هذه التحليلات:

– تطور الأقتصاد التقليدى (المنزلى) oikos من مرحلة بدائية للتعيش إلى مرحلة للتجارة أكثر صقلا، ولذلك فإن لكل شىء استخدامين (استخدامه لذاته واستخدامه للمبادلة، وله من ثم قيمتان: القيمة الاستعمالية، والقيمة التبادلية.

– أصل ووظائف النقود (وسيلة للتبادل ومعيار للقيمة "metron"). وفى هذا يعتبر أرسطو النقود وسائل أو وسائط للتبادل مقبولة بواسطة اصطلاح اجتماعى، وهى تأكيد للقيمة التبادلية المتعارف عليها، وأن المجتمع الذى يؤسس قيمة نقده بعرف جماعى يستطيع أيضا أن يغير هذه القيمة إن عدّ هذا مناسبا.

– نماذج التبادل والتراكم، وقد رأينا أرسطو يميز جوهريا بين نموذجين: أحدهما مؤسس على الاحتياجات الطبيعية (الكريماتيستيكية المقبولة). والآخر مدفوع

باغراءات الكسب (الكريماتبستيكية المرفوضة).

إن الاتجار فى السلع والخدمات، كما هو الحال فى النقود (خدمات البنوك)، تقوّم ايجابيا عندما تطابق أو تساوى الحاجات الطبيعية للمنزل oikos وللمدينة، وهذا يعنى عندما تأخذ المقايضة والتبادل طريقهما على أساس التكامل، ويعترف أرسطو بأن الاقتصاد التقليدى فى زمانه لم يعد قادرا على انتاج جميع السلع والخدمات اللازمة لخيره ورفاهته على نحو فعّال، ولهذا السبب فان التبادل الموازى لهذه الحاجة الطبيعية يكون منتجا. ولكن مد هذا التبادل من أجل الربحية وحدها، فانه يقوّم بالسلب إلى حد بعيد.

إن الاعتبارات الخاصة بتراكم السلع تسرى أيضا على النقود. فالنقود تعرف بدورها كوسيط للمبادلة ولكنها في حد ذاتها عقيمة مجدبة[٤]، وإن الاهتمام بها يشبه نوعا من الكريماتستيكية المرفوضة.

٤ - تفسير الأخلاق النيكوماخية Nicomachean Ethics,V,5

فى هذا النص يصوغ أرسطو أفكاره الأساسية حول المبادلات فى إطار أخلاقى وهو العدالة. وهذا التحليل يمثل تطورا رئيسيا فى النظرية الاقتصادية.

ففى هذا النص يقدم أرسطو لنا تحليلا:

- للنقود
- للقيمة الاقتصادية
- لشروط المبادلة
- لعدالة التوزيع والتصحيح

أ - النقود

إن أرسطو في مفاهيمه المتعلقة بالنقد نجده وظيفيا (Functionalist) واسميا

(٤) يعود البرتوس ماجنوس إلى هذه الفكرة عندما كتب بأسلوبه الملىء بالمحسنات. "Pecunia non Parit" أى «النقود لا يمكنها أن تتوالد».

(Nominalist) فى آن واحد، والفقرة التالية من الأخلاق (NE,V,5) التى تدور عن النقود تؤلف جماع أفكاره بجلاء

«لقد أصبحت النقود بفضل الاتفاق الجماعى أو العرف، اذا جاز التعبير، وسيلة للمبادلة على شيء نفتقر إليه، وهذا هو السبب فى أننا نسميها Nomisma لأنها ليست طبيعية وأنما عرفا شراعيا يجب قبوله، كما أنه ليس بمقدورنا أن نغيرها أو أن نقرر وقف استخدامها.

ان الاسمية النقدية لأرسطو قد تقررت هنا بوضوح، فالسلطات السياسية فى المدينة (قانون: nomos) تسبغ أهميتها على النقود، وهكذا فان أرسطو لم يكن معدنيا (عندما تكون قيمة النقود قائمة على المعدن) كما يرمى فى بعض الأحيان.

ولكن النقود ليست وسيلة عرفية للتبادل فحسب، ولكنها أيضا معيار (Metron) للسلع والخدمات الأخرى، وهذا الجانب المعيارى يوضح فى فقرة أخرى من الآخلاق. «إنها (النقود) التى تعاير جميع الأشياء، من القيمة الكبرى لاحداها إلى أصغر قيمة للأخرى، مثل كم يقدر من الأحذية كى يعادل منزلا أو يكفى لإطعام فرد».

ب- المبادلة:

ولكن الفقرة الرئيسية فى الأخلاق (NE,V,5) هى دون شك النظرية الأرسطية عن القيمة الاقتصادية للسلع والخدمات وشروط تبادلهما. ولدى أرسطو أن القيمة الأقتصادية للسلع والخدمات ترتكز على قدرتها على اشباع الحاجة (keria) وشدة الحاجة (المنفعة؟) هى معيار قيمة السلع أو الخدمات. لقد أسفر التطور التاريخى والتنظيم الاجتماعى - بوجه عام - فى الحقيقة عن عجز الاقتصاد التقليدي oikos عن إنتاج جميع السلع والخدمات اللازمة لاشباع حاجاته، ومن هنا كانت المقايضة هى وسيلة الحصول على السلع والخدمات الناقصة من أجل فائض فى السلع والخدمات، ولكن الحاجة أيضا فى المبادلة على أساس نقدى (بالنقود كوسيط) هى أساس القيمة. فالنقود تمثل الحاجة بطريقة عامة ومحايدة[٥].

وحتى يسود الانسجام المدينة من الضرورى أن تأخذ الأنشطة التبادلية سبيلها

---

(٥) فى النص Upallagma tès kreia

طبقا لمعايير العدالة، فمن الحتمى أن يحصل كل فرد على حقه لقاء إسهاماته(٦)، وطبقا لأرسطو ينبغى أن يفهم مصطلح العدالة بمعنيين:

أ - فهناك أولا عدالة توزيع أو عدالة شاملة تضبط توزيع غنائم الحرب أو الجزية، التفويضات والتكليفات، المناصب، الألقاب والأوسمة.. إلخ. وهنا يقر أرسطو التفاوت الاجتماعى (بل الطبيعى) فيما بين الرجال، ومن ثم يقر التفاوت فى توزيع الامتيازات كذلك.

ب - ثم هناك العدالة التصحيحية، وهى المعايير التى تضبط «الوسط العادل Just middle فيما بين خسارة فرد وكسب آخر» فى موقف مبادلة(٧). والعثور على هذا «الوسط العادل» - الذى هو الثمن العادل - هو المشكلة النظرية الأساسية التى بحث أرسطو عن حل لها، فلكى يمكن تقدير القيمة العادلة لاسهامات كل فرد (فى موقف يشتبك فيه أناس مختلفون، مثل حرفيين يبادلون منتجات غير متشابهة) من الضرورى أن نجد معيارا موضوعيا يجعل العلاقات متكافئة وعادلة، وهكذا فان نظرية تحكُم شروط المبادلة تبدو ضرورية.

إن المعيار الأرسطى للقيمة التبادلية للسلع أو الخدمات هو الحاجة (kreia) فى موقف المقايضة، وهو النقود التى تعبر عن الحاجة أو تمثلها upallagma tès) kreia) فى موقف مبادلات السوق أو المبادلات النقدية وشدة الحاجة التى يحسها هؤلاء الذين يقومون بالمبادلة هى المعيار المتكافىء لقيم السلع والخدمات غير المتشابهة أو المتباينة.

فعندما يتبادل اثنان من الحرفيين منتجاتهم يكون من الضرورى أن يعى القائمان بالمبادلة أن ما يعطى وما يأخذ ذو قيمة متساوية نسبيا، وهذه الفكرة تعبر عن المتطلبات الوظيفية لنظام التبادل، ولكن هناك أيضا مطلب الوسط العادل (من العدالة) للنظام. وهذا يعنى أن الانسجام الاجتماعى تتم كفالته عندما تقدر الأشياء المتبادلة بواسطة القائمين بالمبادلة (من وجهة نظرهم ومن موقفهم بالنسبة للحاجة) على نحو متكافىء نسبيا، وهذا الموقف الذى لا يحس فيه أحد من شركاء المبادلة بانه

---

(٦)إن المصطلحان "just", "equitable" يتصلان ايتيمولوجيا etymolo gically «علم أصول الكلمات وتاريخها» للجذر (,dicha مقسم إلى قسمين): dikaion

(٧) NE, V.3.

مغبون أو مهضوم خليق بأن يكفل استمرار العرض والطلب، أما فى الوضع المخالف فان حرفا معينة سوف تختفى.

وكى يوضح أرسطو نظريته فى المبادلة وشروطها يقدم مثلا باثنين من الحرفيين، أحدهما صانع أحذية والآخر مهندس معمارى، يرغبان فى مبادلة منتجاتهما: أحذية مقابل منزل. وفيما يلى نستشهد بهذه الفقرة من كتاب الأخلاق N.E,V,5 عن المبادلة. وهى تكشف عن منظور جديد للتفسير غير ذاك المؤسس على الحاجة (keria)» لابد أن يتلقى المعمارى من صانع الأحذية ثمار عمله، وعليه بدوره أن يمنح صانع الأحذية ثمار عمله هو الآخر. فاذا تمت هذه المساواة النسبية قبل كل شيء، واذا حدثت المبادلة بعد ذلك، فإن الأمور ستمضى حسبما قلنا آنفا، إما اذا افتقر الأمر لذلك فستنهدم المساواة ولن تستمر هذه الصلات طويلا. لأنه ما من شيء يستطيع أن يمنع عمل إنسان من تجاوز عمل إنسان آخر. فينبغى المساواة بينهما، ويوجد هذا أيضا فى الحرف الأخرى، انها سوف تختفى اذا كان ما يصنعه الفريق الذى بذل الجهد - فى الكم والكيف - لا تتم مساواته بواسطة الفريق السلبى بالشروط نفسها».

لقد صار هذا المثل بصانع الأحذية والمعمارى شهيرا فى الكتابات الاسكولائية (المدرسية) حيث استخدمها معظم المفسرين وأحلوها موضعها من خلال منظور زمانهم. ولكن النظرية الأرسطية فى شروط المبادلة ليست مثالا للوضوح التحليلى، وقد اعطي هذا الفرصة لمختلف المدارس (منذ العصور الوسطى حتي يومنا هذا) لأن تقرأها بطريقة تتطابق مع اطار مرجعهم الايدلولوجي.

ومنذ الفترة الاسكولائية حابهت مدرستان كل منها الأخرى:

- شروط المبادلة (Justum pretium) المبنية على التكاليف: القيمة الاقتصادية الموضوعية

- شروط المبادلة القائمة على المعايير الشخصية (المنفعة)، وفيها تتحكم ظروف السوق فى المبادلة.

ان النص الأوسطى عن المبادلات يستسلم فى حقيقة الأمر لقراءة مزدوجة.

أ - القراءة التى يُرى فيها هؤلاء المتبادلون كفاعليات اقتصادية تقايض أو تبادل لاشباع حاجاتها، وهذا هو الفهم (التجارى) للسوق، ويمكن لهذه النظرة ان تقود إلى تقويم شخصى لكثافة العرض والطلب.

ب - القراءة التى يُرى فيها هؤلاء المتبادلون كحرفيين، وهذا من وجهة نظر الانتاج، وفى الفقرة الأخيرة التى استشهدنا بها نرى أن أرسطو لا يركز على حاجة (kreia) صانع الأحذية بل على عمله (ergon) . ان استخدام المصطلحات على نحو «منُتَج» و «عمل» تشير إلى جوانب الانتاج وهذا يقود إلى الناحية الموضوعية لتكلفة الانتاج. أيلمع أرسطو هنا بفطرته الى نظرية اقتصادية عن التوزان فيما بين أجل قصير (الحاجات والسوق) وأجل طويل (تكاليف الانتاج)، الأمر الذى لم يكن معنيا به؟ ولم هذه الملاحظة: «هذه الحرفة سوف تختفى؟».

إذا ظل سعر السوق القائم على شدة الحاجة لدى هؤلاء المبادلين (يمكن أن نقول اليوم على العرض والطلب) بالنسبة لمنتجات معينة أقل من تكلفة الانتاج، فى احيان كثيرة فإن الوسط العادل لن يتحقق، حينئذ يعلن أرسطو أن هذه الحرفة أو الفن (هذا المنتج) سوف يختفى، وهاتان القراءتان تزودان بالمادة الاولية (التى لم يستخدمها أرسطو نفسه) للتركيبة أو الجميعة (الجمع بين عناصر مختلفة) التى صيغت فى نهاية العصور الوسطى، والتى سوف تقود إلى نظرية التوزان: القصير الأجل الذى تحكمه شدة الحاجة (المنفعة الشخصية) والطويل الأجل الذى تحكمه تكاليف الانتاج (المعيار الموضوعى).

٥ - التقويم

على خلاف ايزوقراطيس وزينوفون وغيرهما من الاقتصاديين الذرائعيين - العمليين - فان أرسطو لم يضع خطة ملموسة لاصلاح ظروف المدينة الاجتماعية والاقتصادية فى أزمتها، وفى النصوص الاجتماعية الاقتصادية التى تعرضنا لها بالتعليق توا، نجده ينأى بنفسه ولا يعلق على التغييرت التى أحدثها فيليب المقدونى والاسكندر، ان هذا الستاجيرايتى stagirite* يقدم نفسه كمحلل يرتفع بنفسه عن حمأة الصراع مثل مؤسس مدرسة، إن النموذج التحليلى الأرسطى فى الاقتصاد له نفس السمات التى لنظامه الأخلاقى:

- انه عَالَم يحظى فيه العيش جيدا بالأسبقية على التراكم.

- وهو عالم تشكل فيه العدالة ضمانة الانسجام والتماسك «الاجتماعى - السياسى» ويزكى المبادلة باسعار طبيعية هى الوسط العادل Just middle.

---

* يقصد بالمصطلح أرسطو الذى ولد بمدينة ستاجيرا stagira (المترجم).

لقد مّر أرسطو فى أيامه بعدد كبير من الانتكاسات فى حياته الخاصة والعامة، وتميز عالمه بحكم الصفوة التى يهزها شوق جارف لماض لن يعود، ولقد قدمت المدينة الاتيكية خلال تطورها منذ عام ٣٧٠ إلى ٣٢٢ ق م كثيرا من التحديث كى ترضى أرسطو، كما كانت صلته بالجماعة المقدونية فى أثينا سببا فى اضطراب سنواته الأخيرة، وبعد موته تورات أفكاره الاقتصادية والسياسية مددا طويلة، ولكن نظرا لكونه مؤسسا لمدرسة فإن عبقريته الفلسفية مرت بالعديد من فترات الانتعاش، وكذلك فى عالم الفكر الاقتصادى.

وحتى أيامنا هذه فإن اسهامات أرسطو كاقتصادى لم تزل مدار نقاش ومحل جدل، ويعتبره بعض مؤرخى الفكر الاقتصادى كـ «جيه. سكمبيتر J. Schumpeter» أول المنظرين الاقتصاديين، بينما يعارض البعض الآخر مثل موسى فينلى Moses Finley هذا التكريم الذى خلّع عليه دونما استحقاق، وفى قائمة المراجع التى أدرجناها فى نهاية هذا المقال فإن الجدال يأخذ غالبا طابعا أيديولوجيا ويصبح محلا للجدل فيما بين مختلف المدارس (فيما بين الماليين، واقتصاديى المذهب التقليدى الحديث، والمؤسسيين)

ثالثا: أرسطو: مصدرا للفكر الاقتصادى فى البلاد الاسلامية

نما الاسلام سريعا بعيدا عن قاعدته فى بلاد العرب، وامتد إلى بلاد الثقافات القديمة، مثل آسيا الصغرى وشمال أفريقية وجنوب اسبانيا، وكانت هزّة الاصطدام بالفكر الشرقى فى إيران والاتصال بميراث الاغريق هو ما طبع التطور العقلى للدين الجديد.

وأثار الغزو مشكلات جديدة تشمل المشكلات الاجتماعية الاقتصادية. وكان الاسلام دينا ينتمى رجاله الأوائل للبرجوازية التجارية فى بلاد العرب، وكان النبى عليه السلام على دراية مباشرة بدورات الحياة الاقتصادية، ولم يكن للاسلام نصيب فى التقويم السلبى للتجارة والاقتصاد بوجه عام كما كان الحال فى العصور القديمة وفى العصر المسيحى.

ومن جهة ثانية احتفظ الإسلام بمبدأ أساسى موروث عن اليهودية الكتابية (سفر تثنية الاشتراع) ومن الفلاسفة القدماء (افلاطون وأرسطو). وهو مبدأ تحريم الفوائد أو طلب الربا على القروض. وقاعدة اجتماعية أخرى هى الزكاة

أو الهبـات من أجل الفقراء.

ومنذ القرن التاسع بعد الميلاد أصبح أرسطو الإلهام الرئيسى للفكر الاقتصادى فى البلاد الاسلامية خلال الفترة الكلاسية. وانحاز المفكرون المسلمون لفكرة إدخال التحليل الاقتصادى، والتحليل الاجتماعى السياسى فى نظرية الأخلاق العملية. ويعرف هذا العلم فى الاسلام باسم علم تدبير المنزل الذى يعنى علم تنظيم البيت oi-kos وهى فكرة اغريقية.

ان غزو اقاليم شاسعة تشتمل على العديد من المناطق الغنية قد أتى بجزية طائلة وتجارة هائلة. وخلال زمن قصير جدا تشكلت برجوازية فائقة الغنى، ولم تجد هذه الطبقة أية غضاضة فى تراكم الثروات الضخمة، ونجد أثرا لهذا التيار فى عالم الفكر، فقد صاحب النمو الاقتصادى فى العصر العباسى جهدا اسلاميا لاضفاء الشرعية على الربح[٨]، وتعتبر مجموعة النصوص الواردة فى كتاب الكاش للشيبانى (حوالى ٨٠٤م) مثالا على هذا الجهد.

«ان اكتساب المال بالتجارة لهو أفضل من أن يكون المرء ديوانيا أو حتى جنديا»، ولكن المسلمين البررة وقادتهم الروحيين ظلوا دوما لا يقرّون اجتناء الثروات الطائلة.

وسوف نشير على الترتيب فيما يلى إلى المؤلفين الاسلاميين فى العصور الوسطى الذين نشروا نصوصا اقتصادية.

فالبيرونى الاجتماعى الاقتصادى الإيرانى (٩٧٣ - ١٠٤٨) كان مفكرا ذا معرفة موسوعية، ولم يزل كتابه عن الهند ذا قيمة كبيرة بالنسبة للقارىء المعنّى بمقارنة الحضارات[٩].

ويعتبر البيرونى لدى بعض القراء ارهاصا بمالتوس، فقد أوصى فى الحقيقة بنمو سكانى معتدل، بينما يرى البعض الآخر فى كتاباته إطارا لنظرية الكمية للنقود. ولكن آثار المنهجية الاغريقية وآثار أرسطو تبدو حاضرة على الدوام.

---

(٨) c. cahen, "A propos et autour de Ein arabisches Handbuch der Handel-swissenschaft", Les peuples muslmans dans l'histoire Médiéval, Damascus 1977.

(٩) كتب البيرونى كتابه باللغة العربية، ونشر إى .سى. ساتشو E.C. Sachau ترجمة إنجليزية له فى لندن عام ١٨٧٩م

وطبقا لـ جيه. دى. سوموجى J.De. Somogyi فإن المُعلم على الدمشقى كان أول اقتصادى عربى بفضل دراسته «كتاب الاشارة إلى محاسن التجارة»(١٠). وهو ليس نظرية اقتصادية بقدر ما هو وصف جيد للحياة الاقتصادية. ويبدو التأثير الأرسطى غامرا، وهناك نص فى الاقتصاد هام هو الآخر كتبه الحريرى (١٠٥٤ - ١١٢٢).

أما أشهر الأسماء فى العالم الغربى فهو ابن خلدون (١٣٢٢ - ١٤٠٦)، وفى زمانه ظل المؤلف شخصية هامشية إلى حد ما، ولكن ابن خلدون أمدنا بقدر هائل من التاريخ ومن التحليلات الاجتماعية الاقتصادية التى خطيت بالشهرة بناء على ذلك، والنصوص النظرية فى الاقتصاد نجدها فى الجزء الخامس من مقدمته تحت عنوان «المقدمة Muqaddima ».

ولكن الفيلسوف العربى الذى صاغ أكثر الأحكام أهمية بالنسبة للنظرية الاقتصادية هو «ابن رشد»، وشروحه الميتافيزيقية التى تصوّب الإسمية النقدية لأرسطو ظلت آنيّة الأهمية إلى درجة كبيرة لحين الأذعان لنظام بريتون وود Bretton Wood (١٩٧٣) الخاص بمعدلات الصرف الثابتة فيما بعد. فإذا كانت النقود - بين أشياء أخرى - معيارا للقيمة (metron) كما نادى أرسطو، فينبغى أن تكون معيارا ثابتا حسبما يقول ابن رشد، لأن معيار جميع السلع والخدمات لا يمكن أن يكون خاضعا لقانون السوق وإلا أصبحت قيمته متغيرة. لأن هذه القيمة ستتبع تقلبات العرض والطلب...إلخ.

إن فكرة ثبات معايير القيمة تعتبر اسهاما أساسيا لابن رشد، انها تمدنا بتعزيز للاسمية الأرسطية. لقد كان ابن رشد ضد تقلب النقود ومعدلات الصرف لسبب جوهرى واحد، ونعنى بـ «جوهرى» أن ابن رشد اشار إلى الجوهر أو الماهية (الميتافيزيقية) للحاجة. ووفقا للفلسفة العربية فإن المعيار (النقود) لا يمكن أن يكون له قيمة متغيرة، وإلا كان معيارا «غير متكافىء» وجوهر المعيار أن يكون ثابتا، وإلا أدى هذا إلى لا محدودية شاملة لما تجب معايرته (السلع والخدمات).

لقد ظلت الكتابات الاسلامية فى الاقتصاد وصفية إلى حد بعيد ولم توفر أى تطورات نظرية، باستثناء ابن رشد فى شروحه التى كانت مختصرة - ولكنها جذرية -

---

(١٠) J.De Somogyi, "Economic, Theory in Classical Arabic Liter ature", studies in islam, Vol.2, 1965,p.1-6..

عن الخاصية الجوهرية للنقود، ولكن يبدو لى أن مزيدا من البحوث ضرورى فى هذا المجال، وحتى الآن فان معظم المشتغلين بالعلوم الاسلامية يتوجهون لبحوث فقة اللغة والفلسفة وعلوم الدين. ولعل قرادة اقتصادية جديدة لهذه النصوص تتكشف عن كنوز أخرى خبيئة.

لقد كانت الحضارة الأندلسية فى جنوب إسبانيا الوريث لتيارات الفكر الاسلامى الشرقى، فعمّقت هذا الفكر وكان لها هى الأخرى أثرها كمرحلة ثقافية، إن القوة الثقافية للأندلس تمخضت عند النقل البطيء – اعتبارا من القرن الثانى عشر وما بعده – للمعرفة العربية إلى العالم الغربى الذى كان مهيأ لاستقبالها.

رابعا: أرسطو، ملهم النظرية الاقتصادية الاسكولائية (المدرسية).

خلال العصور الوسطى المتأخرة كانت النظرية الاقتصادية للقيمة وتطبيقاتها العملية فى تثبيت الأسعار وفى إعارة المنقولات mutuum... إلخ محصورة فى نطاق المشرعين والمحامين الاكليركيين. وكانت القواعد والمعايير المستخدمة فى المعاملات الاقتصادية مشتقة من القانون المدنى أو القانون الكنسى. لقد أحدث وصول «السياسة» و «الأخلاق النيكوماخية» إلى الغرب اللاتينى تغييرا جوهريا. فمنذ هذا الوقت وفيما بعد أصبح اللاهوتيون (المدرسيون) هم الذين يقررون هذه المعايير، مستخدمين فلسفة أرسطو وأخلاقه، ولما كان هؤلاء اللاهوتيون يكتبون أيضا الدلائل المرجعية للمعترفين، فانهم بهذه الطريقة صاغوا الضمير المسيحى وسيطروا عليه. بما فى ذلك ضمائر التجار والحرفيين. ونتيجة لهذا وجد المعلمون الاسكولائيون أنفسهم فى موقع السيطرة الاجتماعية والأخلاقية، أما الفلاسفة المسلمون من ناحية أخرى فقد ظلوا على هامش القوة الدينية تقريبا.

(١) السمات الجوهرية للتعاليم الإسكولائية.

ان كبار المعلمين الاسكولائيين قد استلهموا أساسا «الاخلاق النيكوماخية N.E,V,5 » و«السياسة P.I,8 -11 فى تحليلاتهم الاقتصادية، ولكن أرسطو اللاتينى لم يكن دائما هو أرسطو الأثينى تماما.

أ- فقد كانت هناك مشكلة اعادة غرس الأفكار فى عالم مختلف اجتماعيا واقتصاديا. ان العالم الغربى فى القرن الثالث عشر الذى ظهرت فيه نصوص

«الأخلاق» و«السياسة» كاملة كان مجتمعا اقطاعيا، وكانت التجارة فى مدنه لم تزل بعد تتطور فى وجل شديد، كان عالم اقتصاد للتعيش، وكان تحويل الصلات الاقتصادية إلى نظام نقدى فى بدايته، مما كان سببا فى إثارة المشكلات بالنسبة لكلمتى «متكافىء» equitable و « عادل Just» كمصطلحات للمبادلة (Justum Pretium).

ب - كذلك فان ترجمة النصوص إلى سياق تاريخى وثقافى جديدين يصنع كثيرا من المشكلات، فنحن لا نستطيع أن نغفل حقيقة أن المفاهيم الأساسية فى التحليل الاقتصادى الإسكولائى (المدرسي) مثل "Just" و "equitable" و -Commensur able" بمعنى متكافىء أو قابل للقياس الكمى، *"Laesio enormis","usus"* *"utilitas"*.. إلخ قد ابتدعت فى اللاتينية من تقاليد الفكر القانونى الرومانى *(corpus, Juris, civilis)* ومن التقاليد الكارولنجية(*) ومن القانون الكنسى.

ونستطيع أن نوضح هذه المشكلة بواسطة واحد من مصطلحات «الأخلاق» «Ne, V,5» واعنى Keria, ، فالترجمة الأولى (Translatio Lincolniensis) ترجمت فيها *Kreia* على التعاقب ب*opus, nesessitas, utilitas, indigntia*, وهذه المصطلحات بدلالاتها المختلفة أثارت غموضا منذ البداية الأولى للحقبة الاسكولائية(١١). وكانت النتيجة أن ظهرت اتجاهات مختلفة فى مئات الشروح والتعليقات التى عقبت الترجمة الأولى.

- فاختار توما الاكوينى المصطلح *indigentia* بدلا من المصطلح *utilitas*
- كما كتب أورزم Oresme على التعاقب « *human indigence* أو *necessi-ty* أو *need*»
- وفى النصوص الايطالية الحديثة نجد *Mancamento* أو *bisogno*
- والنصوص الفرنسية المعاصرة تستخدم المصطلح *besoin*
- والنصوص الانجليزية الحديثة تستخدم demand و want و need

---

* نسبة إلى أسرة تأسست عام ٦١٣ م وحكمت فرنسا خلال المدة من ٧٥١م إلى ٩٨٧م والمانيا من ٧٥٢ إلى ٩١١ وايطاليا من ٧٧٤ إلى ٩٦١. (المترجم).

(١١) من أجل تفصيلات إضافية انظر:

O. Langholm, Price and Value in the Aristotelian Tradition, Oslo, 1979.

- وفى الترجمات الألمانية نجد *Bedur fnis* ولكننا نجد أيضا *Bedarf* التى تحيل إلى الدلالة الاقتصادية الحديثة لكلمة *Nachfrage* (بمعنى الطلب).

إن الشراح المحدثين يعرضون أنفسهم لخطر قراءة النصوص الأرسطية السابق تفسيرها بواسطة الاسكولائيين، بالمفاهيم الحديثة السائدة مثل السوق، والطلب، والتلاحم أو الترابط بين العرض والطلب، والتوازن العام... إلخ، وهذا هو خطر التفسيرات التلفيقية *hineininter pretieren* من الأطر المفاهيمية المعاصرة.

٢ - روافد التقاليد الأرسطية فى الإسكولائية

تسببت هذه المصطلحات المختلفة فى الاسكولائية (من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر) فى ظهور ضروب مختلفة من التفاسير، وقد أراد البعض أن يرى فى هذا مسألة خلاف مدرسى بين الرهبان الدومنيكان والفرنسسكان على سبيل المثال.

ففى مجال القيمة تميزت مدرستان:

أ- نظرية القيمة الموضوعية المبنية على تكاليف الانتاج، وفى هذا كان البرتوس ماجنوس Albertus Magnus محددا واضحا فى فكرته عن *Labor et expen-sae*. ففى نصه المعروف *De Bono* كما فى شروحه للأخلاق (N.E,V.5) يتبنى فكرة أرسطو عن استمرار الحرف، فبالرغم من تقلبات السوق التى ترجع إلى اختلاف شدة الحاجة فإن الثمن ينبغى أن يغطى تكلفة الانتاج، والإ فإن فنونا (حرفا) بعينها سوف تختفى(١٢).

ب - نظرية القيمة الشخصية المبنية على الحاجة (*utilitas*) وعلى الندرة (*raritas*) أيضا، وتتحكم فيها قوانين السوق الخاصة بالعرض والطلب.

ولقد جمع الكاتبان الفرنسسكيان بتروس جيه. اوليفى Petrus. olivi (١٢٨٤ - ١٢٩٨)و جى. اودونيس G. Odonis (١٢٩٠ - ١٣٤٩) فيما بين المدرستين مع مقدمة بشأن الأختلاف النوعى فى العمل المنتج. وهذا هو اسهام الفرنسسكان فى النظرية الاقتصادية، فمن خلال التدريب الإنسانى والتقنى يصبح العمل أكثر غلة ويستحق تعويضا أكبر لأن الحرفيين الذين وهبوا كفاءة خاصة يعدون

---

(١٢)فى النص: artes destruentur... si non faciet... quantum ad expensaa et quantum ad laborem.

شيئا ثمينا ونادرا: *Pauci et rari sunt*. ويعتبر هذا إرهاصا بنظرية توزيع الأجور طبقا لدرجة كفاءة العامل.

٣ - تقويم نظرية النقد

أ- فكر أرسطو فى التقاليد الوظيفية أو الدالّية: فى عالم القيمة كان أرسطو اسميا: فقيمة النقود تحدد باصطلاح اجتماعى (أو سياسى).

ب - صاغ الدكاترة الأوائل (توماس الاكوينى على سبيل المثال) نظرية سياسية للنقود تناسب تقاليد المجتمع الإقطاعى: نظرية *Valor impositus* بواسطة الأمير.

جـ - ساهم بوريدان Buridan وأورزم Oresme فى اجراء شىء من التعديل. فقدما فكرة القيمة التى تضع فى الاعتبار مصالح المجتمع بأسره (الناس والبرجوازية.. إلخ)، فالأمير لا يستطيع تغيير قيمة النقود حسبما يهوى ولربحيته الخاصة. فتلاعب الأمراء بالنقود لم يكن محل تقدير البرجوازيين أو اللاهوتيين مثل جيه بوريدان تلميذ أورزم.

د - كانت الإسكولائية الاسبانية فى القرن السادس عشر تمثل نظرية لاهوتية حديثة، فأنتجت أول نظرية اقتصادية فى النقود حتى قبل جيه. بودين J - Bodin، فاعتبرت النقود مثل السلع ذات قيمة سوقية متغيرة. ان التطور تجاه التضاد التام مع تفسيرات أرسطو قد استمر بواسطة ابن رشد، فقيمة النقود تعتمد على مقدار ما يتداول منها، وهذه هذ بداية النظام النقدى.

خامسا: تفسيرات القرن التاسع عشر

بحلول القرن الثامن عشر بدأ تأثير أرسطو الخصب فى عالم الفكر الاقتصادى فى الانحدار، وبدأ نموذج التجارية العامة والتجارية الفردية (مذهب المنفعة ومذهب المتعة) فى السيادة.

ولكن نهاية القرن التاسع عشر طُبعت بالخلاف بين الفكر الاقتصادى المستلهم من الماركسية (نظرية القيمة الموضوعية) وبين الفكر الاقتصادى الحدى (نظرية القيمة الشخصية).

لقد ظن الكتاب الماركسيون أن بمقدورهم أن يجدوا فى نصوص أرسطو وبعض

الاسكولائيين النابهين (مثل توما الاكوينى) دعما لنظريتهم فى التكاليف، وهى نظرية القيمة الموضوعية. وهكذا يكون ماركس اسكولائيا أو حتى أرسطيا بالنسبة لمسألة القيمة الاقتصادية، وهذا الخلاف الايديولوجى الحى أثار اهتماما جديدا بالنصوص الاقتصادية الأرسطية (انظر قائمة المراجع).

ومع نهاية القرن التاسع عشر نشب نقاش حى فى ألمانيا بين المتخصصين فى الآثار اليونانية وبين الاقتصاديين المنتمين للمدرسة التاريخية، وكان موضوع النقاش هو معرفة هل كان المواطنون فى المدينة اليونانية على قدر من «الوعى» الاقتصادى أم لا، وهل كانوا سلفا ذوى عقلية رأسمالية أم - بالنسبة للجماعات الأكثر فقرا - على وعى طبقى؟ ومن المدهش أن نلاحظ أن واحدا من أفضل المختصين بالآثار (فى فقه اللغة) قد دافع عن فكرة «يونان بعقلية معاصرة» بينما أطلق الاقتصاديون من جهة أخرى على شعب القرن الرابع قبل الميلاد «ما قبل الحداثة Pre - modern»، وكنتيجة لهذا الخلاف قرئت نصوص أرسطو مرة أخرى وأعيدت قراءتها أثناء اصدار كلتا المدرستين الفكريتين لتفسيراتهما.

سادسا: أرسطو والتفسيرات المعاصرة

إن التفسيرات المعاصرة للفكر الاقتصادى الأرسطى (انظر قائمة المراجع) تتركز فى النقاط التالية:

١ - ادخال الاقتصاديات فى المجتمع ككل. والعلاقة بين معايير الاقتصاد والمعايير الأخرى الخارجة عن نطاقه: اجتماعية وسياسية وأخلاقية.

٢ - نظرية القيمة

٣ - آليات تحديد الأسعار (السوق.. وعوامل أخرى)

٤ - الحدود «الطبيعية» للنمو الاقتصادى

٥ - نوعية الحياة

ماذا يعنى أرسطو لعصرنا الحاضر؟

تعتبر النظرية الاقتصادية فى مأزق فى الوقت الراهن كنتيجة للتجاوزات التالية:

- الردية* إلى صورية (شكلية) منطقية ورياضية بالنسبة للبعض.

- الافراط فى الوضعية التجريبية بالنسبة للبعض الآخر.

- - التفريغ من القيم والغايات والاهتمام كلية - فى الغالب - بالتحديد الأمثل للوسائل: الكفاية الأداتية.

إن القضية التى نطرحها الآن للمناقشة هى ان قراءة أرسطو يمكن أن تساعدنا فى إنعاش الفكر الاقتصادى.

١ - ان النظرية الاقتصادية الحديثة قد تخلت عن تحليل القيمة، وقبلت النظرية التقليدية الحديثة الصيغة التحليلية القائلة بأن السعر يتحدد فى الأسواق الحرة، ولكن الحقيقة مختلفة تماما: فالكثير من الأسعار (الخاصة بالعمل والسلع) تتقرر بواسطة الإدارة العمومية، أو عن طريق المفاوضات بين اتحادات المستخدمين ومنظمات أرباب العمل. وهكذا فان أسعار السلع والخدمات لا تقوم (نظريا) على معيار القيمة. فهى نتيجة للعلاقات بين القوى الاجتماعية والسياسية. وفى هذا ما يوضح آلية الأسعار القائمة على معطيات لا تنبع من النظام الاقتصادى.

٢ - ان نموذج التراكم الأرسطى نموذج نام ولكنه يظل تحت السيطرة، بمعنى أن يبقى داخل الحدود القياسية بواسطة الإنسان والطبيعة، إن التأكيد لا يكون على تحسين الانتاج، وانما بالأحرى على التوزيع المتكافىء (بالمعنى الأرسطى). لقد كان أرسطو يخشى أيضا نموا بالغ السرعة فى السكان، فإن هذا سيخلق المشكلات، والمدن لا ينبغى أن تصبح كبيرة جدا. فمع زيادة سكانية غزيرة فإن التراكم الاقتصادى يصبح انشغالا شديد الأهمية، وهذا النمو ينبغى تحاشيه، وهكذا يصبح أرسطو مالتوسيا ولكن لاسباب أخرى غير تلك التى يصدر عنها مالتوس.

٣ - إن النموذج الأرسطى لا يضع قيودا خارجية على النمو فحسب (الموارد والمواد الأولية..إلخ) وإنما قيودا داخلية أيضا. ان الفكرة الأخلاقية عن المتوسط العادل تتعارض مع فكرة تمجيد التراكم، ومن وجهة النظر هذه فإن أرسطو يذهب إلى أبعد مما يذهب إليه «نادى روما» بوضع القيود «الأخلاقية» و «الاجتماعية

---

* من الرَدّ وهو فى اصطلاح الرياضيين والمناطقة تحويل بعض موضوعات الفكر إلى موضوعات أخرى معادلة لها (المترجم).

السياسية» على النمو الواسع كهدف للنظام. لقد عرف أرسطو أن الرغبات لا حدود لها، ولكنه يقول أن الحاجة الحقيقية (الطبيعية) محدودة. وينادى الاقتصاد الحديث بأن الحاجة غير محدودة، ولكن المشكلات الاقتصادية تثور من حقيقة أن الوسائل محدودة. ان فكر أرسطو يستهدف الغايات.

٤ – يولى الاقتصادي المعاصر التخصيص الفعال للوسائل أهمية كبرى، والأخلاق النيكوماخية بحث فى تعدد الغائية والغائية العليا أو الايودايمونيا *eudaimonia* أى العيش جيدا، إن الاقتصاد الأرسطى اقتصاد سياسى وأخلاقى، وهو ليس ولا يمكن أن يكون اقتصادا خالصا (صورية خاوية).

٥ – اتبعت البلاد الاسلامية اتجاها آخر، يتمثل فى اقتصاد مستقل ليس له أبعاد أخلاقية، تحول فقط إلى بحث اداتى عن فاعلية لم يكن لها جذور فى الواقع، والحقيقة أن البلاد الاسلامية ظلت أكثر تشبعا بالتقاليد الأرسطية.

– بالاعتدال فى التراكم كحافز الحياة المادية.

– بالسمو باالأخلاق والسيطرة على اقتصاد اللذة (المتعة).

أن فقرة من «الوصايا العشر» للاقتصادى الاسلامى المعاصر عبد الرؤوف تصوغ هذا الاختيار فى وضوح. «فى محيط الثقافة الاسلامية، فإن المشكلة الاقتصادية أقل ارتباطا بندرة المنتجات أو الافتقار إلى تنظيم فعال لوسائل وموارد الانتاج والتوزيع، منها بالإنسان نفسه وبجشعه. ولمواجهة هذه المشكلة فإن الاسلام يأمر كعلاج بالحد من التطرف فى الجشع الانسانى والسمو بروح الانسان، الأمر الذى يمكن احرازه بمناشدة العدالة الاجتماعية والشعور بالمسئولية المشتركة»(١٣). ان هذا الاختيار للاعتدال بالنسبة لاغراء الكسب (البرنامج المضاد للكريماتستيكية) واللجوء إلى الارتفاع بالروح تجاه غايات سامية eudaimonia يمكن أن ينسب أيضا وبسهولة إلى أرسطو.

٦ – ان فكرة السيادة المطلقة للمدينة تعبر عن الفكرة المعاصرة «الصغير جميل» ولكن فى هذا الصدد مستخدمين نظامنا الذى يتخطى الحدود القومية علينا ان نمضى إلى ما هو ابعد من الـ Kleinstaaterei (الاكتفاء الذاتى) لأرسطو وإكماله(١٤).

Abdul Rauf "the Ten Commandment of Islamic Economics", Across(١٣) the Board, Aug. 1979.

(١٤) ويبقى السؤال وهو لماذا لم يفكر ارسطو فى تخطى الحدود القومية الذى كان قد أخذ سبيله عقب تكوين امبراطورية الاسكندر. ويبدو هذا بالنسبة لنا بمثابة أخفاق عبقرية.

اننا نعيش فى عالم متعدد العرقية ومتعدد القومية مازال يبحث عن معايير جديدة للتضامن، وبالنسبة لنا نحن أبناء القرن العشرين «فإن العالم هو قريتنا».

***

إن تفسيرا لأرسطو كاقتصادى بحر أوسطى يقدم لنا منظورا جديدا من الناحية التاريخية ومن ناحية الشكل التحليلى. ومنذ القرن الثامن عشر فإن ثقافات البحر المتوسط والدول الاسلامية قد ران عليها الصمت العميق، وكما تُرى من الغرب الاطلسى فإنها - كما قيل - قد تدهورت وانحلت. ومنذ هذا الوقت فإن عالم الأطلسى أصبحت له السيطرة، ببرجوازيته الضاغطة، وتقنيته، وروحه التجارية. وكانت النتائج المادية مؤثرة وبلا سابقة فى تاريخ الانسانية.

ولكن عالم الاطلسى اليوم يبدو كأنه قد استنفذ الحدود المادية لنموذجه فى التنمية، فبعد استبعاد قيمه ومثله العليا تبدو جناته وقد تجردت معنويا عندما جابهته أزمة مجتمعاتنا الاستهلاكية ولعل التماس ملاذ فى النموذج التحليلى الأرسطى، الذى أغنته الثقافتان الإسلامية والمسيحية قادر على ان يمنحنا قوة جديدة.

لويس بايك

جامعة لوفان الكاثوليكية

BIBLIOGRAPHY

Nineteenth-century Exegesis

ASHLEY, W., "Aristotle's Doctrine of Barter", *Quarterly Journal of Economics*, vol. 9, April 1895.
GELESNOFF, W., "Die ökonomische Gedankenwelt des Aristoteles", *Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik*, 1923.
KRANS, O., "Die aristotelische Wertheorie", *Zeitschrift für die Gesamte Staatswissenschaft*, vol. 61, 1905.
SIMEY, E., "Economic Theory among the Greeks", *Economic Review*, vol. 10, Oct. 1900.
SOUCHON, A., *Les Théories économiques de la Grèce antique*, Paris 1848.
ZMAVE, Z., "Die Wertheorie bei Aristoteles und Thomas von Aquino", *Archiv für die Geschichte der Philosophie*, vol. 12, 1899.

BALDWIN, J., "The Medieval Theories of the Just Price", *Transactions of the American Philosophical Society*, vol. 49, 1959.
BERTHOUD, A., *Aristotle et l'argent*, Paris 1981.
CAMPESE, S., "Polis ed economia in Aristotele", *Aristotele e la crisi della politica*, Naples 1977.
CASTORIADIS, C., *Les Carrefours du labyrinthe*, Paris 1978.
DOGNIN, P., "Aristote, saint Thomas et Karl Marx", *Revue des sciences philosophiques et théologiques*, vol. 42, Oct. 1958.
FINLEY, M., "Aristotle and Economic Analysis", *Past and Present*, vol. 47, May 1974.

GORDON, B., *Economic Analysis before Adam Smith: Hesiod to Lessius*, New York 1975.
GORDON, G., "Aristotle, Schumpeter and the Metallist Tradition", *Quarterly Journal of Economics*, vol. 75, Nov. 1961.
HOLLANDER, S., "On the Interpretation of the Just Price", *Kyklos*, vol. 18, 1965.
JAFFE, W., "Edgeworth's Contract Curve; its Protohistory: Aristotle and Gossen", *History of Political Economy*, vol. 6, nr. 4, 1974.
KANDER, K., "Genesis of the Marginal Utility Theory", *Economic Journal*, vol. 63, Sept. 1953.
KERN, W., "Returning to the Aristotelian Paradigm", *History of Political Economy*, vol. 15, nr. 4, 1983.
LATOUCHE, S., "L'anti-économique d'Aristote", *Les Cahiers du Cerel*, nr. 1, Lille 1980.
LEWIS, TH., "Acquisition and Anxiety: Aristotle's Case against the Market", *Canadian Journal of Economics*, vol. 1, Feb. 1978.
LOWRY, S., "Aristotle's Mathematical Analysis of Exchange", *History of Political Economy*, vol. 1, nr. 1, 1969.
– "Aristotle's Natural Limit and the Theory of Price Regulation", *Greek, Roman and Byzantine Studies*, vol. 15, nr. 1, 1974.
– "Recent Literature on Ancient Greek Economic Thought", *Journal of Economic Literature*, vol. 17, March 1979.
NÈME, C., "Peut-on parler de théorie économique chez Aristote?", *Revue d'histoire économique et sociale*, nr. 3, 1969.
POLANYI, K., "Aristotle Discovers the Economy", K. Polanyi (ed.), *Trade and Market in the Early Empires*, Glencoe, 1957.
SHUMPETER, J., *A History of Economic Analysis*, New York 1954.
SPENGLER, J., "Aristotle on Economic Imputation and Related Matters", *Southern Economic Journal*, vol. 21, April 1955.
– "Economic Justice: the Classical Greek Contribution", *Origins of Economic Thought and Justice*, London 1980.
SOUDEK, J., "Aristotle's Theory of Exchange: an Inquiry into the Origin of Economic Analysis", *Proceedings of the American Philosophical Society*, vol. 96, Feb. 1952.
TOZZI, G., *Economisti Greci e Romani*, Milan, 1961.
WOLFF, J., "Aristote", *Les Grandes Oeuvres économiques*, vol. 1, Paris 1973.
WORLAND, S., "Aristotle and the Neoclassical Tradition", *History of Political Economy*, vol. 16, nr. 1, 1984.

AUSTIN, M., VIDAL-NAQUET, P., *Economie et société en Grèce ancienne*, Paris 1972.
FINLEY, M., *The Ancient Economy*, London 1973.
GAUTHIER, T., JOLIF, J., *L'Ethique à Nicomaque*, 3 vol., Louvain, 1970.
HAGER, E., *Ethik und Politik des Aristoteles*, 1972.
HARDIE, W., *Aristotle's Ethical Theory*, Oxford 1980.
HUMPHREY, S., *Anthropology and the Greeks*, London 1978.
KELSEN, H., "Aristotle and Hellenic-Macedonian Policy", J. Barnes (ed.), *Articles on Aristotle*, London 1977.
KEYT, D., "Distributive Justice in Aristotle's Ethics and Politics", *Topoi*, vol. 4, 1985.
SAMUEL, A., *From Athens to Alexandria*, Louvain (studia Hellenistica) 1983.
SCHUTRUMPF, E., *Die Analyse der Polis durch Aristoteles*, Amsterdam 1980.
URBAIN, Y., "Les idées économiques d'Aristophane", *L'Antiquité classique*, vol. 8, May 1939.
WILL, E., "Trois quarts de siècle de recherches sur l'économie grecque antique", *Annales*, 1954
WILL, E., MOSSE, C., GOUBOWSKY, P., *Le Monde grec et l'Orient*, Paris 1975.
WOOD, E. and WOOD, N., *Class Ideology and Ancient Political Theory*, Oxford 1978.

ا. ك. كيللى

النقود والأسواق

سوف نتناول فى هذا المقال مجموعة من التساؤلات المتعلقة بموضوعنا حول دور النقود وطبيعتها، وعمل الأسواق، رالعلاقة بين أشكال التنظيم الاجتماعى والنقود*. ولسوف يتضح لنا - بالاضافة إلى أشياء أخرى - أن المحاولات التى بذلت لتخليص النظرية الكلاسيكية الجديدة حول الأسواق من ظاهرة التجارة الزائفة قد ضلت طريقها. بمعنى أن تلك المحاولات قد فشلت فى أن تأخذ فى اعتبارها اعتماد نظام السوق على وجود بعض الأنواع من هذه التجارة الزائفة.

الحاجات المتزامنة والمدفوعات غير المتزامنة :

إن الأساس الذى ينبنى عليه فهمنا لاستخدامات النقود ووظائفها فى ضوء مدارستنا «لآدم سميث» ومرورا «بميل» حتى «باتنكن» هو ملاحظة أنه ما لم تقم المجتمعات بخلق أداة فعالة فى التخزين ونقل السيطرة وتحويل الطلب على الموارد،

---

* أود أن أشكر ت. ك. رايز ودانيد ليدلر علي تعليقاتهما المفيدة لدى اطلاعهما على البروفات الأولى لهذا المقال.

المترجم : يوسف ميخائيل أسعد

والتبادل التجارى، وكل الأنشطة الاقتصادية الأخرى، فانها قد تتدهور بسبب الافتقار إلى «تزامن الحاجات»، أعنى المواءمة فيما بين العروض الحقيقية القائمة على جانبى السوق المتقابلين. ففى حالة اقتصاد يقوم على أساس المقايضة يصدق بشكل جازم انه فى غياب تزامن الحاجات فإن المبادلة لا تتم، صحيح أن التبادلات غير المباشرة وسلاسل الصفقات التجارية قد يستعان بها للحصول على سلعة نهائية، بحيث لا يكون كل اثنين من المشتركين فى صفقة بحاجة إلى الدخول فى تبادل نهائى(١). ولكن فى اقتصاد التبادل بالمقايضة يجب ان يقابل كل دفعة تسلم من البضائع تسليم مقابل لبضائع يمكن قبولها. وهذا يعنى بالطبع تسليم البضائع تبادليا بشكل مباشر، ولكن كما يذهب برونار ومتزر فإن التسليم المؤجل - وهو نوع من ائتمان المبادلة - يكون أمرا محتمل الحدوث(٢).

بيد أن احتمال وجود ائتمان مبادلة هو مسألة أخرى. ويبدو فى دراسات الاقتصاد أن اقتصاد المقايضة مرادف لاقتصاد السوق غير النقدية(٣). وفى اقتصاد كهذا لا يكون من المحتمل أن ينتشر ائتمان المبادلة وذلك لأن أفرادا قليلين جدا سوف يكونون مستعدين لتوقيع عقود ائتمان مبادلة يضيه مع شخص غير مسمى بالأسواق مع عدم

---

(١) الواقع أن فكرة استخدام الصفقات التسلسلية فى مقابل الصفقات المباشرة ليست جديدة، فثمة تصور معاصر لهذا تضمنه مقال: K. Brunner, A.H. Meltzer, "The Uses of Money: Money in the Theory of an Exchange Economy" بيد أن هذه الفكرة لا تخلو من صعوبات. تخيل تبادلا بسيطا مكونا من خطوتين : سلعة أ (فى حوزة التاجر أ) يتم تبادلها بالسلعة ب (فى حوزة التاجر ب)، وبعد ذلك يتم تبادل السلعة ب بالسلعة جـ. فالتاجر أ والتاجر جـ لا يستطيعان اتمام الصفقة مباشرة،. وذلك لأن التاجر جـ . لا يريد السلعة أ، ولأن التاجر ب لا يريد السلعة جـ. فلكى تبدأ هذه التسلسلات المتتابعة للتجارة يتحتم أن يعرف التاجر أ أن التاجر جـ يريد السلعة ب، وأن التاجر ب يريد السلعة أ. وهذا يعنى أن التاجر أ يجب أن يلم بما هو مفضل عند التاجرين الآخرين. فإذا كانت هذه الكمية من المعلومات غير متوافرة فإن التبادل غير المباشر لا يكون ممكنا ، ويتحتم اقتصار التبادل بالمقايضة بصدد التبادل التجارى بين شخصين فحسب. ومن الممكن التخفف من حدة الموقف الذى يحتم أن يعرف التاجر أ ما يفضله التاجران الآخران. وذلك بأن نتخيل التاجر أ وهو مستمر فى مقابلة سلسلة من التجار إلى أن يعثر على واحد منهم مستعد لشراء السلعة أ فى مقابل سلعة لا يريدها التاجر أ. وعند هذه النقطة يصير مضاربا يحوز سلعة ليست فى نطاق ما يضطلع به من تجارة.

(٢) المرجع نفسه ٤ صفحة ٧٨٥.

(٣) انظر على سبيل المثال : J. Nieghans, "Money and Barter in General Equilibrium with Transactions Costs', American Economic Review, December, 1971, p. 773; or Don Patinkin, Money, Interest, and prices, New York, Harper and Row, 1965, pp. 3-12.

توافر وسيلة لمقارنة القيم موضوعيا تكفل تنفيذ العقود، أعنى عدم توافر وحدة نقدية، ناهيك عن عدم توافر نظام لقانون التعاقد[٤]. ولذا فبينما قد يوقع الأصدقاء عقودا، فانه ما لم يمول الاقتصاد إلى الحد الذى تستخدم فيه وحدة نقدية تعبر عن القيم التبادلية فإن المقايضة يجب أن تقتصر بوجه عام على الصفقات التبادلية المباشرة.

فإذا صح هذا فيجب أن يتسم اقتصاد السوق غير النقدية بغلبة التبادلات المباشرة للسلع.

ويتبع نظام كهذا أن تكون المدفوعات (النفقات والإيرادات) متزامنة بشكل قاطع. وهكذا لا يمكن لنظام المدفوعات غير المتزامن الذى كثيرا ما يقال إنه أحد أسباب استخدام النقود أن يسود منطقيا فى غياب النقود. والواقع كما يقول برونار وملتزر فإن استخدام النقود هو الذى مهد السبيل لقيام نظام تكون فيه المدفوعات غير متزامنة، وليس العكس[٥].

وليس معنى قولنا هذا أنه لا يتبع ذلك أن عشوائية المدفوعات لا يمكن أن يستعان بها لالقاء الضوء على حيازة الأفراد لموازين النقود. فعلى مستوى المجتمع تتأتى المدفوعات غير المتزامنة «عن استخدام» المجتمع للنقود. ذلك أن الفرد فى مجتمع يستخدم النقود، تكون المدفوعات غير المتزامنة فرضا علميا وتكون حيازة النقود هنا استجابة منطقية. وعلى هذا علينا أن نميز بعناية بين حيازة الأفراد للنقود وبين استخدام المجتمعات لها.

ثانيا - المبادلة والأسواق حسب نظرية ڤالراس

كما قررنا قبلا فان النمط السائد لاقتصار المبادلة هو ذلك النمط الخاص باقتصاد السوق غير النقدية. والواقع أن السؤال الخاص باستخدامات ووظائف النقود، فى ضوء

---

(٤) وبتعبير آخر فإن التبادل لأجل غير مضمون العواقب. فالمرء يقبل على مخاطرة إذا ما اشترى شيئا من غير أن يراه أو أن يعرف قيمته، وذلك عندما تكون البضائع التى يراد تبادلها غير واضحة للعيان. وكلما كانت النوعيات التى لا يمكن تحديدها بالعقود بدقة أكبر عددا زادت المخاطرة المتعلقة بالتبادل المؤجل. على أن الوحدة النقدية لا تعمل على محو جميع هذه المخاطر، ولكنها تقلل من احتمالات المجادلات حول ما إذا كانت البضائع التى تحدد تسليمها بالعقد سوف تسلم بالفعل. وهكذا بدلا من أن يذكر فى تسليم البضائع المؤجل «قفص من التفاح» مثلا فإن على المرء أن يذكر تسليم عشرة دولارات قيمة التفاح. والواقع أن نظم الموازين والمقاييس ومعايير الوزن وتدرجه إلخ تعمل جميعا على التقليل من تلك المخاطر. وبهذا الصدد انظر : John C. McManus, "The Costs of Alternative Economic Organizations", Canadian Journal of Economics, August, 1975, pp. 334-50.

(٥) K. Brunner, A. H. Meltzer, op. cit., p. 800.

خصائص ذلك النمط، قد لقى عناية كاملة. وعلينا أن نتناول هذا السياق باستفاضة بدءا بأكثر مخالفاته تجردا، أعنى المزاد العلنى عند والراس.

لقد برهن باتنكين على أنهم فى تناولهم لمضمون حالات التوازن بالأسواق وجدوا ان اصحاب نظريات الكلاسيكية الجديدة قد فشلوا فى تقديم تفسير للعملية التى بواسطتها يمكن التوصل إلى التوازن، وبالطبع فان الاستثناء اللافت للنظر لهذا هو «فالراس» الذى كانت نظريته الخاصة بالتلمس tatonnement هجوما مباشرا على مشكلة كيف تتحرك الأسواق نحو حالة من التوازن(٦).

وفى مركز التلمس، الذى يتحسس طريقة بإمعان نحو تحقيق التوازن على نحو دؤوب، نجد خبير مزاد «فالراس» وهو الذى يتمثل دوره فى اعلان أسعار السلع، مقارنا عروض الشراء والبيع التى يقدمها المشتركون فى السوق، مع مراجعة السعر بحيث يجعل مجموع عروض الشراء والبيع متساوية. وبينما نجد أن هذه العملية وسيلة كشف ناجحة فإن مزاد فالراس لا يحمل أوجه شبه بالأسواق فى الحياة الواقعية(٧). ولكى يتسنى توصلها إلى حالة من التوازن فلابد من التخلى عن الواقع واتخاذ موقف تعاقدى جديد.

ونحن نقصد بالموقف التعاقدى الجديد ببساطة انه ليست هناك بضاعة بحاجة الى أن تنتقل من شخص لآخر إلى أن يحدد خبير المزاد السعر عند اغلاق السوق، وأن أى عقود للشراء والبيع قبل اعلان سعر الاغلاق يمكن أن تلغى دون دفع تعويضات. وكما هو معروف جيدا فان النتيجة الأولية لإعادة التعاقد هى الحيلولة دون قيام تجارة زائفة.

ثالثا - الأسواق الحقيقية، وأسواق فالراس، والنقود :

إن التجارة الزائفة تشير بالطبع إلى الصفقات التى تتم بأسعار مخالفة لسعر السوق المتوازن. وبالرغم من أن المحاولات التى بذلت للقضاء عليها

(٦) Patinkin, op. cit., pp. 531-40, especially pp. 536-7.

(٧) للوقوف على دراسة تجريبية لفاعلية التلمس عند فالراس انظر : W. D. Cook, E. C. H. Veendorp, "Six Markets in Search of an Auctioneer", Canadian Journal of Economics, May, 1975, pp. 238-57.

والخلاصة التى انتهيا إليها من تجاربهما هي أن النتائج لا تقدم سوي دعم قليل لفرض التوافق عند فالراس" (ص ٢٣٨). ويبدو أن كوك وويندروب قد فاتهما روح نظرية "فالراس" وفحواها. فمشكلته بالإجمال هى ما إذا كانت أسواق العالم الحقيقية تعمل على نحو مشابه بدرجة كافية للمزاد، الأمر الذى يجعل منطق نظمه المتعلقة بالمعادلات قائما وثابتا. وكان من الضرورى إثبات أن الأسعار تتوائم فى العالم الواقعى بالقواعد التى تشيع بالمزاد.

كثيرة[٨]، فاننا نستطيع أن نزعم بحق أن التجارة الزائفة غير المقيسة بالقوة الشرائية موجودة بالفعل فى السوق الحقيقية. وتعزى الحالات التى توجد بها هذه التجارة إلى أن المشتركين فى الأسواق الفعلية لايعرفون من خلال خبير مزاد ما، أو من خلال غير ذلك من وسائل هل السعر المقدم هو السعر النهائى بالنسبة لهم، أعنى هل هناك سعر أفضل. إذن فعليهم أن يحكموا فى ذلك بأنفسهم وعلى مسئولياتهم.

والواقع أن أساس أى حكم كهذا هو تلك المعلومات ذات القيمة. ولقد حدد «ستجلر» فى معالجته الممتازة لهذه المشكلة تكلفة الفرصة البديلة للحصول على المعلومات، أعنى الموارد التى تتحول لها والتى يمكن استخدامها بطريقة أخرى[٩]. بيد أنه لم يأخذ فى اعتباره احتمال عدم توافر الموارد لدى أحد الأفراد أو عدم قدرته على احراز الموارد التى يمكن تخصيصها سعيا للحصول على المعلومات وبعيدا عن الاستهلاك أو الانتاج القائم بغض النظر عما يترتب على تلك المعلومات من فوائد.

ولكى يوجه البحث توجيها واقعيا فلابد أن يكون لدى الأفراد قائمة جرد بالموارد التى يمكن مبادلتها بالسلع الاستهلاكية ووسائل النقل والصحف أو أى شىء آخر يرتبط بالبحث[١٠].

والسؤال المحير الذى يجابه المشتغل بالأعمال التجارية هو ببساطة: ما هى قوائم الجرد المقصودة:؟ ليس من الممكن تصور أن المرء يستطيع أن يحوز قوائم الجرد المتعلقة بجميع السلع المطلوبة. فالبعض منها مثل صحف الغد لا يمكن الحصول عليها، في حين أن البعض الآخر من السلع لا يمكن التنبؤ به.

وما يحتاج إليه المرء هو الوقوف على قوائم جرد شىء يمكن أن يستبدل بسهولة بمجموعة كبيرة من الأشياء، أو وسيلة دفع فى المقابل أو النقود وهى الأكثر شيوعا. ومن الناحية التقليدية فان هذه الحاجة قد حملت الكثير من الكتاب على افتراض أن وسيلة معينة للدفع قد بزغت فى معرض تطور التبادل لأسباب تتعلق بانتشارها الواسع أو زيادة الطلب عليها، إن المشكلة التى بين ايدينا توحى بأن المطلوب – فضلا عن ذلك هو شئ تسمح معدلات صرفه بالنسبة للبضائع بوجه عام بتقديم شئ

---

(٨) انظر على سبيل المثال J. R. Hicks, Value and Capital, 2nd ed., Oxford, The Calrendon Press, 1946, p. 129.

(٩) G.Stigler, "The Economics of Information", Journal of Political Economy, June, 1961, pp. 213-25.

(١٠) إن افتراض أن أحد الأفراد قد يمنع من الاشتراك فى البحث عن المعلومات بسبب نقص الموارد يعنى بالطبع أن الأسواق الرئيسية غير سليمة. فإذا لم تكن سليمة فيكون من الممكن بالنسبة للفرد من خلال النظام المصرفى تحويل توقعات الدخل المستقبلى إلى موارد جارية.

من الحماية للشخص الذى يحوزه ضد تقلبات الأسعار التى تعجل لعملية البحث فى الدرجة الأولى. وهذا يعنى بتعبير آخر وجود أصول يكون معدل تبادلها ببضائع أخرى معرضا لتغير أقل عما قد يحدث لأى معدل تبادل آخر لأى سلعة ممكنة ببضائع أخرى. والواقع أن هذه هى الخصيصة التى قام كتاب مختلفون ابتداء من «ريكاردو» إلى «تورنتون» إلى «كينز» بتحديدها باعتبارها الخصيصة التى تميز وسيلة الدفع فى عملية المبادلة(١١)، (١٢).

والواقع أن عدم معرفة هل السعر المقدم هو سعر نهائى فى سوق حقيقية مكافىء لعدم معرفته اذا ما وجدت أنواع من التجارة الرابحة فى عالم المقايضة. ففى كلتا الحالتين فإن توفر معلومات أكثر يعطى الفرص لتجنب الاختلافات فى السعر أو استغلالها، وإذا ما سيطر الأفراد على التوازنات النقدية فسوف يكونون أكثر قدرة على الوقوف على المعلومات الخاصة بالأسعار أكثر مما كانوا وهم غير مسيطرين على تلك التوازنات. وكنتيجة لذلك - جريا وراء ستيجلر - فان الاختلافات فى الأسعار سوف تتلاشى، بحيث إن الأسعار سوف تميل إلى التجمع حول ما نستطيع أن نطلق عليه اسم سعر التوازن السوقى(١٣). والواقع أن الأسعار الفعلية سوف تقترب من أسعار «المزاد» بحيث قد نقول إن مزاد «فالراس» الخاص بإعادة التعاقدات ووجود خبير مزاد يذيع المعلومات المتعلقة بالأسعار، انما هو اقتراب مفيد من السوق

---

(١١) إن هذا الموضوع الرئيسى للفصل السابع عشر بعنوان الخصائص الرئيسية للفائدة بكتاب ج م كينز J. M. Keynes, The General Theory of Employment, Interest and Money, London, MacMillan, 1936. وللقيام بدارسة مستفيضة لهذا الجانب من عمل كينز انظر T. M. Rymes, "Keynes and the Essential properties of Interest and Money".

وهو بحث مقدم إلى اجتماع الجمعية الاقتصادية الكندية فى يونية ١٩٧٤ تورنتو بكندا، كما أن رايمز قد رأى أن حيازة المال تسمح للمرء بتأجيل إصدار القرارات عندما تكون المعلومات المتاحة له غير كافية. والواقع أن الأستاذ رايمز يعارض بهذا وجهة نظر كينز المتعلقة بالانتظار اعنى الامتناع عن الانفاق الى ان يحين الحين جنبا لجنب مع وجهة النظر التقليدية المتعلقة بالانتظار. أما موقفنا فهو أكثر انسجاما مع موقف رايمز الذى نقدر بعمق تعليقاته ونأمل عدم إساءة شرحها.

(١٢) إذا كان هذا التصور للمال دقيقا، فإنه يكون مع ذلك برهانا ذا أثر رجعى بحيث يأخذ المشتغلون بالعمليات التجارية الأسعار القديمة فى اعتبارهم، وإلا فكيف يصير شئ واحد «معيارا للقيمة». وأكثر من هذا لكى يتسنى إقامة معيار للموقف القيمى ومراعاته فلا بد من تحديد أسعار معينة للنقود ويبرهن على أنها أسعار ثابتة. فإذا كان ذلك كذلك فإن التوصل إلى توازن عام يجب أن يكون بديلا وليس عملية متزامنة. وبهذا الصدد فإنى برهنت على أن التحديد العام للأسعار يتطلب فى الواقع أن يحدد مفتاح معين للأسعار أما فى ضوء سابقة تاريخية، وأما بواسطة سلطات مركزية: انظر A. K. Kelly, "A Comment on the Price Level in Classical Monetary Theory" Canadian Journal.

(١٣) إن هذه العملية غير معقدة. فاذا نحن وافقنا على أن هناك سلعا قليلة جدا تتعرض أسعارها

الحيقيقي الذي يحقق فيه المتعاملون فاعلية إعادة التعاقد وذلك بالاهتداء بالبحوث المتعلقة بالأسعار. وهم لكي يضطلعوا بذلك يكونون بحاجة إلى السيطرة على التوازنات النقدية ولكنهم في سوق «فالراس» ليسوا بحاجة إلى ذلك ولا يفعلون ذلك.

بيد أن غياب النقود في اقتصاد «فالراس» لا يعني أنه يوصف بحق بأنه اقتصاد مقايضة، ما لم نكن على استعداد لأن نحرف معنى هذا اللفظ. فكل من سوق «فالراس» وأي سوق نقدية يتضمنان وسائل معينة للتخلص من الانهيار الزائف أو التقليل منه على الأقل. وفي المقابل فان اقتصاديات المقايضة الحقيقية ليست في حاجة إلى تلك الوسائل.

رابعا - النقود وأشكال التنظيم الاقتصادي:

اننا باستخدامنا لفكرة أن المقايضة هي مجرد نشاط السوق دون وجود نقود، فاننا نكون قد نسينا حقيقة هامة هي أن المقايضة هي إحدى وسائل تنظيم النشاط الاقتصادي، وان السوق شيء آخر تماما، وأن الاطار التنظيمي للمقايضة يختلف اختلافا أساسيا عن اطار اقتصاد السوق، وأن من بين الاختلافات الكثيرة سيطرة الأفراد في اقتصاد السوق ميزان النقد.

والواقع أن اقتصاديات المقايضة نادرة حيث إنها مقتصرة على مجتمعات بدائية معينة كانت موجودة في العصور القديمة. فاذا ما استهدينا بالأنتثروبولوجيا فاننا نجد في تلك الاقتصاديات أن تبادل البضائع وجها لوجه الذي يشكل المقايضة كان محاطا بجو معقد من الطقوس والتقاليد التي تحدد سلفا ماذا وكيف ومع من تتم مبادلة الأشياء؟. وفي العادة كانت عمليات الانتاج والتوزيع محصورة في نطاق أنماط محددة من القرابة، وفي نطاق علاقات اجتماعية ثابتة بصفة عامة، وطالما ظلت هذه الترتيبات ثابتة، فلم يكن هناك سوي دور ضئيل للسلوك المالي الذي نشارك فيه الأفراد في اقتصاد سوق. والواقع أنه لا توجد - على وجه الخصوص - في الاقتصاديات المباينة

لحالة من الفوضى بين المشترى والبائع، وعلى ما هو أكثر من هذا إن أسعار السلع يحددها البائعون (بلصق السعر عليها)، اذن فان ما ينهجه البائعون من تصرفات انما هو في الواقع بمثابة رد فعل على أنشطة المشترين التي تسمح للأسعار بالتغير. فالمشترون الذين يراقبون ارتفاع الأسعار وينصرفون عنها أو يتزاحمون على السلع ذات الأسعار المنخفضة سوف يتسببون في مبيعات منخفضة أو عالية بشكل لا يتوقعه البائعون الذين يحددون أسعارا عالية أو منخفضة على التوالي. فالبائعون الذين يحددون أسعارا مرتفعة سوف يخفضون أسعارهم، والذين يحددون أسعارا منخفضة سوف يرفعون أسعارهم. وكما هو الحال في عالم فالراس فإن التباينات الكيفية سوف تنتج توافقات في الأسعار. فجمع الأسعار في مجموعات بدلا من سعر واحد بأحد الأسواق يمكن أن يفسر بتقليل الفوائد على السعر الذي يسمى

لاقتصاديات السوق بوجه عام حاجة لدى الأفراد للتفكير فى المستقبل ولأن يعانوا اذا ما اخطاؤا التقدير. ذلك أن المجتمع البدائى الذى لا يسير وفق اقتصاديات السوق مجتمع لا يكون المستقبل فى نظره سوى صورة طبق الأصل من نمط الانتاج الراهن المتعلق بحضارته (بما فى ذلك تقسيم العمل والتوزيع)، كما أن المخاطرة تكون فيه جماعية(١٤).

وكذا فانه فى الاقتصاديات الاشتراكية الحديثة يتم تحمل المخاطرة جمعيا بأكثر منها فرديا. ومرة أخرى وهناك جهاز لتحديد أنماط الانتاج والتوزيع. وتصنع الدولة فى مثل هذه المجتمعات ما يتم انجازه بواسطة التقاليد فى مجتمعات المقايضة وبواسطة الأفراد فى مجتمعات السوق.

وكلا النمطين من المجتمع فى حاجة إلى النقود بشكل أو آخر، ولكن ليس ضروريا أن يكون فى نفس الصيغة. فكما يتباين نمط التنظيم الاقتصادى يتباين كذلك صيغة النقود.

وفى عالم «فالراس» لا تكون ثمة حاجة الا إلى وحدة محاسبة على الأكثر، وحتى تلك الوحدة يمكن الاستغناء عنها اذا كانت السلع الضرورية متوافرة. وبالرغم من أن هذا كما هو واضح يعد خيالا لدى مقارنته باقتصاديات السوق الأوروبى التى يعرفها «فالراس» جيدا، فان وجود «وحدة محاسبة فقط» كصيغة للنقود لا يمكن أن نتخيل أنها تناسب سوى اقتصاديات معينة هى الاقتصاديات المفروضة كما كان حال مجتمع العبيد بمصر القديمة.

أما فى اقتصاد اشتراكى حديث فثمة حاجة إلى كل من وحدة المحاسبة ووسيلة المبادلة. الأولى للقيام بالمحاسبة المعروفة والتصدى لمشكلات التسعير. والثانية للتغلب على مشكلات الامدادات المتعلقة بتوزيع السلع. وحيث يكون من الممكن توزيع السلع بايصالها مباشرة إلى المنازل وفق خطة توزيع محددة فانه يكون من الأنجع بالنسبة للأفراد أن ينتقوا السلع التى يريدونها من المحال التجارية بأنفسهم ويسددوا

إليه المشترون ومراجعة الأسعار من جانب البائعين. ولا يتضمن هذا اعتداء على مبدأ تسعير التكلفة الهامشية، بل بالأحرى فإن التكاليف والايرادات يعاد تحديدها فحسب.

(١٤) هذه الآراء قدمها كارل بولانيى فى تعبير بليغ. انظر "Our Obsolcte Market Mentality", in George Dalton, ed.,primitive Archaic and Modern Economies, وهذه الخصيصة الأخيرة للمجتمعات البدائية قام بولانيى بوصفها على النحو التالى : «الواقع أن الفرد ليس فى خطر أن من يجوع ما لم يتعرض المجتمع المحلى بأجمعه لنفس الخطر. ولا شك أن عدم وجود خطر يهدد الفرد بالفاقة يجعل المجتمع البدائى. أكثر إنسانية من مجتمع القرن التاسع عشر، كما يجعله في الوقت نفسه أقل مستوى من الناحية الاقتصادية».

ثمنها نقدا. وأكثر من هذا فإن هذه الطريقة توفر الرفاهة الاجتماعية عن طريق توفير فرصة الاختيار، والتقليل من الأسواق السوداء، كما أنها تمد المخططين بشواهد مباشرة حول ما يفضله الناس من السلع.

وفى اقتصاد كهذا لا يوجد (من حيث المبدأ) مكان للنقود كمخزن للقيمة يتجاوز بواسطته فترات السداد من الدخل العادى. وفى المقام الأول لا تكون ثمة حاجة لدى الأفراد لادخار ما يكفيه فى سن الشيخوخة أو حالات الطوارىء فى هذا الشكل الاقتصادى، كما أن المؤسسات لا تكون فى حاجة إلى تكديس مدخراتها لتغطية خسائرها فى المستقبل أو للقيام باستثمارات جديدة. ومن جهة أخرى فان السماح باستخدام النقود على هذا النحو قد يعمل على تهديد أى نمط محدد للتوزيع.

وهذا قد يوفر وبصفة خاصة وسيلة قد يستخدمها بعض الأفراد الحاصلين على معلومات أفضل من غيرهم لتكديس السلع لبيعها والحصول على أرباح، وبالتالى فانهم يغيرون فى توزيع الدخول.

والواقع أنه فى اقتصاد السوق الذى يتصف بعدم وجود ترتيبات اجتماعية يوجد ما يجعل المخاطرة جماعية، وفيه تكون قرارات التوزيع صادرة عن أفراد غير محددين بدلا من حصرهم فى تلك التنظيمات الاجتماعية التى تتطلب وجود النقود للاضطلاع بالوظائف الثلاث الأساسية، أعنى وجود وحدة للمحاسبة، ووسيلة للتبادل، ومستودع للقيمة. فبزوغ النقود فى صيغتها الحديثة والمألوفة هو فى الوقت نفسه بزوغ لصيغة اجتماعية تاريخية محددة. فالنقود كما نعرفها هى مؤسسة اقتصادية غير منفصلة عن تنظيمات وأعمال اقتصاد السوق، ولا يستطيع هذا السوق أن يوجد دون النقود. وأكثر من هذا ليس أى منهما ضروريا أو ممكنا بدون بزوغ التنظيمات الاجتماعية التى تستلزم اضطلاع الأفراد بتلك الأشياء التى تمت فى أزمنة أخرى أو ظروف أخرى بواسطة المجتمعات بكاملها.

خامسا – المال وتوزيع الدخل :

لقد كانت النقود جزءا من الوجود الاجتماعى المنظم لحوالى ثلاثين قرنا. وكما أن الصيغ الاجتماعية قد تباينت، كذا فان النقود أيضا قد تباينت. وعلى الرغم من هذه الحقائق فان علماء اقتصاد النقود واظبوا على محاولة شرح استخدامات النقود بمصطلحات المنطق الخاص بصيغة اجتماعية تاريخية حديثة فحسب، أعنى اقتصاد السوق. وأكثر من هذا أنهم يفعلون ذلك وهم يعتقدون بوضوح أن من الممكن تجاهل التغيرات فى الصيغة التى تعرضت لها النقود فى مجتمعات يرتكز اقتصادها على السوق. وعندما نقوم بتحليل الدور الذى تضطلع به النقود فى الأسواق فماذا عسى أن تكون النقود التى نتحدث عنها؟ وهل يستطيع البنك الحديث أن يقبل ودائع الصائغ،

أو الدولار الفضي، أو المسكوكات الرمزية التجارية، وكل ما يصنف تحت لفظ نقود؟ فاذا ما استطاعت البنوك عمل ذلك فانه يعنى الموافقة على معنى هذا اللفظ على مستوى من العمومية، وهو ما لا وجود له ببساطة.

وللتغلب على هذه الصعوبة ابتكر أصحاب نظريات النقود تفسيراتهم الخاصة حول النقود، وقد حظى أحد هذه التفسيرات بمكانة مرموقة فى نظرية الأسواق، أعنى العملات الرمزية الموجودة فى كل مكان.

والواقع أن المسكوكات النقدية شبيهة بالأوراق المالية الحديثة من بعض الجوانب، ولكنها تختلف عنها من حيث إن مواردها تأتى من الخارج. والواقع أنها قد وجدت بواسطة عوامل غير معروفة للبشرية حتى الآن، بحيث لا تتطلب موارد لإنتاجها ولا شراء أو بيعا للأصول الأخرى[١٥]. ومنشأها الخارجى يسمح لنا بأن نستبعد آثار التوزيعات المتباينة للموازين النقدية، وهو شىء لا نستطيع أن نعمله عندما يكون المورد النقدى صادرا من الداخل.

وعندما يكون المورد النقدى داخليا فان المشاركين فى الصفقات التجارية يستطيعون تغيير ما يسيطرون عليه من موازين نقدية بأن يشتروا ويبيعوا الأصول للنظام المصرفى. وما لم نكن مستعدين للاعتقاد فى أن جميع المشاركين فى الصفقات التجارية قادرون على قدم المساواة على زيادة موازينهم النقدية بهذه الوسيلة، فان علينا أن نقبل نتيجة حتمية هى أن المورد المالى الداخلى سوف يكون توزيعا غير متساو للموازنات المالية التى تصل إلى توزيع غير متساو للمعلومات المتعلقة بالسعر الى الحد الذى يسمح بإحراز المال بتسهيل عملية البحث عن المعلومات وذلك اذا ظلت جميع الأشياء والعوامل والعناصر الأخرى من غير تغيير[١٦].

وعندما يكون المشتركون فى الصفقات التجارية غير متساوين فى قدرتهم على الحصول على تلك المعلومات فسوف يكون بعض المشاركين فى الصفقات التجارية قادرين على الربح بسبب تباينات الأسعار، فى حين يكون الآخرون سيئى الحظ. ولن يتسنى ملاشاة التباينات فى الأسعار كما لن يتسنى ملاشاة التجارة الزائفة بما يرتبط بها من دخل، ومن آثار تتعلق باعادة توزيع الثروة.

وفى بعض الأسواق سوف يظهر متخصصون فى المعلومات بالأسعار، ولسوف تنحو الاختلافات فى الاسعار نحو الاختفاء. وأكثر من هذا فان هذا لن يحدث اعتباطا عبر

(١٥) فمثلا فى إعادة الصياغة الجديدة لعمل باتنكين نجد أن للمشتغلين بالأعمال التجارية مجرد توازنات مالية منقولة عن الأسبوع السابق (Patinkin,op. cit.p.14).

(١٦) ونحن نضمن الفروق الفردية فى تلك الأشياء كالذكاء مثلا فى إطار ثبات جميع الأشياء، والعوامل والعناصر الأخرى بدون تغيير.

الأسواق. وبدلا من ذلك فانه سوف يتحدد فى السلع المتجانسة (الموحدة النمط) أو السلع التى يتسنى اكتشاف التباينات بينها بسهولة. والأمثلة على ذلك هى أولا المنتجات مثل الحبوب وكثير من الأصول المالية. وحيثما تنحو السلع إلى تباين كيفى كبير فان المتخصصين فى المعلومات الخاصة بالأسعار وموازنة سعر الصرف لن يحتمل ظهورهم، ولسوف توجد الاختلافات فى الأسعار وتستمر(١٧). وفى الحالة الأخيرة يجب أن تستكمل المعلومات حول الأسعار بمعلومات كيفية، وهى المعلومات التى سوف تكون أكثر تكلفة فى سبيل الحصول عليها، ومن ثم فان ثمة مصدرا للربح والخسارة سوف ينشأ عن التجارة المزيفة.

وثمة جانب آخر للاتجار المزيف يرتبط ارتباطا وثيقا بتوزيع حيازات النقود، كما يرتبط بشكل أكثر عمومية بتوزيع المعلومات قد حدده «ليجونهوفود» فى اعادة صياغته لنظرية «كينيز» حول الأسواق(١٨).

ومن الناحية النظرية قد ينهار التنسيق بين المصالح والهيئات المطلوب لنظام الأسواق. والواقع أن هذا الانهيار وبخاصة فى سوق العمالة يتصف بذيوع التجارة الزائفة، أعنى التبادلات التجارية بأسعار غير متوازنة مع تقديم زيادة فى الأيدى العاملة لا تتمشى مع زيادة الطلب فى مكان آخر، وهو ما يتعارض مع قانون «فالراس»(١٩).

ولقد وصف «ليجونهوفود» فشل سوق «كينز» كظواهر لنقص السيولة، وهى الحالات لا يقوم فيها نظام السوق بنقل المعلومات حول اتجاهات انفاق الأسر، وذلك لأن قطاع الأسر يفتقر إلى أصول سائلة عندما تكون ثمة حاجة إليها لمساندة الاستهلاك خلال فترات البطالة. والواقع أن الأشخاص العاطلين خلافا لبعض أنواع المقترضين يجدون من الصعب عليهم أن يحيلوا ما يمتلكونه من أصول جارية أو الدخل المتوقع إلى تقدية سائلة. واذا افترضنا أنهم يستطيعون ذلك فان «ليجونهوفود» يزعم أن عليهم إذن أن يضطلعوا بسعى مدقق فى سوق الوظائف باذلين الجهد للعثور على

---

(١٧) إن هذه الفروض التى تذهب إلى أن نفقات إحراز المعلومات المتعلقة بالسلع ترتبط بخصائص السلع، وأن المتخصصين فى المعلومات المتعلقة بالسلعة سوف يظهرون وجود الشبه بين الفروض الأولى التى استخدمها برونر وملتزر لشرح ظهور أداة التبادل التجارى. (Brunner and Metzer, op. cit., p. 786).

(١٨) Axel Leijonhufvud, on Keynesian Economics and the Economics of Keynes.

(١٩) R. Clower, "The keynesian Counter-Reveolution: A Theoretical Appraisal", in F. Brechling, F. Hahn, eds., The Theory of Interest Rates,

وظيفة تتفق مع أفضل تقديراتهم لقيمتهم الشخصية «كرأس مال بشرى». فاذا لم يتسن لهم ذلك يكون عليهم إما أن يظلوا عاطلين وآما أن يقبلوا ما يعرض عليهم من وظائف قد تقتضى أو لا تقتضى «تحمل خسارة» كما يقول «ليجونهوفود». وإلى الحد الذى يكون عنده إعادة التوظف متضمنا خسارة فثمة اعادة توزيع للدخل لصالح هذه المؤسسات التى أن كان هناك تبديد فى معدلات الرواتب للوظائف المنفصلة، فإنها تتقدم بشروط أقل من سابقتها. ونحن نستطيع أن نزعم أنه بسبب الكثيرين من المشاركين فى سوق العمل يحال بينهم وبين بحوث السعر المؤثرة، وذلك للافتقار للأصول السائلة، ومن ثم يحدث التبديد.

سادسا - ضرورة التجارة الزائفة

لقد تدارسنا فيما أسلفناه دور النقود فى الأسواق، وانتهينا إلى أن نظام الاسواق لا يمكن أن يعمل بدونه. فنقص النقود ومبادلات السوق يجب أن يتم السيطرة عليهما بالتجارة الزائفة. وفى نظام منحاز بأخلاقياته إلى الفرد، لا للمخاطرة الجمعية، يكون هذا أمرا لا يمكن احتماله. فالأفراد سوف يبحثون عن ترتيبات بديلة لادارة الانتاج والتوزيع اللذين يبشران بتحديد توزيع للدخل أكثر انتظاما وعدلا.

بيد أن ما نسميه بالاتجار الزائف ضرورى فى الوقت نفسه لصيانة النظام. والنتيجة الطبيعية لأخلاقيات تحمل المخاطرة الفردية هى أن الأفراد قد يحصلون على مزايا على حساب الآخرين، إلى حد لا يمكن تقريره وإن لم يزل محدد الهوية تقريبا. فكون المرء يشترى السلع بثمن رخيص ويبيعها بسعر مرتفع يشير إلى حد ما إلى أنه رجل أعمال جيد ويستحق الثناء ولكن اذا زاد السعر عن الحد المعقول فان نشاطه يكون مناهضا للمجتمع، ويتهم بأنه نشاط جشع واستلاب أو طمع لا يليق. والواقع أن القوة المحركة لاقتصاد السوق كانت دائما هى السعى للحصول على ربح استثنائى، ولقد كانت المشكلة دائما هى الحفاظ على هذا الدافع فى نطاق محدود بحيث أن هؤلاء الذين يتم الحصول على ذلك الربح على حسابهم لا يهجرون السوق ويبحثون عن ترتيبات بديلة(٢٠).

والواقع أن التحول من نظام الاقطاع إلى الرأسمالية فى أوربا الغربية، بما اشتمل عليه من انهيار للالتزامات والمسئوليات التقليدية والمعتادة، ونمو الأسواق وظهور النظم

London, Macmillan, 1965.

(٢٠) برهن جابريل كولكو فى كتابه The Triumph of Conservatism على أن نمو التنظيم الحكومى للاقتصاد الذى ميز الحقبة التقدمية بالولايات المتحدة الأمريكية كان فى الواقع جهدا من جانب الحكومة لصالح التجارة الأمريكية للحفاظ على الوضع القائم فى مجابهة تهديدات التنافس الأكثر حدة، والراديكالية المتنامية للحركة العمالية والقوى السياسية الشعبية (ص ٢٨٥ - ٦).

المصرفية الحديثة، يتمشى مع هذه النظرة. واذا كانت التجارة الزائفة جزءا ضروريا فى عمل اقتصاد السوق، واذا كان التزامن الكامل للتوازن العام فى اقتصاد نقدى بالكامل غير ممكن، فان وجهات نظر حديثة معينة حول دور السياسة الاقتصادية تستحق اعادة المدارسة. وبصفة خاصة فرضية التوقعات الرشيدة التى قدمها «موث» و«سارجنت» و«والاس» والتى اصبحت موضع شك[٢١].

وتتطلب نظرية التوقعات الرشيدة أن تكون توقعات المشتغلين فى الصفقات التجارية هى نفس النظرية الاقتصادية المرتبطة بها، والا فان الفرص غير المستغلة أو الأرباح الناتجة عن التبادل التجارى سوف توجد...[٢٢]. وذلك لان نمط «الاقتصاد الحقيقى» الذى يشكل أساسه لا يسمح بتلك الفرص غير المستغلة للاستمرار فى حالة توازن. بيد أنه اذا كانت التجارة الزائفة هى ملمح مستمر لاقتصاد السوق فان الغموض الذى يكتنف النظرية يعنى أن عائدات نشاط السوق التى يفترض أن الافراد يعرفونها لا يمكن معرفتها فى الواقع. وليس هناك . . يبرر بالطبع توقع أن تكون معرفة السلطات النقدية خالية من هذا الخطأ، ولكن النتيجة الحتمية التى يقترحها منظروا التوقعات الرشيدة والتى تذهب إلى أن السياسة النقدية والسياسة العامة الأخرى ليس لها تأثير، نتيجة لا يمكن مؤازرتها.

ا ك كيللى

(جامعة ريجينا)

---

(٢١) J. F. Muth, "Rational Expectations and the Theory of Price Movements" Econometrica, 1961, vol. 29, pp. 315 - 35.

(٢٢) T. K. Rymes, "Money, Efficiency and Knowledge", Canadian Journal of Economics, November, 1979, p. 579.

جان بيير كافاييه

السياسى المتشكك (أو السياسة المرفوضة)

ملاحظات على الوضع السياسى فى فلسفة ديكارت

١ - إنكار السياسة

لم يعالج ديكارت، إلا فى القليل النادر، مسائل سياسية بحتة؛ وحتى إن فعل ذلك فإنه يفعله دائما من باب الإنكار ليبرر رفضه «الانغماس» فى السياسة[١] وتدل النصوص كلها على أن هذا الاتجاه برفض السياسة لا تمليه أولا الفطنة التى كانت القاعدة الشائعة فى ذلك القرن الذى يتسم بالتعصب، ولكن بنوع من الاهتمام بالترابط الفلسفى: فهذا الامتناع، كما نحاول أن نثبته، يبدو لنا مشروطا بالاختيارات الأساسية التى تفرضها الفلسفة الدكارتية، حسبنا الآن أن نبين الآثار النظرية لهذا الرفض، رفض الكتابة فى السياسة، اللهم إلا بإنكارها: هذه الآثار تبدو الآن من جهة أنها تتمثل في استبعاد السياسة عن حقل المعرفة؛ ومن جهة أخرى أنها تتضمن الأخلاق، تضمينا مشكوكا فى صحته. وإذا كان البعض قد ارتأى له أن يتحدث عن «ديكارت السياسى»[٢] فذلك دون ريب يكون خلافا لإرادته الصريحة: فالمقصود به أكيدا هو «ديكارت سياسى بالرغم عنه». وعلى ذلك فإن هذه المعالجة لا بد أن تتمثل فى تفسير سياسى لهذا الإنكار وفى قراءة سياسية للنصوص التى تلغى

المترجم : أحمد رضا

السياسة، أو فى الكثير من الأحيان تمسك عن ذكرها. وعلى الرغم من أن قراءة من هذا القبيل لا بد أن تنطوى على شئ من الجرأة فإننا لا نحاول أن نناقش صحتها[٣]؛ ذلك أنه فى الوسع حقا تأكيد أن أعمال ديكارت تتخللها وتحركها مسألة سياسية (فالحقيقة أن كل فكر فلسفى يواجه الواقع السياسى، بطريقة أو بأخرى)، ولكن الأمر لا يخلو من أهمية، ومن ثم نبدأ بملاحظة أن هذه الأعمال لا تمسها السياسة إلا بصورة منحرفة، غير مباشرة، فى مناسبة نصوص نظرية غايتها ليست سياسية، وهى فى معظم الأحيان مسائل ينظر إليها فى سياق أخلاقى، كمسألة التزام الفرد في المجتمع[٤]؛ مسائل تفضى بديكارت رغما عنه إلى حدود السياسة، فى تلك الساحة المتضاربة التى تتصادم عندها كل نظرية تمس السلوك الأخلاقى بمتطلبات السياسة العملية. غير أن ديكارت لا يعترف للسياسة بأية نوعية حقة، أو نظام وضعى ثابت، حتى لتبدو السياسة فى أعماله، لا بمثابة مجال غريب عن علم الأخلاق، ولكن بمثابة مجال يبدى مقاومة ويمثل إشكالا فى صميم الأخلاق نفسها.

١ - «اليوطوبيا» السياسية، باعتبارها نظيرة للفلسفة

وهكذا فالمجال السياسى مدفوع بقوة خارج حقل الاهتمامات الفلسفية، وبالأحرى البحوث العلمية، ومع ذلك فهذا المجال يتخلله ضمنا ويمسه مسا غير مباشر خطاب هدفه المعلن عنه غريب تماما عن السياسة. وثمة مثال ممتع للغاية لهذا اللبس فى النصوص يتبدى فى كتاب «رسالة فى المنهج»[٥]: فإنكار الجانب السياسى يتمثل فيه بتأمل نقدى فى التماثل، مقتبس من علم السياسة، ومنتقى خصيصا لإثبات الضرورة الملحة لإصلاح المعرفة إصلاحا جذريا، وبالأخص لإيضاح أن هذا الإصلاح ليس إلا ثمرة مشروع فردى. هذا التماثل السياسى مستمد فى النص من المجاز المعمارى، الحاضر فى كل أعمال ديكارت، ويعتبر الفلسفة «عملا» يتوقف كماله على متانة الأسس (فالفلسفة عمارة مثالية حقة، أساسها فكر من تصورها) : «نرى من ذلك أن المبانى التى شرع مهندس معمارى واحد فى إقامتها، وأتم بناءها، تكون عادة أكثر جمالا، وأحسن تنظيما...»[٦] . وهكذا فإن ديكارت، فى غضون هذا التفكير التماثلى الطويل فى نزعته الخاصة، نزعة الفيلسوف، ومن ثم فى طبيعة مشروعه الفلسفى، ينتقل من صورة المهندس المعمارى إلى صورة المهندس المدنى الذى يصمم مدنا بأكملها، وينتهى أخيرا إلى النموذج الأصلى المثالى لمؤسس دولة. والمدن الجديدة التى

صممها مهندس واحد أكثر انتظاما وأقرب إلى الصواب من «المدن القديمة» التى يبدو أن الارتجال وحده هو الذى رسم خطتها؛ وكذلك فإن «الشعوب.. المتمدنة... شيئا فشيئا.. لا يمكن أن تكون محكومة حكما جيدا مثل الشعوب التى اتبعت منذ نشأتها دساتير وضعها مشرع حصيف»[٧]. ويرجع ديكارت، توضيحا لمقاله إلى «دولة الدين الحق» التى أسسها الله وحده؛ وفى مجال الحديث عن البشر، إلى أسبرطة التى تلقت منذ نشأتها من «ليكرج» دستورها الثابت[٨].

واعتبارا بهذا التماثل المزدوج، الحضرى والسياسى، يبدو لنا من الجائز أن نستخلص أن ديكارت يتطلع إلى مجتمع مثالى، على النمط «اليوطوبى» والاستبدادى الذى تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير، يسنها بصفة نهائية مشرِّع واحد. وبوضع هذا المجتمع فى سياقه التاريخى نجد أن المقصود فى الواقع هو نوع من الحكم المطلق المثالى العقلانى الراسخ آنئذ فى جميع أنحاء أوربا الذى يبدو أن بعض المدن المحصنة التى أقيمت فى ذلك العصر فى فرنسا[٩] تشكل نموذجا حضريا له. وقد يتبين لأول وهلة أن مفهوما «يوطوبيا» للسياسة مترابط مع العلم الديكارتى والمبادىء التى تكفل صحته؛ ذلك لأن العلم الحديث كما يتصوره ديكارت هو نوع من «اليوطوبيا»، ونظام مستقل قائم على الشخص المفكر، وأن اثبات صحته بالفكر عن طريق العلوم الرياضية يجعله فى مأمن من الأحداث، أسوة بالقوانين التى يسنها المشرع المثالى «اليوطوبى» والتى تتيح حفظ الدولة المثالية من كل ضروب التعديل، ومن ثم من كل ما يمسها من الناحية التاريخية[١٠]. ولقد يبدو على هذا الوجه مشروعا لمن قرأ «رسالة فى المنهج» أن ينظر نظرة ضيقة إلى هذه «اليوطوبيا» الفلسفية التى هى فى الواقع تمثيل لها، ومن ثم يخضع هذه السياسة ليوطوبيا العلم. بعبارة أخرى، هناك بالتأكيد ما يغرى بهذا التماثل، وبأن ينسب إلى المؤلف قصده فى ضم السياسة إلى العلم، والارتقاء خلسة بسيادة الفيلسوف السياسية.

غير أن ديكارت يهتم، بعد سطور قلائل، بمنع مثل هذه القراءة، فهو يرجع فى الواقع عن هذا التماثل فيؤكد أجمالا أنه من المستحيل استخلاص سياسة جيدة من العلم الحقيقى، وأنه لا يوجد فى مجال السياسة ما هو أكثر رداءة من «اليوطوبيا»؛ وباختصار أن الفلسفة والسياسة، مهما كانت ضروب التقارب بينهما، غير قابلتين للقياس[١١]. فاليوطوبيا «كشفية» باعتبارها من قبيل القياس، وتتيح الإسهام فى إعطاء العلم هذا النظام الجديد الذى يتخذه لدى ديكارت. الا أن ديكارت ينبه قارئه إلى أن «اليوطوبيا»، إذ تُرد إلى السياق السياسى الذى انبثقت منه، ليست سوى

حلم خطر وغير معقول. ويجب أن نفهم جيدا أن هذه الرجعة الحرجة ليست تقلبا أو انقباضا فى الرأى: ذلك أن ديكارت يحاول أولا أن يتدارك هنا خطأ فى القراءة، أى قراءة سياسية لكتاب «رسالة فى المنهج».

غير أننا قبل أن نبحث عن السبب فى أن الإصلاح الفكرى الذى يعتبر ديكارت نفسه الداعى له هو متعارض بالفعل مع الإصلاح السياسى (بالمعنى الأصلى الذى يقصده) لا يبدو لنا عدم جدوى الرجوع عن المهمة التى يشغلها القياس فى النص، إذ تبدو لنا - فيما وراء ديكارت - أنها توضح بعض الجوانب الأساسية للعلاقات التى يوثقها العلم الحديث منذ نشأته بالسياسة.

وفى بنية النص الديكارتى يتيح السياق عن طريق القياس «اليوطوبى» تقديم العلم على أنه «يوطوبيا»، وفى الوقت نفسه إبعاد السياسة خارج العلم، وخارج اليوطوبيا، فى المجال الحقيقى للممارسات الاجتماعية. غير أنه يحسن أن نلاحظ بذلك أنه فى سياق العملية «المقالية» التى تؤدى بديكارت إلى ذكر قواعد منهاجه التى تستخدم تعريفا جديدا للعلم على أنه ينطبق لا على مادة المعرفة، وإنما على موضوعها (انقلاب المعرفة الكوبرنيقى)، يلجأ ديكارت عمدا إلى نموذج سياسى، وبالذات إلى السياسة فى شكلها الأمثل، أى الأكثر بعدا عن السياسة التى تمارس بالفعل، كما يدل على ذلك القسم النقدى من النص[١٢]. إن مثل هذه الإشارة إلى اليوطوبيا، من نص يتناول نظام العلم الحديث، لا يمكن أن تكون عارضة، وتظل بلا أثر. فالرسالة الفلسفية تهيىء حيزا لليوطوبيا السياسية على أنها نظير صحيح للعلم، ومن ثم فهى إحدى النتائج المحتملة دائما للعلم، حتى ولو كان حيز اليوطوبيا السياسية فى النص الديكارتى قد طمس، وأنكر تحت ستار يوطوبيا العلم. وتبقى اليوطوبيا المرفوضة واحدة من الإسقاطات الكامنة فى العلم الديكارتى: أولا لأنها جزء لا يتجزأ من الأدوات الإسنادية التى تحصل فلسفة العلوم الحديثة من خلالها على تعريفها. اليوطوبيا، بعبارة أخرى، هى أسطورة من الأساطير التى أنشأت العلم. وما إن نشأ العلم حتى تبذ الصور والأوهام التى ولد منها (والنص الديكارتى مثال نموذجى لهذه الفكرة). الا أن اليوطوبيا تعود إلى الظهور، منتمية إلى التاريخ، على أنها مشروع سياسى يجد فى العلم مبررا له. ولما كانت اليوطوبيا -السياسية هى نفسها نموذج من نماذج العلم الناشىء فإنها بالتالى تتخذ العلم المنتصر نموذجا لها: وفى كل مرة ترجع اليوطوبيا إلى العلم لتحصل على إقرار بشرعيتها تجد نفسها خميرة نشيطة، وأسطورة مكبوتة للعلم الحديث. ويشهد بأسطورة العودة هذه كثرة ظهور اليوطوبيات السياسية ذات الأسانيد العلمية، منذ أواخر القرن السابع عشر، وبالأكثر

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[١٣]. هذا الجدل فى اليوطوبيا السياسية الذى يعود إلى الظهور عن طريق العلم الذى يمثل واحدا من نماذجه يؤدى بنا إلى التفكير فى أن الموقف الديكارتى الصحيح يتغيا أولا رفض اليوطوبيا، ومعها كل أشكال السياسة، على أنها نتاج العلم، هذا الجدل ليس الا نموذجا مثاليا للنزعة العلمية الحديثة. ذلك لأن يوطوبيا العلم الحقيقية ربما تتكون أولا فى إرادتها الخفية فى أن تحل محل السياسة، كما قد يوحى بذلك النص فيما كتبه ديكارت فى بعض النواحى. والعلم الحديث منذ نشأته يغذى الإدعاء بأنه يوفر سعادة الجنس البشرى، دون أية مساعدة من جانب السياسة، ولا من علم الأخلاق، وذلك بفضل تقدم التقنيات والعلوم الطبية. وديكارت شديد الفطنة، ويغض من شأن السعادة (من حيث إنها لا تتوقف الا على «أشياء خارج أنفسنا»؟ والسعادة التى توفرها منتجات العلم التقنية تنطبق تماما على هذا التعريف، لصالح «الغبطة» التى هى «راحة نفسية كاملة، وقناعة داخلية»[١٤]. ومع ذلك، وعلى مستوى العلم وحده، يظل فى الإمكان تفسير هذا الإنكار للسياسة. الذى يصحبه نشأة العلم، على أنه التعبير المخفف عن الرغبة فى تجاوز السياسة على أنها شىء قديم باطل، أو استيعاب السياسة وإذابتها فى التماثل الكمى لكليتها الرياضية[١٥]. فما حاجته إذن إلى التفكير فى السياسة والانشغال بها فى مملكة اليوطوبيا العلمية؟ إن ارتقاء يوطوبيا العلم يتزامن بالضرورة مع انتهاء السياسة، ولاشك أن هذا يمثل فى نهاية المطاف معنى للظهور المفاجىء، والمستبعد فى الحال، لليوطوبيا السياسية فى كتاب «رسالة فى المنهج» كنموذج للعلم، وبوجه أعم لفلسفة تتحول، فلسفة لابد من القول بأنها لا تبالى بالسياسة.

غير أننا، بعد أن أقدمنا، انطلاقا من هذه الفكرة القياسية لليوطوبيا السياسية فى النص الديكارتى، ومن العرض التاريخى للفكر العلمى على أنه يوطوبيا لنهاية السياسة، يتحتم علينا أن نحاول، فى النطاق المحدود للفلسفة الديكارتية، معرفة الأساس الذى يقوم عليه هذا الرفض للسياسة.

٢- لاسياسية الموضوع

يصر ديكارت قبل كل شىء على أن الإصلاح السياسى يشغل المجتمع بأسره، فلابد من ثمة أن يكون مشروعا جريئا وخطيرا للغاية، فى حين أن الإصلاح الفلسفى لا يشغل الا الفرد وحده، بغض النظر عن بيئته الاجتماعية السياسية، وباعتباره كائنا مستقلا، وحرا، وله عقل. وديكارت لا يصبو إلى تغيير علاقات الأفراد فى

نطاق الجماعة، ولكنه يريد تحويل صلته بنفسه تحويلا جذريا: «لم يتقدم قصدى البتة قبل أن أعمل على ترتيب أفكارى من جديد على قاعدة تخصنى بأكملها»[١٦]. ومشروع الإصلاح الفلسفى هذا محدود بالفرد وحده، ولا يقوم الا عليه: ويجب معرفة الأساس الميتافيزيقى الذى ينطوى عليه هذا الإصلاح، والذى يعمل ديكارت جاهدا على استخلاصه. وتجد الفلسفة الديكارتية مبدأها الأول فى النشأة الذاتية للشخص المفكر، وليس فى الإمكان فهم هذا التماثل بين الفكر وبين الكائن الا فى الشخص نفسه، فى تأمل الفرد فى ذاته: أنا أفكر، إذن فأنا موجود. إن مناقشة كل حقيقة متلقاة من الغير مناقشة منهاجية (هدم الأسوار المرتجة، أسوار السلطة والرأى العام) لصالح العقل الفردى وحده، هى المقدمة لتأسيس بنيان المعرفة تأسيسا ميتافيزيقيا.

الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان[١٧]، أمر غير مستطاع، اللهم إلا بغض النظر عن كيانه الاجتماعى: فلكى يمكن إدراك طبيعة الإنسان الحقيقية، وهى التفكير، يتعين البدء بعزله عن تلك العوارض التى هى بالنسبة إليه التاريخ، والسياسة، والتراث الثقافى، والحياة الاجتماعية، إى تخليصه من كل سمات المعايشة. فالإنسان الاجتماعى غير طبيعى من الناحية الميتافيزيقية، وغير جوهرى بالنسبة إلى الفرد المفكر. والآخرون فى رأى ديكارت «يعزلوننى غالبا عن نفسى»؛ إنهم يقيمون حاجزا بين الفرد وبين طبيعته العقلانية: ويعرف ديكارت الفكر المشترك الذى يبدأ بمناقشة المشروع الفلسفى بأنه استلاب الشخص فى الجماعة. وطريق المنهاج وحده هو الذى يؤدي حتما إلى الحقيقة.

وفى هذه الرؤية يتطلب ديكارت من قارئه تخصصا نقديا لفكره، هذا الفكر الذى يتيح له وحده اكتساب حريته الفكرية والخلقية[١٨]. وفى مستهل كتابه «البحث عن الحقيقة» يحدد يكارت على هذا الوجه هدفه، «أن يتيح لكل إنسان الوسائل الكفيلة بأن يجد فى ذاته، ودون أن يستعير شيئا من الغير، كل العلم الضرورى لهدايته فى حياته»[١٩].

وهكذا يبقى «الآخر»، ذلك الذى مثله الأعلى «أن لا يستعير شيئا»، فلا أرجع إليه الا إذا شئت: ذلك لأنى لست فى حاجة إليه لكى أكون موجودا، ولكن لكى أفكر فى أنى أفكر. وحتى إذا تقاسمت مع الغير شمولية العقل ولا نهائية الحرية (وهما شرطان لتبادل المعرفة، والممارسة الأخلاقية) فإن الغير غريب عنى من الناحية «الاونطولوجية» (علم الوجود): فكل إنسان «يستطيع وهو يفكر أن يستبعد من ذاته.. كل شىء آخر، يفكر، أو لا يفكر»[٢٠]. وفصل الأشياء المفكرة هذا يبدو لأول

وهلة أنه يجعل من المستحيل وضع نظرية متماسكة للعمل الجماعي الذي يجب - حتى ينمو ويتسع - أن يفرض - بمثابة مصادرة (مسلمة) - تعذر اختزال الكائن الجماعي إلى كائن فردي، وبعبارة أخرى يتطلب ذاتية متبادلة يمنعها بوجه خاص مفهوم الذاتية الديكارتية. فالشخص المفكر، إذ يتصور ذاته جوهرا منفصلا، ينقطع عن عالم البشر، كما ينقطع فضلا عن ذلك عن العالم الطبيعي[٢١]. وتفتح الميتافيزيقا الديكارتية بين الأفراد صدعا «أونطولوجيا» (خاصا بالطبيعة الأولية للوجود - المترجم) يجعل من المستحيل إنشاء نظرية خاصة بالعمل السياسي.

ولما كانت السياسة مجالا من المجالات التي تتداخل فيها الإرادات الحرة لدى الأفراد الغرباء بعضهم عن بعض فإن مصيرها في رأى ديكارت إلى غموض لا حل له، من وجهتي الاونطولوجيا وفلسفة العلوم: إنها هذا العالم، عالم «الظروف الخاصة»[٢٢]، العرضية، والاحتمالية، عالم الأحداث المسرحية[٢٣] الانقلابية والتاريخية التي لا تنتمي في غالبيتها إلى العقل، ولا صلة لها بأي علم.

وعلى ذلك فلنا أن نقدر كم ان الإصلاح الفردي، الميتافيزيقي والعلمي والأخلاقي الذي ورد ذكره في «رسالة في المنهج»، غريب عن علم السياسة، لا لأن الإصلاح الديكارتي عن طريق المنهاج «من أجل حسن التبصر، والبحث عن الحقيقة في العلوم»[٢٤]. ليس له هدف شامل، ولكن لأن شمول العلم هذا يطفو فوق ظروف الحياة الاجتماعية الواقعية التي تنزع إلى لا معقولية الطوارىء والعرف. ولما كان الأفراد مشتركين في اتباعهم دواعي العقل، ومن ثم في إدراكهم الحقيقة، فإنهم يجدون شخصيتهم الميتافيزيقية في «الحياة المدنية» حيث لا يتسنى للمرء أن يرتب أموره ليحسن التصرف الا عن تجربة، لا بالعقل، وحيث يكون «مرغما بالمخاطرة والخضوع لسلطة القدر»، ويكون الغير غريبا عنه[٢٥].

وفي هذه الرؤية يندد ديكارت بتلك «النزوات المشوشة والقلقة»[٢٦] التي يطيب لها أن تخطط إصلاحات اجتماعية وسياسية «طوباوية» (مثالية، غير عملية). فلو اهتم هؤلاء بالأحرى بإصلاح عقولهم المشوشة، وتهذيب أفكارهم، لكان في وسعهم بالتأكيد أن يتخلصوا من قلقهم. فإصلاح الذات إصلاحا يتيح اكتساب الحكمة والعقل هو وحده الكفيل بتوفير الطمأنينة والسعادة. بعبارة أخرى لو أصبح هؤلاء «الطوبويون» فلاسفة فإنهم سوف يهملون السياسة، ويجتهدون في متابعة المبدأ الأساسي الذي اتخذه ديكارت في كتابه «رسالة في المنهج»، وينصح فيه بالعمل دواما على أن يغير المرء رغباته بدلا من تغيير نظام العالم[٢٧]. وهذا عدول مطلق عن

كل ما لا يتوقف على إرادة الفرد وحده، مثل تقويم المجتمع. ذلك لأن الأخلاق الديكارتية فى مجال الإرادة تمجد تلك القدرة التى عندنا على رفض ما لا يتوقف امتلاكه علينا دون غيرنا، ولكن على ظروف خارجية؛ والسعادة الممنوحة للفرد عن طريق إصلاحات اجتماعية وسياسية هى بالتأكيد من هذا النوع[٢٨].

وممارسة الفلسفة ومراعاة الأخلاق الحميدة تبدوان هنا بنوع أساسى بعيدتين عن المشاغل السياسية[٢٩]، بل إنهما فى نهاية المطاف متعارضتان معها[٣٠]، فهذه المشاغل تتمثل فى اهتمامات فكرية تتجه نحو تنظيم الأفراد فى مجتمعات متحضرة، ورغبتهم فى العمل بجد على تحسين المدينة وتجميلها.

ويبدو واضحا من قراءة «رسالة فى المنهج» أنه لا يوجد فى رأى ديكارت أية صلة محتملة بين الفلسفة والسياسة، وبين إصلاح الذات وإصلاح المدينة، سواء كان إصلاح المدينة مشروعا جرى فى مخيلة واهمة أو أنفذه بالفعل رئيس دولة. على أن ديكارت لا يناقش مشروعية مهنة السياسة[٣١]، وأن من يمارسها قد دعاه إليها «نشأته» أو حتى «عامل الصدفة». وسوف نرى فى رسالته المطولة لماكيافيللى أنه يجتهد فى تبرير هذه المشروعية.

وفى موضع آخر[٣٢] لا يتردد ديكارت فى أن يستخلص من السلطة السياسية تقنين الأخلاق الاجتماعية، ومن ثم يصير موضوع الأخلاق من اختصاص الأمير.

ويتبين لنا فى هذا الانقطاع بين الفلسفة والسياسة احتمال وجود أزمة صامتة فى الفلسفة الديكارتية، حيثما تتبدى فيها صعوبة التوافق بين الحرية الخلقية (التأكيد الحر لذاتية الإنسان) وممارسة السلطة السياسية. فالحرية «الاونطولوجية» لدى الشخص المفكر، إذ تتعارض مع الاعتراف بكائن اجتماعى، فإن السياسة التى تستبعدها الميتافيزيقا تعود إلى الظهور أمام الفلسفة الأخلاقية كمشكلة داخلية حين تصطدم بالواقع السياسى.

٢ - تهذيب الخلق السياسى

لا يعترف ديكارت للسياسة بأية طبيعة استقلالية، وينتقد من وجهة نظر أخلاقية فلسفات هوبز وماكيافللى السياسية، وذلك فى بضع الصفحات التى خصصها لهما[٣٣]. ففى حين يجتهد ماكيافيللى فى استخفافه أن يصف العمل السياسى، فيجرى بالأخص تحليله على الأمير الذى ينشىء دولة بالقوة (ويرفض التمييز بين الاستيلاء الشرعى على السلطة وبين تملكها غير الشرعى)، يندد ديكارت بالرياء،

والخيانات، والجرائم التى تصاحب الممارسة المعتادة للسلطة، فهو يتبنى موقفا مزدوجا من نقد الماكيافيللية السياسية، والتبرير الأخلاقى للسياسة الماكيافيللية. إنه بعبارة أخرى يجرى تهذيبا أخلاقيا للسياسة، كما تتجلى فى كتابة الوزير الفلورنسى اللاذعة. وهكذا، فبينما هو يحتج على لا أخلاقية الأمير - لدى ماكيافيللى - إذا هو يجتهد فى أن يضفى شرعية أخلاقية على ضروب الظلم الصارخة التى ترتكبها السلطة السياسية.

والتضارب بين ديكارت وبين فلاسفة السياسة فى هذه النصوص هو أولا تضارب منهاجى وعقيدى، فديكارت يقابل المصادرة السياسية بأن الإنسان خبيث فى عقيدة ماكيافيللى وهوبز، يقابلها بالمصادرة الأخلاقية الخاصة بعدالة الأمير. وعلى هذا النحو يكون مقصوده ان يمنع كل تحرر سياسى، وأن يتدارك التهديد بعلاقة التبعية التى يرى أنها بطبيعة الحال تجعل السياسة تابعة للأخلاق.

١ - افتراض الخبث

فى بضعة السطور التى يكرسها ديكارت لـDe Cive ينعى على مؤلفه افتراضه أن «الناس خبثاء»، كما أنه «يستهجن» عند ماكيافيللى المبدأ السياسى الذى يعتبر أن «العالم كله فاسد» وبذلك يوصى الأمير بالخبث «كلما اقتضى الأمر ذلك»(٣٤). ولعل ديكارت يقصد بهذا أكثر من مجرد فرض، بل مبدأ حقيقيا يقوم على أساسه كل البنيان النظرى لدى هوبز، وكذا كل تحليلات ماكيافيللى الذى يعتبر فى الواقع خبث الإنسان بمثابة عقيدة راسخة(٣٥). وافتراضا «تكتيكيا» و «براجماتنا»: ففى رسائله عن العقد الأول لتيتى ليفى Discours sur la premiere decade de Tite live يصرح بأنه «من الضرورى لكل من ينشىء دولة ويسن لها قوانين أن يفترض أن الناس كلهم خبثاء، وأنهم دواما على استعداد لإظهار خبثهم كلما سنحت لهم الفرصة(٣٦). وما يصدق على الأمير الذى يريد إنشاء دولة. يصدق بالمثل على الفيلسوف الذى يريد وضع نظرية عن السياسة المتحررة من الإلهيات، ومن الأخلاق».

ويري هوبز أن الخبث الذى يمثل الطبيعة الهدامة فى الأهواء البشرية المنطلقة بذاتها (دون أن يكون فى المصطلح أية دلالة أخلاقية أو دينية) يؤدى دوره كمبدأ أنثروبولوجى(٣٧). فالخبث فى مذهب هوبز هو أول كل شىء فرض نظرى يتعلق بوضع الإنسان فى حالة الطبيعة، وضع يتميز بالحرب التى يشنها الجميع ضد الجميع، ولكنه أيضا حقيقة تجريبية، ويكفى لذلك ملاحظة سلوك الناس بعضهم مع بعض فى المجتمع المتحضر حيث تكون طبيعتهم العاطفية، رغم أنها خاضعة للسلطة الحاكمة،

طبيعة حاسمة.

وأخيرا فإن الخبث يغدو أمرا مجردا حين تنهار السلطة السياسية، وتنشب الحرب الأهلية. الخبث باختصار وباعتباره من طبيعة الإنسان فرض نظرى تثبته التجربة السياسية، ومن ثم يكتسب قوة المبدأ الأنثربولوجى.

ويرى ديكارت، من وجهة النظر الأخلاقية التى هى نظرية، أن التسليم بالخبث الطبيعى لدى الإنسان مبدأ «ردىء وخطر»(٣٨) من حيث إنه يبدى أسبابا وجيهة للازدراء بالأخلاق: فانعدام الأخلاق، كمبدأ نظرى، هو ضمان للفجور الحقيقى. وكما تأتى لهوبز أن يكتب بمزيد من «المديح والقوة» فى صالح النظام الملكى «اعتبارا بمبادىء فاضلة» كان حقيقا لماكيافيللى أن يبدأ بالتمييز بين «الأمراء الذين حصلوا على دولة بالطرق العادلة، وبين الأمراء الذين اغتصبوا دولة بوسائل غير مشروعة». ولانعدام التفرقة لدى الوزير الفلورنسى بين ما هو عادل وما هو جائر، بين الحق والقوة الغشوم، فإنه يذكر «مبادىء مستبدة للغاية» كالمبادىء التى تدعو إلى السطو، والخيانة، والنفاق. بعبارة أخرى يرى ديكارت أن الاستبداد ينجم عن اللامبالاة الأخلاقية لدى ماكيافيللى. وانعدام خلقه السياسى، فالسياسة لا يمكن أن تكون طيبة على حساب الأخلاق.

٢ - العدالة المفترضة لدى الأمير

يعتبر ديكارت إجمالا صواب تحاليل ماكيافيللى، والملاءمة «البراجمانية» لغالبية مبادئه. والحقيقة الفعالة(٣٩) للسياسة هى تلك التى وصفها ماكيافيللى: من يريد أن يحكم يجب أن لا يتردد فى استخدام الكذب والعنف، وأن يجمع بين «الثعلب والأسد»، ويقرن الدهاء بالقوة(٤٠). ومع ذلك لا يشغل ديكارت نفسه بنقد أخلاقى لآليات السلطة، ولا يضع نفسه موضع الرقيب على الأمراء، أو المزدرى إياهم، بل على العكس يجتهد فى أن يضفى شرعية أخلاقية على الظواهر السياسية التى يصفها ماكيافيللى، من قبيل اغتصاب السلطة، وقاعدة مداهنة الوزراء أو استغلالهم بلا حياء، وكلها أمور تبدو أنها تهبط بالأخلاق إلى مستوى النفاق(٤١). وفى حين يندد ديكارت بلا أخلاقية ماكيافيللى فإنه يعتنق واقعيته، ولكن بأن يحاول أن يجد لها معنى أخلاقيا. ولكى ينجح فى هذا السبيل فإنه يتبع النقيض المنهاجى لأصحاب النظريات السياسية بأن يفترض عدالة الأمير حيثمايرى ماكيافيللى وهوبز عملا

سياسيا بحتا يبرره فى نهاية المطاف طبيعة الإنسان العاطفية، أى خبثه الفطرى. «لتدريب أمير طيب، حتى ولو كان حديث عهد بالدولة، يبدو لى أنه يجب أن يفرض عليه مبادىء متعارضة تماما، ويفترض أن الوسائل التى استخدمها ليستقر كانت عادلة»(٤٢). ويطرح ديكارت، ضد ماكيافيللى، بمثابة مصادرة، أخلاقية الأمير، حتى ولو استولى هذا الأمير على السلطة عنوة. هذا الافتراض محير بلاشك، ولكن من الخطأ تفسيره بأنه مدح مقنع للقوة التى فضلا عن ذلك تقيم العدل فيما بعد. إن غايته، على العكس من ذلك، أن يؤكد أولوية الأخلاق فى كل مجالات العمل، بما فيها السياسة. ففى كل الظروف، كما يقول ديكارت فيما بعد، يجب على المرء أن يحاول أن يكون «إنسانا صالحا»(٤٣). أما ماكيافيللى فإنه يحاول على العكس من ذلك أن يثبت أن السياسة تملك قواعد خاصة بها، لا تخضع لسلطان الأخلاق. إن افتراض ديكارت هو – من ناحية ما – على النقيض تماما من مصادرة ماكيافيللى بخصوص فساد الناس. فماكيافيللى يلقن الأمير أنه لن يستطيع الاحتفاظ بمركزه دون ظلم وفساد. وأن عليه أن يفترض أن الناس كلهم خبثاء، إلى درجة أنه لو وجد إنسانا واحدا صالحا لكان من الضرورى أن يعامله كما لو كان خبيثا. أما ديكارت فإنه على العكس من ذلك يرى أن على مربى الأمير الجديد أن يفترض فيه العدالة، حتى ولو ثبت أنه كان ظالما حين استولى على السلطة بالقوة، ولعله تصرف فى الواقع ضد العدالة. فالتعليم الذى يمتدحه ديكارت تعليم أخلاقى للغاية لأنه يقدم للأمير صورة مثالية له هو نفسه، صورة تستبعد الظلم: فديكارت يعتبر الأمير كما ينبغى أن يكون بالفعل.

ويبدو لنا أن هذا الافتراض التعليمى يستنير بفكرة المروءة التى يعرضها ديكارت فى كتابه «اهواء النفس» والتى تبلور آخر موضوع فى أخلاقياته. فالمروءة هى النبل وسمو الأخلاق(٤٤)، ومن شأنها أن يحترم الإنسان نفسه بأسمى مراتب الاحترام المشروع(٤٥)، باعتباره إنسانا كامل الحرية. وتتمثل المروءة فى «العزم الوطيد الثابت على استخدام المرء إرادته استخداما طيبا(٤٦)، وبعبارة كانط بالنية الخلقية الصافية. أما ديكارت فإنه على العكس من ماكيافيللى (الذى يقول عنه إن بعضا من مبادئه ينقصها المروءة)(٤٧) يبدو أنه يضفى على الأمير، بالثقة التى يوليها إياه، مروءة طبيعية. ويختار، باعتباره مربيه أن يؤكد أخلاقية أعماله السياسية التى تتسم بالعنف والاغتصاب. وتتمثل أصول التربية الكريمة لدى ديكارت فى أن يحترم الأمير «الذى يتولى السلطة فى الدولة»(٤٨) كما ينبغى أن يحترم هو نفسه، ومن ثم

يدعوه لأن يظل عادلا، كما ترشده مروءة مربيه، أو أن يصير كذلك إذا أخطأ فعلا فى حق العدالة.

ومع ذلك يظل العمل السياسى الذى يتسم بالاغتصاب، وارتكاب «الجرائم الشنيعة»، أو إلقاء المسئولية الجنائية على الوزراء، وباختصار أعمال سياسية عديدة يسلم ديكارت بفاعليتها ومشروعيتها السياسية[٤٩]، تظل بهذا الاعتبار أعمالا جائرة، يصعب توافقها مع المروءة. فالواقع أن السياسة كما تبدو لديكارت من خلال قراءته لبعض أصحاب النظريات المحدثين، مثل هوبز وماكيافيللى، تواجه كل محاولة لتهذيب الأخلاق بمقاومة شديدة[٥٠]. وينتهى ديكارت بعقيدته المحافظة بابعاد ذلك الخطر الذى يتهدد كمال الأخلاق، وكذا استبعاد الإشكالات السياسية فى فلسفته، بأن يجعل من السياسة تطبيقا عمليا يختص به الملوك فقط، باعتبار أنهم يستفيدون من تدخل العناية الإلهية تدخلا مباشرا. والسياسة إذ تغدو مجرد «براجماتية» للسلطة، متأصلة بالحق الإلهى الممنوح لها، تستبعد نهائيا من العلم والفلسفة.

٣ - مصادرة السياسة

يذكر ديكارت مرة بعد أخرى أن السياسة امتياز للملوك مقصور عليهم، ولا يحق للأفراد أن يتدخلوا من تلقائهم فى شؤون الدولة، سواء بصفة الفاعل، أو مستشار الأمير، أو المراقب، أو واضع النظريات[٥١]. وفى رأى ديكارت وكثير من معاصريه[٥٢] أن هناك فجوة عميقة تفصل بين الملك ورعاياه (تفصل الدولة ويمثلها الملك عن المجتمع الذى يحكمه). السياسة يملكها الأمير، أما الرعايا، إذا لم يدعوا للمشاركة فيها، بحكم نشأتهم، وبطلب أميرهم، فإنهم يخضعون بالكلية لصاحب السياسة، وهم فى الوقت نفسه غرباء عنه[٥٣]. والسياسة مجال محجوز، ومحاط بأسرار الدولة، بعيدا عن حكم الأفراد، وفى منجي من الفلسفة. ولكن لا يعنى ذلك الإقرار لها باستقلال واقعى، أو منحها تفوقا حقيقيا على العلم والأخلاق. ومع أن السياسة وقف على الأمير فإنها ليست علما رفيعا، إنما هى على العكس مجرد أثر من آثار السلطة، ملحق بعلم الأخلاق. وعلى ذلك فإن ديكارت، وهو يحاول إضفاء الشرعية على الأعمال السياسية التى تبدو أكثر مخالفة للشرعية يكتب أن «العدالة بين الملوك لها حدود غير حدودها بين الأفراد»، ولا يقصد بذلك التأكيد بأن عدالة الملوك تختلف فى جوهرها عن عدالة الأفراد. إن لها فقط «حدودا أخرى». السياسة لا تفلت من الأخلاق، الا أن ممارستها تنطوى على نقل حدود الأخلاق العامة

وتوسيعها. وهكذا فإن الحكم بظلم الأمراء هو أولا خطأ في الرؤية، يتمثل في الحكم على السياسة من وجهة نظر علم الأخلاق الفردية، ووضعها في أطر الأخلاق الضيقة.

وتقتضي الوظيفة السياسية ارتكاب مخالفات للأخلاق العامة دون أن تكون من ثمة «عديمة الأخلاق» أو «لا أخلاقية». وعلى ذلك فالمصلحة العليا للدولة، التي يبدو أن ديكارت يشير إليها ضمنا مرة بعد أخرى في رسالته[٥٤] ليست متحررة من المصلحة الأخلاقية، إنها بديلها السياسي. ووظيفة الأمير، بخلاف الأفراد الذين لا يتصرفون الا في شؤون حياتهم الخاصة (وعلم الأخلاق لدى الفيلسوف لا هدف له سوى مساعدتهم على ذلك)، هي حكم الدولة، ويجب عليه في كل الظروف أن يأخذ في اعتباره مصالح الجماعة، لا الأفراد. الا أن أسرار الدولة لا يتسنى النفاذ إليها وتفهمها، ومن المستحيل على الأفراد الذين يجهلون الظروف والتفاصيل السياسية أن يعرفوا هل الأمير يعمل لصالح الجماعة أو ضد مصلحتهم. وديكارت، على نقيض ماكيافيلي الذي يؤكد في مقدمة كتابه أنه «لابد أن يكون للمرء وضع خاص حتى يعرف تماما مهمة الأمير»، ويؤكد (أي ديكارت) أن «البواعث الأساسية لتصرفات الأمراء هي في الكثير من الأحيان ظروف خاصة للغاية، حتى إنه إذا لم يكن المرء نفسه أميرا، أو شارك زمنا طويلا في أسرارهم، فإنه لن يستطيع أن يتصور هذه الأسرار»[٥٥]. وفي رأي ماكيافيلي أن وضع المراقب يتيح له بعد نظر وحيادا يصعب على وظيفة القائم بالعمل السياسي، إن لم يكن من المستحيل عليه أن يتصف بهما. فالمتخصص في العلوم السياسية يعرف من مشكلات السياسة أكثر مما يعرف عنها محترف السياسة. وعلى العكس. يعتبر ديكارت السياسة عويصة في نظر الأفراد. ولا قبل لهم بتحليلها. فمصلحة الدولة هي سر العاهل الذي يتصرف تبعا لمعطيات معقدة غير عادية، هو وحده الذي يعرفها.

يضاف إلى سر الدولة سريرة الأمير التي يستحيل كمبدأ معرفتها، والى تتيح الحكم بيقين على عدالة تصرفاته. ومصلحة الدولة (وتعني الأمير) ليست معصومة من الخطأ، فقد تضل، ومع ذلك تبقى صائبة. وقد يخفف الأمير في مشروعاته، ويعرض بلاده وعرشه للخطر، ويتصرف تصرفا يضر بالصالح العام، ويبقى مع ذلك غير ملوم من الناحية الأخلاقية، كما كتب ديكارت للأميرة أليزابيث: «إننا غير مسئولين الاعن أفكارنا، وعن صواب إرادتنا»[٥٦].

وأخيرا فإن هذه الأسرار. أسرار الدولة، و «ضمير الحاكم»، تشترك مع سر آخر، يسمو عليها، وتنبثق هي منه: ذلك هو السر الإلهي. والواقع أنه ليس بكثير على

الله أن ينشىء افتراض العدالة الذى يؤخذ به رغم تكذيب الوقائع حسب الظاهر. وفى رسالة ديكارت عن ماكيافيللى، يبنى ديكارت مصادرة (مسلمة) العدالة، عدالة الأمير المغتصب، يبنيها على الحق الالهى: «للعدالة بين الملوك حدود غير حدودها بين الأفراد، ويبدو أن الله فى هذه الشؤون يعطى الحق لمن يمنحهم القوة»[٥٧]. ففى هذه الشؤون، أى فى أعمال السياسة العليا التى تتصدرها إقامة الدولة، يكفل الإله عدالة الملك، وذلك حين يبدو أن السياسة تزدرى الأخلاق، وتتحرر منها. تتجلى السياسة على هذا النحو مجالا متميزا فى الاخلاق، يمنح الله فيه القوة والحق معا. بعبارة أخرى يتيح الرجوع إلى الله تخفيف العار الأخلاقى الذى تحدثه ممارسة السلطة السياسية التقديرية. ومع ذلك ينبغى أن نرى أن هذا الوضع الخاص لا يحرر السياسة تحريرا كاملا من الأخلاق: ذلك لأن المعيار الأخير لعدالة ما يظل هو نزاهة العاهل. ويبادر ديكارت بعد إشارته إلى الحق الإلهى فيضيف أنه مهما كان العون الذى يقدمه الإله للأمراء فإن «أكثر الأعمال عدالة تغدو أكثرها ظلما إذا أراد فاعلوها أن تكون كذلك». هذا القول المأثور يصح مع كل إنسان، ويوجه إلى الملك كما يوجه إلى أدنى رعاياه. وفى هذا يتأكد مرة أخرى تماثل السياسة والأخلاق. بعبارة أخرى لاتنتزع العناية الإلهية شيئا من الحرية المطلقة المتاحة للفاعل السياسى، وبالتالى من مسئوليته الأخلاقية. هذا التحديد للحق الإلهى يمنع فى السياسة كل فلسفة «ربوبية» (إلهية)، وكل تبرير لاهوتى للأخلاقيات السياسى: فإن استخدام ملك القوة التى منحها الله إياه فى التصرف بما يخالف ضميره (وتعطيه حريته المطلقة القدرة على ذلك) فإنه يخرج من الوضع القانونى ويغدو ظالما. وليس للأمير الحق فى استخدام قوته الا لنشر العدالة. وعلى ذلك لا نجد لدى ديكارت تلك الفلسفة «الكلبية» السياسية (التى تقول باحتقار العرف والتقاليد والرأى العام، والأخلاق الشائعة - المترجم) الى تميز نظريات «اكليروسية» الدولة[٥٨] (التى تقول بتدخل الإكليروس فى الشؤون الزمنية - المترجم): فليس للعاهل الحق الإلهى الا إذا أرضى الأخلاق السوية (إذا كان مدفوعا بالعدالة، و«صادق العزيمة»).

ومع ذلك فإن هذه العملية الثنائية، التى توسع مجال الأخلاق بما يوافق الأمراء، مع الاستعانة بالعناية الإلهية، إنما تنتزع السياسة نهائيا من تقدير الشعب، وتحريات الفيلسوف. وإذا ظهر الفيلسوف مسئولا عن أعماله من الناحية الأخلاقية فليست مسئوليته هذه أمام سائر الناس، ولكنها مسئولية إنسان أمام ضميره وحده، وأمام الله، حيثما ينبغى للملك أن يكون جديرا بالحق والقوة الممنوحين إياه.

ومن المهم أخيرا أن نبين أنه يمكن بهذا الرجوع إلى الحق الإلهى تقريب وضع

السياسة فى الفلسفة الديكارتية من وضع إشكالى أيضا، وضع العلم الاهوتى[٥٩]. فعلم اللاهوت باعتباره مجال الكشف (الإلهى) يخرج عن نطاق العقل، ويتبع نطاق الايمان، ومن ثم لا يمكن أن يكون موضوعا للمعرفة. وعلم اللاهوت ينم عن لا معقول ذى مكانة سامية، فالإله ليس بخاضع للحقائق الثابتة، وبالتالى ليسا خضاعا لقوانين العقل التى سنها بإرادته[٦٠]. والسياسة تتجاوز العقل، حينما يكون القائم بشؤونها - أى الأمير - هو بنوع ما ممثل الإرادة الإلهية فى تنظيم الناس فى شكل مجتمع ومع كل ذلك فالسياسة - وهنا يكمن ما فيها من غموض - تظل ممارسة تجريبية، دون العقلانية، من حيث إنها مجال الأحداث والوقائع والظروف الخاصة، حيث لا يمكن التصرف الا تمشيا مع ما هو راجح ومحتمل، وبمراعاة الفطنة والحذر، وفى غيبة كل يقين. والسياسة، بطابعها التجريبى، وإندراجها تحت الأسرار الإلهية الخفية، هى فى آن واحد شديدة الغموض، وشديدة الوضوح، ووضيعة ورفيعة للغاية، بدرجة لا يمكن معها ان تكون موضوعا لعلم، ويكون لها حق الانتماء إلى الفلسفة.

السياسة، إذ يحتجزها الأمير، والإله الذى يصدر عنه حق الأمير وقوته، وتتحول إلى تقنية من تقنيات السلطة تابعة لغايات أخلاقية، السياسة وهى مادة محترمة للغاية، وفى الوقت نفسه مهملة من وجهة نظر علمية، هى موضوع لا يمكن فى نهاية المطاف أن يقول المرء عنه شيئا، لا باعتباره من رعايا صاحب الجلالة، ولا باعتباره فيلسوفا.

جان بيير كافاييه
(المعهد الجامعى الأوربى، فلورنسا؛
معهد الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية باريس)

مذكرات

(١) رسالة فى المنهج (الأعمال الكاملة، آدم وتانرى، الجزء السادس، ص ١٥) «وإذا تراءى لى أن هناك فى هذا الكتاب أقل شىء يمكن أن يبعث على الشك فى وجود هذه الحماقة (الا وهى عرض إصلاح سياسى) لأسفت كل الأسف على نشر هذا الكتاب». وإلى اليزابيث، فى مايو ١٦٤٦ (من أعمال فردينان الكييه، الجزء الثالث، ص ٦٥٣): «... كنت على الدوام بعيدا كل البعد عن إدارة الأعمال، حتى لا أكون فى مثل وقاحة ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يلقن واجبات قائد جيش فى حضور هانيبال إن أقدمت هنا على كتابة المبادىء التى يتعين على المرء مراعاتها فى الحياة المدنية». وفى المرجع نفسه، فى سبتمبر ١٦٤٦ (FA III : 111) «..إنى لأستحق السخرية، إذا تراءى لى أن فى وسعى أن ألقن سموكم شيئا فى هذا الموضوع».

(١) Antonio Negri, Descartes Politico, o, della ragionevole ideologia, Feltrinelli, Milan 1970.

٣ - أتاح فكر ديكارت حديثا العديد من الأحداث السياسية. ونذكر فى المجال الفرنسى وحدة كتاب ب جوينانسيا P. guenancia : «ديكارت والنظام السياسى» (P.U.F.1983) حيث يتجلى ديكارت من بعض النواحى بمثابة رائد لحقوق الإنسان. راجع على سبيل المثال صفحة ٢٢٨: «لا مجال للشك فى ذلك، ففكرة المساواة التى تفترضها غالبية النظريات السياسية الحديثة ليست هى الفكرة النابعة من العقلانية، وبالأخص الديكارتية، والتي تصلح من ثمة لإعداد بروتوكولات للدفاع عن الحقوق الفردية والجماعية ضد تعديات السلطة السياسية».

وفى اتجاه مقارب كتب ف. جورج F. Gearges («تأكيد الفكر» مقال ظهر فى صحيفة «حرية الفكر» عدد اكتوبر ١٩٨٤، بالان Balland ، ص ٤٦)، كتب ما يلى: «تخبرنى المؤسسة عما يوجد فى خارجى، وتعلمنى ما ينبغى أن أصدقه فى هذا الخصوص. إنها مسئولة عن الحقيقة، وتضمن الملاءمة، وحسن الإدراك... وتقوم على استبعاد «الكوجيتو» اما بيليجرين B.pelegrin فإن له رأيا مخالفا تماما فى:

Figures du Baroque, Colloque. de Cerisy, P.U.F. 1983, p.21 فهو يهاجم «غضب» و «مفاسد» مذهب ديكارت، ويرعد ويبرق بعنف وبسطحية ضد «القاعدة الاعتباطية»، ذات النية الحسنة المخيفة، والتى تشك فى

كل شيء فيما عدا الذات (العقل هو أنا، إذن فأنا على صواب)، هذه القاعدة التى وضعتها كمبدأ للحكم سلطة مركزية مطلقة متمسكة بامتيازاتها، وتواظب على التحكم فى العقليات».

(٤) إلى اليزابيث، فى ٤ أكتوبر ١٦٤٥ (FA III 619) : «اعترف بأنه من العسير أن نقدر تقديرا صحيحا إلى أى مدى يقرر العقل أن نهتم بالشعب»، وإلى اليزابيث أيضا فى ١٥ سبتمبر ١٦٤٥ (FA III 607): «...إذا كان إنسان يساوى بذاته وحده أكثر مما تساوى بلدته كلها، فلا حق له فى أن يضحى بنفسه فى سبيل انقاذها»

(٥) AT VI 11 - 15.

(٦) المرجع نفسه، ١١.

(٧) المرجع نفسه ١١ - ١٢.

(٨) المرجع نفسه ١٢.

(٩) انظر أ. جلسون: F Gilson «مذكرات وتعليقات على: رسالة فى المنهج» Vrin, 1967 ص ١٦٢. وبخصوص هذه الفقرة DM انظر أيضا جويناتسيا Guenancia, المصدر نفسه ص ٤٤ - ٤٨.

(١٠) فى خصوص السمات العامة لليوطوبيا السياسية، راجع ج. لابوج: اليوطوبيا والحضارة: G.Lapouge, Utopie et Civilisation, Weber, Paris 1973.

(١١) AT VI 14 - 15.

(١٢) AT VI 13: «حقا، إننا لا نشهد البتة من يهدم كل بيوت مدينة ما، بقصد واحد، أن يبنيها بشكل آخر؛ «وفى صفحة ١٤»... إنها (أى عيوب «الهيئات السياسية الكبرى») دائما محتملة، وأفضل من تغييرها...».

(١٣) قارن لابوج G. Lapouge ، المرجع السابق ذكره.

(١٤) إلى أليزابيث، فى ١٤ أغسطس ١٦٤٥ FA III 587 - 588.

(١٥) راجع مشروع اللغة العالمية لعام ١٦٢٩ (٢٠ نوفمبر FA I) الذى علقه ديكارت على ظهور الفلسفة الحقيقية، واعتبره ممكنا، ولكنه بعيد الاحتمال. والواقع أنه ما إن أعلن عن هذا المشروع حتى استبعدته الحصافة الديكارتية واعتبرته من نسخ الخيال، «يقول ديكارت: «يجب أن لا يكون العالم بأسره سوى فردوس أرضى، وهذا لا يصبح الا فى بلد الأقاصيص». غير أنه من المفترض هنا، تبعا لإنكار اليوطوبيا، أن الإقرار العالمى للفلسفة الحقيقية لابد أن يحول

عالم البشر إلى جنة، إلى مجتمع فردوسى، فى صورة هذه اللغة المستوحاة من الرياضة العالمية: فالمجتمع المثالى، مجتمع العلم، يوطوبيا العلم التى تحققت، هى يوطوبيا مجتمع بلا سياسة. وفى خصوص لغات اليوطوبيا، راجع: A. Pons, Critique, n° 387 - 388, août - sept. 1979.

(١٦) DM AT 15.

(١٧) انظر عنوان الكتاب البديع لألكييه: «الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت» F. Alquie: La Decouverte metaphysique de L'homme chez Descartes, P.U.F. 1966.

(١٨) «البحث عن الحقيقة»: DM At 4; Recherche de la verite, FA II 1139.

(١٩) FA II 1106.

(٢٠) «مبادىء الفلسفة» - Principes de la philosophie, I art. 60, III FA III 128.

(٢١) وفى الحركة ذاتها، يقطع الإنسان الحديث صلاته بالطبيعة وبالغير؛ وباختصار، قد أهملت التعريفات الأرسططالية للإنسان على أنه حيوان «عاقل»، وكائن حى سياسى (Zoon Politikon). إن فصل الفكر عن الجسم، فضلا ميتافيزيقيا يعنى انتزاع الفرد من بيئته الاجتماعية السياسية، فالحقيقة أن الغير كان حاضرا فى جسمى أول الأمر حضورا جوهريا.

(٢٢) إلى اليزابيث، سبتمبر ١٦٤٦، FA III 670

(٢٣) هذا المجاز للمسرح العالمى: (Preambules FA I 45, DM AT VI 28; passions de l'ame, art. 147).

وهو موضع مشترك لثقافة الباروك والكلاسيك، يولد لدى ديكارت مفهوما سلبيا عن السياسة. «فأنا فى عالم البشر، ممثل على مسرح». فالروابط الاجتماعية وهى ليست جوهرية للموضوع الميتافيزيقى، غريبة عنه، وتصدر عن الخيال، مثل أداء الممثلين على المسرح.و «الذاتية» حاضرة فى مشهد العالم، وتشترك فيه، ولكنها لا تظهر فيه أبدا جهارا، بوجه مكشوف. ثم كيف يتأتى لها ذلك، مادام من طبيعتها أن تكون منفصلة عن كل شىء، وعن الجميع، فى عزلتها الداخلية الصافية؟ فى البند ٢٠٦ من كتاب «اهواء النفس» Passions de l'ame ينصح ديكارت باتباع «آراء الشعب الكاذبة» فيما يتعلق «بظاهر أعمالنا». والسياسة هى ذلك المجال الخارجى للأعمال: المجال المسرحى. والمجال الخارجى يصدر عن المجال الداخلى الأخلاقى (فهو أثر من آثار الارادة الحرة

للإنسان العاقل)، ولكن قسما كبيرا (من المجال الخارجى) يفلت منه، حين يظل الآخر مختلفا اختلافا جوهريا. وفى المسرح تتجلى حرية الإنسان المفكر، الا أن أفعاله تبقى غريبة عنه. أفعالى، فى الحقيقة الواقعة، تصبح أفعالا أخرى، تصبح من قبيل ما يفعله الآخرون، بل تصبح أفعال الآخرين، ولم تعد تنتمى الىّ، إنها تدخل فى التاريخ (إننى أدخل فى التاريخ، باعتبارى شخصية، على أكثر تقدير). والسياسة هى مسرح الأخلاق، ولكن فى الرؤية الديكارتية لا يعنى ذلك أن تعرّف السياسة على أنها المكان الذى تتم فيه الأخلاق وتتحقق، ولكنها المكان الذى تضيع فيه (الأخلاق)، وتصير أوهاما لا تتحقق، حيث تصير مظهرا بين المظاهر، حسب الإثبات «الاونطولوجى» للحرية.

٢٤ - العنوان الكامل لكتاب «رسالة فى المنهج».

٢٥ - راجع: إلى اليزابيث، مايو ١٦٤٦ (F.A III 654) : من الأفضل الاعتماد فى ذلك على التجربة، لا على العقل، إذ قلما يتعامل الإنسان مع أشخاص ذوى عقول راجحة...».

راجع أيضا .DM 14

٢٦ - DM 14

٢٧ - DM 25.

٢٨ - DM 26 : «... لنفكر فى كل الأموال التى ليست لنا على أنها كذلك بعيدة عن قدرتنا...».

راجع ن. جريمالدى N. Grimaldi : «تجربة الفكر فى فلسفة ديكارت»: L'Experience de la pensee dans la philosophie de Descartes, Vrin, p.204 - 211. «تتمثل ممارسة هذه القاعدة الثالثة إذن فى أن نواجه رفضا نهائيا لما قدمناه.

٢٩ - وهكذا لا يتردد ديكارت فى أن يصرح بشىء من العنف لكريستين ملكة السويد فى ٢٠ من نوفمبر ١٦٤٧ :(F.A III 747) «ولكن فيما يخص ثقتى بأن جلالتك تهتمين بالفضيلة أكثر من اهتمامك بالعرش، فإنى لا أتردد هنا فى القول بأنه لا يبدو لى أن هناك شيئا خلاف هذه الفضيلة التى امتدحها الكافة بحق».

٣٠ - مجمل القول أن الأمير، وهو على أية حال «أمير» ماكيافيللى، يستحق «الشفقة» كما كتب ديكارت لاليزابيث (أكتوبر - نوفمبر ١٦٤٦) بعد أن أسرت إليه أنها تفضل «حالة أفقر فلاح فى هولندا» على حالة هذا الأمير أو وزرائه. الا

أن كلا منهما يعترف بأن الأمراء كلهم ينزعون إلى التصرف كما ينصح به ماكيافيللى، على وجه التقريب. وفى هذا فصل بين الأخلاق والسياسة، ويبدو الأمير أخيرا شبيها بمن تقوم وظيفته السياسة عائقا لرصانته الأخلاقية.

٣١ - وكما يقول ن. اوكيوهان N. O'Keohane (الفلسفة والدولة فى فرنسا، مؤسسة نشر جامعة برنستون، ١٩٨٠. ص ٢٠٣) إن من رأى ديكارت أن «السياسة هى من شأن الملوك، لا الأفراد». وفى هذه النقطة يتفق فكر ديكارت مع فكر «الأحادية المطلقة» (أو الحكم المطلق) ,absolutisme وما يقصده لويس الرابع عشر بعبارة «مهنة الملك» (انظر) مذكراته فى تعليم ولى العهد).

٣٢ - خطاب إلى شانو ,Chanut سفير فرنسا فى السويد (FA III 749) :
«... ليس من حق أحد، سوى الملوك، ومن يرخصون لهم، أن يشترك فى تهذيب عادات الآخرين وأخلاقهم. والملاحظ أن ديكارت يرى إذن أن الهيئات الدينية لا يجوز لها أن تتدخل فى التربية الأخلاقية للشعب، على الأقل بمبادرتها الشخصية. وهذا الطابع العلمانى للأخلاق يتوافق تماما مع روح الفلسفة الديكارتية الا أنه يبدو أن كون الملوك، أى السلطة السياسية، هم الذين يضطلعون بهذه المهمة، يتعارض مع الفكرة الديكارتية الخاصة باستغلال الأخلاق ويقلب علاقة التبعية التى تجعل السياسة تابعة للأخلاق. ويجب دون شك التمييز بين العادات والأخلاق، وبين أعراف (تقاليد) مجتمع ما وبين واجبات الأفراد الأخلاقية، الشىء الذى لم يفعله ديكارت فى هذا النص: والسلطة القانونية التى للملك لا تتعلق الا بالأمور الأولى (أى عادات الشعب وتقاليده)، أما الفيلسوف الذى يعالج الأخلاق بتعمق فلا يتسنى له من ثمة أن ينافس الأمير. ولكنه يبدو بخاصة، عند قراءة هذه السطور أن الأخلاق الديكارتية، ولو أنها ديموقراطية فرضا (لأن على كل إنسان أن يعمل على الفوز باستقلاله)، فإنها مازالت أخلاقا أرستقراطية: فأصحاب النفوس الكبيرة هم أصحاب المروءة، ومن واجب السلطة السياسية أن تعطى الأفراد الآخرين، الذين يراعون التقاليد دون أن يسموا بها أخلاقيا، قواعد جيدة للسلوك الحسن.

٣٣ - لم يذكر إلا القليل من الملاحظات عن «دو سيف» لهوبز De Cive de Hobbes (Au p 1643? FA III 61) ولكنه أفرد، على العكس من ذلك، رسالة مطولة عن «الأمير» ماكيافيللى (إلى أليزابيث، فى ١٦ من سبتمبر ١٦٤٦، (FA III 665 - 671. ويعود أخيرا بإيجاز إلى ماكيافيلى فى رسالة لاحقة حيث ينوه بقراءته ال Discorei (إلى أليزبيث، أكتوبر - نوفمبر ١٦٤٦،

(FA III 680 - 681

٣٤ - على التوالى، إلى .P (انظر البند السابق) والى أليزابيث:
(FA III 669,citation du ch. 15 du prince)

٣٥ - يذكر ماكيافيللى هذا الرأى مرارا وتكرارا. انظر على سبيل المثال كتابه «الأمير» (Gallimard, "Pleiade", ch. XVII, p. 339) : الناس «جاحدون، ومتقلبون، وكتومون.. الناس خبثاء».

٣٦ - Discorsi, LI ch III

٣٧- انها تلك النزعة الطبيعية لدى الناس، التي تجعلهم يلحقون الأذى بعضهم ببعض
(De Cive, I ere section).

٣٨ - إلى FA III 61, p

٣٩ - لمراجعة أحد المفاهيم الرئيسية فى الأنترولوجيا السياسية لدى ماكيافيللى، انظر «الأمير» (pleiade 335) ch. XV du prince.

٤٠ - FA III 667 يرجع ديكارت إلى المبدأ الماكيافيللى (ch. XVIII du prince, pleiade 341) ويستخدمه لنفسه، مع قصر تطبيقه على الأعداء فقط: «يجب أيضا التفرقة بين الرعايا، والأصدقاء أو الحلفاء، والاعداء، ذلك لأنه بالنسبة إلى هؤلاء الأخيرين يباح للمرء أن يفعل بشأنهم كل شيء...

٤١ - «الأمير» (pleiade 342) ch. XVIII : «ليس من الضرورى إذن لأى أمير أن يتصف بكل الخصال الحميدة... ولكن ... ينبغى أن يبدو كأنه يتصف بها».

٤٢ - FA III 666

٤٣ - يعرف ديكارت فى رسالته الرجل الصالح كما يأتى (ص ٦٦٩): «إنه ذلك الذى يفعل كل ما يمليه عليه العقل الراجح...» والعقل الراجح هنا له المعنى الأخلاقى الخاص الذى يقصده ديكارت فى ذلك الحين. انظر رسالته إلى اليزابيث فى أول سبتمبر ١٦٤٥ (FA III p. 602) «مهمة العقل الحقيقية تتمثل فى البحث عن القيمة الصحيحة للأشياء النافعة الي يتوقف الحصول عليها بنوع ما على سلوكنا». وبخصوص مختلف تعريفات العقل عند ديكارت، انظر:
Alquie, op.,cit, p..326 - 329.-

٤٤ - PA art. 161

٤٥ - Ibidm., art. 153 فى الموضع نفسه.

(٤٦) Ibid.

(٤٧) الخطاب الثانى (FA III 681) .«البارع» Virtuoso الماكيافيللى، من وجهة النظر هذه قد يبدو بمثابة الصورة المناقضة لصاحب المروءة genereux الديكارتى: فهو، فى نطاق الأخلاق عند ديكارت، شخص يتصف بزهو (خيلاء، غطرسة، عجرفة،.) مفرط؛ والزهو هو ذلك الهوى الفاسد (المعيب) لدى أولئك الذين يقدرون أنفسهم تقديرا تغذيه الرغبة الجشعة فى الاستمتاع بالأموال التى لا يتوقف الحصول عليها على ارادتهم وحدها. والمتعجرفون هم «أولئك الذين يبذلون ما فى وسعهم للحط من قدر الآخرين، وهم عبيد رغباتهم... وبذلك تجيش نفوسهم دواما بالحقد، والحسد، والغيرة، والغضب» (PA art. 157) . ويبدو لنا أن تحليل الزهو (العجرفة) هذا ينطبق على «البارع» الماكيافيللى، كما يبدو على أية حال فى ضوء النقد الذى يوجهه ديكارت «للأمير». إن الزراية بالغير، وافتراض خبثه يؤديان بطبيعة الحال إلى السخرية (الكلبية) السياسية، والطغيان.

(٤٨) FA III 666

(٤٩) FA III 668

(٥٠) راجع هـ جوييه H. Gouhier : «المذهب الانسانى الجديد فى رأى ديكارت والسياسة»-- (in Cristianesimo e Ragion di Stato: Atti del Secondo Congresso Internazionale di Studi Umanistici. fratelli Bocca . Rome - Milan (1953: «يفشل المبدأ الأخلاقى لضرورة واقعية ص ٨٤).

(٥١) DM AT VI 13 - 14 ؛ إلى اليزابيث، فى مايو ١٦٤٦، FA III 653. وإلى اليزابيث، فى سبتمبر ١٦٤٦، FA III 670

(٥٢) راجع ن. اوكيوهان N.O' Keohame ، المرجع السابق، فصل ٨: «نظرية الحكم المطلق التقليدية، ومهنة الملك»

(٥٣) من المسلم به أن مثل هذا الانفصال، والاحتجاز للسياسة ينتميان بنوع خاص للمذاهب الاستبدادية (المؤيدة للحكم المطلق)

(٥٤) FA III 669

(٥٥) FA III 668

(٥٦) إلى اليزابيث، فى سبتمبر ١٦٤٦، FA III 612

(٥٧) إلى اليزابيث، فى سبتمبر ١٦٤٦، FA III 666

(٥٨) راجع ب – ميسنار: - P. Mesnard, Barbosa Homem et la conception baroque de la raison d'Etat (in Cristianesimo e Ragion di Stato, op. cit).

(٥٩) راجع هـ. جوييه H.Gouhier «الفكر الديني عند ديكارت» (Vrin 1979) وبخاصة صفحة ٢١٧. انظر أيضا أرموجات J.R. Armogathe «اللاهوتي الديكارتي».

- Theologia Cartesiana (Nijhoff, La Haye, 1977).

انظر أيضا ماريون J.L. Marion "اللاهوت الأبيض عند يكارت:

- la Théologie blanche de Descartes (P.U.F., 1981).

(٦٠) – مذهب خلق الحقائق الأبدية. راجع: رسائل الربيع:

- lettres du printemps 1630, FA 111 254-269.

التعريف بالكتاب

رولاند فيشر الأستاذ السابق للعلاج النفسى والصيدلة (جامعة جورج تاون، وجامعة جورج واشنطن ومدرسة جون هوبكينز الطبية). من بين الكثير من انتاجه فى مجال العلاقات بين العلوم فى مجلة: Prespectives in Biology and Medicine, 8,1965 ومجلة Secience, 174, 1971.

جان هامبورجر من مواليد عام ١٩٠٩. يعمل أستاذا للطب فى جامعة باريس ورئيس قسم أمراض الكلى فى مستشفى نيكر. ومدير معمل بحوث المناعة وعضو المعهد الفرنسى (أكاديمية العلوم الفرنسية). ولقد ترجم كتابه: إلى أربعة عشر لغة.

خوان لسكانو من مواليد كارا كاس سنة ١٩١٥. مدير خدمات البحوث الوطنية فى الفنون الشعبية، ومؤسس مجلة Zona Franca ، ومدير دار نشر مونت أفيلا من ١٩٨٠. إلى ١٩٨٤ ثم مديرا لمطبوعات ماندورلا.

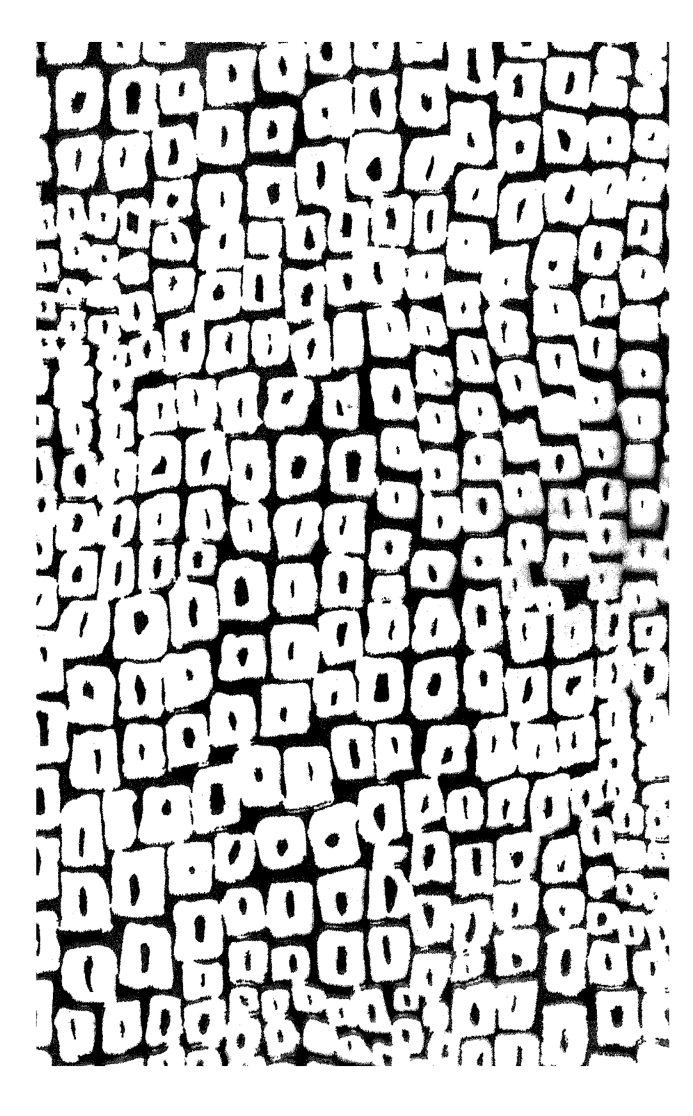
جيان أودوزى من مواليد عام ١٩٤٠، يعمل رئيسا للبحوث فى المركز الوطنى للبحوث العلمية، ويدير هذا المركز. ويعمل فى معهد الطبيعيات الفلكية بباريس ويدرس فى المدرسة الفنية. مؤلف (أو مشترك فى تأليف) عدة كتب منها الكون اليوم، والأطلس الفلكى الكبير (دائرة معارف العالم) والطبيعيات الفلكية النووية، ومقدمة

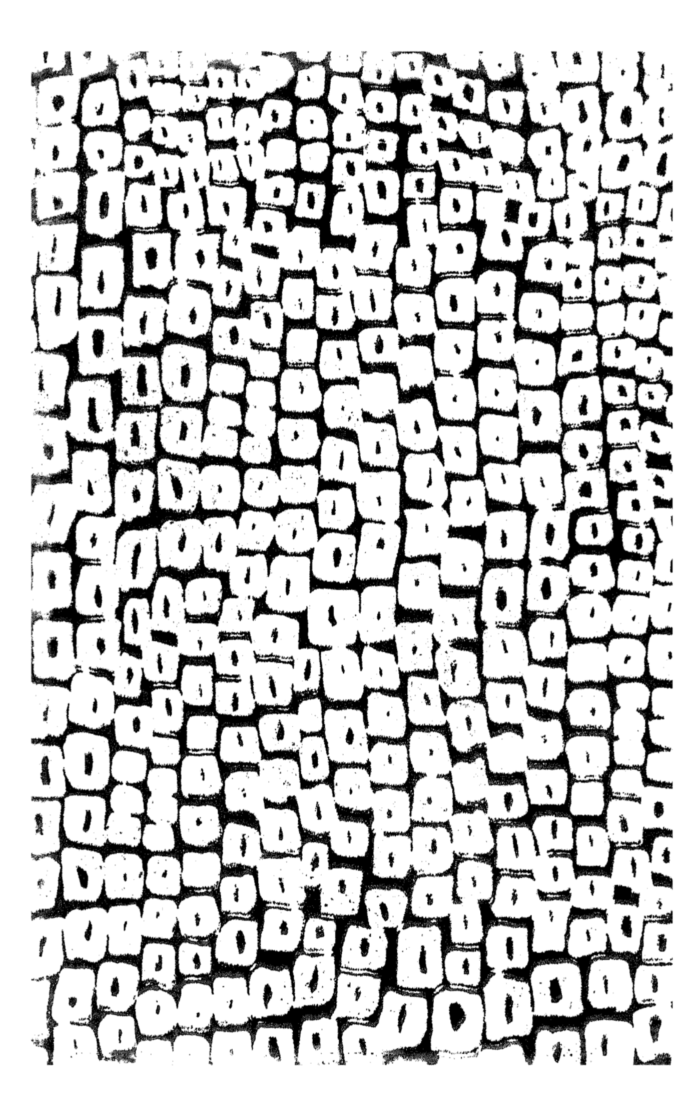
فى الطبيعيات النووية الفلكية..إلخ.

لويس بيك من مواليد عام ١٩٢٦، قام بدراسة علم الاقتصاد وعلم الاجتماع والعلاقات الدولية فى الجامعة الكاتوليكية فى لوفين بباركلى عمل استاذا فى جامعة لوفانيوم (كينشاسا). له مؤلفات عديدة (باللغة الهولندية) حول التنمية الدولية، وتاريخ الفكر الاقتصادى منها كتاب: أوربا محاطة بأمريكا، والقوة المضادة.. وغيرها.

ألكسندر كينيث كيلى من مواليد عام ١٩٤٠، حاصل على درجة العالمية فى الاقتصاد، أستاذ بجامعة ريجينا فى سسكتشوان. متخصص فى النظرية الاقتصادية واقتصاديات النقود. وله اهتمامات بالمسائل الدولية (مستشار الاتحاد الهندى فى سسكتشوان) له مقالات حول الحسابات المالية. وكتاب الاقتصاد ومبادئه تطبيقاته.

جان بيير كافاييه Jean-Pierre Cavaillé: ولد عام ١٩٥٩، باحث في المعهد الجامعى الأوربى، فلورنسا، ومعهد الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية، باريس. إخصائى فى فلسفة القرن السابع عشر وثقافته، نشر مقالات متنوعة في فلسفة ديكارت، وكذا فى ثقافة الباروك الأوربية.







Bibliotheca Alexandrina
0536997